بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة مريم هي مكية وآياتها ثمان أو تسع وتسعون آية)

قال ابن عباس أنزلت بمكة وعن ابن الزبير وعائشة مثله وفي البيضاوي الا آية السجدة وفي الجلالين الا سجدتها فمدنية أو والا فخلف من بعدهم خلف الآيتان وأخرج أحمد والبيهقي وابن أبي حاتم عن أم سلمة ان النجاشي قال لجعفر بن أبي طالب هل معك مما جاء به يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله شيء قال نعم فقرأ عليه صدرا من كهيعص فبكى النجاشي (١) حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ثم قال النجاشي أن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة وقد ذكر ابن اسحق القصة بطولها وقد تقدم في الجزء الاول من هذا التفسير ان أسماء السور وترتيبها وترتيب الآيات توقيفي ولم تذكر امرأة باسمها صريحا في القرآن الا مريم فذكرت فيه في ثلاثين موضعا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(كهيعص) قال ابن عباس كبير هاد أمين عزيز صادق وعن ابن مسعود وناس من الصحابة هو الهجاء المقطع الكاف من الملك والهاء من الله والياء والعين من العزيز والصاد من المصور وعن أم هانئ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال كاف هاد عالم صادق وعن علي كان يقول يا كهيعص اغفر لي وعن السدي قال كان ابن عباس يقول

(تفسير سورة سبحان وهي مكية)

قال الامام البخاري حدثنا آدم بن أبي أياس حدثنا شعبة عن أبي اسحق قال سمعت عبد الرحمن بن يزيد سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني اسرائيل والكهف ومريم انهن من العتاق الاول وهن من تلادي وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد بن زيد عن مروان عن أبي لبابة سمعت عائشة تقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم وكان يقرأ كل ليلة بني اسرائيل والزمر

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) يمجد تعالى نفسه ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا اله غيره ولا رب سواه الذي أسرى بعبده يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ليلا أي في جنح الليل من المسجد الحرام وهو مسجد مكة الى المسجد الاقصى وهو بيت المقدس الذي بايلياء معدن الانبياء من لدن ابراهيم الخليل عليه السلام ولهذا جمعوا له هنالك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم فدل على انه هو الامام الاعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه

(١) اخضل الشيء اخضلالا واخضوضل أي ابتل اهـ صحاح والاسقف رئيس من رؤساء النصارى في الدين والجمع أساقفة اهـ

وعليهم أجمعين وقوله تعالى الذى باركنا حوله أى فى الزروع والثمار لنريه أى محمدا من آياتنا أى العظام كما قال تعالى لقد رأى من آيات ربه الكبرى وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الاحاديث عنه صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى انه هو السميع البصير أى السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم مصدقهم ومكذبهم البصير بهم فيعطى كلا منهم ما يستحقه فى الدنيا والآخرة *(ذكر الاحاديث الواردة فى الاسراء)* رواية أنس بن مالك رضى الله عنه قال الامام أبو عبد الله البخارى حدثنى عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان هو ابن بلال عن شريك بن عبد الله قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى (٣) برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الانبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره الى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوا ايمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعنى عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به الى السماء الدنيا فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا فقال جبريل قالوا ومن معك قال معى محمد قال وقد بعث اليه قال نعم قالوا فمرحبا به وأهلا يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الارض حتى يعلمهم فوجد فى السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلم عليه ورد عليه آدم فقال مرحبا وأهلا يا بنى نعم الابن أنت فاذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به فى السماء فاذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فاذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك ثم عرج به الى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الاولى من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قالوا وقد بعث اليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا ثم عرج به الى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الاولى والثانية ثم عرج به الى السماء الرابعة فقالوا له مثل

فى كهيعص وحم ويس وأشباه هذا هو اسم الله الاعظم وعن ابن عباس هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله وقال قتادة هو اسم من أسماء القرآن وقيل هو اسم السورة وعن الكلبى هو ثناء أثنى الله به على نفسه وكما وقع الخلاف فى هذا وأمثاله بين الصحابة وقع بين من بعدهم ولم يصح مرفوعا فى ذلك شئ ومن روى عنه من الصحابة فى ذلك شئ فقد روى عن غيره ما يخالفه وقد يروى عن الصحابى نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة فى هذه الفواتح فلا يقوم شئ من ذلك حجة بل الحق الوقف ورد العلم فى مثلها الى الله سبحانه ولذا قال فى الجلالين الله أعلم بمراده بذلك وفى الخطيب انه من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه وقد قدمنا تحقيق هذا فى فاتحة سورة البقرة (ذكر) أى هذا ذكر أو المتلو ذكر وقيل انه خبر الحروف المقطعة وهو قول يحيى بن زياد قال أبو البقاء وفيه بعد وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أى فيما يتلى عليك ذكر قال الزجاج المعنى هذا الذى نتلوه عليك ذكر (رحمة ربك) مضاف لفاعله ومفعوله (عبده زكريا) يعنى اجابته اياه حين دعاه وسأله الولد قيل عبده مفعول للذكر ومعنى ذكر الرحمة بلوغها واصابتها كما يقال ذكرنى معروف فلان أى بلغنى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال كان زكريا نجارا أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه وعن ابن مسعود قال كان آخر أنبياء بنى اسرائيل زكريا بن آزر بن مسلم من ذرية يعقوب (اذ نادى ربه) ظرف زمان للرحمة أى رحمة الله اياه وقت ان ناداه (نداء) مشتملا على دعاء (خفيا) سرا جوف الليل لانه أسرع الى الاجابة واختلف فى وجه كون ندائه هذا خفيا فقيل لانه أبعد عن الرياء وأقرب الى الصفاء وقيل اخفاه لئلا يلام على طلبه للولد فى غير وقته ولكونه من أمور الدنيا وقيل أخفاه مخافة من قومه وقيل كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفا هرما لا يقدر على الجهر لانه كان ابن خمس وسبعين أو ثمانين سنة وكان النداء فى المحراب (قال رب انى وهن العظم منى) هذه الجملة مفسرة لقوله نادى ربه فالنداء أوله قوله هذا وآخره قوله الآتى واجعله رب رضيا فجملة النداء ثمان جمل والدعاء منه هو قوله فهب لى من لدنك وليا كما سيأتى والوهن الضعف يقال وهن يهن وهنا من باب وعد اذا ضعف فهو واهن فى الامر والعمل والبدن ووهنته أضعفته يتعدى ولا يتعدى فى لغة فهو موهون البدن والعظم والاجود أنه يتعدى بالهمزة فيقال أوهنته والوهن بفتحتين لغة فى المصدر ووهن يهن بالكسر فيهما لغة وقرئ بالحركات الثلاث أراد

ذلك ثم عرج به الى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم ادريس في الثانية وهرون في الرابعة وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه وابراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى فقال موسى رب لم أظن ان ترفع على أحدا ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه الا الله عزوجل حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فاوحى الله اليه فيما يوحى خمسين صلاة على امتك كل يوم وليلة ثم هبط به (٤) حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد اليك ربك قال عهد الى خمسين صلاة كل يوم وليلة قال ان أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم الى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار اليه جبريل ان نعم ان شئت فعلا به الى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه يارب خفف عنا فان امتي لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع الى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى الى ربه حتى صارت الى خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودت بني اسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فامتك أضعف أجسادا وقلوبا وأبدانا وابصارا واسماعا فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبي صلى الله عليه وسلم الى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال يارب ان أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم واسماعهم وابصارهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار تبارك وتعالى يا محمد قال لبيك وسعديك قال انه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك في أم الكتاب قال فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك فرجع الى موسى فقال كيف فعلت فقال خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها قال موسى قد والله راودت بني اسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ارجع الى ربك فليخفف عنك أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا موسى قد والله استحييت من ربي عزوجل مما أختلف اليه قال فاهبط باسم الله قال واستيقظ وهو في المسجد الحرام هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد ورواه في صفة النبي صلى الله عليه وسلم عن اسمعيل بن أبي أويس عن أخيه أبي بكر عبد الحميد عن سليمان بن بلال

ان عظامه فترت ورقت وضعفت قوته من الكبر وذكر العظم لانه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه فاذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولانه أشد ما في الانسان واصلبه فاذا وهن كان ماوراءه أوهن ووحد العظم قصدا الى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام وقيل اشتكى سقوط الاضراس (واشتعل الرأس شيبا) الاشتعال في الاصل انتشار شعاع النار فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والانارة ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية بان حذف المشبه به وأداة التشبيه وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها قال الزجاج يقال للشيب اذا كثر جدا قد اشتعل رأس فلان (ولم أكن بدعائك) أي بدعائي اياك (رب شقيا) يقال شقي بكذا اي تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه فالمعنى لم أكن خائبا في وقت من الاوقات بل كلما دعوتك استجبت لي وهذا توسل بما سلف له من الاستجابة وتنبيه على ان المطلوب وان لم يكن معتادا فاجابته ادعائه معتادة وقد عوده سبحانه بالاجابة واطمعه ومن حق الكريم ان لا يخيب من أطمعه قال العلماء يستحب للمرء أن يجمع في دعائه بين الخضوع وذكر نعم الله عليه كما فعل زكريا ههنا فان في قوله الماضي غاية الخضوع والتذلل واظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه وبلوغ مآربه وفي هذا ذكر ما عوده الله من الانعام عليه باجابة أدعيته والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية لتحريك سلسلة الاجابة بالمبالغة في التضرع (واني خفت) بكسر الخاء (الموالي من ورائي) وقرئ خفت بكسر التاء وفاعله الموالي أي قلوا وعجزوا عن القيام بامر الدين بعدي أو انقطعوا بالموت مأخوذ من خفت القوم اذا ارتحلوا وهذه قراءة شاذة وبعيدة عن الصواب والموالي هنا هم الاقارب الذين يرثون وسائر العصبات من بني العم ونحوهم والعرب تسمي هؤلاء موالي وقيل هم الناصرون له وقيل الكلالة وقيل جميع الورثة واختلفوا في وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده فقيل خاف أن يرثوا ماله وأراد أن يرثه ولده فطلب من الله سبحانه أن يرزقه ولدا وقال آخرون انهم كانوا مهملين لامر الدين فخاف ان يضيع الدين بموته فطلب وليا يقوم به بعد موته وهذا القول أرجح من الاول لان الانبياء لا يورثون وهم أجل من أن يعتنوا بامور الدنيا فليس المراد هنا وراثة المال بل المراد وراثة العلم والنبوة والقيام بامر الدين وقد ثبت عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم انه قال نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة (وكانت امرأتي عاقرا) هي التي لا تلد لكبر

سنها والتى لاتلد أيضا الغير كبروهى المرادة هنا ويقال للرجل الذى لايلد عاقر أيضا قال ابن جرير وكان اسم امرأته اشاع بنت فاقود بن ميل وهى أخت حنة وهى أم مريم فولد لاشاع يحيى ولحنة مريم وقال القتيبى هى اشاع بنت عمران فعلى القول الاول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أم عيسى وعلى الثانى يكونان ابنى خالة كما ورد فى الحديث الصحيح (فهب لى من لدنك) أى أعطنى من فضلك (وليا) مرضيا لان مثله لايرجى الا من فضلك وكمال قدرتك ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بانه قد صار هو وامرأته فى حالة لايجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما وقد قيل انه كان ابن بضع وتسعين سنة وقيل بل أراد بالولى الذى طلبه هو الولد ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة فان الله سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم (يرثنى ويرث من آل يعقوب) قرئ بالرفع فى الفعلين جميعا على انهما صفتان للولى وليسا بجواب الدعاء وقرئ بالجزم فيهما على انهما جواب للدعاء ورجح الاولى أبو عبيد وقال هى أصوب فى المعنى لانه طلب وليا هذه صفته فقال هب لى الذى يكون وارثى ورجح ذلك النحاس والوراثة هنا هى وراثة العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف وقد ذهب أكثر المفسرين الى ان يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وزعم بعضهم انه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان وبه قال الكلبى ومقاتل وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤل أمرهم اليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين وقد كان فيهم أنبياء وملوك وقرئ يرثنى وارث آل يعقوب وقرئ وأرث آل يعقوب أى أنا وقرئ أو يرث آل يعقوب على ان هذا المصغر فاعل يرثنى وهذه القرآت فى غاية الشذوذ لفظا ومعنى (واجعله رب رضيا) أى مرضيا فى أخلاقه وأفعاله وقيل راضيا بقضائك وقدرك وقيل رجلا صالحا ترضى عنه وقيل نبيا كما جعلت آباءه أنبياء (يازكريا) بالهمز وحذفه سبعيتان قال جمهور المفسرين ان هذا النداء من الله سبحانه وقيل من جهة الملائكة لقوله فى آل عمران فنادته الملائكة ويمكن أن يكون وقع له الخطاب مرتين مرة بواسطة الملائكة وأخرى من غير واسطة وفى الكلام حذف أى فاستجاب له دعاءه فقال يازكريا (انا نبشرك بغلام) وبين هذه البشارة ووجود الغلام فى الخارج بالفعل ثلاث عشرة سنة لان طلب زكريا للولد والبشارة به كان فى صغر مريم وهى فى كفالته وان الحمل بيحيى

ورواه مسلم عن هرون بن سعيد عن ابن وهب عن سليمان قال فزاد ونقص وقدم وأخر وهو كما قال مسلم فان شريك بن عبد الله بن أبى نمر اضطرب فى هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه كما سيأتى بيانه ان شاء الله فى الاحاديث الاخر ومنهم من يجعل هذا مناما توطئة لما وقع بعد ذلك والله أعلم وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم انه صلى الله عليه وسلم رأى الله عز وجل يعنى قوله ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى قال وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح وهذا الذى قاله (٥) البيهقى رحمه الله فى هذه المسئلة هو الحق فان أباذر قال يارسول الله رأيت ربك قال نور أنى أراه وفى رواية رأيت نورا أخرجه مسلم وقوله ثم دنا فتدلى انما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين وعن ابن مسعود وكذلك هو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة فى تفسير هذه بهذا وقال الامام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة اخبرنا ثابت البنانى عن انس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الانبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتانى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل أصبت الفطرة قال ثم عرج بى الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من انت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد ارسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى فرحبا بى ودعوا لى بخير ثم عرج بى الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل له من انت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال قد أرسل اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف واذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب ودعا لى بخير ثم يقول الله تعالى ورفعناه مكانا

عليها ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل قد أرسل اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهرون فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بموسى فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم واذا هو مستند الى البيت المعمور (٦) واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون اليه ثم ذهب بى الى سدرة المنتهى فاذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع ان يصفها من حسنها قال فاوحى الله الى ما أوحى وقد فرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت الى موسى قال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة فى كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فان أمتك لا تطيق ذلك وانى قد بلوت بنى اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربى فقلت أى رب خفف عن أمتى فحط عنى خمسا فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عنى خمسا فقال ان أمتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال فلم ازل أرجع بين ربى وبين موسى ويحط عنى خمسا خمسا حتى قال يا محمد هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فاخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فان امتك لا تطيق ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رجعت الى ربى حتى استحييت ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة بهذا السياق وهو أصح من سياق شريك قال البيهقى وفى هذا السياق دليل على ان المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة الى بيت المقدس وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه

كان مقارنا للحمل بعيسى وكانت مريم اذ ذاك بنت ثلاث عشرة سنة وان اشاع حملت به قبل حمل مريم بعيسى بستة أشهر (اسمه يحيى) قد تقدم فى آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكريا قال الزجاج سمى يحيى لانه حيى بالعلم والحكمة التى أوتيها وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة وتقول فى تثنيته يحييان رفعا ويحيين نصبا وجرا وفى جمع سلامته يحيون رفعا ويحيين نصبا وجرا (لم نجعل له من قبل سميا) فعيل بمعنى مفعول اى مسمى يحيى قال أكثر المفسرين معناه لم نسم احدا قبله يحيى وقال مجاهد وابن عباس وجماعة معناه انه لم يجعل له مثلا ولا نظيرا فيكون على هذا مأخوذا من المساماة أو السمو ورد هذا بانه يقتضى تفضيله على ابراهيم وموسى وقيل معناه لم تلد عاقر مثله والاول اولى وفى اخباره سبحانه بانه لم يسم بهذا الاسم قبله احد افضيلة له من جهتين الاولى ان الله سبحانه هو الذى تولى تسميته به ولم يكلها الى الابوين وسماه بخصوص يحيى لانه به حيى رحم أمه بعد موته بالعقم والجهة الثانية ان تسميته باسم لم يوضع لغيره تفيد تشريفه وتعظيمه (قال رب أنى) أى كيف ومن أين (يكون لى غلام) وليس معنى هذا الاستفهام الاستبعاد والانكار بل التعجب والاستكشاف من قدرة الله وبديع صنعه حيث يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير (وكانت امرأتى عاقرا) أى لا تلد والجملة حال من الياء فى لى وقد تقدم الكلام على مثل هذا فى آل عمران (وقد بلغت من الكبر عتيا) أى يأسا يريد بذلك نحول الجسم والجلد ودقة العظم أو يبسا وجساوة(١) فى المفاصل والعظام من أجل الكبر والطعن فى السن العالية يقال عتا الشيخ يعتو عتيا اذا انتهت سنه وكبر وشيخ عات اذا صار الى حال اليبس والجفاف والاصل عتو لانه من ذوات الواو فابدلوها ياء لكونها أخف قال السمين فيه أربعة أوجه أظهرها انه مفعول به أو مصدر مؤكد لمعنى الفعل أو مصدر وقع موقع الحال أى عاتيا أو ذا عتو الرابع انه تمييز وعلى هذه الاوجه الثلاثة من مزيدة ذكره أبو البقاء والاول هو الاوجه انتهى وقرئ عتيا بكسر العين وبضمها وهما لغتان وكلتا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله أنى يكون لى غلام قال ابن عباس لا ادرى كيف كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ هذا الحرف عتيا أو عسيا وعن عطاء فى قوله عتيا قال لبث زمانا فى الكبر وقال السدى هرما والمعنى كيف يحصل بيننا ولد الآن وقد كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها وشبابى وهى الآن عجوز وأنا شيخ هرم ثم اجاب الله

(١) جسا ضد لطف وجست اليد وغيرها جسوا وجساء يبست وجسا الشيخ جسوا بلغ غاية السن والماء جمد اه صحاح

ولا مرية وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أنس ان النبي صلى الله عليه وسلم أتي بالبراق ليلة أسري به مسرجا ملجما ليركبه فاستصعب عليه فقال له جبريل ما يحملك على هذا فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه قال فارفض عرقا ورواه الترمذي عن اسحق بن منصور عن عبد الرزاق وقال غريب لانعرفه الا من حديثه وقال أحمد أيضا حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثني راشد بن سعيد وعبد الرحمن بن جبير عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي الى ربي عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين

الله سبحانه عن هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله (قال) اى الملك المبلغ للبشارة وهو كما قال الكواشي جبريل عليه السلام والاكثر على انه الله تعالى لسلامته عن فك النظم (كذلك) اى الامر كذلك تصديق له والاشارة الى ما سبق من قول زكريا ثم ابتدأ بقوله (قال ربك) أو قال قولا مثل ذلك والاشارة الى مبهم يفسره قوله (هو على هين) وعلى الاول هذه الجملة مستأنفة مسوقة لازالة استبعاد زكريا بعد تقريره واتما عبد قال ربك اهتماما أي قال هو مع بعده عندك على هين وهو فيعل من هان الشئ يهون اذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد قال الفراء أي خلقه على هين بان ارد عليك قوة الجماع وأفتق رحم امرأتك للعلوق (وقد خلقتك من قبل) أي من قبل يحيى والجملة حال وقرأ سائر الكوفيين وقد خلقناك (ولم تك شيأ) لان المعدوم ليس بشئ هذه الجملة مقررة لما قبلها قال الزجاج أي فخلق الولد لك كخلقك والمعنى ان الله سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من العدم المحض فايجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه وانما لم ينسب ذلك الى آدم عليه السلام لانه المخلوق من العدم حقيقة بان يقول وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيأ للدلالة على ان كل فرد من أفراد البشر له حظ من انشاء آدم من العدم (قال رب اجعل لى آية) أى علامة تدلني على وقوع المسؤل وتحققه وحصول الحبل والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه قال ابن الانبارى وجه ذلك أن نفسه تاقت الى سرعة الامر فسأل الله آية يستدل بها على قرب ما من به عليه وقيل طلب آية تدله على ان البشرى من الله سبحانه لامن الشياطين لان ابليس أوهمه بذلك كذا قال الضحاك والسدى وهو بعيد جدا (قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) نصب على الحال أي آيتك ان لا تقدر على الكلام والحال انك سوى الخلق صحيح سليم من غير بأس ليس بك آفة تمنعك منه والمراد ثلاث ليال بأيامها كما في آل عمران ثلاثة أيام وانما عبر هنا بالليالى وهناك بالايام لان هذه السورة مكية والمكى سابق على المدنى والليل سابق على النهار فاعطى السابق للسابق وأعطى المؤخر للمؤخر وقيل ثلاث ليال متتابعات والاول أولى قال ابن عباس اعتقل لسانه من غير مرض وفى لفظ من غير خرس (فخرج على قومه من المحراب) أى من مصلاه متغير اللون عاجز الكلام فانكروا ذلك عليه فى

يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم وأخرجه ابو داود من حديث صفوان بن عمرو به ومن وجه آخر ليس فيه انس فالله أعلم وقال أيضا حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سليمان التيمي عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسري بي على موسى عليه السلام قائما يصلى فى قبره ورواه مسلم من حديث حماد ابن سلمة عن سليمان بن طرخان التيمي وثابت البناني كلاهما عن أنس قال النسائي هذا أصح من رواية من قال سليمان عن ثابت عن أنس وقال أبو يعلى الموصلي فى مسنده حدثنا وهب ابن بقية حدثنا خالد عن التيمي عن أنس قال أخبرني بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به مر على موسى وهو يصلى فى قبره وقال أبو يعلى حدثنا ابراهيم بن محمد بن عرعرة حدثنا معتمر عن أبيه قال سمعت أنسا ان النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به مر بموسى وهو يصلي فى قبره قال أنس ذكر انه حمل على البراق فأوثق الدابة أو قال الفرس قال أبو بكر صفها لى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر كلمة فقال أشهد انك رسول الله وكان أبو بكر رضى الله عنه قد رآها وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار فى مسنده حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا سعيد بن منصور حدثنا الحرث بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أنا نائم اذ جاء جبريل عليه السلام فوكز بين كتفي فقمت الى شجرة فيها كوكرى الطير فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفي ولو شئت ان أمس السماء لمسست فالتفت الى جبريل كأنه حلس لاط فعرفت فضل علمه بالله على وفتح لى باب من أبواب السماء فرأيت النور

الاشلم وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت وأوحى الى ماشاء الله ان يوحى ثم قال ولانعلم روى هذا الحديث الا أنس ولانعلم رواه عن أبي عمران الجوني الا الحرث بن عبيد وكان رجلا مشهورا من أهل البصرة ورواه الحافظ البيهقي في الدلائل عن أبي بكر القاضي عن أبي جعفر محمد بن علي بن دحيم عن محمد بن الحسين بن أبي الحسين عن سعيد بن منصور فذكره بسنده مثله ثم قال وقال غيره في هذا الحديث في آخره ولط دوني أو قال دون الحجاب رفرف الدر والياقوت ثم قال هكذا رواه الحرث بن عبيد ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن (٨) عطارد ان النبي صلى الله عليه وسلم كان في ملا من أصحابه فجاءه جبريل فنكت في ظهره فذهب به الى الشجرة وفيها مثل وكرى الطير فقعد في أحدهما وقعد جبريل في الآخر فنشأت بنا حتى بلغت الافق فلو بسطت يدي الى السماء لنلتها فدلي بسبب وهبط النور فوقع جبريل مغشيا عليه كأنه حلس فعرفت فضل خشيته على خشيتي فأوحى الى نبيا ملكا أو نبيا عبدا والى الجنة ماأنت فأومأ الى جبريل وهو مضطجع أن تواضع قال قلت لا بل نبيا عبدا قلت وهذا ان صح يقتضي انها واقعة غير ليلة الاسراء فانه لم يذكر فيها بيت المقدس ولا الصعود الى السماء فهي كائنة غير مانحن فيه والله أعلم وقال البزار أيضا حدثنا عمرو بن عيسى حدثنا أبو بحر حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه عزوجل وهذا غريب وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا يونس حدثنا عبدالله بن وهب حدثنا يعقوب ابن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عن أنس بن مالك قال لما جاء جبريل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق فكأنها حركت ذنبها فقال لها جبريل مه يابراق فقال فوالله ماركبك مثله وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو بعجوز على جانب الطريق فقال ماهذه ياجبريل قال سر يامحمد قال فسار ماشاء الله ان يسير فاذا شئ يدعوه متنحيا عن الطريق فقال هلم يامحمد فسار ماشاء الله ان يسير قال فلقيه خلق من خلق الله فقالوا السلام عليك ياأول السلام عليك ياآخر السلام عليك ياحاشر فقال له جبريل اردد السلام يامحمد فرد السلام ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الاولى ثم الثالثة كذلك حتى انتهى الى بيت المقدس فعرض عليه الماء والخمر واللبن فتناول رسول الله

القاموس المحراب الغرفة وصدر البيت وأكرم مواضعه ومقام الامام من المسجد والموضع الذي يتفرد به الملك فيتباعد عن الناس ومحاريب بني اسرائيل مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها وفي الشهاب وأما المحراب المعروف الآن وهو طاق مجوف في حائط المسجد يصلي فيه الامام فهو محدث لاتعرفه العرب فتسميته محرابا اصطلاح للفقهاء انتهى وهو ممنوع بل هو معنى لغوي اذ هو من افراد المعنى اللغوي الذي ذكر في القاموس بقوله ومقام الامام بالمسجد واشتقاقه من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان وقيل من الحرب محركا كأن ملازمه يلقى حربا وتعبا ونصبا (فأوحى اليهم) أي أومأ وأشار بدليل قوله في آل عمران الا رمزا وقيل كتب لهم على الارض وبالاول قال الكلبي والقرظي وقتادة وابن منبه وبالثاني قال مجاهد وقد يطلق الوحي على الكتابة قال ابن عباس كتب لهم كتابا (أن سبحوا) مصدرية أو مفسرة والمعنى فأوحى اليهم بان صلوا أو أي صلوا (بكرة وعشيا) أي نزهوا ربكم طرفي النهار فهما ظرفا زمان للتسبيح وانصرفت بكرة لانه لم يقصد بها العلمية فلو قصد بها العلمية امتنعت من الصرف قال الفراء العشي يؤنث ويجوز تذكيره اذا أبهم قال وقد يقال العشي جمع عشية قيل والمراد صلاة الصبح والعصر وقيل المراد بالتسبيح هو قولهم سبحان الله (يايحيى) أي قال الله للمولود يايحيى أو ولد له مولود فبلغ المبلغ الذي يجوز أن يخاطب فيه فقلنا له يايحيى وقال الزجاج المعنى فوهبنا له وقلنا له يايحيى أي بعد ولادته بثلاث سنين على ماقاله قتادة وقيل بسنتين يعني على لسان الملك كما قاله أبو حيان (خذ الكتاب) المراد به التوراة لانه المعهود حينئذ ويحتمل أن يكون كتابا مختصا به وان كنا لانعرفه الآن والمراد بالاخذ اما الاخذ الحسي أو الاخذ من حيث المعنى وهو القيام بما فيه كما ينبغي وذلك بتحصيل ملكة تقتضي سهولة الاقدام على المأمور به والاحجام عن المنهي عنه ثم أكده بقوله (بقوة) أي متلبسا بجد وعزيمة واجتهاد قاله مجاهد (وآتيناه الحكم صبيا) المراد بالحكم الحكمة وهي الفهم للكتاب الذي أمر بأخذه وفهم الاحكام الدينية وقيل هي العلم وحفظه والعمل به وقيل النبوة وقيل العقل قال مجاهد الفهم وقال مالك بن دينار اللب ولامانع من حمل الحكم على جميع ماذكر والجملة مستأنفة قال ابن عباس أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الغلمان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب

فقال يحيى ما للعب خلقنا اذهبوا نصلى فهو قول الله وآتيناه الحكم صبيا أخرجه الحاكم فى تاريخه وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن قبل ان يحتلم فهو ممن أوتى الحكم صبيا أخرجه البيهقى وأخرجه ابن أبى حاتم موقوفا عليه (وحنانا) معطوف على الحكم قال جمهور المفسرين الحنان الرحمة والرقة والشفقة والعطف والمحبة وأصله توقان النفس مأخوذ من حنين الناقة على ولدها قال أبو عبيدة يقول حنانك يارب وحنانيك يارب بمعنى واحد يريد رحمتك قال ابن الاعرابى الحنان مشددا من صفات الله عز وجل والحنان مخففا العطف والرحمة والحنان الرزق والبركة قال ابن عطية والحنان فى كلام العرب أيضا ماعظم من الامور فى ذات الله ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل والله لئن قتلتم هذا العبد لاتخذن قبره حنانا يعنى بلالا لما مر به وهو يعذب وقيل ان القائل لذلك هو ورقة ابن نوفل قال الازهرى معنى ذلك لاترحمن عليه ولاعطفن عليه لانه من أهل الجنة ومعنى (من لدنا) من عندنا ومن جنابنا وقيل المعنى أعطيناه رحمة من لدنا كائنة فى قلبه يتحنن بها على الناس ومنهم أبواه وقرابته حتى يخلصهم من الكفر قال ابن عباس فى حنانا لا أدرى ماهو الا انى أظنه يعطف الله على عبده بالرحمة وقد فسرها جماعة من السلف بالرحمة كما مر ومنه قول الشاعر

وعسير بلاء حاق به * ويسير حنانك يدفعه

(وزكاة) معطوف على ماقبله والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبر أى جعلناه مباركا للناس يهديهم الى الخير وقيل زكيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهود وقيل صدقة تصدقنا بها على أبويه قاله ابن قتيبة وقيل تصدقا على الناس أى أعطيناه توفيقا للتصدق عليهم وقيل يعنى بالزكاة الطاعة والاخلاص وقيل هى العمل الصالح فلم يعمل بذنب (وكان تقيا) قال ابن عباس طهر فلم يأت بذنب أى متجنبا لمعاصى الله سبحانه مطيعا له بطبعه وقد روى انه لم يعمل معصية ولم يهم بها قط ومن جملة تقواه انه كان يتقوت بالعشب وكان كثير البكاء فكان لدمعه مجارى على خده (وبرا) فعل بمعنى فاعل أى بارا (بوالديه) والمعنى لطيفا بهما محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله أعظم من برهما يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا (ولم يكن جبارا عصيا) أى لم يكن متكبرا يقتل ويضرب على الغضب ولا عاصيا لوالديه أو لربه وهذا وصف له عليه السلام

صلى الله عليه وسلم اللبن فقال له جبريل أصبت الفطرة ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ولو شربت الخمر لغويت ولغوت امتك ثم بعث له آدم فمن دونه من الانبياء عليهم السلام فأمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ثم قال له جبريل اما العجوز التى رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا الا كما بقى من عمر تلك العجوز واما الذى أراد أن تميل اليه فذاك عدو الله ابليس أراد ان تميل اليه وأما الذين سلموا عليك فابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة من حديث ابن وهب وفى بعض ألفاظه نكارة وغرابة

طريق أخرى عن أنس بن مالك (٩) وفيها غرابة ونكارة جدا وهى فى سنن النسائى المجتبى ولم أرها فى الكبير قال حدثنا عمرو بن هشام حدثنا مخلد هو ابن الحسين عن سعيد ابن عبد العزيز حدثنا يزيد بن أبى مالك حدثنا أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل خطوها عند منتهى طرفها فركبت ومعى جبريل عليه السلام فسرت فقال انزل فصل فصليت فقال أتدرى أين صليت صليت بطيبة واليها المهاجرة ثم قال انزل فصل فصليت فقال أتدرى أين صليت صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى ثم قال انزل فصل فصليت فقال أتدرى أين صليت صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام ثم دخلت بيت المقدس فجمع لى الانبياء عليهم السلام فقدمنى جبريل عليه السلام حتى أممتهم ثم صعد بى الى السماء الدنيا فاذا فيها آدم عليه السلام ثم صعد بى الى السماء الثانية فاذا فيها ابنا الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام ثم صعد بى الى السماء الثالثة فاذا فيها يوسف عليه السلام ثم صعد بى

(٢ – فتح البيان سادس)

الى السماء الرابعة فاذا فيها هرون عليه السلام ثم صعد بى الى السماء الخامسة فاذا فيها ادريس عليه السلام ثم صعد بى الى السماء السادسة فاذا فيها موسى عليه السلام ثم صعد بى الى السماء السابعة فاذا فيها ابراهيم عليه السلام ثم صعد بى فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى فغشيتنى ضبابة فخررت له ساجدا فقيل لى انى يوم خلقت السموات والارض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك (١) قلت خمسين صلاة قال فانك لا تستطيع ان تقوم بها لا أنت ولا أمتك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف فرجعت الى ربى فخفف عنى عشرا ثم أتيت موسى فأمرنى بالرجوع فرجعت

(١) هكذا بياض بالاصل

فخفف عنى عشرا ثم رديت الى خمس صلوات قال فارجع الى ربك فاسأله التخفيف فانه فرض على بنى اسرائيل صلاتين فما قاموا بهما فرجعت الى ربى عزوجل فسألته التخفيف فقال انى يوم خلقت السموات والارض فرضت عليك وعلى أمتك خمس صلوات فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك قال فعرفت انها من الله عزوجل صرى فرجعت الى موسى عليه السلام فقال ارجع فعرفت انها من الله صرى يقول أى حتم فلم أرجع طريق أخرى وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عمار حدثنا خالد بن يزيد بن أبى مالك عن أبيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم

الى بيت المقدس أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل حمله جبريل عليها ينتهى خفها حيث ينتهى طرفها فلما بلغ بيت المقدس فبلغ المكان الذى يقال له باب محمد صلى الله عليه وسلم أتى الى الحجر الذى ثمة فغمزه جبريل باصبعه فثقبه ثم ربطها ثم صعد فلما استويا فى صرحة المسجد قال جبريل يا محمد هل سألت ربك ان يريك الحور العين فقال نعم فقال فانطلق الى أولئك النسوة فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة قال فاتيتهن فسلمت عليهن فرددن على السلام فقلت من أنتن فقلن نحن خيرات حسان نساء قوم أبرار نقوا فلم يدرنوا وأقاموا فلم يظعنوا وخلدوا فلم يموتوا قال ثم انصرفت فلم ألبث الا يسيرا حتى اجتمع ناس كثير ثم اذن مؤذن وأقيمت الصلاة قال فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا فأخذ بيدى جبريل عليه السلام فقدمنى فصليت بهم فلما انصرفت قال جبريل يا محمد أتدرى من صلى خلفك قال قلت لا قال صلى خلفك كل نبى بعثه الله عزوجل قال ثم أخذ بيدى جبريل فصعد بى الى السماء فلما انتهينا الى الباب استفتح فقالوا من أنت قال انا جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم قال ففتحوا له وقالوا مرحبا بك وبمن معك قال فلما استوى على ظهرها اذا فيها آدم فقال لى جبريل يا محمد ألا تسلم على أبيك آدم قال قلت بلى فاتيته فسلمت عليه فرد على وقال مرحبا بابنى والنبى الصالح قال ثم عرج بى الى السماء الثانية فاستفتح فقالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم ففتحوا له وقالوا مرحبا بك وبمن معك فاذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام قال ثم عرج بى الى السماء الثالثة فاستفتح قالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد

بلين الجانب وخفض الجناح والمراد أصل الفعل فالمنفى أصل الجبر والعصيان لا المبالغة فيهما (وسلام) منا (عليه) قال ابن جرير وغيره معناه أمان عليه من الله قال ابن عطية والاظهر عندى انها التحية المتعارفة فهى أشرف وأنبه من الامان لان الامان متحصل له بنفى العصيان عنه وهو أقل درجاته وانما الشرف فى ان يسلم الله عليه وقال سلام هنا منكرا وفى قصة عيسى والسلام معرفا لان الاول من الله والقليل منه كثير والثانى من عيسى ومعنى (يوم ولد) انه أمن من الشيطان وغيره فى ذلك اليوم وسلم من ان يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم أو ان الله حياه فى ذلك اليوم (ويوم يموت ويوم يبعث حيا) قيل أوحش ما يكون الانسان فى ثلاثة مواطن يوم ولد لانه خرج مما كان فيه ويوم يموت لانه يرى قوما لم يكن قد عرفهم وأحكاما ليس له بها عهد ويوم يبعث لانه يرى هول يوم القيامة فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة فى المواطن الثلاثة (واذكر فى الكتاب مريم) هذا شروع فى ابتداء خلق عيسى والمراد بالكتاب هذه السورة أى اذكر يا محمد للناس فى هذه السورة قصة مريم وخبرها ونبأها أو المراد به جنس القرآن وهذه السورة منه (اذ انتبذت) النبذ الطرح والرمى قال تعالى فنبذوه وراء ظهورهم والمعنى انها تنحت وتباعدت وقال ابن قتيبة اعتزلت وقيل انفردت (من أهلها) أى من قومها والمعانى متقاربة واختلفوا فى سبب انتباذها فقيل لاجل أن تعبد الله سبحانه وقيل للتطهر من حيضها (مكانا شرقيا) أى من جانب الشرق والنصب على الظرفية أو مفعول به على ان معنى انتبذت أتت مكانا كما فى السمين وفى المصباح ما يؤيده والشرق بسكون الراء المكان الذى تشرق فيه الشمس وانما خص المكان بالشرق لانهم كانوا يعظمون جهة الشرق لانها مطلع الانوار حكى معناه ابن جرير قال ابن عباس مكانا أظلتها الشمس ان يراها أحد منهم وقال انما اتخذت النصارى المشرق قبلة لان مريم اتخذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذوا ميلاده قبلة وانما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل فجعلوا يتحرفون وهم ينظرون اليه يتخوفون ان يقع عليهم فسجدوا سجدة رضيها الله فاتخذوها سنة وقيل كان ذلك اليوم شاتيا شديد البرد فجلست فى مشرقه تفلى رأسها (فاتخذت) أى ضربت (من دونهم) أى من دون أهلها (حجابا) أى حاجزا وسترا يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة أو حال التطهر من الحيض والحجاب الستر والحاجز (فأرسلنا

بعث اليه قال نعم ففتحوا له وقالوا مرحبا بك وبمن معك فاذا فيها يوسف عليه السلام ثم عرج بى الى السماء الرابعة فاستفتح قالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم ففتحوا له وقالوا مرحبا بك وبمن معك فاذا فيها ادريس عليه السلام قال فعرج بى الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم قال ففتحوا وقالوا مرحبا بك وبمن معك واذا فيها هرون عليه السلام ثم عرج بى الى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقالوا من انت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم قال ففتحوا وقالوا مرحبا بك وبمن معك واذا فيها موسى عليه السلام ثم عرج بى الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم ففتحوا له وقالوا مرحبا بك وبمن معك واذا فيها ابراهيم عليه السلام فقال جبريل يا محمد ألا تسلم على ابيك ابراهيم قلت بلى فأتيته فسلمت عليه فرد على السلام وقال مرحبا بابنى والنبى الصالح ثم انطلق بى على ظهر السماء السابعة حتى انتهى بى الى نهر عليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد وعليه طير خضر أنعم طير رأيت فقلت يا جبريل ان هذا الطير لناعم قال يا محمد آكله أنعم منه ثم قال يا محمد أتدرى أى نهر هذا قال قلت لا قال هذا الكوثر الذى أعطاك الله اياه فاذا فيه آنية الذهب والفضة تجرى على رضراض من الياقوت والزمرد ماؤه أشد بياضا من اللبن قال فأخذت من آنيته آنية من الذهب فاغترفت من ذلك الماء فشربت فاذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك ثم انطلق بى حتى انتهيت الى الشجرة فغشيتنى سحابة فيها من كل لون فرفضنى جبريل وخررت ساجدا لله عز وجل فقال الله لى يا محمد انى يوم خلقت السموات والارض افترضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك قال ثم انجلت عنى السحابة فأخذ بيدى جبريل فانصرفت سريعا فأتيت على ابراهيم فلم يقل لى شيأ ثم أتيت على موسى فقال ما صنعت يا محمد فقلت فرض على وعلى أمتى خمسين صلاة قال فلن تستطيعها أنت ولا أمتك فارجع الى ربك فاسأله أن يخفف عنك فرجعت سريعا حتى انتهيت الى الشجرة فغشيتنى السحابة فرفضنى جبريل وخررت ساجدا وقلت ربى انك فرضت على وعلى أمتى خمسين صلاة ولن أستطيعها أنا ولا أمتى فخفف عنا قال قد وضعت عنكم عشرا قال ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى

اليها روحنا) هو جبريل عليه السلام ليبشرها بالغلام ولينفخ فيها فتحمل به وقد اختلف الناس فى نبوة مريم فقيل انها نبية لمجرد هذا الارسال اليها ومخاطبتها الملك وقيل لم تكن نبية لانه انما كلمها الملك وهو على مثال البشر والمتفق عليه ان المنفى وحى الرسالة لا مطلق الوحى والوحى هنا انما هو ببشارة الولد لا بالرسالة وقد تقدم الكلام على هذا فى آل عمران وقيل هو روح عيسى لان الله سبحانه خلق الارواح قبل الاجساد والاول أولى لقوله (فتمثل) أى جبريل عليه السلام (لها) بعد لبسه اثيابها (بشرا سويا) تاما مستوى الخلق لم يفقد من نعوت بنى آدم شيأ قال البيضاوى ولعله أى التمثل ليهيج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها انتهى قال فى الخميس فى أحوال انفس نفيس فيه نظر انتهى ولم يبين أحد هذا النظر الصحيح لا هو ولا غيره من المفسرين فيما تصفحت الا أبا السعود حيث قال هو مع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى قالت انى أعوذ بالرحمن منك فانه شاهد عدل بانه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما اليه فضلا عما ذكر من الحالة المرتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة فى العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التى هى العصمة مما دهمها انتهى وقد تكلموا فى كيفية تمثله فقال امام الحرمين يفنى الله الزائد من خلقه أو يزيله عنه ثم يعيده اليه يعنى ان له أجزاء أصلية كما فى الانسان وأجزاء زائدة وجزم ابن عبد السلام بالازالة دون الفناء وقال ابن حجر ان القدر الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفيه الله تعالى عن الرائى فقط قاله الكرخى وقيل انما ظهر لها فى صورة البشر لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فتفهم كلامه ولو بدا لها فى صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه وانها لا تطيق ان تنظر الى الملك وهو على صورته فلما رأته فى صورة انسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت انه يريدها بسوء فاستعاذت بالله منه و(قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) أى ممن يتقى الله ويخافه ويعامل بمقتضى التقوى والايمان وخصت الرحمن بالذكر ليرحم ضعفها وعجزها عن دفعه وقيل ان تقيا اسم رجل صالح فتعوذت منه تعجبا وقيل انه اسم رجل فاجر معروف فى ذلك الوقت والاول أولى وتعوذها من تلك الصورة الحسنة دل على كمال عفتها وغاية ورعها وجواب الشرط

جبريل قال فانصرفت سريعا حتى أتيت على ابراهيم فلم يقل لي شيأ ثم أتيت على موسى فقال لي ما صنعت يا محمد فقلت وضع عني
ربي عشرا قال فأربعون صلاة لن تستطيعها أنت ولا أمتك فارجع الى ربك فاسأله أن يخفف عنكم فذكر الحديث كذلك الى خمس
صلوات وخمس بخمسين ثم أمره موسى أن يرجع فيسأله التخفيف فقلت انى قد استحييت منه تعالى قال ثم انحدر فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لجبريل مالي لم آت أهل سماء الا رحبوا بي وضحكوا الي غير رجل واحد فسلمت عليه فرد علي السلام ورحب بي
ولم يضحك لي قال يا محمد ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خلق ولو ضحك الى أحد لضحك اليك قال ثم ركب
منصرفا فبيناهو في بعض الطريق
مر بعير لقريش تحمل طعاما منها
جمل عليه غرارتان غرارة سوداء
وغرارة بيضاء فلما حاذى بالعير نفرت
منه واستدارت وصرع ذلك البعير
وانكسر ثم انه مضى فأصبح فأخبر عما
كان فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا
بكر فقالوا يا أبا بكر هل لك في
صاحبك يخبر انه أتى في ليلته هذه
مسيرة شهر ورجع في ليلته فقال أبو
بكر رضي الله عنه ان كان قاله فقد
صدق وانا لنصدقه فيما هو أبعد من
هذا لنصدقه على خبر السماء فقال
المشركون لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ما علامة ما تقول قال مررت
بعير لقريش وهي في مكان كذا وكذا
فنفرت الابل منا واستدارت وفيها
بعير عليه غرارتان غرارة سوداء
وغرارة بيضاء فصرع فانكسر فلما
قدمت العير سألوهم فأخبروهم
الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومن ذلك سمي
أبو بكر الصديق وسألوه وقالوا هل
كان فيمن حضر معك موسى وعيسى
قال نعم قالوا فصفهم لنا قال نعم اما
موسى فرجل آدم كأنه من رجال
ازدعمان وأما عيسى فرجل ربعة
سبط تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان هذا سياق فيه غرائب عجيبة رواية أنس بن مالك عن مالك بن
صعصعة قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام قال سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك ان مالك بن صعصعة حدثه ان نبي الله
صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به قال بينما أنا في الحطيم وربما قال قتادة في الحجر مضطجعا اذ أتاني آت فجعل يقول لصاحبه
الاوسط بين الثلاثة قال فأتاني فقد وسمعت قتادة يقول فشق ما بين هذه الى هذه وقال قتادة فقلت للجارود وهو الى جنبي ما يعني
قال من ثغرة نحره الى شعرته وقد سمعته يقول من قصته الى شعرته قال فاستخرج قلبي قال فأتيت بطست من ذهب مملوءة ايمانا ثلاث

محذوف أي فلا تتعرض لي واتركني واتعظ أو فتنتهي عني لتعوذي وهذه الجملة
كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمني (قال) جبريل (انما أنا رسول ربك) الذي
استعذت به ولست ممن يتوقع منه ما خطر على بالك من ارادة السوء وانما جئت (لأهب
لك) جعل الهبة من قبله لكونه سببا فيها من جهة كون الاعلام لها من جهته أو من
جهة كون النفخ الذي قام به في الظاهر ويقويه ما في بعض المصاحف أمرني ان أهب لك
وقرئ ليهب على معنى أرسلني الله ليهب لك (غلاما زكيا) هو الطاهر من الذنوب الذي ينمو على
النزاهة والعفة وقيل المراد بالزكي النبي (قالت أنى يكون لي غلام و) الحال اني (لم
يمسسني) أي لم يقربني (بشر) زوج بنكاح (ولم أك بغيا) أي فاجرة فجعلت المس عبارة عن
النكاح الحلال لانه كناية عنه والزنا ليس كذلك وانما يقال فيه فجر بها وخبث بها وما أشبه
ذلك والبغي هي الزانية التي تبغي الرجال قال المبرد أصله بغوي على فعول وقال ابن جني
انه فعيل قال ابن الانباري ان بغيا غالب في النساء اجراه مجرى حائض وعاقر وقلما تقول
العرب رجل بغي وزيادة ذكر ذلك يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيها لجانبها من
الفحشاء يعني ان الولد لا يكون الا من نكاح أو سفاح ولم يكن هنا واحد منهما قيل وما
استبعدت من قدرة الله شيأ ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوجه
في المستقبل أم يخلقه الله سبحانه ابتداء (قال) جبريل (كذلك) أي الامر هكذا من خلق
غلام منك من غير أب (قال ربك هو) أي خلق ولدك بلا أب (علي هين) بان ينفخ بأمري
جبريل فيك فتحملي به والجملة مستأنفة والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكريا
(و) خلقناه (لنجعله) أي هذا الغلام أو خلقه بلا أب (آية للناس) يستدلون بها على كمال
القدرة على أنواع الخلق فانه خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى
وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى قاله الكرخي (و) لنجعله
(رحمة) عظيمة كائنة (منا) للناس لمن آمن به لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير لان
كل نبي رحمة لامته (وكان) خلقه (أمرا مقضيا) به في علمي مقدرا محكوما مفروغا منه لا يرد
ولا يبدل ولا يتغير مسطورا في اللوح المحفوظ قد قدره الله سبحانه وجف به القلم (فحملته)
أي الموهوب ههنا كلام مطوي والتقدير فاطمأنت الى قوله فدنا منها فنفخ في جيب درعها
وهو بعيد عنها فوصلت النفخة الى بطنها فحملته وأحست في بطنها مصورا وكان سنها

وحكمة فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض قال فقال الجار وهو البراق يا أبا حمزة قال نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه قال فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي الى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قيل جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل أو قد أرسل اليه قال نعم فقيل مرحبا به ونعم المجيء جاء قال ففتح لنا فلما خلصت فاذا فيها آدم عليه السلام قال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا فقال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل أوقد ارسل اليه قال نعم قيل مرحبا به ونعم المجيء جاء قال ففتح لنا فلما خلصت فاذا عيسى ويحيى وهما ابنا الخالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما قال فسلمت فردا السلام ثم قالا مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل أوقد ارسل اليه قال نعم قيل مرحبا به ونعم المجيء جاء قال ففتح لنا فلما خلصت اذا يوسف عليه السلام قال هذا يوسف قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى اتى السماء الرابعة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل أوقد ارسل اليه قال نعم قيل مرحبا به ونعم المجيء جاء قال ففتح لنا فلما خلصت فاذا ادريس عليه السلام قال هذا ادريس قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال ثم صعد حتى اتى السماء الخامسة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل أوقد ارسل اليه قال نعم قيل مرحبا به ونعم المجيء جاء ففتح لنا فلما خلصت فاذا هرون عليه السلام قال هذا هرون فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال ثم صعد حتى اتى السماء السادسة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل أوقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به ونعم المجيء جاء ففتح لنا فلما خلصت فاذا أنا بموسى عليه السلام قال هذا موسى عليه السلام فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك قال أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي قال ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل اوقد بعث اليه قال نعم قيل مرحبا به

ثلاث عشرة سنة أو عشرا أو عشرين أو ست عشرة سنة وقيل كانت النفخة في ذيلها أو كمها وقيل في فيها وليس المراد انه نفخ في فرجها فباشره عن أبي بن كعب قال تمثل روح عيسى في صورة بشر فحملته قال حملت الذي خاطبها دخل في فيها قيل ان وضعها كان متصلا بهذا الحمل من غير مضي مدة الحمل و يدل على ذلك قوله (فانتبذت به مكانا قصيا) أي تنحت بالحمل مصاحبة له واعتزلت الى مكان بعيد من أهلها مخافة اللائمة قيل كان هذا المكان وراء الجبل وقيل أبعد مكان في تلك الدار وقيل أقصى الوادي وهو وادي بيت لحم وقيل انها حملت به ستة أشهر وقيل ثمانية أشهر وذلك آية أخرى لانه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وقيل سبعة أشهر وقيل تسعة أشهر كحمل النساء وقيل كان الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومه وكانت قد حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى قلت وهذا التفصيل لا دليل عليه ولا مستند له الا أخبار الاحبار أو آراء الرجال ولو صح من نص صحيح لوجب المصير اليه وكان آية أخرى (فأجاءها) يقال جاء وأجاء لغتان بمعنى واحد أي ألجأها واضطرها وجاء بها وقرأ شبل فاجأها من المفاجأة وفي مصحف أبي فلما أجاءها قال في الكشاف ان أجاءها منقول من جاء الا ان استعماله قد تغير بعد النقل الى معنى الالجاء وفيه بعد والظاهر ان كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقل (المخاض) أي وجع الولادة وهو مصدر مخضت المرأة تمخض مخضا ومخاضا اذا دنا ولادها قرأ الجمهور بفتح الميم وقرئ بكسرها (الى جذع النخلة) الجذع ساق النخلة اليابسة التي لا رأس لها كأنها طلبت شيأ تستند اليه وتعتمد عليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشيء مما تجده عندها والتعريف اما للجنس أو للعهد والمستفيض المشهور ان ولادة عيسى كانت ببيت لحم وانها لما هربت وخافت عليه أسرعت به وجاءت به الى بيت المقدس فوضعته على صخرة فانخفضت الصخرة له وصارت كالمهد وهي الآن موجودة تزار بحرم بيت المقدس ثم بعد أيام توجهت به الى بحر الاردن فغمسته فيه وهو اليوم الذي تتخذه النصارى عيدا ويسمونه يوم الغطاس وهم يظنون ان المياه في ذلك اليوم تقدست فلذلك يغطسون في كل ماء ومن زعم انها ولدت بمصر قال بكورة أهناس ولم يثبت انتهى من البحر لابي حيان واهناس بجانب البهنسا (قالت) جزعا مما أصابها (يا) للتنبيه لان المنادى غير عاقل (ليتني مت قبل

ونعم المجيء جاء قال ففتح لنا فلما خلصت فاذا ابراهيم عليه السلام فقال هذا ابراهيم فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال ثم رفعت الى سدرة المنتهى قال فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة فقال هذه سدرة المنتهى قال واذا أربعة انهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ما هذا يا جبريل قال اما الباطنان فنهران في الجنة واما الظاهران فالنيل والفرات قال ثم رفع الى البيت المعمور قال قتادة وحدثنا الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفا (١٤) ثم لا يعودون فيه ثم رجع الى حديث أنس قال ثم أتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل قال فأخذت اللبن قال هذه الفطرة انت عليها وأمتك قال ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم قال فنزلت حتى أتيت موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قال فقلت خمسين صلاة كل يوم قال ان أمتك لا تستطيع لخمسين صلاة واني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال فرجعت فوضع عني عشرا قال فرجعت الى موسى فقال بما أمرت قلت بأربعين صلاة كل يوم قال ان أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم واني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال فرجعت فوضع عني عشرا أخر فرجعت الى موسى فقال بما أمرت فقلت أمرت بثلاثين صلاة قال ان أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم واني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال فرجعت فوضع عني عشرا أخر فرجعت الى موسى فقال بما أمرت قلت بعشرين صلاة كل يوم فقال ان امتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم واني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال فرجعت فوضع عني عشرا أخر فرجعت الى موسى فقال بما أمرت فقلت أمرت بعشر صلوات كل يوم فقال ان امتك لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم واني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت الى موسى فقال بما أمرت فقلت امرت بخمس صلوات كل يوم قال ان أمتك لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم واني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع الى ربك

هذا) الوقت أو الامر تمنت الموت استحياء من الناس أو خوفا من الفضيحة لانها خافت ان يظن بها السوء في دينها أو لئلا يقع قوم بسببها في البهتان (وكنت نسيا منسيا) أي شيئا حقيرا متروكا والنسي في كلام العرب الشيء الحقير الذي من شأنه ان ينسى ولا يذكر ولا يعرف ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل وقال الفراء النسي ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها فتقول مريم نسيا منسيا أي حيضة ملقاة وقد قرئ بفتح النون وكسرها وهما لغتان مثل الجرو والجرو والوتر والوتر وقرأ القرظي نسأ بالهمز مع كسر النون ونوف البكالي بالهمز مع فتح النون والمنسي المتروك الذي لا يذكر ولا يعرف ولا يخطر ببال أحد من الناس قال ابن عباس نسيا منسيا أي لم أخلق ولم أك شيأ (فناداها) أي خاطبها المنادي قولها (من) قرئ بكسر الميم وفتحها وهما سبعيتان (تحتها) الضمير اما لمريم واما للنخلة والاول أولى لتوافق الضميرين وكانت على أكمة وكان جبريل أسفل منها تحت الاكمة قال قتادة الذي ناداها جبريل وبه قال ابن عباس وزاد ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها وقد اختلفت الروايات عن السلف هل هذا المنادي هو جبريل أو عيسى فمن قرأ من بالفتح فهو عيسى ومن قرأ بالكسر فهو جبريل (أن لا تحزني) تفسير للنداء والمعنى بان لا تحزني على انها مصدرية ولا ناهية أو نافية (قد جعل ربك تحتك) أي قربك (سريا) قال جمهور المفسرين السري النهر الصغير لان الماء يسري فيه والسري الجدول والجمع سريان والسري الرئيس والجمع سراة وهو عزيز لا يكاد يوجد له نظير لانه لا يجمع فعيل على فعلة وجمع السراة سروات وسري مفعول وجعل بمعنى صير أو خلق وقيل السري من سريت الثوب أي نزعته وسريت الحبل عن الفرس والاول أولى والمعنى قد جعل تحت قدمك نهرا قيل كان هذا قد انقطع عنه الماء فأرسل الله فيه الماء لمريم وأحيى به ذلك الجذع اليابس الذي اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر وقيل معنى تحتك تحت أمرك أي ان أمرته ان يجري جرى وان أمرته بالامساك أمسك والاول أولى وعن جماعة من التابعين ان المراد بالسري هنا عيسى والسري العظيم من الرجال ومنه قولهم فلان سري أي عظيم ومن قوم سراة أي عظام أخرج الطبراني وابن النجار وابن مردويه عن ابن عمر انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان السري الذي في الآية نهر أخرجه الله لها لتشرب منه وفي سنده أيوب ابن نهيك الحلبي قال فيه أبو حاتم الرازي ضعيف وقال أبو زرعة منكر الحديث وقال أبو

فاسأله التخفيف لامتك قال قلت قد سألت ربي حتى استحييت ولكن ارضى وأسلم فنفذت فنادى مناد قد امضيت فريضتى وخففت عن عبادى وأخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة بنحوه رواية أنس عن أبي ذر قال البخارى حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج عن سقف بيتى وانا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه ثم أخذ بيدى فعرج بى الى السماء الدنيا فلما جئت الى السماء قال جبريل (١٥) لخازن السماء افتح قال من هذا قال جبريل قال هل معك أحد قال نعم معى محمد صلى الله عليه وسلم فقال أرسل اليه قال نعم فلما فتح علونا السماء الدنيا فاذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة اذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قلت لجبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل اليمين منهم أهل الجنة والاسودة التى عن شماله أهل النار فاذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى حتى عرج بى الى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال الاول ففتح قال أنس فذكر انه وجد فى السموات آدم وادريس وموسى وعيسى وابراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف منازلهم غير انه ذكر انه وجد آدم فى السماء الدنيا وابراهيم فى السماء السادسة قال أنس فلما مر جبريل بالنبى صلى الله عليه وسلم بادريس قال مرحبا بالنبى الصالح والاخ الصالح فقلت من هذا قال هذا ادريس ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبى الصالح والاخ الصالح قلت من هذا قال موسى ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبى الصالح فقلت من هذا قال عيسى ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قلت من هذا قال هذا ابراهيم قال الزهرى فأخبرنى ابن حزم ان ابن عباس واباحبة الانصارى كانا يقولان قال النبى صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الاقلام قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرض الله على أمتى خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال ما فرض الله لك على امتك قلت فرض خمسين صلاة قال موسى فارجع الى ربك فان امتك لا تطيق ذلك فراجعت فوضع شطرها فرجعت الى موسى قلت وضع شطرها فقال

الفتح الازدى متروك الحديث وقال الطبرانى بعد اخراجه انه غريب جدا (وهزى اليك بجذع النخلة) الهز التحريك يقال هزه فاهتز والباء مزيدة للتأكيد وقال الفراء العرب تقول هزه وهز به والجذع هو أسفل الشجرة قال قطرب كل خشبة فى أصل شجرة فهى جذع (تساقط عليك) أصله تتساقط وقرئ تسقط ويسقط فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة ومن قرأ بالتحتية جعله للجذع (رطبا جنيا) الجنى المأخوذ طريا وقيل هو ما طاب وصلح للجنى وهو فعيل بمعنى مفعول أى رطبا طريا طيبا قاله ابن عباس أى استحق ان يجنى (فكلى) من ذلك الرطب (واشربى) من ذلك الماء أو من عصير الرطب وقدم الاكل مع ان ذكر النهر مقدم على الرطب لان احتياج النفساء الى أكل الرطب أشد من احتياجها الى شرب الماء ثم قال (وقرى عينا) قرأ الجمهور بفتح القاف وقرئ بكسرها قال ابن جرير هى لغة نجد والمعنى طيبى نفسا وارفضى عنك الحزن وهو مأخوذ من القر والقرة وهما البرد والمسرور بارد القلب ساكن الجوارح وذلك ان العين اذا فرح صاحبها كان دمعها قارا أى باردا واذا حزن كان دمعها حارا ولذلك قالوا فى الدعاء عليه أسخن الله عينه وقيل المعنى وقرى عينا برؤية الولد الموهوب لك وقال الشيبانى معناه نامى قال أبو عمرو أقر الله عينه أى أنام عينه واذهب سهره وقيل مأخوذ من الاستقرار أى أعطاها الله ما يسكن عينها فلا تطمح الى غيره (فاما ترين) أصله ترأيين مثل تسمعين (من البشر أحدا فقولى) أى ان طلب منك الكلام أحد من الناس فقولى وبهذا المقدر يتخلص من اشكال وهو ان قولها فلن أكلم اليوم انسيا كلام فيكون ذلك تناقضا لانها قد كلمت انسيا بهذا الكلام وقيل قوله فقولى أى بالاشارة وليس بشئ بل المعنى فلن أكلم اليوم انسيا بعد هذا الكلام قاله السمين (انى نذرت للرحمن صوما) قيل المراد به الصوم الشرعى وهو الامساك عن المفطرات (١) والاول أولى وفى قراءة أبى صوما صمتا بالجمع بين اللفظين وكذا روى عن أنس وروى عنه الواو بينهما والذى عليه جمهور المفسرين ان الصوم هنا الصمت ويدل عليه فلن أكلم اليوم انسيا كما سيأتى ومعنى الصوم فى اللغة أوسع من المعنيين قال أبو عبيدة كل ممسك من طعام أو كلام أو سير فهو صائم وقراءة أبى تدل على ان المراد بالصوم هنا الصمت لانه تفسير للصوم وقراءة أنس تدل على ان الصوم هنا غير الصمت كما يفيده الواو ومعنى (فلن أكلم اليوم انسيا) انها لا تكلم أحدا من الانس بعد اخبارهم بهذا الخبر بل انما

(١) قوله والاول أولى لم يذكر الاول وأصل التركيب بعد قوله صوما اى امساكا وسكوتا وقيل المراد الخ فتأمل اه مصححه

ارجع الى ربك فان امتك لا تطيق ذلك فرجعت فوضع شطرها فرجعت اليه فقال ارجع الى ربك فان أمتك لا تطيق ذلك فراجعته فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي فرجعت الى موسى فقال ارجع الى ربك قلت قد استحييت من ربي ثم انطلق بي حتى انتهى بي الى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي ثم أدخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك هذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة ورواه في ذكر بني اسرائيل وفي الحج وفي أحاديث الانبياء من طرق أخر عن يونس به ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الايمان منه عن حرملة عن ابن وهب عن يونس به نحوه (١٦) وقال الامام احمد حدثنا عفان حدثنا همام عن قتادة عن عبد الله ابن شقيق قال قلت لابي ذر لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألته قال وما كنت تسأله قال كنت اسأله هل رأى ربه فقال اني قد سألته فقال قد رأيته نورا أنى أراه هكذا قد وقع في رواية الامام أحمد وخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن يزيد بن ابراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن ابي ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أنى اراه وعن محمد بن بشار عن معاذ بن هشام حدثنا ابي عن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال قلت لابي ذر لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألته فقال عن أي شئ كنت تسأله قال كنت اسأله هل رأيت ربك قال أبو ذر قد سألت فقال رأيت نورا رواية أنس عن ابي بن كعب الانصاري رضي الله عنه قال عبد الله بن الامام أحمد حدثنا محمد بن اسحق بن محمد المسيبي حدثنا أنس بن عياض حدثنا يونس ابن يزيد قال قال ابن شهاب قال أنس ابن مالك كان ابي بن كعب يحدث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وانا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فافرغها في صدري ثم أطبقه ثم اخذ قد بيدي فعرج بي الى السماء فلما جاء السماء الدنيا اذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فاذا نظر قبل يمينه تبسم واذا نظر قبل يساره بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت لجبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الاسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فاهل يمينه هم أهل الجنة والاسودة التي عن شماله هم اهل النار فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل يساره بكى قال ثم عرج بي جبريل حتى اتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له قال انس فذكر انه وجد في السموات آدم

تكلم الملائكة وتناجي ربها ولما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات (فأتت به) أي بعيسى (قومها تحمله) أي أتت مصاحبة له وكان اتيانها اليهم من المكان القصي الذي انتبذت فيه للوضع قيل في يوم الوضع وقيل بعد ان طهرت قال ابن عباس بعد أربعين يوما بعد ما تعالت من نفاسها فلما رأوا الولد معها حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين (قالوا) منكرين لذلك (يا مريم لقد جئت) أي فعلت وارتكبت (شيأ فريا) عجيبا نادرا قاله أبو عبيدة وقال مجاهد الفري العظيم أي من الامر يقال في الخير والشر وقال قطرب الفري الجديد من الاسقية أي جئت بامر بديع جديد لم تسبقي اليه وقيل الفري القطع أي شيأ قاطعا وخارقا للعادة التي هي الولادة بواسطة الاب وقال سعيد بن مسعدة الفري المختلق المفتعل والاسم الفرية ويقال فريت الجلد وأفريت بمعنى واحد قطعته والولد من الزنا كالشئ المفترى قال تعالى ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وأرجلهن (يا أخت هرون) هذا من كلامهم أيضا وقد وقع الخلاف في معنى هذه الاخوة وفي هرون المذكور من هو فقيل هو هرون أخو موسى والمعنى ان من كانت نظيرها مثل هرون في العبادة كيف تأتي بمثل هذا وقيل كانت مريم من ولد هرون أخي موسى فقيل لها يا أخت هرون كما يقال لمن كان من العرب يا أخا العرب وقيل كان لها أخ من أبيها اسمه هرون وقيل هرون هذا رجل صالح في ذلك الوقت شبهت به في عفتها وصلاحها وقيل بل كان في ذلك الوقت رجل فاسق اسمه هرون فنسبوها اليه على جهة التعيير والتوبيخ حكاه ابن جرير ولم يسم قائله وهو ضعيف وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى أهل نجران فقالوا أرأيت ما تقرؤن يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال الا أخبرتهم انهم كانوا يسمون بالانبياء والصالحين قبلهم وهذا التفسير النبوي يغني عن سائر ما روي عن السلف في ذلك (ما كان أبوك) أي عمران (امرأ سوء وما كانت امك) أي حنة (بغيا) هذا فيه تقرير لما تقدم من التعيير والتوبيخ وتنبيه على ان الفاحشة من ذرية الصالحين مما لا ينبغي ان تكون (فأشارت) أي مريم (اليه) أي الى عيسى أن كلموه وانما اكتفت بالاشارة ولم تأمره بالنطق لانها نذرت للرحمن صوما عن الكلام كما تقدم هذا على تقدير انها كانت اذ ذاك في ايام نذرها وعلى تقدير انها

قد خرجت منها فيمكن ان يقال ان اقتصارها على الاشارة للمبالغة فى اظهار الآية العظيمة وان هذا المولود يفهم الاشارة و يقدر على العبارة (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) هذا الاستفهام للانكار والتعجب من اشارتها الى ذلك المولود بان يكلمهم قال أبو عبيدة فى الكلام حشو زائد والمعنى كيف نكلم صبيا فى المهد وقال الزجاج الاجود ان يكون من فى معنى الشرط والجزاء والمعنى من يكون فى المهد صبيا فكيف نكلمه ورجحه ابن الانبارى وقيل ان كان هنا التامة التى هى بمعنى الحدوث والوجود ورد بانها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر وقيل انها بمعنى صار وقيل انها الناقصة على بابها من دلالتها على اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضى من غير تعرض للانقطاع ولذلك يعبر عنها بانها ترادف لم يزل والمهد هو شئ معروف يتخذ لتنويم الصبى ولفظ القاموس المهد الموضع يهيأ للصبى ويوطأ والارض كالمهاد والجمع مهود انتهى وقيل هو هنا حجر الام وقيل سرير كالمهد والمعنى كيف نكلم من سبيله أن ينوم فى المهد لصغره فلما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم (قال انى عبد الله) فكان أول ما نطق به الاعتراف بالعبودية لله لئلا يتخذوه الها وفيه ازالة التهمة عن الام لان الله لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد فى زنا ووصف نفسه بصفات ثمانية أولها العبودية وآخرها تأمين الله له فى أخوف المقامات (آتانى الكتاب) أى الانجيل (وجعلنى نبيا) أى حكم لى بايتاء الكتاب والنبوة فى الازل وان لم يكن قد نزل عليه فى تلك الحال ولا قد صار نبيا وقيل انه آتاه الكتاب وجعله نبيا فى تلك الحال وهو بعيد جدا وعن أنس قال كان عيسى قد درس الانجيل وأحكامها فى بطن أمه فذلك قوله آتانى الكتاب وهو أبعد وقال عكرمة قضى أن أكون كذلك ومثله قوله صلى الله عليه وسلم كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد (وجعلنى مباركا) البركة أصلها من بروك البعير والمعنى جعلنى ثابتا فى دين الله (أينما كنت) وقيل البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلنى فى جميع الاشياء زائدا عاليا منجحا وقيل معنى المبارك النفاع للعباد لانه كان يحيى الموتى ويبرئ الاكمه والابرص ويرشد ويهدى وقيل المعلم للخير وقيل الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر وعن ابى هريرة عنه صلى الله عليه وسلم قال جعلنى نفاعا للناس أينما اتجهت أخرجه الاسماعيلى فى معجمه وأبو نعيم فى الحلية وعن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال معلما ومؤدبا أخرجه ابن عدى وابن عساكر وأينما شرطية

وادريس وموسى وابراهيم وعيسى ولم يثبت لى كيف منازلهم غير انه ذكر انه وجد ادم عليه السلام فى السماء الدنيا وابراهيم فى السماء السادسة قال فلما مر جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم بادريس قال مرحبا بالنبى الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا يا جبريل قال هذا ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبى الصالح والاخ الصالح فقلت من هذا قال هذا موسى ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبى الصالح والاخ الصالح قلت من هذا قال هذا عيسى بن مريم قال ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح قلت من هذا قال ابراهيم قال ابن شهاب واخبرنى ابن حزم ان ابن عباس وأبا حبة الانصارى كانا يقولان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الاقلام قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض الله على أمتى خمسين صلاة قال فرجعت بذلك حتى أمر على موسى فقال موسى ماذا فرض ربك على امتك قلت فرض عليهم خمسين صلاة فقال لى موسى راجع ربك فان أمتك لا تطيق ذلك قال فراجعت ربى فوضع شطرها فرجعت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فان امتك لا تطيق ذلك فرجعت فقال هى خمس وهى خمسون لا يبدل القول لدى قال فرجعت الى موسى فقال راجع ربك فقلت قد استحييت من ربى ثم قال انطلق بى حتى أتى سدرة المنتهى قال فغشيها الوان ما أدرى ماهى قال ثم دخلت الجنة فاذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك هكذا رواه عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه وليس هو فى شئ من الكتب الستة وقد تقدم فى الصحيحين من طريق يونس عن الزهرى عن أنس عن أبى ذر مثل هذا السياق سواء فالله أعلم رواية بريدة بن الحصيب الاسلمى قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عبد الرحمن بن أبى المتوكل و يعقوب بن ابراهيم واللفظ له قال حدثنا أبو نميلة حدثنا الزبير بن جنادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة أسرى بى قال فأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس قال فوضع أصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق ثم قال البزار لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة الا أبو نميلة ولا نعلم هذا الحديث الا عن بريدة وقد رواه الترمذى فى التفسير من جامعه عن يعقوب بن ابراهيم الدورقى به

وقال غريب رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال الامام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب قال قال أبو سلمة سمعت جابر بن عبد الله يحدث انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبتني قريش حين أسري بي الى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم وأنا أنظر اليه أخرجاه في الصحيحين من طرق عن حديث الزهري به وقال البيهقي حدثنا أحمد بن الحسن القاضي حدثنا أبو العباس الاصم بن محمد الدوري حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا أبي عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال سمعت سعيد بن المسيب يقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتهى الى بيت المقدس لقي فيه ابراهيم وموسى وعيسى وانه أتي بقدحين قدح من لبن وقدح من خمر فنظر اليهما ثم أخذ قدح اللبن فقال جبريل أصبت هديت للفطرة لو أخذت الخمر لغوت أمتك ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة فأخبر أنه أسري به فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه قال ابن شهاب قال أبو سلمة بن عبد الرحمن فتجهز أو كلمة نحوها ناس من قريش الى أبي بكر فقالوا هل لك في صاحبك يزعم انه جاء الى بيت المقدس ثم رجع الى مكة في ليلة واحدة فقال أبو بكر أو قال ذلك قالوا نعم قال فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا فتصدقه في ان يأتي الشأم في ليلة واحدة ثم يرجع الى مكة قبل أن يصبح قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء قال أبو سلمة فبها سمي أبو بكر الصديق قال أبو سلمة سمعت جابر بن عبد الله يحدث انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبتني قريش حين أسري بي الى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه رواية حذيفة بن اليمان قال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا سليمان عن شيبان عن عاصم عن زر بن حبيش قال أتيت على حذيفة بن اليمان وهو يحدث عن ليلة أسري بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يقول فانطلقنا حتى أتينا على بيت المقدس فلم يدخلاه قال قلت بل دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتئذ وصلى فيه قال ما اسمك يا أصلع فاني أعرف وجهك ولا أدري ما اسمك قال قلت أنا زر بن حبيش قال فما علمك بان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى فيه ليلتئذ قلت القرآن يخبرني بذلك قال فمن تكلم بالقرآن فلج اقرأ فقلت سبحان الذي

لا استفهامية وجوابها اما محذوف واما هو المتقدم عند من يرى ذلك (وأوصاني) أي أمرني (بالصلاة والزكاة) أي بزكاة المال اذا ملكته أو تطهير النفس عن الرذائل في الوقت المعين لهما وهو البلوغ أو الآن قولان للمفسرين والاول أولى (مادمت حيا) أي مدة دوام حياتي وهذه الافعال الماضية هي من باب تنزيل مالم يقع منزلة الواقع تنبيها على تحقق وقوعه لكونه قد سبق في القضاء المبرم وقيل المراد ان الله صيره حين انفصل عن أمه بالغا عاقلا قال الخازن وهذا القول أظهر قلت بل أبعد ويحتاج الى مستند صحيح ثابت (وبرا بوالدتي) اقتصر على البر بوالدته لانه قد علم في تلك الحال انه لم يكن له أب وقرئ برا بكسر الباء اما على حذف مضاف واما على انه مصدر وصف به مبالغة (ولم يجعلني جبارا شقيا) الجبار المتعظم الذي لا يرى لاحد عليه حقا والشقي العاصي لربه وقيل الخائب وقيل العاق وقال ابن عباس شقيا عصيا أي بل أنا خاضع متواضع ومن تواضعه انه كان يأكل ورق الشجر ويجلس على التراب ولم يتخذ له مسكنا روي انه قال قلبي لين وأنا صغير في نفسي (والسلام) قال المفسرون هو هنا بمعنى السلامة أي الامان من الله (علي) والالف واللام فيه للعهد لانه قد تقدم لفظه في قوله وسلام عليه أي ذلك السلام الموجه الى يحيى موجه الي وقال الزمخشري والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضا باللعنة على متهمي مريم وأعدائها من اليهود وتحقيقه ان اللام للجنس أي جنس السلام علي خاصة فقد عرض بان ضده عليكم ونظيره والسلام على من اتبع الهدى (يوم ولدت) فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت بالطعن ولا أغواني (ويوم أموت) أي ولا عند الموت (ويوم أبعث حيا) أي ولا عند البعث وانما خص هذه المواضع لكونها أخوف من غيرها وهذا آخر كلامه فعلموا به براءة أمه ولم يتكلم بعد هذا الكلام حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان في العادة (ذلك) أي المتصف بالاوصاف الثمانية السابقة وقال الزجاج ذلك الذي قال اني عبد الله (عيسى بن مريم) لا ما تقوله النصارى من أنه ابن الله وانه اله (قول الحق) قرئ بالنصب على المدح أو على انه مصدر مؤكد لقال اني عبد الله قاله الزجاج وقرئ بالرفع على انه نعت لعيسى قاله الكسائي وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله والحق هو الله عز وجل قاله قتادة وقال أبو حاتم المعنى هو قول الحق وقيل التقدير هذا الكلام قول الحق وهو من باب اضافة الموصوف الى الصفة مثل حق اليقين وقيل الاضافة للبيان

وقرئ

وقرئ قال الحق وروى ذلك عن ابن مسعود وقرأ الحسن قول الحق بضم القاف والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد (الذي فيه يمترون) أي ذلك عيسى بن مريم الذي فيه يمترون ومعناه يختلفون على انه من المماراة أو يشكون على انه من المرية وقد وقع الاختلاف في عيسى فقالت اليهود هو ساحر وانه ابن يوسف النجار وقالت النصارى هو ابن الله أو الله وعن قتادة في الآية قال اجتمع بنو اسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع فقال أحدهم هو الله هبط الى الارض فأحيى من أحيى وأمات من أمات ثم صعد الى السماء وهم اليعقوبية فقالت الثلاثة كذبت ثم قال اثنان منهم للثالث قل فيه فقال هو ابن الله وهم النسطورية فقال الاثنان كذبت ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه فقال هو ثالث ثلاثة الله اله وعيسى اله وأمه اله وهم الاسرائيلية وهم ملوك النصارى فقال الرابع كذبت هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته وهم المسلمون فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا وظهروا على المسلمين فذلك قول الله سبحانه ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس قال قتادة وهم الذين قال الله فيهم فاختلف الاحزاب من بينهم فاختلفوا فيه فصاروا أحزابا فاختصم القوم فقال المرء المسلم أنشدكم بالله هل تعلمون ان عيسى كان يطعم الطعام وان الله لا يطعم قالوا اللهم نعم قال فهل تعلمون ان عيسى كان ينام وان الله لا ينام قالوا اللهم نعم فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم فذكر لنا ان اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون فأنزل الله فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم (ما كان لله ان يتخذ من ولد) اى ما صح ولا استقام ذلك قال الزجاج من مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة والمعنى ما كان من صفته اتخاذ الولد أي ثبوت الولد له محال ثم نزه الله نفسه فقال (سبحانه) أي تنزه وتقدس عن مقالتهم هذه ثم صرح سبحانه بما هو شأنه تعالى سلطانه فقال (اذا قضى أمرا) من الامور وهذا بمنزلة التعليل لما قبله (فانما يقول له كن فيكون) اى فيكون حينئذ بلا تأخير لا يتعذر عليه ايجاده على الوجه الذي أراده وفي ايراده في هذا الموضع تبكيت عظيم والزام بالحجة للنصارى أي من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد وقد سبق الكلام على هذا مستوفى في البقرة (وان الله) بفتح ان بتقدير اذكر اولان واليه ذهب الزمخشري تابعا للخليل وسيبويه وبكسرها بتقدير قل أو على الاستئناف وقيل على الاول انها عطف على الصلاة أي

أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى قال يا أصلع هل تجد صلى فيه قلت لا قال والله ما صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتئذ ولو صلى فيه لكتبت عليكم صلاة فيه كما كتب عليكم صلاة في البيت العتيق والله مازايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ثم عادا عودهما على بديهما قال ثم ضحك حتى رأيت نواجذه قال ويحدثون انه ربطه لا يفر منه وانما سخره له عالم الغيب والشهادة قلت يا عبد الله أي دابة البراق قال دابة أبيض طويل هكذا خطوه مد البصر ورواه أبو داود الطيالسي عن حماد بن سلمة عن عاصم به ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من حديث عاصم وهو ابن أبي النجود به وقال الترمذي حسن وهذا الذي قاله حذيفة رضي الله عنه وما أثبته غيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة ببيت المقدس مما سبق وما سيأتي مقدم على قوله والله أعلم بالصواب رواية أبي سعيد سعد ابن مالك بن سنان الخدري قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أبو بكر يحيى بن أبي طالب حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا أبو محمد راشد الحماني عن أبي هرون العبدي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال له أصحابه يا رسول الله أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها قال قال الله عز وجل سبحان الذي أسرى بعبده ليلا الآية قال فأخبرهم قال فبينما انا نائم عشاء في المسجد الحرام اذ أتاني آت فايقظني فاستيقظت فلم أر شيأ فاذا أنا بكهيئة خيال فأتبعته بصري حتى خرجت من المسجد فاذا أنا بدابة أدنى شبهه بدوابكم هذه بغالكم هذه مضطرب الاذنين يقال له البراق وكانت الانبياء تركبه قبلي يقع حافره عند مد بصره فركبته فبينما أنا أسير عليه اذ دعاني داع عن يميني يا محمد انظرني أسألك يا محمد انظرني أسألك يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه فبينما أنا أسير عليه اذ دعاني داع عن يساري يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه فبينما أنا أسير اذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله فقالت يا محمد انظرني أسألك فلم ألتفت اليها ولم أقم عليها حتى أتيت بيت المقدس فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الانبياء توثقها به أتاني جبريل عليه السلام باناءين أحدهما خمر

والآخر ابن فشربت اللبن وأبيت الخمر فقال جبريل أصبت الفطرة فقلت الله أكبر الله أكبر فقال جبريل ما رأيت في وجهك هذا قال فقلت بينما أنا أسير اذ دعاني داع عن يميني يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه قال ذاك داعي اليهود أما انك لو أجبته أو وقفت عليه لتهودت أمتك قال فبينما أنا أسير اذ دعاني داع عن يساري قال يا محمد انظرني أسألك فلم ألتفت ولم أقم عليه قال ذاك داعي النصارى أما انك لو أجبته لتنصرت أمتك قال فبينما أنا أسير اذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها عليها من كل زينة خلقها الله تقول يا محمد انظرني أسألك فلم أجبها ولم أقم عليها قال تلك الدنيا أما انك لو أجبتها أو أقمت عليها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة قال ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين ثم أتيت بالمعراج الذي كانت تعرج عليه أرواح بني آدم فلم تر الخلائق أحسن من المعراج أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحا الى السماء فانما يشق بصره طامحا الى السماء عجبه بالمعراج قال فصعدت أنا وجبريل فاذا أنا بملك يقال له اسمعيل وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنوده مائة ألف ملك قال الله عز وجل وما يعلم جنود ربك الا هو وقال فاستفتح جبريل باب السماء قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل أوقد بعث اليه قال نعم فاذا أنا بآدم كهيئة يوم خلقه الله عز وجل على صورته تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد واذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن عندها أناس يأكلون منها قلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء من أمتك يأتون الحرام ويتركون الحلال قال ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الابل قال فيفتح على أفواههم فيلقمون من ذلك اللحم ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يضجون الى الله عز وجل فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء من أمتك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا قال ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بنساء يعلقن بثديهن فسمعتهن يضججن الى الله عز وجل قلت يا جبريل من هؤلاء النساء قال هؤلاء الزناة من أمتك قال ثم مضيت

وتلك

أوصاني بالصلاة وبأن الله واليه ذهب الفراء ولم يذكر مكي غيره وقيل على الثاني عطف على قوله اني عبد الله وهو من البعد بمكان (ربي وربكم فاعبدوه) هذا من تمام كلام عيسى بدليل ما قلت لهم الا ما أمرتني الآية (هذا صراط مستقيم) أي الذي ذكرته لكم من أنه ربي وربكم هو الطريق القيم الذي لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه (فاختلف الاحزاب) أي اليهود والنصارى (من بينهم) أي فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى فأفرطت النصارى وغلت وفرطت اليهود وقصرت ومن زائدة وقيل للتبعيض اذ بقي منهم فرقة أخرى مؤمنة يقولون انه عبد الله كما تقدم (فويل للذين كفروا) وهم المختلفون في أمره عبر عنهم بالموصول ايذانا بكفرهم جميعا واشعارا بعلة الحكم (من مشهد يوم عظيم) أي من شهود يوم القيامة وما يجري فيه من الحساب والجزاء والعقاب أو من مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وقيل المعنى فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور (أسمع بهم وأبصر) قال أبو العباس العرب تقول هذا في موضع التعجب فيقولون أسمع بزيد وأبصر به أي ما أسمعه وأبصره فعجب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم منهم وقال السمين هذا لفظ أمر ومعناه التعجب وقيل بل هو أمر حقيقة والمأمور هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أسمع الناس وأبصرهم بهم وبحالهم ماذا تصنع بهم من العذاب وهو منقول عن أبي العالية وقال ابن عباس يقول الكفار يومئذ أسمع شيء وأبصره وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون (يوم يأتوننا) للحساب والجزاء (لكن الظالمون) الاصل لكنهم وهو من اقامة الظاهر مقام المضمر للايذان بأنهم في ذلك ظالمون لانفسهم (اليوم) أي في الدنيا (في ضلال) أي خطأ (مبين) أي واضح ظاهر ولكنهم أغفلوا التفكر والاعتبار والنظر في الآثار (وأنذرهم) أي خوف يا محمد كفار مكة (يوم الحسرة) أي يوم يتحسرون جميعا فالمسيء يتحسر على اساءته والمحسن على عدم استكثاره من الخير وعن ابن عباس قال يوم الحسرة هو من أسماء يوم القيامة وقرأ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وفي سنده علي بن أبي طلحة وهو ضعيف والآية التي استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام (اذ قضي الامر) من الحساب وطويت الصحف وصار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار (وهم في غفلة) أي غافلين عما يعمل بهم

هنيهة فاذا أنا باقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر فيقول اللهم لا تقم الساعة قال وهم على سابلة آل فرعون قال فتجيء السابلة فتطأهم قال فسمعتهم يضجون الى الله قال قلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس قال ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون فيقال له كل كما كنت تأكل من لحم اخيك قلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الهمازون من امتك اللمازون قال ثم صعدنا الى السماء الثانية فاذا أنا برجل أحسن ما خلق الله عز وجل قد فضل الناس في الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب قلت يا جبريل من هذا قال هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه فسلمت عليه فرد علي ثم صعدت الى السماء الثالثة فاستفتح فاذا أنا بيحيى وعيسى عليهما السلام ومعهما نفر من قومهما فسلمت عليهما وسلما علي ثم صعدت الى السماء الرابعة فاذا أنا بادريس قد رفعه الله مكانا عليا فسلمت عليه فسلم علي قال ثم صعدت الى السماء الخامسة فاذا أنا بهرون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد لحيته تصيب سرته من طولها قلت يا جبريل من هذا قال هذا المحبب في قومه هذا هرون بن عمران ومعه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم علي ثم صعدت الى السماء السادسة فاذا أنا بموسى بن عمران رجل آدم كثير الشعر لو كان عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص فاذا هو يقول يزعم الناس اني أكرم على الله من هذا بل هذا أكرم على الله مني قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ومعه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم علي ثم صعدت الى السماء السابعة فاذا أنا بأبينا ابراهيم خليل الرحمن ساند ظهره الى البيت المعمور كأحسن رجل قلت يا جبريل من هذا قال هذا أبوك ابراهيم خليل الرحمن ومعه نفر من قومه فسلمت عليه فسلم علي واذا أنا بأمتي شطرين شطر عليهم ثياب بيض كأنهم القراطيس وشطر عليهم ثياب سود قال فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد وهم على خير فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور ثم خرجت أنا ومن معي قال والبيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه الى يوم القيامة قال ثم رفعت الى سدرة المنتهى فاذا كل ورقة منها تكاد تغطي هذه الأمة واذا فيها عين تجري يقال لها سلسبيل فينشق منها نهران أحدهما الكوثر

وتلك الحال متضمنة للتعليل أي انذرهم لانهم في حالة يحتاجون فيها الى الانذار وهي الغفلة والكفر (وهم لا يؤمنون) به أخرج البخاري ومسلم وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون اليه فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادي يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون اليه فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيؤمر به فيذبح ويقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنذرهم يوم الحسرة الآية وأشار بيده فقال أهل الدنيا في غفلة وأخرج النسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعا نحوه (انا نحن) تأكيد للضمير في انا لانه بمعناه (نرث الارض) اي نميت سكانها فلا يبقى بها احد يرث الاموات فكأنه سبحانه ورث الارض (ومن عليها) حيث اماتهم جميعا (والينا يرجعون) اي يردون الينا يوم القيامة فنجازي كلا بعمله وقد تقدم مثل هذا في سورة الحجر (واذكر) لكفار مكة (في الكتاب ابراهيم) اي خبره المراد بذكر الرسول اياه في الكتاب ان يتلو ذلك على الناس كقوله واتل عليهم نبأ ابراهيم فالمراد ماذكروا الا فالذاكر له هو الله في كتابه وعاش ابراهيم من العمر مائة وخمسا وسبعين سنة وبينه وبين آدم ألفا سنة وبينه وبين نوح ألف سنة ذكره السيوطي في التحبير (انه كان صديقا نبيا) تعليل لما تقدم من الامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بان يذكره وهي معترضة ما بين البدل والمبدل منه والصديق كثير الصدق بليغه أي اذكر ابراهيم الجامع لهذين الوصفين ولما ثبت ان كل نبي يجب ان يكون صديقا ولا يجب في كل صديق ان يكون نبيا ظهر بهذا قرب مرتبة الصديق من مرتبة النبي فلهذا انتقل من ذكر كونه صديقا الى ذكر كونه نبيا (اذ قال لابيه) بدل اشتمال من ابراهيم وتعليق الذكر بالوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة وابو ابراهيم هو آزر على ما تقدم تقريره (يا ابت) التاء عوض عن الياء ولهذا لا يجتمعان (لم تعبد) الاستفهام للانكار والتوبيخ اي لاي شيء ولاي سبب تعبد (ما لا يسمع) ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له (ولا يبصر) ما تفعله من عبادته ومن الافعال التي تفعلها مريدا بها الثواب ويجوز ان يحمل نفي السمع والابصار على ما هو أعم

من ذلك اى لا يسمع شيأ من المسموعات ولا يبصر شيأ من المبصرات (ولا يغنى عنك شيأ) من الاشياء فلا يجلب لك نفعا ولا يدفع عنك ضررا وهى الاصنام التى كان يعبدها آزر أورد ابراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح وصدر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه وامتثالا لامر ربه ووصف الاصنام بثلاثة أشياء كل واحد منها قادح فى الالهية ورتب هذا الكلام على غاية الحسن ثم كرر دعوته الى الحق فقال (يا أبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك) اى بعض العلم وهو علم الوحى أو التوحيد أو الآخرة أقوال ثلاثة ذكرها ابو حيان فاخبر انه قد وصل اليه من العلم نصيب لم يصل الى أبيه وانه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه الى الحق ويقتدر به على ارشاد الضال ولهذا امره باتباعه فقال (فاتبعنى) فى الايمان والتوحيد (أهدك صراطا سويا) مستويا موصلا الى المطلوب منجيا من المكروه ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال (يا أبت لا تعبد الشيطان) أى لا تطعه فان عبادة الاصنام هى من طاعة الشيطان ثم علل ذلك بقوله (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) حين ترك ما أمره به من السجود لآدم ومن اطاع من هو عاص لله سبحانه فهو عاص لله والعاصى حقيق بان تسلب عنه النعم وتحل به النقم قال الكسائى العصى والعاصى واحد ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال (يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) ان لم تتب قال الفراء معنى أخاف هنا أعلم وبه فسر الاقلون الآية واليه أشار فى التقرير وقال الاكثرون ان الخوف هنا محمول على ظاهره لان ابراهيم غير جازم بموت ابيه على الكفر اذ لو كان جازما بذلك لم يشتغل بنصحه فوجب اجراؤه على ظاهره ومعنى الخوف على الغير هو أن يظن وصول الضرر الى ذلك الغير (فتكون للشيطان وليا) أى انك ان أطعت الشيطان كنت معه قرينا فى النار واللعنة فتكون بهذا السبب مواليا له أو تكون بسبب موالاته فى العذاب معه وليس هنالك ولاية حقيقية لقوله سبحانه الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو وقيل الولى بمعنى التالى وقيل بمعنى القريب قال الشهاب الولى من الولى وهو القرب وكل من المتقاربين قريب من صاحبه أى تكون للشيطان قريبا منه فى النار تليه ويليك فلما مرت هذه النصائح النافعة والمواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة المفرطة حيث (قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم) ناداه باسمه ولم يقابل يا أبت بيا بنى وأخره وقدم

والآخر يقال له نهر الرحمة فاغتسلت فيه فغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ثم انى رفعت الى الجنة فاستقبلتنى جارية فقلت لمن انت يا جارية قالت لزيد بن حارثة واذا انا بانهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى واذا رمانها كالدلاء عظما واذا أنا بطير كأنها بختكم هذه فقال عندها صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال عرضت على النار فاذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ثم أغلقت (٢٢) دونى ثم انى رفعت الى سدرة المنتهى فتغشانى فكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى قال ونزل على كل ورقة منها ملك من الملائكة قال وفرضت على خمسون صلاة وقال لك بكل حسنة عشر فاذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتب لك حسنة فاذا عملتها كتبت لك عشرا واذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شئ فان عملتها كتبت عليك سيئة واحدة ثم رجعت الى موسى فقال فيما أمرك ربك قلت بخمسين صلاة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فان أمتك لا تطيق ذلك ومتى لا تكفر (٣) فرجعت الى ربى فقلت يارب خفف عن أمتى فانها أضعف الامم فوضع عنى عشرا وجعلها أربعين فما زلت أختلف بين موسى وربى كلما أتيت عليه قال لى مثل مقالته حتى رجعت اليه فقال لى بما امرت فقلت أمرت بعشر صلوات قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فرجعت الى ربى فقلت اى رب خفف عن أمتى فانها أضعف الامم فوضع عنى خمسا وجعلها خمسا فنادانى ملك عندها تمت فريضتى وخففت عن عبادى وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها ثم رجعت الى موسى فقال بما أمرت فقلت بخمس صلوات قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فانه لا يؤده شئ فاساله التخفيف لامتك فقلت رجعت الى ربى حتى استحييت ثم أصبح بمكة يخبرهم بالاعاجيب انى أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بى الى السماء ورأيت كذا وكذا فقال ابو جهل يعنى ابن هشام الا تعجبون مما قال محمد يزعم انه أتى البارحة بيت المقدس ثم أصبح فينا وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرا ومقبلة شهرا فهذه مسيرة شهرين فى ليلة واحدة قال فأخبرهم بعير لقريش لما كانت فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا وانها نفرت فلما رجعت وجدتها عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا وكذا ومتاعه كذا وكذا فقال أبو جهل يخبرنا بأشياء فقال رجل منهم أنا أعلم الناس ببيت المقدس وكيف بناؤه وهيئته وكيف ... الخبر

(٣) قوله ومتى لا تكفر كذا فى النسخ وحرر اه مصححه

قربه من الجبل قال فرفع لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المقدس من مقعده فنظر اليه كنظر أحدنا الى بيته قال بناؤه كذا وكذا وهيئته كذا وكذا وقربه من الجبل كذا وكذا فقال الآخر صدقت فرجع اليهم فقال صدق محمد فيما قال أو نحوا من هذا الكلام وكذا رواه الامام أبو جعفر بن جرير بطوله عن محمد بن عبد الاعلى عن محمد بن ثور عن معمر عن أبي هرون العبدى وعن الحسن ابن يحيى عن عبد الرزاق عن معمر عن أبي هرون العبدى به ورواه أيضا من حديث ابن اسحق حدثني روح بن القاسم عن أبي هرون به نحو سياقه المتقدم ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أحمد بن

عبدة عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبي هرون العبدى عن أبي سعيد الخدرى فذكره بسياق طويل حسن أنيق أجود مما ساقه غيره على غرابته وما فيه من النكارة ثم ذكره البيهقي أيضا من رواية روح بن قيس الحداني وهشيم ومعمر عن أبي هرون العبدى واسمه عمارة بن جوين وهو مضعف عند الائمة وانما سقنا حديثه ههنا لما فيه من الشواهد لغيره ولما رواه البيهقي أخبرنا الامام أبو عثمان اسمعيل بن عبد الرحمن انبأنا أبو نعيم احمد بن محمد بن ابراهيم البزار حدثنا ابو حامد بن بلال حدثنا ابو الازهر يزيد بن ابي حكيم قال رأيت في النوم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت يارسول الله رجل من أمتك يقال له سفيان الثورى لا بأس به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بأس حدثنا عن ابي هرون العبدى عن ابي سعيد الخدرى عنك ليلة اسرى بك قلت رأيت في السماء فحدثته بالحديث فقال لي نعم فقلت له يارسول الله ان ناسا من أمتك يحدثون عنك في السرى بعجائب فقال لي ذلك حديث القصاص

رواية شداد بن اوس قال الامام ابو اسمعيل محمد بن اسمعيل الترمذى حدثنا اسحق بن ابراهيم بن العلاء بن الضحاك الزبيدى حدثنا عمرو بن الحرث عن عبد الله بن سلام الاشعري عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدى حدثنا الوليد بن عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثنا شداد بن أوس قال قلنا يارسول الله كيف أسرى بك قال صليت لاصحابي صلاة العتمة بمكة معتما فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيض أو قال بيضاء فوق الحمار ودون البغل فقال اركب فاستصعب على فرازها باذنها ثم حملني عليها فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث انتهى طرفها حتى بلغنا أرضا ذات نخل فأنزلني فقال صل فصليت ثم ركبت فقال أتدري أين

الخبر على المبتدا وصدره بهمزة الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب ولانكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل والمعنى أمعرض أنت عن ذلك ومنصرف الى غيره ثم توعده وهدده فقال (لئن لم تنته) عن مقالتك فيها أو الرغبة عنها واللام للقسم (لأرجمنك) بالحجارة حتى تموت وقيل باللسان فيكون معناه لاشتمنك قاله ابن عباس وقيل معناه لاضربنك وقيل لابعدنك عني بالقول القبيح وقيل لاظهرن أمرك فاحذرني (واهجرني مليا) أي زمانا طويلا وقال ابن عباس حينا قال الكسائي يقال هجرته مليا وملوة وملاوة بمعنى الملاوة من الزمان وهو الطويل وقيل معناه اعتزلني سالم العرض سويا لا تصيبك مني معرة واختار هذا ابن جرير وعن ابن عباس قال اجتنبني سويا واجتنبني سالما قبل أن تصيبك مني عقوبة وعن عكرمة مليا دهرا وعن قتادة سالما وعن الحسن مثله فلما رأى ابراهيم اصرار أبيه على العناد (قال سلام عليك) أي تحية توديع ومقاطعة ومتاركة كقوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقيل معناه أمنة مني لك قاله ابن جرير وانما أمنه مع كفره لانه لم يؤمر بقتاله والاول أولى وبه قال الجمهور وقيل معناه الدعاء له بالسلامة استمالة له ورفقا به وهذا في مقابلة قوله لئن لم تنته وهذا مقابلة للسيئة بالحسنة ثم وعده بان يطلب له المغفرة من الله سبحانه تألفا له وطمعا في لينه وذهاب قسوته

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى في ثرى رمسه

فقال (سأستغفر لك ربي) وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على كفره وتحق عليه الكلمة ولهذا قال الله سبحانه في موضع آخر فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه بعد قوله وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه وقيل المراد باستغفاره له طلب توفيقه للايمان الموجب للمغفرة أي سأسأل الله ربي توبة تنال بها المغفرة يعني الاسلام والاستغفار للكافر بهذا الوجه جائز كأنه يقول اللهم وفقه للاسلام أو تب عليه واهده قاله الكرخي والصحيح هو الاول (انه كان بي حفيا) تعليل لما قبلها والمعنى سأطلب لك المغفرة من الله فانه كان بي كثير البر واللطف يقال حفي به وتحفى اذا بره قال الكسائي يقال حفي بي حفاوة وحفوة أي اعتنى بي وبالغ في اكرامي والطافي وقال الفراء حفيا أي عالما لطيفا يجيبني اذا دعوته وبه قال ابن عباس والحفي ايضا المستقصي في السؤال ومنه كأنك حفي عنها ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمتاركة فقال

(وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) اى اهاجر بدينى عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحى ولا نجعت فيكم دعوتى وهذا فى مقابلة قوله واهجرنى مليا (وأدعو ربى) وحده (عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) اى خائبا كما شقيتم بعبادة الاوثان وقيل عاصيا قيل اراد بهذا الدعاء هو ان يهب الله له ولدا واهلا يستأنس بهم فى اعتزاله ويطمئن اليهم عند وحشته وفى تصدير الكلام بعسى التواضع وهضم النفس والتنبيه على ان الاجابة والاثابة تفضل منه تعالى غير واجبين وان ملاك الامر خاتمته وهو غيب وقيل اراد دعاءه لابيه بالهداية وعسى للشك لانه كان لا يدرى أيستجاب له فيه ام لا والاول اولى لقوله (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) اى بان ذهب مهاجرا من بابل اوكوثى الى الارض المقدسة (وهبنا له اسحق ويعقوب) اى جعلنا هذين الموهوبين له اهلا وولدا بدل الاهل الذين فارقهم يأنس بهما وهذا يقتضى انه عاش حتى رأى يعقوب وهو كذلك كما مرت الاشارة اليه فى قوله فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب وخصهما لانه سيذكر اسمعيل بفضله منفردا قال ابن عباس وهبنا له اسحق ابنا ويعقوب ابن ابنه (وكلا) مفعول لجعلنا قدم عليه للتخصيص لكن بالنسبة اليهم أنفسهم لا بالنسبة الى من عداهم أى كل واحد منهم (جعلنا نبيا) لا بعضهم دون بعض (ووهبنا لهم من رحمتنا) أى للثلاثة بأن جعلناهم أنبياء وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان ان النبوة هى من باب الرحمة وقيل المراد بالرحمة هنا المال وسعة الرزق وقيل كثرة الاولاد وقيل الكتاب ولا يبعد ان يندرج تحتها جميع هذه الامور ومن للتبعيض (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) أى الثناء الحسن قاله ابن عباس عبر عنه باللسان لكونه يوجد به كما عبر باليد عن العطية واضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على انهم احقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد فى اللسان مجاز مرسل من اطلاق اسم الآلة وارادة ما ينشأ منها والمعنى وجعلنا لهم ثناء صادقا يذكرهم الامم كلها الى يوم القيامة بما لهم من الخصال المرضية ويصلون على ابراهيم وعلى آله الى قيام الساعة وهذا توبيخ لكفار مكة اذ كان مقتضى ترضيهم وثنائهم على المذكورين ان يتبعوهم فى الدين مع انهم لم يفعلوا ثم قفى الله سبحانه قصة ابراهيم بقصة موسى لانه تلوه فى الشرف وقدمه على اسمعيل لئلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب فقال (واذكر فى الكتاب) أى واقرأ عليهم من القرآن قصة (موسى انه كان مخلصا) بفتح اللام اى

صليت قلت الله أعلم قال صليت بيثرب صليت بطيبة فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها عند منتهى طرفها ثم بلغنا أرضا قال انزل ثم قال صل فصليت ثم ركبنا فقال أتدرى أين صليت قلت الله أعلم قال صليت بمدين صليت عند شجرة موسى ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ثم بلغنا أرضا بدت لنا قصور فقال انزل فنزلت فقال صل فصليت ثم ركبنا فقال اتدرى أين صليت قلت الله أعلم قال صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح بن مريم ثم انطلق بى حتى دخلنا المدينة من بابها اليمانى فأتى قبلة المسجد فربط فيه دابته ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر فصليت من المسجد حيث شاء الله

وأخذنى من العطش أشد ما أخذنى فأتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل أرسل الى بهما جميعا فعدلت بينهما ثم هدانى الله عز وجل فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبينى وبين يدى شيخ متكئ على مثواة له فقال أخذ صاحبك الفطرة انه ليهدى ثم انطلق بى حتى أتينا الوادى فاذا جهنم (٣) عن مثل الزرابى قلت يارسول الله كيف وجدتها قال وجدتها مثل الحمة السخنة ثم انصرف بى فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيرا لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة فأتانى أبو بكر رضى الله عنه فقال يارسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك فى مظانك فقال علمت انى اتيت بيت المقدس الليلة فقال يارسول الله انه مسيرة شهر فصفه لى قال ففتح لى صراط كانى انظر اليه لا يسألنى عن شئ الا انبأته به فقال أبو بكر أشهد انك لرسول الله وقال المشركون انظروا الى ابن أبى كبشة يزعم انه أتى بيت المقدس الليلة قال فقال ان من آية ما أقول لكم انى مررت بعير لكم فى مكان كذا وكذا وقد أضلوا بعيرا لهم فجمعه لهم فلان وان مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح اسود وغرارتان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريبا من نصف النهار حتى اقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا رواه البيهقى من طريقين عن ابى اسمعيل الترمذى به ثم قال بعد تمامه هذا اسناد صحيح وروى ذلك مفرقا من احاديث غيره ونحن نذكر من ذلك ان شاء الله ما حضرنا ثم ساق احاديث كثيرة فى الاسراء كالشاهد لهذا

جعلناه

(٣) عن مثل الزرابى كذا بالاصل وحرر الرواية اهـ

الحديث وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الامام أبو محمد عبد الرحمن ابن أبي حاتم في تفسيره عن أبيه عن اسحق بن
ابراهيم بن العلاء الزبيدي به ولاشك ان هذا الحديث أعني الحديث المروي عن شداد بن أوس مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح
كما ذكره البيهقي ومنها ما هو منكر كالصلاة في بيت لحم وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس وغير ذلك والله أعلم رواية عبد الله
ابن عباس رضي الله عنهما قال الامام أحمد حدثنا عثمان بن محمد حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه قال حدثنا ابن عباس قال ليلة
أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الجنة فسمع في جانبها وخشا فقال (٢٥) يا جبريل ما هذا قال هذا بلال المؤذن فقال
النبي صلى الله عليه وسلم حين جاء
الى الناس قد أفلح بلال رأيت له
كذا وكذا قال فلقيه موسى عليه
السلام فرحب به وقال مرحبا بالنبي
الامي قال وهو رجل آدم طويل
سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما
فقال من هذا يا جبريل قال هذا
موسى قال فمضى فلقيه شيخ جليل
متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم
يسلم عليه قال من هذا يا جبريل
قال هذا أبوك ابراهيم قال ونظر
في النار فاذا قوم يأكلون الجيف
قال من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء
الذين يأكلون لحوم الناس ورأى
رجلا أحمر أزرق جدا قال من هذا
يا جبريل قال هذا عاقر الناقة قال
فلما أتى رسول الله صلى الله عليه
وسلم المسجد الاقصى قام يصلي
فاذا النبيون أجمعون يصلون معه
فلما انصرف جيء بقدحين أحدهما
عن اليمين والآخر عن الشمال
في أحدهما لبن وفي الآخر عسل
فأخذ اللبن فشرب منه فقال
الذي كان معه القدح أصبت
الفطرة اسناده صحيح ولم يخرجوه
طريق آخر قال الامام أحمد حدثنا
حسن حدثنا ثابت أبو زيد حدثنا

هلال حدثني عكرمة عن ابن عباس قال أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ثم جاء
من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم فقال ناس نحن لانصدق محمدا بما يقول فارتدوا كفارا فضرب الله رقابهم
مع أبي جهل وقال أبو جهل يخوفنا محمد بشجرة الزقوم هاتوا تمرا وزبدا فتزقموا ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام
وعيسى وموسى وابراهيم وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال فقال رأيته فيلمانيا أقمر هجانا احدى عينيه قائمة كأنها
كوكب دري كأن شعر رأسه أغصان شجرة ورأيت عيسى عليه السلام أبيض جعد الرأس حديد البصر مبطن الخلق ورأيت

جعلناه مختارا أو أخلصناه وقرئ بكسرها أي أخلص العبادة والتوحيد لله غير مراء للعباد
(و) انه (كان رسولا نبيا) أي أرسله الله الى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التي شرعها لهم
فهذا وجه ذكر النبي بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوة فكأنه أراد بالرسول معناه
اللغوي لا الشرعي والله أعلم وقال النيسابوري الرسول النبي الذي معه كتاب والنبي
الذي ينبئ عن الله عز وجل وان لم يكن معه كتاب وكان المناسب ذكر الاعم قبل الاخص الا
ان رعاية الفواصل اقتضت عكس ذلك كقوله في طه رب هرون وموسى قال مجاهد النبي
هو الذي يكلم وينزل عليه ولا يرسل وفي لفظ الانبياء الذين ليسوا برسل يوحى الى أحدهم
ولا يرسل الى أحد والرسل الانبياء الذين يوحى اليهم ويرسلون (وناديناه) أي كلمناه كما في
سورة القصص في قوله فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة من
الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين (من جانب الطور الايمن) أي من ناحيته اليمنى
وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير ومعنى الايمن انه كان ذلك الجانب عن يمين موسى
حين أقبل من مدين متوجها الى مصر فان الشجرة كانت في ذلك الجانب والنداء وقع منها
وليس المراد يمين الجبل نفسه فان الجبال لا يمين لها ولا شمال وقيل معنى الايمن الميمون
ومعنى النداء انه تمثل له الكلام من ذلك الجانب قال قتادة جانب الجبل الايمن وهذا
صريح في ان المراد بالطور هو الذي عند بيت المقدس لا الطور الذي عند السويس لانه
يكون على يسار المتوجه من مدين الى مصر كما هو محسوس (وقربناه نجيا) أي أدنيناه
بتقريب المنزلة حتى كلمناه والنجي بمعنى المناجي كالجليس والنديم فالتقريب هنا هو
تقريب التشريف والاكرام مثلت حاله بحال من قربه الملك لمناجاته قال الزجاج قربه
منه في المنزلة حتى سمع مناجاته وقيل ان الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم روى هذا
عن بعض السلف وبه قال أبو العالية وروى نحوه عن جماعة من التابعين قال ابن عباس
حتى سمع صريف القلم يكتب في اللوح المحفوظ وأخرجه الديلمي عنه مرفوعا قال قتادة
في نجيا نجى بصدقه (ووهبنا له من رحمتنا) أي من نعمتنا وفي من هذه وجهان أحدهما
انها تعليلية أي من أجل رحمتنا والثاني انها تبعيضية أي بعض رحمتنا (أخاه هرون نبيا)
وذلك حين سأل ربه وقال واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي قال ابن عباس كان هرون
أكبر من موسى أي بأربع سنين ولكن انما وهب له نبوته (واذكر في الكتاب اسمعيل انه

موسى عليه السلام أسحم آدم كثير الشعر شديد الخلق ونظرت الى ابراهيم عليه السلام فلم أنظر الى ارب منه الا نظرت اليه مني حتى كأنه صاحبكم قال جبريل سلم على أبيك فسلمت عليه ورواه النسائي من حديث ابي زيد ثابت ابن زيد عن هلال وهو ابن حبان به وهو اسناد صحيح طريق أخرى وقال البيهقي انبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر الشافعي انبأنا اسحق بن الحسن حدثنا الحسين ابن محمد حدثنا شيبان عن قتادة عن أبي العالية حدثنا ابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلا (٢٦) طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق الى الحمرة والبياض سبط الرأس ومالكا خازن النار والدجال في آيات أراهن الله اياه قال فلا تكن في مرية من لقائه فكان قتادة يفسرها ان نبي الله قد لقي موسى صلى الله عليه وسلم وجعلناه هدى لبني اسرائيل قال جعل الله موسى هدى لبني اسرائيل رواه مسلم في الصحيح عن عبد بن حميد عن يونس بن محمد عن شيبان وأخرجاه من حديث شعبة عن قتادة مختصرا طريق أخرى قال حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة فقلت ماهذه الرائحة قال ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط المشط من يدها فقالت بسم الله فقالت بنت فرعون أبي قالت ربي وربك ورب أبيك قالت أولك رب غير أبي قالت نعم ربي وربك ورب أبيك الله قال فدعاها فقال ألك رب غيري قالت نعم ربي وربك الله عز وجل قال فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بهم التلقى فيها قالت ان لي اليك حاجة قال ماهي قالت تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع قال ذلك لما لك علينا من الحق قال فأمر بهم فالقوا واحدا من
واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم فقال يا أمه قعي ولا تقاعسي فانك على الحق قال وتكلم أربعة في المهد وهم صغار هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام اسناد لا بأس به ولم يخرجوه طريق أخرى قال الامام أحمد أيضا حدثنا محمد بن جعفر وروح بن المعنى قالا حدثنا عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة فظعت وعرفت ان الناس مكذبي فقعد معتزلا حزينا فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس اليه فقال له كالمستهزئ

(كان صادق الوعد) وصف الله سبحانه اسمعيل بصدق الوعد مع كون جميع الانبياء كذلك لانه كان مشهورا بذلك مبالغا فيه وناهيك انه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك وكان ينتظر لمن وعده بوعد الايام والليالي حتى قيل انه انتظر لبعض من وعده حولا والمراد باسمعيل هنا هو اسمعيل بن ابراهيم ولم يخالف في ذلك الا من لا يعتد به فقال هو اسمعيل بن حزقيل بعثه الله الى قومه فسلخوا جلدة رأسه فخيره الله فيما شاء من عذابهم وثوابه فاستعفاه ورضي بثوابه (وكان رسولا نبيا) قد استدل بهذا على ان الرسول لا يجب ان يكون صاحب شريعة فان أولاد ابراهيم كانوا على شريعته وقيل انه وصفه بالرسالة لكون ابراهيم أرسله الى جرهم وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجر أم اسمعيل بوادي مكة (وكان يأمر أهله) المراد به هنا أمته وقيل جرهم وقيل عشيرته كما في قوله وأنذر عشيرتك الاقربين والمراد (بالصلاة والزكاة) هنا هما العبادتان الشرعيتان ويجوز أن يراد معناهما اللغوي (وكان عند ربه مرضيا) أي رضيا زاكيا صالحا والمعنى قائما لله بطاعته وقيل رضيه لنبوته ورسالته وهذا نهاية في المدح لان المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات قال الفراء والكسائي من قال مرضي بني على رضيت قال وأهل الحجاز يقولون مرضو (واذكر في الكتاب ادريس) هو ابن شيث بن آدم لصلبه أفاده السيوطي في التحبير واسمه اخنوخ قيل هو جد نوح فان نوحا هو ابن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وعلى هذا فيكون جد أبي نوح ذكره الثعلبي وغيره وقد قيل ان هذا خطأ وامتناع ادريس للعجمة والعلمية وقولهم سمي به لكثرة دراسته الكتب لا يصح لانه لو كان افعيلا من الدرس لم يكن فيه الا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا وهو أول مرسل بعد آدم عليه السلام وأول من أعطي النبوة من بني آدم وأول من خط بالقلم ونظر في النجوم والحساب وأول من خاط الثياب وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار (انه كان صديقا نبيا) وذلك ان الله شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وقد اختلف في معنى قوله (ورفعناه مكانا عليا) فقيل ان الله رفعه الى السماء الرابعة وقيل الى السادسة وقيل الى الثانية وقد روى البخاري في صحيحه من حديث الاسراء وفيه ومنهم ادريس في الثانية وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر والصحيح انه في السماء الرابعة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل ان المراد برفعه ما أعطيه

هل كان من شئ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قال وماهو قال انى أسرى بى الليلة قال الى أين قال الى بيت المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم قال فلم ير ان يكذبه مخافة ان يجحد الحديث ان دعا قومه اليه فقال أرأيت ان دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم فقال هيا معشر بنى كعب بن لؤى قال فانفضت اليه المجالس وجاؤا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أسرى بى الليلة فقالوا الى أين قال الى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم قال فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على (٢٧) راسه متعجبا للكذب زعم قالوا وتستطيع ان تنعت لنا المسجد وفيهم من قد سافر الى ذلك البلد ورأى المسجد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمازلت أنعت حتى التبس على بعض النعت قال فجئ بالمسجد وانا انظر اليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعته وانا انظر اليه قال وكان مع هذا نعت لم احفظه قال فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب فيه أخرجه النسائى من حديث عوف وابى جميلة وهو الاصبهانى ورواه البيهقى من حديث النضر بن شميل وهوذة عن عوف وهو ابن ابى جميلة الاعرابى أحد الأئمة الثقات به رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال الحافظ أبو بكر البيهقى حدثنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب حدثنا السرى بن خزيمة حدثنا يوسف بن بهلول حدثنا عبد الله بن نمير عن مالك بن مغلول عن الزبير بن عدى عن طلحة بن مصرف عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود قال لما اسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهى الى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة واليها ينتهى مايصعد به حتى يقبض منها واليها ينتهى مايهبط به من فوقها حتى يقبض منها اذ يغشى السدرة مايغشى قال غشيها فراش من ذهب وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله المقحمات يعنى الكبائر ورواه مسلم فى صحيحه عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب كلاهما عن عبد الله بن نمير به ثم قال البيهقى وهذا الذى ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج وقد رواه أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم رواه مرة مرسلا بن دون ذكرهما ثم ان البيهقى ساق الاحاديث الثلاثة كما تقدم قلت وقد روى عن ابن مسعود بابسط من هذ

من شرف النبوة والزلفى عند الله وقيل انه رفع الى الجنة وقيل هو الرفعة بعلو المرتبة فى الدنيا والاول أصح عن ابن عباس قال كان ادريس خياطا وكان لا يغرز غرزة الا قال سبحان الله وكان يمسى حين يمسى وليس على الارض أفضل عملا منه فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال يارب ائذن لى فاهبط الى ادريس فأذن له فأتى ادريس فقال انى جئتك لاخدمك قال كيف تخدمنى وأنت ملك وأنا انسان ثم قال ادريس هل بينك وبين ملك الموت شئ قال الملك ذاك أخى من الملائكة قال هل تستطيع ان تنفعنى قال أما نؤخر شيأ أو نقدمه فلا ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت فقال اركب بين جناحى فركب ادريس فصعد الى السماء العليا فلقى ملك الموت وادريس بين جناحيه فقال له الملك ان لى اليك حاجة قال علمت حاجتك تكلمنى فى ادريس وقد محى اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله الا نصف طرفة عين فمات ادريس بين جناحى ملك أخرجه ابن أبى حاتم وعنه سألت كعبا فذكر نحوه فهذا هو من الاسرائيليات التى يرويها كعب وعنه قال رفع ادريس الى السماء السادسة وأخرج الترمذى وصححه وابن المنذر وابن مردويه قال حدثنا أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لما عرج بى رأيت ادريس فى السماء الرابعة وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا نحوه وعن مجاهد قال رفع ادريس كما رفع عيسى ولم يمت وعن ابن مسعود قال ادريس هو الياس وحسنه السيوطى (أولئك) خطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والاشارة الى الانبياء المذكورين من أول السورة الى هنا وهم عشرة أولهم فى الذكر زكريا وآخرهم فيه ادريس وهو مبتدأ وقوله (الذين أنعم الله عليهم) صفته و(من النبيين) بيان للموصول من بيان العام بالخاص و(من ذرية آدم) بدل منه باعادة الخافض وقيل من فيه للتبعيض يعنى ادريس ونوحا (وممن حملنا مع نوح) أى من ذرية من حملنا معه فى السفينة وهم من عدا ادريس فان ادريس من ذرية آدم لقربه منه وابراهيم من ذرية من حمل مع نوح لانه من ذرية سام بن نوح فان ابراهيم بن آزر وبينه وبين نوح عشرة قرون كما فى التحبير (ومن ذرية ابراهيم) وهم الباقون (و) من ذرية (اسرائيل) وهو يعقوب وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى وفيه دليل على ان أولاد البنات من الذرية وقيل انه أراد بقوله من ذرية آدم ادريس وحده وبقوله ممن حملنا مع نوح ابراهيم وحده وبقوله ومن ذرية ابراهيم اسمعيل واسحق ويعقوب

وفيه غرابة وذلك فيما رواه الحسن ابن عرفة في جزئه المشهور حدثنا مروان بن معاوية عن قتادة بن عبد الله التيمي حدثنا أبو ظبيان الجنبي قال كنا جلوساً عند أبي عبيدة بن عبد الله يعني ابن مسعود ومحمد بن سعد بن أبي وقاص وهما جالسان فقال محمد بن سعد لأبي عبيدة حدثنا عن أبيك ليلة أسري بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال أبو عبيدة لا بل حدثنا أنت عن أبيك فقال محمد لو سألتني قبل ان أسألك لفعلت قال فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعني عن أبيه كما سئل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل فحملني عليه ثم انطلق يهوي بنا (٢٨) كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه واذا هبط استوت يداه مع رجليه حتى مررنا برجل طوال سبط آدم كأنه من رجال أزد شنوءة وهو يقول فيرفع صوته يقول أكرمته وفضلته قال فدفعنا اليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال من هذا معك ياجبريل قال هذا أحمد قال مرحبا بالنبي الامي العربي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لامته قال ثم اندفعنا فقلت من هذا ياجبريل قال هذا موسى بن عمران قال قلت ومن يعاتب قال يعاتب ربه فيك قلت ويرفع صوته على ربه قال ان الله قد عرف له حدته قال ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السرج تحتها شيخ وعياله قال فقال لي جبريل اعمد الى أبيك ابراهيم فدفعنا اليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال ابراهيم من هذا معك ياجبريل قال هذا ابنك أحمد قال فقال مرحبا بالنبي الامي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لامته يابني انك لاق ربك الليلة وان أمتك آخر الامم وأضعفها فان استطعت أن تكون حاجتك أو جلها في أمتك فافعل قال ثم اندفعنا حتى انتهينا الى المسجد الاقصى فنزلت فربطت الدابة في الحلقة التي في باب المسجد التي كانت الانبياء تربطها ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد قال ثم أتيت بكاسين من عسل ولبن فأخذت اللبن فشربت فضرب جبريل عليه السلام منكبي وقال أصبت الفطرة ورب محمد قال ثم أقيمت الصلاة فأممتهم ثم انصرفنا فاقبلنا اسناد غريب ولم يخرجوه فيه من الغرائب سؤال الانبياء عنه عليه السلام ابتداء ثم سؤاله عنهم بعد انصرافه والمشهور في الصحاح كما تقدم ان جبريل كان يعلمه بهم اولا ليسلم عليهم سلام معرفة وفيه انه اجتمع بالانبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد الاقصى والصحيح انه انما اجتمع بهم في السموات ثم نزل الى البيت المقدس ثانياً وهم معه وصلى بهم

و بقوله اسرائيل موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى قال السدي هذه تسمية الانبياء الذين ذكرهم أما من ذرية آدم فادريس ونوح وأما من ذرية من حمل مع نوح فابراهيم وأما ذرية ابراهيم فاسمعيل واسحق ويعقوب وأما ذرية اسرائيل فموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى لان مريم من ذريته (وممن هدينا) أى من جملة من هدينا الى الاسلام (واجتبينا) بالايمان وقيل على الانام وهذا آخر الصفات والتقدير والكائنين ممن هدينا الخ واعلم انه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الانبياء بما يخصه من الثناء ثم جمعهم آخرا فقال أولئك الخ فرتب تعالى أحوال الانبياء الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبها بذلك على انهم كما فضلوا بأعمالهم فلهم منزلة في الفضل بولادتهم من هؤلاء الانبياء ثم بين انهم ممن هدينا واجتبينا منبها بذلك على انهم خصوا بهذه المنازل لهداية الله لهم ولانه اختارهم للرسالة (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) وهذا خبر لاولئك ويجوز أن يكون الخبر هو الذين انعم الله عليهم وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه والسجد والبكى جمع ساجد قياسا وباك على غير قياس وقياسه بكاة كقاض وقضاة وقد تقدم في سبحان بيان معنى خر واسجدا يقال بكى يبكي بكاء وبكا قال الخليل اذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أى ليس معه صوت ومنه قول الشاعر

بكت عيني وحق لها بكاها * وما يغني البكاء ولا العويل

قال الزجاج قد بين الله ان الانبياء كانوا اذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا خضوعا وخشوعا وخوفا وحذرا والمراد من الآيات ما خصهم به من الكتب المنزلة عليهم وقيل المراد بها ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد وفيه استحباب البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن قال صالح المري قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقال لي ياصالح هذه القراءة فأين البكاء وفي الحديث اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن ابن عباس اذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وقد استدل بهذه على مشروعية سجود التلاوة وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد عند تلاوة هذه الآية وقال بعضهم انه الصلاة وقال الرازي يحتمل انهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلوا ذلك لاجل ذكر السجود في الآية ولما مدح الله سبحانه هؤلاء الانبياء بهذه الصفات ترغيبا لغيرهم

فيه ثم انه ركب البراق وكرّ راجعا الى مكة والله أعلم طريق اخرى قال الامام احمد حدثنا هشيم حدثنا العوام عن جبلة بن سحيم
عن مرثد بن غفارة عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لقيت ليلة اسرى بى ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام
فتذاكروا أمر الساعة قال فردوا امرهم الى ابراهيم عليه السلام فقال لا علم لى بها فردوا امرهم الى موسى فقال لا علم لى بها فردوا
امرهم الى عيسى فقال اما وجبتها فلا يعلم بها احد الا الله عز وجل وفيما عهد الى ربى ان الدجال خارج قال ومعى قضيبان فاذا رآنى
ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله اذا رآنى حتى ان الحجر والشجر يقول يا مسلم ان تحتى كافرا فتعال فاقتله

لغيرهم فى الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ذكر اضدادهم تنفيرا للناس عن طريقتهم فقال
(فخلف) أى وجد وحدث (من بعدهم) أى من بعد النبيين المذكورين (خلف) أى عقب
سوء قال أهل اللغة يقال لعقب الخير والصدق خلف بفتح اللام ولعقب الشر والسوء خلف
بسكون اللام وقد قدمنا الكلام على هذا فى آخر الاعراف (أضاعوا الصلاة) أى أخروها
عن وقتها قاله الاكثر وهو أن لا يصلى الظهر حتى يأتى العصر ولا العصر حتى يأتى المغرب
وقيل أضاعوا الوقت وقيل كفروا بها وجحدوا وجوبها وقيل لم يأتوا بها على الوجه
المشروع وقيل تركوها كاليهود والنصارى والظاهر ان من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك
فرضا من فروضها أو شرطا من شروطها أو ركنا من أركانها فقد أضاعها ويدخل تحت
الاضاعة من تركها بالمرة أو جحدها دخولا أوليا واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية فقيل
فى اليهود وقيل فى النصارى وقيل فى قوم من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يأتون فى آخر
الزمان وقال بالاولين السدى وقال بالثالث مجاهد ولفظه هم من هذه الامة يتراكبون
فى الطرق كما تراكب الانعام لا يستحيون من الناس ولا يخافون من الله فى السماء وعن
ابن مسعود قال ليس اضاعتها تركها قد يضيع الانسان الشئ ولا يتركه ولكن اضاعتها اذا
لم يصلها لوقتها (واتبعوا الشهوات) أى فعلوا ما تشتهيه أنفسهم وترغب اليه من المحرمات
كشرب الخمر والزنا (فسوف يلقون غيا) هو الشر عند أهل اللغة كما ان الخير هو الرشاد
والمعنى انهم سيلقون شرا لا خيرا وقيل الغى الضلال وقيل الخيبة وقيل الخسران وقيل
الهلاك وقيل العذاب وقيل هو اسم واد فى جهنم تستعيذ من حره أوديتها أعد للزناة
وشربة الخمر وشهاد الزور وأكلة الربا والعاقين لوالديهم وقيل فى الكلام حذف والتقدير
سيلقون جزاء الغى قاله الزجاج ومثله قوله سبحانه يلق أثاما أى جزاء أثام أخرج أحمد
وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم وتلا هذه الآية قال يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة
واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ثم يكون خلف يقرؤن القرآن لا يعدو تراقيهم
ويقرأ القرآن ثلاثة مؤمن ومنافق وفاجر وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن
عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن
قلت يا رسول الله ما أهل الكتاب قال قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا قلت

قال فيهلكهم الله ثم يرجع الناس الى بلادهم وأوطانهم قال فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤن بلادهم فلا يأتون على شئ الا أهلكوه ولا يمرون على ماء الا شربوه قال ثم يرجع الناس الى فيشكونهم فادعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الارض من نتن ريحهم اى تنتن قال فينزل الله المطر فيجترف اجسادهم حتى يقذفهم فى البحر ففيما عهد الى ربى ان ذلك اذا كان كذلك ان الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهارا وأخرجه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب رواية عبد الرحمن ابن قرظ أعنى عبد الرحمن بن قرظ الثمالى قال سعيد بن منصور حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة حدثنى عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرظ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى من بين زمزم والمقام
جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا به حتى بلغ السموات العلى فلما رجع قال سمعت تسبيحا فى السموات العلى مع تسبيح
كثير سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات من ذى العلو بما علا سبحان العلى الاعلى سبحانه وتعالى ويذكر هذا الحديث عنه
قوله تعالى من هذه السورة تسبح له السموات السبع الآية رواية عمر بن الخطاب قال الامام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا حماد
ابن سلمة عن أبى سنان عن عبيد بن آدم وأبى مريم وأبى شعيب ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان بالجابية فذكر فتح بيت المقدس قال
قال ابو سلمة فحدثنى أبو سنان عن عبيد بن آدم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب أين ترى أن اصلى فقال ان أخذت عنى صليت

خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يديك فقال عمر ضاهيت اليهودية ولكن أصلي حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم الى القبلة فصلى ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في ردائه وكنس الناس فلم يعظم الصخرة تعظيما يصلي وراءها وهي بين يديه كما أشار به كعب الاخبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم ولكن من الله عليه بالاسلام فهدي الى الحق ولهذا لما أشار بذلك قال له امير المؤمنين عمر ضاهيت اليهودية ولا اهانها اهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من اجل انها قبلة اليهود ولكن اماط عنها الاذى وكنس عنها الكناسة بردائه وهذا شبيه بما جاء في صحيح مسلم عن ابي مرثد الغنوي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها رواية أبي هريرة وهي مطولة جدا وفيها غرابة قال الامام أبو جعفر بن جرير في تفسير سورة سبحان حدثنا علي بن سهل حدثنا حجاج حدثنا ابو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحي عن أبي هريرة او غيره شك أبو جعفر في قول الله عز وجل سبحان الذي أسرى بعبده ليلا الآية قال جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه ميكائيل فقال جبرائيل لميكائيل ائتني بطست من ماء زمزم كيما اطهر قلبه واشرح له صدره قال فشق عنه بطنه فغسله ثلاث مرات واختلف اليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم فشرح صدره فنزع ما كان فيه من غل وملأه علما وحلما وايمانا ويقينا واسلاما وختم بين كتفيه بخاتم النبوة ثم أتاه بفرس فحمل عليه كل خطوة منه منتهى بصره أو أقصى بصره قال فسار وسار معه جبريل عليهما السلام قال فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما هذا قال هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ثم اتى على قوم ترضخ رؤسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال ما هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين تتثاقل رؤسهم عن الصلاة المكتوبة ثم اتى على قوم على اقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الابل والنعم ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها قال ما هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين

ما أهل اللبن قال قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات وعن عائشة انها كانت ترسل بالصدقة لاهل الصدقة وتقول لا تعطوا منها بربريا ولا بربرية فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هم الخلف الذين قال الله فخلف من بعدهم خلف أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه وعن ابن مسعود قال الغي نهر وواد في جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات وقد قال بانه واد في جهنم البراء بن عازب واخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو ان صخرة زنة عشر عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفا ثم ينتهي الى غي وأثام قلت وما غي وأثام قال نهران في اسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار وهما اللذان ذكر الله في كتابه فسوف يلقون غيا ومن يفعل ذلك يلق أثاما وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الغي واد في جهنم (الا من تاب) مما فرط منه من تضييع الصلاة واتباع الشهوات فرجع الى طاعة الله (وآمن) به (وعمل) عملا (صالحا) الاستثناء منقطع قاله الزجاج وجرى أبو حيان وغيره على انه متصل وهو ظاهر الآية لما روي عن قتادة انه في حق هذه الامة ويجوز أن يحمل على التغليظ كما قال تعالى من استطاع اليه سبيلا وبهذا التأويل يحسن قول قتادة ان هذا الكلام نازل في شأن امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل في هذا الاستثناء دليل على ان الآية في الكفرة لا في المسلمين (فأولئك يدخلون الجنة) بفتح الياء وضم الخاء وقرئ بضم الياء وفتح الخاء (ولا يظلمون شيأ) أي لا ينقص من أجورهم شيء وان كان قليلا فان الله سبحانه يوفي أجورهم اليهم (جنات عدن) قرئ بالرفع على الابتداء وقرئ بالنصب على البدل من الجنة بدل البعض لكون جنات عدن بعضا من الجنة وعلى المدح أيضا قال أبو حاتم ولولا الخط لكان جنة عدن يعني بالافراد مكان الجمع وليس هذا بشيء فان الجنة اسم لمجموع الجنات التي هي بمنزلة الانواع للجنس وقرئ بصرف عدن ومنعها من الصرف على انها علم بمعنى العدن وهو الاقامة أي بساتين اقامة وصفها بالدوام بخلاف جنات الدنيا فانها لا تدوم أو علم لارض الجنة لكونها مقام اقامة (التي وعد) ها (الرحمن عباده) متلبسة أو متلبسين (بالغيب) والمعنى انهم لا يرونها فهي غائبة عنهم أو هم غائبون عنها (انه) اى الرحمن وقيل انه ضمير الشأن والامر لانه مقام تعظيم وتفخيم

وتفخيم (كان وعده) أى موعوده على العموم فيدخل فيه الجنات دخولا أوليا وقيل الوعد مصدر على بابه (مأتيا) أى هم يأتونها قال الفراء لم يقل آتيا لان كل ما أتاك فقد أتيته وكذا قال الزجاج وقال الزمخشرى كان وعده مفعولا منجزا (لا يسمعون فيها لغوا) هو الهذر والفضول من الكلام الذى يلغى ولا طائل تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم وقيل اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله (الا سلاما) هو استثناء منقطع أى سلام بعضهم على بعض أو سلام الله أو سلام الملائكة عليهم وقال الزجاج السلام اسم جامع للخير لانه يتضمن السلامة والمعنى ان أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم وانما يسمعون ما يسلمهم وأبدى الزمخشرى فيه ثلاثة أوجه ذكرها سليمان الجمل (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال المفسرون ليس فى الجنة بكرة ولا عشية ولا نهار ولا ليل بل ضوء ونور أبدا ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء فى الدنيا وقال ابن عباس وانما يعرفون الليل بارخاء الحجب وغلق الابواب والنهار بفتحها ورفع الحجب كما روى والرزق فى البكرة والعشى أفضل العيش عند العرب وقيل أراد دوام الرزق أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول عن الحسن وأبى قلابة قالا قال رجل يا رسول الله هل فى الجنة من ليل قال وما هيجك على هذا قال سمعت الله يذكر فى الكتاب ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا فقلت الليل من البكرة والعشى فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس هناك ليل وانما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو وتأتيهم طرف الهدايا من الله بمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا وتسلم عليهم الملائكة (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) أى هذه الجنة التى وصفنا أحوالها نورثها ونعطيها وننزل بها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال مورثه ولا يرد كالميراث الذى يأخذه الوارث فلا يرجع فيه المورث أى نبقيها عليهم من ثمرة تقواهم قرئ نورث بفتح الواو وتشديد الراء من ورث مضعفا وبالتخفيف وقرأ الاعمش نورثها بابراز عائد الموصول وقيل فى الكلام تقديم وتأخير أى نورث من كان تقيا من عبادنا والوراثة أقوى لفظ يستعمل فى التملك والاستحقاق من حيث انها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا تبطل برد ولا اسقاط وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لاهل النار لو أطاعوا زيادة فى كرامتهم والآية تدل على ان المتقى يدخلها وليس فيها دلالة على ان غير المتقى لا يدخلها وأيضا

لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله تعالى شيأ وما الله بظلام للعبيد ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ولحم آخر نيء قذر خبيث فجعلوا يأكلون من اللحم النيء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال ما هؤلاء يا جبريل فقال هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى تصبح قال ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب الا شقته ولا شيء الا خرقته قال ما هذا يا جبريل قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون الآية قال ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال ما هذا يا جبريل قال هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال ما هذا يا جبريل فقال هؤلاء خطباء الفتنة ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال ما هذا يا جبريل فقال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة وريح مسك وسمع صوتا فقال يا جبريل ما هذه الريح الطيبة الباردة وما هذا المسك وما هذا الصوت قال هذا صوت الجنة تقول يا رب ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت غرفى واستبرقى وحريرى وسندسى وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى وفضتى وذهبى وأكوابى وصحافى وأباريقى وكؤوسى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى فأتنى بما وعدتنى فقال لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحا ولم يشرك بى شيأ ولم يتخذ من دونى اندادا ومن خشينى فهو آمن ومن سألنى أعطيته ومن أقرضنى جزيته ومن توكل على كفيته انى أنا الله لا اله الا أنا لا أخلف الميعاد وقد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين قالت قد رضيت قال ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا خبيثة فقال ما هذه الريح يا جبريل وما هذا الصوت فقال هذا صوت جهنم تقول يا رب ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى وقد بعد قعرى واشتد حرى فأتنى بما وعدتنى قال لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة

وكل خبيث وخبيثة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب قالت قد رضيت قال ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه الى الصخرة
ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا يا جبريل من هذا معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قالوا أوقد أرسل اليه قال
نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الاخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء قال ثم لقي ارواح الانبياء فأثنوا على ربهم فقال ابراهيم
عليه السلام الحمد لله الذي اتخذني خليلا واعطاني ملكا عظيما وجعلني أمة قانتا يؤتم بي وانقذني من النار وجعلها علي بردا
وسلاما ثم ان موسى عليه السلام أثنى على ربه فقال الحمد لله الذي كلمني تكليما وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني

اسرائيل على يدي وجعل من أمتي قوما يهدون بالحق وبه يعدلون ثم ان داود عليه السلام أثنى على ربه فقال الحمد لله الذي جعل لي ملكا عظيما وعلمني الزبور وألان لي الحديد وسخر لي الجبال يسبحن والطير واعطاني الحكمة وفصل الخطاب ثم ان سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال الحمد لله الذي سخر لي الرياح وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وعلمني منطق الطير وآتاني من كل شيء فضلا وسخر لي جنود الشياطين والانس والطير وفضلني على كثير من عباده المؤمنين وآتاني ملكا عظيما لا ينبغي لاحد من بعدي وجعل ملكي ملكا طيبا ليس فيه حساب ثم ان عيسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل فقال الحمد لله الذي جعلني كلمته وجعل مثلي كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وجعلني اخلق من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون

طيرا باذن الله وجعلني أبرئ الاكمه والابرص وأحيي الموتى باذن الله ورفعني وطهرني وأعاذني وامي من الشيطان
الرجيم فلم يكن للشيطان علينا سبيل قال ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم أثنى على ربه عز وجل فقال كلكم أثنى على ربه واني مثن على
ربي فقال الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيرا ونذيرا وأنزل علي الفرقان فيه بيان لكل شيء وجعل أمتي خير أمة
اخرجت للناس وجعل أمتي أمة وسطا وجعل أمتي هم الاولون وهم الآخرون وشرح لي صدري ووضع عني وزري ورفع لي ذكري
وجعلني فاتحا وخاتما فقال ابراهيم عليه السلام بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وسلم قال أبو جعفر الرازي خاتم بالنبوة فاتح

صاحب الكبيرة متق عن الكفر (وما نتنزل الا بأمر ربك) أي قال الله سبحانه قل يا جبريل وما نتنزل وقتا غب وقت الا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استبطأ نزول جبريل عليه حين سألوه في أمر الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين فأمر جبريل ان يخبره بان الملائكة ما تتنزل الا بأمر الله قيل احتبس جبريل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعين يوما وقيل خمسة عشر وقيل اثني عشر وقيل ثلاثة أيام وقيل ان هذا حكاية عن أهل الجنة وانهم يقولون عند دخولها وما نتنزل هذه الجنان الا بأمر ربك والاول أولى بدلالة ما قبله ومعناه يحتمل وجهين الاول وما نتنزل عليك الا بأمر ربك لنا بالتنزل والثاني وما نتنزل عليك الا بأمر ربك الذي يأمرك بما شرعه لك ولامتك والتنزل النزول على مهل فانه مطاوع نزل بالتشديد وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق نزل المشدد بمعنى أنزل وقد اخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل ما يمنعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت هذه الآية الى آخرها وكان ذلك الجواب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي الباب روايات تدل على انه السبب في النزول ثم أكد جبريل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال (له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) أي من الجهات والاماكن أو من الازمنة الماضية والمستقبلة وما بينهما من الزمان أو المكان الذي نحن فيه فلا نقدر ان ننتقل من جهة الى جهة ومن مكان الى مكان أو من زمان الى زمان الا بأمر ربك ومشيئته وقيل المعنى له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة قاله سعيد بن جبير وقيل ما امامنا من أمور الآخرة وما خلفنا من امور الدنيا وما بين ذلك أي ما يكون من هذا الوقت الى قيام الساعة وقيل هو ما بين النفختين قاله قتادة وقيل الارض التي بين أيدينا اذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والارض وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبر منها والحالة التي نحن فيها وعلى هذه الاقوال كلها يكون المعنى ان الله سبحانه هو المحيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فلا نقدم على أمر الا باذنه وقال ما بين ذلك ولم يقل ما بين ذينك لان المراد ما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه عوان بين ذلك (وما كان ربك نسيا) ناسيا اي لم ينسك ولم يتركك وان تأخر عنك الوحي وقيل المعنى انه عالم بجميع الاشياء لا ينسى منها شيأ وقيل المعنى وما كان ربك ينسى الارسال اليك عند الوقت

الذي

الذي يرسل فيه رسلها أخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي الدرداء رفع الحديث قال ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته فان الله لم يكن لينسى شيأ ثم تلا وما كان ربك نسيا ومن حديث جابر عند ابن مردويه مثله (رب السموات والارض) أي خالقهما (و) خالق (ما بينهما) ومالكهما ومالك ما بينهما ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه وكيف يتصور أن يحوم حول ساحته الغفلة وفيه دليل على ان فعل العبد خلق الله لانه حاصل بين السموات والارض ثم امر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بعبادته والصبر عليها فقال (فاعبده واصطبر لعبادته) الفاء للسببية لان كونه لا ينسى وكونه رب العالمين سبب موجب لان يعبد وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يتعدى بها لتضمنه معنى الثبات (هل تعلم له سميا) الاستفهام للانكار والمعنى انه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه ان يفرد بالعبادة وتخلص له هذا مبني على ان المراد بالسمي هو الشريك في المسمى وقيل المراد به الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب فقيل المعنى انه لم يسم شئ من الاصنام ولا غيرها بالله قط يعني بعد دخول الالف واللام التي عوضت عن الهمزة ولزمت أو برب السموات والارض واليه نحا أبو السعود والجملة تأكيد لما أفادته الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب تخصيص العبادة به تعالى قال الزجاج تأويله والله أعلم هل تعلم له سميا يستحق ان يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون وعلى هذا الاسمي لله في جميع أسمائه لان غيره وان سمي بشئ من أسمائه فلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف والمراد بنفي العلم المستفاد من الانكار هنا نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله وقال ابن عباس هل تعلم أي تعرف للرب شبها أو مثلا ليس أحد يسمى الرحمن غيره وعنه قال يا محمد هل تعلم لالهك من ولد (ويقول الانسان) المراد به ههنا الكافر لان الاستفهام هنا للانكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث قال ابن جريج الانسان هو العاص بن وائل وقيل أبي بن خلف او الوليد بن المغيرة النازل فيه الآية وهذا من قبيل العام الذي اريد به الخاص وقيل اللام في الانسان للجنس بأسره وان لم يقل هذه المقالة الا بعضهم وهم الكفرة فقد يسند الى الجماعة

بالشفاعة يوم القيامة ثم أتي بآنية ثلاثة مغطاة افواهها فاتي باناء منها فيه ماء فقيل له اشرب فشرب منه يسيرا ثم دفع اليه اناء آخر فيه لبن فقيل له اشرب فشرب منه حتى روى ثم دفع اليه اناء آخر فيه خمر فقيل له اشرب فقال لا أريده قد رويت فقال له جبريل أما انها ستحرم على امتك ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك الا القليل قال ثم صعد به الى السماء فاستفتح فقيل من هذا يا جبريل فقال محمد فقالوا أوقد أرسل اليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الاخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ففتح لهما فدخل فاذا هو برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شئ كما ينقص من خلق الناس عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة فاذا نظر الى الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر واذا نظر الى الباب الذي عن شماله بكى وحزن فقلت يا جبريل من هذا الشيخ التام الخلق الذي لم ينقص من خلقه شئ وما هذان البابان فقال هذا أبوك آدم وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة فاذا نظر الى من يدخل الجنة من ذريته ضحك واستبشر والباب الذي عن شماله باب جهنم اذا نظر الى من يدخلها من ذريته بكى وحزن ثم صعد به جبريل الى السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا معك فقال محمد رسول الله قالوا أوقد أرسل اليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الاخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء قال فدخل فاذا هو بشابين فقال يا جبريل من هذان الشابان قال هذا عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا الخالة عليهما السلام قال فصعد به الى السماء الثالثة فاستفتح فقالوا من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا أوقد أرسل اليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الاخ ونعم الخليفة ونعم

المجيء جاء قال فدخل فاذا هو برجل قد فضل على الناس في الحسن كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب قال من هذا يا جبريل الذي قد فضل على الناس في الحسن قال هذا أخوك يوسف عليه السلام قال ثم صعد به الى السماء الرابعة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا أوقد أرسل اليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الاخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء قال فدخل فاذا هو برجل قال من هذا يا جبريل قال هذا ادريس عليه السلام رفعه الله مكانا عليا ثم صعد به الى السماء الخامسة فاستفتح فقالوا من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا أوقد أرسل اليه قال نعم

ما قام بواحد منهم وعلى كل فلفظ الانسان لا يشمل المؤمنين (أئذا ما مت) قرئ على الاستفهام وعلى الخبر (لسوف اخرج حيا) من القبر كما يقول محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاستفهام بمعنى النفى اى لا احيى بعد الموت وحيا حال مؤكدة لان من لازم خروجه من القبر ان يكون حيا وهو كقوله ويوم ابعث حيا (أولا يذكر الانسان انا خلقناه) الهمزة للانكار التوبيخى والواو لعطف الجملة على أخرى مقدرة اى ايقول ذلك ولا يذكر وقرئ يذكر بالتخفيف وبالتشديد وأصله يتذكر وفى قراءة أبى أولا يتذكر والمراد بالذكر هنا اعمال الفكر اى ألا يتفكر هذا الجاحد فى أول خلقه فيستدل بالابتداء على الاعادة والابتداء أعجب واغرب من الاعادة لان النشأة الاولى هى اخراج لهذه المخلوقات من العدم الى الوجود ابتداعا واختراعا لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الاولى فكانت كالمثال لها ومعنى (من قبل) من قبل بعثه وقدره الزمخشرى من قبل الحالة التى هو عليها الآن وهى حالة بقائه (ولم يك شيأ) اى والحال انه لم يكن حينئذ شيأ من الاشياء أصلا فالاعادة بعد أن كان شيأ موجودا اسهل وايسر واهون ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التى اجمع العقلاء على أنه لم تكن فى حجج البعث حجة أقوى منها اكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافا الى رسوله تشريفا له وتعظيما ولان العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين فقال (فوربك لنحشرنهم) أى لنسوقنهم الى المحشر بعد اخراجهم من قبورهم احياء كما كانوا (والشياطين) والواو للعطف أو بمعنى مع والمعنى ان هؤلاء الجاحدين للبعث يحشرهم الله مع شياطينهم الذين اغووهم واضلوهم فى سلسلة وهذا ظاهر على جعل اللام فى الانسان للعهد وهو الانسان الكافر وأما على جعلها للجنس فلكونه قد وجد فى الجنس من يحشر مع شيطانه (ثم لنحضرنهم حول جهنم) من خارجها قبل دخولها وقيل من داخلها (جثيا) جمع جاث من قولهم جثا على ركبتيه يجثو جثوا اى جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب أو يكون الجثى على الركب شأن أهل الموقف كما فى قوله سبحانه وترى كل أمة جاثية وقيل المراد بقوله جثيا جماعات وأصله جمع جثوة والجثوة هى المجموع من التراب والحجارة قال ابن عباس جثيا قعودا (ثم لننزعن من كل شيعة) أى من كل أمة وفرقة وأهل دين وملة من الكفار والشيعة الفرقة التى تبعت دينا من الاديان وخصص ذلك الزمخشرى فقال هى الطائفة التى

قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الاخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء قال فدخل فاذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم قال من هذا يا جبريل ومن هؤلاء حوله قال هذا هرون المحبب وهؤلاء بنو اسرائيل ثم صعد به الى السماء السادسة فاستفتح فقالوا من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا أوقد أرسل اليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الاخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء قال فدخل فاذا هو برجل جالس فجاوزه فبكى الرجل فقال يا جبريل من هذا قال موسى قال فما باله يبكي قال زعم بنو اسرائيل انى أكرم بنى آدم على الله عزوجل وهذا رجل من بنى آدم قد خلفنى فى دنيا وأنا فى الاخرى فلو انه بنفسه لم أبال ولكن مع كل نبى أمته قال ثم صعد به الى السماء السابعة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قالوا أوقد أرسل اليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الاخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء قال فدخل فاذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسى وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس وقوم فى ألوانهم شئ فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شئ فدخلوا نهرا فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شئ ثم دخلوا نهرا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم شئ ثم دخلوا نهرا آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم فجاؤا فجلسوا الى أصحابهم فقال يا جبريل من هذا الاشمط ثم من هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شئ وما هذه الانهار التى دخلوا فجاؤا وقد صفت ألوانهم قال هذا أبوك ابراهيم أول من شمط على وجه الارض وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا ايمانهم بظلم وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شئ فقوم خلطوا اعملا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتاب الله عليهم وأما الانهار فأولها رحمة الله والثانى نعمة الله والثالث سقاهم ربهم شرابا طهورا شاعت
قال ثم انتهى الى السدرة فقيل له هذه السدرة ينتهى اليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك فاذا هى شجرة يخرج من أصلها انهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها والورقة منها تغطى الامة كلها قال فغشيها نور الخلاق عزوجل وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين وقع على الشجرة من حب الرب تبارك وتعالى قالوا فكلمه الله عند ذلك فقال له سل فقال انك اتخذت ابراهيم خليلا وأعطيته ملكا

عظيما وكلمت موسى تكليما وأعطيت داود ملكا عظيما وألنت له الحديد وأعطيت سليمان ملكا وسخرت له والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيت له ملكا لا ينبغي لاحد من بعده وعلمت عيسى التوراة والانجيل وجعلته يبرئ الاكمه والابرص ويحيي الموتى باذنك وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل فقال له الرب عز وجل وقد اتخذتك خليلا وهو مكتوب في التوراة حبيب الرحمن وأرسلتك الى الناس كافة بشيرا ونذيرا وشرحت لك صدرك ووضعت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك فلا أذكر الا ذكرت معي وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس وجعلت أمتك أمة وسطا

شاعت اى تبعت غاويا من الغواة قال الله تعالى ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا (أيهم اشد على الرحمن عتيا) اى اعصى لله واعتى وقال ابن عباس عتيا معصية وعصيا فانه ينزع من كل طوائف الغي والفساد اعصاهم واعتاهم فاذا اجتمعوا اطرحهم في جهنم والعتي هنا مصدر كالعتو وهو التمرد في العصيان اى عصيا او جرأة وقيل المعنى لننزعن من اهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر قاله قتادة وفي ذكر الاشد تنبيه على انه تعالى يعفو عن كثير من أهل العصيان ولو خص ذلك بالكفرة فالمراد انه يميز طوائفهم اعتاهم فاعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب أو يدخل كلا طبقته التي تليق به وللنحويين في اعراب أيهم كلام طويل وأقوال كثيرة أظهرها عند الجمهور من المعربين وهو مذهب سيبويه ان أيهم موصولة بمعنى الذي وان حركتها حركة بناء وأشد خبر مبتدا مضمر والجملة صلة لاي وأيهم وصلتها في محل نصب مفعولا به لننزعن وعتيا تمييز محول عن المبتدا المحذوف الذي هو وأشد اى عتوه أشد من عتو غيره وعن ابن مسعود قال يحشر الاول على الآخر حتى اذا تكاملت العدة أثارهم جميعا ثم بدأ بالاكابر فالاكابر جرما ثم قرأ فوربك لنحشرنهم الى قوله عتيا (ثم لنحن اعلم بالذين هم أولى بها صليا) بكسر الصاد وضمها سبعيتان قال ابن جريج يعني أيهم أحق وأولى بالخلود في جهنم يقال صلى يصلى صليا مثل مضى الشئ يمضي مضيا قال الجوهري يقال صليت الرجل نارا اذا ادخلته النار وجعلته يصلاها فان القيته القاء كأنك تريد الاحراق قلت أصليته بالنار بالالف وصليته تصلية ومنه ويصلى سعيرا ومن خفف فهو من قولهم صلى فلان النار بالكسر يصلى صليا احترق قال الله تعالى بالذين هم أولى بها صليا ومعنى الآية ان هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتيا هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار (وان منكم الا واردها) الخطاب للناس من غير التفات أو للانسان المذكور فيكون التفاتا وقيل للكفار وقرئ وان منهم لمناسبة الآيات التي قبل هذه فانها في الكفار وهي قوله فوربك لنحشرنهم الآيات وكذلك قرأ عكرمة وجماعة لكن الاكثرون على ان الخطاب العالم كلهم والمعنى ما منكم من أحد مسلما كان أو كافرا الا واردها أى واصلها وداخلها والضمير يرجع الى النار وقيل الى يوم القيامة والاول أولى وقد اختلف الناس في هذا الورود فقيل الورود الدخول لقوله لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها لكنه يختص بالكفار لقراءة وان منهم وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات

وجعلت أمتك هم الاولين وهم الآخرين وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا انك عبدي ورسولي وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم وجعلتك أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا وأولهم يقضى له وأعطيتك سبعا من المثاني لم يعطها نبي قبلك وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم الاسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلتك فاتحا خاتما فقال النبي صلى الله عليه وسلم فضلني ربي بست أعطاني فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث وأرسلني الى الناس كافة بشيرا ونذيرا وقذف في قلوب أعدائي الرعب من مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وجعلت لي الارض كلها طهورا ومسجدا قال وفرض عليه خمسين صلاة فلما رجع الى موسى قال بم أمرت يا محمد قال بخمسين صلاة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك اضعف الامم فقد لقيت من بني اسرائيل شدة قال فرجع النبي صلى الله عليه وسلم الى ربه عز وجل فسأله التخفيف فوضع عنه عشرا ثم رجع الى موسى فقال بكم أمرت قال بأربعين قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الامم ولقد لقيت من بني اسرائيل شدة قال فرجع النبي صلى الله عليه وسلم الى ربه فسأله التخفيف فوضع عنه عشرا فرجع الى موسى فقال بكم أمرت قال أمرت بثلاثين فقال له موسى ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الامم وقد لقيت من بني اسرائيل شدة قال فرجع الى ربه فسأله التخفيف فوضع عنه عشرا فرجع الى موسى فقال بكم

أمرت قال أمرت بعشرين قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الامم وقد لقيت من بنى اسرائيل شدة قال فرجع الى ربه فسأله التخفيف فوضع عنه عشرا فرجع الى موسى فقال بكم أمرت قال أمرت بعشر قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الامم وقد لقيت من بنى اسرائيل شدة قال فرجع الى ربه فسأله التخفيف فوضع عنه خمسا فرجع الى موسى فقال بكم أمرت قال أمرت بخمس قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الامم وقد لقيت من بنى اسرائيل شدة قال قد رجعت الى ربى حتى استحييت فما أنا براجع اليه قيل أما انك كما صبرت نفسك على خمس صلوات

فانهن يجزين عنك خمسين صلاة فان كل حسنة بعشر أمثالها قال فرضى محمد صلى الله عليه وسلم كل الرضا قال وكان موسى عليه السلام من أشدهم عليه حين مر به وخيرهم له حين رجع اليه ثم رواه ابن جرير عن محمد بن عبيد الله عن أبى النضر هاشم بن القاسم عن أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية أو غيره شك أبو جعفر عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكره بمعناه وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقى عن أبى سعيد الماليني عن ابن عدى عن محمد بن الحسن السكونى البالسى بالرملة حدثنا على بن سهل فذكر مثل مارواه ابن جرير عنه وذكر البيهقى ان الحاكم أبا عبد الله رواه عن اسمعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعرانى عن جده عن ابراهيم بن حمزة الزبيرى عن حاتم بن اسمعيل حدثنى عيسى بن ماهان يعنى أبا جعفر الرازى عن الربيع ابن أنس عن أبى العالية عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكره وقال ابن أبى حاتم ذكر أبو زرعة حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا يونس بن بكير حدثنا عيسى بن عبد الله التميمى عن أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس البكرى عن أبى العالية أو غيره شك عيسى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام فذكر الحديث بطوله كنحو مما سقناه قلت وأبو جعفر الرازى قال فيه الحافظ أبو زرعة الرازى يهم فى الحديث كثيرا وقد ضعفه غيره أيضا ووثقه بعضهم والظاهر انه سيء الحفظ ففيما تفرد به نظر وهذا الحديث فى بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة وفيه شيء من حديث المنام من رواية سمرة بن جندب فى المنام الطويل عند البخارى ويشبه

ويستثنى الانبياء والمرسلون وتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على ابراهيم وقالت فرقة الورود هو المرور على الصراط لان الصراط ممدود عليها فيسلم أهل الجنة ويتقاذف أهل النار وعلى هذا لا يستثنى الانبياء والمرسلون بل يمر عليه جميع الخلق روى ذلك عن ابن عباس وكعب الاحبار والسدى ورواه السدى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم والحسن وعن مجاهد ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده فى الدنيا لقوله صلى الله عليه وآله وسلم الحمى حظ كل مؤمن من النار وفيه بعد وقيل ليس الورود الدخول انما هو كما تقول وردت البصرة ولم أدخلها وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود وحمله على ظاهره لقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون قالوا فلا يدخل النار من ضمن الله ان يبعده عنها وأجابوا عنه بان معناه أنهم مبعدون عن العذاب فيها والاحتراق بها فمن دخلها وهو لا يشعر بها ولا يحس منها وجعا ولا ألما فهو مبعد عنها وقالت فرقة الورود هو الاشراف والاطلاع والقرب وذلك انهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم فيرونها وينظرون اليها فى حالة الحساب ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا اليه ويصار بهم الى الجنة كما سيأتى ومما يدل على ان الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى فلما ورد ماء مدين فان المراد انه أشرف عليه لا انه دخل فيه ولا يخفى ان القول بان الورود هو المرور على الصراط أو الورود على جهنم وهى خامدة فيه جمع بين الادلة من الكتاب والسنة فينبغى حمل هذه الآية على ذلك لانه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعدا من عذابها أو بحمله على المضى فوق الجسر المنصوب عليها وهو الصراط وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى والحاكم وصححه عن أبى سمية قال اختلفنا فى الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن وقال بعضنا يدخلونها جميعا ثم تنجى الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له فقال وأهوى باصبعه الى اذنيه صمتا ان لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على ابراهيم حتى ان للنار ضجيجا من بردها ثم تنجى الذين اتقوا الآية وأسنده أبو عمرو فى كتاب التمهيد وعلى هذا فالورود الدخول وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم وفى الحديث فتقول النار للمؤمنين جز يا مؤمن فقد اطفأ نورك لهبى

أن يكون مجموعا من أحاديث شتى أو منام أو قصة أخرى غير الاسراء والله أعلم وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عبد الرزاق انبأنا معمر عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسري بي لقيت موسى فنعته فاذا رجل حسبته قال مضطرب رجل الراس كأنه من رجال شنوءة قال ولقيت عيسى فنعته النبي صلى الله عليه وسلم قال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعني حمام قال ولقيت ابراهيم وأنا أشبه ولده به قال وأتيت باناءين في احدهما لبن وفي الآخر خمر فقيل لي خذ ايهما شئت فأخذت اللبن فشربت فقيل لي هديت الفطرة أو أصبت الفطرة اما انك لو أخذت الخمر غوت أمتك وأخرجاه من وجه آخر عن الزهري بنحوه وفي صحيح مسلم عن محمد بن رافع عن الحجين بن المثنى عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن ابي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم اثبتها فكربت كربا ما كربت مثله قط فرفعه الله الي انظر اليه ما سألوني عن شئ الا انبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الانبياء واذا موسى قائم يصلي واذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة واذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبها به عروة بن مسعود الثقفي واذا ابراهيم قائم يصلي اقرب الناس شبها به صاحبكم يعني نفسه فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت اليه فبدأني بالسلام وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حجاج ابن منهال حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي الصلت عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسري بي لما انتهيت الى السماء السابعة فنظرت فوق فاذا رعد وبرق وصواعق قال وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء آكلوا الربا فلما نزلت الى الدنيا نظرت اسفل مني قال فاذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم لا يتفكرون في ملكوت السموات والارض ولولا ذلك لرأوا العجائب ورواه الامام أحمد عن حسن وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة ورواه ابن ماجه من حديث حماد به *رواية جماعة من الصحابة ممن تقدم وغيرهم قال الحافظ البيهقي حدثنا ابو عبد الله يعني الحاكم حدثنا عبد الله بن يزيد بن يعقوب الدقاق

وعن مجاهد قال خاصم نافع بن الازرق ابن عباس فقال الورود الدخول وقال نافع لا فقرأ ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون وقال أورود ام لا وقرأ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار أورود أم لا أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل تخرج منها أم لا وقرأ ابن مسعود وان منكم الا داخلها وكان واردها وعنه قال ورودها الصراط وقال رجل من الصحابة لآخر أيقنت بالورود قال نعم قال وأيقنت بالصدور قال لا قال ففيم الضحك وفيم التثاقل وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم عن ابن مسعود في الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب المجد في رحله ثم كشد الرجل في مشيه وقد روي نحوه عنه من طريق وهو في مسند الدارمي أيضا وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وان منكم الا واردها يقول مجتاز فيها وأخرج مسلم وغيره عن ام مبشر قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية قالت حفصة أليس الله يقول وان منكم الا واردها قال ألم تسمعيه يقول ثم ننجي الذين اتقوا وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يموت لمسلم ثلاث من الولد فيلج النار الا تحلة القسم ثم قرأ سفيان وان منكم الا واردها وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأبو يعلى والطبراني عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعا لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينه الا تحلة القسم فان الله يقول وان منكم الا واردها والاحاديث في تفسير هذه الآية كثيرة جدا وأما فائدة دخول المؤمنين النار اذا لم يكن عذاب فبوجوه أحدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منه وثانيها ان فيه مزيد غم على اهل النار حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها وثالثها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب على الكفار صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة ولا نقول صريحا ان الانبياء يدخلون النار أدبا معهم ولكن نقول ان الخلق جميعا يردونها كما دلت عليه أحاديث الباب فالعصاة يدخلونها بجرائمهم والاولياء والسعداء يدخلونها لشفاعتهم فبين الداخلين بون (كان على ربك حتما مقضيا) اى كان ورودهم المذكور أمرا محتوما لازما قد قضى سبحانه انه لا بد من

الهمداني حدثنا ابراهيم بن الحسين الهمداني حدثنا أبو محمد شو اسمعيل بن موسى الفزاري حدثنا عمر بن سعد النصري من بني نصر ابن معين حدثني عبد العزيز وليث بن أبي سليم وسليمان الاعمش وعطاء بن السائب بعضهم يزيد في الحديث على بعض عن علي ابن أبي طالب وعن عبد الله بن عباس ومحمد بن اسحق بن يسار عمن حدثه عن ابن عباس وعن سليم بن مسلم العقيلي عن عامر الشعبي عن عبد الله بن مسعود وجويبر عن الضحاك بن مزاحم قالوا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أم هانئ راقدا وقد صلى العشاء الآخرة قال أبو عبد الله الحاكم قال لنا هذا الشيخ وذكر الحديث فكتبت المتن من نسخة مسموعة منه فذكر حديثا طويلا يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شيء منها في قدرة الله ان صحت الرواية قال البيهقي فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هرون العبدي في اثبات الاسراء والمعراج كفاية وبالله التوفيق قلت وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين رحمة الله عليهم أجمعين * رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها) قال البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني مكرم ابن أحمد القاضي حدثني ابراهيم بن الهيثم البكري حدثني محمد بن كثير الصنعاني حدثنا معمر بن راشد عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد الاقصى أصبح يحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك الى أبي بكر فقالوا هل لك في صاحبك يزعم انه أسري به الليلة الى بيت المقدس فقال أو قال ذلك قالوا نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا فتصدقه انه ذهب الليلة الى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح قال نعم اني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق * رواية أم هانئ بنت أبي طالب قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح باذان عن أم هانئ بنت أبي طالب في مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم انها كانت تقول ما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى الصبح وصلينا معه قال يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين الكلبي متروك بمرة ساقط لكن رواه أبو يعلى

وقوعه لا محالة بمقتضى حكمته لا بايجاب غيره عليه قال مجاهد مقضيا قضاء من الله وقال عكرمة قسما واجبا قالت الاشاعرة ان هذا شبيه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف اليه وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على ان العقاب واجب على الله وان صاحب الكبيرة مخلد والفاسق مخلد في النار بدليل ان الله بين ان الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو وهم المتقون والفاسق لا يكون متقيا فبقي في النار أبدا واجيب عن ذلك بان المتقي هو الذي يتقي الشرك فصاحب الكبيرة متق فوجب ان يخرج من النار بعموم قوله ثم ننجي الذين اتقوا فالآية التي توهموها دليلا لهم هي من أقوى الدلائل على فساد قولهم وهذا من حيث البحث وأما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على اخراج المؤمن الموحد من النار وهي معروفة (ثم ننجي) أي نخرج (الذين اتقوا) ما يوجب النار وهو الكفر بالله ومعاصيه وترك ما شرعه وأوجب العمل به من النار فلا يخلدون بعد أن ادخلوها قرئ ننجي بالتخفيف من انجى وقرئ بالتشديد وهما سبعيتان (ونذر) أي نترك (الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار أو ظلموا غيرهم بمظلمة في النفس أو المال أو العرض (فيها) أي في النار (جثيا) على الركب جمع جاث وقد تقدم قريبا قال ابن عباس جثيا باقين فيها (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) واضحات لا يلتبس معانيها وقيل ظاهرات الاعجاز وقيل انها حجج وبراهين والاول أولى وهي حال مؤكدة لان آيات الله لا تكون الا واضحة والضمير في عليهم راجع الى الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله أئذا ما مت لسوف أخرج حيا أي هؤلاء اذا قرئ عليهم القرآن تعذروا بالدنيا وقالوا لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم في الدنيا أطيب من حالنا ولم يكن بالعكس لان الحكيم لا يليق به ان يهين أولياءه ويعز أعداءه وقيل عليهم أي على المؤمنين والاول أظهر ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله (قال الذين كفروا) للاشعار بان كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم وقيل المراد بهم هنا هم المتمردون المصرون منهم والاغنياء المتجملون بالثياب وغيرها ومعنى (للذين آمنوا) قالوا لاجلهم وقيل هي لام التبليغ كما في قوله وقال لهم نبيهم أي خاطبوهم وشافهوهم بذلك وبلغوا القول اليهم يعني فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وفي منزلهم ضيق وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤسهم

فى مسنده عن محمد بن اسمعيل الانصارى عن ضمرة بن ربيعة عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى عن أبى صالح عن أم هانئ بأبسط من هذا السياق فليكتب ههنا وروى الحافظ ابو القاسم الطبرانى من حديث عبد الاعلى بن ابى المساور عن عكرمة عن ام هانئ قالت بات رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسرى به فى بيتى ففقدته من الليل فامتنع منى النوم مخافة ان يكون عرض له بعض قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان جبريل عليه السلام أتانى فاخذ بيدى فاخرجنى فاذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار فحملنى عليها ثم انطلق حتى انتهى بى الى بيت المقدس فارانى ابراهيم يشبه خلقه خلقى ويشبه خلقى خلقه وأرانى موسى آدم طويلا سبط الشعر شبهته برجال ازدشنوءة وأرانى عيسى بن مريم ربعة أبيض يضرب الى الحمرة شبهته بعروة بن مسعود الثقفى وأرانى الدجال ممسوح العين اليمنى شبهته بقطن بن عبد العزى قال وانا أريد ان اخرج الى قريش فاخبرهم بما رأيت فاخذت بثوبه فقلت انى أذكرك الله انك تأتى قومك يكذبونك وينكرون مقالتك فاخاف أن يسطوا بك قالت فضرب ثوبه من يدى ثم خرج اليهم فأتاهم وهم جلوس فاخبرهم ما أخبرنى فقام جبير بن مطعم فقال يا محمد ان لو كنت لك شأن كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا فقال رجل من القوم يا محمد هل مررت لنا بابل فى مكان كذا وكذا قال نعم والله قد وجدتهم قد أضلوا بعيرا لهم فهم فى طلبه قال هل مررت بابل لبنى فلان قال نعم وجدتهم فى مكان كذا وكذا وقد انكسرت لهم ناقة حمراء وعندهم قصعة من ماء فشربت ما فيها قالوا فاخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة قال قد كنت عن عدتها مشغولا فقام فأوتى بالابل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة ثم أتى قريشا فقال لهم سألتمونى عن ابل بنى فلان فهى كذا وكذا وفيها من الرعاة فلان وفلان وسألتمونى عن ابل بنى فلان فهى كذا وكذا وفيها من الرعاة ابن أبى قحافة وفلان وفلان وهى تصبحكم بالغداة على الثنية قال فقعدوا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال فاستقبلوا الابل فسألوهم هل ضل لكم بعير فقالوا نعم فسألوا الآخر هل انكسرت لكم ناقة حمراء قالوا نعم قالوا فهل كانت عندكم قصعة قال أبو بكر أنا والله وضعتها فما شربها أحد ولا أهراقوه فى الارض فصدقهم أبو بكر وآمن به فسمى يومئذ الصديق *(فصل)* واذا حصل الوقوف على مجموع هذه الاحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها تحصل مضمون ما اتفقت عليه

رؤسهم ويلبسون أفخر ثيابهم (أى الفريقين) المراد بهما المؤمنون والكافرون كأنهم قالوا أفريقنا (خير مقاما) أم فريقكم وقرئ بضم الميم وهو موضع الاقامة أو مصدر بمعناها وبالفتح منزلا ومسكنا فهو غير النادى اذ هو متحدث القوم وقيل هو الموضع الذى يقام فيه بالامور الجليلة والمعنى أى الفريقين أكبر جاها وأكثر أعوانا وأنصارا وعن مجاهد فى الآية قال قريش تقولها لها ولاصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال ابن عباس مقاما المنازل (وأحسن نديا) قال ابن عباس نديا المجالس والندى والنادى مجلس القوم ومتحدثهم ومجتمعهم ومنه قوله تعالى وتأتون فى ناديكم المنكر وقوله فليدع ناديه أى أهل ناديه وناداه جالسه فى النادى ومنه دار الندوة لان المشركين كانوا يتشاورون فيها فى امورهم وقيل هو مشتق من الندى وهو الكرم لان الكرماء يجتمعون فيه (وكم) أى كثيرا (اهلكنا قبلهم من قرن) هى الجماعة والامة الماضية وهو مفرد لفظا متعدد معنى (هم أحسن أثاثا) هو المال أجمع الابل والغنم والبقر والعبيد والمتاع وقيل هو متاع البيت خاصة وقيل هو الجديد من الفرش وقيل اللباس خاصة (ورئيا) بمعنى المرئى وهو كالذبح والطحن بمعنى المذبوح والمطحون قرئ بالهمزة وقرئ بالياء المشددة من رأيت اى هم أحسن منظرا وبه قال جمهور المفسرين وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس وحسن الابدان وتنعمها او مجموع الامرين ومعنى القراءة الاولى معنى الثانية قال الجوهرى من همز جعله من المنظر من رأيت وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة ومن لم يهمز اما ان يكون من تخفيف الهمزة او يكون من رويت ألوانهم وجلودهم ريا اى امتلأت وحسنت وقد ذكر الزجاج معنى هذا وقرئ زيا وهو الهيئة والحسن والصورة ويجوز أن يكون من زويت أى جمعت والزى محاسن مجموعة (قل) امر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية والكفار القائلين للمؤمنين اى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا بقوله (من كان) مستقرا (فى الضلالة) اى الكفر والجهل والغفلة عن عواقب الامور وهذا شرط وجوابه (فليمدد له الرحمن مدا) فى الدنيا يستدرجه وهذا وان كان على صيغة الامر فالمراد به الخبر وانما خرج مخرج الامر لبيان الامهال منه سبحانه للعصاة وأن ذلك كائن لا محالة لينقطع معاذير أهل الضلال ويقال لهم

من مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى بيت المقدس وانه مرة واحدة وان اختلفت عبارات الرواة فى أدائه أوزاد بعضهم فيه أو نقص منه فان الخطأ جائز على من عدا الانبياء عليهم السلام ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت اسراآت متعددة فقد أبعد وأغرب وهرب الى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب وقد صرح بعضهم من المتأخرين بانه عليه السلام أسرى به مرة من مكة الى بيت المقدس فقط ومرة من مكة الى السماء فقط ومرة الى بيت المقدس ومنه الى السماء وفرح بهذا المسلك وانه قد ظفر بشئ يخلص به

من الاشكالات وهذا بعيد جدا ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي صلى الله عليه وسلم به أمته ولنقله الناس على التعدد والتكرر قال موسى بن عقبة عن الزهري كان الاسراء قبل الهجرة بسنة وكذا قال عروة وقال السدى بستة عشر شهرا والحق انه عليه السلام أسرى به يقظة لامناما من مكة الى بيت المقدس راكبا البراق فلما انتهى الى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه الى السماء الدنيا ثم الى بقية السموات السبع فتلقاه من كل سماء مقربوها وسلم على الانبياء الذين فى السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى الكليم فى السادسة وابراهيم الخليل فى السابعة ثم جاوز منزليهما صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام حتى انتهى الى مستوى يسمع فيه صريف الاقلام أى أقلام القدر بما هو كائن ورأى سدرة المنتهى وغشيها من امر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب والوان متعددة وغشيتها الملائكة ورأى هنالك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ورأى رفرفا أخضر قد سد الافق ورأى البيت المعمور الذى ابراهيم الخليل بالكعبة الارضية مسند ظهره اليه لانه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون الفا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون اليه الى يوم القيامة ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها الى خمس رحمة منه ولطفا بعباده وفى هذا اعتبار عظيم بشرف الصلاة وعظمتها ثم هبط الى البيت المقدس وهبط معه الانبياء فصلى بهم فيه لما جانت الصلاة ويحتمل انها الصبح من يومئذ ومن الناس من يزعم انه أمهم فى السماء والذى تظاهرت

يوم القيامة أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر أو للاستدراج كقوله سبحانه انما نملى لهم ليزدادوا اثما والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية وذكر لفظ الرحمن فى هذه السورة فى ستة عشر موضعا وقيل المراد بالآية الدعاء بالمد والتنفيس قال الزجاج تأويله ان الله جعل جزاء ضلالته ان يتركه ويمده فيها لان لفظ الامر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول أفعل ذلك وآمر به نفسى وقال مجاهد معناه فليدعه الله فى طغيانه وفى حرف أبى من كان فى الضلالة فانه يزيده الله ضلالة وطغيانا واستدراجا بأن يطيل عمره ويكثر ماله ويمكنه من التصرف فيه (حتى) حرف ابتداء وليست جارة ولا عاطفة قاله الكازرونى والشهاب وفى زكريا انها جارة أى فيستمرون فى الطغيان الى ان يشاهدوا الموعود (اذا رأوا) يعنى الذين مد لهم فى الضلالة (ما يوعدون) جاء بضمير الجماعة اعتبار المعنى من كما ان قوله من كان فى الضلالة فليمدد له اعتبارا بلفظها وقيل هذه غاية للمد لا للقول المفتخرين اذ ليس فيه امتداد والغاية فى الحقيقة هى قوله فسيعلمون الآتى (اما العذاب واما الساعة) هذا تفصيل لقوله ما يوعدون أى هذا الذى يوعدون هو أحد الامرين اما العذاب فى الدنيا بالقتل والاسر كما وقع لهم يوم بدر واما يوم القيامة وما يحل بهم حينئذ من العذاب الاخروى فاما حرف تفصيل وهى مانعة خلو تجوز الجمع والعذاب والساعة بدلان من ما (فسيعلمون) جواب اذا أى هؤلاء القائلون أى الفريقين خير مقاما اذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوى بايدى المؤمنين أو الاخروى (من هو شر مكانا) من الفريقين (وأضعف جندا) قابل به أحسن نديا من حيث ان حسن النادى يكون باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم والمعنى فسيعلمون أهم خير وهم وجندهم الشياطين فى النار أم المؤمنون وهم فى الجنة وعندهم ملائكة الرحمن ومن على هذا استفهامية وهو أحد وجهين ويجوز أن تكون موصولة بمعنى الذى وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جندا ضعفاء بل لا جند لهم أصلا كما فى قوله سبحانه ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال (ويزيد الله الذين اهتدوا) بالايمان (هدى) بما ينزل عليهم من الآيات وذلك ان بعض الهدى يجر الى البعض الآخر والخير يدعو الى الخير وقيل المراد بالزيادة العبادة من المؤمنين والجملة مستأنفة

مستأنفة لبيان حال المهتدين وقيل الواو للعطف على جملة الشرط المحكية بالقول قال الزجاج المعنى ان الله يجعل جزاء المؤمنين ان يزيدهم يقينا كما جعل جزاء الكافرين ان يمدهم فى ضلالتهم (والباقيات الصالحات) أى الطاعات المؤدية الى السعادة الابدية التى تبقى لصاحبها (خير عند ربك ثوابا) مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية التى افتخروا بها (وخير مردا) هو هنا مصدر كالرد والمعنى وخير ردا للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التى خسروا فيها والمراد المرجع والعاقبة أى ما يرد اليه ويرجع وهو الجنة وأفعل التفضيل للتهكم بهم على سبيل المشاكلة للقطع بان أعمال الكفار لا خير فيها أصلا ثم أردف سبحانه مقالة هؤلاء المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال (أفرأيت الذى كفر بآياتنا) استفهام تعجب أى أخبرنى بقصة هذا الكافر يعنى عاص بن وائل واذكر حديثه عقب حديث أولئك وانما استعملوا أرأيت بمعنى أخبر لان رؤية الشئ من أسباب صحة الخبر عنه والآيات تعم كل آية ومن جملتها آية البعث والفاء للعطف على مقدر أى أنظرت فرأيت واللام فى (وقال لأوتين) هى الموطئة للقسم كأنه قال والله لأوتين فى الآخرة (مالا وولدا) وهذا من شدة تعنته بكفره أى انظر الى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتأليه على الله مع كفره به وتكذيبه بآياته أخرج البخارى ومسلم وغيرهما فى الآية من حديث خباب بن الأرت قال كنت رجلا قينا وكان لى على العاص بن وائل(١) دين فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقلت والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث قال فانى اذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد فأعطيك فأنزل الله فيه هذه الآية وقرئ ولدا بضم الواو وبفتحها قيل هما لغتان معناهما واحد يقال ولد وولد كما يقال عدم وعدم وقيل بالضم للجمع وبالفتح للواحد وقد ذهب الجمهور الى ان هذا الكافر أراد بقوله لأوتين مالا وولدا انه يؤتى ذلك فى الدنيا وقال جماعة فى الجنة قيل والمعنى ان أقمت على دين آبائى لأوتين وقيل المعنى لو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولدا ثم أجاب الله سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله فقال (أطلع الغيب) بفتح الهمزة الاستفهامية واطلع متعد بنفسه كقوله اطلع الجبل قال المغرب وليس متعديا بعلى كما توهمه بعضهم حتى يكون من الحذف والايصال لكن فى القاموس اطلع عليه فكأنه يتعدى ولا يتعدى يقال اطلع الجبل اذا ارتقى الى أعلاه

به الروايات انه بيت المقدس ولكن فى بعضها ان كان أول دخوله اليه والظاهر انه بعد رجوعه اليه لانه لما مرّ بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدا واحدا وهو يخبره بهم وهذا هو اللائق لانه كان أولا مطلوب الى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى امته مايشاء الله تعالى ثم لما فرغ من الذى أريد به اجتمع به هو واخوانه من النبيين ثم اظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الامامة وذلك عن اشارة جبريل عليه السلام له فى ذلك ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد الى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد انه فى بيت المقدس وجاء انه فى السماء ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لانه كالضيافة للقادم والله أعلم ثم اختلف الناس هل كان الاسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط على قولين فالاكثرون من العلماء على انه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناما ولا ينكر أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى قبل ذلك مناما ورآه بعده يقظة لانه كان عليه السلام لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح والدليل على هذا قوله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله فالتسبيح انما يكون عند الامور العظام فلو كان مناما لم يكن فيه كبير شئ ولم يكن مستعظما ولما بادرت كفار قريش الى تكذيبه ولما ارتدت جماعة ممن قد أسلم وأيضا فان العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال أسرى بعبده ليلا وقد قال تعالى وما جعلنا الرؤية التى أريناك الا فتنة للناس قال ابن عباس هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه البخارى وقال تعالى مازاغ البصر وماطغى والبصر من آلات الذات لا الروح وأيضا فانه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان وانما يكون هذا للبدن لا للروح لانها لاتحتاج فى حركتها الى مركب تركب عليه والله أعلم وقال آخرون بل أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه لا بجسده قال محمد بن اسحق بن يسار فى السيرة حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة ابن الاخنس ان معاوية بن أبى سفيان كان اذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كانت رؤيا من الله صادقة وحدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أسرى بروحه قال ابن اسحق

(١) هو أبو سيدنا عمرو فهو جد عبد الله بن عمرو أحد العبادلة اه منه

والمعنى أعلم ماغاب عنه حتى يعلم انه فى الجنة (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) بذلك أى بان يؤتى ماقاله فانه لا يتوصل الى هذا العلم الا باحدى هاتين الطريقتين وقيل المعنى أنظر فى اللوح المحفوظ ام اتخذ عند الله عهدا وقيل المعنى أم قال لا اله الا الله فارحمه بها ويرجو بها قاله ابن عباس وقيل المعنى أم قدم عملا صالحا فهو يرجوه (كلا) حرف ردع وزجر أى ليس الامر على ماقال هذا الكافر من انه يؤتى المال والولد ولفظة كلا فيها للنحاة ستة مذاهب أحدها وهو مذهب جمهور البصريين كالخليل وسيبويه وأبى الحسن الاخفش وأبى العباس المبرد انها حروف ردع وزجر وهذا معنى لائق بها حيث وقعت فى القرآن وما أحسن ماجاءت فى هذه الآية زجرت وردعت ذلك القائل والثانى وهو مذهب النضر بن شميل انها حرف تصديق بمعنى نعم فتكون جوابا ولابد حينئذ من ان يتقدمها شئ لفظا أو تقديرا وقد تستعمل فى القسم والثالث وهو مذهب الكسائى وأبى بكر بن الانبارى ونصر بن يوسف وابن واصل انها بمعنى حقا والرابع وهو مذهب أبى عبد الله الباهلى انها رد لما قبلها وهذا قريب من معنى الردع الخامس انها صلة فى الكلام بمعنى اى كذا قيل وفيه نظر فان أى حرف جواب ولكنه مختص بالقسم السادس انها حرف استفتاح وهو قول أبى حاتم قال السمين ولتقرير هذه المذاهب موضع هو أليق بها قد حققتها بحمد الله فيه انتهى وذكرت كلا فى القرآن فى النصف الثانى فقط وذكرت فى خمس عشرة سورة منه كلها مكية وجملة ماذكرت ثلاثة وثلاثون مرة ترجع الى أقسام ثلاثة قسم يجوز الوقف عليها وعلى ماقبلها فيبتدأ بها وهذا باتفاق وقسم اختلف فيه هل يجوز الوقف عليها أو يتعين على ماقبلها وقسم لا يجوز الوقف عليها باتفاق فالقسم الاول خمسة مواضع اثنان فى هذه السورة واثنان فى سورة الشعراء وواحدة فى سورة سبا والقسم الثانى تسعة واحدة فى سورة المؤمنين واثنتان فى سورة سأل سائل واثنتان فى سورة المدثر الاولى والثالثة والاولى فى سورة القيامة والثانية فى سورة ويل للمطففين والاولى فى سورة الفجر والتى فى سورة ويل لكل والقسم الثالث هو التسع عشرة الباقية ذكره عز بن جماعة (سنكتب) أى سنحفظ عليه (مايقول) فنجازيه به فى الآخرة أو سنظهر له مايقول ونعلمه أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته (ونمد له من العذاب مدا) أى نزيده عذابا فوق عذابه مكان مايدعيه لنفسه من الامداد بالمال والولد أو نطول له من العذاب

قل سنكر ذلك من قولها القول الحسن ان هذه الآية نزلت وماجعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس ولقول الله فى الخبر عن ابراهيم انى أرى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ثم مضى على ذلك فعرفت ان الوحى يأتى للانبياء من الله ايقاظا ونياما فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تنام عيناى وقلبى يقظان والله أعلم أى ذلك كان قد جاءه وعاين من الله فيه ماعاين على أى حالاته كان نائما أو يقظانا كل ذلك حق وصدق انتهى كلام ابن اسحق وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير فى تفسيره بالرد والانكار والتشنيع بان هذا خلاف ظاهر سياق القرآن وذكر من الادلة على رده بعض ماتقدم والله أعلم *(فائدة حسنة جليلة)* روى الحافظ أبو نعيم الاصبهانى فى كتاب دلائل النبوة من طريق محمد ابن عمر الواقدى حدثنى مالك بن أبى الرجال عن عمرو بن عبد الله بن محمد بن كعب القرظى قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية ابن خليفة الى قيصر فذكر وروده عليه وقدومه اليه وفى السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ثم استدعا من بالشام من التجار فجئ بابى سفيان صخر بن حرب وأصحابه فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التى رواها البخارى ومسلم كما سيأتى بيانه وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده قال فى هذا السياق عن أبى سفيان والله مامنعنى من أن أقول عليه قولا أسقطه من عينه الا انى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على ولا يصدقنى بشئ قال حتى ذكرت قوله ليلة اسرى به قال فقلت أيها الملك ألا أخبرك خبرا تعرف انه قد كذب قال وما هو قال قلت انه يزعم لنا انه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد ايليا ورجع الينا تلك الليلة قبل الصباح قال وبطريق ايليا عند رأس قيصر فقال بطريق ايليا قد علمت تلك الليلة قال فنظر قيصر ما وقال ماعلمك بهذا قال انى كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كان تلك الليلة أغلقت الابواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه عمالى ومن بحضرتى كلهم فعالجته فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلا فدعوت اليه النجاجرة فنظروا اليه فقالوا ان هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع ان نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى قال فرجعت وتركت البابين مفتوحين فلما أصبحت غدوت عليهما فاذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب واذا فيه أثر مربط الدابة قال فقلت لاصحابى

ثم حبس هذا الباب الليلة الاعلى نبي وقد صلى الليلة في مسجد داود كرتمام الحديث *(فائدة)* قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه التنوير في مولد السراج المنير وقد ذكر حديث الاسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد ثم قال وقد تواترت الروايات في حديث الاسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرظ وأبي حبة وأبي ليلى الانصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب وأبي امامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء وصهيب الرومي

وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد وان لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة فحديث الاسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون يريدون أن يطفؤا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون قوله تعالى (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلا ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا) لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضا فانه تعالى كثيرا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام وبين ذكر التوراة والقرآن ولهذا قال بعد ذكر الاسراء وآتينا موسى الكتاب يعني التوراة وجعلناه أي الكتاب هدى أي هاديا لبني اسرائيل أن لا تتخذوا اي لئلا تتخذوا من دوني وكيلا أي وليا ولا نصيرا ولا معبودا دوني لان الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له

ما يستحقه وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء (ونرثه ما يقول) أي نميته فنرثه المال والولد الذي يقول انه يؤتاه والمعنى مسمى ما يقول ومصداقه قاله أبو السعود وقيل المعنى نحرمه ما تمناه في الآخرة ونعطيه غيره من المسلمين قاله القرطبي (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لا مال له ولا ولد ولا عشيرة بل نسلبه ذلك فكيف يطمع في ان نعطيه وقيل المراد بما يقول نفس القول لا مسماه والمعنى انما يقول هذا القول ما دام حيا فاذا أمتناه حلنا بينه وبين ان يقوله ويأتينا رافضاله منفردا عنه والاول أولى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقونه وتألوا على الله سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون الله لاجل ان يتعززوا بذلك وقال أبو السعود حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها اثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها النقيض مضمونها وقال الهروي معناه ليكونوا لهم أعوانا وقال الفراء ليكونوا لهم شفعاء عند الله في الآخرة وقيل معناه ليتعززوا بهم من عذاب الله ويمتنعوا بها (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) أي ليس الامر كما ظنوا وتوهموا والضمير في الفعل اما للآلهة أي ستجحد هذه الاصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها الله سبحانه لانها عند أن عبدوها جمادات لا تعقل ذلك واما للمشركين أي سيجحد المشركون انهم عبدوا الاصنام ويدل على الوجه الاول قوله تعالى ما كانوا ايانا يعبدون وقوله فالقوا اليهم القول انكم لكاذبون ويدل على الوجه الثاني قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين قرئ كلا بضم الكاف والتنوين وهي بمعنى جميعا وبالفتح مصدر أي كل هذا الرأي كلا والاصوب انها حرف ردع وزجر والمعنى تكون هذه الآلهة التي ظنوها عزا لهم ضدا عليهم أي ضد العز وضد العز الذل هذا على الوجه الاول وأما على الوجه الثاني فيكون المشركون للآلهة ضدا وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يعبدونها ويحبونها ويؤمنون بها قال ابن عباس عليهم ضدا أعوانا وحسرة وانما وحد الضد وان كان خبرا عن جمع لاحد وجهين اما لانه مصدر في الاصل والمصادر موحدة مذكرة واما لانه مفرد في معنى الجمع (ألم تر انا أرسلنا الشياطين على الكافرين) ذكر الزجاج في معنى هذا وجهين أحدهما ان معناه خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم منهم ولم نعذهم بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم ان عبادي ليس

ثم قال ذرية من حملنا مع نوح تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح فيه تهييج وتنبيه على المنة أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم انه كان عبدا شكورا فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بارسالي اليكم محمدا صلى الله عليه وسلم وقد ورد في الحديث وفي الاثر عن السلف ان نوحا عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله فلهذا سمي عبدا شكورا قال الطبراني حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبي حصين عن عبد الله بن سنان عن سعد بن مسعود الثقفي قال انما سمي نوح عبدا شكورا لانه كان اذا أكل أو شرب حمد الله وقال الامام أحمد حدثنا أبو اسامة حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن

ثنا سعيد بن أبي بردة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليرضى عن العبد ان يأكل الاكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أبي اسامة به وقال مالك عن زيد بن أسلم كان يحمد الله على كل حال وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أنا سيد ولد آدم يوم القيامة بطوله وفيه فيأتون نوحا فيقولون يانوح انك أنت أول الرسل الى أهل الارض وقد سماك الله عبدا شكورا فاشفع لنا الى ربك وذكر الحديث بكماله (وقضينا الى

بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) يخبر تعالى انه قضى الى بني اسرائيل في الكتاب أي تقدم اليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم انهم سيفسدون في الارض مرتين ويعلون علوا كبيرا أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين أي تقدمنا اليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به وقوله فاذا جاء وعد أولاهما أي أولى الافسادتين بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد أي سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولي بأس شديد اي قوة وعدة وسلطة شديدة فجاسوا خلال الديار أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي بينها ووسطها وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا وكان وعدا مفعولا وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم فعن ابن عباس وقتادة انه جالوت الجزري وجنوده سلط عليهم أولا ثم أديلوا عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت ولهذا قال ثم رددنا لكم الكرة عليهم الآية وعن سعيد بن جبير انه ملك الموصل سنحاريب وجنوده وعنه أيضا وعن غيره انه بختنصر ملك بابل وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حال الى حال الى أن ملك البلاد وانه كان فقيرا مقعدا ضعيفا يستعطي الناس ويستطعمهم ثم آل به الحال الى

لك عليهم سلطان الوجه الثاني انهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فمعنى الارسال هنا التسليط ومن ذلك قوله سبحانه لابليس واستفزز من استطعت منهم بصوتك ويؤيد الوجه الثاني تمام الآية وهو قوله (تؤزهم ازا) فان الاز والازيز والهز والهزيز والاستفزاز أخوات معناها التحريك والتهييج وشدة الازعاج فأخبر الله سبحانه ان الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغويهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات وذلك هو التسليط لها عليهم وقيل معنى الاز الاستعجال وهو مقارب لما ذكرنا لان الاستعجال تحريك وتهييج واستفزاز وازعاج وسياق هذه الآية لتعجيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حالهم والتنبيه على ان جميع ذلك باضلال الشياطين واغوائهم والجملة حالية من الشياطين أو من الكافرين أو منهما أو مستأنفة كأنه قيل ماذا تفعل الشياطين بهم قال ابن عباس تؤزهم ازا تغويهم اغواء وتحرض المشركين على محمد وأصحابه وقال تزعجهم ازعاجا الى معاصي الله وفي الآية دليل على ان الله مدبر لجميع الكائنات (فلا تعجل عليهم) بان تطلب من الله اهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم للحق وتمردهم عن داعي الله سبحانه حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الارض من فسادهم ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله (انما نعد لهم عدا) يعني نعد الايام والليالي والشهور والسنين من اعمارهم الى انتهاء آجالهم فلا نهمل ما يقع منهم بل نضبطه عليهم حتى نؤاخذهم به وقيل نعد انفاسهم وقيل خطواتهم وقيل لحظاتهم وقيل الساعات وقال قطرب نعد أعمالهم وقيل المعنى لا تعجل عليهم انما نؤخرهم ليزدادوا اثما قال الشهاب ان العد كناية عن القلة ولا ينافي هذا ما مر من انه يمد لمن كان في الضلالة لانه بالنسبة لظاهر الحال عندهم وهو قليل باعتبار عاقبته وعند العد ثم لما قرر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ فقال (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) أي اذكر يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم الحشر ومعنى الحشر الى الرحمن حشرهم الى جنته ودار كرامته كقوله اني ذاهب الى ربي والوفد جمع وافد كالركب جمع راكب والصحب جمع صاحب يقال وفد يفد وفدا اذا خرج الى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهري وعن ابن عباس قال وفدا ركبانا وعن أبي هريرة قال على الابل وعن علي قال على نوق وفي

الصحيحين

ثم آل وانه سار الى بلاد بيت المقدس فقتل بها خلقا كثيرا من بنى اسرائيل وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا وهو حديث موضوع لا محالة لا يستريب فى ذلك أدنى من عنده معرفة بالحديث والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وامامته وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى رحمه الله بانه موضوع مكذوب وكتب ذلك على حاشية الكتاب وقد وردت فى هذا آثار كثيرة اسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ومنها ما قد يحتمل ان يكون صحيحا ونحن فى غنية عنها ولله الحمد وفيما اقص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ولم يحوجنا الله ولا رسوله اليهم وقد أخبر الله عنهم انهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد فانهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الانبياء والعلماء وقد روى ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الاعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى سليمان ابن بلال عن يحيى بن سعيد قال سمعت سعيد بن المسيب يقول ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم ثم أتى دمشق فوجد بها دما يغلى على كبا فسألهم ما هذا الدم فقالوا أدركنا آباءنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر قال فقتل على ذلك الدم سبعين ألفا من المسلمين وغيرهم فسكن وهذا صحيح الى سعيد بن المسيب وهذا هو المشهور وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى انه لم يبق من يحفظ التوراة وأخذ معه منهم خلقا كثيرا أسرى من ابناء الانبياء وغيرهم وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته والله أعلم ثم قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها أى فعليها كما قال تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وقوله فاذا جاء وعد الآخرة أى الكرة الآخرة أى اذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ليسوءوا وجوهكم أى يهينوكم ويقهروكم وليدخلوا المسجد أى بيت المقدس كما دخلوه أول مرة أى فى التى جاسوا فيها خلال الديار وليتبروا أى يدمروا ويخربوا ما علوا أى ما ظهروا عليه تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم أى فيصرفهم عنكم وان عدتم عدنا أى متى عدتم الى الافساد عدنا الى الادالة عليكم فى الدنيا مع ما ندخره لكم فى الآخرة من العذاب

الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين اثنان على بعير وثلاثة على بعير واربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسى معهم حيث أمسوا والاحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا وقيل يركبون من أول خروجهم من القبور وهو ظاهر الآية وقيل من منصرفهم من الموقف وعلى كلا القولين فيستمرون راكبين حتى يقرعون باب الجنة (ونسوق المجرمين) أى الكافرين بكفرهم كما تساق البهائم (الى جهنم وردا) مشاة عطاشا والسوق الحث على السير والورد العطاش قاله الاخفش وغيره وبه قال ابن عباس وأبو هريرة وقال الفراء وابن الاعرابى هم المشاة وقال الازهرى هم المشاة العطاش كالابل ترد الماء وقيل وردا أى للورد كقولك جئتك اكراما أى للاكرام وقيل افرادا قيل ولا تناقض بين هذه الاقوال فهم يساقون مشاة عطاشا افرادا وأصل الورد الجماعة التى ترد الماء من طير أو ابل أو قوم أو غير ذلك والورد الماء الذى يورد وقيل يساقون الى النار باهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق الى الماء (لا يملكون الشفاعة) جملة مستأنفة لبيان بعض ما يكون فى ذلك اليوم من الامور والضمير راجع الى الفريقين وقيل للمتقين خاصة وقيل للمجرمين خاصة والاول أولى والمعنى انهم لا يملكون ان يشفعوا لغيرهم وقيل لا يملك غيرهم ان يشفع لهم والاول أولى (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) هذا الاستثناء متصل على الوجه الاول أى لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة الا من تحلى واستأهل واستعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بان يكون مؤمنا متقيا فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله وقيل معناه ان الله أمره بذلك كقولهم عهد الامير الى فلان بكذا اذا أمره به وقال ابن عباس شهادة ان لا اله الا الله ويبرأ من الحول والقوة ولا يرجو الا الله وعنه قال من مات لا يشرك بالله شيأ دخل الجنة وقيل غير ذلك وأما على الوجه الثانى فالاستثناء منقطع لان التقدير لا يملك المجرمون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا وهم المسلمون والاول أوجه وبه جزم البيضاوى كالكشاف وقيل متصل على هذا الوجه أيضا والتقدير لا يملك المجرمون الشفاعة الا من كان منهم مسلما ودلت الآية على حصول الشفاعة لاهل الكبائر وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

والنكال ولهذا قال وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا أي مستقرا ومحصرا وسجنا لا محيد لهم عنه قال ابن عباس حصيرا أي سجنا وقال مجاهد يحصرون فيها وكذا قال غيره وقال الحسن فراش ومهاد وقال قتادة قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل ويبشر المؤمنين به

الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجرا كبيرا أي يوم القيامة وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذابا أليما أي يوم القيامة كما قال تعالى فبشرهم بعذاب أليم (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا) يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى ولو يعجل الله للناس الشر الآية وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقتادة وقد تقدم في الحديث لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة يستجيب فيها وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته ولهذا قال تعالى وكان الإنسان عجولا وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين هم بالنهوض قائما قبل أن تصل الروح إلى رجليه وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه فلما وصلت إلى دماغه عطس فقال الحمد لله فقال الله يرحمك ربك يا آدم فلما وصلت إلى عينيه فتحهما فلما سرت إلى أعضائه

سحرا

وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع وقال يا رب عجل قبل الليل (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا) يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات

من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرني ومن سرني فقد اتخذ عند الرحمن عهدا فلا تمسه النار إن الله لا يخلف الميعاد وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئا جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ومن جاء قد انتقص منهن شيئا فليس له عند الله عهد إن شاء رحمه وإن شاء عذبه (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) قرئ بفتح الواو وضمها كما تقدم والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيئا إدا) فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء والإد كما قال الجوهري الداهية والأمر الفظيع وكذلك الإدة وجمع الإدة إدد يقال أدت فلانا الداهية تؤده بالضم وتئده بالكسر وتأده بالفتح إدا دهته وقرئ بالفتح وقرأ الجمهور بالكسر وقرئ آدا مثل مادا وهي مأخوذة من الثقل يقال آده الحمل يؤده أودا أثقله قال الواحدي أدا أي عظيما في قول الجميع وبه قال ابن عباس والمعنى قلتم قولا منكرا عظيما وقيل الإد العجب والإدة الشدة والمعنى متقارب والتركيب يدور على الشدة والثقل (تكاد السموات يتفطرن منه) قرئ بالتحتية والفوقية وقرئ ينفطرن من الانفطار واختاره أبو عبيد لقوله إذا السماء انفطرت وقوله السماء منفطر به وقرأ ابن مسعود يتصدعن والانفطار والتفطر التشقق (وتنشق الأرض) كرر الفعل للتأكيد لأن تتفطرن وتنشق معناهما واحد أي تخسف بهم (وتخر) أي تسقط وتتهدم (الجبال هدا) قال ابن عباس هدا هدما لأن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت تزول منه لعظمة الله سبحانه وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين وانتصاب هدا على أنه مصدر مؤكد لأن الخرور في معناه أو هو مصدر لفعل مقدر أي وتنهد هدا أو على الحال أي مهدودة أو على أنه مفعول له أي لأنها تنهد قال الهروي هدني الأمر وهد ركني أي كسرني وبلغ مني قال الجوهري هد البناء يهده هدا كسره وضعضعه وهدته المصيبة أوهنت ركنه وانهد الجبل أي انكسر والهدة صوت وقع الحائط كما قال ابن الأعرابي (أن) أي لأن (دعوا) أو من أجل أن جعلوا (للرحمن ولدا) وقال الكسائي هو بتقدير الخافض وقيل في محل رفع على أنه فاعل هدا أي هدها دعاء الولد والمراد بالدعاء التسمية أي

وغير ذلك ولهذا قال لتبتغوا فضلا من ربكم أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ولتعلموا عدد السنين والحساب فلو كان الزمان كله نسقا واحدا وأسلوبا متساويا لما عرف شيء من ذلك كما قال تعالى قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وقال تعالى تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر أو أراد شكورا وقال تعالى وله اختلاف الليل والنهار وقال يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار وقال تعالى فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وقال تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ثم انه تعالى جعل لليل آية أي علامة يعرف بها وهي الظلام وظهور القمر فيه وللنهار علامة وهي النور وطلوع الشمس النيرة فيه وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا كما قال تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق الى قوله لآيات لقوم يتقون وقال تعالى يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج الآية قال ابن جريج عن عبد الله بن كثير في قوله فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة قال ظلمة الليل وسدف النهار وقال ابن جريج عن مجاهد الشمس آية النهار والقمر آية الليل قال السواد الذي في القمر وكذلك خلقه الله تعالى وقال ابن جريج قال ابن عباس كان القمر يضيء كما تضيء الشمس والقمر آية الليل والشمس آية النهار فمحونا آية الليل السواد الذي في القمر وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة ان ابن الكواء سأل امير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال يا أمير المؤمنين ماهذه اللطخة التي في القمر فقال ويحك أما تقرأ القرآن فمحونا آية الليل فهذه محوه وقال قتادة في قوله فمحونا آية الليل كنا نحدث ان محو آية الليل سواد القمر الذي فيه وجعلنا آية النهار مبصرة أي منيرة وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم وقال ابن أبي نجيح عن ابن عباس وجعلنا الليل والنهار

سموا للرحمن ولدا أو بمعنى النسبة أي نسبوا له ولدا (و) الحال انه (ماينبغي) أي لا يصلح (للرحمن) ولا يليق به (ان يتخذ ولدا) لاستحالة ذلك عليه لان الولد يقتضي الجنسية والحدوث (ان كل من في السموات والارض) أي ما كل من فيهما (الا) وهو (آتي الرحمن) وحد آتي وآتيه الآتي حملا على لفظ كل وهو اسم فاعل من أتى وهو مستقبل أي يأتيه يوم القيامة (عبدا) مقرا بالعبودية خاضعا ذليلا منهم عزير وعيسى كما قال وكل أتوه داخرين أي صاغرين والمعنى ان الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولدا له وقرئ آت على الاصل (لقد أحصاهم) أي حصرهم بعلمه وعلم عددهم وأحاط بهم (وعدهم عدا) أي عدا أشخاصهم وانفاسهم وأفعالهم وأيامهم وآثارهم بعد أن حصرهم فلا يخفى عليه أحد منهم ولا شيء من أمورهم (وكلهم) أي كل واحد منهم تحت قهره وقدرته وتدبيره (آتيه يوم القيامة فردا) أي وحيدا لا ناصر له ولا مال معه كما قال سبحانه يوم لا ينفع مال ولا بنون ثم ذكر الله سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ماخصهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) الجمهور من السبعة وغيرهم على ضم الواو وقرئ بكسرها وفتحها أي حبا في قلوب عباده يجعله لهم من دون ان يطلبوه بالاسباب التي توجب ذلك كما يقذف في قلوب أعدائهم الرعب وهذا الجعل في الدنيا والسين للدلالة على ان ذلك لم يكن من قبل وانه مجعول من بعد نزول الآية لان المؤمنين كانوا بمكة حال نزول هذه الآية وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم الله تعالى بذلك اذا ظهر الاسلام فألف الله تعالى بين قلوب المؤمنين ووضع فيها المحبة أو في القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤس الاشهاد فينزع مافي صدورهم من الغل وعن ابن عباس قال نزلت في علي بن أبي طالب والمعنى محبة في قلوب المؤمنين وعن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي قل اللهم اجعل لي عندك عهدا واجعل لي عندك ودا واجعل لي في صدور المؤمنين مودة فأنزل الله الآية في علي أخرجه ابن مردويه والديلمي وعن ابن عباس قال محبة في الناس في الدنيا وعن علي قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية ماهو قال المحبة الصادقة في صدور المؤمنين وثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا أحب الله عبدا نادى جبريل اني قد أحببت فلانا فأحبه فينادي في

آيتين قال لليل ونهارا كذلك خلقهما الله عز وجل (وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه وطائره هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقال تعالى عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون الآية وقال انما تجزون ما كنتم تعملون وقال من يعمل سوأ يجز به والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ويكتب عليه ليلا ونهارا صباحا ومساء وقال الامام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لطائر كل انسان في عنقه قال ابن لهيعة يعني الطيرة وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث غريب جدا والله أعلم وقوله ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة اما بيمينه ان كان سعيدا أو بشماله ان كان شقيا منشورا اى مفتوحا يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من اول عمره الى آخره ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ولهذا قال تعالى اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا أي انك تعلم انك لم تظلم ولم يكتب عليك الا ما عملت لانك ذكرت جميع ما كان منك ولا ينسى أحد شيأ مما كان منه وكل احد يقرأ كتابه من كاتب وأمي وقوله ألزمناه طائره في عنقه انما ذكر العنق لانه عضو من الاعضاء لا نظير له في الجسد ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه كما قال الشاعر

اذهب بها اذهب بها * طوقتها طوق الحمامة

الا قال قتادة عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا عدوى ولا طيرة وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه كذا رواه ابن جرير وقد رواه عبد بن حميد في مسنده متصلا فقال حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول طير كل عبد في عنقه وقال الامام أحمد حدثنا علي بن اسحق حدثنا عبد الله حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد أن أبا الخير حدثه انه سمع عقبة بن عامر يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليس

السماء ثم ينزل له المحبة في أهل الارض فذلك قوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا واذا أبغض الله عبدا نادى جبريل اني قد ابغضت فلانا فينادى في أهل السماء ثم ينزل البغضاء في الارض والاحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصا هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوة وبيان حال المعاندين فقال (فانما يسرناه) أي القرآن بانزالنا له (بلسانك) أي على لغتك العربية وفصلناه وسهلناه والباء بمعنى على والفاء لتعليل كلام ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر به فانما يسرناه الآية ثم علل ما ذكره من التيسير فقال (لتبشر به المتقين) أي المتلبسين بالتقوى المتصفين بها (وتنذر به قوما لدا) ولو أنزلناه بغيرها لم يتيسر التبشير ولا الانذار لعدم فهم المخاطبين لغير العربية واللد جمع الالد وهو الشديد الخصومة ومنه قوله تعالى ألد الخصام وقال أبو عبيدة الالد الذي لا يقبل الحق ويدعي الباطل وقيل اللد الصم وقيل الظلمة وقال ابن عباس لدا فجارا وعن الحسن قال صما يعني عن الحق (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أي أمة وجماعة من الناس وفي هذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهلاك الكافرين ووعيد لهم وتخويف وانذار (هل تحس منهم من أحد) هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها أي هل تشعر بأحد من القرون أو تراه أو تجد أو تعلم والاحساس الادراك بالحاسة والحواس خمس والحس والحسيس الصوت الخفي (أو تسمع لهم ركزا) الركز الخفاء والصوت الخفي ومنه ركز الرمح اذا غيب طرفه في الارض وقال اليزيدي وأبو عبيدة الركز ما لا يفهم من صوت أو حركة وقال سعيد بن جبير هل ترى منهم من أحد ركزا صوتا وبه قال ابن عباس والمعنى لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يرى ولا صوت يسمع يعني هلكوا كلهم قال الحسن بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر يعني فكذا هؤلاء ان أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم والله أعلم بالصواب

(سورة طه آياتها مائة وخمس وثلاثون آية أو أربعون واثنتان)

قال القرطبي مكية في قول الجميع وبه قال ابن عباس وابن الزبير وقال السيوطي في الاتقان استثنى منها فاصبر على ما يقولون وأخرج ابن مردويه عن أبي امامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كل القرآن يوضع عن أهل الجنة فلا يقرؤن منه شيأ

من عمل يوم الا وهو يختم عليه فاذا مرض المؤمن قالت الملائكة يا ربنا عبدك فلا [illegible] الله اختم له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت اسناده جيد قوى ولم يخرجوه وقال معمر عن قتادة ألزمناه طائره في عنقه قال عمله ونخرج له يوم القيامة قال نخرج ذلك العمل كتابا يلقاه منشورا قال معمر وتلا الحسن البصرى عن اليمين وعن الشمال قعيد يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فاما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيآتك فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى اذا مت طويت

صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا اقرأ كتابك الآية فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك هذا من حسن كلام الحسن رحمه الله

(من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) يخبر تعالى ان من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فانما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ومن ضل أى عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد فانما يجنى على نفسه وانما يعود وبال ذلك عليه ثم قال ولا تزر وازرة وزر أخرى أى لا يحمل أحد ذنب أحد ولا يجنى جان الا على نفسه كما قال تعالى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شئ ولا منافاة بين هذا وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وقوله ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم فان الدعاة عليهم اثم ضلالتهم فى أنفسهم واثم آخر بسبب ما أضلوا من اضلوا من غير ان ينقص من اوزار أولئك ولا يحمل عنهم شيأ وهذا من عدل الله ورحمته بعباده وكذا قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا اخبار عن عدله تعالى وانه لا يعذب أحدا الا بعد قيام الحجة عليه بارسال الرسول اليه كقوله تعالى كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ ان أنتم الا فى ضلال كبير وكذا قوله وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وقال تعالى وهم يصطرخون فيها ربنا

الا سورة طه ويس فانهم يقرؤن بهما فى الجنة وعن أنس بن مالك فذكر قصة عمر بن الخطاب مع أخته وخباب وقراءتهما طه وكان ذلك سبب اسلام عمر والقصة مشهورة فى كتب السير

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طه) قد اختلف أهل العلم فى معنى هذه الكلمة على أقوال الاول انها من المتشابه الذى لا يفهم المراد به والثانى انها بمعنى يا رجل فى لغة عكل وفى لغة (١) عك قال الكلبى لو قلت لرجل من عك يا رجل لم يجب حتى تقول طه وقيل انها فى لغة عك بمعنى يا حبيبى وقال قطرب هى كذلك فى لغة طى أى بمعنى يا رجل وكذا قال الحسن وعكرمة وقيل هى كذلك فى اللغة السريانية حكاه المهدوى وحكى ابن جرير انها كذلك فى اللغة النبطية وبه قال السدى وسعيد بن جبير وحكى عن عكرمة انها كذلك فى لغة الحبشة ولا مانع من أن تكون هذه الكلمة موضوعة لذلك المعنى فى تلك اللغات كلها اذا صح النقل الثالث انها اسم من أسماء الله سبحانه الرابع انها اسم للنبى صلى الله عليه وآله وسلم الخامس انها اسم للسورة السادس انها حروف مقطعة يدل كل واحد منها على معنى ثم اختلفوا فى هذه المعانى التى تدل عليها هذه الحروف على أقوال كلها متكلفة متعسفة السابع ان معناها طوبى لمن اهتدى الثامن ان معناها طأ الارض يا محمد قال ابن الانبارى وذلك ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج الى الترويح فقيل له طأ الارض أى لا تتعب حتى تحتاج الى الترويح وحكى القاضى عياض فى الشفاء عن الربيع ابن أنس قال كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم اذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فانزل الله طه يعنى طأ الارض يا محمد وعن الحسن البصرى انه قرأ طه على وزن دع أمر بالوطء والاصل طأ فقلبت الهمزة هاء التاسع انه قسم أقسم الله بطوله وهدايته وعن أكثر المفسرين ان معناها يا رجل يريد النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو قول الحسن وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة ومجاهد وابن عباس غير ان بعضهم يقول انها بلسان الحبشة والنبطية والسريانية ويقول الكلبى هى بلغة عك كما مر قال ابن الانبارى ولغة قريش وافقت تلك اللغة فى هذا المعنى لان الله سبحانه لم يخاطب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بلسان غير قريش انتهى واذا تقرر انها لهذا المعنى فى لغة من لغات العرب كانت ظاهرة

(١) عك قبيلة من قبائل العرب اه خازن

أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير إلى غير ذلك من
الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت
مقحمة في صحيح البخاري عند قوله تعالى إن رحمة الله قريب من المحسنين حدثنا عبيد الله بن سعد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح
ابن كيسان عن الأعرج بإسناده إلى أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اختصمت الجنة والنار فذكر الحديث إلى أن
قال وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحدا وإنه ينشئ للنار خلقا فيلقون فيها فتقول هل من مزيد ثلاثا وذكر تمام

الحديث فهذا إنما جاء في الجنة
لأنها دار فضل وأما النار فإنها دار
عدل لا يدخلها أحد إلا بعد
الإعذار إليه وقيام الحجة عليه وقد
تكلم جماعة من الحفاظ في هذه
اللفظة وقالوا لعله انقلب على الراوي
بدليل ما أخرجاه في الصحيحين واللفظ
للبخاري وعبد الرزاق عن معمر عن
همام عن أبي هريرة قال قال النبي
صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة
والنار فذكر الحديث إلى أن قال
فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها
قدمه فتقول قط قط فهنالك تمتلئ
ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله
من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله
ينشئ لها خلقا بقي هنا مسألة قد
اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها
قديما وحديثا وهي الولدان الذين
ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا
حكمهم وكذا المجنون والأصم
والشيخ الخرف ومن مات في الفترة
ولم تبلغه دعوة وقد ورد في شأنهم
أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله
وتوفيقه ثم نذكر فصلا ملخصا من
كلام الأئمة في ذلك والله المستعان
فالحديث الأول عن الأسود بن
سريع قال الإمام أحمد حدثنا علي
ابن عبد الله حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع أن رسول الله أي
صلى الله عليه وسلم قال أربعة يحتجون يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئا ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات في فترة فأما الأصم
فيقول رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئا وأما الأحمق فيقول رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر وأما الهرم فيقول رب
لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئا وأما الذي مات في الفترة فيقول رب ما أتاني لك رسول فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم أن
ادخلوا النار فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما وبالإسناد عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة

المعنى واضحة الدلالة خارجة عن فواتح السور التي قدمنا بيان كونها من المتشابه في فاتحة
سورة البقرة وهكذا إذا كانت لهذا المعنى في لغة من لغات العجم واستعملتها العرب
في كلامها في ذلك المعنى كسائر الكلمات العجمية التي استعملتها العرب الموجودة في الكتاب
العزيز فإنها صارت بذلك الاستعمال من لغة العرب قال النسفي وما روي أن معناه يا رجل
فإن صح فظاهر وإلا فالحق ما هو المذكور في سورة البقرة انتهى ولما قال الحق الله أعلم
بمراده بذلك (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب والشقاء يجيء في معنى
التعب وشائع فيه قال ابن كيسان وأصل الشقاء في اللغة التعب والعناء ولعل عدل إليه
للإشعار بأنه أنزل عليه ليسعد والمعنى ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتتعب بفرط تأسفك
عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا إنما عليك البلاغ فهو كقوله سبحانه
فلعلك باخع نفسك قال النحاس بعض النحويين يقول هذه اللام في لتشقى لام النفي وبعضهم
يقول لام الجحود وقال ابن كيسان هي لام الخفض وهذا التفسير للآية على قول من قال
إن طه كسائر فواتح السور التي ذكرت تعديدا لأسماء الحروف وإن جعلت اسما للسورة كان
قوله ما أنزلنا الخ خبرا عنها وأما على أن معناها يا رجل أو بمعنى الأمر بوطء الأرض فتكون
الجملة مستأنفة أيضا مسوقة لصرفه صلى الله عليه وآله وسلم عما كان عليه من المبالغة
في العبادة وعن ابن عباس قال إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أول ما أنزل عليه الوحي
كان يقوم على صدر قدميه إذا صلى فأنزل الله طه الآية وعنه قال قالوا لقد شقي هذا
الرجل بربه فأنزل الله هذه الآية وعنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام
من الليل يربط نفسه بحبل لئلا ينام فأنزل الله هذه الآية وعن علي كان يراوح بين قدميه
يقوم على كل رجل حتى نزلت هذه الآية وحسن السيوطي إسناده وانتصاب (إلا تذكرة)
على أنه مفعول له لأنزلنا كقولك ما ضربتك للتأديب إلا إشفاقا عليك وقال الزجاج هو
بدل من لتشقى أي ما أنزلناه إلا تذكرة وأنكره أبو علي الفارسي من جهة أن التذكرة
ليست بالشقاء قال وإنما هو منصوب على المصدرية أي أنزلناه لتذكر به تذكرة أو على
المفعول من أجله أي ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به ما أنزلناه إلا للتذكرة وقيل الاستثناء
منقطع لأن التذكرة ليست من جنس الشقاء المنفي أي لكن أنزلناه عظة (لمن يخشى)

مثله غير أنه قال في آخره فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها يسحب إليها وكذا رواه اسحق بن راهويه عن معاذ بن هشام ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد من حديث حنبل بن اسحق عن علي بن عبد الله المديني به وقال هذا اسناد صحيح وكذا رواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي رافع عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم يدلي على الله بحجة فذكر نحوه ورواه ابن جرير من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة فذكره مرفوعاً ثم قال أبو هريرة اقرؤا ان شئتم وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا كذا رواه معمر عن عبد الله بن طاوس عن

أبيه عن أبي هريرة موقوفا الحديث الثاني عن أنس بن مالك قال أبو داود الطيالسي حدثنا الربيع عن يزيد هو ابن ابان قال قلنا لانس يا أبا حمزة ما تقول في أطفال المشركين فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن لهم سيآت فيعذبوا بها فيكونوا من أهل النار ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من أهل الجنة الحديث الثالث عن أنس أيضاً قال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا جرير عن ليث عن عبد الوارث عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بأربعة يوم القيامة بالمولود والمعتوه ومن مات في الفترة والشيخ الفاني كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار ابرز ويقول لهم اني كنت أبعث الى عبادي رسلا من انفسهم واني رسول نفسي اليكم ادخلوا هذه قال فيقول من كتب عليه الشقاء يارب أنى ندخلها ومنها كنا نفر قال ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعا قال فيقول الله تعالى أنتم لرسلي أشد تكذيبا ومعصية فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يوسف بن موسى عن جرير بن عبد الحميد باسناده مثله الحديث الرابع عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضا حدثنا قاسم بن أبي شيبة حدثنا عبد الله يعني ابن داود عن عمر بن ذر عن يزيد بن أبي أمية عن البراء قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أطفال المسلمين قال هم مع آبائهم وسئل عن أولاد المشركين فقال هم مع آبائهم فقيل يارسول الله مايعملون قال الله أعلم بهم ورواه عمر بن ذر عن يزيد بن أبي أمية عن رجل عن البراء عن عائشة فذكره الحديث الخامس عن ثوبان قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده حدثنا ابراهيم بن سعيد

أي لمن يخاف الله أو لمن يؤول أمره الى الخشية أو لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالانزال أو لمن علم الله انه يخشى بالتخويف منه فانه المنتفع وكأنه يشير الى ان اللام في لمن للعاقبة (تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى) أي أنزلناه تنزيلا أو بدل من تذكرة أو منصوب على المدح أو يخشى تنزيلا من الله أو على الحال وبالرفع على معنى هذا تنزيل وتخصيص خلق الارض والسموات لكونهما أعظم مايشاهده العباد من مخلوقاته عز وجل والعلى جمع العليا أي المرتفعة كجمع كبرى وصغرى على كبر وصغر وفي الآية اخبار لعباده عن كمال عظمته سبحانه وعظيم جلاله (الرحمن على العرش) هو في اللغة السرير وقيل هو ماعلا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه (استوى) استواء يليق به قال ثعلب الاستواء الاقبال على الشيء وكذا قال الزجاج والفراء وقيل هو كناية عن الملك والعز والسلطان واما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقي في كتاب الاسماء والصفات بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها وعن مالك الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة قال البغوي أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الايمان به ويكل العلم به الى الله عز وجل وعن الثوري والاوزاعي والليث وابن عيينة وابن المبارك وغيرهم في أمثال هذه الآيات التي جاءت في الصفات أقروها كما جاءت بلا كيف وفيه مذهبان الاول القطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة وعدم الخوض في تأويلها وبه قال الخازن واختاره الثاني الخوض فيه على التفصيل وفيه قولان الاول العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملك فاذا استقام له ملكه واطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه قاله القفال قال الخازن والذي قاله حق وصواب والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة ويدل على صحة هذا قوله في سورة يونس ثم استوى على العرش يدبر الامر فقوله يدبر الامر يجري مجرى التفسير لقوله ثم استوى على العرش الثاني أن يكون استوى بمعنى استولى وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين واحتجوا عليه بقول الشاعر.

قد استوى بشر على عراق * من غير سيف ودم مهراق

ورده هذا بأن العرب لاتعرف استوى بمعنى استولى وانما يقال استوى فلان على كذا اذا

الجوهري حدثنا ريحان بن سعيد حدثنا عباد بن منصور عن أيوب عن أبي قلابة عن أسماء عن ثوبان ان النبي صلى الله عليه وسلم عظم شأن المسئلة قال اذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوزارهم على ظهورهم فيسألهم ربهم فيقولون ربنا لم ترسل الينا رسولا ولم يأتنا لك أمر ولو أرسلت الينا رسولا لكنا أطوع عبادك فيقول لهم ربهم أرأيتم ان أمرتكم بأمر تطيعوني فيقولون نعم فيأمرهم أن يعمدوا الى جهنم فيدخلوها فينطلقون حتى اذا دنوا منها وجدوا لها تغيظا وزفيرا فرجعوا الى ربهم فيقولون ربنا أخرجنا أو أجرنا منها فيقول لهم ألم تزعموا اني ان أمرتكم بأمر تطيعوني فيأخذ على ذلك مواثيقهم فيقول اعمدوا اليها فادخلوها فينطلقون حتى اذا رأوها فرقوا منها ورجعوا فقالوا ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها فيقول ادخلوها داخرين فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم لو دخلوها أول مرة كانت عليهم بردا وسلاما ثم قال البزار ومتن هذا الحديث غير معروف الا من هذا الوجه لم يروه عن أيوب الا عباد ولا عن عباد الا ريحان بن سعيد قلت وقد ذكره ابن حبان في ثقاته وقال يحيى بن معين والنسائي لا بأس به ولم يرو عنه أبو داود وقال أبو حاتم شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به الحديث السادس عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري قال الامام محمد بن يحيى الذهلي حدثنا سعيد بن سليمان عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الهالك في الفترة والمعتوه والمولود يقول الهالك في الفترة لم يأتني كتاب ويقول المعتوه رب لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ويقول المولود رب لم أدرك العقل فترفع لهم نار فيقال لهم ردوها قال فيردها من كان في علم الله سعيدا لو أدرك العمل ويمسك عنها من كان في علم الله شقيا لو أدرك العمل فيقول اياي عصيتم فكيف لو أن رسلي أتتكم وكذا رواه البزار عن محمد بن عمر بن هياج الكوفي عن عبيد الله بن موسى عن فضيل بن مرزوق به ثم قال لا يعرف من حديث أبي سعيد الا من طريقه عن عطية عنه وقال في آخره فيقول الله اياي عصيتم فكيف برسلي بالغيب الحديث السابع عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال هشام بن عمار ومحمد بن المبارك الصوري حدثنا عمرو بن واقد عن

لم يكن في ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل مالكا للاشياء كلها ومستوليا عليها فأي تخصيص للعرش ههنا دون غيره من المخلوقات وقال أبو الحسن الاشعري المعنى ان الله مستو على عرشه وانه فوق الاشياء بائن منها لا تحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها وعن ابن الاعرابي جاءه رجل فقال ما معنى هذه الآية قال انه مستو على عرشه كما أخبر فقال الرجل انما معنى قوله استوى استولى فقال له ابن الاعرابي ما يدريك العرب لا تقول استوى فلان على الشئ حتى يكون له فيه مضاد فأيهما غلب قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر لا كما يظنه البشر وقد تقدم الكلام على هذه الآية في سورة الاعراف وفيه رسائل مستقلة وكتب مفردة للحفاظ والمحدثين ونزاع قديم بين المتقدمين والمتأخرين والحق ما ذهب اليه سلف الامة وأئمتها من امرار الصفات على ظاهرها من غير تكييف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تحريف ولا تشبيه ولا تأويل والذي ذهب اليه أبو الحسن الاشعري انه سبحانه مستو على عرشه بغير حد ولا كيف والى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتبعهم والمجتهدين الاربعة وأهل الحديث والاثر الذين يمرون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تعطيل ولا تأويل والبحث في تحقيق هذا يطول جدا وليس هذا موضع بسط ذلك ردا وتعقبا وقد أوضحنا ذلك ايضاحا شافيا في رسائلنا الانتقاد الرجيح وهداية السائل وبغية الرائد وغيرها فليرجع اليها قاله الشوكاني (له ما في السموات وما في الارض وما بينهما) من الموجودات وقيل يعني الهواء (وما تحت الثرى) هو في اللغة التراب الندى فان لم يكن نديا فهو تراب ولا يقال له حينئذ ثرى أي ما تحت التراب الندى من شئ والمراد الارضون السبع لانها تحته قال الواحدي والمفسرون يقولون انه سبحانه اراد الثرى الذي تحت الصخرة التي عليها الثور الذي تحت الارض ولا يعلم ما تحت الثرى الا الله سبحانه قال قتادة الثرى كل شئ مبتل واخرج أبو يعلى عن جابر ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل ما تحت هذه الارض قال الماء قيل فما تحت الماء قال ظلمة قيل فما تحت الظلمة قال الهواء قيل فما تحت الهواء قال الثرى قيل فما تحت الثرى قال انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق واخرج ابن مردويه عنه نحوه باطول منه (وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) الجهر بالقول هو رفع الصوت به والسر ما حدث به الانسان غيره وأسره اليه والاخفى من السر هو ما حدث به الانسان نفسه

نفسه وأخطره بباله والمعنى ان تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن ذلك فانه يعلم السر وما هو أخفى من السر فلا حاجة لك الى الجهر بالقول وفي هذا معنى النهي عن الجهر كقوله سبحانه واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة وقيل السر ما أسر الانسان في نفسه والاخفى منه هو ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله وهو لا يعلمه وبه قال ابن عباس وزاد فانه يعلم ذلك كله فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق عنده في ذلك كنفس واحدة وهو كقوله ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقيل السر ما أضمره الانسان في نفسه والاخفى منه ما لم يكن ولا أضمره أحد وقيل السر سر الخلائق والاخفى منه سر الله عز وجل وأنكر ذلك ابن جرير وقال ان الاخفى ما ليس في سر الانسان وسيكون في نفسه وعن ابن عباس أيضا قال السر ما علمته أنت وأخفى ما قذف الله في قلبك مما لم تعلمه وفي لفظ يعلم ما تسر في نفسك ويعلم ما تعمل غدا وفي الآية تنبيه على ان شرع الذكر والدعاء والجهر فيهما ليس لاعلام الله تعالى واسماعه بل لغرض آخر كتصوير النفس بالذكر ورسوخه فيها ودفع الشواغل والوساوس ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع والجؤار ثم ذكر ان الموصوف بالعبادة على الوجه المذكور هو الله سبحانه المتنزه عن الشريك المستحق لتسميته بالاسماء الحسنى فقال (الله) أي الموصوف بهذه الصفات الكمالية الله وجملة (لا اله الا هو) مستأنفة لبيان اختصاص الالهية به سبحانه أي لا اله في الوجود الا هو وهكذا جملة (له الاسماء الحسنى) مبينة لاستحقاقه تعالى لها وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح وقد تقدم بيانها في سورة الاعراف والحسنى تأنيث الاحسن فهي اسم تفضيل يوصف به الواحد من المؤنث والجمع من المذكر ثم قرر سبحانه أمر التوحيد الذي اليه انتهى مساق الحديث بذكر قصة موسى المشتملة على القدرة الباهرة والخبر الغريب فقال (وهل أتاك حديث موسى) الاستفهام للتقرير ومعناه أليس قد أتاك وقيل معناه قد أتاك وقال الكلبي لم يكن قد أتاه حديث موسى اذ ذاك وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها وان ذلك شأن الانبياء قبله وانه أمر مستمر فيما بينهم كابرا عن كابر والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى (اذ رأى نارا) أي اذكر وقت رؤيته نارا وقيل اي حين رأى نارا كان كيت وكيت وكانت رؤيته للنار في ليلة

يونس بن حلبس عن أبي ادريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلا وبالهالك في الفترة وبالهالك صغيرا فيقول الممسوخ يارب لو آتيتني ما كان من آتيته عقلا بأسعد مني وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك فيقول الرب عز وجل اني آمركم بأمر فتطيعوني فيقولون نعم فيقول اذهبوا فادخلوا النار قال ولو دخلوها ما ضرتهم فتخرج عليهم قوابص فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء فيرجعون سراعا ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك فيقول الرب عز وجل قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون وعلى علمي خلقتكم (٥٣) والى علمي تصيرون ضميهم فتأخذهم النار

الحديث الثامن عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الاسود بن سريع رضي الله عنه وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه او يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء وفي رواية قالوا يارسول الله أفرأيت من يموت صغيرا قال الله اعلم بما كانوا عاملين وقال الامام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا عبد الرحمن بن ثابت عن عطاء بن قرة عن عبد الله بن ضمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما أعلم شك موسى قال ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم ابراهيم عليه السلام وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل انه قال اني خلقت عبادي حنفاء وفي رواية لغيره مسلمين الحديث التاسع عن سمرة رضي الله عنه رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري من حديث عوف الاعرابي عن ابي رجاء العطاردي عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل مولود يولد على الفطرة فناداه الناس يارسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين قال الطبراني حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا عقبة بن مكرم الضبي عن عيسى بن شعيب عن عباد بن منصور عن أبي رجاء عن سمرة قال سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أطفال المشركين فقال هم خدم أهل الجنة الحديث العاشر عن عم خنساء قال أحمد حدثنا روح حدثنا عوف عن خنساء بنت معاوية من بني صريم قالت حدثني عمي قال قلت يارسول الله من في الجنة قال النبي في الجنة والشهيد في الجنة والمولود في الجنة والوئيد في الجنة ومن العلماء من ذهب الى الوقوف فيهم

اهم الحديث ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب فى صحيح البخارى انه عليه الصلاة والسلام قال فى جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان فقال له جبريل هذا ابراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين قالوا يارسول الله وأولاد المشركين قال نعم وأولاد المشركين ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام هم مع آبائهم ومنهم من ذهب الى انهم يمتحنون يوم القيامة فى العرصات فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ومن عصى دخل النار داخرا وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة وهذا القول يجمع بين الادلة كلها وقد صرحت به الاحاديث

المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن اسمعيل الاشعرى عن أهل السنة والجماعة وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب الاعتقاد وكذلك غيره من محققى العلماء والحفاظ النقاد وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى بعض ماتقدم من أحاديث الامتحان ثم قال وأحاديث هذا الباب ليست قوية ولا يقوم لها حجة وأهل العلم ينكرونها لان الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك فى وسع المخلوقين والله لا يكلف نفسا الا وسعها والجواب عما قال ان أحاديث هذا الباب منها ماهو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء ومنها ماهو حسن ومنها ماهو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن واذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها وأما قوله ان الدار الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء ولا ينافى التكليف فى عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار كما حكاه الشيخ أبو الحسن الاشعرى عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الاطفال وقد قال تعالى يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود الآية وقد ثبت فى الصحاح وغيرها ان المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة وان المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقا واحدا كلما أراد السجود خر لقفاه وفى الصحيحين فى الرجل الذى يكون آخر أهل النار خروجا منها ان الله يأخذ عهوده ومواثيقه ان لا يسأل غير ماهو فيه ويتكرر ذلك مرارا ويقول الله تعالى يا ابن آدم ما أغدرك ثم يأذن له فى دخول الجنة وأما قوله فكيف يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك فى وسعهم فليس هذا بمانع من صحة

مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد لما خرج مسافرا الى أمه بعد استئذانه لشعيب وكانت ليلة الجمعة (فقال لاهله امكثوا) المراد بالاهل هنا امرأته وهى بنت شعيب واسمها صفورا وقيل صفوريا وقيل صفورة واسم أختها ليا وقيل شرفا وقيل عبدا واختلف فى التى تزوجها موسى هل هى الصغرى أو الكبرى والجمع لظاهر لفظ الاهل أو للتفخيم وقيل المراد بهم المرأة والولد والخادم والمعنى أقيموا مكانكم وذلك فى مسيره من مدين طالبا مصر لما قضى الاجل الذى جعله عليه شعيب وبينها وبين مصر ثمان مراحل وعبر بالمكث دون الاقامة لانها تقتضى الدوام والمكث ليس كذلك (انى آنست نارا) أى أبصرت يقال آنست الصوت سمعته وآنست الرجل أبصرته وقيل الايناس الابصار البين ومنه انسان العين لانه يبصر به الاشياء وقيل هو الوجدان وقيل الاحساس فهو أعم من الابصار وقيل الايناس مختص بابصار مايؤنس والجملة تعليل للامر بالمكث ولما كان الاتيان بالقبس ووجود الهدى متوقعين بنى الامر على الرجاء فقال (لعلى) لعدم الجزم بوفاء الوعد (آتيكم) أجيئكم (منها) أى من النار (بقبس) هو الجذوة والشعلة من النار فى رأس عود أو قصبة أو فتيلة ونحوها وهو فعل بمعنى مفعول كالقبض والنقض بمعنى المقبوض والمنقوض وكذا المقباس يقال قبست منه نارا أقبس قبسا فاقبسنى أى أعطانى وكذا اقتبست قال اليزيدى أقبست الرجل علما وقبسته نارا ففرقوا بينهما هذا قول المبرد فان كنت طلبتها له قلت أقبسته وقال الكسائى أقبسته نارا وعلما سواء قال وقبسته أيضا فيهما (أو) لمنع الخلو وهو الظاهر دون الجمع (أجد على النار) وحرف الاستعلاء للدلالة على ان أهل النار مستعلون على أقرب مكان اليها كما قال سيبويه (هدى) أى هاديا يهدينى الى الطريق ويدلنى عليها قاله ابن عباس وكان أخطأها لظلمة الليل قال الفراء أراد هاديا فذكره بلفظ المصدر أو عبر بالمصدر لقصد المبالغة على حذف المضاف أى ذا هدى ولعله لم يقل قوما يهدوننى كما فى الكشاف اذ لا دليل على مافوق الواحد (فلما أتاها) أى النار التى آنسها (نودى) من الشجرة كما هو مصرح بذلك فى سورة القصص أى من جهتها وناحيتها قيل كانت الشجرة سمرة خضراء وقيل كانت من عوسج وقيل كانت من العليق وقيل شجرة من العناب والله أعلم بما كان وقيل لم يكن الذى رآه نارا بل كان نورا وذكر بلفظ النار لان موسى حسبه نارا وقيل هى النار بعينها وهى

احدى

احدى حجب الرب سبحانه ويدل له ماروى عن أبى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال حجابه النار لو كشفها لاهلكت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه أخرجه مسلم (ياموسى) أى نودى من الشجرة فقيل ياموسى وهذا أول الكلمات بينه وبين الله تعالى وسيأتى آخرها وهو قوله ان العذاب على من كذب وتولى وهذا بالنسبة لهذه الواقعة وهذه الحالة والا فله مكالمات أخر قاله سليمان الجمل ولما نودى موسى قال من المتكلم فقال الله تعالى (انى أنا ربك) فعرف انه كلام الله تعالى وليس هذا النداء والخطاب هو الذى وقع فيه الصعقة ودك الجبل كما تقدم ذكره فى سورة الاعراف بل هذا غيره اذ هذا أول بدء رسالته وذاك انما كان بعد غرق فرعون حين أعطاه الله التوراة (فاخلع نعليك) أمره الله سبحانه بخلع نعليه تعظيما لان الحفوة أبلغ فى التواضع وأقرب الى التشريف والتكريم وحسن التأدب وقيل معناه انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادى المقدس والاول أولى قيل ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين قال النسفى والقرآن يدل على ان ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها فخلعهما وألقاهما من وراء الوادى انتهى وقيل لانهما كانا من جلد حمار ميت أو من جلد غير مدبوغ قاله على وابن مسعود وروى عن السدى وقتادة وقيل معنى الخلع لهما تفريغ القلب من الاهل والمال وهو من بدع التفاسير ثم علل سبحانه الامر بالخلع فقال (انك بالواد المقدس) أى المطهر والمبارك والقدس الطهارة والارض المقدسة المطهرة سميت بذلك لان الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين (طوى) اسم للوادى قال الجوهرى هو اسم موضع بالشام يكسر طاؤه ويضم ويصرف ولا يصرف فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة وقيل طوى كثنى من الطى مصدر لنودى أو للمقدس أى نودى نداءين أو قدس مرة بعد أخرى قال ابن عباس يعنى الارض المقدسة وذلك انه مر بواديها ليلا فطوى يقال طويت وادى كذا وكذا وقيل طوى واد مستدير عميق مثل المطوى فى استدارته (وأنا اخترتك) بالافراد وقرئ انا اخترناك بالجمع قال النحاس والاولى أولى لانه أشبه بالخط وأولى بنسق الكلام لقوله ياموسى انى أنا ربك والمعنى اصطفيتك بالنبوة والرسالة فنبأه وأرسل فى ذلك الوقت وفى ذلك المكان وكان عمره حينئذ أربعين سنة (فاستمع لما يوحى) اليك منى أو للوحى وفيه نهاية الهيبة والجلال له

الحديث فان الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط وهو جسر جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ومنهم الساعى ومنهم الماشى ومنهم من يحبو حبوا ومنهم المكدوش على وجهه فى النار وليس ماورد فى أولئك باعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم وأيضا فقد ثبتت السنة بان الدجال يكون معه جنة ونار وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه ان يشرب أحدهم من الذى يرى انه نار فانه يكون عليه بردا وسلاما فهذا نظير ذالك وأيضا فان الله تعالى أمر بنى اسرائيل ان يقتلوا انفسهم فقتل

بعضهم بعضا حتى قتلوا فيما قيل فى غداة واحدة سبعين ألفا فقتل الرجل أباه وأخاه وهم فى عماية غمامة أرسلها الله عليهم وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل وهذا أيضا شاق على النفوس جدا لا يتقاصر عما ورد فى الحديث المذكور والله أعلم

(فصل) اذا تقرر هذا فقد اختلف الناس فى ولدان المشركين على أقوال أحدها انهم فى الجنة واحتجوا بحديث سمرة انه عليه السلام رأى مع ابراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم فى رواية أحمد عن خنساء عن عمها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والمولود فى الجنة وهذا استدلال صحيح ولكن أحاديث الامتحان أخص منه فمن علم الله منه انه يطيع جعل روحه فى البرزخ مع ابراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ومن علم منه انه لا يجيب فأمره الى الله تعالى ويوم القيامة يكون فى النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ونقله الاشعرى عن أهل السنة ثم ان هؤلاء القائلين بانهم فى الجنة منهم من يجعلهم مستقلين فيها ومنهم من يجعلهم خدما لهم كما جاء فى حديث على بن زيد عن انس عند ابى داود الطيالسى وهو ضعيف والله أعلم والقول الثانى انهم مع آبائهم فى النار واستدل عليه بما رواه الامام أحمد بن حنبل عن أبى المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة بن حبيب حدثنى عبد الله بن أبى قيس مولى غطيف انه أتى عائشة فسألها عن ذرارى الكفار فقالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم تبع لآبائهم فقلت يارسول الله بلا أعمال فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب عن محمد بن زياد الالهانى سمعت عبد الله بن أبى قيس سمعت عائشة تقول سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذرارى المؤمنين قال هم مع آبائهم قلت فذرارى المشركين قال هم مع آبائهم

كأنه قال لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له (انني أنا الله لا اله الا أنا) ثم أمره بالعبادة فقال (فاعبدني) لان اختصاص الالهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة (وأقم الصلاة) خصها بالذكر مع كونها داخلة تحت الامر بالعبادة لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة وعلل الامر باقامة الصلاة بقوله (لذكري) أي لتذكرني فان الذكر الكامل لا يتحقق الا في ضمن العبادة والصلاة أو المعنى لتذكرني فيهما لاشتمالهما على الاذكار أو لذكري اياك أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري أو لأمري بها في الكتاب وذكري اياها أو لتكون ذاكرا لي غير ناس وقيل لاوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة أو المعنى أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة وقيل اذكر صلاتي وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أنس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها اذا ذكرها فان الله قال أقم الصلاة لذكري وأخرج الترمذي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نسي صلاة فليصلها اذا ذكرها فان الله قال أقم الصلاة لذكري وكان ابن شهاب يقرؤها للذكرى وقيل المعنى لأذكرك بالمدح في عليين فالمصدر على هذا يحتمل الاضافة الى الفاعل أو الى المفعول وقيل لاخلاص ذكري وطلب وجهي ولا ترائي فيها ولا تقصد بها غرضا آخر (ان الساعة) أي التي هي وقت الحساب والعقاب (آتية) أي كائنة وحاصلة لا محالة فاعمل الخير من عبادة الله والصلاة وهذا تعليل لما قبله من الامر (أكاد) أي أريد قاله الاخفش وقيل صلة (أخفيها) قال الواحدي قال أكثر المفسرين أخفيها من نفسي وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وقال المبرد وقطرب هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون اذا بالغوا في كتمان الشئ كتمته حتى من نفسي أي لم أطلع عليه أحدا ومعنى الآية ان الله تعالى بالغ في اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب والمعنى في اخفائها التهويل والتخويف وكذلك المعنى في اخفاء وقت الموت على الانسان ليكون على حذر وقدم الوجل في كل وقت وقد روي عن سعيد بن جبير انه قرأ أخفيها بفتح الهمزة ومعناه اظهرها قال النحاس وأجود من هذا ما روي عنه أنه قرأها بضم الهمزة قال الفراء معناه على الفتح أكاد أظهرها من خفيت الشئ اذا أظهرته واخفيته قال القرطبي قال بعض اللغويين يجوز أن يكون أخفيها بضم الالف معناه أظهرها لانه يقال خفيت الشئ وأخفيته

فقات بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين ورواه أحمد أيضا عن وكيع عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل وهو متروك عن مولاته بهية عن عائشة انها ذكرت أطفال المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان شئت اسمعتك تضاغيهم في النار وروى عبد الله بن الامام أحمد حدثنا عثمان بن أبي شيبة عن محمد بن فضيل بن غزوان عن محمد بن عثمان عن زاذان عن علي رضي الله عنه قال سألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال هما في النار قال فلما رأى الكراهية في وجهها فقال لها لو رأيت مكانهما لابغضتهما قالت فولدي منك قال ان المؤمنين وأولادهم في الجنة وان المشركين وأولادهم في النار ثم قرأ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وهذا حديث غريب فان في اسناده محمد بن عثمان مجهول الحال وشيخه زاذان لم يدرك عليا والله أعلم وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة عن أبيه عن الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الوائدة والموؤدة في النار ثم قال الشعبي حدثني به علقمة عن أبي وائل عن ابن مسعود وقد رواه جماعة من رواية ابن أبي هند عن الشعبي عن علقمة عن سلمة بن قيس الاشجعي قال اتيت انا واخي النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا ان أمنا ماتت في الجاهلية وكانت تقري الضيف وتصل الرحم وانها وأدت اختا لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث فقال الوائدة والموؤدة في النار الا أن يدرك الوائدة الاسلام فتسلم وهذا اسناد حسن والقول الثالث التوقف فيهم واعتمدوا على قوله صلى الله عليه وسلم الله اعلم بما كانوا عاملين وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي اياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اولاد المشركين قال الله اعلم بما كانوا عاملين وكذلك هو في الصحيحين من حديث الزهري عن عطاء بن يزيد وعن ابي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل عن اطفال المشركين فقال الله اعلم بما كانوا عاملين ومنهم من جعلهم من اهل الاعراف وهذا القول يرجع الى قول من ذهب الى انهم من اهل الجنة لان الاعراف ليس دار قرار ومآل أهلها الى الجنة كما تقدم تقرير ذلك في سورة الاعراف والله اعلم *(فصل)* وليعلم ان هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين فاما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي ابو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الامام احمد انه قال لا يختلف فيهم انهم من اهل الجنة وهذا هو المشهور بين

وأخفيته من حروف الاضداد يقع على الستر والاظهار قال أبو عبيدة خفيت وأخفيت بمعنى واحد قال النحاس وهذا حسن وليس المعنى على اظهرها ولا سيما وأخفيها قراءة شاذة فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة وقال ابن الانباري في الآية تفسير آخر وهو ان الكلام ينقطع على أكاد وبعده مضمر أي أكاد آتي بها ووقع الابتداء بأخفيها الخ واختار هذا النحاس وقال أبو علي الفارسي هو من باب السلب وليس من الاضداد ومعنى أخفيها أزيل عنها اخفاءها وهو سترها ومن هذا قولهم أشكيته أي أزلت شكواه وعن الاخفش ان كاد زائدة للتأكيد قال ومثله اذا أخرج يده لم يكد يراها قال والمعنى أقارب ذلك لانك اذا قلت كاد زيد يقوم جاز أن يكون قام وان يكون لم يقم ودل على انه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا (لتجزى كل نفس بما تسعى) أي بسعيها والسعي وان كان ظاهرا في الافعال فهو ههنا يعم الافعال والتروك للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به (فلا يصدنك عنها) أي لا يصرفنك عن الايمان بالساعة والتصديق بها أو عن ذكرها ومراقبتها وهذا أولى وأليق بشأن موسى عليه السلام وان كان النهي بطريق التهييج والالهاب وقيل الضمير للصلاة بعيد وهو (من لا يؤمن بها) من الكفرة وهذا النهي وان كان للكافر بحسب الظاهر فهو في الحقيقة نهي له صلى الله عليه وآله وسلم عن الانصداد أو عن اظهار اللين للكافرين فهو من باب لا أرينك ههنا كما هو معروف (واتبع هواه) أي هوى نفسه بالانهماك في اللذات الحسية الفانية وفي انكار الساعة (فتردى) أي فتهلك لان انصدادك عنها بصد الكافرين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له (وما تلك بيمينك ياموسى) قال الزجاج والفراء ان تلك اسم ناقص وصلت بيمينك أي ما التي بيمينك وروى عن الفراء انه قال تلك بمعنى هذه ولو قال ماذلك لجاز أي ماذلك الشيء وبالاول قال الكوفيون قال الزجاج ومعنى السؤال من العصا التنبيه له عليها لتقع المعجزة بها بعد التثبيت فيها والتأمل لها قال الفراء ومقصود السؤال تقرير الامر حتى يقول موسى هي عصاي لتثبيت الحجة عليه بعد ما اعترف والا فقد علم الله ماهي في الازل وقيل السؤال للتوطين لئلا يهول انقلابها حية أو للايناس ورفع الهيبة للمكالمة (قال هي عصاي) وقرئ عصي على لغة هذيل قال ابن عباس أعطاه ملك من الملائكة اذ توجه الى مدين فكانت تضيء له بالليل ويضرب بها الارض فيخرج له النبات ويهش

الناس وهو الذي نقطع به ان شاء الله عز وجل فاما ماذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن بعض العلماء انهم توقفوا في ذلك وان الولدان كلهم تحت المشيئة قال أبو عمر ذهب الى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث منهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك واسحق بن راهويه وغيرهم قال وهو يشبه مارسم مالك في موطئه في أبواب القدر وما أورده من الاحاديث في ذلك وعلى ذلك أكثر الصحابة وليس عن مالك فيه شيء منصوص الا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا الى ان أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة انتهى كلامه وهو غريب جدا وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في (٥٧) كتاب التذكرة نحو ذلك أيضا والله أعلم وقد ذكروا في ذلك أيضا حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت دعي النبي صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبي من الانصار فقلت يارسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أوغير ذلك ياعائشة ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه ولما كان الكلام في هذه المسئلة يحتاج الى دلائل صحيحة جيدة وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع كره جماعة من العلماء الكلام فيها روي ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن الحنفية وغيرهم وأخرج ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم سمعت أبا رجاء العطاردي سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال أمر هذه الامة مواتيا أو مقاربا مالم يتكلموا في الولدان والقدر قال ابن حبان يعني أطفال المشركين وهكذا رواه

أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم به ثم قال وقد رواه جماعة عن أبي رجاء عن ابن عباس موقوفا

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) اختلف القراء في قراءة قوله أمرنا فالمشهور قراءة التخفيف واختلف المفسرون في معناها فقيل معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرا قدريا كقوله تعالى أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فان الله لا يأمر بالفحشاء قالوا معناه انه سخرهم الى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب وقيل معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة رواه ابن جريج عن ابن عباس وقاله سعيد بن جبير أيضا وقال ابن جرير يحتمل ان يكون معناه

جعلناهم أمراء قلت انما يجيء هذا على قراءة من قرأ أمّرنا مترفيها قال علي بن طلحة عن ابن عباس قوله أمرنا مترفيها ففسقوا فيها يقول سلطنا أشرارها فعصوا فيها فاذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب وهو قوله وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها الآية وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس وقال العوفي عن ابن عباس واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها يقول أكثرنا عددهم وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعن مالك عن الزهري أمرنا مترفيها أكثرنا وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الامام أحمد حيث قال حدثنا (٥٨) روح بن عبادة حدثنا أبو نعيم العدوي عن مسلم بن بديل عن اياس بن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة قال الامام أبو عبيد القاسم ابن سلام رحمه الله في كتابه الغريب المأمورة كثيرة النسل والسكة الطريقة المصطفة من النخل والمأبورة من التأبير وقال بعضهم ان ما جاء هذا متناسبا كقوله مأزورات غير مأجورات (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) يقول تعالى منذرا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه قد أهلك أمما من المكذبين للرسل من بعد نوح ودل هذا على ان القرون التي كانت بين آدم ونوح على الاسلام كما قاله ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ومعناه انكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى وقوله وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها لا تخفى عليه منها خافية (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) يخبر تعالى انه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له ما يحصل لمن أراد الله ما يشاء وهذه مقيدة لاطلاق ما سواها من الآيات فانه قال عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم أي في الدار الآخرة يصلاها أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه مذموما أي في حال كونه مذموما على سوء تصرفه وصنيعه واذا اختار الفاني على الباقي مدحورا مبعدا مقصيا حقيرا ذليلا مهانا روى الامام أحمد حدثنا حسين حدثنا ذويد عن

بها على غنمه ورق الشجر وعن قتادة كانت تضيء له بالليل وكانت عصا آدم عليه السلام ورثها شعيب وأعطاها موسى بعد ان زوجه ابنته قيل وكان لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن واسمها نبعة (أتوكأ) أي أتحامل (عليها) في المشي وأعتمدها عند الاعياء والوقوف على قطيع الغنم وعند الوثوب والنهوض للقيام ومنه الاتكاء (وأهش بها على غنمي) هش بالعصا يهش هشا اذا خبط بها الشجر ليسقط منه الورق أي أضرب بها الشجر فيتساقط منه الورق على غنمي قاله عكرمة وقد روي نحو هذا عن جماعة من السلف وقرأ النخعي أهس بالسين المهملة وهو زجر الغنم وكذا قرأ عكرمة وقيل هما لغتان بمعنى واحد ولما ذكر تفصيل منافع العصا عقبه بالاجمال فقال (ولي فيها مآرب) أي حوائج (أخرى) قاله مجاهد وقتادة واحدها مأربة مثلث الراء كذا قال ابن الاعرابي وقطرب والقياس أخر وانما قال أخرى ردا الى الجماعة أو لنسق الاخرى ولما ذكر بعضها شكرا أجمل الباقي حياء من التطويل أو ليسأل عنها الملك العلام فيزيد في الاكرام ويتلذذ بالخطاب وقد تعرض قوم لتعداد منافع العصا فذكروا من ذلك أشياء منها قول بعض العرب عصاي أركزها لصلاتي وأعدها لعداتي وأسوق بها دوابي وأقوى بها على سفري وأعتمد بها في مشيتي ليتسع خطوي وأثب بها النهر وتؤمنني العثر وألقي عليها كسائي فتقيني الحر وتدفيني من القر وتدني الي ما بعد مني وهي تحمل سفرتي وعلاقة اداوتي أعصى (١) بها عند الضراب وأقرع بها الابواب وأقي بها عقور الكلاب وتنوب عن الرمح في الطعان وعن السيف عند منازلة الاقران ورثتها عن أبي وأورثها بعدي بني انتهى وقال الشوكاني قد وقفت على مصنف في مجلد لطيف في منافع العصا لبعض المتأخرين وذكر فيه أخبارا وأشعارا وفوائد لطيفة ونكاتا رشيقة وقد جمع الله سبحانه لموسى في عصاه من البراهين العظام والآيات الجسام ما أمن به من كيد السحرة ومعرة المعاندين واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته وكان ابن مسعود صاحب عصاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنزته وكان يخطب بالقضيب وكذلك الخلفاء من بعده وكان عادة العرب العرباء أخذ العصا والاعتماد عليها عند الكلام وفي المحافل والخطب وقال بعضهم امساك العصا سنة الانبياء وزينة الصلحاء وسلاح على الاعداء وعون الضعفاء وغم المنافقين وزيادة في الطاعات ويقال اذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه

(١) يقال عصى بالسيف يعصى اذا ضرب به اه صحاح

أبي إسحق عن زرعة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وقوله ومن أراد الآخرة أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور وسعى لها سعيها أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول وهو مؤمن أي قلبه مؤمن أي مصدق موقن مصدق بالثواب والجزاء فأولئك كان سعيهم مشكورا

(كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) يقول تعالى كلا أي كل واحد من الفريقين (٥٩) الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما هم فيه من عطاء ربك أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور فيعطي كلا ما يستحقه من السعادة والشقاوة فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد ولهذا قال وما كان عطاء ربك محظورا أي لا يمنعه أحد ولا يرده راد قال قتادة وما كان عطاء ربك محظورا أي منقوصا وقال الحسن وغيره أي ممنوعا ثم قال تعالى انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض أي في الدنيا فمنهم الغني والفقير وبين ذلك والحسن والقبيح وبين ذلك ومن يموت صغيرا ومن يعمر حتى يبقى شيخا كبيرا وبين ذلك وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها ومنهم من يكون في الدرجات العليا ونعيمها وسرورها ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه كما أن أهل الدرجات يتفاوتون فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين ما بين السماء والأرض وفي الصحيح إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما يرون الكوكب الغابر في أفق السماء ولهذا قال وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وفي الطبراني من رواية زاذان عن سلمان مرفوعا ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع إلا وضعه الله في الآخرة أكبر منها ثم قرأ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا) يقول تعالى والمراد المكلفون من الأمة لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكا فتقعد مذموما أي على إشراكك به مخذولا لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذي عبدت معه وهو لا يملك لك ضرا ولا نفعا لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا بشير بن سلمان عن سيار أبي الحكم عن طارق بن شهاب عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصابته فاقة فأنزلها [illegible]

منه الشيطان ويخشع منه المنافق والفاجر وتكون قبلته إذا صلى وقوته إذا أعيا (قال ألقها يا موسى) هذه جملة مستأنفة أمره سبحانه بالقائها ليريه ما جعل له فيها من المعجزة الظاهرة (فألقاها) أي طرحها موسى على الأرض (فإذا هي حية تسعى) ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ومرت بصخرة فابتلعتها فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها قاله ابن عباس وذلك بقلب الله سبحانه لأوصافها وأعراضها حتى صارت حية تسعى أي تمشي بسرعة وخفة على بطنها قيل كانت عصا ذات شعبتين فصار الشعبتان فما وباقيها جسم حية تنتقل من مكان إلى مكان وتلتقم الحجارة مع عظم جرمها وفظاعة منظرها وقال في موضع آخر كأنها جان وهي الحية الصغيرة الجسم الخفيفة وقال في موضع آخر كأنها ثعبان وهو أكبر ما يكون من الحيات ووجه الجمع أن الحية اسم جامع للكبير والصغير والذكر والأنثى وقيل كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان وقيل سماها جانا تارة نظرا إلى المبتدا وثعبانا مرة باعتبار المنتهى وحية تارة أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحالين فلما رآها كذلك خاف وفزع وولى مدبرا ولم يعقب فنودي أن يا موسى و(قال) سبحانه عند ذلك (خذها ولا تخف) منها (سنعيدها سيرتها) أي حالتها (الأولى) قال ابن عباس فلم يأخذها ثم نودي الثانية أن خذها ولا تخف فلم يأخذها فقيل له في الثالثة إنك من الآمنين فأخذها قال الأخفش والزجاج التقدير إلى سيرتها مثل واختار موسى قومه قال ويجوز أن يكون مصدرا لأن معنى سنعيدها سنسيرها أو سائرة أو مسيرة والمعنى سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التي هي العصوية والأولى تأنيث الأول والسيرة الحالة التي يكون عليها الإنسان غريزية أو مكتسبة وهي في الأصل فعلة من السير كالركبة من الركوب ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة والهيئة قيل إنه لما قيل له لا تخف طابت نفسه حتى بلغ من عدم الخوف إلى أن كان يدخل يده في فمها ويأخذ بلحييها قال المحلي وأرى ذلك موسى لئلا يجزع إذا انقلبت حية لدى فرعون (واضمم يدك) اليمنى بمعنى الكف لا بمعنى حقيقتها وهي الأصابع إلى المنكب (إلى جناحك) قال الفراء والزجاج جناح الإنسان عضده وبه قال مجاهد وقال إلى بمعنى تحت وقال قطرب جنبه وعبر بالجناح عن الجنب لأنه في محل الجناح وقال مقاتل إلى بمعنى مع أي مع جناحك الأيسر تحت العضد إلى الإبط وجواب الأمر (تخرج) يدك خلاف

بالغنى اما آجلا واما عاجلا ورواه أبو داود والترمذى من حديث بشير بن سليمان به وقال الترمذى حسن صحيح غريب (وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له فان القضاء ههنا بمعنى الامر قال مجاهد وقضى يعنى وصى وكذا قرأ أبى بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم ووصى ربك أن لا تعبدوا الا اياه ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين

فقال وبالوالدين احسانا أى وأمر بالوالدين احسانا كقوله فى الآية الاخرى أن اشكر لى ولوالديك الى المصير وقوله اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف أى لا تسمعهما قولا سيئا حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ولا تنهرهما أى ولا يصدر منك اليهما فعل قبيح كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله ولا تنهرهما أى لا تنفض يدك عليهما ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال وقل لهما قولا كريما أى لينا طيبا حسنا بتأدب وتوقير وتعظيم واخفض لهما جناح الذل من الرحمة أى تواضع لهما بفعلك وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا أى فى كبرهما وعند وفاتهما قال ابن عباس ثم أنزل الله ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره ان النبى صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر قال آمين آمين آمين قيل يا رسول الله على ما أمنت قال أتانى جبريل فقال يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك قل آمين فقلت آمين ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له قل آمين فقلت آمين قال رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قل آمين فقلت آمين حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا هشيم حدثنا على بن زيد عن زرارة بن أبى أوفى عن مالك بن الحرث عن رجل منهم انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول من ضم يتيما من أبوين مسلمين الى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة البتة ومن أعتق امرأ مسلما كان فكاكه من النار يجزى بكل عضو منه عضوا منه ثم قال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت على بن زيد فذكر معناه الا انه قال من رجل عن قومه يقال له مالك أو ابن مالك وزاد ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار

ما كانت عليه من الأدمة حال كونها (بيضاء) نيرة مشرقة كائنة (من غير سوء) أى عيب كنى به عن البرص ويسمى هذا عند أهل البيان الاحتراس وهو ان يؤتى بشئ يرفع توهم غير المراد وذلك ان البياض قد يراد به البرص والبهق فأتى بقوله من غير سوء نفيا لذلك والمعنى تخرج بيضاء ساطعا نورها تضئ بالليل والنهار كضوء الشمس تغشى البصر من غير برص وبه قال ابن عباس (آية) أى معجزة (أخرى) غير العصا وقال الاخفش انها بدل من بيضاء قال النحاس وهو قول حسن وقال الزجاج المعنى آتيناك أو نؤتيك آية أخرى لانه لما قال تخرج بيضاء دل على انه قد آتاه آية أخرى ثم علل سبحانه ذلك بقوله (لنريك من آياتنا الكبرى) قيل والتقدير فعلنا ذلك لنريك والكبرى معناها العظمى أى لنريك بهاتين الآيتين يعنى اليد والعصا بعض آياتنا الكبرى على رسالتك فلا يلزم ان تكون اليد هى الآية الكبرى وحدها حتى تكون أعظم من العصا فيرد على ذلك انه لم يكن فى اليد الا تغير اللون فقط بخلاف العصا فان فيها مع تغير اللون الزيادة فى الحجم وخلق الحياة والقدرة على الامور الخارقة ومن قال هى اليد قال لانها لم تعارض أصلا وأما العصا فقد عارضها السحرة والاول أولى ثم صرح سبحانه بالغرض المقصود من هذه المعجزات فقال (اذهب) رسولا (الى فرعون) ومن معه بهاتين الآيتين العصا واليد وانظر رسالته لبنى اسرائيل من أين تؤخذ قال بعضهم تؤخذ من قوله وأنا اخترتك أى للنبوة والرسالة وخصه بالذكر لان قومه تبع له ثم علل ذلك بقوله (انه طغى) أى عصى وتمرد وتكبر وكفر وتجبر وتجاوز الحد فى كفره الى ادعاء الالهية (قال رب اشرح لى صدرى) مستأنفة كأنه قيل فماذا قال موسى ومعنى شرح الصدر توسعته تضرع عليه السلام الى ربه وأظهر عجزه بقوله ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى (ويسر لى أمرى) أى سهل على ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة الى فرعون والتيسير معناه التسهيل قال الزمخشرى فان قلت لى من قوله اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ما جدواه والكلام منتظم بدونه قلت قد أبهم الكلام أولا فقال اشرح لى ويسر لى فعلم ان ثم مشروحا وميسرا ثم بين ورفع الابهام بذكرهما فكان آكد لطلب الشرح لصدره والتيسير لامره ويقال يسرت له كذا ومنه هذه الآية وتيسرته لكذا ومنه فسنيسره لليسرى (واحلل عقدة من لسانى) يعنى العجمة التى كانت فيه من أثر الجمرة التى ألقاها فى فيه وهو طفل أى أطلق عن لسانى

العقدة

فأبعده الله حديث آخر وقال الامام أحمد حدثنا عفان عن حماد بن سلمة حدثنا على بن زيد عن زرارة بن أبي أوفى عن مالك بن عمرو القشيري سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار فان كل عظم من أعظامه محررة بعظم من عظامه ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز وجل ومن ضم يتيما بين أبوين مسلمين الى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا حدثنا شعبة عن قتادة سمعت زرارة بن أبي أوفى يحدث عن أبي مالك القشيري قال قال النبي صلى الله عليه وسلم من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة به وفيه زيادات أخر حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا عثمان حدثنا عوانة حدثنا سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عند الكبر لم يدخل الجنة صحيح من هذا الوجه ولم يخرجوه سوى مسلم من حديث أبي عوانة وجرير وسليمان بن بلال عن سهيل به حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا ربعي بن ابراهيم قال أحمد وهو أخو اسمعيل بن علية وكان يفضل على أخيه عن عبد الرحمن بن أبي اسحق عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة قال ربعي لا أعلمه الا قال أو أحدهما ورواه الترمذي عن أحمد بن ابراهيم الدورقي عن ربعي بن ابراهيم ثم قال غريب من هذا الوجه حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا يونس حدثنا محمد حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل حدثنا أسيد بن علي عن أبيه عن أبي أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدي قال بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من الانصار فقال يا رسول الله هل بقي على من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به قال نعم خصال أربع الصلاة عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما واكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك الا من قبلهما فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان وهو ابن الغسيل حديث آخر قال الامام

العقدة التي فيه قيل أذهب الله سبحانه تلك العقدة جميعها بدليل قوله قد أوتيت سؤلك ياموسى وقيل لم تذهب كلها لانه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل سأل حل عقدة تمنع الافهام بدليل قوله من لساني أي كائنة من عقد لساني ويؤيد ذلك قوله هو أفصح مني لسانا وقوله حكاية عن فرعون ولا يكاد يبين وجواب الامر قوله (يفقهوا قولي) أي لكي يفهموا كلامي عند تبليغ الرسالة والفقه في كلام العرب الفهم ثم خص به علم الشريعة والعالم به فقيه قاله الجوهري (واجعل لي وزيرا من أهلي) أي معينا وظهيرا والوزير الموازر كالاكيل المواكل لانه يحمل عن السلطان وزره أي ثقله قال الزجاج واشتقاقه في اللغة من الوزر وهو الملجأ الذي يعتصم به لينجي من الهلكة ومنه قوله تعالى كلا لا وزر والوزير الذي يعتمد الملك على رأيه في الامور ويلتجئ اليه وقال الاصمعي هو مشتق من الموازرة وهي المعاونة نقله الزمخشري عن الاصمعي (هارون أخي) وكان أكبر من موسى وأفصح لسانا وأجمل وأوسم وكان موسى آدم أقنى جعدا (اشدد به أزري وأشركه في أمري) على صيغة الدعاء أي يارب أحكم به قوتي واجعله شريكي في أمر الرسالة والازر القوة يقال آزره أي قواه وقيل الظهر أي اشدد به ظهري وقرئ أشدد بهمزة قطع وأشركه بضم الهمزة أي أشدد أنا به أزري وأشركه أنا في أمري قال ابن عباس نبئ هرون ساعتئذ حين نبئ موسى (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) هذا الذكر والتسبيح هما الغاية من الدعاء المتقدم والمراد التسبيح هنا باللسان وقيل المراد به الصلاة (انك كنت بنا بصيرا) هو المبصر والعالم بخفيات الامور وهو المراد هنا أي انك كنت بنا عالما في صغرنا فأحسنت الينا فأحسن أيضا كذلك الآن ثم أخبره الله سبحانه بأنه قد أجاب ذلك الدعاء (قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) أي أعطيت ما سألته منا عليك والسؤل المسؤل أي المطلوب كقولك خبز بمعنى مخبوز ومسؤله هو قوله رب اشرح لي وزيادة قوله ياموسى لتشريفه بالخطاب مع رعاية الفواصل (ولقد مننا عليك مرة أخرى) كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه والمن الاحسان والافضال والمعنى ولقد أحسنا اليك قبل هذه المرة وهي حفظ الله سبحانه له من شر الاعداء كما بينه سبحانه ههنا وأخرى تأنيث آخر بمعنى غير وحاصل ما ذكره من المنن عليه من غير سؤال ثمانية الاولى قوله (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) الى قوله وعدوله أي مننا ذلك الوقت وهو وقت الايحاء

أحمد حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرني محمد بن طلحة بن عبيد الله بن عبد الرحمن عن أبيه عن معاوية بن جاهمة السلمي ان جاهمة جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال فهل لك من أم قال نعم قال فالزمها فان الجنة عند رجليها ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى ومثل هذا القول ورواه النسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج به حديث آخر قال الامام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا ابن عياش عن يحيي بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام بن معديكرب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله يوصيكم بآبائكم ان الله يوصيكم (٦٢) بأمهاتكم ان الله يوصيكم بأمهاتكم ان الله يوصيكم بأمهاتكم ان الله يوصيكم بالاقرب فالاقرب وأخرجه ابن ماجه من حديث اسمعيل بن عياش به حديث آخر قال أحمد حدثنا يونس حدثنا أبو عوانة عن أشعث بن سليم عن أبيه عن رجل من بني يربوع قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعته وهو يكلم الناس يقول يد المعطي العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك حديث آخر قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده حدثنا ابراهيم بن المستمر العروقي حدثنا عمرو بن سفيان حدثنا الحسن ابن أبي جعفر عن ليث بن أبي سليم عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبي صلى الله عليه وسلم هل أديت حقها قال لا ولا بزفرة واحدة أو كما قال ثم قال البزار لا نعلمه يروى الا من هذا الوجه قلت والحسن بن أبي جعفر ضعيف والله أعلم (ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا) قال سعيد ابن جبير هو الرجل تكون منه البادرة الى أبويه وفي نيته وقلبه انه لا يؤاخذه وفي رواية لا يريد الا الخير بذلك فقال ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين وقوله فانه كان للاوابين غفورا قال قتادة المطيعين أهل الصلاة وعن ابن عباس المسبحين وفي رواية عنه المطيعين المحسنين وقال بعضهم هم الذين يصلون بين العشاءين وقال بعضهم هم الذين يصلون الضحى وقال شعبة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب في قوله فانه كان للاوابين غفورا قال الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ويصيبون الذنب ثم يتوبون وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري ومعمر عن يحيى بن سعيد عن ابن المسيب بنحوه وكذا رواه الليث وابن جرير عن ابن المسيب به قال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد هم الراجعون الى الخير

والمراد به اما مجرد الالهام لامه واسمها يوحانذ قاله السيوطي في شرح النقاية أو في النوم بأن أراها ذلك أو على لسان نبي أو على لسان ملك لا على طريق النبوة كالوحي الى مريم أو باخبار الانبياء المتقدمين بذلك وانتهى الخبر اليها والمراد بما يوحى ما سيأتي من الامر لها أبهمه أولا وفسره ثانيا تفخيما لشأنه بقوله (أن) مفسرة لان الوحي فيه معنى القول أو بأن (اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم) القذف هنا الطرح أي اطرحيه في البحر واليم البحر والنهر الكبير قال الفراء هذا أمر وفيه المجازاة أي اقذفيه والتابوت الصندوق (فليلقه اليم بالساحل) الامر للبحر مبني على تنزيله منزلة من يفهم ويميز لما كان القاؤه اياه بالساحل أمرا واجب الوقوع وهذا أمر معناه الخبر وانما جيء به بصيغة الامر مبالغة اذ الامر أقطع الافعال وآكدها والساحل هو شط البحر سمي ساحلا لان الماء سحله قال ابن دريد والمراد هنا ما يلي الساحل من البحر لا نفس الساحل والضمائر كلها لموسى لا للتابوت وان كان قد ألقي معه لكن المقصود هو موسى مع كون الضمائر قبل هذا وبعده له قال السدي اليم هو النيل (يأخذه عدو لي وعدو له) جواب الامر بالالقاء أو القذف والمراد بالعدو فرعون فان أم موسى لما ألقته في البحر وهو النيل المعروف وكان يخرج منه نهر الى دار فرعون فساقه الله في ذلك النهر الى داره فأخذ التابوت فوجد موسى فيه وقيل ان البحر ألقاه بالساحل فنظره فرعون فأمر من يأخذه وقيل وجدته ابنة فرعون والاول أولى والمنة الثانية قوله (وألقيت عليك محبة مني) أي ألقى الله على موسى محبة عظيمة كائنة من الله تعالى في قلوب عباده لا يراه أحد الا أحبه وقيل جعل عليه مسحة من جمال لا يراه أحد من الناس الا أحبه وقال ابن جرير المعنى وألقيت عليك رحمتي وقيل المعنى أحببتك ومن أحبه الله أحبه الناس والقلوب لا محالة قال ابن عباس كل من رآه ألقيت عليه منه محبة وعن سلمة بن كهيل قال حببتك الى عبادي والمنة الثالثة قوله (ولتصنع على عيني) أي ولتربى وتغذى بمرأى مني ويحسن اليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الانسان الشئ بعينه اذا اعتنى به قاله الزمخشري والعين هنا بمعنى الرعاية مجاز مرسل من اطلاق السبب على المسبب يقال صنع الرجل جاريته اذا رباها وصنع فرسه اذا داوم على علفه والقيام عليه وتفسير على عيني بمرأى مني صحيح قال النحاس وذلك معروف في اللغة ولكن لا يكون في هذا تخصيص لموسى فان جميع الاشياء

بمرأى

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى الآية هو الذى اذا ذكر ذنوبه فى ا[illegible] هذه فى ذلك وقال عبد الرزاق
حدثنا محمد بن مسلمة عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير فى قوله انه وابين [illegible] قال كنا نعد الاواب الحفيظ ان يقول اللهم
اغفرلى ما أصبت فى مجلسى هذا قال ابن جرير والاولى فى ذلك قول من قال هو التائب من الذنب الرجاع من المعصية الى الطاعة مما
يكره الله الى ما يحبه ويرضاه وهذا الذى قاله هو الصواب لان الاواب مشتق من الاوب وهو الرجوع يقال آب فلان اذا رجع قال
تعالى إنا الينا ايابهم وفى الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦٣) كان اذا رجع قال آيبون تائبون عابدون لربنا
حامدون (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الاحسان الى القرابة وصلة الارحام وفى الحديث أمك وأباك ثم أدناك أدناك وفى رواية ثم الاقرب فالاقرب وفى الحديث من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أجله فليصل رحمه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عباد بن يعقوب حدثنا أبو يحيى التيمى حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد قال لما نزلت وآت ذا القربى حقه دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فأعطاها فدك ثم قال لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق الا أبو يحيى التيمى وحميد بن حماد بن أبى الخوار وهذا الحديث مشكل لو صح اسناده لان الآية مكية وفدك انما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة فكيف يلتئم هذا مع هذا وقد
تقدم الكلام على المساكين وابناء السبيل فى سورة براءة بما أغنى عن اعادته ههنا وقوله ولا تبذر تبذيرا لما أمر بالانفاق نهى
عن الاسراف فيه بل يكون وسطا كما قال فى الآية الاخرى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا الآية ثم قال منفرا عن التبذير
والسرف ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين أى أشباههم فى ذلك قال ابن مسعود التبذير الانفاق فى غير حق وكذا قال ابن
عباس وقال مجاهد لو أنفق انسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق مدا فى غير حقه كان مبذرا وقال قتادة التبذير النفقة
فى معصية الله تعالى وفى غير الحق والفساد وقال الامام احمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن
أبى هلال عن أنس بن مالك انه قال أتى رجل من بنى تميم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى ذو مال كثير وذو أهل

بمرأى من الله وقال أبو عبيدة وابن الانبارى ان المعنى لتغذى على محبتى وارادتى تقول
أتخذ الاشياء على عينى أى على محبتى قال ابن الانبارى العين فى هذه الآية يقصد بها
قصد الارادة والاختيار من قول العرب غدا فلان على عينى أى على المحبة منى قيل أى
فعلت ذلك لتصنع وقيل أى ولتصنع على عينى قدر نا مشى أختك والعين أيضا من ألفاظ
الصفات فلا تؤول وتجرى على ظاهرها وهو الاولى وقرئ ولتصنع باسكان اللام على الامر
وقرئ بفتح التاء والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتى وعلى عين منى وقال
الزمخشرى قريبا منه (اذ تمشى أختك) وكانت شقيقته واسمها مريم وصيغة المضارع
لحكاية الحال الماضية (فتقول هل أدلكم على من يكفله) وذلك انها خرجت متعرفة
لخبره فوجدت فرعون وامرأته آسية يطلبان له مرضعة فقالت لهما هذا القول أى هل
أدلكم على من يضمه الى نفسه ويربيه ويكمل له رضاعه وكانت أمه قد أرضعته ثلاثة
أشهر وقيل أربعة قبل القائه فى اليم فقالا لها ومن هو قالت أمى فقالا هل لها ابن قالت
نعم لبن أخى هرون أكبر من موسى بسنة وقيل بأكثر فجاءت الام فقبل ثديها وكان لا يقبل
ثدى مرضعة غيرها وهذا هو معنى (فرجعناك الى أمك) وفى مصحف أبى فرددناك وهذه
هى المنة الرابعة (كى تقر عينها) بلقائك قال الجوهرى قررت به عينا قرة وقرورا ورجل
قرير العين وقد قرت عينه تقر وتقر نقيض سخنت والمراد بقرة العين السرور برجوع
ولدها اليها بعد ان طرحته فى البحر وعظم فراقه عليها (ولا تحزن) حينئذ أى لا يحصل لها
ما يكدر ذلك السرور من الحزن بسبب من الاسباب ولو أراد الحزن بالسبب الذى قرت
عينها به واله لقدم نفى الحزن على قرة العين فيحمل هذا النفى على ما يحصل بسبب يطرأ بعد
ذلك ويمكن أن يقال ان الواو لما كانت لمطلق الجمع كان هذا الحمل غير متعين قال
البيضاوى ولا تحزن أنت ياموسى على فراقها او فقد اشفاقها وهو تعسف والمنة الخامسة
قوله (وقتلت نفسا) المراد بالنفس هنا نفس القبطى الذى وكزه موسى فقضى عليه واسمه
قاب قان وكان طباخا لفرعون وكان قتله له خطأ وكان عمره اذ ذاك اثنتى عشرة سنة وقيل
ثلاثين سنة (فنجيناك من الغم) أى الغم الحاصل معك من قتله خوفا من العقوبة
الاخروية أو الدنيوية أو منهما جميعا وقيل من جهة فرعون لا من جهة قتله لانه كان
كافرا وأيضا قتله له كان خطأ وقيل الغم هو القتل بلغة قريش وما أبعد هذا والمنة

ورله وحاضرته فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخرج الزكاة من مالك ان كان فانها طهرة تطهرك وتصل أقرباءك وتعرف حق السائل والجار والمسكين فقال يارسول الله أقلل لى قال فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا فقال حسبى الله يارسول الله اذا أديت الزكاة الى رسولك فقد برئت منها الى الله ورسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم اذا أديتها الى رسولى فقد برئت منها ولك أجرها واثمها على من بدلها وقوله ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين أى فى التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ولهذا قال وكان الشيطان لربه كفورا أى جحودا لانه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته وقوله واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك الآية أى اذا سألك أقاربك ومن أمرناك باعطائهم وليس عندك شئ وأعرضت عنهم لفقد النفقة فقل لهم قولا ميسورا أى عدهم وعدا بسهولة ولين اذا جاء رزق الله فسنصلكم ان شاء الله هكذا فسر قوله فقل لهم قولا ميسورا بالوعد مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يقول تعالى آمرا بالاقتصاد فى العيش ذاما للبخل ناهيا عن السرف ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك أى لا تكن بخيلا منوعا لا تعطى أحدا شيأ كما قالت اليهود عليهم لعائن الله يد الله مغلولة أى نسبوه الى البخل تعالى وتقدس الكريم الوهاب وقوله ولا تبسطها كل البسط أى ولا تسرف فى الانفاق فتعطى غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك فتقعد ملوما محسورا وهذا من باب اللف والنشر أى فتقعد ان بخلت ملوما يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبى زهير فى المعلقة * ومن كان ذا مال ويبخل بماله * على قومه يستغنى عنه ويذمم وصرت ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شئ تنفقه فتكون كالحسير وهو كالدابة التى عجزت عن السير فوقفت ضعفا وعجزا فانها تسمى الحسير وهو مأخوذ من الكلال كما قال فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير أى كليل عن أن يرى عيبا هكذا فسرت هذه الآية بان المراد هنا البخل والسرف وقال ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج

السادسة قوله (وفتناك فتونا) الفتنة تكون بمعنى المحنة وبمعنى الامر الشاق وكل ما يبتلى به الانسان والفتون مصدر كالثبور والشكور والكفور أى اختبرناك اختبارا وابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على انه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة أى خلصناك مرة بعد مرة مما وقعت فيه من المحن التى سبق ذكرها قبل أن نصطفيك لرسالتنا أولها أن أمه حملته فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه فى البحر فى التابوت ثم منعه من الرضاع الا من ثدى أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهر ثم قتله القبطى وخروجه الى مدين خائفا وقد أخرج عبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أثرا طويلا فى تفسير هذه الآية فمن أحب استيفاء ذلك فلينظر فى كتاب التفسير من سنن النسائى ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغم الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو الامتنان عليه بصنع الله سبحانه وتقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبنى اسرائيل والمنة السابعة قوله (فلبثت سنين فى أهل مدين) قال الفراء تقدير الكلام وفتناك فتونا فخرجت الى أهل مدين فلبثت سنين ومثل هذا الحذف كثير فى التنزيل وكذا فى كلام العرب فانهم يحذفون كثيرا من الكلام اذا كان المعنى معروفا ومدين هى بلد شعيب وكانت على ثمان مراحل من مصر هرب اليها موسى فاقام بها عشرين سنة وهى أتم الاجلين وقيل اقام عند شعيب ثمانية وعشرين سنة منها عشر مهر امرأته ابنة شعيب ومنها ثمانى عشرة سنة بقى فيها عنده حتى ولد له (ثم جئت على قدر ياموسى) أى فى وقت سبق فى قضائى وعلمى وقدرى ان أكلمك وأجعلك نبيا أو على ميقات ومقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء قاله ابن عباس وهو رأس أربعين سنة أو على موعد قد عرفته باخبار شعيب لك به قاله مجاهد وقتادة قال الشاعر

نال الخلافة اذ كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

وكلمة ثم المفيدة للتراخى للدلالة على ان مجيئه عليه السلام كان بعد مدة وذلك بسبب ما وقع له من ضلال الطريق وتفرق غنمه ونحو ذلك وعلى بمعنى مع (واصطنعتك لنفسى) بالرسالة والاصطناع اتخاذ الصنعة وهو الخير تسديه الى انسان والمعنى اصطنعتك لوحيى ورسالتى لتتصرف على ارادتى قال الزجاج تأويله اخترتك لاقامة حجتى وجعلتك بينى وبين خلقى

وابن زيد وغيرهم وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما الى تراقيهما فاما المنفق فلا ينفق الا سبغت أو وفرت على جلده حتى يخفي بنانه أو يعفو أثره واما البخيل فلا يريد أن ينفق شيأ الا لزقت كل حلقة منها مكانها فهو يوسعها فلا تتسع هذا لفظ البخاري في الزكاة وفي الصحيحين من طريق هشام بن عروة عن زوجته فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء بنت أبي بكر قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انفقي هكذا وهكذا وهكذا ولا توعي فيوعي الله عليك ولا توكي فيوكي الله عليك وفي لفظ ولا تحصي فيحصي الله عليك وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قال لي أنفق أنفق عليك وفي الصحيحين من طريق معاوية ابن أبي مزرد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا وروى مسلم عن قتيبة عن اسمعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا أنفق الا عزا ومن تواضع لله رفعه وفي حديث أبي كثير عن عبد الله بن عمر مرفوعا اياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا وروى البيهقي من طريق سعدان ابن نصر عن أبي معاوية عن الاعمش عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحي سبعين شيطانا وقال الامام أحمد حدثنا عبيدة الحذاء حدثنا مسكين بن عبد العزيز حدثنا ابراهيم الهجري عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عال من اقتصد وقوله ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر اخبار انه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء فيغني من يشاء ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة ولهذا قال انه كان بعباده خبيرا بصيرا أي خبير بصير بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر كما جاء في الحديث ان من عبادي من لا يصلحه الا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه وان من عبادي من لا يصلحه الا الغنى ولو أفقرته

وسررت بالتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم قيل وهو تمثيل لما خوله الله سبحانه من الكرامة العظمى بتقريب الملك لبعض خواصه وعده في المنة الثامنة قال أبو السعود وفي قوله يا موسى تشريف له عليه السلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الاخرى التي وقعت قبل المرة المحكية أولا وقوله اصطنعتك لنفسي تذكير لقوله وأنا اخترتك وتمهيد لارساله الى فرعون مؤيدا بأخيه انتهى

(اذهب أنت وأخوك) أي وليذهب أخوك حسبما طلبت وهو كلام مستأنف مسوق لبيان ما هو المقصود من الاصطناع وفيه اختصار لما ذكر المذهوب اليه في قوله اذهبا الى فرعون وحذفه هنا (بآياتي) أي بمعجزاتي التي جعلتها لك آية وهي اليد والعصا فقط وعليه أكثر المفسرين وقيل هي التسع الآيات وفيه نظر والباء للمصاحبة أي مصحوبين بها متمسكين بها في اجراء احكام الرسالة واكمال أمر الدعوة وليست للتعدية اذ ليس المراد مجرد ذهابهما وايصالها الى فرعون (ولا تنيا) أي لا تضعفا ولا تفترا يقال ونى يني ونيا اذا ضعف وتوانى في الامر توانيا لم يبادر الى ضبطه ولم يهتم به فهو متوان أي غير مهتم ولا محتفل (في ذكري) قال الفراء هذا وعن ذكري سواء والمعنى لا تقصرا عن ذكري بالاحسان اليكما والانعام عليكما ومن ذكر النعمة شكرها وقيل المعنى لا تبطئا في تبليغ رسالتي وفي قراءة ابن مسعود لا تهنا في ذكري (اذهبا الى فرعون) هذا أمر لهما جميعا بالذهاب وموسى حاضر وهرون غائب بل كان في ذلك الوقت بمصر تغليبا لموسى لانه الاصل في اداء الرسالة وكذا الحال في صيغة النهي المذكورة وعلل الامر بالذهاب بقوله (انه طغى) أي جاوز الحد في الكفر والتمرد بادعائه الربوبية وخص موسى وحده بالامر بالذهاب فيما تقدم وجمعهما هنا تشريفا لموسى بافراده وقيل الاول أمر لموسى بالذهاب الى كل الناس والثاني أمر لهما بالذهاب الى فرعون ثم أمرهما سبحانه بالانة القول لما في ذلك من التأثير في الاجابة فان التخشين بادئ بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر فقال (فقولا له قولا لينا) أي دارياه وارفقا به ولا تعنفا في قولكما في رجوعه عن ذلك والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه يقال لان الشيء يلين لينا والمراد تركهما التعنيف كقولهما هل لك الى ان تزكى وأهديك الى ربك فتخشى فانه دعوة في صورة عرض ومشاورة وقيل القول اللين هو الكنية له أي قولا له يا أبا الوليد وقيل يا أبا العباس وقيل يا أبا مرة وقيل أن يعداه بنعيم

لا فسدت عليه دينه وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجا والفقر عقوبة عياذا بالله من هذا وهذا (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا) هذه الآية الكريمة دالة على ان الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده لانه نهى عن قتل الاولاد كما أوصى الآباء بالاولاد في الميراث وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته فنهى الله تعالى عن ذلك وقال ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق أي خوف ان تفتقروا في ثاني الحال ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال نحن نرزقهم وإياكم وفي الانعام ولا تقتلوا أولادكم من إملاق أي من فقر نحن نرزقكم وإياهم

وقوله ان قتلهم كان خطأ كبيرا أي ذنبا عظيما وقرأ بعضهم كان خطأ كبيرا وهو بمعناه وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك قلت ثم أي قال ان تزاني بحليلة جارك (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) يقول تعالى ناهيا عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة أي ذنبا عظيما وساء سبيلا أي وبئس طريقا ومسلكا وقد قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون حدثنا جرير حدثنا سليم بن عامر عن أبي امامة ان فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ائذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا مه مه فقال ادنه فدنا منه قريبا فقال اجلس فجلس فقال أتحبه لامك قال لا والله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لامهاتهم قال أفتحبه لابنتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لبناتهم قال أفتحبه لاختك قال لا والله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لاخواتهم قال أفتحبه لعمتك قال لا والله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لعماتهم قال أفتحبه لخالتك قال لا والله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال فوضع يده عليه وقال اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت الى شئ وقال ابن أبي الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا

الدنيا والآخرة ان أجاب وقيل أن يعداه بشباب لا يهرم بعده وملك لا يزول الا بالموت قاله البيضاوي ثم علل الامر بالانة القول له بقوله (لعله يتذكر أو يخشى) أي باشرا ذلك مباشرة من يرجو ويطمع فالرجاء راجع اليهما كما قاله جماعة من النحويين سيبويه وغيره وقد تقدم تحقيقه في غير موضع قال الزجاج لعل لفظة طمع وترج فخاطبهم بما يعقلون وقيل لعل هنا بمعنى الاستفهام والمعنى فانظر هل يتذكر أو يخشى وقيل بمعنى كي والتذكر النظر فيما بلغاه من الذكر وامعان الفكر فيه حتى يكون ذلك سببا في الاجابة والخشية هي خشية عقاب الله الموعود به على لسانهما وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع وفائدة ارسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علم الله بانه لا يؤمن الزام الحجة وقطع المعذرة واظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات (قالا ربنا اننا نخاف) أسند القول اليهما مع ان القائل حقيقة هو موسى تغليبا للايذان باصالته في كل قول وفعل أو قاله هرون بعد ملاقاتهما فحكى ذلك مع قول موسى عند نزول الآية كما في قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فان هذا الخطاب قد حكى بصيغة الجمع مع ان كلا من المخاطبين لم يخاطب الا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم في الوجود فكيف باجتماعهم في الخطاب (ان يفرط) فرعون (علينا) بفتح الياء وضم الراء أي يعجل ويبادر بعقوبتنا قاله ابن عباس يقال فرط منه أمر أي بدر ومنه الفارط وهو الذي يتقدم القوم الى الماء أي يعذبنا عذاب الفارط في الذنب وهو المتقدم فيه كذا قال المبرد وقال أيضا فرط منه أمر وأفرط أسرف وفرط ترك وقرئ يفرط بضم الياء وفتح الراء أي يحمله حامل على التسرع الينا وقرأت طائفة من الافراط أي يشتط في أذيتنا أي فلا يصبر الى تمام الدعوة واظهار المعجزة (أو ان يطغى) أي يعتدي قاله ابن عباس واظهار كلمة ان مع استقامة المعنى بدونها لاظهار كمال الاعتناء بالامر والاشعار بتحقق الخوف من كل منهما (قال) تعالى (لا تخافا) ما توهمتماه من الامرين ثم علل ذلك بقوله (انني معكما) بالنصر لكما والمعونة على فرعون (أسمع وأرى) أي أدرك ما يجري بينكما وبينه بحيث لا يخفى علي منه خافية ولست بغافل عنكما فافعل في كل حال ما يليق بكما من دفع ضر وجلب نفع وعن ابن جريج قال أسمع ما يقول وأرى ما يجاوبكما به فأوحي اليكما فتجاوباه وعن ابن مسعود قال لما بعث الله موسى الى فرعون قال رب أي شئ أقول قال قل هيا شراهيا قال الاعشى تفسير ذلك الحي قبل كل شئ

يسرف فى القتل انه كان منصورا) يقول تعالى ناهيا عن قتل النفس بغير حق شرعى كما ثبت فى الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله الا باحدى ثلاث النفس بالنفس والزانى المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة وفى السنن لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم وقوله ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا أى سلطنة على القاتل فانه بالخيار فيه ان شاء قتله قودا وان شاء عفا عنه على الدية وان شاء عفا عنه مجانا كما ثبتت السنة بذلك وقد أخذ الامام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة انه سيملك لانه كان ولى عثمان وقد قتل عثمان مظلوما رضى الله عنه وكان معاوية يطالب عليا رضى الله عنه انه يسلمه قتلته حتى يقتص منه لانه أموى وكان على رضى الله عنه يستمهله فى الامر حتى يتمكن و يفعل ذلك ويطالب على من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة وأبى أن يبايع عليا هو وأهل الشام ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الامر اليه كما قاله ابن عباس واستنبطه من هذه الآية الكريمة وهذا من الامر العجب وقد روى ذلك الطبرانى فى معجمه حيث قال حدثنا يحيى بن عبد الباقى حدثنا أبو عمير بن النحاس حدثنا ضمرة بن ربيعة عن ابن شوذب عن مطر الوراق عن زهدم الجرمى قال كنا فى سمر ابن عباس فقال انى محدثكم بحديث ليس بسر ولا علانية انه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان يعنى عثمان قلت لعلى اعتزل فلو كنت فى جحر طلبت حتى تستخرج فعصانى وايم الله ليتأمرن عليكم معاوية وذلك ان الله يقول ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل الآية وليحملنكم قريش على سنة فارس والروم وليقمن عليكم النصارى واليهود والمجوس فمن أخذ منكم يومئذ بما يعرف نجا ومن ترك وأنتم تاركون كنتم كقرن من القرون هلك فيمن هلك وقوله فلا يسرف فى القتل انه قال معناه فلا يسرف الولى فى قتل القاتل بان يمثل به أو يقتص من غير القاتل وقوله انه كان منصورا أى ان الولى منصور على القاتل شرعا وغالبا وقدرا (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا) يقول تعالى ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده أى لا تتصرفوا فى مال اليتيم الا بالغبطة ولا تأكلوا أموالهم اسرافا

شئ والحى بعد كل شئ وجود السيوطى اسناده وسبقه الى تجويد اسناده ابن كثير فى تفسيره ثم أمرهما باتيانه الذى هو عبارة عن الوصول اليه بعد أمرهما بالذهاب اليه فلا تكرار فقال (فأتياه فقولا) أمرهما أن يقولا ست جمل الاولى قوله (انا رسولا ربك) أرسلنا اليك (فأرسل معنا بنى اسرائيل) أى خل عنهم وأطلقهم من الاسر والقسر (ولا تعذبهم) بالبقاء على ما كانوا عليه وقد كانوا عند فرعون فى عذاب شديد يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ويكلفهم من العمل ما لا يطيقونه من الحفر والبناء وحمل الثقيل (قد جئناك بآية من ربك) قيل هى العصا واليد وقيل ان فرعون قال لهما وما هى فادخل موسى يده فى جيب قميصه ثم أخرجها ولها شعاع كشعاع الشمس فعجب فرعون من ذلك ولم يره موسى العصا الا يوم الزينة قال الزمخشرى وهذه الجملة جارية من الجملة الاولى مجرى البيان والتفسير لان دعوى الرسالة لا تثبت الا ببينتها التى هى مجىء الآية وانما وحد بآية ولم يثن ومعه آيتان لان المراد مجرد تثبيت الدعوى ببرهانها فكأنه قيل قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة (والسلام) أى السلامة من العذاب (على من اتبع الهدى) قال الزجاج أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل ومن عذابه وليس بتحية قال والدليل على ذلك انه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب قال الفراء السلام على من اتبع ولمن اتبع سواء والجملة السادسة قوله (انا قد أوحى الينا) من جهة الله سبحانه (ان العذاب على من كذب) ما جئنا به (وتولى) أعرض عنه والمراد العذاب الهلاك والدمار فى الدنيا والخلود فى النار والمراد بالتكذيب التكذيب بآيات الله وبرسله والتولى الاعراض عن قبولها والايمان بها قال قتادة كذب كتاب الله وتولى عن طاعته فأتياه وقالا جميع ما ذكر وسارعا الى الامتثال من غير تلعثم (قال) فرعون لهما (فمن ربكما يا موسى) فاضاف الرب اليهما لما ان المرسل لا بد ان يكون ربا للرسول أو لانهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل ولم يضفه الى نفسه لعدم تصديقه لهما ولجحده للربوبية وغاية عتوه ونهاية طغيانه وخص موسى بالنداء لكونه الاصل فى الرسالة وقيل لمطابقة رؤس الآى والاول أولى (قال) موسى مجيبا له (ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه) الذى هو عليه متميز به عن غيره قرئ بفتح اللام على انه فعل وبسكون اللام والمعنى أعطى كل شئ صورته وشكله الذى يطابق بالمنفعة المنوطة به المطابقة له كاليد للبطش والرجل للمشى واللسان للنطق

وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف وقد جاء في صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابي ذر يا أبا ذر اني أراك ضعيفا واني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم وقوله وأوفوا بالعهد أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها فان العهد والعقد كل منهما يسئل صاحبه عنه وقوله وأوفوا الكيل اذا كلتم أي من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم وزنوا بالقسطاس قرئ بضم القاف وكسرها كالقرطاس وهو الميزان قال مجاهد هو العدل بالرومية وقوله المستقيم أي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب ذلك خير أي لكم في معاشكم ومعادكم ولهذا قال وأحسن تأويلا أي مآلا ومنقلبا في آخرتكم قال سعيد عن قتادة ذلك خير وأحسن تأويلا أي خير ثوابا وأحسن عاقبة وأما ابن عباس كان يقول يا معشر الموالي انكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم هذا المكيال وهذا الميزان قال وذكر لنا ان نبي الله عليه الصلاة والسلام كان يقول لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به الا مخافة الله الا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول لا تقل وقال العوفي عنه لا ترم أحدا بما ليس لك به علم وقال محمد بن الحنفية يعني شهادة الزور وقال قتادة لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم فان الله تعالى سائلك عن ذلك كله ومضمون ما ذكره ان الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهم والخيال كما قال تعالى اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم وفي الحديث اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث وفي سنن أبي داود بئس مطية الرجل زعموا وفي الحديث الآخر ان أفرى الفرى ان يرى الرجل عينيه ما لم تريا وفي الصحيح من تحلم حلما كلف يوم القيامة ان يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل وقوله كل أولئك كان عنه مسؤلا أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد كان عنه مسؤلا أي سيسئل العبد عنها يوم القيامة وتسئل عنه وعما عمل فيها ويصح استعمال أولئك مكان تلك كما قال الشاعر

ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الايام

(ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) يقول تعالى ناهيا

والعين للنظر والاذن للسمع كذا قال الضحاك وغيره قال الحسن وقتادة أعطى كل شئ صلاحه وهداه لما يصلحه وقال مجاهد المعنى لم يخلق خلق الانسان في خلق البهائم ولا خلق البهائم في خلق الانسان ولكن خلق كل شئ فقدره تقديرا ومنه قول الشاعر

وله في كل شئ خلقه * وكذلك الله ما شاء فعل

وقال الفراء المعنى خلق للرجل المرأة ولكل ذكر ما يوافقه من الاناث أو المعنى أعطى خلقه كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به ومعنى (ثم هدى) انه سبحانه هداهم الى طريق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شئ فيما خلق له أو المعنى أعطى كل شئ خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه قال ابن عباس خلق لكل شئ زوجة ثم هدى قال هداه لمنكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه ولما سمع فرعون ما احتج به موسى في ضمن هذا الكلام على اثبات الربوبية وشاهد ما نظمه في سلك الاستدلال من البرهان النير كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف ولا بد لهما من خالق وهاد وذلك الخالق والهادي هو الله سبحانه لا رب غيره خاف أن يظهر للناس حقية ما قاله موسى وبطلان خرافاته أراد أن يصرف موسى عن سننه الى ما لا يعنيه من الامور التي لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات لاجل أن يرى قومه ان عنده معرفة (قال فما بال القرون الاولى) كقوم نوح وهود ولوط وصالح في عبادتهم الاوثان فانها لم تقر بالرب بل عبدت الاوثان ونحوها من المخلوقات ومعنى البال الحال والشان أي ما حالهم وما شأنهم وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فاجابه موسى و(قال علمها عند ربي) أي ان هذا الذي سألت عنه ليس مما نحن بصدده بل هو من علم الغيب الذي استأثر الله به لا تعلمه أنت ولا أنا وان العلم باحوالهم لا تعلق له بمنصب الرسالة (في كتاب) أي انها مثبتة في اللوح المحفوظ قال الزجاج المعنى ان أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها يوم القيامة والتقدير علم أعمالها عند ربي في كتاب واعلم ان فرعون لما سأل موسى عن الاله وكان ذلك مما سبيله الاستدلال أجابه موسى بأوجز عبارة وأحسن معنى ولما سأله عن القرون الاولى وكان ذلك مما سبيله الاخبار ولم يأته خبر في ذلك وكله الى عالم الغيوب قاله الكرخي (لا يضل ربي ولا ينسى) اختلف في معناه على أقوال الاول انه ابتداء كلام مستأنف تنزيه لله سبحانه عن هاتين الصفتين وقد تم الكلام عند قوله في كتاب قاله الزجاج قال ومعنى لا يضل لا يهلك من قوله تعالى أئذا ضللنا في

عباده عن التجبر والتبختر في المشية ولا تمش في الارض مرحا أي متبخترا متمايلا مشي الجبارين انك لن تخرق الارض أي تقطع الارض بمشيك قاله ابن جرير واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج * وقاتم الاعماق خاوي المخترق * وقوله وان تبلغ الجبال طولا أي بتمايلك وفخرك واعجابك بنفسك بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده كما ثبت في الصحيح بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما اذ خسف به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون انه خرج على قومه في زينته وان الله تعالى خسف به وبداره الارض وفي الحديث من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير ومن

الارض ولا ينسى شيأ من الاشياء فقد نزهه عن الهلاك والنسيان الثاني ان معنى لا يضل لا يخطئ قاله ابن عباس الثالث ان معناه لا يغيب قال ابن الاعرابي أصل الضلال الغيبوبة الرابع ان المعنى لا يحتاج الى كتاب ولا يضل عنه علم شئ من الاشياء ولا ينسى ما علمه منها حكى هذا عن الزجاج أيضا قال النحاس وهو أشبهها بالمعنى ولا يخفى انه كقول ابن الاعرابي الخامس ان المعنى لا يذهب شئ عن علمه ولا ينسى أي بعد ما علم وهذا كالرابع السادس ان اللفظ الاول اشارة الى كونه عالما بكل المعلومات والثاني دليل على بقاء ذلك العلم ابد الآباد وهو اشارة الى نفي التغير السابع ان هاتين الجملتين صفة للكتاب والمعنى ان الكتاب غير ذاهب عن الله ولا هو ناس له (الذي جعل لكم الارض مهدا) أي مهدها مهدا أو ذات مهد وهو اسم لما يمهد كالفراش لما يفرش وقرئ مهادا قال النحاس والجمع أولى من المصدر لان هذا الموضع ليس موضع مصدر الا على حذف المضاف وقيل مهاد مفرد كالفراش أو جمع معناه الفراش فالمهاد جمع المهد أي جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم وهذا من جملة كلام موسى في جواب فرعون عن سؤاله الاول فهو مرتبط بقوله ثم هدى لكنه ذكر في خلال كلامه على سبيل الاعتراض سؤال فرعون الثاني وجوابه (وسلك لكم فيها سبلا) السلك ادخال الشئ في الشئ والمعنى أدخل في الارض لاجلكم طرقا تسلكونها وسهلها لكم ووسطها بين الجبال والاودية والبراري تسلكونها من قطر الى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها وفي آية اخرى الذي جعل لكم الارض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ثم قال سبحانه تتميما لما وصفه به موسى (وأنزل من السماء ماء) هو ماء المطر قيل الى هنا انتهى كلام موسى وما بعده وهو (فاخرجنا به) من كلام الله سبحانه قاله ابن عطية وتبعه المحلي وفيه بعد وقيل هو من الكلام المحكي عن موسى وانما التفت الى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وايذانا بانه مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لمشيئته ونوقش بان هذا خلاف الظاهر مع استلزامه فوت الالتفات لعدم اتحاد المتكلم ويجاب عنه بان الكلام كله محكي عن واحد وهو موسى والحاكي للجميع هو الله سبحانه والمعنى فاخرجنا بذلك الماء بسبب الحرث والمعالجة (أزواجا من نبات شتى) أي ضروبا واشباها من أصناف النبات المختلفة الالوان والطعوم والروائح والمنافع فنها ما هو

استكبر وضعه الله فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير حتى لهو أبغض اليهم من الكلب أو الخنزير وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب الخمول والتواضع حدثنا أحمد بن ابراهيم بن كثير حدثنا حجاج بن محمد عن أبي بكر الهذلي قال بينما نحن مع الحسن اذ مر عليه ابن الاهيم يريد المنصور وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي ويتبختر اذ نظر اليه الحسن نظرة فقال أف أف شامخ بانفه ثاني عطفه مصعر خده ينظر في عطفيه أي حمق أي ينظر في عطفه في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بامر الله فيها ولا المؤدي حق الله منها والله أي يمشي أحدهم طبيعته يتلجلج تلجلج المجنون في كل عضو منه نعمة وللشيطان به لعنة فسمعه ابن الاهيم فرجع يعتذر اليه فقال لا تعتذر الي وتب الى ربك أما سمعت قول الله تعالى ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ورأى البختري العابد رجلا من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته فقال له يا هذا ان الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته قال فتركها الرجل بعد ورأى ابن عمر رجلا يخطر في مشيته فقال ان للشياطين اخوانا وقال خالد بن معدان اياكم والخطر فان الرجل يده من سائر جسده رواهما ابن أبي الدنيا وقال ابن أبي الدنيا حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا حماد بن زيد عن يحيى عن سعيد عن محسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض وقوله كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها أما من قرأ سيئة أي فاحشة فمعناه عنده كل هذا الذي نهينا عنه من قوله ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق الى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها مكروها عند الله لا يحبه ولا يرضاه وأما

من قرأ سيئه على الاضافة فمعناه عنده كل هذا الذي ذكرناه من قوله وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه الى هنا فسيئه أي فقبيحه مكروها عند الله هكذا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا) يقول تعالى هذا الذي أمرناك به من الاخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة مما أوحينا اليك يا محمد لتأمر به الناس ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما أي تلومك نفسك ويلومك الله والخلق مدحورا أي مبعدا من كل خير قال ابن عباس وقتادة مطرودا والمراد من

هذا الخطاب الامة بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم فانه صلوات الله وسلامه عليه معصوم (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما) يقول تعالى رادا على المشركين الكاذبين الزاعمين عليهم لعائن الله ان الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ثم ادعوا أنهم بنات الله ثم عبدوهم فاخطؤا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيما فقال تعالى منكرا عليهم أفأصفاكم ربكم بالبنين أي خصكم بالذكور واتخذ من الملائكة اناثا أي واختار لنفسه على زعمكم البنات ثم شدد الانكار عليهم فقال انكم لتقولون قولا عظيما أي في زعمكم ان لله ولدا ثم جعلكم ولده الاناث التي تأنفون ان يكن لكم وربما قتلتموهن بالوأد فتلك اذا قسمة ضيزى وقال تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا (ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا) يقول تعالى ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل أي صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون انه ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والافك وما يزيدهم أي الظالمين منهم الا نفورا أي عن الحق وبعدا منه (قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين ان لله شريكا من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم اليه زلفى لو كان الامر كما يقولون وان معه آلهة تعبد لتقرب اليه وتشفع لديه لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون اليه ويبتغون اليه الوسيلة والقربة فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه ولا حاجة لكم الى معبود يكون واسطة بينكم وبينه فانه لا يحب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه

للناس ومنها ما هو للدواب سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض والنبات مصدر سمي به النابت فاستوى فيه الواحد والجمع وشتى جمع شتيت وزنه فعلى وألفه للتأنيث وقال الاخفش التقدير أزواجا شتى من نبات يقال أمر شت أي متفرق وشت الامر شتا يشت شتا وشتاتا تفرق واشتت مثله والشتيت المتفرق وشتان اسم فعل ماض بمعنى افترق ولذلك لا يكتفى بواحد قاله السمين قال ابن عباس شتى مختلف (كلوا وارعوا أنعامكم) أي قائلين لهم ذلك والامر للاباحة وتذكير النعمة والجملة حال يقال رعت الماشية الكلأ ورعاها صاحبها رعاية أي أسامها وسرحها يجيء لازما ومتعديا والانعام جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم والمعنى معديها لاستمتاعكم بالاكل والعلف آذنين فيه (ان في ذلك) الاشارة الى ما تقدم ذكره في هذه الآيات (لآيات) أي لعبر (لأولي النهى) جمع نهية وهي العقل وسمي به لانه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح وقيل انه اسم مفرد وهو مصدر كالهدى والسرى قاله أبو علي وخص ذوي النهى لانهم الذين ينتهي الى رأيهم وقال ابن عباس لأولي الحجى والعقل وعنه لأولي التقى وهذا كله من موسى احتجاج على فرعون في اثبات الصانع جوابا لقوله فمن ربكما يا موسى (منها) أي من الارض المذكورة سابقا (خلقناكم) قال الزجاج وغيره يعني ان آدم خلق من الارض وأولاده منه فعلى هذا يكون خلق كل انسان غير آدم من الارض بوسائط عديدة بقدر ما بينه وبين آدم وقيل المعنى ان كل نطفة مخلوقة من تراب في ضمن خلق آدم لان كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه وعلى هذا يدل ظاهر القرآن (وفيها) أي في الارض (نعيدكم) بعد الموت فتدفنون فيها وتتفرق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الارض وجاء بفي دون الى للدلالة على الاستقرار (ومنها) أي من الارض (نخرجكم) كما أخرجناكم عند ابتداء خلقكم (تارة) أي مرة (أخرى) بالبعث والنشور وتأليف الاجسام ورد الارواح اليها على ما كانت عليه قبل الموت عن عطاء الخراساني قال ان الملك ينطلق فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة وذلك قوله منها خلقناكم وفيها نعيدكم وأخرج أحمد والحاكم عن أبي أمامة قال لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القبر قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله وفي حديث في السنن

ويأباه وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقال سبحانه وتعالى عما يقولون أى هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم ان معه آلهة اخرى علوا كبيرا أى تعاليا كبيرا بل هو الله الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) يقول تعالى تقدسه السموات والارض ومن فيهن الا من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته والهيته ففى كل شئ له آية * تدل على انه واحد كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا وقال ابو القاسم الطبرانى حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا سعيد بن منصور حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة حدثنا عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به الى المسجد الاقصى فلما رجع كان بين المقام وزمزم جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا به حتى بلغ السموات السبع فلما رجع قال سمعت تسبيحا فى السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذوى العلو بما علا سبحان العلى الاعلى سبحانه وتعالى وقوله وان من شئ الا يسبح بحمده أى وما من شئ من المخلوقات الا يسبح بحمد الله ولكن لا تفقهون تسبيحهم أى لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لانها بخلاف لغاتكم وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات وهذا أشهر القولين كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود انه قال كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفى حديث أبى ذر ان النبى صلى الله عليه وسلم أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم وهو حديث مشهور فى المسانيد وقال الامام احمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان عن سهل بن معاذ عن ابن أنس عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسى لاحاديثكم فى الطرق والاسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله منه وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال نقيقها تسبيح وقال قتادة عن عبد الله بن بابى عن عبد الله بن عمرو ان الرجل اذا قال لا اله الا الله فهى كلمة الاخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملا حتى يقولها واذا قال الحمد لله فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله

انه أخذ قبضة من التراب فالقاها فى القبر وقال منها خلقناكم ثم أخرى وقال وفيها نعيدكم ثم أخرى وقال ومنها نخرجكم تارة أخرى (ولقد أريناه) الرؤية بصرية أى أبصرناه فرعون وعرفناه (آياتنا كلها) المراد بها الآيات التسع المذكورة فى قوله ولقد آتينا موسى تسع آيات على ان الاضافة للعهد وهى العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وطمس الاموال والشد على القلوب وقال أبو السعود هى العصا واليد وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الامور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون انتهى وهذا مبنى على ان هذا اخبار عما وقع له مع فرعون فى أول دعائه له وليس كذلك بل هذا اخبار عن جملة ما وقع له فى مدة دعائه له وهى عشرون سنة وان هذا من جملة الكلام المعترض به فى أثناء القصة وقيل المراد جميع الآيات التى جاء بها موسى والتى جاء بها غيره من الانبياء وان موسى قد كان عرفه جميع معجزاته ومعجزات سائر الانبياء والاول أولى وقيل المراد بها حجج الله سبحانه الدالة على توحيده (فكذب) فرعون بها أو بموسى وزعم انها سحر (وأبى) عليه ان يجيبه الى الايمان وان يوحد الله وهذا يدل على ان كفر فرعون كفر عناد لانه رأى الآيات وكذب بها كما فى قوله وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) مستأنفة مرتبة على جواب موسى والهمزة للانكار لما جاء به موسى من الآيات أى جئت يا موسى لتوهم الناس بانك نبى يجب عليهم اتباعك والايمان بما جئت به حتى تتوصل بذلك الايهام الذى هو شعبة من السحر الى أن تغلب على أرضنا يعنى مصر وتخرجنا منها ويكون لك الملك فيها وانما ذكر الملعون الاخراج من الارض لتنفير قومه عن اجابة موسى فانه اذا وقع فى أذهانهم وتقرر فى أفهامهم ان عاقبة اجابتهم لموسى الخروج من ديارهم وأوطانهم كانوا غير قابلين لكلامه ولا ناظرين فى معجزاته ولا ملتفتين الى ما يدعو اليه من الخير (بسحرك يا موسى) فيه دليل على انه خاف منه خوفا شديدا والا فاى ساحر يقدر أن يخرج ملكا من أرضه (فلنأتينك بسحر مثله) أى والله لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر فى الغرابة حتى يتبين للناس ان الذى جئت به سحر يقدر على مثله الساحر (فاجعل بيننا وبينك موعدا) هو مصدر أى وعدا وقيل اسم مكان أى اجعل لنا يوما معلوما أو مكانا معلوما أو أجلا وميقاتا قال الجوهرى الميعاد المواعدة

عبد قط حتى يقولها واذا قال الله أكبر فهي تملأ ما بين السماء والارض واذا قال سبحان الله فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحدا من خلقه الا قرره بالصلاة والتسبيح واذا قال لاحول ولاقوة الا بالله قال أسلم عبدي واستسلم وقال الامام أحمد حدثنا ابن وهب حدثنا جرير حدثنا أبي سمعت الصعب بن زهير يحدث عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابي عليه جبة من طيالسة مكفوفة بديباج أو مزررة بديباج فقال ان صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع بن راع و يضع كل راس بن راس فقام اليه النبي صلى الله عليه وسلم مغضبا فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه فقال لا أرى عليك ثياب من لا يعقل ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس فقال ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال اني قاص عليكما الوصية آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك بالله والكبر وآمركما بلا اله الا الله فان السموات والارض وما فيهما لو وضعت في كفة الميزان و وضعت لا اله الا الله في الكفة الاخرى كانت أرجح ولو ان السموات والارض كانتا حلقة فوضعت لا اله الا الله عليهما لقصمتهما أو لفصمتهما وآمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شئ و بها يرزق كل شئ ورواه الامام أحمد أيضا عن سليمان ابن حرب عن حماد بن يزيد عن مصعب بن زهير به أطول من هذا وتفرد به و روى ابن جرير حدثني نصر بن عبد الرحمن الاودي حدثنا محمد بن يعلى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بشئ أمر به نوح ابنه ان نوحا عليه السلام قال لابنه يا بني آمرك أن تقول سبحان الله فانها صلاة الخلق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق قال الله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده اسناده فيه ضعف (١) فان الربذي ضعيف عند الاكثرين بعد

والوقت والموضع وكذلك الموعد قال القشيري وأبو البقاء والاظهر انه مصدر وليسدّ ما قال (لا نخلفه) أي لا نخالف ذلك الوعد ولا نجاوزه وقرئ بالرفع على انه صفة لموعدا أي لا يخلف ذلك الموعد وقرئ بالجزم على انه جواب الامر والاخلاف ان تعد شيأ ولا تنجزه (نحن) توكيد مصحح للعطف على الضمير المرفوع المستتر في نخلفه (ولا أنت) فوض تعيين الموعد الى موسى اظهارا لكمال اقتداره على الاتيان بمثل ما أتى به موسى (مكانا) منصوب بالجعل على انه مفعول فيه وأطال الكلام على نصبه السمين (سوى) بضم السين وبكسرها وهما قراءتان سبعيتان وكسر السين هي اللغة العالية الفصيحة والمراد مكانا مستويا وقيل مكانا منصفا عدلا بيننا و بينك قال سيبويه يقال سوى وسوى أي عدل يعني عدلا بين المكانين قال أبو عبيدة والقتيبي معناه مكانا وسطا بين الفريقين لان المسافة من الوسط الى الطرفين مستوية وقيل معناه سوى هذا المكان وفيه بعد ثم واعده موسى لوقت معلوم و (قال موعدكم) أي زمان الوعد (يوم الزينة) أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرئ يوم بالنصب أي في يوم الزينة انجاز موعدنا قال مجاهد وقتادة ومقاتل والسدي كان ذلك يوم عيد يتزينون فيه وقال سعيد بن جبير كان ذلك يوم عاشوراء وبه قال ابن عباس وعن ابن عمر نحوه وقال الضحاك يوم السبت وقيل يوم النيروز وقيل يوم كسر الخليج وانما جعل الميعاد زمانا بعد ان طلب منه فرعون أن يكون مكانا سوى لان يوم الزينة يدل على مكان مشهور يجتمع فيه الناس ذلك اليوم وانما خص عليه السلام ذلك اليوم ليكون ظهور الحق وزهوق الباطل في يوم مشهور وعلى رؤس الاشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد ولما ان ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم ولاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم (وان يحشر الناس ضحى) يعني وقت ضحى ذلك اليوم الذي هو عبارة من ارتفاع الشمس والمراد بالناس أهل مصر والمعنى يحشرون الى العيد وقت الضحى نهارا وينظرون في أمر موسى وفرعون جهارا ليكون أبعد من الريبة وأبين لكشف الحق وليشيع في جميع أهل الوبر والمدر قال الفراء اذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد قال وجرت عادتهم بحشر الناس في ذلك اليوم وقرئ يحشر على البناء للمفعول والفاعل أي وان يحشر الله الناس وقرئ بالنون وبالفوقية أي وان تحشر أنت يا فرعون والضحى قال الجوهري ضحوة النهار

وقال عكرمة في قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده قال الاسطوانة تسبح والشجرة تسبح الاسطوانة السارية وقال بعض السلف ان صرير الباب تسبيحه وخرير الماء تسبيحه قال الله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده وقال سفيان الثوري عن منصور عن ابراهيم قال الطعام يسبح ويشهد لهذا القول آية السجدة في الحج وقال آخرون انما يسبح ما كان فيه روح يعنون من حيوان ونبات قال قتادة في قوله وان من شئ الا يسبح بحمده قال كل شئ فيه روح يسبح من شجر أو شئ فيه وقال الحسن والضحاك

(١) قوله الربذي هكذا في النسخ وحرر اه

بعد طلوع الشمس ثم بعده الضحى وهو حين تشرق الشمس وخص الضحى لانه أول النهار فاذا امتد الامر بينهما كان فى النهار متسع (فتولى فرعون) أى انصرف من ذلك المقام والمجلس ليهئ مايحتاج اليه مما تواعدا عليه وقيل معنى تولى اعرض عن الحق والاول أولى (فجمع كيده) أى جمع مايكيد به من سحره وحيلته والمراد انه جمع السحرة قيل كانوا اثنين من القبط وسبعين من بنى اسرائيل وقيل اربعمائة وقيل اثنى عشر ألفا وقيل أربعة عشر ألفا وقال ابن المنذر كانوا ثمانين ألفا وقيل غير ذلك مع كل واحد حبل وعصا (ثم أتى) فرعون الموعد الذى تواعدا اليه مع جمعه الذى جمعه وأتى موسى أيضا (قال لهم موسى) مستأنفة جواب سؤال مقدر (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا) دعا عليهم بالويل ونهاهم عن افتراء الكذب باشراك أحد معه بادعاء كون ماظهر على يدى سحرا قال الزجاج التقدير ألزمهم الله ويلا أو هو نداء كقوله ياويلنا من بعثنا من مرقدنا (فيسحتكم بعذاب) عظيم السحت الاستئصال يقال سحت وأسحت بمعنى وأصله استقصاء الشعر قرئ من السحت وهى لغة نجد وبنى تميم وقرئ من سحت وهى لغة الحجاز قال ابن عباس يسحتكم يهلككم وقال قتادة يستأصلكم وقال أبو صالح فيذبحكم (وقد خاب من افترى) أى قد خسر وهلك من كذب على الله أى كذب كان (فتنازعوا) أى السحرة (أمرهم بينهم) لما سمعوا كلام موسى تناظروا وتشاوروا فى أمر موسى وأخيه وتجاذبوا أطراف الكلام فى ذلك أى هل هما ساحران أو رسولان (وأسروا النجوى) أى من موسى وكانت نجواهم هى قولهم الآتى ان هذان لساحران وقيل انهم تناجوا فيما بينهم فقالوا ان كان ماجاء به موسى سحرا فسنغلبه وان كان من عند الله فسيكون له أمر وقيل الذى أسروه أنه اذا غلبهم اتبعوه قاله الفراء والزجاج وقيل الذى أسروه انهم لما سمعوا قول موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا قالوا ماهذا بقول ساحر والنجوى المناجاة يكون اسما ومصدرا (قالوا) لانفسهم أى قال بعضهم لبعض سرا وحاصل ماقالوه ستجل أولها قولهم (ان هذان لساحران) وآخرها قولهم وقد أفلح اليوم من استعلى وقرئ ان هذين وروى هذا عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة وبها قرأ الحسن والنخعى وغيرهما من التابعين وهذه موافقة للاعراب الظاهر مخالفة لرسم المصحف فانه مكتوب بالالف وقرئ ان هذان بتخفيف ان على انها نافية وهذه

فى قوله وان من شئ الا يسبح بحمده قالا كل شئ فيه الروح وقال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالا حدثنا جرير أبو الخطاب قال كنا مع يزيد الرقاشى ومعه الحسن فى طعام فقدموا الخوان فقال يزيد الرقاشى يا أبا سعيد يسبح هذا الخوان فقال كان يسبح مرة قلت الخوان هو المائدة من الخشب فكان الحسن رحمه الله ذهب الى انه لما كان حيا فيه خضرة كان يسبح فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه وقد استأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان ومايعذبان فى كبير أما أحدهما فكان لايستتر من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرز فى كل قبر واحدة ثم قال لعله يخفف عنهما مالم ييبسا أخرجاه فى الصحيحين قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء انما قال مالم ييبسا لانهما يسبحان مادام فيهما خضرة فاذا يبسا انقطع تسبيحهما والله أعلم وقوله انه كان حليما غفورا أى انه لايعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فان استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء فى الصحيحين ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة الآية وقال وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة الآية وقال وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة الآيتان ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع الى الله وتاب اليه تاب عليه كما قال تعالى ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله الآية وقال ههنا انه كان حليما غفورا كما قال فى آخر فاطر ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا الى

أن قال ولو يؤاخذ الله الى آخر السورة (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم واذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن جعلنا بينك وبينهم حجابا مستورا قال قتادة وابن زيد هو الأكنة على قلوبهم كما قال تعالى وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب أى مانع حائل أن يصل الينا مما يقول شئ وقوله حجابا مستورا أى بمعنى ساتر كميمون ومشؤم بمعنى يامن وشائم لانه من يمنهم وشؤمهم وقيل مستورا عن الابصار فلا تراه وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى ومال الى ترجيحه ابن جرير رحمه الله وقال الحافظ أبو يعلى

الموصلي حدثنا أبو موسى الهروي اسحق بن ابراهيم حدثنا سفيان عن الوليد بن كثير عن يزيد بن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول مذمما أتينا أو أبينا قال أبو موسى الشك مني ودينه قلينا وأمره عصينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأبو بكر الى جنبه فقال أبو بكر لقد أقبلت هذه فأنا أخاف ان تراك فقال انها لن تراني وقرأ قرآنا اعتصم به واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا قال فجاءت حتى قامت على (٧٤) أبي بكر فلم تر النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا أبا بكر بلغني ان صاحبك هجاني فقال أبو بكر لا ورب صاحب هذا البيت ماهجاك قال فانصرفت وهي تقول لقد علمت قريش اني بنت سيدها وقوله وجعلنا على قلوبهم أكنة وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ان يفقهوه أي لئلا يفهموا القرآن وفي آذانهم وقرا وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعا ينفعهم ويهتدون به وقوله تعالى واذا ذكرت ربك في القرآن وحده أي اذا وحدت الله في تلاوتك وقلت لا اله الا الله ولوا أي أدبروا راجعين على أدبارهم نفورا ونفور جمع نافر كقعود جمع قاعد ويجوز أن يكون مصدرا من غير الفعل والله أعلم كما قال تعالى واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة الآية قال قتادة واذا ذكرت ربك في القرآن الآية ان المسلمين لما قالوا لا اله الا الله أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم فضاقها ابليس وجنوده فأبى الله الا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناواها انها كلمة من خاصم بها فلج ومن قاتل بها نصر انما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها قول آخر في الآية روى ابن جرير حدثني الحسين بن محمد الذارع حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبي حدثنا عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس في قوله واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا هم الشياطين وهذا غريب جدا في تفسيرها والا فالشياطين اذا قرئ القرآن أو نودي بالأذان أو ذكر الله انصرفوا (نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) يخبر تعالى نبيه محمدا

موافقة للرسم وللاعراب وقرأ أهل المدينة والكوفة ان هذان بتشديد ان وبالالف فوافقوا الرسم وخالفوا الاعراب الظاهر وقد تكلم جماعة من أهل العلم في توجيه هذه القراءة وقد استوفى ذلك ابن الانباري والنحاس فقيل انه لغة بني الحرث بن كعب ومراد وخثعم وكنانة يجعلون رفع المثنى ونصبه وجره بالالف أي في أحواله الثلاث وبه صرح سيبويه والاخفش وأبو زيد والكسائي والفراء وقيل ان بمعنى نعم ههنا قاله عاصم قال النحاس رأيت الزجاج والاخفش يذهبان اليه وقال الزجاج المعنى ان هذان لهما ساحران وأنكره أبو علي الفارسي وأبو الفتح وابن جني وقيل ان الالف في هذا مشبهة بالالف في يفعلان فلم تغير وقيل انه هذان لساحران وبه قال قدماء النحاة وقال ابن كيسان انه لما كان يقال هذا بالالف في الرفع والنصب والجر على حال واحدة وكانت التثنية لا تغير الواحد أجريت مجرى الواحد فثبتت الالف في الرفع والنصب والجر وقيل تقديره ماهذان الا ساحران فهذه أقوال تتضمن توجيه هذه القراءة بوجه تصح به وتخرج به عن الخطا وبذلك يندفع ماروى عن عثمان وعائشة انه غلط من الكاتب للمصحف وحاصل القراآت السبعية التي في هذا التركيب أربعة واحدة لابي عمرو وهي التي بالياء والثانية الف بعدها نون مشددة ومخففة من أن والأخريان تخفيف النون التي في هذان مع تشديد النون من أن وتخفيفها واثبات كل من الياء والالف في النطق وان كان قراءة سبعية صحيحة متواترة لكنه مشكل من حيث مخالفته لخط المصحف الامام فانه ليس فيه ياء ولا الف فان رسمه كما في السمين هذن من غير ألف ولا ياء ثم قال وكم جاء في الرسم أشياء خارجة عن القياس وقد نصوا على انه لا تجوز القراءة بها فليكن هذا الموضع مما خرج عن القياس (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) وهي أرض مصر (بسحرهما) الذي أظهراه (ويذهبا بطريقتكم المثلى) قال الكسائي أي بسنتكم والمثلى نعت كقولك امرأة كبرى تقول العرب فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم قال الفراء العرب تقول هؤلاء طريقة قومهم وطرائق قومهم لاشرافهم ونحوه في القاموس والمثلى تأنيث الامثل وهو الافضل يقال فلان أمثل قومه أي أفضلهم وهم الاماثل وانما أنث باعتبار التعبير بالطريقة والا فباعتبار المعنى كان يقال أماثل والمعنى انهما ان يغلبا بسحرهما مال اليهما السادة والاشراف منكم أو يذهبا بمذهبكم الذي هو أمثل

صلى الله عليه وسلم بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاؤا ن قومهم بما قالوا
من انه رجل مسحور من السحر على المشهور أو من السحر وهو الرئة أي بشرا يأكل كما قال الشاعر
فان تسألينا فيم نحن فاننا * عصافير من هذا الانام المسحر * وقال الراجز * يسحر بالطعام وبالشراب * أي يغذى
وقد صوبه ابن جرير وفيه نظر لانهم أرادوا ههنا انه مسحور له رئى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ومنهم من قال شاعر
ومنهم من قال كاهن ومنهم من قال مجنون ومنهم من قال ساحر ولهذا (٧٥) قال تعالى انظر كيف ضربوا لك الامثال

أمثل المذاهب قال ابن عباس يقول أمثلكم وهم بنو اسرائيل وقال علي أي يصرف وجوه الناس اليهما (فاجمعوا كيدكم) الفاء فصيحة أي اذا كان الامر كما ذكر من كونهما ساحرين فاجمعوا والاجماع الاحكام والعزم على الشئ قاله الفراء تقول أجمعت على الخروج مثل ازمعت وقال الزجاج معناه ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعا عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم (ثم ائتوا صفا) أي مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لامرهم وأشد لهيبتهم وادخل في استجلاب الخشية وهذا قول جمهور المفسرين وقال أبو عبيدة الصف المجمع ويسمى المصلى الصف قال الزجاج وعلى هذا معناه ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم يقال أتيت الصف بمعنى أتيت المصلى فعلى التفسير الاول نصب صفا على الحال وعلى الثاني على المفعولية قال الزجاج يجوز أن يكون المعنى ثم ائتوا والناس مصطفون فيكون مصدرا في موضع الحال ولذلك لم يجمع (وقد أفلح اليوم من استعلى) أي فاز من غلب يقال استعلى عليه اذا غلبه وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض وقيل من قول فرعون لهم وهذه جملة معترضة (قالوا يا موسى) اختر أحد الامرين كذا قدره الزمخشري وهذا تفسير معنى (اما أن تلقي) ما تلقيه أو التقدير الامر اما القاؤك أول أو القاؤنا كذا قدره الزمخشري أو القاؤك أول ويدل عليه قوله (واما أن نكون) نحن (أول من ألقى) ما يلقيه واختاره المحلي أو أول من يفعل الالقاء والمراد القاء العصا على الارض وكانت السحرة معهم عصي وكان موسى قد ألقى عصاه يوم دخل على فرعون فلما أراد السحرة معارضته قالوا له هذا القول وهذا منهم استعمال أدب حسن معه وكأنه تعالى ألهمهم ذلك وقد وصلت اليهم بركته وعلم موسى اختيار القائهم أولا حتى (قال) لهم (بل ألقوا) أنتم أولا وانما أمرهم بذلك لتكون معجزته أظهر اذا ألقوا ما معهم فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين ثم يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك ويظهر سلطانه وقيل انما أثبت عليه السلام لهم القول مقابلة للادب باحسن من أدبهم واظهارا لعدم المبالاة بسحرهم فالقوا (فاذا حبالهم) الفاء فصيحة يقال اذا هذه هي المفاجئة والتحقيق انها اذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وقد يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة (وعصيهم) بكسر العين اتباعا لكسرة الصاد وقرئ بضمها وهي لغة بني تميم (يخيل اليه من سحرهم) بالتحتية على البناء للمفعول وقرئ تخيل بالفوقية لان العصي

فضلوا فلا يستطيعون سبيلا أي فلا يهتدون الى الحق ولا يجدون اليه مخلصا قال محمد بن اسحق في السيرة حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث ان أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والاخنس ابن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا حتى اذا جمعهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لاوقعتم في نفسه شيأ ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا فلما أصبح الاخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الاخنس وانا والذي حلفت به قال ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد قال ماذا سمعت قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه قال فقام عنه الاخنس وتركه (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من

بعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم و يقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الاقليلا) يقول تعالى مخبرا عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام انكار منهم لذلك أئذا كنا عظاما ورفاتا أى ترابا قاله مجاهد وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس غبارا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا أى يوم القيامة بعد ما بلينا وصرنا عدما لا نذكر كما أخبر عنهم فى الموضع الآخر يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ائذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك اذا كرة خاسرة وقوله تعالى وضرب لنا مثلا ونسى خلقه الآيتين فامر الله سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجيبهم فقال قل كونوا حجارة أو حديدا وهما أشد امتناعا من العظام والرفات أو خلقا مما يكبر فى صدوركم قال ابن اسحق عن ابن أبى نجيح عن مجاهد سألت ابن عباس عن ذلك فقال هو الموت وروى عطية عن ابن عمر انه قال فى تفسير هذه الآية لو كنتم موتى لاحييتكم وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم ومعنى ذلك انكم لو فرضتم انكم لو صرتم موتى الذى هو ضد الحياة لاحياكم الله اذا شاء فانه لا يمتنع عليه شئ اذا أراده وقد ذكر ابن جرير ههنا يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة أتعرفون هذا فيقولون نعم ثم يقال يا أهل النار اتعرفون هذا فيقولون نعم فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت وقال مجاهد أو خلقا مما يكبر فى صدوركم يعنى السماء والارض والجبال وفى رواية ماشئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم وقد وقع فى التفسير المروى عن الامام مالك عن الزهرى فى قوله أو خلقا مما يكبر فى صدوركم قال النبى صلى الله عليه وسلم قال مالك و يقولون هو الموت وقوله تعالى فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة اى من يعيدنا اذا كنا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر شديدا قل الذى فطركم أول مرة أى الذى خلقكم ولم تكونوا شيأ مذكورا ثم صرتم بشرا تنتشرون فانه قادر على اعادتكم ولو صرتم الى أى حال وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه الآية وقوله تعالى فسينغضون اليك رؤسهم قال ابن عباس وقتادة يحركونها استهزاء وهذا الذى قالاه هو الذى يعرفه العرب من لغاتها لان الانغاض هو التحرك من أسفل الى اعلى أو من أعلى الى أسفل ومنه قيل للظليم وهو ولد النعامة نغضا لانه اذا مشى عجل بمشيته وحرك رأسه و يقال نغضت سنه اذا تحركت وارتفعت كان

والحبال مؤنثة وقرئ نخيل بالنون على ان الله سبحانه هو المخيل لذلك وقرئ بالتحتية مبنيا للفاعل على ان المخيل هو الكيد وقيل المخيل هو (انها تسعى) أى يخيل اليه سعيها ذكر معناه الزجاج وقال ومن قرأ بالفوقية جعل ان فى موضع نصب أى تخيل اليه ذات سعى يقال خيل اليه اذا شبه له وادخل عليه التهمة والشبهة وذلك انهم لطخوها وطلوها بالزئبق فلما أصابها حر الشمس ارتعشت واهتزت واضطربت فخيل اليه انها تتحرك (فأوجس) أى أحس وقيل وجد وقيل أضمر وقيل خاف (فى نفسه خيفة موسى) وذلك لما يعرض من الطباع البشرية عند مشاهدة ما يخشى منه وقيل خاف ان يفتتن الناس قبل أن يلقى عصاه أو لعله كان مأمورا بان لا يفعل شيأ الا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى فى ذلك المحفل بقى فى الخجل قاله ابن عادل وقيل ان سبب خوفه هو ان سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا فاذهب الله سبحانه ما حصل معه من الخوف بما بشره به بقوله (قلنا لا تخف انك أنت الاعلى) أى المستعلى عليهم بالظفر والغلبة والجملة تعليل للنهى عن الخوف وفيه اشارة الى أن لهم علوا وغلبة بالنسبة الى سائر الناس ولذلك أوجس منهم خيفة فرد ذلك بانواع من المبالغة أحدها ذكر كلمة التوكيد وهى ان وثانيها تكرير الضمير وثالثها لام التعريف ورابعها لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وهذا يكفى فيه ظن العلو فى أمرهم لا أن الاعلى لمجرد الزيادة لانه لم يكن للسحرة علو حتى يكون هو أعلى منهم كما قيل قاله الكرخى (وألق ما فى يمينك) يعنى العصا وانما أبهمها تعظيما وتفخيما أى لا تحتفل بهذه الاجرام فان فى يمينك شيأ أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شئ عندها فألقها ولا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وجاز أن يكون الابهام للتصغير أى وألق العويد الفريد الصغير الجرم الذى بيدك فانه بقدرة الله تعالى (تلقف) على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها قرئ تلقف بسكون اللام من لقفه اذا ابتلعه بسرعة وقرئ بالرفع على تقدير فانها تلقف وقال الزجاج القراءة بالجزم جواب الامر ويجوز الرفع على معنى الحال كأنه قال ألقها متلقفة (ما صنعوا) من الحبال والعصى (انما صنعوا كيد ساحر) أى جنسه أى ان الذى صنعوه كيد ساحر أو ان صنعهم كيد ساحر وقرئ سحر واضافة الكيد الى السحر على الاتساع من غير تقدير أو بتقدير ذى سحر وقيل غير ذلك (ولا يفلح) ولا يسعد (الساحر) اى جنس الساحر (حيث أتى) أى

كان وأين توجه وأقبل وهذا من تمام التعليل (فألقى السحرة) أى فألقى ذلك الامر الذى شاهدوه من موسى والعصى اياهم (سجدا) لله تعالى وذلك لانهم كانوا فى أعلى طبقات السحر فلما رأوا ما فعله موسى خارجا عن صناعتهم عرفوا أنه ليس من السحر البتة وقدمر تحقيق هذا فى سورة الاعراف قال صاحب الكشاف سبحان الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين وقيل انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب (قالوا آمنا برب هرون وموسى) انما قدم هرون على موسى هنا فى حكاية كلامهم وأخر فى الشعراء رعاية لفواصل الآى وعناية بتوافق رؤسها ولان الواو لا توجب ترتيبا قال عكرمة ان سحرة فرعون كانوا تسعمائة فقالوا لفرعون ان يكن هذان ساحرين فانا نغلبهما فانه لا أسحر منا وان كانا من رب العالمين فانه لا طاقة لنا برب العالمين فلما كان من أمرهم ان خروا سجدا أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة فعندها قالوا هذا القول وقالوا أيضا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات الى قوله والله خير وأبقى (قال) فرعون (آمنتم له) يقال آمن له وبه فمن الاول قوله فآمن له لوط ومن الثانى قوله فى الاعراف آمنتم به قيل ان الفعل هنا متضمن معنى الاتباع وقرئ على الاستفهام التوبيخى أى كيف آمنتم به (قبل أن آذن لكم) أى من غير اذن منى لكم بذلك (انه) أى ان موسى (لكبيركم) اى أسحركم وأعلاكم درجة فى صناعة السحر فلا عبرة بما أظهرتموه أو معلمكم وأستاذكم كما يدل عليه قوله (الذى علمكم السحر) يعنى انكم تلامذته فى السحر فاصطلحتم وتواطأتم معه على ان تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لامره وتفخيما لشأنه قال الكسائى الصبى بالحجاز اذا جاء من عند معلمه قال جئت من عند كبيرى وقال محمد بن اسحق انه لعظيم السحر قال الواحدى الكبير فى اللغة الرئيس ولهذا يقال للمعلم الكبير أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا والا فقد علم انهم لم يتعلموا من موسى ولا كان رئيسا لهم ولا بينه وبينهم مواصلة (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم) أى والله لأفعلن بكم ذلك والتقطيع للايدى والارجل (من خلاف) هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين يخالف الآخر بان هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال أى لاقطعنها مختلفات ومن لابتداء الغاية كأن

من منبتها وقال الراجز * ونغضت من هرم اسنانها * وقوله ويقولون متى هو اخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك كما قال تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وقال تعالى يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها وقوله قل عسى أن يكون قريبا أى احذروا ذلك فانه قريب اليكم سيأتيكم لا محالة فكل ما هو آت آت وقوله تعالى يوم يدعوكم أى الرب تبارك وتعالى اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون أى اذا أمركم بالخروج منها فانه لا يخالف ولا يمانع بل كما قال تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون وقوله فانما هى زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة أى انما هو أمر واحد بانتهار فاذا الناس قد خرجوا من باطن الارض الى ظاهرها كما قال يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده أى تقولون كلكم اجابة لامره وطاعة لارادته قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فتستجيبون بحمده أى بامره وكذا قال ابن جريج وقال قتادة بمعرفته وطاعته وقال بعضهم يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده أى وله الحمد فى كل حال وقد جاء فى الحديث ليس على أهل لا اله الا الله وحشة فى قبورهم كأنى باهل لا اله الا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤسهم يقولون لا اله الا الله وفى رواية يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وسيأتى فى سورة فاطر وقوله تعالى وتظنون أى يوم تقومون من قبوركم ان لبثتم أى فى الدار الدنيا الا قليلا وكقوله تعالى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وقال تعالى يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما وقال تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال تعالى قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ان يأمر عباد الله المؤمنين ان يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الاحسن والكلمة الطيبة فانهم ان لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام الى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فانه عدو لآدم وذريته عداوة ظاهرة بينة ولهذا نهى ان يشير الرجل الى أخيه المسلم بحديدة فان الشيطان

ينزغ في يده أي فربما أصابه بها وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشيرن أحدكم الى أخيه بالسلاح فانه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار أخرجاه من حديث عبد الرزاق وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا علي بن زيد عن الحسن قال حدثني رجل من بني سليط قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في رفلة من الناس فسمعته يقول المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله التقوى ههنا قال حماد وقال بيده الى صدره

وما توادد رجلان في الله ففرق بينهما الا حدث يحدثه احدهما والمحدث شر والمحدث شر والمحدث شر (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا وربك أعلم بمن في السموات والارض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا) يقول تعالى ربكم أعلم بكم أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ان يشأ يرحمكم بان يوفقكم لطاعته والانابة اليه أو ان يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا أي انما أرسلناك نذيرا فمن أطاعك دخل الجنة ومن عصاك دخل النار وقوله وربك أعلم بمن في السموات والارض أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وكما قال تعالى تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تفضلوا بين الانبياء فان المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية لا بمقتضى الدليل فاذا دل الدليل على شئ وجب اتباعه ولا خلاف أن الرسل افضل من بقية الانبياء وان أولي العزم منهم أفضلهم وهم الخمسة المذكورون نصا في آيتين من القرآن في سورة الاحزاب واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وفي الشورى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ولا خلاف أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم ثم بعده ابراهيم ثم موسى على المشهور وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع والله الموفق وقوله تعالى وآتينا داود زبورا تنبيه على فضله وشرفه قال البخاري حدثنا اسحق بن نصر أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فكان يقرأ قبل ان تفرغ يعني القرآن (قل ادعوا

القطع ابتدئ من مخالفة العضو للعضو (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوعها كقوله أم لهم سلم يستمعون فيه أي عليه وانما آثر كلمة في للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف في الظرف وهذا هو المشهور وخص النخل لطول جذوعها وقيل انه نقر جذوع النخل حتى جوفها ووضعهم فيها فماتوا جوعا وعطشا وهذا على الحقيقة كان الاول على المجاز وهو الاولى (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) أراد لتعلمن هل أنا أشد عذابا لكم على ايمانكم به أم موسى ومعنى أبقى أدوم وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى لان موسى لم يكن من التعذيب في شئ ويمكن أن يريد العذاب الذي توعدهم به موسى ان لم يؤمنوا وقيل اشارة الى ان ايمانهم لم يكن ناشئا عن مشاهدة المعجزة بل كان من خوفهم من موسى حيث رأوا ما وقع من عصاه (قالوا) غير مكترثين بوعيده لهم (لن نؤثرك) أي لن نختارك (على ما جاءنا) به موسى أو جاءنا من عند الله على يده (من البينات) أي من المعجزات الواضحات من عند الله سبحانه كاليد والعصا وقيل انهم أرادوا بالبينات ما رأوه في سجودهم من المنازل المعدة لهم في الجنة وانما نسب المجيء اليهم وان كانت البينات جاءت لهم ولغيرهم لانهم كانوا أعرف بالسحر من غيرهم وقد علموا ان ما جاءهم به موسى ليس من السحر فكانوا على جلية من العلم بالمعجز وغيره وغيرهم كالمقلد وأيضا كانوا هم المنتفعين بها (و) لن نختارك على (الذي فطرنا) أي خلقنا والواو للعطف وانما أخروا ذكر الباري تعالى لانه من باب الترقي من الادنى الى الاعلى وقيل انها واو القسم والموصول مقسم به وجوابه محذوف أي وحق الذي أو والله الذي فطرنا لا نؤثرك على الحق وهذان الوجهان في تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج والسمين (فاقض ما أنت قاض) هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم لاقطعن أيديكم الخ والمعنى فاصنع ما أنت صانعه من القتل والصلب واحكم ما أنت حاكم به قال المفسرون وليس في القرآن ان فرعون فعل بالسحرة ما هددهم به ولم يثبت في الاخبار أيضا قاله أبو السعود وفي بعض التفاسير انه فعله بهم كما مر (انما تقضي هذه الحياة الدنيا) تعليل لعدم المبالاة المستفادة من قولهم لن نؤثرك ومن الامر بالقضاء أي انما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الدنيا وما لنا من رغبة فيها ولا رهبة من عذابها والمعنى انما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا في هذه الحياة الدنيا ولا سبيل لك علينا فيما بعدها فسيزول عن قريب قال الفراء انما بمعنى الذي أي ان الذي

تقضيه

الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ادعوا الذين زعمتم من دونه من الاصنام والانداد فارغبوا اليهم فانهم لا يملكون كشف الضر عنكم أي بالكلية ولا تحويلا أي بان يحولوه الى غيركم والمعنى ان الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والامر قال العوفي عن ابن عباس في قوله قل ادعوا الذين زعمتم الآية قال كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا وهم (٧٩) الذين يدعون يعني الملائكة والمسيح وعزيرا

تقضي به هو هذه الحياة الدنيا فقضاؤك وحكمك منحصر في ذلك (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التي سلفت منا من الكفر وغيره (و) يغفر لنا (ما) أي الذي (اكرهتنا عليه من) عمل (السحر) في معارضة موسى فما في محل نصب على المفعولية وقيل ما نافية قال النحاس والاول أولى ويجوز ان تكون في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف أي وما اكرهتنا عليه من السحر محطوط وموضوع عنا أو لا يؤاخذنا به ربنا قال ابن عباس أخذ فرعون اربعين غلاما من بني اسرائيل فأمر ان يعلموا السحر فتعلموا وقال علموهم تعليما لا يغلبهم أحد في الارض فهم من الذين آمنوا بموسى وقالوا هذا القول (والله خير) منك ثوابا (وأبقى) منك عذابا قال محمد بن كعب القرظي خير منك ان أطيع وأبقى منك عذابا ان عصى وهذا رد لقوله ولتعلمن أينا الخ حيث كان مراده نفسه (انه) أي الشأن (من يأت ربه مجرما) هو المتلبس بالكفر والمعاصي المائت عليها (فان له جهنم لا يموت فيها) فيستريح (ولا يحيى) حياة تنفعه قال المبرد لا يموت ميتة مريحة ولا يحيى حياة ممتعة فهو يألم كما يألم الحي ويبلغ به حالة الموت في المكروه الا انه لا يبطل فيها عن احساس الالم والعرب تقول فلان لا حي ولا ميت اذا كان غير منتفع بحياته وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى وهذه الآية من جملة ما حكاه الله سبحانه من قول السحرة وقيل هو ابتداء كلام وهذا هو الاظهر قاله النسفي اخرج أحمد ومسلم وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطب فأتى على هذه الآية فقال أما أهلها الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون وأما الذين ليسوا باهلها فان النار تميتهم اماتة ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيؤتى بهم ضبائر على نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت القثاء في حميل السيل (ومن يأته) أي ومن يأت ربه (مؤمنا) أي مصدقا به (قد عمل) الاعمال (الصالحات) أي الطاعات ومات على الايمان وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح في استتباع الثواب لان ما نيط من الاعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا الثواب مطلقا (فأولئك) الاشارة الى من باعتبار معناه (لهم الدرجات العلى) أي المنازل الرفيعة التي قصرت دونها الصفات والعلى جمع عليا مؤنث أعلى (جنات عدن تجري من تحتها الانهار) بيان للدرجات وعدن علم للاقامة كما سبق (خالدين فيها) أي ماكثين دائمين فيه مراعاة معنى من (وذلك) أي ما تقدم لهم من الاجر (جزاء من تزكى)

وقوله تعالى أولئك الذين يدعون الآية روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الاعمش عن ابراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة قال ناس من الجن كانوا يعبدون فاسلموا وفي رواية كان ناس من الانس يعبدون ناسا من الجن فاسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم وقال قتادة عن معبد بن عبد الله الرماني عن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن مسعود في قوله أولئك الذين يدعون الآية قال نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فاسلم الجنيون والانس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون باسلامهم فنزلت هذه الآية وفي رواية عن ابن مسعود كانوا يعبدون صنفا من الملائكة يقال لهم الجن فذكره وقال السدي عن ابي صالح عن ابن عباس في قوله أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب قال عيسى وامه وعزير وقال مغيرة عن ابراهيم كان ابن عباس يقول في هذه الآية هم عيسى وعزير والشمس والقمر وقال مجاهد عيسى والعزير والملائكة واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله يبتغون الى ربهم الوسيلة وهذا لا يعبر به عن الماضي فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة وقال والوسيلة هي القربة كما قال قتادة ولهذا قال أيهم أقرب وقوله تعالى ويرجون رحمته ويخافون عذابه لا تتم العبادة الا بالخوف والرجاء فبالخوف ينكف عن المناهي وبالرجاء يكثر من الطاعات وقوله تعالى ان عذاب ربك كان محذورا أي ينبغي ان يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله عياذا بالله منه (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا) هذا اخبار من الله عز وجل بانه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ انه ما من قرية الا سيهلكها

بان يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم عذابا شديدا اما بقتل أو ابتلاء بما يشاء وانما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الامم الماضين وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم وقال تعالى فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا وقال وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله الآيات (وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا) قال سنيد عن حماد بن زيد عن أيوب عن سعيد بن جبير قال قال المشركون يا محمد انك تزعم انه كان قبلك أنبياء فمنهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فان سرك ان نؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهبا فاوحى الله اليه اني قد سمعت الذي قالوا فان شئت ان نفعل الذي قالوا فان لم يؤمنوا انزل العذاب فانه ليس بعد نزول الآية مناظرة وان شئت ان تستأني بقومك استأنيت بهم قال يارب أستأني بهم وكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما وروى الامام أحمد حدثنا عثمان ابن محمد حدثنا جرير عن الاعمش عن جعفر بن اياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحي الجبال عنهم فيزرعوا فقيل له ان شئت ان نستأني بهم وان شئت ان يأتيهم الذي سألوا فان كفروا اهلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الامم قال لا بل أستأني بهم وأنزل الله تعالى وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون الآية ورواه النسائي وابن جرير به قال حدثنا أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران ابن حكيم عن ابن عباس قال قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك قال وتفعلون قالوا نعم قال فدعا فأتاه جبريل فقال ان ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك ان شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا اعذبه أحدا من العالمين وان شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة فقال بل باب التوبة والرحمة وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده حدثنا محمد بن اسمعيل بن علي الانصاري حدثنا خلف بن تميم المصيصي عن عبد الجبار بن عمر الابلي عن عبد الله بن عطاء بن ابراهيم عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت سمعت الزبير يقول لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي قبيس يا آل عبد مناف اني نذير فجاءته قريش

أي من تطهر من الكفر والذنوب والمعاصي الموجبة للنار أخرج ابو داود وابن مردويه عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء وان أبا بكر وعمر منهم وأنعما وفي الصحيحين بلفظ ان أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء (ولقد أوحينا الى موسى) هذا شروع في انجاء بني اسرائيل واهلاك عدوهم وقد تقدم في البقرة والاعراف وفي يونس واللام في لقد هي الموطئة للقسم وفي ذلك من التأكيد ما لا يخفى (أن أسر بعبادي) أي أسر بهم ليلا من مصر الى البحر وقد تقدم هذا مستوفى (فاضرب) أي اجعل (لهم طريقا) واشرعه وقيل طريقا مفعول به على سبيل المجاز بان يكون المعنى اضرب البحر لينفلق لهم فيصير طريقا لهم فعلى هذا تصح نسبة الضرب الى الطريق والمراد بالطريق جنسه فان الطرق كانت ثنتي عشرة بعدد أسباط بني اسرائيل (في البحر يبسا) أي يابسا وصف به الفاعل مبالغة وذلك ان الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق ومرت عليه الصبا فجففته حتى لم يكن فيها ماء ولا طين قاله محمد بن كعب ومجاهد وقرئ بسكون الباء مخففا من يبسا المحرك وهو مصدر أو جمع يابس كصحب وصاحب وصف به الواحد مبالغة (لا تخاف دركا) اي آمنا من ان يدرككم العدو من ورائكم والدرك اللحاق بهم من فرعون وجنوده به قال ابن عباس قرأ الجمهور لا تخاف وهي أرجح لعدم الجزم في قوله سبحانه (ولا تخشى) أي من فرعون أو من البحران يغرقك (فأتبعهم فرعون بجنوده) أتبع هنا مطاوع اتبع يقال اتبعتهم اذا تبعتهم وذلك اذا سبقوك فلحقتهم فالمعنى تبعهم فرعون ومعه جنوده وقيل الباء زائدة والاصل أتبعهم جنوده اي أمرهم ان يتبعوا موسى وقومه وقرئ فاتبعهم بالتشديد أي لحقهم بجنوده وهو معهم كما يقال ركب الامير بسيفه اي معه سيفه وقيل ساقهم جنوده معه (فغشيهم من اليم ما غشيهم) أي علاهم واصابهم منه ما غمرهم من الامر الهائل الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقال السمين هذا من باب الاختصار وجوامع الكلم اي ما يقل لفظها ويكثر معناها والتكرير للتعظيم والتهويل كما في قوله الحاقة ما الحاقة وقيل غشيهم ما سمعت قصته وقال ابن الانباري غشيهم البعض الذي غشيهم لانه لم يغشهم كل ماء البحر بل الذي غشيهم بعضه فهذه العبارة للدلالة على الذي أغرقهم بعض الماء والاول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم

والتعظيم وقرئ فغشاهم من اليم ماغشاهم أى غطاهم ماغطاهم من الغرق وسترهم مالم يعلم كنهه الا الله سبحانه فغرق فرعون وجنوده ونجا موسى وقومه (وأضل فرعون قومه وماهدى) هذا اخبار عن حاله قبل الغرق أى أضلهم عن الرشد وماهداهم الى طريق النجاة لانه قدر ان موسى وقومه لا يفوتونه لكونهم بين يديه يمشون فى طريق يابسة و بين أيديهم البحر وفى قوله وماهدى تأكيد وتقرير لاضلاله لان المضل قد يرشد من يضله فى بعض الامور وفيه تكذيب لفرعون فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد (يابنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) ذكر سبحانه ماأنعم به على بنى اسرائيل بعد انجائهم وفى هذا الترتيب غاية الحسن حيث قدم تذكير نعمة الانجاء ثم النعمة الدينية ثم الدنيوية والتقدير قلنا لهم بعد انجائهم يابنى اسرائيل ويجوز أن يكون خطابا لليهود المعاصرين لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم لان النعمة على الآباء معدودة من النعم على الابناء والمراد بعدوهم هنا فرعون وجنوده وذلك باغراقه واغراق قومه فى البحر بمرأى من بنى اسرائيل (وواعدناكم جانب الطور الايمن) انتصاب جانب على انه مفعول به لا على الظرفية لانه مكان معين غير مبهم وانما تنتصب الامكنة على الظرفية اذا كانت مبهمة قال مكى وهذا أصل لاخلاف فيه قال النحاس والمعنى أمرنا موسى ان يأمركم بالخروج معه لنكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام وقيل وعد موسى بعد اغراق فرعون ان يأتى جانب الطور فالوعد كان لموسى وانما خوطبوا به لان الوعد كان لاجلهم فهو من المجاز العقلى وقرئ ووعدناكم لان الوعد انما هو من الله لموسى خاصة والمواعدة لاتكون الا من اثنين وقد قدمنا فى البقرة هذا المعنى والايمن صفة للجانب والمراد يمين الشخص لان الجبل ليس له يمين ولا شمال فاذا قيل خذ عن يمين الجبل فمعناه عن يمينك من الجبل (ونزلنا عليكم) أى فى التيه (المن والسلوى) قد تقدم تفسير المن بالترنجبين والسلوى بالسمانى وأوضحنا ذلك بما لامزيد عليه وقال أبو السعود المن هو شئ حلو أبيض مثل الثلج كان ينزل من الفجر الى طلوع الشمس لكل انسان صاع ويبعث الريح الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منهم مايكفيه (كلوا) أى قلنا لهم كلوا (من طيبات مارزقناكم) أى المنعم به عليكم المراد بالطيبات المستلذات وقيل الحلال على الخلاف المشهور فى ذلك (ولا تطغوا فيه) الطغيان التجاوز أى لاتتجاوز واماهو جائز الى

نخذرهم وأنذرهم فقالوا اتزعم انك نبى يوحى اليك وان سليمان سخرله الريح والجبال وان موسى سخرله البحر وان عيسى كان يحيى الموتى فادع الله ان يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الارض أنهارا فنتخذ محارث فنزرع ونأكل والا فادع الله ان يحيى لنا موتانا لنكلمهم ويكلمونا والا فادع الله ان يصير لنا هذه الصخرة التى تحتك ذهبا فننحت منه وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فانك تزعم انك منهم قال فبينا نحن حوله اذ نزل عليه الوحى فلما سرى عنه قال والذى نفسى بيده لقد أعطانى ماسألتم ولو شئت لكان ولكنه خيرنى بين ان تدخلوا باب الرحمة فيؤمن من يسلم و بين ان يكلكم الى مااخترتم لانفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فلا يؤمن منكم أحد فاخترت باب الرحمة فيؤمن منكم وأخبرنى انه ان أعطاكم ذلك ثم كفرتم انه يعذبكم عذابا لايعذبه أحدا من العالمين ونزلت ومامنعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وقرأ ثلاث آيات ونزلت ولو ان قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى الآية ولهذا قال تعالى ومامنعنا ان نرسل بالآيات أى نبعث الآيات ونأتى بها على ماسأل قومك منك فانه سهل علينا يسير لدينا الا انه قد كذب بها الاولون بعد ماسألوها وجرت سنتنا فيهم وفى أمثالهم انهم لايؤخرون ان كذبوا بها بعد نزولها كما قال الله تعالى فى المائدة قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لاأعذبه أحدا من العالمين وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عينوها فدعا صالح عليه السلام ربه فاخرج لهم منها ناقة على ماسألوا فلما ظلموا بها اى كفروا بمن خلقها وكذبوا رسوله وعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ولهذا قال تعالى وآتينا

ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها أى دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها فظلموا بها أى كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها فابادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وقوله تعالى ومانرسل بالآيات الا تخويفا قال قتادة ان الله تعالى يخوف الناس بماشاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ذكر لنا ان الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضى الله عنه فقال ياأيها الناس ان ربكم يستعتبكم فاعتبوه وهكذا روى ان المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر أحدثتم والله لئن عادت لافعلن ولافعلن وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله وانهما لاينخسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عزوجل يخوف بهما

عباده فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكره ودعائه واستغفاره ثم قال يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا) يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم محرضا له على ابلاغ رسالته ومخبرا له بانه قد عصمه من الناس فان القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته قال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وقتادة وغيرهم في قوله واذ قلنا لك ان ربك (٨٢) أحاط بالناس أي عصمك منهم وقوله وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس الآية قال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس قال هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به والشجرة الملعونة في القرآن شجرة الزقوم وكذا رواه أحمد وعبد الرزاق وغيرهما عن سفيان بن عيينة به وكذا رواه العوفي عن ابن عباس وهكذا فسر ذلك بليلة الاسراء مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وابراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغير واحد وقد تقدمت احاديث الاسراء في أول السورة مستقصاة ولله الحمد والمنة وتقدم ان ناسا رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق لانه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجعل الله ذلك ثباتا ويقينا لآخرين ولهذا قال الا فتنة أي اختبارا وامتحانا وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم كما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله يقول هاتوا لنا تمرا وزبدا وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن البصري وغير واحد وكل من قال انها ليلة الاسراء فسره كذلك بشجرة الزقوم وقيل المراد بالشجرة الملعونة بنو أمية وهو غريب ضعيف وقال ابن جرير حدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد حدثنا أبي عن جدي قال رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني فلان ينزون على منبره نزو القرود فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات قال وأنزل الله في ذلك وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس الآية وهذا السند ضعيف جدا فان محمد بن الحسن بن زبالة متروك وشيخه ايضا ضعيف بالكلية ولهذا اختار ابن جرير ان مراده بذلك ليلة الاسراء وان الشجرة الملعونة هي شجرة

ما لا يجوز كالسرف والبطر والمنع عن المستحق وقيل المعنى لا تجحدوا نعم الله فتكونوا طاغين وقيل لا تكفروا النعمة الله ولا تنسوا شكرها وقيل لا تعصوا المنعم أي لا تحملنكم السعة والعافية على المعصية ولا مانع من حمل الطغيان على جميع هذه المعاني فان كل واحد منها يصدق عليه انه طغيان (فيحل) بكسر الحاء أي يجب (عليكم غضبي) أي يلزمكم وبضمها بمعنى ينزل بكم وهو مأخوذ من حلول الدين أي حضور وقت أدائه (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) قرئ بكسر اللام الاولى وبضمها وهما لغتان قال الفراء الكسر أحب الي من الضم لان الضم من الحلول بمعنى الوقوع ويحل بالكسر يجب وجاء التفسير بالوجوب لا بالوقوع وذكر نحو هذا أبو عبيدة وغيره وهوى بمعنى هلك قال الزجاج فقد هوى أي صار الى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوي هويا أي سقط من علو الى سفل وهوى فلان أي مات وقال ابن عباس هوى أي شقي (واني لغفار لمن تاب) من الذنوب التي أعظمها الشرك بالله أو من الشرك قاله ابن عباس (وآمن) بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقال ابن عباس وحد الله (وعمل) عملا (صالحا) مما ندب اليه الشرع وحسنه وقال ابن عباس ادى الفرائض وظاهر اللفظ يشمل الفرض والنفل (ثم اهتدى) أي استقام واستمر على ذلك حتى يموت قاله الزجاج وغيره وقال سعيد بن جبير لزم السنة والجماعة وعن ابن عباس قال من تاب من الذنب وآمن من الشرك وعمل صالحا فيما بينه وبين ربه ثم اهتدى أي علم ان لعمله ثوابا وعلى تركه عقابا يجزى عليه وقيل تعلم العلم ليهتدي به وقيل لم يشك في ايمانه والاول أرجح مما بعده وثم اما للتراخي باعتبار الانتهاء لبعده عن أول الاهتداء أو الدلالة على بعد ما بين المرتبتين فان المداومة أعظم وأعلى من الشروع والايضاح ان المراد الاستمرار على تلك الطريقة اذ المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه في المستقبل ويموت عليه قاله الكرخي (وما أعجلك عن قومك يا موسى) هذا حكاية لما جرى بين الله سبحانه وبين موسى عند موافاته الميقات والسؤال وقع من الله لكنه ليس لاستدعاء المعرفة بل اما للتعريف لغيره أو لتبكيته أو لتنبيهه كما صرح به الراغب وظاهره انه ليس بمجاز كما يقول التلميذ سألني الاستاذ عن كذا ليعرف فهمي ونحو ذلك قال المفسرون وكانت المواعدة ان يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه فسار موسى بهم ثم عجل

من بينهم شوقا الى ربه فقال الله تعالى له ما الذى حملك على العجلة حتى تركت قومك وخرجت من بينهم والمراد بهم جملة بنى اسرائيل فان موسى كان قد أمر هرون أن يسير بهم على أثره ويلحقونه فى مكان المناجاة فاجاب موسى عن ذلك و (قال هم أولاء على أثرى) أى بالقرب منى تابعون لاثرى واصلون بعدى ليس بينى وبينهم الا مسافة يسيرة وقيل لم يرد انهم يسيرون خلفه بل أراد انهم بالقرب منه ينتظرون عوده اليهم بنو تميم يقولون أولى مقصورة وأهل الحجاز أولاء ممدودة قاله عيسى بن عمرو وقرئ اثر بكسر الهمزة واسكان الثاء وبفتحهما وهما لغتان ثم قال مصرحا بسبب ما سأله الله عنه فقال (وعجلت اليك رب لترضى) عنى بمسارعتى الى امتثال أمرك أو لتزداد رضا عنى بذلك وفيه دليل على جواز الاجتهاد والمعنى عجلت الى الموضع الذى أمرتنى بالمصير اليه لترضى عنى يقال رجل عجل وعجول وعجلان بين العجلة والعجلة خلاف البطء وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبيهقى فى الشعب من طريق عمرو بن ميمون عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال تعجل موسى الى ربه فرأى فى ظل العرش رجلا فعجب له فقال من هذا يا رب قال لا احدثك من هو لكن سأخبرك بثلاث فيه كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يعق والديه ولا يمشى بالنميمة (قال فانا قد فتنا قومك من بعدك) مستأنفة كأنه قيل فماذا قال الله أى ابتليناهم واختبرناهم والقيناهم فى فتنة ومحنة قال ابن الانبارى صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا غير اثنى عشر ألفا وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوما وهذا الاخبار من الله تعالى عنها قيل انه كان وقت سؤاله بقوله وما أعجلك الخ فهو أول حضوره الميقات وفى ذلك الوقت لم تكن الفتنة وقعت لهم كما علمت فيكون هذا الاخبار فيه تجوز من اطلاق الماضى على المستقبل على حد أتى امر الله، وقيل انه كان بعد تمام الاربعين أو فى العشر الاخير منها قال الشهاب وعليه الجمهور وعليه فيكون الاخبار حقيقيا لا تجوز فيه (وأضلهم السامرى) اى دعاهم الى الضلالة وكان من قوم يعبدون البقر فدخل فى دين بنى اسرائيل فى الظاهر وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر وكان من قبيلة تعرف بالسامرة وقيل كان من القبط وقيل كان علجا من علوج كرمان رفع الى مصر وكان جارا لموسى وآمن به

الزقوم قال لاجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أى فى الرؤيا والشجرة وقوله ونخوفهم أى الكفار بالوعد والعذاب والنكال فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا أى تماديا فيما هم فيه من الكفر والضلال وذلك من خذلان الله لهم (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا) يذكر تبارك وتعالى عداوة ابليس لعنه الله لآدم وذريته وانها عداوة قديمة منذ خلق آدم فانه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم الا ابليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارا عليه (٨٣) واحتقارا له قال أأسجد لمن خلقت طينا كما قال فى الآية الاخرى أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين وقال أيضا أرأيتك تقول للرب جراءة وكفرا والرب يحلم وينظر قال أرأيتك هذا الذى كرمت على الآية قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول لاستولين على ذريته الا قليلا وقال مجاهد لاحتوين وقال ابن زيد ولاضلنهم وكلها متقاربة والمعنى انه يقول أرأيتك هذا الذى شرفته وعظمته على لئن أنظرتنى لاضلن ذريته الا قليلا منهم (قال اذهب فمن اتبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) لما سأل ابليس النظرة قال الله له اذهب فقد أنظرتك كما قال فى الآية الاخرى قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم قال اذهب فمن اتبعك منهم فان جهنم جزاؤكم أى على أعمالكم جزاء موفورا قال مجاهد وافرا وقال قتادة موفرا عليكم لا ينقص لكم منه وقوله تعالى واستفزز من استطعت منهم بصوتك قيل هو الغناء قال مجاهد باللهو والغناء أى استخفهم بذلك وقال ابن عباس فى قوله واستفزز من استطعت منهم بصوتك قال كل داع دعا الى معصية الله عز وجل وقاله قتادة واختاره ابن جرير وقوله تعالى وأجلب عليهم بخيلك ورجلك يقول واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجالتهم فان الرجل جمع راجل كما ان الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه وهذا أمر قدرى كقوله تعالى ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا أى تزعجهم الى المعاصى ازعاجا وتسوقهم اليها سوقا وقال ابن عباس ومجاهد فى قوله واجلب

عليهم بخيلك ورجلك قال كل راكب وماش في معصية الله. وقال قتادة ان له خيلا ورجالا من الجن والانس وهم الذين يطيعونه تقول العرب أجلب فلان على فلان اذا صاح عليه ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب ومنه اشتقاق الجلبة وهي ارتفاع الاصوات وقوله تعالى وشاركهم في الاموال والاولاد قال ابن عباس ومجاهد هو ما أمرهم به من انفاق الاموال في معاصي الله تعالى وقال عطاء هو الربا وقال الحسن هو جمعها من خبيث وانفاقها في حرام وكذا قال قتادة وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه ما اما مشاركته اياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم يعني من البحائر والسوائب ونحوها وكذا قال الضحاك وقتادة وقال ابن جرير والاولى أن يقال ان الآية تعم ذلك كله وقوله والاولاد قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك يعني أولاد الزنا وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم وقال قتادة عن الحسن البصري قد والله شاركهم في الاموال والاولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الاسلام وجزؤا من أموالهم جزأ للشيطان وكذا قال قتادة سواء وقال أبو صالح عن ابن عباس هو تسميتهم أولادهم عبد الحرث وعبد شمس وعبد فلان قال ابن جرير واولى الاقوال بالصواب ان يقال كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته ما يكرهه الله أو بادخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله أو بالزنا بامه أو بقتله او وأده أو غير ذلك من الامور التي يعصي الله بها بفعله به أو فيه فقد دخل في مشاركة ابليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه لان الله لم يخصص بقوله وشاركهم في الاموال والاولاد معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى فكل ما عصى الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة وهذا الذي قاله متجه وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض ابن حماد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو ان أحدهم اذا اراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه ان يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان ابدا وقوله تعالى وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا كما أخبر تعالى عن سلفا ابليس انه يقول اذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق ان الله وعدكم وعد

واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا فقال لمن معه من بني اسرائيل انما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه لما صار معكم من الحلي وهي حرام عليكم وأمرهم بالقائها في النار وكان من أمر العجل ما كان (فرجع موسى الى قومه) قيل وكان الرجوع الى قومه بعد ما استوفى أربعين يوما ذا القعدة وعشر ذي الحجة وأخذ التوراة روى انه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة وفي القرطبي وسئل الامام أبو بكر الطرطوشي عن جماعة يجتمعون ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ثم انهم يضربون بالقضيب على شئ من الطبل ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ويحضرون شيئا يأكلونه فهل الحضور معهم جائز أم لا فاجاب يرحمك الله مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة وما الاسلام الا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأما الرقص والتواجد فاول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون فهو دين الكفار وعباد العجل وأما الطبل فاول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى وانما كان مجلس النبي مع أصحابه كأنما على رؤسهم الطير من الوقار فينبغي للسلطان ونوابه ان يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لاحد يؤمن بالله واليوم الآخر ان يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين انتهى (غضبان أسفا) الاسف الشديد الغضب وقيل الحزين وقد مضى في الاعراف بيان هذا مستوفى (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) الاستفهام للانكار التوبيخي والوعد الحسن وعدهم بالجنة اذا أقاموا على طاعته وقيل وعدهم ان يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم وكانت ألف سورة كل سورة ألف آية يحمل اسفارها سبعون جملا ولا وعد أحسن من ذلك قاله النسفي وقيل وعدهم النصر والظفر وقيل هو قوله واني لغفار لمن تاب الآية (أفطال عليكم العهد) أي أوعدكم ذلك فطال عليكم الزمان فنسيتم (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أي يلزمكم أو ينزل عليكم والغضب العقوبة والنقمة والمعنى أم أردتم ان تفعلوا فعلا يكون سبب حلول غضب الله عليكم بارادتكم واختياركم (فأخلفتم موعدي) أي موعدكم اياي

فالمصدر

الحق ووعـدتكم فأخلفتكم الآية وقوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان اخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه اياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال تعالى وكفى بربك وكيلا أي حافظا ومؤيدا ونصيرا وقال الامام احمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن لينض شياطينه كما ينض احدكم بعيره في السفر ينض أي يأخذ بناصيته ويقهره (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما) يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من اقليم الى اقليم ولهذا قال انه كان بكم رحيما أي انما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم (واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا) يخبر تبارك وتعالى أن الناس اذا مسهم ضر دعوه منيبين اليه مخلصين له الدين ولهذا قال تعالى واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة فذهب هاربا فركب في البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض انه لا يغني عنكم الا أن تدعوا الله وحده فقال عكرمة في نفسه والله ان كان لا ينفع في البحر غيره فانه لا ينفع في البر غيره اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤفا رحيما فخرجوا من البحر فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن اسلامه رضي الله عنه وأرضاه وقوله تعالى فلما نجاكم الى البر أعرضتم أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له وكان الانسان كفورا أي سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها الا من عصم الله (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا) يقول تعالى أفحسبتم بخروجكم الى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا وهو المطر الذي فيه حجارة قاله مجاهد وغير واحد كما قال تعالى انا أرسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا وقد قال في الآية الأخرى وأمطرنا عليهم حجارة من طين وقال أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض فاذا هي تمور أم

فالمصدر مضاف الى المفعول لانهم وعدوه ان يقيموا على طاعة الله عز وجل الى ان يرجع اليهم من الطور وقيل وعدوه ان يأتوا على أثره الى الميقات فتوقفوا وتركوا المجيء بعده وهذا ترتيب على كل واحد من شقي الترديد على سبيل البدل فاجابوه و (قالوا ما أخلفنا موعدك) الذي وعدناك (بملكنا) بفتح الميم وقرئ بكسرها واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لانها على اللغة العالية الفصيحة وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكا والمصدر مضاف الى الفاعل والمفعول محذوف أي بملكنا أمورنا أو بملكنا الصواب بل أخطأنا ولم نملك أنفسنا وكنا مضطرين الى الخطأ أي سول لنا السامري ما سول وغلب على عقولنا قال ابن عباس بملكنا أي بأمرنا وقال قتادة بطاقتنا وعن السدي مثله وقيل باختيارنا وذلك ان المرء اذا وقع في الفتنة لم يملك نفسه وقرئ بملكنا بضم الميم والمعنى بسلطاننا قاله الحسن أي لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك وقيل ان الفتح والكسر والضم كلها لغات سبعية في مصدر ملكت الشيء (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) قرئ حملنا بضم الحاء وتشديد الميم وقرئ بفتح الحاء والميم مخففة واختارها أبو عبيد وأبو حاتم لانهم حملوا حلية القوم معهم باختيارهم وما حملوها كرها فانهم كانوا استعاروها منهم حين أرادوا الخروج مع موسى وأوهموهم انهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة وقيل هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر الى الساحل وسميت أوزارا أي آثاما لانه لا يحل لهم أخذها ولا تحل لهم الغنائم في شريعتهم والاوزار في الاصل الاثقال كما صرح به أهل اللغة والمراد بالزينة هنا الحلي (فقذفناها) أي طرحناها في النار طلبا للخلاص من اثمها وقيل المعنى طرحناها الى السامري لتبقى لديه حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه (فكذلك ألقى السامري) أي فمثل ذلك القذف ألقاها السامري قيل انه قال لهم حين استبطأ القوم رجوع موسى انما احتبس عنكم لاجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه اليه فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلا ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول وهو جبريل (فأخرج لهم) السامري من الحفرة وهذا من كلامه تعالى (عجلا) صاغه من الحلي في ثلاثة أيام (جسدا) أي حال كونه جسدا أي صائرة جسدا أي دما ولحما والجسد جمعه اجساد قال في البارع لا يقال الجسد الا للحيوان العاقل وهو الانسان والملائكة والجن ولا يقال لغيره جسد الا للزعفران وللدم اذا يبس أيضا جسد وجاسد

أمنتم من فى السماء ان يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير وقوله ثم لاتجدوا لكم وكيلا أى ناصرا يرد ذلك عنكم وينقذكم منه (أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) يقول تبارك وتعالى أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعد مااعترفوا بتوحيدنا فى البحر وخرجوا الى البر أن يعيدكم فى البحر مرة ثانية فيرسل عليكم قاصفا من الريح أى يقصف الصوارى ويغرق المراكب قال ابن عباس وغيره القاصف ريح البحار التى تكسر المراكب وتغرقها وقوله فنغرقكم بما كفرتم أى بسبب كفركم واعراضكم عن الله تعالى وقوله ثم لاتجدوا لكم علينا

به تبيعا قال ابن عباس نصيرا وقال مجاهد نصيرا ثائرا أى يأخذ بثاركم بعدكم وقال قتادة ولانخاف أحدا يتبعنا بشئ من ذلك (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) يخبر تعالى عن تشريفه لبنى آدم وتكريمه اياهم فى خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم أى يمشى قائما منتصبا على رجليه ويأكل بيديه وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الاشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الامور الدينية والدنيوية وحملناهم فى البر أى على الدواب من الانعام والخيل والبغال وفى البحر أيضا على السفن الكبار والصغار ورزقناهم من الطيبات اى من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر انواع الطعوم والالوان المشتهاة اللذيذة والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الانواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لانفسهم ويجلبه اليهم غيرهم من أقطار الاقاليم والنواحى وفضلناهم وصححه على كثير ممن خلقنا تفضيلا أى من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن زيد بن اسلم قال قالت الملائكة يا ربنا انك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطناه فى الآخرة فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه وقد روى من وجه آخر متصلا وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا أحمد بن محمد بن

والمعنى أخرج لهم عجلا ذا جثة على التشبيه بالعاقل (له خوار) صوت يسمع أى يخور كما يخور الحى من العجول والخوار صوت البقر وقيل خواره كان بالريح لانه كان عمل فيه خروقا فاذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم تكن فيه حياة (فقالوا) أى السامرى ومن وافقه فى بادئ الرأى (هذا الهكم واله موسى فنسى) أى فضل موسى ولم يعلم مكان الهه هذا وذهب يطلبه فى الطور وهذا يقتضى انهم جعلوا العجل الها يعبدونه اذ انه لا للتقريب به لهم من الله تعالى وقيل المعنى فنسى موسى ان يذكر لكم ان هذا الهه والهكم قاله ابن عباس. وقيل الناسى هو السامرى أى ترك السامرى ما أمره به موسى من الايمان وضل كذا قال ابن الاعرابى (أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا) الاستفهام للتوبيخ والتقريع أى أفلا يعتبرون ويتفكرون فى ان هذا العجل لا يرد عليهم جوابا ولا يكلمهم اذا كلموه فكيف يتوهمون انه اله وهو عاجز عن المكالمة وان مخففة ويرجع بالرفع فى قراءة العامة وقرئ بالنصب وفيه ضعف والرؤية على الاول علمية وعلى الثانى بصرية (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) أى لا يقدر على ان يدفع عنهم ضرا ولا ان يجلب اليهم نفعا (ولقد قال لهم هرون) اللام هى الموطئة للقسم وجملة مؤكدة لما تضمنته الجملة التى قبلها من الانكار عليهم والتوبيخ لهم أى والله لقد نصح لهم هرون (من قبل) أى من قبل ان يأتى موسى ويرجع اليهم (ياقوم انما فتنتم به) أى وقعتم فى الفتنة بسبب العجل وابتليتم به وضللتم عن طريق الحق لاجله قيل ومعنى القصر المستفاد من انما هو أن العجل صار سببا لفتنتهم لا لارشادهم وليس معناه انهم فتنوا بالعجل لا بغيره (وان ربكم الرحمن) لا العجل خص هذا الموضع باسم الرحمن تنبيها على انهم متى تابوا قبل الله توبتهم لانه هو الرحمن ومن رحمته ان خلصهم من آفات فرعون (فاتبعونى) فى أمرى لكم بعبادة الله ولا تتبعوا السامرى فى أمره لكم بعبادة العجل (وأطيعوا أمرى) لا أمره (قالوا لن نبرح عليه عاكفين) أجابوا هرون عن قوله المتقدم بهذا الجواب المتضمن لعصيانه وعدم قبول ما دعاهم اليه من الخير وحذرهم عنه من الشر أى لن نزال مقيمين على عبادة هذا العجل (حتى يرجع الينا موسى) فينظر هل يقررنا على عبادته أو ينهانا عنها فجعلوا هذا غاية لعكوفهم لكن لا على طريق الوعد بل بطريق التعلل والتسويف فعند ذلك اعتزلهم هرون فى اثنى عشر ألفا من المنكرين لما فعله السامرى اخرج الحاكم

وصححه عن علي قال لما تعجل موسى الى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي بني اسرائيل فضربه عجلا ثم ألقى القبضة في جوفه فاذا هو عجل جسد له خوار فقال لهم السامري هذا الهكم واله موسى فقال لهم هرون يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا فلما ان رجع موسى أخذ برأس أخيه فقال له هرون ما قال فقال موسى للسامري ما خطبك قال قبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي فعمد موسى الى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد ذلك العجل الا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى ما توبتنا قال يقتل بعضكم بعضا فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه ولا يبالي بمن قتل حتى قتل منهم سبعون ألفا فأوحى الله الى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي والحكايات لهذه القصة كثيرة جدا (قال يا هرون ما منعك) جملة مستأنفة والمعنى ان موسى لما وصل اليهم أخذ بشعور رأس أخيه هرون وبلحيته وقال ما منعك من اتباعي واللحوق بي عند أن وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في الفتنة وقيل المعنى ما منعك من اتباعي في الانكار عليهم وقيل معناه هلا قاتلتهم اذ قد علمت اني لو كنت بينهم لقاتلتهم وقيل معناه هلا فارقتهم (اذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن) أي أي شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من اتباعي واللحوق بي وتأتيني في الجبل فتخبرني بما فعلوا وهذه الياء من ياآت الزوائد تخفيفها ان تحذف في الرسم كما هي كذلك في مصحف الامام ولا زائدة للتوكيد (أفعصيت) الهمزة للانكار والتوبيخ والمعنى كيف خالفت (أمري) لك بالقيام لله ومنابذة من خالف دينه وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل الها وقيل المراد بقوله أمري هو قوله الذي حكى الله عنه وقال موسى لاخيه هرون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلما أقام معهم ولم يبالغ في الانكار عليهم نسبه الى عصيانه ومخالفة أمره وبه قال ابن جريج والقرطبي (قال) هرون (يا ابن أم) بفتح الميم وبكسرها وعلى كل من القراءتين أراد أمي لكن على الاولى حذفت الالف المنقلبة عن الياء اكتفاء عنها بالفتحة وعلى الثانية حذفت الياء اكتفاء عنها بالكسرة ونسبه الى الام مع كونه أخاه لابيه وأمه عند الجمهور استعطافا له وترقيقا لقلبه فليس ذكرها لكونه أخاه من أمه فقط كما قيل فان الحق انه كان شقيقه (لا تأخذ بلحيتي) وكان أخذها بشماله (ولا برأسي) وكان

صدقة البغدادي حدثنا ابراهيم بن عبد الله بن خارجة المصيصي حدثنا حجاج بن محمد حدثنا محمد أبو غسان محمد بن مطرف عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الملائكة قالت يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازي حدثنا الحسن ابن علي بن خلف الصيدلاني حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق سمعت عروة ابن رويم اللخمي حدثني أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الملائكة قالوا ربنا خلقتنا وخلقت بني آدم وجعلتهم يأكلون الطعام ويشربون الشراب ويلبسون الثياب ويتزوجون النساء ويركبون الدواب ينامون ويستريحون ولم تجعل لنا من ذلك شيأ فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال الله عز وجل لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان وقال الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا عمر بن سهل حدثنا عبيد الله بن تمام عن خالد الحذاء عن بشر بن شغاف عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم قيل يا رسول الله ولا الملائكة قال ولا الملائكة الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر وهذا حديث غريب جدا (يوم ندعوا كل أناس بامامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة انه يحاسب كل أمة بامامهم وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد وقتادة أي نبيهم وهذا كقوله تعالى ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط الآية وقال بعض السلف هذا أكبر شرف لاصحاب الحديث لان امامهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن زيد بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع واختاره ابن جرير وروى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد انه قال بكتبهم فيحتمل أن يكون أراد هذا وان يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله يوم ندعوا كل أناس بامامهم أي بكتاب أعمالهم وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى وكل شيء أحصيناه في امام مبين وقال تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه الآية وقال

تعالى وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وهذا لا ينافي ان يجاء بالنبي اذا حكم الله بين أمته فانه لا بد أن يكون شاهدا على أمته باعمالها كقوله تعالى وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ولكن المراد ههنا بالامام هو كتاب الاعمال ولهذا قال تعالى يوم ندعوا كل اناس بامامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم اى من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرأه ويحب قراءته كقوله فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه الى قوله وأما من أوتي كتابه بشماله الآيات وقوله تعالى ولا يظلمون فتيلا قد تقدم ان الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثا في هذا فقال حدثنا محمد بن يعمر ومحمد ابن عثمان بن كرامة قالا حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسرائيل عن السدى عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى يوم ندعوا كل اناس بامامهم قال يدعى احدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ فينطلق الى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم آتنا بهذا وبارك لنا في هذا فيأتيهم فيقول لهم أبشروا فان لكل رجل منكم مثل هذا وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ويراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا اللهم لا تأتنا به فيأتيهم فيقولون اللهم اخزه فيقول أبعدكم الله فان لكل رجل منكم مثل هذا ثم قال البزار لا يروى الا من هذا الوجه وقوله تعالى ومن كان في هذه أعمى الآية قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد ومن كان في هذه أى في الحياة الدنيا أعمى اى عن حجج الله وآياته وبيناته فهو في الآخرة اعمى اى كذلك يكون وأضل سبيلا اى وأضل منه كما كان في الدنيا عياذا بالله من ذلك (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا) يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الاشرار وكيد الفجار وانه تعالى هو المتولى امره ونصره وانه لا يكله الى احد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده

أخذ شعره بيمينه غضبا والمعنى ولا بشعر رأسي وكان قد أخذ بذؤابته أى لا تفعل هذا بى عقوبة منك لى فان لى عذرا هو (انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل) أى خشيت ان خرجت عنهم وتركتهم ان يتفرقوا فتقول لى انك فرقت جماعتهم وتغضب على وذلك لان هرون لو خرج لتبعه جماعة ممن لم يعبد العجل وتخلف مع السامرى عند العجل آخرون وربما أفضى ذلك الى القتال بينهم (ولم ترقب قولى) أى تقول لم تعمل بوصيتى لك فيهم وتحفظها ومراده بوصية موسى له قوله هو اخلفنى فى قومى وأصلح قال أبو عبيدة معناه ولم تنتظر عهدى وقدومى لانك أمرتنى ان أكون معهم وقال ابن جريج لم تنتظر قولى ما أنا صانع وقال ابن عباس لم تحفظ قومى والياء فى قولى واقعة على موسى وقيل واقعة على هرون لكن المفسرون على الاحتمال الاول كالسمين والبيضاوى والخازن والخطيب فكلهم اقتصروا على ذلك والمعنى على الثانى وخشيت عدم تأملك فى القول حتى تفهم عذرى فاعتذر هرون الى موسى ههنا بهذا واعتذر اليه فى الاعراف بما حكاه الله عنه هناك حيث قال ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ثم ترك موسى الكلام مع أخيه وخاطب السامرى (قال فما خطبك) أى ما شأنك الداعى وما الذى حملك على ما صنعت (يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به) أى رأيت ما لم يروا وعلمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا له وأراد بذلك انه رأى جبريل على فرس الحياة فالقى فى ذهنه ان يقبض قبضة من أثره وان ذلك الاثر لا يقع على جماد الا صار حيا وقرئ لم تبصروا بالفوقية على الخطاب وبالتحتية وهى أولى لانه يبعد كل البعد أن يخاطب موسى بذلك ويدعى لنفسه انه علم ما لم يعلم به موسى يقال بصر بالشئ أى علمه وأبصره أى نظر اليه كذا قال الزجاج وقيل هما بمعنى علمه والعامة على ضم الصاد وقرئ بالكسر وهى لغة (فقبضت قبضة) بالضاد المعجمة فيهما وقرئ بالصاد المهملة فيهما والفرق بينهما ان ما بالمعجمة هو الاخذ بجميع الكف وما بالمهملة باطراف الاصابع والقبضة بضم القاف القدر المقبوض قال الجوهرى هى ما قبضت عليه من شئ قال وربما جاء بالفتح وقد قرئ قبضة بضم القاف وفتحها ومعنى الفتح المرة من القبض ثم أطلقت على المقبوض وهو معنى القبضة بضم القاف (من أثر الرسول) أى من المحل الذى وقع عليه حافر فرس جبريل أى الملك الذى أرسل اليك ليذهب بك الى الطور لتأخذ التوراة ولعل ذكره بعنوان الرسالة للاشعار

وبظاهره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناواه في مشارق الارض ومغاربها صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) قيل نزلت في اليهود أشاروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسكنى الشام بلاد الانبياء وترك سكنى المدينة وهذا القول ضعيف لان هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك وقد قيل انها نزلت بتبوك وفي صحته نظر قال البيهقي عن الحاكم عن الاصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي عن يونس بن بكير عن

عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم ان اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقالوا يا أبا القاسم ان كنت صادقا انك نبي فالحق بالشام فان الشام ارض المحشر وارض الانبياء فصدق ما قالوا فغزا غزوة تبوك لا يريد الا الشام فلما بلغ تبوك انزل الله عليه آيات من سورة بني اسرائيل بعد ما ختمت السورة وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها الى قوله تحويلا فامره الله بالرجوع الى المدينة وقال فيها محياك ومماتك ومنها تبعث وفي هذا الاسناد نظر والاظهر ان هذا ليس بصحيح فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يغز تبوك عن قول اليهود وانما غزاها امتثالا لقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ولقوله تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه والله أعلم ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم عن عفير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبي امامة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة مكة والمدينة والشام قال الوليد يعني بيت المقدس فتفسير الشام بتبوك احسن مما قال الوليد انه بيت المقدس والله اعلم وقيل نزلت في كفار قريش هموا باخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية وانهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة الا يسيرا وكذلك وقع فانه لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له الا سنة ونصف حتى جمعهم الله واياه ببدر على غير ميعاد فامكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم فقتل أشرافهم وسبي

للاشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم وللتنبيه على وقت أخذ القبضة (فنبذتها) أي فطرحتها في الحلي المذابة المسبوكة على صورة العجل نخار (وكذلك) أي ومثل ذلك التسويل (سولت) أي زينت (لي نفسي) قاله الاخفش وقيل حدثتني نفسي ان أفعله ففعلته اتباعا للهوى وهو اعتراف بالخطا واعتذار فلما سمع موسى منه ذلك (قال فاذهب) من بيننا (فان لك في الحياة) أي ما دمت حيا وما عشت (ان تقول) لمن رأيته (لا مساس) أي لا تقربني وهو مأخوذ من المماسة أي لا يمسك أحد ولا تمس أحدا لكن لا بحسب الاختيار منك بل بموجب الاضطرار الملجئ الى ذلك لان الله سبحانه أمر موسى أن ينفي السامري عن قومه وأمر بني اسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له ولا شيء أوحش منها ولا أعظم في الدنيا وقال ان قومه باقية فيهم تلك الحالة الى اليوم قيل انه لما قال له موسى ذلك هرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش ولا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لا مساس لبعده عن الناس وبعد الناس عنه قال الجوهري في الصحاح وأما قول العرب لا مساس مثل قطام فانما بني على الكسر لانه معدول عن المصدر وهو المس اه ولا مساس مصدر ماس كقتال من قاتل فهو يقتضي المشاركة وهو مبني مع لا الجنسية والمراد به النهي أي لا تمسني ولا أمسك وحاصل ما قيل في معنى لا مساس ثلاثة أوجه الاول انه حرم عليه مماسة الناس وكان اذا ماسه أحد حم الماس والممسوس فلذلك كان يصيح اذا رأى أحدا لا مساس والثاني ان المراد منع الناس من مخالطته واعترض بان الرجل اذا صار مهجورا فلا يقول هو لا مساس وانما يقال له ذلك وأجيب بان المراد الحكاية أي أجعلك يا سامري بحيث اذا أخبرت عن حالك قلت لا مساس الثالث ان المراد انقطاع نسله وان يخبر بانه لا يتمكن من مماسة المرأة قاله أبو مسلم وهو ضعيف جدا ويقال ان موسى هم بقتل السامري فقال الله تعالى لا تقتله فانه سخي نقله القرطبي وهذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وان لا يخالطوا قاله الكرخي ثم ذكر حاله في الآخرة فقال (وان لك موعدا لن تخلفه) بفتح اللام وبالفوقية مبنيا للمفعول أي لن يخلفك الله ذلك الموعد وهو يوم القيامة والموعد مصدر أي ان لك وعد العذاب وهو كائن لا محالة قال الزجاج أي يكافئك الله على ما فعلت في القيامة والله لا يخلف الميعاد وقرئ لن تخلفه بكسر اللام وله معنيان أحدهما ستأتيه ولن تغيب عنه ولا مذهب لك

ولهذا قال تعالى سنة من قد ارسلنا الآية أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين اظهرهم ويأتيهم العذاب ولولا انه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا مالا قبل لاحد به ولهذا قال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا) يقول تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم آمرا له باقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها أقم الصلاة (٩٠) لدلوك الشمس قيل لغروبها قاله ابن مسعود ومجاهد وابن زيد

وقال هشيم عن مغيرة عن الشعبي عن ابن عباس دلوكها زوالها ورواه نافع عن ابن عمر ورواه مالك في تفسيره عن الزهري عن ابن عمر وقاله أبو برزة الاسلمي وهو رواية أيضا عن ابن مسعود ومجاهد وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة واختاره ابن جرير ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد عن الحكم بن بشير حدثنا عمرو ابن قيس عن ابن أبي ليلى عن رجل عن جابر بن عبد الله قال دعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ثم خرجوا حين زالت الشمس فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس ثم رواه عن سهل بن بكار عن أبي عوانة عن الاسود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس فمن قوله لدلوك الشمس الى غسق الليل وهو ظلامه وقيل غروب الشمس أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقوله وقرآن الفجر يعني صلاة الفجر وقد بينت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تواترا من أفعاله وأقواله تفاصيل هذه الاوقات على ما عليه آهل الاسلام اليوم مما تلقوه خلفا عن سلف وقرنا بعد قرن كما هو مقرر في مواضعه ولله الحمد ان قرآن الفجر كان مشهودا قال الاعمش عن ابراهيم عن ابن مسعود وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار وقال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق انبأنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال فضل

عنه ولن تجده مخلفا كما تقول أحمدته أي وجدته محمودا او الثاني على التهديد أي لابد لك أن تصير اليه ولن يخلف الله موعده الذي وعدك بل توافيه ويصل اليك ولن تستطيع الروغان ولا الحيدة عنه وقرئ ان نخلفه بالنون أي لن يخلفه الله (وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا) أصله ظللت وقرئ بكسر الظاء أي دمت وأقمت على عبادته قاله ابن عباس والعاكف الملازم (لنحرقنه) بالنار وقرئ بضم النون وتشديد الراء من حرقه يحرقه وقرئ بتخفيف الراء من أحرقه يحرقه ومن حرقت الشيء أحرقه حرقا اذا بردته وحككت بعضه ببعض أي لنبردنه بالمبارد ويقال للمبرد المحرق والقراءة الاولى أولى ومعناها الاحراق بالنار وكذلك معنى الثانية وقد جمع بين هذه الثلاث القراآت بانه أحرق ثم برد بالمبرد وفي قراءة ابن مسعود لنذبحنه ثم لنحرقنه واللام هي الموطئة للقسم (ثم لننسفنه في اليم نسفا) قال ابن عباس أي لنذرينه في هواء البحر بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر والمقصود من ذلك زيادة عقوبته واظهار غباوة المفتتنين به لمن له أدنى نظر والنسف نقض الشيء لتذهب به الريح وقرئ بضم السين وبكسرها وهما لغتان والمنسف ما ينسف به الطعام وهو شيء منصوب الصدر أعلاه مرتفع والنسافة ما يسقط منه والنسف التفرقة والتذرية وقيل قلع الشيء من أصله واليم البحر قاله ابن عباس وقال علي النهر (انما الهكم الله الذي لا اله الا هو) لا هذا العجل الذي فتنكم به السامري استئناف مسوق لتحقيق الحق اثر ابطال الباطل (وسع كل شيء علما) أي وسع علمه كل شيء وقرئ وسع مشددة قال قتادة وسع ملأ وهذا آخر قصة موسى في هذه السورة المبتدأة بقوله وهل أتاك حديث موسى الخ (كذلك) كلام مستأنف خوطب به النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسلية له وتبصرة باحوال من تقدم وتكثير المعجزاته وتذكيرا للمستبصرين من أمته أي كما قصصنا عليك خبر موسى (نقص عليك من أنباء ما قد سبق) أي من أخبار الحوادث الماضية في الامم الخالية لتكون تسلية لك ودلالة على صدقك ومن للتبعيض أي بعض أخبار ذلك (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) منطويا ومشتملا على هذه القصص والاخبار والمراد بالذكر القرآن قاله ابن زيد وسمي ذكرا لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار وقيل المراد بالذكر الشرف كقوله وانه لذكر لك ولقومك ثم توعد سبحانه المعرض عن هذا الذكر فقال (من اعرض عنه) فلم يؤمن به ولا عمل بما فيه وقيل عن الله سبحانه (فانه) أي المعرض عنه (يحمل يوم القيامة وزرا)

صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا وقال الامام أحمد حدثنا اسباط حدثنا الاعمش عن ابراهيم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم وحدثنا الاعمش عن أبي صالح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ثلاثتهم عن عبيد بن اسباط بن محمد عن أبيه به وقال الترمذي حسن صحيح وفي لفظ في الصحيحين من طريق مالك عن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون وقال عبد الله ابن مسعود يجتمع الحرسان في صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء وكذا قال ابراهيم النخعي ومجاهد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية وأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا من حديث الليث بن سعد عن زيادة عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديث النزول وانه تعالى يقول من يستغفرني أغفر له من يسألني أعطيه من يدعني فأستجيب له حتى يطلع الفجر فلذلك يقول وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا فيشهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار فانه تفرد به زيادة وله بهذا حديث في سنن أبي داود وقوله تعالى ومن الليل فتهجد به نافلة لك أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة قال صلاة الليل ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فان التهجد ما كان بعد نوم قاله علقمة والاسود وابراهيم النخعي وغير واحد وهو المعروف في لغة العرب وكذلك ثبتت الاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يتهجد بعد نومه عن ابن عباس وعائشة وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم كما هو مبسوط في موضعه ولله الحمد والمنة وقال الحسن البصري هو ما كان بعد العشاء ويحمل على ما كان بعد النوم واختلف في معنى قوله تعالى نافلة لك فقيل معناه انك

وزرا) أي اثما عظيما وعقوبة ثقيلة بسبب اعراضه (خالدين فيه) أي في عذاب الوزر والمعنى انهم مقيمون في جزائه فاقيم السبب مقام المسبب (وساء لهم) اللام للبيان كما في هيت لك (يوم القيامة حملا) أي بئس الحمل والمخصوص بالذم محذوف أي ساء لهم حملا وزرهم (يوم) أي اذكر يوم (ينفخ) قرئ بضم التحتية وبالنون مبنيا للفاعل وبفتح الياء على ان الفاعل هو الله أو اسرافيل (في الصور) بسكون الواو وقرئ بفتحها جمع صورة والاول أولى وهو قرن ينفخ فيه يدعى به الناس للمحشر والمراد به هذه النفخة الثانية لانه اتبعه بقوله (ونحشر المجرمين) المراد بهم المشركون والكافرون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التي لم يغفرها الله لهم والمراد بقوله (يومئذ) يوم النفخ في الصور (زرقا) أي زرق العيون مع سواد الوجوه والزرقة الخضرة في العين كعين السنور والعرب تتشاءم بزرقة العين لان الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق والزرقة أسوأ الوان العين وأبغضها الى العرب ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين وقال الفراء زرقا أي عميا وقال الازهري عطاشا وهو قول الزجاج لان سواد العين يتغير بالعطش الى الزرقة وقيل انه كناية عن الطمع الكاذب اذا تعقبته الخيبة وقيل هو كناية عن شخوص البصر من شدة الحرص والقول الاول أولى والجمع بين هذه الآية وبين قوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم قال ابن عباس فيه حالات يكونون في حال زرقا وفي حال عميا (يتخافتون بينهم) أي يتشاورون قاله ابن عباس وقيل يتسارون جملة حالية أو مستأنفة لبيان ما هم فيه في ذلك اليوم والخفت في اللغة السكون والمخافتة والتخافت والخفت بوزن السبت اسرار المنطق ثم قيل لمن خفض صوته خفته والمعنى يخفضون أصواتهم ويخفونها او يقول بعضهم لبعض سرا لما لحقهم من هول ذلك اليوم ورعبه (ان) أي ما (لبثتم) في الدنيا أو في القبور أو ما بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة (الا عشرا) من الليالي بأيامها لان الشهور غررها بالليالي فتكون الايام داخلة فيها تبعا قاله في الكشاف والمعنى انهم يستقصرون ويستقلون مدة مقامهم ولبثهم في الدنيا جدا وقيل المراد بالعشر عشر ساعات ثم لما قالوا هذا قال الله سبحانه (نحن أعلم بما يقولون) فيما بينهم (اذ يقول أمثلهم طريقة) أي أعدلهم قولا وأكملهم رأيا وأعلمهم عند نفسه

بخصوص بوجوب ذلك وحده فجعلوا قيام الليل واجبا في حقه دون الامة رواه العوفي عن ابن عباس وهو أحد قولي العلماء واحد قولي الشافعي رحمه الله واختاره ابن جرير وقيل انما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص لانه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره من أمته انما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه قاله مجاهد وهو في المسند عن أبي امامة الباهلي رضي الله عنه وقوله عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاما محمودا يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى (٩٢) قال ابن جرير قال أكثر أهل التأويل ذلك هو المقام الذي يقومه محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم (ذكر من قال ذلك) حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن أبي اسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة قال يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا قياما لا تكلم نفس الا باذنه ينادى يا محمد فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك ومنك واليك لا منجا ولا ملجأ منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل ثم رواه عن بندار عن غندر عن شعبة عن أبي اسحق به وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري عن أبي اسحق به وقال ابن عباس هذا المقام المحمود مقام الشفاعة وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد وقاله الحسن البصري وقال قتادة هو أول من تنشق عنه الارض يوم القيامة وأول شافع وكان أهل العلم يرون انه المقام المحمود الذي قال الله تعالى عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد وتشريفات لا يساويه فيها أحد فهو أول من تنشق عنه الارض ويبعث راكبا الى المحشر وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر واردا منه وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ثم نوحا ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى فكل يقول لست لها حتى يأتوا الى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول انا لها انا لها كما سنذكر ذلك مفصلا في هذا الموضع ان شاء الله تعالى ومن ذلك انه يشفع في اقوام قد أمر بهم الى النار فيردون عنها وهو أول

وقال سعيد بن جبير اوفاهم عقلا (ان لبثتم الا يوما) واحدا ونسبة هذا القول الى امثلهم لكونه ادل على شدة الهول لا لكونه اقرب الى الصدق (ويسئلونك عن) حال (الجبال) قال ابن جريج قالت قريش كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة اي على سبيل الاستهزاء فأمره الله سبحانه ان يجيب عنهم فقال (فقل) الفاء لجواب شرط محذوف والتقدير ان سألوك فقل أو للمسارعة الى الزام السائلين (ينسفها ربي نسفا) قال ابن الاعرابي وغيره يقلعها قلعا من أصولها ثم يصيرها رملا تسيل سيلا ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا ثم كالهباء المنثور يقال نسفت الريح التراب نسفا من باب ضرب اقتلعته وفرقته واسم الآلة منسف بكسر الميم (فيذرها) اي يترك الجبال باعتبار مواضعها أي فيذر مواضعها أو أجزاءها السافلة الباقية بعد النسف وهي مقارها ومراكزها أي فيذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطح أجزاء الارض بعد نسف ما كان عليها من الجبال الشواهق أو الضمير للارض المدلول عليها بقرينة الحال انها الباقية بعد نسف الجبال (قاعا صفصفا) قال ابن الاعرابي هو الارض الملساء بلا نبات ولا بناء وقال الفراء القاع مستنقع الماء والصفصف القرعاء الملساء التي لا نبات فيها كأن أجزاءها صف واحد من كل جهة فصفصف فاقريب في المعنى من قاعا فهو كالتأكيد له قال الجوهري القاع المستوي الصلب من الارض والجمع أقوع واقواع وقيعان والظاهر من لغة العرب ان القاع الموضع المنكشف والصفصف المستوي الاملس (لا ترى فيها) الضمير راجع الى الجبال بذلك الاعتبار أو الى الارض على ما مر (عوجا) أي انخفاضا وهو بكسر العين التعوج قاله ابن الاعرابي (ولا أمتا) هو التلال الصغار والامت في اللغة المكان المرتفع وقيل العوج الميل والامت الاثر مثل الشراك وقيل العوج الوادي والامت الرابية وقيل الامت النتوء اليسير يقال مد حبله حتى ما فيه امت وقيل هما الانخفاض والارتفاع وقيل العوج الصدوع والامت الاكمة وقيل الامت الشقوق في الارض وقيل الآكام وقيل الامت ان تغلظ في مكان وتدق في مكان ووصف مواضع الجبال بالعوج بكسر العين ههنا يدفع ما يقال ان العوج بكسر العين في المعاني وبفتحها في الاعيان والمحسوسات الا ان يقال عبر فيه بمكسور العين لكونه لشدة خفائه كأنه صار من قبيل المعاني أي لا تدركه فيها ولو تأملته بالمقاييس الهندسية قاله أبو السعود وقد

تكلف

الانبياء يقضى بين أمته وأولهم اجازة على الصراط بامته وهو أول شفيع فى الجنة كما ثبت فى صحيح مسلم وفى حديث الصور ان المؤمنين كلهم لايدخلون الجنة الا بشفاعته وهو أول داخل اليها وامته قبل الامم كلهم ويشفع فى رفع درجات أقوام لاتبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة لاتليق الا له واذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو فى خلائق لايعلم عدتهم الا الله تعالى ولايشفع أحد مثله ولايساويه فى ذلك وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب السيرة فى باب الخصائص ولله الحمد والمنة ولنذكر الآن الاحاديث الواردة فى المقام المحمود وبالله المستعان قال البخارى حدثنا اسمعيل بن ابان حدثنا أبو الاحوص عن آدم بن على سمعت ابن عمر ان الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيها يقولون يافلان اشفع يافلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة الى محمد صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا ورواه حمزة بن عبدالله عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن جرير حدثنى محمد بن عبدالله ابن عبد الحكم حدثنا شعيب بن الليث حدثنا الليث عن عبيدالله ابن أبى جعفر انه قال سمعت حمزة ابن عبدالله بن عمر يقول سمعت عبدالله بن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الاذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول لست بصاحب ذلك ثم موسى فيقول كذلك ثم محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع بين الخلق فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا وهكذا رواه البخارى فى الزكاة عن يحيى بن بكير وعلقمة عن عبدالله ابن صالح كلاهما عن الليث بن سعد به وزاد فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلهم قال البخارى وحدثنا على بن عياش حدثنا شعيب ابن أبى حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة انفرد به دون مسلم حديث أبى قال الامام أحمد حدثنا أبو عامر الازدى حدثنا زهير بن محمد عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا كان يوم القيامة كنت امام الانبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر وأخرجه الترمذى من حديث أبى عامر عبد الملك بن عمرو العقدى وقال حسن صحيح وابن ماجه من حديث عبدالله بن محمد بن عقيل به

تكلف لذلك صاحب الكشاف فى هذا الموضع بما عنه غنى وفى غيره سعة وعن ابن عباس قال هى الارض الملساء التى ليس فيها رابية مرتفعة ولا انخفاض قال البيضاوى هى ثلاثة أحوال مترتبة فالاولان باعتبار الاحساس والثالث باعتبار المقياس ولذلك ذكر العوج وهو يخص المعانى (يومئذ) أى يوم نسف الجبال (يتبعون الداعى) أى يتبع الناس داعى الله الى المحشر فيقبلون من كل أوب الى صوبه قال الفراء يعنى بالداعى صوت الحشر وقيل هو اسرافيل اذا نفخ فى الصور والراجح ان الداعى جبريل والنافخ اسرافيل تأمل (لاعوج له) أى لامعدل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه وينحرفوا منه بل يسرعون اليه كذا قال أكثر المفسرين وقيل لاعوج لدعائه ولايزيغون عنه يمينا ولاشمالا بل يتبعونه ويأتونه سراعا ولايميلون الى ناس دون ناس وقيل لاعوج لذلك الاتباع والاول أظهر وعن محمد بن كعب القرظى قال يحشر الناس يوم القيامة فى ظلمة تطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر وينادى مناد فتتبع الناس الصوت يؤمونه فذلك قول الله يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له وعن أبى صالح فى الآية قيل يضع اسرافيل الصور فى فيه ويقف على صخرة بيت المقدس وينادى أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة والاوصال المتقطعة هلمى الى عرض الرحمن فان الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء فيقبلون من كل أوب الى صوبه لايعدلون عنه ويستوون اليه من غير انحراف متبعين لصوته (وخشعت الاصوات للرحمن) أى خفضت لهيبته وجلاله وقيل ضعفت لعظمته وقيل ذلت من شدة الفزع وقيل سكنت قاله ابن عباس والمراد أصحاب الاصوات (فلا تسمع الا همسا) هو الصوت الخفى قاله ابن عباس ومجاهد وقال أكثر المفسرين هو صوت نقل الاقدام الى المحشر ووطئها ومنه همست الابل اذا سمع ذلك من وقع اخفافها على الارض وعن الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن مثله وعن سعيد أيضا قال سر الحديث والظاهر ان المراد هنا كل صوت خفى سواء كان بالقدم أو من الفم بتحريك الشفاه أو غير ذلك ويؤيده قراءة أبى فلا ينطقون الا همسا وهو مصدر همست الكلام من باب ضرب اذا أخفيته والاستثناء مفرغ وقال الزمخشرى الهمس الذكر الخفى ومنه الحروف المهموسة (يومئذ) أى يوم يقع ماذكرنا (لاتنفع الشفاعة) من شافع كائنا من كان (الا)

وقد قدمنا في حديث أبي بن كعب في قراءة القرآن على سبعة أحرف قال صلى الله عليه وسلم في آخره فقلت اللهم اغفر لامتي اللهم اغفر لامتي وأخرت الثالثة ليوم يرغب الي فيه الخلق حتى ابراهيم عليه السلام حديث أنس بن مالك قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا سعيد بن أبي عروبة حدثنا قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا الى ربك حتى (٩٤) يريحنا من مكاننا هذا فيقول لهم آدم لست هناكم ويذكر ذنبه الذي أصاب فيستحي ربه عز وجل من ذلك ويقول ولكن ائتوا نوحا فانه أول رسول بعثه الله الى أهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر له خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي ربه من ذلك ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناكم ولكن ائتوا موسى عبدا كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس فيستحي ربه من ذلك ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني قال الحسن هذا الحرف فأقوم فأمشي بين سماطين من المؤمنين قال أنس حتى أستأذن على ربي فاذا رأيت ربي وقعت له أو خررت ساجدا لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني قال ثم يقال ارفع محمد قل يسمع واشفع تشفع وسل تعطه فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود اليه الثانية فاذا رأيت ربي وقعت له أو خررت ساجدا لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي هو فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة قال ثم أعود الثالثة فاذا رأيت ربي وقعت أو خررت ساجدا لربي فيدعني ما شاء أن يدعني ثم يقال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود الرابعة فأقول يا رب ما بقي الا من حبسه القرآن فحدثنا أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ثم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة أخرجاه من حديث شعبة به وهكذا رواه الامام أحمد عن

شفاعة (من أذن له الرحمن) في أن يشفع لغيره وبه بدأ القاضي كالكشاف لما فيه من تعظيم الشافع واللام للتعليل أي لاجله (ورضي له قولا) أي رضي قوله في الشفاعة أو رضي لاجله قول الشافع والمعنى انما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له وكان له قول يرضى ومثل هذه الآية قوله ولا يشفعون الا لمن ارتضى وقوله لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله فما تنفعهم شفاعة الشافعين وفيه دلالة على أنه لا يشفع أحد لاحد الا لمن يأذن الله له فيه فلا شفاعة الا باذن منه سبحانه وهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمنين وبه صرح البغوي وهذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفساق لان قوله ورضي له قولا يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد رضي له قولا واحدا من أقواله والفاسق قد رضي الله من أقواله شهادة أن لا اله الا الله فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له بعد الاذن لان الاستثناء من النفي اثبات والجملة تفسير ان يؤذن في الشفاعة له وحاصل هذا التفسير أنه كل من قال في الدنيا لا اله الا الله أي كان مسلما ومات على الاسلام وان عمل السيآت (يعلم ما بين أيديهم) من أمور الساعة والآخرة (وما خلفهم) من أمور الدنيا والمراد جميع الخلق وقيل المراد بهم الذين يتبعون الداعي وقيل الضمير للشافعين وقال ابن جرير يرجع الى الملائكة أعلم الله من يعبدها انها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها والعموم أولى (ولا يحيطون به علما) أي بالله سبحانه لا تحيط علومهم بذاته ولا بصفاته ولا بمعلوماته وقيل الضمير راجع الى ما في الموضعين فانهم لا يعلمون جميع ذلك (وعنت الوجوه للحي القيوم) أي ذلت وخضعت قاله ابن الاعرابي وعن ابن عباس وقتادة مثله وقال مجاهد خشعت وقال أبو العالية خضعت وعن ابن عباس قال وعنت الوجوه الركوع والسجود قال الزجاج معنى عنت في اللغة خضعت يقال عنا يعنو عنوا اذا خضع وذل وأعناه غيره أي أذله ومنه قيل للاسير عاني والجمع عناة وقيل هو من العناء بمعنى التعب وذكر الوجوه وأراد بها أصحابها وخص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يتبين وأول ما يظهر فيها ثم قسمها الى قسمين بقوله (وقد خاب من حمل ظلما) أي خسر من حمل شيأ من الظلم وقيل هو الشرك وبه قال ابن جريج وقتادة وقوله (ومن يعمل من) الاعمال (الصالحات) الطاعات (وهو) أي والحال انه (مؤمن) بالله لان العمل لا يقبل من غير ايمان بل

هو شرط في القبول (فلا يخاف) قرئ برفعه على النفي والاستئناف أي فهو لا يخاف وقرئ بجزمه على النهي (ظلما) يصاب به من نقص ثواب في الآخرة (ولا هضما) هو النقص والكسر يقال هضمت لك من حقي أي حططته وتركته ونقصت منه وهذا يهضم الطعام أي ينقص ثقله وامرأة هضيم الكشح أي ضامرة البطن ومنه أيضا طلعها هضيم أي دقيق متراكب كأن بعضه يظلم بعضا فينقصه حقه ورجل هضيم ومهتضم أي مظلوم وهضمته واهتضمته وتهضمته كله بمعنى قيل الظلم والهضم متقاربان وفرق القاضي الماوردي بينهما فقال الظلم منع جميع الحق والهضم منع بعضه قال قتادة ظلما ان يزاد في سيآته ولا هضما ان ينقص من حسناته وقيل هضما أي غصبا وقيل لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل عنه حسنة عملها (وكذلك) أي مثل ذلك الانزال (انزلناه) أي القرآن كله حال كونه (قرآنا عربيا) أي بلغة العرب ليفهموه ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خالق القوى والقدر واضمار القرآن من غير سبق ذكره للايذان بنباهة شأنه وكونه مركوزا في العقول حاضرا في الاذهان (وصرفنا) أي وبينا (فيه) ضروبا (من الوعيد) تخويفا وتهديدا وكررنا فيه بعضا منه والمراد الجنس ومن مزيدة على رأي الاخفش (لعلهم يتقون) أي كي يخافوا الله فيجتنبوا معاصيه ويحذروا عقابه (أو يحدث لهم ذكرا) أي اعتبارا واتعاظا بهلاك من تقدمهم من الامم فيعتبرون وقيل ورعا وقيل شرفا وقيل طاعة وعبادة لان الذكر يطلق عليها واضيف الذكر الى القرآن ولم تضف التقوى اليه لان التقوى عبارة عن ان لا يفعل القبيح وذلك استمرار على العدم الاصلي فلم يحسن اسناده الى القرآن وأما حدوث الذكر فامر يحدث بعد ان لم يكن فجازت اضافته اليه قاله الكرخي (فتعالى الله الملك الحق) لما بين سبحانه للعباد عظيم نعمته عليهم بانزال القرآن نزه نفسه عن مماثلة مخلوقاته في شئ من الاشياء أي جل الله عن الحاد الملحدين وعما يقول المشركون والمعطلون في صفاته فانه الملك الذي بيده الثواب والعقاب نافذ أمره ونهيه وانه الحق أي ذو الحق في ملكوته والوهيته أو الحقيق بان يرجى وعده ويخشى وعيده أو الثابت في ذاته وصفاته وقيل انما وصف نفسه بالملك الحق لان ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به منه (ولا تعجل بالقرآن) أي بقراءته (من

عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بطوله وقال الامام احمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الانصاري عن النضر بن أنس عن أنس قال حدثني نبي الله صلى الله عليه وسلم قال انى لقائم أنتظر أمتي تعبر الصراط اذ جاءني عيسى عليه السلام فقال هذه الانبياء قد جاءتك يا محمد يسألون أو قال يجتمعون اليك ويدعون الله ان يفرق بين جميع الامم الى حيث يشاء الله لغم ما هم فيه فالخلق ملجمون بالعرق فاما المؤمن فهو عليه كالزكمة وأما الكافر فيغشاه الموت فقال انتظر حتى أرجع اليك فذهب نبي الله صلى الله عليه وسلم فقام تحت العرش يلقى مالم يلق ملك مصطفى ولا نبي مرسل فاوحى الله عزوجل الى جبريل ان اذهب الى محمد وقل له ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فشفعت في أمتي ان أخرج من كل تسعة وتسعين انسانا واحدا فما زلت اتردد الى ربي عزوجل فلا أقوم منه مقاما الا شفعت حتى أعطاني الله عزوجل من ذلك ان قال يا محمد ادخل من خلق الله عزوجل من شهد ان لا اله الا الله يوما واحدا مخلصا ومات على ذلك حديث بريدة رضي الله عنه قال الامام أحمد بن حنبل حدثنا الاسود ابن عامر اخبرنا ابو اسرائيل عن الحرث بن حصيرة عن ابن بريدة عن أبيه انه دخل على معاوية فاذا رجل يتكلم فقال بريدة يا معاوية تأذن لي في الكلام فقال نعم وهو يرى انه سيتكلم بمثل ما قال الآخر فقال بريدة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انى لارجو ان أشفع يوم القيامة عدد ما على الارض من شجرة ومدرة قال فترجوها أنت يا معاوية ولا يرجوها على رضي الله عنه حديث ابن مسعود قال الامام أحمد حدثنا عارم بن الفضل حدثنا سعيد بن الفضل حدثنا سعيد بن زيد حدثنا علي بن الحكم البناني عن عثمان عن ابراهيم عن علقمة والاسود عن ابن مسعود قال جاء ابنا مليكة الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالا ان امنا تكرم الزوج وتعطف على الولد قال وذكرا الضيف غير انها كانت وأدت في الجاهلية فقال امكما في النار قال فادبرا والسوء يرى في وجوههما فامر بهما فردا فرجعا والسرور يرى في وجوههما رجاء أن يكون قد حدث شئ فقال أمي مع أمكما فقال رجل من المنافقين وما يغني هذا عن أمه شيأ ونحن نطأ أعقبه فقال رجل من الانصار ولم أر رجلا قط أكثر سؤالا منه يا رسول الله هل وعدك ربك فيها أو فيهما قال فظن انه من شئ قد سمعه فقال ما شاء الله ربي وما أطمعني فيه واني لاقوم المقام المحمود يوم القيامة فقال الانصاري يا رسول الله وما ذاك المقام المحمود قال ذاك اذا جيء بكم حفاة عراة غرلا فيكون أول

من يكسى ابراهيم عليه السلام فيقول اكسوا خليلي فيؤتى بريطتين بيضاوين فيلبسهما ثم يقعد مستقبل العرش ثم أوتى بكسوتي فالبسها فأقوم عن يمينه مقاما لا يقومه أحد فيغبطني فيه الاولون والآخرون قال ويفتح لهم من الكوثر الى الحوض فقال المنافقون انه ما جرى ماء قط الا على حال أو رضراض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاله المسك ورضراضه اللؤلؤ فقال المنافق لم اسمع كاليوم قلما جرى ماء على حال أو رضراض الا كان له نبت فقال الانصاري يا رسول الله هل له نبت فقال نعم قضبان الذهب قال المنافق لم أسمع كاليوم فانه قلما ينبت قضيب الا أورق والا كان له ثمر قال الانصاري يا رسول الله هل له ثمرة قال نعم ألوان الجوهر وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل من شرب منه شربة لا يظمأ بعده ومن حرمه لم يرو بعده وقال أبو داود الطيالسي حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن أبي الزعراء عن عبد الله قال ثم يأذن الله عز وجل في الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل ثم يقوم ابراهيم خليل الله ثم يقوم عيسى أو موسى قال أبو الزعراء لا أدري أيهما قال ثم يقوم نبيكم صلى الله عليه وسلم رابعا فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع وهو المقام المحمود الذي قال الله عز وجل عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا حديث كعب ابن مالك رضي الله عنه قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا محمد بن حرب حدثنا الزبيدي عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن كعب بن مالك عن كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وامتي على تل ويكسوني ربي عز وجل حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله ان أقول فذلك المقام المحمود حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأنا أول من يؤذن له ان يرفع رأسه فانظر الى ما بين يدي فاعرف أمتي من بين الامم ومن خلفي مثل ذلك وعن يميني مثل ذلك وعن شمالي مثل ذلك فقال رجل يا رسول الله كيف تعرف امتك من بين الامم فيما بين نوح الى امتك قال هم غر محجلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم وأعرفهم انهم يؤتون كتبهم بايمانهم وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم حديث أبي هريرة رضي الله

قبل ان يقضى) أي يتم (اليك وحيه) أي يفرغ جبريل من ابلاغه قال المفسرون كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبادر جبريل فيقرأ قبل ان يفرغ جبريل من الوحي حرصا منه على ما ينزل عليه منه فنهاه الله عن ذلك ومثله قوله لا تحرك به لسانك لتعجل به على ما يأتي ان شاء الله تعالى وقيل المعنى ولا تلقه الى الناس قبل ان يأتيك بيان تأويله وقرئ نقضي بالنون قال ابن عباس لا تعجل حتى نبينه لك وقال قتادة لا تتله على أحد حتى نتمه لك وعن الحسن قال لطم رجل امرأته فجاءت الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تطلب قصاصا فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم القصاص فأنزل الله ولا تعجل بالقرآن الآية فوقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزلت الرجال قوامون على النساء الآية أخرجه الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (وقل رب زدني علما) أي سل في نفسك ربك زيادة العلم بكتابه وبمعانيه فانه الموصل الى مطلوبك دون الاستعجال فكلما أنزل عليه شيء منه ازداد به علمه وما أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بطلب الزيادة في شيء الا في العلم وفيه التواضع والشكر لله والتنبيه على عظم موقع العلم وفضله وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية قال اللهم زدني علما وايمانا ويقينا ذكره الخطيب وأقول رب زدني علما نافعا وعملا صالحا وايمانا كاملا ويقينا تاما وعاقبة محمودة

(ولقد عهدنا الى آدم) اللام هو الموطئة للقسم والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تصريف الوعيد أي لقد أمرناه ووصيناه والمعهود محذوف وهو ما سيأتي من نهيه عن الاكل من الشجرة (من قبل) أي من قبل هذا الزمان أو قبل أكله منها (فنسي) المراد بالنسيان هنا ترك العمل بما وقع به العهد اليه فيه وبه قال أكثر المفسرين كما في قوله انا نسيناكم أي تركناكم في العذاب فلا يشكل بوصفه بالعصيان غيا وقيل النسيان على حقيقته وانه نسي ما عهد الله به اليه وسهى عنه وكان آدم مأخوذا بالنسيان في ذلك الوقت وان كان النسيان مرفوعا عن هذه الامة والمراد من الآية تسلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم على القول الاول أي ان طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم وان هؤلاء المعاصرين له ان نقضوا العهد فقد نقض أبوهم آدم كذا قال ابن جرير والقشيري وما اعترضه ابن عطية قائلا بكون آدم مماثلا للكفار الجاحدين بالله فليس بشيء وقرئ فنسي بضم النون وتشديد السين مكسورة أي فنساه ابليس قال ابن عباس انما سمي الانسان

لانه

لانه عهد اليه فنسي أي لقد عهدنا الى آدم ان لا يقرب الشجرة فنسي فترك عهدي (ولم نجد) من الوجدان بمعنى العلم أو من الوجود ضد العدم (له عزما) أي حزما وصبرا عما نهيناه عنه أو حفظا قاله ابن عباس والعزم في اللغة توطين النفس على الفعل والتصميم عليه والمضي على المعتقد في أي شيء كان وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على ان لا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك فلما وسوس اليه ابليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر وقيل العزم الصبر كما مر أي لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة قال النحاس وهو كذلك في اللغة يقال لفلان عزم أي صبر وثبات على التحفظ عن المعاصي حتى يسلم منها ومنه كما صبر أولوا العزم من الرسل وقيل المعنى ولم نجد له عزما على الذنب وبه قال ابن كيسان وقيل ولم نجد له رأيا معزوما عليه وبه قال ابن قتيبة ثم شرع سبحانه في كيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه فقال (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أي اذكر وتعليق الذكر بالوقت مع ان المقصود ذكر ما فيه من الحوادث للمبالغة لانه اذا وقع الامر بذكر الوقت كان ذكر ما فيه من الحوادث لازما بطريق الاولى كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن لسر يعلمه الله وبعض خلقه (فسجدوا الا ابليس) وهو أبو الجن كان يصحب الملائكة ويعبد الله معهم فالاستثناء منقطع وقيل متصل والاول أولى (أبى) أن يسجد لآدم وقال أنا خير منه (فقلنا يا آدم ان هذا) يعني ابليس (عدو لك ولزوجك) أي حواء بالمد حيث لم يسجد لك ولم يرض فضلك وسبب العداوة ما رأى من آثار نعمة الله على آدم فحسده فصار عدوا له (فلا يخرجنكما من الجنة) أسند الخروج اليه وان كان الله تعالى هو المخرج لانه لما كان بوسوسه وفعل آدم ما يترتب عليه الخروج صح ذلك (فتشقى) الشقاء الشدة والعسر ويمد ويقصر يقال شقي كرضي شقاوة والمعنى فتتعب في تحصيل مالا بد منه في المعاش وتنصب ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك وهو الحرث والزرع والطحن والخبز ولم يقل فتشقيا لان الكلام من أول القصة مع آدم وحده أو أن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله كما ان في سعادته سعادتهم لانه القيم عليهم أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لان الرجل هو الساعي على زوجته ثم علل ما يوجبه ذلك النهي بما فيه الراحة الكاملة عن التعب والاهتمام فقال (ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) المعنى ان لك فيها تمتعا بأنواع المعاش وتنعما بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية

عنه قال الامام أحمد رحمه الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا أبو حيان حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة في الصحيحين عنه قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع اليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مما ذاك يجمع الله الناس الاولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس ألا ترون ما أنتم فيه ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم فيأتون

آدم عليه السلام فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول آدم ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه قد نهاني عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى نوح فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل الى أهل الارض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول نوح ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى ابراهيم فيأتون ابراهيم فيقولون يا ابراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الارض ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله فذكر كذباته نفسي نفسي نفسي اذهبوا الى

غيري اذهبوا الى موسى فيأتون موسى فيقولون يا موسى أنت رسول الله اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم موسى ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله واني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسي نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى عيسى فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبيا اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم عيسى ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر

ذنبا نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون محمدا صلى الله عليه وسلم فيقولون يا محمد انت رسول الله وخاتم الانبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فاقوم فآتي تحت العرش فاقع ساجدا لربي عز وجل ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيأ مالم يفتحه على أحد قبلي فيقال يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فارفع رأسي فاقول أمتي يارب أمتي يارب فيقال يا محمد ادخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الايمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الابواب ثم

قال والذي نفس محمد بيده ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى أخرجاه في الصحيحين وقال مسلم رحمه الله حدثنا الحكم بن موسى حدثنا هقل بن زياد عن الاوزاعي حدثني أبو عمار حدثني عبد الله بن فروخ حدثني أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة وأول شافع وأول مشفع وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن داود بن يزيد الزعافري عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا سئل عنها فقال هي الشفاعة رواه الامام أحمد عن وكيع عن محمد بن عبيد عن داود عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن علي بن الحسين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة مد الله الارض مد الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس الا موضع قدميه قال النبي صلى الله عليه وسلم فاكون أول من يدعى وجبريل عن يمين الرحمن تبارك وتعالى والله ما رآه قبلها فاقول أي رب ان هذا أخبرني انك أرسلته الي فيقول الله عز وجل صدق ثم أشفع فاقول يارب عبادك عبدوك في اطراف الارض قال فهو المقام المحمود وهذا حديث مرسل (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) قال الامام أحمد حدثنا جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس كان

فانه لما نفى عنه الجوع والعري افاد ثبوت الشبع والاكتساء له وهكذا قوله (وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى) فان نفي الظما يستلزم حصول الري ووجود المسكن الذي يدفع عنه مشقة الضحو يقال ضحي الرجل يضحى ضحوا اذا برز للشمس فاصابه حرها وعن ابن عباس قال لا يصيبك فيها عطش ولا حر اذ ليس فيها شمس وأهلها في ظل ممدود فذكر سبحانه ههنا انه قد كفاه الاشتغال بامر المعاش وتعب الكد في تحصيله ولا ريب ان أصول المتاعب في الدنيا التي يدور عليها كفاية الانسان هي تحصيل الشبع والري والكسوة والكن وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها وهو اعلام من الله سبحانه لآدم انه ان أطاعه فله في الجنة هذا كله وان ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجه من الجنة الى الدنيا فيحل به التعب والنصب بما يدفع به الجوع والعري والظمأ والضحو فالمراد على هذا بالشقاء المتقدم شقاء الدنيا كما قاله كثير من المفسرين لا شقاء الأخرى قال الفراء هو أن يأكل من كد يديه قال الصفوي قابل سبحانه وتعالى بين الجوع والعري والظما والضحو وان كان الجوع يقابل العطش والعري يقابل الضحو لان الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر والظمأ حر الباطن والضحو حر الظاهر فنفى عن ساكنها ذل الظاهر والباطن وحرهما ذكره ابن القيم قال أبو السعود وفصل الظمأ من الجوع مع تجانسهما وتقارنهما في الذكر عادة وكذا حال العري والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه للاشارة الى أن نفي كل واحد من تلك الامور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظما لربما توهم ان نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال في الجمع بين العري والضحو ولزيادة التقرير بالتنبيه على ان نفي كل واحد من هذه الامور مقصود بالذات مذكور بالاصالة لا ان نفي بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لبعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع كل من المتجانسين انتهى (فوسوس اليه الشيطان) قد تقدم تفسيره وما بعده في الاعراف في قوله فوسوس لهما الشيطان أي ألقى اليه وسوسته وأما وسوس له فمعناه وسوس لاجله وقال أبو البقاء عدى بالى لانه بمعنى أسر وعدى باللام في موضع آخر لكونه بمعنى ذكر له ويكون بمعنى لاجله (قال يا آدم) بيان لصورة الوسوسة (هل أدلك على شجرة الخلد) هي الشجرة التي من أكل منها لم يمت أصلا وبقي مخلدا اخرج أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها

وهي

النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وقال الترمذي حسن صحيح وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية ان كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه فأراد الله قتال أهل مكة أمره أن يخرج الى المدينة فهو الذي قال الله عز وجل وقل رب ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق الآية وقال قتادة وقل رب ادخلني مدخل صدق يعني المدينة واخرجني مخرج صدق يعني مكة وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا القول هو أشهر الاقوال وقال العوفي عن ابن عباس ادخلني مدخل صدق يعني الموت واخرجني مخرج صدق يعني الحياة بعد الموت وقيل غير ذلك من الاقوال والاول أصح وهو اختيار ابن جرير وقوله واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا قال الحسن البصري في تفسيرها وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له وعز الروم وملك الروم وليجعلنه له وقال قتادة فيها ان نبي الله صلى الله عليه وسلم علم ان لا طاقة له بهذا الامر الا بسلطان فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولاقامة دين الله فان السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم قال مجاهد سلطانا نصيرا حجة بينة واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة وهو الارجح لانه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه ولهذا يقول تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات الى قوله وأنزلنا الحديد الآية وفي الحديث ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد وهذا هو الواقع وقوله وقل جاء الحق وزهق الباطل الآية تهديد ووعيد لكفار قريش فانه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به وهو ما بعثه الله به من القرآن والايمان والعلم النافع وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك فان الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق وقال البخاري حدثنا الحميدي حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن

وهي شجرة الخلد (وملك لا يبلى) أي تصرف يدوم ولا يزول ولا ينقضي ولا يبيد ولا يفنى وهو لازم الخلود (فأكلا) أي آدم وحواء (منها) أي من الشجرة (فبدت لهما سوآتهما) يعني عريا من الثياب التي كانت عليهما بسبب تساقط حلل الجنة عنهما لما أكلا من الشجرة حتى ظهر لكل واحد منهما ما قبله وقبل الآخر ودبره وسمي كل منهما سوأة لان انكشافه يسوء صاحبه ويحزنه (وطفقا) طفق يطفق كذا مثل جعل يفعل وهو ككاد في وقوع الخبر فعلا مضارعا الا انه للشروع في أول الامر وكاد للدنو منه قال الفراء معنى طفقا في العربية أقبلا وقيل أخذا وجعلا (يخصفان) يلصقان (عليهما) ويلزقان لاجل سوآتهما اي يسترهما فعلى تعليلية (من ورق الجنة) أي من ورق التين بعضه ببعض حتى يصير طويلا عريضا يصلح للاستتار به (وعصى آدم ربه) أي خالف نهيه بالاكل من الشجرة فالعصيان هو المخالفة لكنه خالف بتأويل لانه اعتقد أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا ولانه اعتقد ان النهي قد نسخ لما حلف له ابليس أو اعتقد أن النهي عن شجرة معينة وان غيرها من بقية افراد الجنس ليس منهيا عنه (فغوى) أي فضل عن الصواب أو عن مطلوبه وهو الخلود بالاكل من تلك الشجرة أي حاد عنه ولم يظفر به هذا هو الحق في تقرير هذا المقام وقيل فسد عليه عيشه بنزوله الى الدنيا وقيل جهل موضع رشده وقيل بشم (1) من كثرة الاكل قال ابن قتيبة أكل آدم من الشجرة التي نهي عنها باستزلال ابليس وخدعه اياه والقسم له بالله انه له لمن الناصحين حتى دلاه بغرور ولم يكن ذنبه عن اعتقاد متقدم ونية صحيحة فنحن نقول عصى آدم ربه فغوى انتهى قال القاضي أبو بكر بن العربي لا يجوز لاحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم قلت لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله سبحانه في كتابه بانه عصاه وكما يقال حسنات الابرار سيئات المقربين قال في المدارك وفي التصريح بقوله وعصى آدم ربه فغوى والعدول عن قوله وزل آدم مزجرة عظيمة وموعظة بليغة للمكلفين كافة كأنه قيل لهم انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم زلته بهذه الغلظة فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلا عن الكبائر ونعما قال الشوكاني في هذا المعنى

عصى أبو العالم وهو الذي * من طينة صوره الله
وأسجد الاملاك من أجله * وصير الجنة مأواه
أغواه ابليس فمن ذا أنا الـ * مسكين ان ابليس أغواه

(1) البشم التخمة يقال بشمت من الطعام بالكسر اهـ صحاح

رد قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد وكذا رواه البخاري أيضا في غير هذا الموضع ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة به وكذا رواه عبد الرزاق عن ابن أبي نجيح به وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا شبابة حدثنا المغيرة حدثنا أبو الزبير عن جابر رضي الله عنه قال دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنما تعبد من دون الله فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكبت على وجوهها وقال جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا) يقول تعالى مخبرا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد انه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل فالقرآن يشفي من ذلك كله وهو أيضا رحمة يحصل فيها الايمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه وليس هذا الا لمن آمن به وصدقه واتبعه فانه يكون شفاء في حقه ورحمة وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن الا بعدا وكفرا والآفة من الكافر لا من القرآن كقوله تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد وقال تعالى واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون والآيات في ذلك كثيرة قال قتادة في قوله وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين اذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ولا يزيد الظالمين الا خسارا أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فان الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين (واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤسا قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) يخبر تعالى عن نقص الانسان من حيث هو الا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء فانه اذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر ونال ما يريد

وحديث محاجة آدم وموسى في الصحيحين عن أبي هريرة كما سيأتي وفيه أتلومني على أمر قدره الله علي قبل ان يخلقني بأربعين سنة وقد أطال الرازي في بيان اختلاف الناس في عصمة الانبياء في هذا المقام بما عنه غنى وفي تركه سعة وتبعه في ذلك الخازن في تفسيره فلا نطول الكلام بذكره (ثم اجتباه ربه) أي اصطفاه وقربه واختاره بالحمل على التوبة والتوفيق لها من جبى الي كذا فاجتبيته وأصل الكلمة الجمع قال ابن فورك كانت المعصية هذه من آدم قبل النبوة بدليل ما في هذه الآية فانه ذكر الاجتباء والهداية بعد ان ذكر المعصية واذا كانت المعصية قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا (فتاب عليه) من معصيته وقبل توبته (وهدى) أي هداه الى الثبات والمداومة على التوبة فلم ينقضها أو الى الاعتذار والاستغفار قيل وكانت توبة الله عليه قبل ان يتوب هو وحواء بقولهما ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وقد مر وجه تخصيص آدم بالذكر دون حواء وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال حاج آدم موسى قال له أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم بمعصيتك قال آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل ان يخلقني أو قدره علي قبل ان يخلقني قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحج آدم موسى (قال اهبطا منها جميعا) أي انزلا أيها الشقيقان من ذريتكما من الجنة الى الارض والخطاب وان كان مثنى في اللفظ لكنه في المعنى الجمع ليحصل التوفيق بين هذه الآية وآية الاعراف وهي قوله قال اهبطوا وبالجملة خصهما الله سبحانه بالهبوط لانهما أصل البشر ثم عمم الخطاب لهما ولذريتهما فقال (بعضكم) بعض الذرية (لبعض عدو) من أجل ظلم بعضهم بعضا والمعنى تعاديهم في أمر المعاش ونحوه فيحدث بسبب ذلك القتال والخصام (فاما يأتينكم مني هدى) بارسال الرسل وانزال الكتب (فمن اتبع هداي) أي الكتاب والرسول ووضع الظاهر موضع المضمر مع الاضافة الى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في ايجاب اتباعه (فلا يضل) في الدنيا (ولا يشقى) في الآخرة أخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة وذلك ان الله يقول فمن اتبع الآية وعن ابن عباس قال أجار الله تابع القرآن

من

أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه قال مجاهد بعد عنا قلت وهذا كقوله تعالى فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه وقوله فلما نجاكم الى البر أعرضتم وبانه اذا مسه الشر وهو المصائب والحوادث والنوائب كان يؤسا أى قنط ان يعود يحصل له بعد ذلك خير كقوله تعالى ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير وقوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته قال ابن عباس على ناحيته وقال مجاهد على حدته وطبيعته وقال قتادة على نيته وقال ابن زيد دينه وكل هذه الاقوال متقاربة فى المعنى وهذه الآية والله أعلم تهديد للمشركين ووعيد لهم كقوله تعالى وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم الآية وقوله تعالى فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا أى منا ومنكم وسيجزى كل عامل بعمله فانه لا يخفى عليه خافية (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا) قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا الاعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه قال كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرث المدينة وهو متكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه قال فسألوه عن الروح فقالوا يا محمد ما الروح فما زال متوكئا على العسيب قال فظننت انه يوحى اليه فقال ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا قال فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وهكذا رواه البخارى ومسلم من حديث الاعمش به ولفظ البخارى عند تفسير هذه الآية عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال بينا أنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرث وهو متكئ على عسيب اذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح فقال ما رابكم اليه وقال بعضهم لا يستقبلكم بشئ تكرهونه فقالوا سلوه فسألوه عن الروح فامسك النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيأ فعلمت أنه يوحى اليه فقمت مقامى فلما نزل الوحى قال ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى الآية وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادى الرأى ان هذه الآية مدنية وانها انما نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع ان السورة كلها مكية وقد يجاب

من أن يضل فى الدنيا أو يشقى فى الآخرة ثم قرأ هذه الآية (ومن أعرض عن ذكرى) أى الهدى الذاكر لى والداعى الى أو عن دينى وتلاوة كتابى والعمل بما فيه ولم يتبع هداى (فان له معيشة ضنكا) أى عيشا ضيقا فى هذه الحياة الدنيا يقال منزل ضنك وعيش ضنك أى ضيق فى القاموس الضنك الضيق فى كل شئ يقال ضنك ضنكا وضناكة وضنوكة ضاق وهو مصدر يستوى فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث وقرئ بضم الضاد على فعلى ومعنى الآية ان الله عز وجل جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه ان يعيش فى الدنيا عيشا هنيأ غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه كما قال سبحانه فلنحيينه حياة طيبة وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه ان يعيش عيشا ضيقا وفى تعب ونصب ومع ما يصيبه فى هذه الدنيا من المتاعب فهو فى الآخرة أشد تعبا وأعظم ضيقا وأكثر نصبا وعن ابى سعيد الخدرى مرفوعا معيشة ضنكا قال عذاب القبر أخرجه البيهقى والحاكم وصححه ومسدد فى مسنده ولفظ عبد الرزاق يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ولفظ ابن أبى حاتم قال ضمة القبر وفى سنده ابن لهيعة وفيه مقال معروف وقال ابن كثير الموقوف أصح واخرج البزار وابن ابى حاتم عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال المعيشة الضنكى ان تسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة وعنه مرفوعا قال عذاب القبر اخرجه البيهقى والبزار وابن المنذر وغيرهم قال ابن كثير بعد اخراجه باسناد جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا ومجموع ما ذكرناه يرجح تفسير المعيشة الضنكى بعذاب القبر وعنه قال بالشقاء وقيل هو الزقوم والضريع والغسلين فى النار وقيل هو الحرام والكسب الخبيث والاول أولى وقال ابن جبير يسلبه القناعة حتى لا يشبع وقيل الحياة فى المعصية وان كان فى رخاء ونعمة قاله الرازى أو المراد بها عيشه فى جهنم وبما تقرر علم انه لا يرد أن يقال نحن نرى المعرضين عن الايمان فى خصب معيشة (ونحشره) أى المعرض عن القرآن (يوم القيامة أعمى) أى مسلوب البصر وهو كقوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا قال النسفى وهو الوجه وقيل المراد العمى عن الحجة وقيل أعمى عن جهات الخير لا يهتدى الى شئ منها وقال عكرمة عمى عليه كل شئ الا جهنم وفى لفظ لا يبصر الا النار (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) فى الدنيا وعند البعث (قال كذلك) أى مثل

عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم انزالها عليه وهى هذه الآية ويسألونك عن الروح ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الامام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا يحيى بن زكريا عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال قالت قريش ليهود اعطونا شيأ نسأل عنه هذا الرجل فقالوا اسألوه عن الروح فسألوه فنزلت ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا قالوا أوتينا علما كثيرا أوتينا التوراة ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا قال وأنزل الله قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر الآية وقد روى ابن جرير عن محمد بن المثنى عن عبد الاعلى عن داود عن عكرمة قال سأل أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح فأنزل الله ويسألونك عن الروح الآية فقالوا تزعم أنا لم نؤت من العلم الا قليلا وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا قال فنزلت ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر الآية قال ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب وهو فى علم الله قليل وقال محمد بن اسحق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال نزلت بمكة وما أوتيتم من العلم الا قليلا فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أتاه أحبار يهود وقالوا يا محمد ألم يبلغنا انك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا أفعنيتنا أم عنيت قومك فقال كلا قد عنيت فقالوا انك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل وقد آتاكم الله ما ان عملتم به انتفعتم وأنزل الله ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم وقد اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا على أقوال أحدها ان المراد أرواح بنى آدم قال العوفى عن ابن عباس فى قوله ويسألونك عن الروح الآية وذلك ان اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التى فى الجسد وانما الروح من الله ولم يكن نزل عليه فيه شئ فلم يحر اليهم شيأ فأتاه جبريل فقال له قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فقالوا من جاءك بهذا قال جاءنى به جبريل من عند الله فقالوا له والله ما قاله لك الا عدونا

المفهوم

ذلك فعلت أنت أو الامر كذلك ثم فسره بقوله (أتتك آياتنا فنسيتها) أى أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها (وكذلك اليوم) أى مثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا (تنسى) أى تترك فى العمى أو النار وقيل نسوا من الخير والبركة وان لم ينسوا من العذاب فى النار قال الفراء يقال انه يخرج بصيرا من قبره فيعمى فى حشره (وكذلك) أى مثل ذلك الجزاء (نجزى من أسرف) الاسراف الانهماك فى الشهوات وقيل الشرك بالله قاله سفيان (ولم يؤمن بآيات ربه) بل كذب بها (ولعذاب الآخرة أشد) أى أفظع من المعيشة الضنك (وأبقى) أى أدوم وأثبت لانه لا ينقطع (أفلم يهد لهم) الاستفهام للتقريع والتوبيخ وقرئ بالنون والمعنى على هذا واضح والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها (كم أهلكنا قبلهم من القرون) قال القفال جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينا لهم قال النحاس وهذا خطأ لان كم استفهام فلا يعمل فيها ما قبلها وقال الزجاج المعنى أفلم يهد لهم الامر باهلاكنا من أهلكنا وحقيقته تدل على الهدى فالفاعل هو الهدى وقيل الفاعل ضمير لله أو للرسول أو للقرآن والجملة بعده تفسره ومعنى الآية على ما هو الظاهر أفلم يتبين لاهل مكة خبر من أهلكنا قبلهم من القرون حال كون تلك القرون (يمشون فى مساكنهم) ويتقلبون فى ديارهم فيعتبروا بهذا الاهلاك فيرجعوا عن تكذيب الرسول أو حال كون هؤلاء يمشون فى مساكن القرون الذين أهلكناهم عند خروجهم للتجارة وطلب المعيشة الى الشام وغيرها فيرون بلاد الامم الماضية والقرون الخالية خاوية خاربة من أصحاب الحجر وثمود وقرى قوم لوط فان ذلك مما يوجب اعتبارهم لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك (ان فى ذلك لآيات) أى لعبرا (لأولى النهى) تعليل للانكار وتقرير للهداية والاشارة الى مضمون كم أهلكنا والنهى جمع نهية وهى العقل أى لذوى العقول التى تنهى أربابها عن القبيح (ولولا كلمة سبقت من ربك) أى الكلمة السابقة وهى وعد الله سبحانه بتأخير عذاب هذه الامة الى الدار الآخرة (لكان) عقاب ذنوبهم (لزاما) أى لازما لهم فى الدنيا لا ينفك عنهم بحال ولا يتأخر كما لزم القرون الماضية واللزام مصدر لازم (وأجل مسمى) معطوف على قوله كلمة وهو يوم القيامة أو يوم بدر ويجوز عطفه على الضمير المستتر فى كان العائد الى الاخذ

فانزل الله قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وقيل المراد بالروح ههنا جبريل قاله قتادة قال وكان ابن عباس يكتمه وقيل المراد به ههنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ويسئلونك عن الروح يقول الروح ملك وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصري حدثنا وهب الله بن رزق بن هبيرة حدثنا بشر ابن بكر حدثنا الاوزاعي حدثنا عطاء عن عبد الله بن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان لله ملكا لو قيل له التقم السموات السبع والارضين بلقمة واحدة لفعل تسبيحه سبحانك حيث كنت وهذا حديث غريب بل منكر وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثني علي حدثني عبد الله حدثني أبو غران يزيد بن سمرة صاحب قيسارية عمن حدثه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه قال في قوله ويسئلونك عن الروح قال هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها يخلق الله من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة الى يوم القيامة وهذا أثر غريب عجيب والله أعلم وقال السهيلي روى عن علي انه قال هو ملك له مائة ألف رأس لكل رأس مائة ألف وجه في كل وجه مائة ألف فم في كل فم مائة ألف لسان يسبح الله تعالى بلغات مختلفة قال السهيلي وقيل المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بني آدم وقيل طائفة يرون الملائكة ولا تراهم فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم وقوله قل الروح من أمر ربي أي من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم ولهذا قال وما أوتيتم من العلم الا قليلا أي وما أطلعكم من علمه الا على القليل فانه لا يحيط أحد بشيء من علمه الا بما شاء تبارك وتعالى وسيأتي ان شاء الله في قصة موسى والخضر أن الخضر نظر الى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر في البحر نقرة أي شرب منه بمنقاره فقال يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله الا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه ولهذا قال تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا وقال السهيلي قال بعض الناس لم يجبهم عما سألوا لانهم سألوا على وجه التعنت وقيل اجابهم وعول السهيلي على ان المراد بقوله قل الروح من أمر ربي أي من شرعه أي فادخلوا فيه وقد علمتم ذلك لانه لا سبيل الى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة وانما ينال من جهة الشرع وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر والله أعلم ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء

المفهوم من السياق أي لكان الاخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود وفيه تعسف ظاهر قال ابن عباس هذا من مقاديم الكلام يقول لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاما أي موتا وعن السدي نحوه وعن مجاهد قال الاجل المسمى الكلمة التي سبقت ثم لما بين الله سبحانه انه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر فقال (فاصبر على ما يقولون) من انك ساحر كذاب شاعر كاهن ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة والمعنى لا تحتفل بهم فان لعذابهم وقتا مضروبا لا يتقدم ولا يتأخر وانهم معذبون لا محالة فتسل واصبر وقيل هذا منسوخ بآية القتال وقيل انها محكمة قال الشهاب القاسمية والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر عنهم لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة (وسبح بحمد ربك) أي متلبسا بحمده قال أكثر المفسرين والمراد الصلوات الخمس كما يفيده قوله (قبل طلوع الشمس) فانه اشارة الى صلاة الفجر (وقبل غروبها) فانه اشارة الى صلاة العصر وفي صحيح مسلم وسنن ابي داود والنسائي عن عمارة بن رويبة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها (ومن آناء الليل) العتمة والمراد بالآناء الساعات وهي جمع انا بالكسر والقصر وهو الساعة ومعنى (فسبح) فصل المغرب والعشاء والفاء اما عاطفة على مقدر أو واقعة في جواب شرط مقدر أو زائدة قال ابن عباس هي الصلاة المكتوبة وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم ان لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا وقرأ هذه الآية (وأطراف النهار) أي في طرفي نصفيه أي في الوقت الذي يجمع الطرفين وهو وقت الزوال فهو نهاية للنصف الاول وبداية للنصف الثاني والمراد صلاة الظهر لان الظهر في آخر طرف النهار الاول وأول طرف النهار الآخر وقيل ان الاشارة الى صلاة الظهر هي بقوله وقبل غروبها لانها هي وصلاة العصر قبل غروبها وقيل المراد بالآية صلاة التطوع ولو قيل ليس في الآية اشارة الى الصلاة بل المراد التسبيح في هذه الاوقات أي قول القائل سبحان الله لم يكن ذلك بعيدا من الصواب والتسبيح وان كان يطلق على الصلاة لكنه مجاز والحقيقة أولى الا لقرينة تصرف ذلك الى المعنى المجازي وجمع الاطراف وهما طرفان لأمن الالتباس (لعلك ترضى) أي سبح في

في أن الروح هي النفس أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم فهي اما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء قال كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسما خاصا فاذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار اما مصطارا أو خمرا ولا يقال له ماء حينئذ الا على سبيل المجاز وكذا لا يقال للنفس روح الا على هذا النحو وكذا لا يقال للروح نفس الا باعتبار ما تؤول اليه فحاصل ما نقول ان الروح هي

أصل النفس ومادتها والنفس مركبة منها أو من اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه وهذا معنى حسن والله اعلم قلت وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها وصنفوا في ذلك كتبا ومن احسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده في كتاب سمعناه في الروح (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا) يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فيما أوحاه اليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد قال ابن مسعود رضي الله عنه يطرق الناس ريح حمراء يعني في آخر الزمان من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ثم قرأ ابن مسعود ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك الآية ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر انه لو اجتمعت الانس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فان هذا أمر لا يستطاع وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له وقد روى محمد بن اسحق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت في نفر من اليهود جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له انا نأتيك بمثل ما جئتنا به فأنزل الله هذه الآية وفي هذا نظر لان هذه السورة مكية (وآخر)

هذه الاوقات رجاء ان تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك من الثواب هذا على قراءة الجمهور وقرئ ترضى بضم التاء أي يرضيك ربك وتعطى ما يرضيك (ولا تمدن) أي لا تطل نظر (عينيك) بطريق الرغبة والميل (الى ما متعنا به) أي تلذذنا والامتاع والتمتيع معناه الايقاع في اللذة (أزواجا منهم) مد النظر تطويله وان لا يكاد يرده استحسانا للمنظور اليه واعجابا به وفيه ان النظر الغير الممدود معفو عنه وذلك ان يبادر الشئ بالنظر ثم يغض الطرف ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في ملابسهم ومراكبهم حتى قال الحسن لا تنظروا الى دقدقة(١) هماليج(٢) الفسقة ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب وهذا لانهم اتخذوا هذه الاشياء لعيون النظارة فالناظر اليها محصل لغرضهم ومغر لهم على اتخاذها وقد تقدم تفسير هذه الآية في الحجر (زهرة الحياة الدنيا) أي زينتها وبهجتها بالنبات وغيره وقرئ زهرة بفتح الهاء وهي نور النبات وذكر السمين في نصبه تسعة أوجه وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا قالوا وما زهرة الدنيا يا رسول الله قال بركات الارض (لنفتنهم فيه) أي لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالة ابتلاء منا لهم كقوله انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم وقيل لنعذبهم في الآخرة وقيل لنشدد عليهم في التكليف وقيل أزيدلهم النعمة فيزيدوا بذلك كفرا وطغيانا (ورزق ربك) أي ثواب الله في الجنة وما ادخر لصالحي عباده في الآخرة (خير) مما رزقهم في الدنيا على كل حال وأيضا فان ذلك لا ينقطع وهذا ينقطع وهو معنى (وأبقى) وقيل المراد بهذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من الغنائم ونحوها والاول أولى لان الخيرية المحققة والدوام الذي لا ينقطع انما يتحققان في الرزق الاخروي لا الدنيوي وان كان حلالا طيبا قال تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق عن أبي رافع قال أضاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضيفا ولم يكن عند النبي ما يصلحه فارسلني الى رجل من اليهود أن بعنا أو أسلفنا دقيقا الى هلال رجب فقال لا الا برهن فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته فقال أما والله اني لأمين في السماء أمين في الارض ولئن أسلفني أو باعني لاديت اليه اذهب بدرعي الحديد فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية كأنه يعزيه عن الدنيا أخرجه البزار وأبو يعلى وابن أبي شيبة وغيرهم

(١) الدقدقة حكاية أصوات حوافر الدواب مثل الطقطقة اه صحاح (٢) الهملاج من البراذين واحد الهماليج ومشيها الهملجة فارسي معرب اه صحاح

وسياقها كلها مع قريش واليهود انما اجتمعوا به في المدينة فالله أعلم وقوله ولقد صرفنا للناس الآية أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه ومع هذا فأبى أكثر الناس الا كفورا أي جحودا للحق وردا للصواب (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا) قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ١٠٥ يونس بن بكير حدثنا محمد بن اسحق حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس ان عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلا من بني عبد الدار وأبا البختري أخا بني أسد والاسود بن المطلب بن أسد وزمعة ابن الاسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص ابن وائل ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين اجتمعوا أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن انه قد بدا لهم في أمره بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا قد بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي من قبيح الا وقد جئته

فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وان كنت انما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وانزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني

(وأمر أهلك) المراد بهم أهل بيته وقيل جميع امته ولم يذكر ههنا الامر من الله له (بالصلاة) بل قصر الامر على اهله اما لكون اقامته لها امرا معلوما او لكون امره بها قد تقدم في قوله وسبح بحمد ربك الخ او لكون امره بالامر لاهله امرا له ولهذا قال (واصطبر عليها) اى اصبر على محافظة الصلاة فانها تنهى عن الفحشاء والمنكر ولا تشتغل عنها بشيء من امور الدنيا وقيل اصبر عليها فعلا فان الوعظ بلسان الفعل ابلغ منه بلسان القول اخرج ابن النجار وابن عساكر وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري قال لما نزلت هذه الآية كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجيء الى باب علي صلاة الغداة ثمانية اشهر يقول الصلاة رحمكم الله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وأخرج أحمد والبيهقي وغيرهما عن ثابت قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلوا صلوا قال ثابت وكانت الانبياء اذا نزل بهم امر فزعوا الى الصلاة وعن عبد الله بن سلام قال السيوطي بسند صحيح قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة وقرأ وأمر أهلك بالصلاة الآية وكان عروة بن الزبير اذا رأى ما عند السلاطين قرأ هذه الآية ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله وكان بكر بن عبد الله المزني اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله وعن مالك ابن دينار مثله (لا نسألك رزقا) أي لا نكلفك ان ترزق نفسك ولا أهلك وتشتغل بذلك عن الصلاة (نحن نرزقك) ونرزقهم (والعاقبة) المحمودة وهي الجنة (للتقوى) أي لاهل التقوى على حذف المضاف كما قال الاخفش وفيه دليل على ان التقوى هي ملاك الامر وعليها تدور دوائر الخير (وقالوا) أي قال كفار مكة (لولا) هلا (يأتينا) محمد صلى الله عليه وآله وسلم (بآية من) آيات (ربه) كما كان يأتي بها من قبله من الانبياء وذلك كالناقة والعصا أو المعنى هلا يأتينا بآية من الآيات التي قد اقترحناها عليه فاجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله (أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى) يريد بها التوراة والانجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة وفيها التصريح بنبوته والتبشير به وذلك يكفي فان هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها وصحتها وفيها ما يدفع انكارهم لنبوته ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم وقيل المعنى أولم يأتهم اهلاك الامم الذين

كفروا واقترحوا الآيات فما يؤمنهم ان اتتهم الآيات التي اقترحوها أن يكون حالهم كحالهم وقيل المراد أولم تأتهم آية هي من الآيات وأعظمها في باب الاعجاز يعني القرآن فانه برهان لما في سائر الكتب المنزلة فالواو عاطفة على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل ألم تأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما في الصحف الاولى تقريرا لاتيانه وايذانا بانه من الوضوح بحيث لا يأتي معه انكار أصلا قرئ أولم يأتهم بالتحتية لان معنى البينة البيان والبرهان (ولو أنا أهلكناهم) مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها (بعذاب من قبله) أي من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو من قبل اتيان البينة بنزول القرآن (لقالوا) يوم القيامة أي لكان لهم ان يحتجوا ويتعللوا بقولهم (ربنا لولا) هلا (ارسلت الينا رسولا) في الدنيا (فنتبع آياتك) اللاتي يأتي بها الرسول (من قبل ان نذل) بالعذاب والهوان في الدنيا (ونخزى) بدخول النار وقرئ نذل ونخزى على البناء للمفعول وقد قطع الله معذرة هؤلاء الكفرة بارسال الرسول اليهم قبل اهلاكهم ولهذا حكى الله عنهم انهم قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ (قل) لهم يا محمد (كل) أي كل واحد منا ومنكم (متربص) أي منتظر لما يؤول اليه الامر (فتربصوا) أنتم (فستعلمون) عن قريب (من أصحاب الصراط السوي) أي الطريق المستقيم (ومن اهتدى) من الضلالة ونزع عن الغواية نحن أم أنتم قال النحاس والفراء تذهب الى ان معنى من أصحاب الصراط السوي من لم يضل ومعنى من اهتدى من ضل ثم اهتدى ومن في الموضعين استفهامية أو موصولة

*(سورة الانبياء مكية قال القرطبي في قول الجميع
وهي مائة واحدى أو اثنتا عشرة آية)*

وسميت بذلك لذكر قصص الانبياء فيها وأخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال بنو اسرائيل والكهف ومريم والانبياء من العتاق الاول وهن من تلادي وعن عامر بن ربيعة انه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاء الرجل فقال اني استقطعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واديا ما في ديار العرب واد أفضل منه وقد أردت ان أقطع لك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر لا حاجة لي في قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا بهذه السورة *(بسم

ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد فان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت انه ليس أحد من الناس اضيق منا بلادا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها انهارا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل فان صنعت

ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وانه بعثك رسولا كما تقول فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت انما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم قالوا فان لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك ان يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وتسأله فيجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي فانك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضل منزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بفاعل ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت اليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه على اصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم قالوا فأسقط السماء كما زعمت ان ربك ان شاء فعل ذلك فانا لن نؤمن لك الا ان تفعل فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الى الله ان شاء فعل بكم ذلك فقالوا يا محمد أما علم ربك انا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيقدم اليك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا اذا لم نقبل منك ما جئتنا به فقد بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وانا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا فقد أعذرنا اليك يا محمد أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا وقال قائلهم نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله وقال قائلهم لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة ابنة

عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ثم سألوك ان تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب فوالله لا أومن بك ابدا حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه وانا انظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك انك كما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت اني لا أصدقك ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا أسفا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم اياه وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي عن ابن اسحق حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس فذكر مثله سواء وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم انهم يسألون ذلك استرشادا لأجيبوا اليه ولكن علم انهم انما يطلبون ذلك كفرا وعنادا فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان شئت أعطيناهم ما سألوا فان كفروا اعذبتهم عذابا لا اعذبه أحدا من العالمين وان شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضا عند قوله تعالى وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا وقال تعالى وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وقوله تعالى حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الينبوع العين الجارية سألوه ان يجري لهم عيونا معينا في أرض الحجاز ههنا وههنا وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ولاجابهم الى جميع ما سألوا وطلبوا ولكن علم انهم لا يهتدون كما قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم وقال تعالى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الآية وقوله تعالى أو تسقط السماء كما زعمت أي انك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهي وتدلى أطرافها فعجل ذلك في الدنيا واسقطها كسفا أي قطعا كقولهم اللهم ان كان هذا هو الحق من

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب للناس حسابهم) يقال قرب الشيء واقترب قال الزجاج المعنى اقترب لهم وقت حسابهم أي القيامة كما في قوله اقتربت الساعة وتقديم للناس على الحساب لادخال الروعة ومعنى اقتراب الحساب دنوه منهم لانه في كل ساعة أقرب اليهم من الساعة التي قبلها وقيل لان كل ما هو آت قريب وانما البعيد ما انقرض ومضى وموت كل انسان قيام ساعته والقيامة أيضا قريبة بالاضافة الى ما مضى من الزمان فما بقي من الدنيا أقل مما مضى والمراد بالناس العموم وقيل المشركون مطلقا وقيل كفار مكة وعلى هذا الوجه قيل المراد بالحساب عذابهم يوم بدر (وهم في غفلة) عن حسابهم وعما يفعل بهم في الدنيا (معرضون) عن الآخرة غير متأهبين لما يجب عليهم من الايمان بالله والقيام بفرائضه والانزجار عن مناهيه أخرج النسائي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال في الدنيا وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من أمر الدنيا (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) تعليل لما قبله ومن لابتداء الغاية أو زائدة وقد استدل بوصف الذكر بكونه محدثا على ان لفظ القرآن محدث لان الذكر هنا هو القرآن وأجيب بانه لا نزاع في حدوث المركب من الاصوات والحروف لانه متجدد في النزول ولا خلاف في حدوثها فالمعنى محدث تنزيله وانما النزاع في الكلام النفسي وهذه المسئلة اعني قدم القرآن وحدوثه قد ابتلى بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية وجرى للامام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده والقصة أشهر من ان تذكر ومن أحب الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الامام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الاسلام الذهبي ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الاجابة الى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن الابتداع ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك الى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث بل جاوزوا ذلك الى تكفير من قال لفظي بالقرآن مخلوق بل جاوزوا ذلك الى تكفير من وقف وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وارجاع العلم الى علام الغيوب فانه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة

عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا أسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم وأما نبي الرحمة ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي صلى الله عليه وسلم وقال له ما قال أسلم إسلاما تاما وأناب إلى الله عز وجل وقوله تعالى أو يكون لك بيت من زخرف قال ابن عباس ومجاهد وقتادة هو الذهب وكذلك هو في قراءة ابن مسعود أو يكون لك بيت من ذهب أو ترقى في السماء أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قال مجاهد أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه وقوله تعالى قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا أي سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألتم وإن شاء لم يجبكم وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وقد فعلت ذلك وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا علي بن إسحق حدثنا ابن المبارك حدثنا يحيى ابن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال عرض علي ربي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما أو نحو ذلك فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك ورواه الترمذي في الزهد عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به وقال هذا حديث حسن وعلي بن يزيد يضعف في الحديث (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) يقول تعالى وما منع الناس أي أكثرهم أن يؤمنوا ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلا كما قال تعالى أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم وقال تعالى ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات

والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام ولا نقل عنهم كلمة في ذلك فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه والتمسك بأذيال الوقف وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله والأمر لله سبحانه وقيل معنى الآية أن الله يحدث الأمر بعد الأمر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الأحكام وغيرها من الأمور والوقائع وهذا القول كالأول وقيل الذكر المحدث ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبينه سوى ما في القرآن والأول أولى (إلا استمعوه) من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو غيره ممن يتلوه استثناء مفرغ (وهم يلعبون) جملة حالية أي لا يعتبرون ولا يتعظون والمعنى يستهزؤن به (لاهية قلوبهم) حال أيضا وهما حالان مترادفان أو متداخلان قاله الزمخشري والمعنى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في حال الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلب (وأسروا النجوى الذين ظلموا) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة أثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجي وهو لا يكون إلا سرا فمعناه المبالغة في الإخفاء بحيث لم يفهم أحد تناجيهم وسارتهم تفصيلا ولا إجمالا وإنما قالوا ذلك سرا لأنهم كانوا في مبادي الشر والعناد وتمهيد مقدمات الكيد والفساد وقد اختلف في محل الموصول على أقوال قال أبو عبيدة أسروا هنا من الأضداد أي بمعنى أخفوا كلامهم أو بمعنى أظهروه وأعلنوه (هل هذا) بدل من النجوى مفسر لها أو مفعول لمضمر وقيل بمعنى النجوى أي قالوا ما هذا الرسول (إلا بشر مثلكم) لا يتميز عنكم بشيء وما يأتي به سحر (أفتأتون السحر) أي إذا كان بشرا مثلكم وكان الذي جاء به سحرا فكيف تجيبونه إليه وتتبعونه (وأنتم تبصرون) حال من فاعل تأتون مقرر للإنكار ومؤكد للاستبعاد وقالوا ما ذكرناه على ما ثبت في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون إلا ملكا وأن كل ما يظهر على يد البشر يكون سحرا فأطلع الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ما تناجوا به وأمره أن يجيب عليهم فقال (قل ربي يعلم القول في السماء والأرض) أي لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما وفي مصاحف أهل الكوفة قال ربي أي قال محمد ربي يعلم فهو عالم بما تناجيتم به قيل الأولى أولى لأنهم أسروا هذا القول فأطلع الله رسوله صلى الله عليه

فقالوا أبشر يهدوننا الآية وقال فرعون وملؤه أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون وكذلك قالت الامم لرسلهم ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين والآيات في هذا كثيرة ثم قال تعالى منبها على لطفه ورحمته بعباده انه يبعث اليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته ولو بعث الى البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الاخذ عنه كما قال تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم وقال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم وقال تعالى كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ولهذا قال ههنا قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين أي كما أنتم فيها لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا أي من جنسهم ولما كنتم أنتم بشرا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفا ورحمة (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يقول تعالى مرشدا نبيه صلى الله عليه وسلم الى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به انه شاهد على وعليكم عالم بما جئتكم به فلو كنت كاذبا عليه لانتقم مني اشد الانتقام كما قال تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين وقوله انه كان بعباده خبيرا بصيرا أي عليم بهم بمن يستحق الانعام والاحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والاضلال والازاغة ولهذا قال (ومن يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) يقول تعالى مخبرا

عليه وآله وسلم على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا قال النحاس والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة آيتين (وهو السميع) لكل ما يسمع (العليم) بكل معلوم فيدخل في ذلك ما اسروا دخولا أوليا (بل) للانتقال من غرض الى غرض آخر في المواضع الثلاثة وهي بل قالوا او بل افتراه وبل هو شاعر كما ذكره ابن مالك في شرح كافيته من انها لا تقع في القرآن الا على هذا الوجه وسبقه اليه صاحب الوسيط ووافقه ابن الحاجب وهو الحق (قالوا) الذي يأتي به من القرآن (اضغاث احلام) أي اخلاط رآها في النوم قاله الزجاج وقال القتيبي هي الرؤيا الكاذبة وقال اليزيدي الاضغاث مالم يكن له تأويل قال قتادة أي دقل الاحلام انما هي رؤيا رآها يعني أباطيل وأهاويل رآها في النوم (بل افتراه) حكى سبحانه اضرابهم عن قولهم اضغاث أحلام أي بل قالوا افتراه واختلقه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل ثم حكى عنهم انهم اضربوا عن هذا وقالوا (بل هو شاعر) وما أتى به من جنس الشعر أي كلام يخيل للسامع معاني لا حقيقة لها ويرغبه فيها هذا هو المراد بالشعر هنا وفي هذا الاضراب منهم والتلون والتردد أعظم دليل على انهم جاهلون بحقيقة ما جاء به لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه أو كانوا قد علموا انه حق وانه من عند الله ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان ثم بعد هذا كله قالوا (فليأتنا بآية) وهذا جواب شرط محذوف أي ان لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من عند الله فليأتنا بآية نا قائنا (كما أرسل الاولون) أي مثل ما أرسل موسى بالعصا وغيرها وصالح بالناقة وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت لان الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي ولو علم الله سبحانه انهم يؤمنون اذا أعطاهم ما يقترحونه لأعطاهم ذلك كما قال ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون قال الزجاج اقترحوا الآيات التي لا يقع معها امهال فقال الله مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) أي قبل مشركي مكة (من) أهل (قرية أهلكناها) أي أهلكنا أهلها بتكذيبهم أو أهلكناها باهلاك أهلها وفيه بيان ان سنة الله في الامم السالفة ان المقترحين اذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ومن مزيدة للتوكيد والمعنى ما آمنت قرية من القرى التي أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء فكيف نعطيهم ما اقترحوا وهم أسوة من قبلهم (أفهم يؤمنون) الهمزة للتقريع

عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه وانه لا معقب له بانه من يهده فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه أي يهدونهم كما قال من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وقوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم قال الامام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا اسمعيل عن نفيع قال سمعت أنس بن مالك يقول قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم قال الذي امشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم وأخرجاه في الصحيحين وقال الامام أحمد أيضا حدثنا الوليد بن جميع القرشي عن أبيه عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد قال قام أبو ذر فقال يا بني غفار قولوا ولا تحلفوا فان الصادق

المصدوق حدثني ان الناس يحشرون على ثلاثة أفواج فوج راكبين طاعمين كاسين وفوج يمشون ويسعون وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم الى النار فقال قائل منهم هذان قد عرفناهما فما بال الذين يمشون ويسعون قال يلقي الله عز وجل الآفة على الظهر حتى لا يبقى ظهر حتى ان الرجل لتكون له الحديقة المعجبة فيعطيها بالشارف ذات القتب فلا يقدر عليها وقوله عميا أي لا يبصرون وبكما يعني لا ينطقون وصما لا يسمعون وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكما وعميا وصما عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج (١١٠) ما يحتاجون اليه مأواهم أي منقلبهم ومصيرهم جهنم كلما خبت قال ابن عباس سكنت وقال مجاهد طفئت زدناهم سعيرا أي لهبا ووهجا وجمرا كما قال فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا (ذلك جزاؤهم بانهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أولم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض قادر على ان يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا) يقول تعالى هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه لانهم كذبوا بآياتنا أي بأدلتنا وحججنا واستبعدوا وقوع البعث وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أي بالية نخرة أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أي بعد ما صرنا الى ما صرنا اليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الارض نعاد مرة ثانية فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بانه خالق السموات والارض فقدرته على اعادتهم أسهل من ذلك كما قال لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وقال أولم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى الآية وقال أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون الى آخر السورة وقال ههنا أولم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض قادر على ان يخلق مثلهم أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى ويعيدهم كما بدأهم وقوله وجعل لهم اجلا لا ريب فيه أي جعل لاعادتهم واقامتهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة مقدرة لا بد من انقضائها كما قال تعالى وما نؤخره الا لاجل معدود وقوله فأبى الظالمون أي بعد قيام الحجة عليهم الا كفورا الا تماديا في باطلهم وضلالهم (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لأمسكتم

والتوبيخ والمعنى ان لم تؤمن أمة من الامم المهلكة عند اعطاء ما اقترحوا فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا قال قتادة قال أهل مكة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان ما تقوله حقا ويسرك ان نؤمن فحول لنا الصفا ذهبا فأتاه جبريل فقال ان شئت كان الذي سألك قومك ولكنه ان كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا وان شئت استأنيت بقومك قال بل استأني بقومي فانزل الله ما آمنت قبلهم الآية ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هل هذا الا بشر مثلكم بقوله (وما أرسلنا) أي لم نرسل (قبلك) الى الامم السالفة (الا رجالا) من البشر مخصوصين من افراد جنسك متأهلين للاصطفاء والارسال ولم نرسل اليهم ملائكة كما قال سبحانه قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (نوحي اليهم) مستأنفة لبيان كيفية الارسال أو صفة لرجالا أي متصفين بصفة الايحاء اليهم وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ثم أمرهم الله بان يسألوا أهل الذكر ان كانوا يجهلون هذا فقال (فاسألوا أهل الذكر) هم أهل الكتابين اليهود والنصارى (ان كنتم لا تعلمون) ان رسل الله من البشر فانهم لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه وان أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتقدير الكلام ان كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر وتوجيه الخطاب الى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة التكبر وقد استدل بالآية على ان التقليد جائز وهو خطأ ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة لا عن الرأي البحت وليس التقليد الا قبول قول الغير دون حجته والمقلد اذا سأل أهل الذكر عن كتاب الله وسنة رسوله لم يكن مقلدا قال الرازي ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر أهل القرآن وهو بعيد لانهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية في ان للعامي ان يرجع الى فتيا العلماء وفي ان للمجتهد ان يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لان هذه الآية خطاب مشافهة وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين انتهى وقد قدمنا في سورة النحل ان سياق هذه الآية الكريمة يفيد أن المراد بها السؤال الخاص وبه يظهر لك ان هذه الآية دليل الاتباع لا دليل التقليد فارجع اليه وقد أوضح الشوكاني هذا في رسائل بسيطة منها القول المفيد في حكم التقليد وادب الطلب ومنتهى الارب وغيرهما في

خشية الانفاق وكان الانسان قتورا) يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف فى خزائن الله لأمسكتم خشية الانفاق قال ابن عباس وقتادة أى الفقر أى خشية ان تذهبوها مع انها لا تفرغ ولا تنفد ابدا لان هذا من طباعكم وسجايا كم ولهذا قال وكان الانسان قتورا قال ابن عباس وقتادة أى بخيلا منوعا وقال الله تعالى أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا أى لو أن لهم نصيبا فى ملك الله لما أعطوا احدا شيأ ولا مقدار نقير والله تعالى يصف الانسان من حيث هو الا من وفقه الله وهداه فان البخل والجزع والهلع صفة له كما قال تعالى ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز ويدل هذا على كرمه وجوده واحسانه وقد جاء فى الصحيحين يد الله ملآى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فانه لم يغض ما فى يمينه (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا فأراد أن يستفزهم من الارض فأغرقناه ومن معه جميعا وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) يخبر تعالى انه بعث موسى بتسع آيات بينات وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله الى فرعون وهى العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات قاله ابن عباس وقال محمد بن كعب هى اليد والعصا والخمس فى الاعراف والطمس والحجر وقال ابن عباس أيضا ومجاهد وعكرمة والشعبى وقتادة هى يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى وجعل الحسن البصرى السنين ونقص الثمرات واحدة وعنده ان التاسعة هى تلقف العصا ما يأفكون فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين أى ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا وما نجعت فيهم فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى آخرها لما استجابوا ولا آمنوا الا ان يشاء الله كما قال فرعون لموسى

غيرها ثم لما فرغ سبحانه عن الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) أى ان الرسل أسوة لسائر أفراد بنى آدم فى حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون والجسد جسم الانسان والجنة والملائكة قال الزجاج هو واحد ينبئ عن جماعة أى وما جعلناهم ذوى أجساد غير طاعمين (وما كانوا خالدين) بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر فى الدنيا وقد كانوا يعتقدون ان الرسل لا يموتون فاجاب الله عليهم بهذا (ثم صدقناهم الوعد) أى أوحينا اليهم ما أوحينا ثم أنجزنا وعدهم الذى وعدناهم بانجائهم واهلاك من كذبهم ولذا قال سبحانه (فأنجيناهم ومن نشاء) من عبادنا المؤمنين الذين صدقوهم والمراد انجاؤهم من العذاب واهلاك من كفر بالعذاب الدنيوى (وأهلكنا المسرفين) أى المجاوزين للحد فى الكفر والمعاصى وهم المشركون (لقد أنزلنا اليكم) يا معشر قريش (كتابا) عظيم الشان نير البرهان يعنى القرآن (فيه ذكركم) كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن الذى ذكر فى صدر السورة اعراضهم عما يأتيهم منه والمراد بالذكر هنا الشرف أى فيه شرفكم قاله ابن عباس كقوله وانه لذكر لك ولقومك أى فيه ما يوجب الثناء عليكم لكونه بلسانكم نازلا بين أظهركم على لسان رسول منكم واشتهاره سبب لاشتهاركم وجعل ذلك فيه مبالغة فى سببيته له وقيل أى ذكر أمر دينكم وأحكام شرعكم وما تصيرون اليه من ثواب أو عقاب وقيل فيه حديثكم قاله مجاهد والحسن وقيل مكارم أخلاقكم وقيل صيتكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد وقيل فيه موعظتكم قال أبو السعود وهو الانسب بسياق النظم الكريم وسياقه فان قوله (أفلا تعقلون) انكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى الا تتفكرون فلا تعقلون ان الامر كذلك أو لا تعقلون شيأ من الاشياء التى من جملتها ما ذكر ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الامم المكذبة فقال (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) كم هى الخبرية المفيدة للتكثير والقصم كسر الشئ ودقه يقال قصمت ظهر فلان اذا كسرته واقتصمت سنه اذا انكسرت والمعنى هنا الاهلاك والعذاب وأما الفصم بالفاء فهو

وقد شاهده منه ماشاهد من هذه الآيات قال اني لأظنك ياموسى مسحورا قيل بمعنى ساحر والله تعالى أعلم فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المراد ههنا وهي المعنية في قوله تعالى وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى لاتخف الى قوله في تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين فذكرها تين الآيتين العصا واليد وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة منها ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه ومنها تظليلهم بالغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك مما أوتوه

بنو اسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا فأما الحديث الذي رواه الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا شعبة عن عمرو ابن مرة قال سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال قال يهودي لصاحبه اذهب بنا الى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقال لاتقل له نبي فانه لو سمعك لصارت له أربع أعين فسألاه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاتشركوا بالله شيأ ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببريء الى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة أو قال لاتفروا من الزحف شعبة الشاك وأنتم يا يهود عليكم خاصة أن لاتعدوا في السبت فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد أنك نبي قال فما يمنعكما ان تتبعاني قالا لان داود عليه السلام دعا ان لايزال من ذريته نبي وانا نخشى ان اسلمنا ان تقتلنا يهود فهذا الحديث رواه هكذا الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير في تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج به وقال الترمذي حسن صحيح وهو حديث مشكل وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء وقد تكلموا فيه ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فانها وصايا في التوراة لاتعلق لها بقيام الحجة على فرعون والله أعلم ولهذا قال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر أي حججا وأدلة على صدق ماجئتك به واني لأظنك يافرعون مثبورا أي هالكا قاله مجاهد وقتادة وقال ابن عباس ملعونا وقال أيضا هو والضحاك مثبورا أي مغلوبا والهالك كما قال مجاهد يشمل هذا كله

الصدع في الشيء من غير بينونة أي وكم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين أي كافرين بالله مكذبين بآياته والظلم في الأصل وضع الشيء في غير موضعه وهم وضعوا الكفر في موضع الايمان قال ابن عباس بعث الله نبيا من حمير يقال له شعيب فوثب اليه عبد فضربه بعصا فسار اليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شيء وفيهم أنزل الله وكم قصمنا الى قوله خامدين وعن الكلبي في الآية قال هي حضور (١) بني ازد باليمن فيكون التكثير باعتبار أفراد تلك القرية (وأنشأنا بعدها) أي أوجدنا وأحدثنا بعد اهلاك أهلها (قوما آخرين) ليسوا منهم (فلما أحسوا بأسنا) أي أدركوا وشعروا ورأوا عذابنا بحاسة البصر وقال الاخفش خافوا وتوقعوا والبأس العذاب الشديد (اذا هم منها يركضون) أي يسرعون هاربين ويهربون مسرعين من قريتهم لما رأوا مقدمة العذاب أو من بأسنا لانه في معنى النقمة والبأساء فأنث الضمير حملا على المعنى ومن على الاول لابتداء الغاية وللتعليل على الثاني والركض الفرار والهرب والانهزام وأصله من ركض الرجل الدابة برجليه يقال ركض الفرس اذا كده بساقيه ثم كثر حتى قيل ركض الفرس اذا عدا ومنه اركض برجلك والمعنى انهم يهربون منها راكضين دوابهم فقيل لهم (لاتركضوا) أي لاتهربوا قيل ان الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم وقيل ان القائل لهم ذلك من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم (وارجعوا الى ما أترفتم) يعني ما تنعمتم (فيه) من الدنيا ولين العيش يعني الى نعمكم التي كانت سبب بطركم وكفركم والمترف المنعم يقال أترف فلان أي وسع عليه في معاشه وقل فيه همه وقال سعيد بن جبير ارجعوا الى دوركم وأموالكم (ومساكنكم) التي تسكنونها وتفتخرون بها (لعلكم تسئلون) أي تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم وقيل المعنى لعلكم تسئلون عما نزل بكم وجرى عليكم من العقوبة فتخبرون السائل عن علم ومشاهدة وقيل لعلكم تسئلون أن تؤمنوا كما كنتم تسئلون ذلك قبل نزول العذاب بكم أو تسئلون شيأ من دنياكم على العادة فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم فانكم أهل نعمة وثروة وهذا كله توبيخ وتهكم بهم وقيل غير ذلك قال المفسرون وأهل الاخبار ان المراد بهذه الآية أهل حضور من اليمن وكان أهلها عربا وكان الله سبحانه قد بعث اليهم نبيا اسمه شعيب بن مهدم وقبره بجبل من جبال

---

(١) حضور بوزن شكور قرية كانت باليمن اه خازن

جبال اليمن يقال له صنين وبينه وبين حضور نحو بريد قالوا وليس هو شعيبا صاحب مدين قلت وآثار القبر بجبل صنين موجودة والعامة من أهل تلك الناحية يزعمون انه قبر قدم بن قادم فلما كذبوه وقتلوه اتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف ونادى مناد من جو السماء يالثارات الانبياء فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم و(قالوا) لما قالت لهم الملائكة لا تركضوا (ياويلنا) أي ياهلا كنا (انا كنا ظالمين) لانفسنا مستوجبين العذاب بما قدمنا فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب وقالوا ذلك على سبيل الندامة ولم ينفعهم الندم (فمازالت تلك) أي هذه الجملة والكلمة (دعواهم) هي قولهم ياويلنا أي يدعون بها ويرددونها (حتى جعلناهم حصيدا) بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل والحصيد هنا بمعنى المحصود ومعنى (خامدين) انهم ميتون من خمدت النار وهمدت اذا طفئت فشبه خمود الحياة بخمود النار كما يقال لمن مات قد طفئ والخمود عبارة عن سكون لهبها مع بقاء الجمر والهمود عبارة عن ذهابها بالكلية حتى تصير رمادا فالاحسن أن يكون المراد بالخمود هنا الهمود فانه أبلغ معنى والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصاد والخمود كقولك جعلته حلوا حامضا أي جعلته جامعا للطعمين قال مجاهد بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا الى مساكنهم أخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال حدثني رجل من الجزريين قال كان باليمن قريتان يقال لاحداهما حضور وللاخرى قلابة فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم فلما أترفوا بعث الله اليهم نبيا فدعاهم فقتلوه فالقى الله في قلب بختنصر أن يغزوهم فجهز لهم جيشا فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين فجهز اليهم جيشا آخر أكثف من الاول فهزموهم أيضا فلما رأى بختنصر غزاهم هو بنفسه فقاتلهم حتى خرجوا منها يركضون فسمعوا مناديا يقول لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم فرجعوا فسمعوا صوت مناد يقول يالثارات النبي فقتلوا بالسيف فهي التي قال الله وكم قصمنا من قرية الى قوله خامدين قلت وقرى حضور معروفة الآن بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد في جهة الغرب منها (وماخلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين) أي لم نخلقهما عبثا ولا باطلا بل للتنبيه على ان لهما خالقا قادرا يجب امتثال أمره واللعب هو فعل الشيء لا لغرض وفيه اشارة اجمالية الى تكوين العالم والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والارض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها

قال عبد الله بن الزبعرى

اذا جار الشيطان في سنن الغـ ـي ومن مال ميله مثبور

بمعنى هالك وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله علمت وروى ذلك عن علي بن أبي طالب ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون كما قال تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا الآية فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات انما هي ما تقدم ذكره من العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث فان هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه وأي مناسبة بين هذا وبين اقامة البراهين على فرعون وما جاء هذا الوهم الا من قبل عبد الله بن سلمة فان له بعض ما ينكر والله أعلم ولعل ذينك اليهوديين انما سألا عن العشر الكلمات فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات فحصل وهم في ذلك والله أعلم وقوله فاراد أن يستفزهم من الارض أي يجليهم منها ويزيلهم عنها فاغرقناه ومن معه جميعا وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الارض وفي هذا بشارة لمحمد صلى الله عليه وسلم بفتح مكة مع ان السورة مكية نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع فان أهل مكة هموا باخراج الرسول منها كما قال تعالى وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها الآيتين ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرما كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني اسرائيل مشارق الارض ومغاربها وأورثهم

بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال كذلك وأورثناها بني اسرائيل وقال ههنا وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا أي جميعكم انتم وعدوكم قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك لفيفا أي جميعا (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد انه بالحق نزل أي متضمنا للحق كما قال تعالى لكن الله يشهد بما أنزل اليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون أي متضمنا علم الله الذي أراد ان يطلعكم عليه من احكامه وأمره ونهيه

والمعنى ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو وانما سويناهما للفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من المنافع التي لا تعد ولا تحصى وليستدل بها على قدرة مدبرها وليجازي المحسن والمسيء على ما تقتضيه حكمتنا واللعب فعل يروق أوله ولا ثبات له ثم نزه ذاته عن سمات النقص فقال (لو أردنا أن نتخذ لهوا) اللهو ما يتلهى به تقول أهل نجد لهوت عنه ألهو لهيا والاصل لهوى من باب قعد على فعول وأهل العالية لهيت عنه ألهى من باب تعب ومعناه السلوان والترك ولهوت به لهوا من باب قتل أولعت به وتلهيت به أيضا قال الطرطوشي وأصل اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة وألهاني الشئ بالالف شغلني قيل اللهو هنا الزوجة والولد وقيل الزوجة فقط وقيل الولد فقط قال الجوهري قد يكنى باللهو عن الجماع ومنه قول الشاعر * وفيهن ملهى للصديق ومنظر * والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها وجواب لو قوله (لاتخذناه من لدنا) أي من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم ويستثنى نقيض التالي لينتج نقيض المقدم قال المفسرون أي من الولدان أو الحور العين أو الملائكة وفي هذا رد على من قال باضافة الصاحبة والولد الى الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقيل أراد الرد على من قال الاصنام أو الملائكة بنات الله وقال ابن قتيبة الآية رد على النصارى (ان كنا فاعلين) قال الفراء والمبرد والزجاج يجوز أن تكون ان للنفي كما ذكره المفسرون أي ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولدا ويجوز أن تكون للشرط أي ان كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا قال الفراء وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية (بل نقذف بالحق على الباطل) هذا اضراب عن اتخاذ اللهو أي دع ذلك الذي قالوا فانه كذب وباطل بل شأننا أن نرمي بالحق على الباطل وبالايمان على الكفر وقيل الحق قول لا اله الا الله وانه لا ولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولدا (فيدمغه) أي يقهره ويهلكه وأصل الدمغ شق الرأس حتى يبلغ الدماغ ومنه الدامغة قال الزجاج المعنى نذهبه ذهاب الصغار والاذلال وذلك ان أصله اصابة الدماغ بالضرب قيل أراد بالحق الحجة وبالباطل الشبهة وقيل الحق المواعظ والباطل المعاصي وقيل الباطل الشيطان وقيل كذبهم ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته (فاذا هو زاهق) أي زائل ذاهب وقيل هالك تالف والمعنى متقارب واذا هي الفجائية (ولكم الويل) يا معشر الكفار (مما تصفون) أي لكم العذاب في الآخرة بسبب وصفكم

وقوله وبالحق نزل أي وصل اليك يا محمد محفوظا محروسا لم يشب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه بل وصل اليك بالحق فانه نزل بشديد القوى الامين المكين المطاع في الملا الاعلى وقوله وما أرسلناك أي يا محمد الا مبشرا ونذيرا مبشرا لمن أطاعك من المؤمنين ونذيرا لمن عصاك من الكافرين وقوله وقرآنا فرقناه أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه فصلناه من اللوح المحفوظ الى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفرقا منجما على الوقائع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة قاله عكرمة عن ابن عباس وعن ابن عباس أيضا انه قرأ فرقناه بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبينا مفسرا ولهذا قال لتقرأه على الناس أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم اي على مكث أي مهل ونزلناه تنزيلا أي شيأ بعد شئ (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم من هذا القرآن العظيم آمنوا به أو لا تؤمنوا فهو حق في نفسه أي سواء آمنتم به أم لا أنزله الله ونوه بذكره في سالف الازمان في كتبه المنزلة على رسله ولهذا قال ان الذين أوتوا العلم من قبله أي من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه اذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون للاذقان جمع ذقن وهو أسفل الوجه سجدا أي لله عز وجل شكرا على ما أنعم به عليهم من جعله اياهم أهلا ان أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب ولهذا يقولون سبحان ربنا اي تعظيما وتوقيرا على قدرته التامة وانه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الانبياء المتقدمين عن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا قالوا سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا وقوله ويخرون للاذقان يبكون أي خضوعا لله عز وجل وايمانا وتصديقا بكتابه ورسوله ويزيدهم خشوعا أي ايمانا وتسليما كما قال والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم وقوله ويخرون عطف صفة على صفة لا عطف السجود على السجود كما قال الشاعر الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك

يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا) يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته بالرحمن ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن فانه ذو الاسماء الحسنى كما قال تعالى هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم الى ان قال له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والارض الآية وقد روى مكحول ان رجلا من المشركين سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول في سجوده يا رحمن يا رحيم فقال انه يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو اثنين

فانزل الله هذه الآية وكذا روى عن ابن عباس رواهما ابن جرير وقوله ولا تجهر بصلاتك الآية قال الامام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار بمكة ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال كان اذا صلى باصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به قال فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تجهر بصلاتك أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك وابتغ بين ذلك سبيلا أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن اياس به وكذا روى الضحاك عن ابن عباس وزاد فلما هاجر الى المدينة سقط ذلك يفعل أي ذلك شاء وقال محمد بن اسحق حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه فكان الرجل اذا أراد ان يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقا منهم فاذا رأى انهم قد عرفوا انه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع فان خفض صوته صلى الله عليه وسلم لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيأ فانزل الله ولا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ولا تخافت بها فلا يسمع من أراد ان يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرعوي الى بعض ما يسمع فينتفع به وابتغ بين ذلك سبيلا وهكذا قال عكرمة والحسن البصري وقتادة نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة وقال شعبة عن ابن أبي سليم عن الاسود بن هلال عن ابن مسعود ولم يخافت بها من أسمع أذنيه قال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن

وصفكم لله بما لا يجوز عليه من الصاحبة والولد وقيل الويل واد في جهنم وهو وعيد لقريش بان لهم من العذاب مثل الذي لأولئك ومن هي التعليلية وهذا أوجه وجيه وما مصدرية أو موصولة أو نكرة موصوفة (وله من في السموات والارض) عبيدا وملكا وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم والمنعم عليهم باصناف النعم فكيف يجوز أن يكون بعض مخلوقاته شريكا له يعبد كما يعبد وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها (ومن عنده) يعني الملائكة وفيه رد على القائلين بان الملائكة بنات الله وفي التعبير عنهم بكونهم عنده اثر ما عبر عنهم بمن في السموات اشارة الى تشريفهم وكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم وانهم عنده بمنزلة المقربين عند الملوك قال أبو السعود بطريق التمثيل وأقول أنا بل بطريق التحقيق كما هو ظاهر النظم القرآني ثم وصفهم بقوله (لا يستكبرون) أي لا يتعاظمون ولا يأنفون (عن عبادته) سبحانه والتذلل له (ولا يستحسرون) أي لا يعيون ولا يتعبون مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالاعياء والتعب يقال حسر البعير يحسر حسورا أعيى وكل واستحسر وتحسر مثله وحسرته أنا حسرا يتعدى ولا يتعدى قال أبو زيد لا يكلون وقال ابن الاعرابي لا يفشلون وقال ابن عباس لا يرجعون قال الزجاج معنى الآية ان هؤلاء الذين ذكرتم انهم أولاد الله عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها كقوله ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته وقيل المعنى لا ينقطعون عن عبادته وهذه المعاني متقاربة (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) أي ينزهون الله سبحانه دائما لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون وقيل يصلون الليل والنهار قال الزجاج مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء فكذلك تسبيحهم دائم أي ضروري فيهم جبلة وطبيعة وهذه الجملة اما مستأنفة وقع جوابا عما نشأ مما قبله أو حالية (أم اتخذوا آلهة من الارض) قال المفضل مقصود هذا الاستفهام الجحد أي لم يتخذوا آلهة تقدر على الاحياء والايجاد من العدم وأم هي المنقطعة والهمزة لانكار الوقوع قال المبرد ان أم هنا بمعنى هل أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الارض يحيون الموتى ولا يكون أم هنا بمعنى بل لان ذلك يوجب لهم انشاء الموتى الا ان يقدر أم مع الاستفهام فتكون أم المنقطعة فيصح المعنى (هم ينشرون) أي يبعثون الموتى والجملة مستأنفة أو صفة لآلهة وهذه الجملة هي التي يدور عليها الانكار والتجهيل لا نفس الاتخاذ فانه واقع منهم لا محالة

سلة بن علقمة عن محمد بن سيرين قال نبئت ان أبا بكر كان اذا صلى فقرأ خفض صوته وان عمر كان يرفع صوته فقيل لابى بكر لم تصنع هذا قال أناجى ربى عزوجل وقد علم حاجتى فقيل أحسنت وقيل لعمر لم تصنع هذا قال أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان قيل أحسنت فلما نزلت ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا قيل لابى بكر ارفع شيأ وقيل لعمر اخفض شيأ وقال أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس نزلت فى الدعاء وهكذا روى الثورى ومالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها انها نزلت فى الدعاء وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو عياض ومكحول وعروة بن الزبير وقال الثورى عن ابن عياش العامرى عن عبد الله ابن شداد قال كان اعرابى من بنى تميم اذا سلم النبى صلى الله عليه وسلم قال اللهم ارزقنى ابلا وولدا قال فنزلت هذه الآية ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها (قول آخر) قال ابن جرير حدثنا أبو السائب حدثنا حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها نزلت هذه الآية فى التشهد ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها وبه قال حفص عن اشعث بن سوار عن محمد ابن سيرين مثله قول آخر قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها قال لاتصل مرا آة للناس ولا تدعها مخافة الناس وقال الثورى عن منصور عن الحسن البصرى ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها قال لاتحسن علانيتها وتسئ سريرتها وكذا رواه عن عبد الرزاق عن معمر عن الحسن به وهشام عن عوف عنه به وسعيد عن وقتادة عنه كذلك قول آخر قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قوله وابتغ بين ذلك سبيلا قال أهل الكتاب يخافتون ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به ويصيحون هم به وراءه فنهاه ان يصيح كما يصيح هؤلاء وان يخافت كما يخافت القوم ثم كان السبيل الذى بين ذلك الذى سن له جبرائيل من الصلاة وقوله وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا لما اثبت تعالى لنفسه الكريمة الاسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص فقال وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك بل هو الله الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولم يكن له ولى من الذل أى ليس بذليل فيحتاج الى أن يكون له ولى أو وزير أو مشير بل هو تعالى خالق الاشياء وحده لاشريك له ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لاشريك له قال مجاهد فى قوله ولم يكن له ولى من الذل لم يحالف أحدا ولم يبتغ

والمعنى بل اتخذوا آلهة من الارض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى وليس الامر كذلك فان ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك وقرئ ينشرون من أنشره أى أحياه وقرئ بفتح الياء أى يحيون ولايموتون ثم ان الله سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدد الآلهة فقال (لو كان فيهما آلهة الا الله) أى لو كان فى السموات والارض آلهة معبودون غير الله والجمع ليس قيدا وانما عبر به مشاكلة لقوله أم اتخذوا آلهة وكذلك قوله فيهما ليس قيدا وانما عبر به لان هذا دليل اقناعى بحسب مايفهمه المخاطب وبحسب ماافرط منهم وهم انما اتخذوا آلهة فى الارض والسماء لافيما وراءهما كالملائكة الحافين من حول العرش قاله الحفناوى والصحيح ان الآية حجة قطعية الدلالة والقول بانها حجة اقناعية قول منكر بشع أى انكار وابشاع (لفسدتا) أى لبطلتا يعنى السموات والارض بما فيهما من المخلوقات وخرجتا عن نظامهما المشاهد وهلك من فيهما لوجود التمانع من الآلهة على العادة عند تعدد الحاكم من التمانع فى الشئ وعدم الاتفاق عليه لان كل أمر صدر عن الاثنين فاكثر لم يجر على النظام ويدل العقل على ذلك وذلك أنا لو قدرنا الهين لكان أحدهما اذا انفرد صح منه تحريك الجسم واذا انفرد الثانى صح منه تسكينه فاذا اجتمعا وجب ان يبقيا على ما كانا عليه حال الانفراد فعند الاجتماع يصح ان يحاول احدهما التحريك والآخر التسكين فاما ان يحصل المراد وهو محال واما ان يمتنعا وهو أيضا محال لانه يكون كل واحد منهما عاجزا فثبت ان القول بوجود الهين يوجب الفساد فكان القول به باطلا قاله الكرخى أقول الادلة القرآنية والحجج الفرقانية الدالة على توحيد الله تعالى تغنى عن البراهين الكلامية والمسائل العقلية الفلسفية فى هذا المرام وليس وراء بيان الله بيان ودونه خرط القتاد قال الرازى القول بوجود الهين يفضى الى المحال ثم ذكر دلائل ذلك وهذه حجة تامة فى مسئلة التوحيد والفساد لازم على كل التقديرات التى قدروها واذا وقفت على هذه عرفت ان جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة فى القرآن وكل من طعن فى دلالة التمانع فسر الآية بان المراد لو كان فى السماء والارض آلهة يقول بالهيتها عبدة الاصنام لزم فساد العالم لانها جمادات لاتقدر على تدبير العالم فلزم افساد العالم قالوا وهذا أولى لانه تعالى حكى عنهم فى قوله ام اتخذوا آلهة

نصر أحد وكبره تكبيرا أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا قال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا وهب أخبرني أبو صخر عن القرظي انه كان يقول في هذه الآية الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الآية قال ان اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولدا وقالت العرب لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك وقال الصابئون والمجوس لولا أولياء الله لذل فأنزل الله هذه الآية وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا وقال أيضا حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أهله هذه (١١٧) الآية الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا الآية الصغير من أهله والكبير قلت وقد جاء في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمى هذه الآية آية العز وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة والله أعلم وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا بشر بن سيحان البصري حدثنا حرب بن ميمون حدثنا موسى ابن عبيدة الزبيدي عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة قال خرجت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ويده في يدي أو يدي في يده فأتى على رجل رث الهيئة فقال أي فلان ما بلغ بك ما أرى قال السقم والضر يارسول الله قال ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر قال بلى ما يسرني ان شهدت بها معك بدرا أو أحدا قال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع قال فقال أبو هريرة يارسول الله اياي فعلمني قال فقل يا أبا هريرة توكلت على الحي الذي لا يموت الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا قال فأتى على رسول الله وقد حسنت حالي قال فقال لي مهيم قال قلت يارسول الله لم أزل أقول الكلمات التي علمتني اسناده ضعيف وفي متنه نكارة والله أعلم (آخر تفسير سورة سبحان ولله الحمد والمنه)

* (تفسير سورة الكهف وهي مكية) *

ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وانها عصمة من الدجال قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي اسحق قال سمعت البراء يقول قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فاذا ضبابة أو سحابة قد غشيته فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ فلان فانها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت في القرآن أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن

آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب ان يختص الدليل به قال علي القاري واما قول التفتازاني الآية حجة اقناعية فالمحققون كالغزالي وابن الهمام ما قنعوا بالاقناعية بل جعلوها من الحقائق القطعية بل قيل يكفر قائلها انتهى قال الكسائي وسيبويه والاخفش والزجاج وجمهور النحاة ان الا هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة للآلهة ولذلك ارتفع الاسم الذي بعدها وظهر فيه اعراب غير التي جاءت الا بمعناها وقال الفراء ان الا هنا بمعنى سوى ووجه الفساد ان كون اله آخر مع الله يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادرا على الاستبداد بالتصرف فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان أي تنزه عزوجل عما لا يليق به من ثبوت الشريك له وفيه ارشاد للعباد أن ينزهوا الرب سبحانه عما لا يليق به (لا يسئل عما يفعل) مستأنفة مبينة انه سبحانه لقوة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شئ من قضائه وقدره من اعزاز واذلال واسعاد واشقاء لانه الرب المالك للاعناق (وهم) أي العباد (يسئلون) عما يفعلون سؤال توبيخ وتقريع يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا وكذا لانهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشئ فعله لم فعلته وقيل ان المعنى انه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون قيل والمراد بذلك انه سبحانه بين لعباده ان من يسئل عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح لان يكون الها قال ابن عباس ما في الارض قوم أبغض الي من القدرية وما ذاك الا انهم لا يعلمون قدرة الله قال الله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (أم اتخذوا من دونه آلهة) أم بمعنى بل وفيه اضراب وانتقال من اظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق الى اظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم ولهذا قال (قل هاتوا برهانكم) على دعوى انها آلهة أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله ولا سبيل لهم الى شئ من ذلك لا من عقل ولا نقل لان دليل العقل قد مر بيانه وأما دليل النقل فقد أشار اليه بقوله (هذا ذكر من معي وذكر من قبلي) أي هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتي وذكر الامم السالفة وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم فأقيموا أنتم برهانكم وقيل المعنى هذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت قبلي فانظروا هل في واحد منها ان الله أمر

المصير كما تقدم في تفسير البقرة وقال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا هشام بن يحيى عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث قتادة به ولفظ الترمذي من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف وقال حسن صحيح طريق آخر قال الامام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن قتادة سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ العشر الاواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال ورواه مسلم أيضا والنسائي من حديث قتادة به وفي لفظ النسائي من قرأ عشر آيات من الكهف فذكره حديث آخر وقد رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن عبد الاعلى عن خالد عن شعبة عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من قرأ العشر الاواخر من سورة الكهف فانه عصمة له من الدجال فيحتمل ان سالما سمعه من ثوبان ومن أبي الدرداء وقال أحمد حدثنا حسين حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه الى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا ما بين السماء والارض انفرد به أحمد ولم يخرجوه وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره باسناد له غريب عن خالد بن سعيد بن أبي مريم عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه الى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين وهذا الحديث في رفعه نظر وأحسن أحواله الوقف وهكذا روى الامام سعيد بن منصور في سننه عن هشيم بن بشير عن أبي هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه انه قال من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق هكذا وقع موقوفا وكذا رواه الثوري عن أبي هاشم به من حديث أبي سعيد الخدري وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي بكر محمد بن المؤمل حدثنا الفضيل بن محمد الشعراني حدثنا نعيم بن حماد حدثنا هشيم حدثنا أبو هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه

باتخاذه اله سواه قال الزجاج قيل لهم هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم الها غير الله فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي الا توحيد الله وفيه تبكيت لهم متضمن لاثبات نقيض مدعاهم وقيل معنى الكلام الوعيد والتهديد أي افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء وقرئ ذكر من معي بالتنوين وكسر الميم أي هذا ذكر مما أنزل الي ومما هو معي وذكر من قبلي قاله الزجاج وقيل ذكر كائن من قبلي أي جئت بما جاءت به الانبياء من قبلي ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق فقال (بل أكثرهم لا يعلمون الحق) وهذا اضراب من جهة الله سبحانه غير داخل في الكلام الملقن وانتقال من تبكيتهم بطالبتهم بالبرهان الى بيان انه لا تؤثر فيهم المحاجة واقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل وقرئ الحق بالرفع على معنى هذا الحق أو هو الحق (فهم معرضون) تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون أي فهم لاجل هذا الجهل المستولي على أكثرهم معرضون عن قبول الحق وعن النظر الموصل اليه مستمرون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول فلا يتأملون حجة ولا يتدبرون في برهان ولا يتفكرون في دليل (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه) استئناف مقرر لما أجمل قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الالهية وأجمعت عليه الرسل وقرئ نوحي بالنون وبالياء (انه لا اله الا أنا) وفي هذا تقرير لامر التوحيد وتأكيد لما تقدم من قوله هذا ذكر من معي وختم الآية بالامر لعباده بعبادته فقال (فاعبدون) فقد اتضح لكم دليل العقل ودليل النقل وقامت عليكم حجة الله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) هؤلاء القائلون هم خزاعة وجهينة وبنو سلمة وبنو مليح فانهم قالوا الملائكة بنات الله وقيل هم اليهود ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولدا وقد قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت طائفة من العرب الملائكة بنات الله ثم نزه الله سبحانه عز وجل نفسه فقال (سبحانه) أي تنزيها له عن ذلك وهو يقول على ألسنة العباد ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال (بل عباد مكرمون) قرئ من الاكرام والتكريم أي ليسوا كما قالوا بل عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم مقربون عنده والعبودية تنافي الولادة بحسب المعتاد الذي لا يتخلف عند العرب من كون عبد الانسان لا يكون ولده أو بحسب قواعد الشرع من ان الانسان اذا ملك ولده عتق عليه والاول في تقرير انما قالنا ظاهر اذ الكلام

مع

وسلم انه قال من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين ثم قال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في تفسيره عن الحاكم ثم قال البيهقي ورواه يحيى بن كثير عن شعبة عن أبي هاشم باسناده ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الكهف كما نزلت كانت له نورا يوم القيامة وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي عن عبد الله بن مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهني عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرفوعا من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم الى ثمانية أيام من كل فتنة وان خرج الدجال عصم منه * (بسم الله الرحمن الرحيم) * (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا) قد تقدم في أول التفسير انه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الامور وخواتمها فانه المحمود على كل حال وله الحمد في الأولى والآخرة ولهذا حمد نفسه على انزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه فانه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الارض اذ اخرجهم به من الظلمات الى النور حيث جعله كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ بل يهدي الى صراط مستقيم واضحا بينا جليا نذيرا للكافرين بشيرا للمؤمنين ولهذا قال ولم يجعل له عوجا أي لم يجعل فيه اعوجاجا ولا زيغا ولا ميلا بل جعله معتدلا مستقيما ولهذا قال قيما أي مستقيما لينذر بأسا شديدا من لدنه أي لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ينذر بأسا شديدا عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الاخرى من لدنه أي من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ويبشر المؤمنين أي بهذا القرآن الذين صدقوا ايمانهم بالعمل الصالح ان لهم اجرا حسنا أي مثوبة عند الله جميلة ماكثين فيه في ثوابهم عند الله وهو الجنة خالدين فيه ابدا دائما لا زوال له ولا انقضاء وقوله وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا قال ابن اسحق وهم مشركو العرب في قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله ما لهم به من علم أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه من علم ولا لآبائهم أي لاسلافهم كبرت كلمة نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه كلمة وقيل على التعجب تقديره أعظم بكلمتهم كلمة كما تقول أكرم بزيد

مع جهال العرب وهم لا يعرفون قواعد الشرع قال قتادة قالت اليهود ان الله صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة فقال الله تكذيبا لهم بل عباد مكرمون أي الملائكة أكرمهم بعبادته واصطفاهم ووصفهم بصفات سبعة الاولى هذه والاخيرة ومن يقل منهم فهذه الضمائر كلها للملائكة (لا يسبقونه بالقول) وصفهم بصفة أخرى أي لا يقولون شيأ حتى يقوله أو يأمرهم به كذا قال ابن قتيبة وغيره وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم (وهم بأمره يعملون) أي هم العاملون بما يأمرهم الله به التابعون له المطيعون لربهم فلا يخالفونه قولا ولا عملا (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أي ما عملوا وما هم عاملون وقيل ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم أو يعلم ما بين أيديهم وهو الآخرة وما خلفهم وهو الدنيا والجملة تعليل لما قبلها ووجه التعليل انهم اذا علموا بانه عالم بما قدموا وأخروا لم يعملوا عملا ولا يقولوا قولا الا بأمره (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) أن يشفع الشافعون له وهو من رضي عنه وقيل هم أهل لا اله الا الله وقد ثبت في الصحيح ان الملائكة يشفعون في الدار الآخرة قال قتادة لاهل التوحيد وعن مجاهد نحوه وعن الحسن لمن قال لا اله الا الله وقال ابن عباس الذين ارتضاهم بشهادة ان لا اله الا الله وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا هذه الآية وقال شفاعتي لاهل الكبائر من أمتي (وهم من خشيته مشفقون) أي من خشيتهم منه والخشية الخوف مع التعظيم ولهذا خص به العلماء والاشفاق الخوف مع التوقع والاعتناء والحذر فان عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وان عدى بعلى فبالعكس أي لا يأمنون مكر الله بل هم خائفون وجلون (ومن يقل منهم) أي من الملائكة على سبيل الفرض لتحقق عصمتهم (اني اله من دونه) قال المفسرون عنى بهذا ابليس لانه لم يقل أحد من الملائكة اني اله الا ابليس وذلك على سبيل التسمح والتجوز اذ هو معترف بالعبودية وآيس من رحمة الله وكونه من الملائكة باعتبار انه كان مغمورا فيهم وقيل الضمير للخلائق مطلقا وقيل الاشارة الى جميع الانبياء (فذلك) القائل على سبيل الفرض والتقدير (نجزيه جهنم) بسبب هذا القول الذي قاله كما نجزي غيره من المجرمين (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزي الظالمين) أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم فكذلك نجزي الظالمين الواضعين الالهية والعبادة في غير موضعها والمراد بالظالمين المشركون (أولم ير الذين كفروا) الهمزة

رب لا قال بعض البصريين وقرأ ذلك بعض قراء مكة كبرت كلمة كما يقال عظم قولك وكبر شأنك والمعنى على قراءة الجمهور أعظم بهذا بتشنيع امالتهم واستعظام لافكهم ولهذا قال كبرت كلمة تخرج من أفواههم اى ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها الا كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال ان يقولون الا كذبا وقد ذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس قال بعثت قريش النضر بن الحرث وعقبة ابن أبي معيط الى احبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فانهم أهل الكتاب الاول وعندهم ما ليس عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا احبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا انكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا قال فقالت لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل والا فرجل متقول فروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الاول ما كان من أمرهم فانهم قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الارض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو فان أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه فان لم يخبركم فانه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم فاقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار يهود ان نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبركم غدا عما سألتم عنه ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة لا يحدث الله اليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته اياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل ويسألونك عن الروح قل الروح الآية (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا

للانكار بواو وتركها قراءتان سبعيتان والواو للعطف على مقدر والرؤية هي القلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا وحاصل ما ذكر من هنا الى يسبحون ستة أدلة على التوحيد وهذا تجهيل لهم بتقصيرهم في التدبر في الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية وكون جميع ما سواه مقهورا تحت ملكوته (أن السموات والارض كانتا رتقا) قال الاخفش انما قال كانتا دون كن لانهما صنفان أي جماعتا السموات والارض وبه قال الزمخشري وقال أبو البقاء الضمير يعود على الجنسين وقال الحوفي أراد الصنفين كما قال سبحانه ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا وقال الزجاج انما قال كانتا لانه يعبر عن السموات بلفظ الواحد لانها كانت سماء واحدة وكذلك الارضون والرتق السد ضد الفتق يقال رتقت الفتق أرتقه فارتتق أي التأم ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج يعني انهما كانا شيأ واحدا ملتزقين ملتصقين وقال رتقا ولم يقل رتقين لانه مصدر والتقدير كانتا ذواتي رتق وقيل مرتوقتين مسدودتين قال البيضاوي والكفرة وان لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظرا فان الفتق عارض مفتقر الى مؤثر واجب ابتداء أو بواسطة أو استنصارا من العلماء ومطالعة الكتب انتهى ومنعه الكاذروني وقال فيه نظر وتمكنهم هذا ممنوع ويجوز ان يكونا مخلوقين منفصلين بلا رتق وفتق فان استدل عليهما بان القرآن نص عليهما فنقول هذا كاف في اثباتهما ولا حاجة الى الدليل العقلي المذكور (ففتقناهما) أي ففصلناهما أي فصلنا بعضهما من بعض بالهواء فرفعنا السماء وأبقينا الارض مكانها والفتق الفصل بين الشيئين وهو من احسن البديع هنا حيث قابل الرتق بالفتق قيل كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها الله وجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت طبقة واحدة فجعلها سبع أرضين وعن ابن عباس قال فتقت السماء بالغيث وفتقت الارض بالنبات وقد أطال الكلام القرطبي في ذلك ونقل عن كعب الاحبار وغيره أحوال خلق الارض العليا والسفلى ولا يصار اليها الا أن يصح من ذلك شئ من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم (وجعلنا من الماء) أي خلقنا وأحيينا أو صيرنا بالماء الذي ننزله من السماء وينبع من الارض (كل شئ حي) فيشمل الحيوان والنبات والمعنى ان الماء سبب حياة كل شئ وقيل المراد بالماء هنا نطفة الرجل وبه قال أبو العالية وأكثر المفسرين وخرج هذا اللفظ مخرج الاغلب والاكثر وهذا احتجاج على المشركين بقدرة

الله

بهذا الحديث أسفا انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) يقول تعالى مسليا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الايمان وبعدهم عنه كما قال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وقال ولا تحزن عليهم وقال لعلك باخع نفسك ان لا يكونوا مؤمنين باخع أي مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث يعني القرآن اسفا يقول لا تهلك نفسك أسفا قال قتادة قاتل نفسك غضبا وحزنا عليهم وقال

مجاهد جزعا والمعنى متقارب أي لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ثم أخبر تعالى انه جعل الدنيا دارا فانية مزينة بزينة زائلة وانما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا قال قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا أي وانا لمصيروها بعد الزينة الى الخراب والدمار فنجعل كل شئ عليها هالكا صعيدا جرزا لا ينبت ولا ينتفع به كما قال العوفي عن ابن عباس في قوله وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا يقول يهلك كل شئ عليها ويبيد وقال مجاهد صعيدا جرزا بلقعا وقال قتادة الصعيد الارض التي ليس فيها شجر ولا نبات وقال ابن زيد الصعيد الارض التي ليس فيها شئ الا ترى الى قوله تعالى أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه انعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون وقال محمد بن اسحق وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا يعني الارض ان ما عليها لفان وبائد وان المرجع لالى الله فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) هذا اخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب

الله سبحانه وبديع صنعه وقد تقدم تفسير هذه الآية (أفلا يؤمنون) الهمزة للانكار عليهم حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية (وجعلنا في الارض رواسي) أي جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشئ اذا ثبت ورسخ يقال جبال راسية وراسيات ورواس (أن تميد بهم) الميد التحرك والدوران أي لئلا تتحرك وتدور بهم أو كراهة ذلك وقد تقدم تفسير ذلك في النحل مستوفى (وجعلنا فيها) أي في الرواسي أو في الارض وهو الظاهر (فجاجا) طرقا واسعة قال أبو عبيدة هي المسالك وقال الزجاج كل مخترق بين جبلين فهو فج و(سبلا) تفسير للفجاج لان الفج قد لا يكون طريقا نافذا مسلوكا (لعلهم يهتدون) الى مصالح معاشهم ومقاصدهم في الاسفار وما تدعو اليه حاجاتهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) عن أن يقع ويسقط على الارض كقوله ويمسك السماء أن تقع على الارض وقال الفراء محفوظا بالنجوم من الشيطان كقوله وحفظا من كل شيطان مارد وقيل محفوظا لا يحتاج الى عماد وقيل المراد بالمحفوظ هنا المرفوع وقيل محفوظا عن الشرك والمعاصي وقيل عن الهدم والنقض وقيل عن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم (وهم عن آياتها) أي الآيات الكائنة فيها الدالة على وجود الصانع ووحدته وتناهي قدرته وكمال حكمته واضاف الآيات الى السماء لانها مجعولة فيها وذلك كالشمس والقمر والنجوم وكيفية حركاتها في افلاكها ومطالعها ومغاربها (معرضون) أي لا يعتبرون بها فيها ولا يتفكرون فيما توجبه من الايمان (وهو الذي خلق) هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم الله به عليهم وذلك بانه خلق لهم (الليل) ليسكنوا فيه (والنهار) ليتصرفوا فيه في معايشهم (و) جعل (الشمس) آية النهار (والقمر) آية الليل ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه في سبحان (كل في فلك) أي مستدير كالطاحونة في السماء (يسبحون) في دوران أي يجرون قاله ابن عباس يعني كل واحد من الشمس والقمر والنجوم في وسط الفلك يسيرون بسرعة كالسابح في الماء قال ابن عباس فلك كفلكة المغزل يدورون في أبواب السماء كما تدور الفلكة في المغزل وعنه قال هو فلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب وكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه والجمع في الفعل باعتبار المطالع قال سيبويه انه لما أخبر عنهن بفعل من يعقل وجعلهن في الطاعة بمنزلة من يعقل جعل الضمير عنهن ضمير العقلاء ولم يقل يسبحن او تسبح وكذا قال الفراء وقال الكسائي انما قال يسبحون لانه رأس

الكهف على سبيل الاجمال والاختصار ثم بسطها بعد ذلك فقال أم حسبت يعني يا محمد ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا اى ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا فان خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى وانه على مايشاء قادر ولا يعجزه شئ أعجب من أخبار أصحاب الكهف كما قال ابن جريج عن مجاهد أم حسبت ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا يقول قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك وقال العوفي عن ابن عباس

يقول الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم وقال محمد بن اسحق ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ اليه هؤلاء الفتية المذكورون وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس هو واد قريب من ايلة وكذا قال عطية العوفي وقتادة وقال الضحاك أما الكهف فهو غار الوادي والرقيم اسم الوادي وقال مجاهد الرقيم كان بنيانهم ويقول بعضهم هو الوادي الذي فيه كهفهم وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله الرقيم قال يزعم كعب انها القرية وقال ابن جريج عن ابن عباس الرقيم الجبل الذي فيه الكهف وقال ابن اسحق عن عبد الله ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال اسم ذلك الجبل بنجلوس وقال ابن جريج أخبرني وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي ان اسم جبل الكهف بنجلوس واسم الكهف حيزم والكلب حمران وقال عبد الرزاق أنبأنا اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال القرآن أعلمه الا حنانا والاواه والرقيم وقال ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار انه سمع عكرمة يقول قال ابن عباس ما أدري ما الرقيم كتاب أم بنيان وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الرقيم الكتاب وقال سعيد بن جبير الرقيم لوح حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الرقيم الكتاب ثم قرأ كتاب مرقوم وهذا هو الظاهر من الآية وهو اختيار ابن جرير قال الرقيم فعيل من مرقوم كما يقال للمقتول قتيل وللمجروح جريح والله أعلم وقوله

الآية والفلك واحد أفلاك النجوم وأصل الكلمة من الدوران ومنه فلكة المغزل لاستدارتها والفلك مدار النجوم الذي يضمها وهو في كلام العرب كل شئ مستدير وقيل الفلك استدارة السماء وقيل الفلك ماء أو موج مكفوف دون السماء تجري فيه الكواكب وقال أهل الهيئة الافلاك اجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول وفي الرازي الفلك في كلام العرب كل شئ مستدير وجمعه أفلاك واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو استدارة هذه النجوم وقال الاكثرون الافلاك أجسام تدور النجوم عليها وهذا أقرب الى ظاهر القرآن واختلف الناس في حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فانه اما أن يكون الفلك ساكنا والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك في الماء الراكد واما أن يكون الفلك متحركا والكواكب أيضا اما مخالفة لجهة حركته أو موافقة لجهتها اما بحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة والبطء أو مخالفة واما أن يكون الفلك متحركا والكواكب ساكنة والذي يدل عليه لفظ القرآن القسم الاول وهو أن تكون الافلاك ساكنة والكواكب جارية فيها كما تسبح السمكة في الماء الراكد انتهى والحق انه لا سبيل الى معرفة صفة السموات والافلاك وما فيها الا باخبار الصادق المصدوق (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) أي دوام البقاء في الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية (أفإن مت) بأجلك المحتوم وقرئ مت بكسر الميم وضمها وهما لغتان (فهم الخالدون) قال الفراء جاء بالفاء لتدل على الشرط لانه جواب قولهم ان محمدا سيموت قال ويجوز حذف الفاء واضمارها والمعنى ان مت فهم يموتون أيضا فلا شماتة في الموت وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون أخرج البيهقي وغيره عن عائشة قالت دخل أبو بكر على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد مات فقبله وقال وانبياه واخليلاه واصفياه ثم تلا وما جعلنا الآية (كل نفس) مخلوقة فلا يرد الباري تعالى (ذائقة الموت) أي ذائقة مرارة مفارقة جسدها فلا يبقى احد من ذوات الانفس المخلوقة كائنا ما كان وهذا دليل على ما انكر من خلودهم قيل هذا العموم مخصوص بقوله تعالى تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك فان الله حي لا يموت ولا يجوز عليه الموت والذوق ههنا عبارة عن مقدمات الموت وآلامه العظيمة قبل حلوله (ونبلوكم) أي نختبركم (بالشر) أي بالشدة (والخير)

اذأوي الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا يخبر تعالى عن اولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه فهربوا منهم فلجؤا الى غار في جبل ليختفوا عن قومهم فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم ربنا آتنا من لدنك رحمة أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا وهيئ لنا من أمرنا رشدا أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشدا أي اجعل عاقبتنا رشدا كما في الحديث وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدا وفي المسند من حديث بسر بن ارطاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يدعو اللهم احسن عاقبتنا في الامور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وقوله فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا الى الكهف فناموا سنين كثيرة ثم بعثناهم أي من رقدتهم تلك وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاما يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله ولهذا قال ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أي المختلفين فيهم أحصى لما لبثوا أمدا قيل عددا وقيل غاية فان الامد الغاية كقوله * سبق الجواد اذا استولى على الامد * (نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها فذكر تعالى انهم فتية وهم الشباب وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابا وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم الا القليل وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف انهم كانوا فتية شبابا وقال مجاهد بلغني انه كان في آذان بعضهم القرطة يعني الحلق فالهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا انه لا اله الا هو وزدناهم هدى استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الائمة كالبخاري وغيره ممن ذهب الى زيادة الايمان وتفاضله وانه يزيد وينقص ولهذا قال تعالى وزدناهم هدى كما قال والذين

(والخير) أي الرخاء (فتنة) مصدر لنبلوكم من غير لفظه لان الابتلاء فتنة فكأنه قال نفتنكم فتنة أو مفعول له أي لننظر كيف شكركم وصبركم والمراد انه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم فالله لا يخفى عليه شئ (والينا ترجعون) لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم بأعمالكم حسبما يظهر منكم ان خيرا فخير وان شرا فشر وفيه اشارة الى ان المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب (واذا رآك الذين كفروا) يعني المستهزئين من المشركين (ان يتخذونك الا هزوا) أي ما يتخذونك الا مهزوأ بك والهزء السخرية وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم انا كفيناك المستهزئين والمعنى ما يفعلون بك الا اتخاذك هزوا (أهذا الذي يذكر آلهتكم) أي يقولون أهذا الذي فعلى هذا يكون هو جوابا ويكون قوله ان يتخذونك اعتراضا بين الشرط والجزاء ومعنى يذكر يعيب قال الزجاج يقال فلان يذكر الناس أي يغتابهم ويذكرهم بالعيوب وفلان يذكر الله أي يصفه بالتعظيم ويثني عليه وانما يحذف مع الذكر ما عقل معناه وعلى ما قالوا لا يكون الذكر في كلام العرب العيب وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء وقيل يطلق على المدح والذم مع القرينة (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) أي بالقرآن أو هم بذكر الرحمن الذي خلقهم كافرون اذ قالوا ما نعرفه والمعنى انهم يعيبون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال انهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد أو بالقرآن كافرون فهم أحق بالعيب لهم والانكار عليهم (خلق الانسان من عجل) أي جعل لفرط استعجاله في أحواله كأنه مخلوق من العجل وفيه استعارة بالكناية والعجل والعجلة ضد البطء وقد عجل من باب طرب والمعنى ان الانسان من حيث هو مطبوع على العجلة فيستعجل كثيرا من الاشياء وان كانت تضره وقال الفراء كأنه يقول بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة وقال الزجاج خوطبت العرب بما تعقل والعرب تقول للذي يكثر منه الشئ خلقت منه كما تقول أنت من لعب وخلقت من لعب تريد المبالغة في وصفه بذلك ويدل على هذا المعنى قوله وكان الانسان عجولا والمراد بالانسان الجنس وقيل آدم فانه لما خلقه الله ونفخ فيه من الروح صار الروح في رأسه فذهب ينهض قبل ان يبلغ الروح الى رجليه فوقع فقيل خلق الانسان من عجل كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدي والكلبي ومجاهد ولفظ عكرمة لما نفخ في آدم

اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم وقال فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وقال ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فالله أعلم والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء وعن خبر ذي القرنين وعن الروح فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية والله أعلم وقوله وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض يقول تعالى وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم وأنهم خرجوا يوما في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية فكان أول من جلس منهم أحدهم جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها أحد عنده وجاء الآخر فجلس إليهما وجاء الآخر فجلس إليهم وجاء الآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقا من حديث يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يقولون الجنسية علة الضم والغرض أنه جعل

الروح صار في رأسه فعطس فقال الحمد لله فقالت الملائكة يرحمك الله فذهب لينهض قبل أن تمور في رجليه فوقع فقال الله خلق الإنسان من عجل وعن ابن جريج نحوه وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعاني العجل الطين بلغة حمير وقيل إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحرث وهو القائل اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الخ وقيل نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب وقال الأخفش معناه قيل له كن فكان وقيل إن هذه الآية من المقلوب أي خلق العجل من الإنسان لشدة صدوره منه وملازمته له وقد حكى هذا عن أبي عبيدة والنحاس وأبي عمرو والقول الأول أولى (سأريكم آياتي) أي نقماتي منكم بمواعيدي في الآخرة بتعذيب النار وفي الدنيا كوقعة بدر (فلا تستعجلون) بالإتيان بها فإنه نازل بكم لا محالة وقيل المراد بالآيات ما دل على صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المعجزات وما جعله الله من العاقبة المحمودة والأول أولى ويدل عليه قوله (ويقولون متى هذا الوعد) أي متى حصول هذا الوعد الذي تعدنا به من العذاب قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية وقيل المراد بالوعد هنا القيامة (إن كنتم) يا معشر المسلمين (صادقين) في وعدكم والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب (لو يعلم الذين كفروا حين) أي لو عرفوا ذلك الوقت وقال أبو السعود استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم العلم انتهى وجواب لو محذوف لأنه أبلغ في الوعيد فقدره الزمخشري لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم هو الذي هونه عندهم وقدره ابن عطية لو علموا الوقت الذي (لا يكفون) يدفعون (عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) لما استعجلوا الوعيد وقدره الحوفي لسارعوا وقال الزجاج التقدير لعلموا صدق الوعد أي البعث وقيل لو علموه ما أقاموا على الكفر وقال الكسائي هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة أي لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية ويدل عليه قوله الآتي بل تأتيهم بغتة وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب في استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم (ولا هم ينصرون) أي لا يمنعون منها في القيامة ولا ينصرهم

أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم (بل) اضراب انتقالى من بيان السبب الى بيان كيفية وقوع الموعود فقال (تأتيهم) أى لا يكفونها بل تأتيهم العدة أو النار أو الساعة (بغتة) أى فجأة (فتبهتهم) قال الجوهرى بهته بهتا اخذه بغتة وقال الفراء أى تحيرهم وقيل تفجؤهم وقيل تدهشهم (فلا يستطيعون ردها) أى صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم فالضمير راجع الى النار وقيل الى الوعد بتأويله بالعدة وقيل الى الحين بتأويله بالساعة (ولاهم ينظرون) أى يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار (ولقد استهزئ برسل من قبلك) مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعزيته كأنه قال ان استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر شأنهم (فحاق) أى أحاط ودار بسبب ذلك (بالذين سخروا منهم) أى من أولئك الرسل وهزؤا بهم (ما كانوا به يستهزؤن) ما مصدرية أو موصولة أى فأحاط بهم استهزاؤهم أى جزاؤه على وضع السبب موضع المسبب أو نفس الاستهزاء ان أريد به العذاب الاخروى بناء على تجسم الاعمال أو الامر الذى كانوا يستهزؤن به (قل من يكلؤكم) أى يحرسكم قاله ابن عباس والمعنى يحفظكم والكلاءة الحراسة والحفظ يقال كلأه الله كلأ بالكسر أى حفظه وحرسه وحكى يكلوكم بفتح اللام واسكان الواو أى قل يامحمد لاولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ من يحرسكم ويحفظكم (بالليل) أى فيه اذا نمتم (والنهار) اذا انصرفتم الى معايشكم وتقديم الليل لما ان الدواهى أكثر فيه وقوعا واشد وقعا (من) بأس (الرحمن) وعذابه الذى تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم قال الزجاج معناه من يحفظكم من بأس الرحمن وقال الفراء المعنى من يحفظكم مما يريد الرحمن انزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة وفى التعرض لعنوان الرحمة ايذان بأن كالئهم ليس الا رحمته العامة (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) فلا يذكرونه ولا يخطرونه ببالهم ولا يتفكرون فيه بل يعرضون عنه أو عن القرآن أو عن مواعظ الله أو عن معرفته (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) أم بمعنى بل والهمزة للاضراب عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه اياهم الى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه والدفع عنها والمعنى بل ألهم آلهة تمنعهم مما يسوءهم من عذابنا وفيه تقديم وتأخير والتقدير أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم وصف آلهتهم هذه التى زعموا انها تنصرهم بما يدل على الضعف والعجز

وكل احد منهم يكتم ماهو عليه عن أصحابه خوفا منهم ولا يدرى انهم مثله حتى قال أحدهم تعلمون والله ياقوم انه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم الا شئ فليظهر كل واحد منكم بأمره فقال آخر أما أنا فانى والله رأيت ماقومى عليه فعرفت انه باطل وانما الذى يستحق ان يعبد وحده ولا يشرك به شيأ هو الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما وقال الآخر وأنا والله وقع الى كذلك وقال الآخر كذلك حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة فصاروا يدا واحدة واخوان صدق فاتخذوا لهم معبدا يعبدون الله فيه فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم الى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وماهم عليه فاجابوه بالحق ودعوه الى الله عزوجل ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها ولن لنفى (١) التأبيد أى لا يقع منا هذا أبدا لانا لو فعلنا ذلك لكان باطلا ولهذا قال عنهم لقد قلنا اذا شططا أى باطلا وكذبا وبهتانا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين أى هلا أقاموا على صحة ماذهبوا اليه دليلا واضحا صحيحا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا يقولون بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك فيقال ان ملكهم لما دعوه الى الايمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم واجلهم لينظروا فى امرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذى كانوا عليه وكان هذا من لطف الله بهم فانهم فى تلك النظرة توصلوا الى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس ان يفر العبد منهم خوفا على دينه كما جاء فى الحديث يوشك ان يكون خير مال احدكم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن ففى هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم واختار الله تعالى لهم ذلك واخبر عنهم بذلك فى قوله واذ اعتزلتموهم ومايعبدون الا الله أى واذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم فى عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضا بابدانكم فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته أى يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ويهيئ لكم من امركم الذى انتم فيه مرفقا أى امرا ترتفقون به فعند ذلك خرجوا هرابا الى الكهف فأووا اليه ففقدهم قومهم من بين اظهرهم وتطلبهم الملك

(١) قوله لنفى التأبيد كذا فى النسخ وتأمل انتهى

فقال (لا يستطيعون نصر أنفسهم) أى هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون ان ينصروا غيرهم فهو استئناف مقرر لما قبله من الانكار وموضح لبطلان اعتقادهم (ولا هم) أى الكفار (منا يصحبون) أى يجارون من عذابنا قال ابن قتيبة أى لا يجيرهم منا أحد لان المجير صاحب الجار والعرب تقول صحبك الله أى حفظك وأجارك تقول العرب أنا لك جار وصاحب من فلان أى مجير منه وهو اختيار الطبرى قال المازنى هو من أصحبت الرجل اذا منعته وقال مجاهد يحفظون قال ابن عباس أى لا ينصرون ولا يجارون ولا يمنعون وقال قتادة لا يصحبون من الله بخير ولا يجعل الله رحمته صاحبا لهم ذكره القرطبى ولما أبطل كون الاصنام نافعة اضرب عن ذلك منتقلا الى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله لا من مانع يمنعهم من الهلاك ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال (بل متعنا هؤلاء وآباءهم) يعنى أهل مكة متعهم الله بما أنعم عليهم (حتى طال عليهم العمر) وامتد بهم الزمان فاغتروا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك فرد الله سبحانه عليهم قائلا (أفلا يرون) أى لا ينظرون فيرون (أنا نأتى الارض) أى نقصد أرض الكفر (ننقصها) بالظهور عليها (من أطرافها) فنفتحها بلدا بلدا وأرضا بعد أرض بتسليط المسلمين عليها وأسنده الى نفسه تعظيما لهم وفيه تعظيم للجهاد والمجاهدين وقيل ننقصها بالقتل والسبى وهو تصوير لما يجريه الله على أيدى المسلمين وقد مضى فى الرعد الكلام على هذه مستوفى (أفهم الغالبون) الاستفهام للانكار والفاء للعطف على مقدر كنظائره أى كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لارضهم من أطرافها وفى هذا اشارة الى ان الغالبين هم المسلمون أصحاب النبى (قل انما أنذركم) أى أخوفكم وأحذركم ما تستعجلونه من الساعة (بالوحى) من الله أى بالقرآن لا من قبل نفسى وذلك شأنى وما أمرنى الله به (ولا يسمع الصم الدعاء) اما من تتمة الكلام الذى أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان يقوله لهم أو من جهة الله تعالى والمعنى ان من أصم الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء وقرئ لا يسمع بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله وقرئ بالفوقية وكسر الميم أى انك يا محمد لا تسمع هؤلاء وال فى الصم للجنس فيدخل المخاطبون فيه دخولا أوليا أو للعهد (اذا ما ينذرون) أى يخوفون لتركهم العمل بما سمعوه من الانذار والاصل ولا يسمعون اذا ما ينذرون فوضع

فيقال انه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق حين لجأ الى غار ثور وجاء المشركون من قريش فى الطلب فلم يهتدوا اليه مع انهم يمرون عليه وعندها قال النبى صلى الله عليه وسلم حين رأى جزع الصديق فى قوله يا رسول الله لو ان احدهم نظر الى موضع قدميه لابصرنا فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما وقد قال تعالى الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف وقد قيل ان قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذى دخلوه فقالوا اما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بانفسهم فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ففعلوا ذلك وفى هذا نظر والله أعلم فان الله تعالى قد أخبر ان الشمس تدخل عليهم فى الكهف بكرة وعشية كما قال تعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) هذا دليل على ان باب هذا الكهف من نحو الشمال لانه تعالى اخبر ان الشمس اذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ذات اليمين أى يتقلص الفئ يمنة كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة تزاور أى تميل وذلك انها كلما ارتفعت فى الافق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شئ عند الزوال فى مثل ذلك المكان ولهذا قال واذا غربت تقرضهم ذات الشمال أى تدخل الى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق فدل على صحة ما قلناه وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب وبيانه انه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل اليه منها شئ عند الغروب ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منه شئ عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفئ يمينا ولا شمالا ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ولم تزل فيه الى الغروب فتعين ما ذكرناه ولله الحمد وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة تقرضهم تتركهم وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف فى أى البلاد من الارض اذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعى

وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالا فتقدم عن ابن عباس انه قال هو قريب من أيلة وقال ابن اسحق هو عند نينوى وقيل ببلاد الروم وقيل ببلاد البلقاء والله أعلم بأي بلاد الله هو ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لارشدنا الله تعالى ورسوله اليه فقد قال صلى الله عليه وسلم ما تركت شيأ يقربكم الى الجنة ويباعدكم من النار الا وقد أعلمتكم به فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه فقال وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم قال مالك عن زيد بن اسلم تميل ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه أي في متسع منه داخلا بحيث لا تصيبهم اذ لو أصابتهم لاحرقت ابدانهم وثيابهم قاله ابن عباس ذلك من آيات الله حيث أرشدهم الى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ولهذا قال تعالى ذلك من آيات الله ثم قال من يهد الله فهو المهتد الآية أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية الى الهداية من بين قومهم فانه من هداه الله اهتدى ومن أضل فلا هادي له (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) ذكر بعض أهل العلم انهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع اليها البلى فاذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ولهذا قال تعالى وتحسبهم ايقاظا وهم رقود وقد ذكر عن الذئب انه ينام فيطبق عينا ويفتح عينا ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد كما قال الشاعر

ينام باحدى مقلتيه ويتقي
بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم

وقوله تعالى ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال قال بعض السلف يقلبون في العام مرتين قال ابن عباس لو لم يقلبوا لأكلتهم الارض وقوله وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة الوصيد الفناء وقال ابن عباس بالباب وقيل بالصعيد وهو التراب والصحيح انه بالفناء وهو الباب ومنه قوله تعالى انها عليهم مؤصدة أي مطبقة مغلقة ويقال وصيد وأصيد ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب قال ابن جريج يحرس عليهم الباب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم وكان جلوسه خارج الباب لان الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب كما ورد في الصحيح ولا صورة ولا جنب ولا كافر كما ورد به الحديث الحسن وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال وهذا فائدة صحبة الاخيار

الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم اسماعهم اذا ما أنذروا وللتسجيل عليهم (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) المراد بالنفحة الدليل مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان وقال المبرد النفحة الدفعة من الشيء التي دون معظمه يقال نفحه نفحة بالسيف اذا ضربه ضربة خفيفة وقيل هي النصيب وقيل هي الطرف وقيل وقعة خفيفة والمعنى متقارب أي ولئن مسهم اقل شيء من العذاب وفيه مبالغات ثلاث ذكر المس وما في النفحة من معنى القلة فان اصل النفح هبوب رائحة الشيء والبناء الدال على المرة (ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين) بالاشراك وتكذيب محمد أي ليدعون على انفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم (ونضع الموازين القسط) العادلة (ليوم القيامة) أي لاهلها وقيل اللام بمعنى في أي في يوم القيامة والموازين جمع ميزان وهو يدل على أن هنالك موازين ويمكن ان يراد ميزان عبر عنه بلفظ الجمع للتعظيم أو باعتبار اجزائه فان الصحيح انه ميزان واحد لجميع الامم ولجميع الاعمال وقد ورد في السنة في صفة الميزان ما فيه كفاية وقد مضى في الاعراف وفي الكهف في هذا ما يغني عن الاعادة والقسط صفة للموازين وصف به مبالغة قال الزجاج قسط مصدر يوصف به تقول ميزان قسط وموازين قسط والمعنى ذوات قسط والقسط العدل وصف به الموازين لان الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون غير مستقيم فبين الله ان تلك الموازين تجري على حد العدل وقرئ القصط بالصاد والطاء وأما ماهية جرمه من أي الجوهر وانه موجود الآن أو سيوجد فنمسك عن تعيينه ولا يكون الوزن في حق كل أحد لان من لا حساب عليه لا يوزن له كالانبياء والملائكة والوزن يكون للمكلفين من الجن والانس وقد يوزن العبد نفسه كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لرجل عبد الله ابن مسعود في الميزان أثقل من جبل أحد ومن مات له ولد يجعل ذلك الولد في الميزان وكميته ثقلا وخفة مثلها في الدنيا (فلا تظلم نفس شيأ) أي لا ينقص من احسان محسن ولا يزاد في اساءة مسيء (وان كان مثقال حبة من خردل) أي ان كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة كذا قال الزجاج وقال أبو علي الفارسي وان كان الظلامة مثقال حبة قال الواحدي وهذا أحسن لتقدم قوله فلا تظلم نفس شيأ وقرئ برفع مثقال على ان كان تامة أي ان وقع أو ان وجد مثقال حبة ومثقال الشيء ميزانه أي وان كان في غاية الخفة والقلة والحقارة فان حبة الخردل مثل في الصغر (أتينا بها) أي احضرناها

وجئنا بها أي بموزونها للمجازاة عليها وقرئ آتينا بالمد على معنى جازينا بها يقال آتى يؤاتي مؤاتاة جازى (وكفى بنا حاسبين) أي محصين في كل شيء والحسب في الاصل معناه العد وقيل عالمين لان من حسب شيأ علمه وحفظه وقيل مجازين على ماقدموه من خير وشر والغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل ان يكون على أشد الخوف منه وقد أخرج أحمد والترمذي وابن جرير في تهذيبه والبيهقي وغيرهم عن عائشة ان رجلا قال يارسول الله ان لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني واضربهم واشتمهم فكيف أنا منهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحسب ماخانوك وعصوك وكذبوك وعقابك اياهم فان كان عقابك اياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك وان كان عقابك اياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا عليك ولا لك وان كان عقابك اياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل فجعل الرجل يبكي ويهتف فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اما تقرأ كتاب الله ونضع الموازين القسط الى قوله حاسبين فقال الرجل يارسول الله ما أجد لي ولهم خيرا من مفارقتهم اشهدك انهم احرار وفي معناه احاديث وروى عن الشبلي انه رؤي في المنام فقيل له مافعل الله بك قال

حاسبونا فدققوا * ثم منوا فأعتقوا

وكذا كل مالك * بالمماليك يرفق

ثم شرع الله سبحانه في تفصيل ما اجمله سابقا بقوله وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم وذكر عشر قصص الاولى قصة موسى ثم ابراهيم ثم لوط ثم نوح ثم داود وسليمان ثم ايوب ثم اسمعيل وادريس وذي الكفل ثم يونس ثم زكريا ثم مريم وابنها عيسى فقال (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) المراد بالفرقان هنا التوراة قاله أبو صالح وعن قتادة مثله لان فيها الفرق بين الحلال والحرام والحق والباطل وقال ابن زيد الفرقان الحق وقيل الفرقان هنا هو النصر على الاعداء كما في قوله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان قال الثعلبي وهذا القول اشبه بظاهر الآية ومعنى ضياء انهم استضاؤا بها في ظلمات الجهل والغواية ومعنى الذكر الموعظة اي انهم يتعظون بما فيها وخص المتقين لانهم الذين ينتفعون بذلك ووصفهم بقوله (الذين يخشون ربهم بالغيب) لان هذه الخشية تلازم التقوى او يخشون عذابه وهو غائب عنهم أوهم غائبون عنه لانهم في الدنيا والعذاب

فانه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن وقد قيل انه كان كلب صيد لاحدهم وهو الاشبه وقيل كلب طباخ الملك وقد كان وافقهم على الدين وصحبه كلبه فالله أعلم وقد روى الحافظ بن عساكر في ترجمة همام بن الوليد الدمشقي حدثنا صدقة بن عمر الغساني حدثنا عباد المنقري سمعت الحسن البصري يقول كان اسم كبش ابراهيم عليه الصلاة والسلام جرير واسم هدهد سليمان عليه السلام عنفز واسم كلب أصحاب الكهف قطمير واسم عجل بني اسرائيل الذي عبدوه بهموت وهبط آدم عليه السلام بالهند وحواء بجدة وابليس بدست بيسان والحية باصفهان وقد تقدم عن شعيب الجبائي انه سماه حمران واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة اليها بل هي مما ينهى عنه فان مستندها رجم بالغيب وقوله تعالى لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا أي انه تعالى القى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم الا هابهم لما ألبسوا من المهابة الذعر لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها ازكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم احدا انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا) يقول تعالى كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيأ وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين ولهذا تساءلوا بينهم كم لبثتم أي كم رقدتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم كأنه كان دخولهم الى الكهف في أول نهار واستيقاظهم كان في آخر نهار ولهذا استدركوا فقالوا أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم أي الله أعلم بامركم وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم فالله أعلم ثم عدلوا الى الاهم في أمرهم اذ ذاك وهو احتياجهم الى الطعام والشراب فقالوا فابعثوا أحدكم بورقكم أي فضتكم هذه وذلك انهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم اليها فتصدقوا منها وبقي منها فلهذا قالوا فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة أي مدينتكم التي خرجتم منها والالف واللام للعهد فلينظر أيها ازكى طعاما أي أطيب طعاما

ق

كقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا وقوله قد أفلح من تزكى ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره وقيل أكثر طعاما ومنه زكا الزرع اذا كثر قال الشاعر

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة * وللسبع أزكى من ثلاث وأطيب

والصحيح الاول لان مقصودهم انما هو الطيب الحلال سواء كان كثيرا أو قليلا وقوله وليتلطف أي في خروجه وذهابه وشرائه وايابه يقولون وليختف كل ما يقدر عليه ولا يشعرن أي ولا يعلمن بكم أحدا

انهم أن يظهروا عليكم يرجموكم أي ان علموا بمكانكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم ان يطلعوا على مكانهم فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب الى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا وان وافقوهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال ولن تفلحوا اذا أبدا (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) يقول تعالى وكذلك أعثرنا عليهم أي أطلعنا عليهم الناس ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ذكر غير واحد من السلف انه كان قد حصل لاهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة وقال عكرمة كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الارواح ولا تبعث الاجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك وذكروا انه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب الى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه تنكر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى الى المدينة وذكروا أن اسمها أفسوس وهو يظن انه قريب العهد بها وكان الناس قد تبدلوا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وأمة بعد أمة وتغيرت البلاد ومن عليها كما قال الشاعر

أما الديار فانها كديارهم * وأرى رجال الحي غير رجاله

فجعل لا يرى شيأ من معالم البلد التي يعرفها ولا يعرف أحدا من أهلها لا خواصها ولا عوامها فجعل يتحير في نفسه ويقول لعل بي جنونا أو مسا أو أنا حالم ويقول والله ما بي شيء من ذلك وان عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة ثم قال ان تعجيل الخروج

في الآخرة وقيل يخافونه في الخلوات اذا غابوا عن أعين الناس (وهم من الساعة مشفقون) أي وهم من أهوال القيامة خائفون وجلون وهذا من ذكر الخاص بعد العام لكونها أعظم المخلوقات والتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وايثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق ودوامه (وهذا) أي القرآن قاله قتادة والاشارة اليه باداة القرب ايماء الى سهولة تناوله عليهم (ذكر مبارك) قال الزجاج أي ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به والمبارك كثير البركة والخير (أنزلناه) صفة للذكر أو خبر بعد خبر (أفأنتم له منكرون) الاستفهام للانكار لما وقع منهم من الانكار أي كيف تنكرون كونه منزلا من عند الله مع اعترافكم بان التوراة منزلة من عنده وانكم من أهل اللسان تدركون مزايا الكلام ولطائفه وتفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيركم مع ان فيه شرفكم وصيتكم كما يشير اليه لفظ الذكر على ما سبق فلو أنكره غيركم لكان ينبغي لكم مناصبته وتقديم الظرف على المتعلق دال على التخصيص أي أفأنتم للقرآن خاصة دون كتاب اليهود فانهم كانوا يراجعون اليهود فيما عن لهم من المشكلات (ولقد آتينا ابراهيم رشده) أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحي والاقتدار على اصلاح الامة باستعمال النواميس الالهية وقال مجاهد هديناه صغيرا (من قبل) أي قبل ايتاء موسى وهرون التوراة أو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقال الفراء أي أعطيناه هداه من قبل النبوة والبلوغ أي وفقناه للنظر والاستدلال لما جن عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم وعلى هذا أكثر المفسرين وبالاول قال أقلهم (وكنا به عالمين) أي انه موضع لايتاء الرشد وانه يصلح لذلك (اذ) أي اذكر حين (قال لابيه) آزر (وقومه) نمرود ومن اتبعه (ما هذه التماثيل) وهي الصور والاصنام قاله مجاهد وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها وأصل التمثال الشيء المصنوع المشابه لشيء من مخلوقات الله سبحانه يقال مثلت الشيء بالشيء اذا جعلته مشابها له واسم ذلك الممثل تمثال وهو الصورة المصنوعة من رخام أو نحاس أو خشب شبيهة بخلق الآدمي أو غيره من الحيوانات وأنكر عليهم عبادتها بقوله (التي أنتم لها عاكفون) العكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الاغراض واللام في لها للاختصاص ولو كانت للتعدية لجيء بكلمة على أي ما هذه

من هيئة الأولى ثم عمد الى رجل ممن يبيع الطعام فدفع اليه ما معه من النفقة وسأله أن يبيعه طعاما فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها فدفعها الى جاره وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون لعل هذا وجد كنزا فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة لعله وجدها من كنز ومن أنت فجعل يقول أنا من أهل هذه البلدة وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس فنسبوه الى الجنون فحملوه الى ولي أمرهم فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره وهو متحير في حاله وما هو فيه فلما أعلمهم بذلك قاموا معه الى الكهف ملك البلد وأهلها حتى انتهى بهم الى الكهف فقال دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل فيقال انهم لا يدرون كيف ذهب فيه وأخفى الله عليهم خبرهم ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم وكان مسلما فيما قيل واسمه تندوسيس ففرحوا به وآنسوه بالكلام ثم ودعوه وسلموا عليه وعادوا الى مضاجعهم وتوفاهم الله عز وجل فالله أعلم قال قتادة غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة فمروا بكهف في بلاد الروم فرأوا فيه عظاما فقال قائل هذه عظام أصحاب الكهف فقال ابن عباس لقد بليت عظامهم أكثر من ثلثمائة سنة رواه ابن جرير وقوله وكذلك أعثرنا عليهم أي كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم أي في أمر القيامة فمن مثبت لها ومن منكر فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم أي سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين أحدهما انهم المسلمون منهم والثاني أهل الشرك منهم فالله أعلم والظاهر ان الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ولكن هل هم محمودون أم لا فيه نظر لان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد يحذر ما فعلوا وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس وان تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا) يقول تعالى مخبرا عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف فحكى ثلاثة

الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها وقيل ان العكوف متضمن معنى العبادة وكانت تلك الأصنام اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من رصاص وبعضها من نحاس وبعضها من حجر وبعضها من خشب وكان كبيرها من ذهب مكللا بالجواهر في عينيه ياقوتتان متقدتان تضيآن في الليل (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فقلدناهم واقتدينا بهم فأجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز والحبل الذي يتشبث به كل غريق وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء أي وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشيا على طريقتهم وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الاسلامية فان العالم بالكتاب والسنة اذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأي المدفوع بالدليل قالوا هذا قد قال به امامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلدين وبرأيه آخذين قال الخفاجي أي لم يكن جوابهم الا التقليد انتهى وجوابهم هو ما أجاب به الخليل هنا (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) أي في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذي عقل فان قوم ابراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر وليس بعد هذا الضلال ضلال ولا يساوي هذا الخسران خسران قال النسفي أراد أن المقلدين والمقلدين منخرطون في سلك ضلال ظاهر وأكد بأنتم ليصح العطف لان العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع انتهى أقول وهؤلاء المقلدة من أهل الاسلام استبدلوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كتبا قد دونت فيها اجتهادات عالم من علماء الاسلام زعم انه لم يقف على دليل يخالفها اما لقصور منه أو لتقصير في البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار كأنه علم في رأسه نار وقال هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله وأنشدهم

دعوا كل قول عند قول محمد * فما آمن في دينه كمخاطر

فقالوا كما قال الأول

وهل أنا الا من غزية ان غوت * غويت وان ترشد غزية أرشد

وقد أحسن من قال

يأبى الفتى الا اتباع الهوى * ومنهج الحق له واضح

قال البيضاوي والتقليد ان جاز فانما يجوز لمن علم في الجملة انه على الحق ثم لم يسمع أولئك

مقالة الخليل (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) أي أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح وليس المراد به حقيقة المجيء اذ لم يكن غائبا عنهم وأم متصلة وان كان بعدها جملة لانها في حكم المفرد اذ التقدير أي الامرين واقع مجيئك بالحق أم لعبك وفي ايراد الشق الثاني بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ايذان برجحانه عندهم ثم (قال) مضربا عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد (بل ربكم رب السموات والارض) وقيل هو اضراب عن كونه لاعبا باقامة البرهان على ما ادعاه والاول أظهر (الذي فطرهن) أي خلقهن وأبدعهن والضمير للسموات أو للتماثيل وهو أدخل في تضليلهم واقامة الحجة عليهم لان فيه تصريحا بأن معبوداتهم من جملة مخلوقاته (وأنا على ذلكم) الذي ذكرته لكم من كون ربكم هو رب السموات والارض فقط دون ما عداه كائنا ما كان (من الشاهدين) أي العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه فان الشاهد على الشيء هو من كان عالما به مبرهنا عليه مبينا له (وتالله لاكيدن أصنامكم) أخبرهم بانه سينتقل من المحاجة باللسان الى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه وهذه طريقة فعلية دالة على انه على الحق بعد ان أتى بطريقة قولية لجمع بين القول والفعل والكيد المكر يقال كاده يكيده كيدا ومكيدة والمراد هنا الاجتهاد في كسر الاصنام قيل انه عليه السلام قال ذلك سرا وقيل سمعه رجل منهم فأفشاه (بعد أن تولوا مدبرين) أي بعد ان ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين قال المفسرون كان لهم عيد في كل سنة يجتمعون فيه فقالوا لابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا أعجبك ديننا فقال ابراهيم هذه المقالة (فجعلهم جذاذا) اي تولوا فجعلهم جذاذا أي حطاما بفاس قاله ابن عباس وعنه قال فتاتا الجذ القطع والكسر يقال جذذت الشيء قطعته وكسرته الواحد جذاذة والجذاذ ما تكسر منه قال الجوهري قال الكسائي ويقال لحجارة الذهب الجذاذ لانها تكسر وقرئ جذاذا بكسر الجيم أي كسرا وقطعا جمع جذيذ وهو الهشيم مثل خفيف وخفاف وظريف وظراف وقرئ بالضم كالحطام والرقاق فعال بمعنى مفعول وقرئ بفتحها قال قطرب هي في لغاتها كلها مصدر فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث والقراءتان الاوليان سبعيتان وهذا هو الكيد الذي وعدهم به (الا كبيرا لهم) اي عظيم آلهتهم قاله ابن عباس يعني تركه ولم يكسره والضمير للآلهة او عائد على عابديها ووضع الفاس في عنقه ثم خرج (لعلهم

أقوال فدل على انه لا قائل برابع ولما ضعف القولين الاولين بقوله رجما بالغيب أي قولا يكاد يصيب وان أصاب فبلا قصد ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله وثامنهم كلبهم ... هو الواقع في نفس الامر وقوله قل ربي أعلم بعدتهم ارشاد الى أن الاحسن في مثل هذا المقام رد العلم الى الله تعالى اذ ... الى الخوض في مثل ذلك بلا علم لكن اذا اطلعنا على أمر قلنا به والا وقفنا وقوله ما يعلمهم الا قليل أي من الناس قال قتادة قال ابن عباس انا من القليل الذي استثنى الله عز وجل كانوا سبعة وكذا روى ابن جريج عن عطاء الخراساني (١٣١) عنه انه كان يقول أنا ممن استثنى الله عز وجل ويقول عدتهم سبعة وقال ابن جرير حدثنا ابن يسار حدثنا عبد الرحمن حدثنا اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس ما يعلمهم الا قليل قال أنا من القليل كانوا سبعة فهذه أسانيد صحيحة الى ابن عباس انهم كانوا سبعة وهو موافق لما قدمناه وقال محمد بن اسحق بن يسار عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد قال لقد حدثت انه كان على بعضهم من حداثة سنه وضح الورق قال ابن عباس فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله يبكون ويستغيثون بالله وكانوا (١) ثمانية نفر مكسلمينا وكان أكبرهم وهو الذي كلم الملك عنهم ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس وبيرونس ودنيموس وبطونس وقالوس هكذا وقع في هذه الرواية ويحتمل ان هذا من كلام ابن اسحق ومن بينه وبينه فان الصحيح عن ابن عباس انهم كانوا سبعة وهو ظاهر الآية وقد تقدم عن شعيب الجبائي ان اسم كلبهم حمران وفي تسميتهم بهذه الاسماء واسم كلبهم نظر في صحته والله أعلم فان غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب وقد قال تعالى فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا أي سهلا هينا فان الامر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ولا تستفت فيهم منهم أحدا أي فانهم لا علم لهم بذلك الا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب أي من غير استناد الى كلام معصوم وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والاقوال (ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا

(١) قوله وكانوا ثمانية نفر كذا في نسخة وفي أخرى سبعة ولعل هذه النسخة محرفة عن تسعة بالمثناة قبل السين فان المعدود بعد كذلك وبين النسختين مخالفة في ضبط الاسماء وفي القاموس عدة أقوال فيها مخرما وقع في ضبطها من رواية ابن اسحق اه مصححه

الاأن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) هذا ارشاد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم الى الادب فيما اذا عزم على شئ ليفعله فى المستقبل أن يرد ذلك الى مشيئة الله عزوجل علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف كان يكون كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال قال سليمان ابن داود عليهما السلام لاطوفن الليلة على سبعين امرأة وفى رواية تسعين امرأة وفى رواية مائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله فقيل له وفى رواية (١٣٢) قال له الملك قل ان شاء الله فلم يقل فطاف بهن فلم يلد منهن الا امرأة واحدة نصف انسان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته وفى رواية ولقاتلوا فى سبيل الله فرسانا أجمعين وقد تقدم فى أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية فى قول النبى صلى الله عليه وسلم لما سئل عن قصة أصحاب الكهف غدا أجيبكم فتأخر الوحى خمسة عشر يوما وقد ذكرناه بطوله فى أول السورة فأغنى عن اعادته وقوله واذكر ربك اذا نسيت قيل معناه اذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له قاله أبو العالية والحسن البصرى وقال هشيم عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عباس فى الرجل يحلف قال له أن يستثنى ولو الى سنة وكان يقول واذكر ربك اذا نسيت فى ذلك قيل للاعمش سمعته عن مجاهد فقال حدثنى به ليث بن أبى سليم يرى ذهب كسائى هذا ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية عن الاعمش به ومعنى قول ابن عباس انه يستثنى ولو بعد سنة أى اذا نسى أن يقول فى حلفه أو فى كلامه ان شاء الله وذكر ولو بعد سنة فالسنة له ان يقول ذلك ليكون آتيا بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث قاله ابن جرير رحمه الله ونص على ذلك لاأن يكون رافعا لحنث اليمين ومسقطا للكفارة وهذا الذى قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح وهو الاليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم وقال عكرمة واذكر ربك اذا نسيت أن تقول ان شاء الله وقال الطبرانى حدثنا محمد بن الحرث الجبلى حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد بن مسلم عن عبد العزيز بن حصين عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الاأن يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت ان تقول ان شاء الله وروى الطبرانى أيضا عن ابن عباس فى قوله واذكر ربك اذا نسيت الاستثناء فاستثن اذا ذكرت

اليه) أى الى ابراهيم (يرجعون) فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم وقال الرازى اما اذا قلنا ان الضمير راجع الى الكبير فالمعنى لعلهم يرجعون اليه كما يرجع الى العالم فى حل المشكلات فيقولون له ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحا وما لهذا الفاس فى عنقك وقال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم واستهزاء بهم وكان من عادتهم اذا رجعوا اليها سجدوا اليها ثم ذهبوا الى منازلهم وقيل المعنى لعلهم الى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر لان من شأن المعبود ان يرجع اليه فى المهمات فاذا رجعوا اليه لم يجدوا عنده خبرا فيعلمون حينئذ انها لاتجلب نفعا ولا تدفع ضررا ولا تعلم بخير ولا شر ولا تخبر عن الذى ينوبها من الامر وقيل لعلهم الى الله يرجعون وهو بعيد جدا (قالوا) فى الكلام حذف والتقدير فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم من التكسير قالوا (من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين) الاستفهام للتوبيخ والتشنيع والانكار وقيل من موصولة مبتدأ وانه لمن الخ خبره اى فاعل هذا ظالم والاول اولى عن ابن مسعود قال لما خرج قوم ابراهيم الى عيدهم مروا عليه فقالوا يا ابراهيم ألا تخرج معنا قال انى سقيم وقد كان بالامس قال تالله لاكيدن اصنامكم الآية فسمعه ناس منهم فلما خرجوا انطلق الى اهله فأخذ طعاما ثم انطلق الى آلهتهم فقربه اليهم فقال ألا تأكلون فكسرها الا كبيرهم ثم ربط فى يده الذى كسر به آلهتهم فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا فاذا هم بآلهتهم قد كسرت واذا كبيرهم فى يده الذى كسر به الاصنام قالوا من فعل هذا بآلهتنا (قالوا) اى قال الذين سمعوا ابراهيم يقول وتالله لاكيدن اصنامكم مجيبين للمستفهمين لهم (سمعنا فتى يذكرهم) أى يعيبهم ويسبهم وسمع هنا متعدية لاثنين لدخولها على مالا يسمع فالاول فتى والثانى جملة يذكرهم بخلاف مالو دخلت على ما يسمع كان قلت سمعت كلام زيد فانها تتعدى لواحد (يقال له ابراهيم) قال الزجاج اى هو ابراهيم فهو خبر مبتدا محذوف او مبتدأ محذوف الخبر اى يقال له ابراهيم فاعل ذلك وقيل ارتفع على انه مفعول مالم يسم فاعله اى يقال له هذا اللفظ ولهذا قال ابو البقاء المراد الاسم لا المسمى وقيل على النداء اى يا ابراهيم ومن غرائب التدقيقات النحوية وعجائب التوجيهات الاعرابية ان الاعلم الشنتمرى الاشبيلى قال انه مرتفع على الاهمال قال ابن عطية ذهب الى رفعه بغير شئ (قالوا فأتوا به على أعين الناس) القائلون هم السائلون أمروا بعضهم

وقال هي خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لاحد منا ان يستثني الا في صلة من يمينه ثم قال انفرد به الوليد عن عبد العزيز بن الحصين ويحتمل في الآية وجه آخر وهو ان يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه الى ذكر الله تعالى لان النسيان منشؤه من الشيطان كما قال وما أنسانيه الا الشيطان ان أذكره وذكر الله تعالى سبب للذكر ولهذا قال واذكر ربك اذا نسيت وقوله وقل عسى أن يهدين ربي لاقرب من هذا رشدا أي اذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه اليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك وقيل في تفسيره غير ذلك والله أعلم (ولبثوا في كهفهم

ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا) هذا خبر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بمقدار مالبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم الى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان وانه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية وهي ثلثمائة سنة بالشمسية فان تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية الى الشمسية ثلاث سنين فلهذا قال بعد الثلثمائة وازدادوا تسعا وقوله قل الله أعلم بما لبثوا أي اذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذا الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض أي لا يعلم ذلك الا هو ومن أطلعه عليه من خلقه وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف وقال قتادة في قوله ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين الآية هذا قول أهل الكتاب وقد رده الله تعالى بقوله قل الله أعلم بما لبثوا قال وفي قراءة عبد الله وقالوا ولبثوا يعني انه قاله الناس وهكذا قال قتادة ومطرف بن عبد الله وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر فان الذي بأيدي أهل الكتاب انهم لبثوا ثلثمائة سنة من غير تسع يعنون بالشمسية ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال وازدادوا تسعا والظاهر من الآية انما هو اخبار من الله لا حكاية عنهم وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة ثم هي شاذة بالنسبة الى قراءة الجمهور فلا يحتج بها والله اعلم وقوله أبصر به وأسمع أي انه لبصير بهم سميع لهم قال ابن جرير وذلك في معنى المبالغة في المدح كانه قيل ما أبصره وأسمعه وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل

ان يأتي به ظاهرا بمرأى من الناس قيل انه لما بلغ الخبر نمرود واشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فقالوا هذه المقالة ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على ان يفعلوه به (لعلهم يشهدون) أي يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به في مثل هذا وقيل لعلهم يشهدون عليه بانهم رأوه يكسر أصنامهم أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم) مستأنفة وفي الكلام حذف أي فجاء ابراهيم حين أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك لاقامة الحجة عليه في زعمهم (قال) ابراهيم مقيما للحجة عليهم مبكتا لهم وقال المحلي قال ساكتا عن فعله (بل فعله كبيرهم هذا) مشيرا الى الصنم الذي تركه ولم يكسره وقال الشهاب هذا على طريقة الكناية الفرضية فهذا يستلزم نفي فعل الصنم الكبير للكسر واثباته لنفسه وحاصله انه اشارة لنفسه على الوجه الابلغ مضمنا فيه الاستهزاء والتضليل انتهى أخرج أبو داود والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكذب ابراهيم في شيء قط الا في ثلاث كلهن في الله قوله اني سقيم ولم يكن سقيما وقوله لسارة أختي وقوله بل فعله كبيرهم هذا وهذا الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة باطول من هذا وقد روى نحوه أبو يعلى من حديث ابي سعيد وقيل أراد ابراهيم عليه السلام بنسبة الفعل الى ذلك الكبير من الاصنام انه فعل ذلك لانه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه ارشادا لهم الى ان عبادة هذه الاصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تدفع لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم والاول اولى وقرئ بل فعله بتشديد اللام على معنى بل فلعل الفاعل كبيرهم (فاسألوهم) عن فاعله (ان كانوا ينطقون) اي ان كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له فيجيب عنه بما يطابقه وفيه تقديم جواب الشرط اراد عليه السلام ان يبين لهم ان من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ولا يصح في العقل ان يطلق عليه أنه اله فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بان الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة لانهم اذا قالوا انهم لا ينطقون قال لهم فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ويقصر عن ان يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق فان ذلك اقطع لشبهته وادفع لمكابرته وانما قال ينطقون

مسموع لايخفى عليه من ذلك شئ ثم روى عن قتادة فى قوله أبصر به وأسمع فلا احد أبصر من الله ولا أسمع وقال ابن زيد أبصر به وأسمع يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سميعا بصيرا وقوله مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا أى انه تعالى هو الذى له الخلق والامر الذى لامعقب لحكمه وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالى وتقدس (واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) يقول تعالى

آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم بتلاوة كتابه العزيز وابلاغه الى الناس لامبدل لكلماته أى لامغير لها ولا محرف ولا مزيل وقوله ولن تجد من دونه ملتحدا قال ابن جرير يقول ان أنت يامحمد لم تتل ما أوحى اليك من كتاب ربك فانه لاملجأ لك من الله كما قال تعالى ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس وقال ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد أى سائلك عما فرض عليك من ابلاغ الرسالة وقوله واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه أى اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء يقال انها نزلت فى أشراف قريش حين طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم ان يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن

ولم يقل يسمعون او يعقلون مع ان السؤال موقوف على السمع والعقل ايضا لما ان نتيجة السؤال الجواب وان عدم نطقهم اظهر فى تبكيتهم (فرجعوا الى انفسهم) اى رجع بعضهم الى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله وذلك انهم تنبهوا وفهموا واستدهذه المقاولة بينهم وبين ابراهيم أن من لايقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الاضرار بمن فعل به مافعله ابراهيم بتلك الاصنام يستحيل ان يكون مستحقا للعبادة ولهذا (فقالوا) اى قال بعضهم لبعض (انكم انتم الظالمون) لانفسكم بعبادة هذه الجمادات وليس الظالم من نسبتم اليه الظلم بقولكم انه لمن الظالمين (ثم نكسوا على رؤسهم) اى رجعوا الى جهلهم وعنادهم شبه سبحانه عودهم الى الباطل بصيرورة اسفل الشئ اعلاه وقيل المعنى انهم طأطؤا رؤسهم خجلة من ابراهيم وهو ضعيف لانه لم يقل نكسوا رؤسهم بفتح الكاف واسناد الفعل اليهم حتى يصح هذا التفسير بل قال نكسوا على رؤسهم وقرئ نكسوا بالتشديد وانه لغة فى المخفف فليس التشديد لتعدية ولا تكثير ثم قالوا بعد ان نكسوا مخاطبين لابراهيم (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) اى لقد علمت ان النطق ليس من شأن هذه الاصنام فكيف تأمرنا بسؤالهم وما هذه جازية أو تميمية (قال) ابراهيم مبكتا لهم ومزريا عليهم (افتعبدون من دون الله) اى بدله (مالا ينفعكم شيأ) من النفع ان عبدتموه (ولا يضركم) بنوع من انواع الضرر اذا لم تعبدوه ثم تضجر عليه السلام منهم فقال (أف) بكسر الفاء مع التنوين وتركه وفتحها بلا تنوين بمعنى مصدر فالقرا آت ثلاث وكلها سبعية أى نتنا وقبحا (لكم ولما تعبدون من دون الله) وفى هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم واللام فى لكم لبيان المتأفف له أى لكم ولا آلهتكم والتأفف صوت يدل على التضجر (أفلا تعقلون) أى أليس لكم عقول تتفكرون بها فتعلمون هذا الصنع القبيح الذى صنعتموه اوان هذه الاصنام لاتستحق العبادة ولاتصلح لها وانما يستحقها الله تعالى (قالوا) اى قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة فى دفع ابراهيم وعجزوا عن مجادلته وضاقت عليهم مسالك المناظرة (حرقوه) انصرافا منهم الى طريق الظلم والغشم وميلا منهم الى اظهار الغلبة بأى وجه كان وعلى أى أمر اتفق وهكذا ديدن المبطل المحجوج اذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لايبقى له مفزع الا المناصبة والقائل هو النمرود بن كنعان بن السنجاريب بن نمرود بن كوش بن حام

مسعود وليفردأولئك بمجلس على حدة فنهاه الله عن ذلك فقال ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى الآية وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء فقال واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى الآية وقال مسلم فى صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا محمد بن عبد الله الاسدى عن اسرائيل عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد هو ابن أبى وقاص قال كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لايجترؤن علينا قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشاء الله ان يقع

ابن نوح وقيل القائل رجل من اكراد فارس اسمه هيزن خسف الله به الارض ثم قالوا (وانصروا آلهتكم) اى انصروها بالانتقام من هذا الذى فعل بها ما فعل و بتحريقه (ان كنتم فاعلين) للنصر فجمعوا له الحطب الكثير واضرموا النار في جميعه واوثقوا ابراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار قاله المحلي وكانت مدة الجمع شهرا ومدة الايقاد سبعة أيام ومدة مكث ابراهيم في النار سبعة أيام وفي الرازي أربعين يوما أو خمسين ومثله في أبي السعود وكان وقت القائه فيها ابن ست عشرة سنة وقيل ست وعشرين قاله الماوردي (قلنا) في الكلام حذف تقديره فاضرموا النار وذهبوا بابراهيم اليها فعند ذلك قلنا (يا نار كوني بردا وسلاما) أى ذات برد وسلام أى ابردي بردا غير ضار فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه للمبالغة قيل وانتصاب سلاما على انه مصدر أى وسلمنا سلاما (على ابراهيم) ولو لم يقل على ابراهيم لما احرقت نار ولا اتقدت قاله ابو حيان في البحر عن ابن عباس قال لما جمع لابراهيم ما جمع وألقي في النار جعل خازن المطر يقول متى أومر بالمطر فأرسله فكان امر الله اسرع قال الله كوني بردا وسلاما فلم تبق في الارض نار الا طفئت واخرج احمد وابن ماجه وابن حبان وابو يعلى وابن ابى حاتم والطبراني عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان ابراهيم حين القي في النار لم تكن دابة الا تطفئ عنه النار غير الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتله وهو سام أبرص وذكر بعض الحكماء ان الوزغ لا يدخل بيتا فيه زعفران وانه يبيض قاله ابن لقيمة وعن ابن عمر قال اول كلمة قالها ابراهيم حين القي في النار حسبنا الله ونعم الوكيل اخرجه ابن ابى شيبة وابن المنذر وعن السدي قال كان جبريل هو الذى ناداها اى النار وعن ابن عباس قال لو لم يتبع بردها سلاما لمات ابراهيم من بردها وعن علي نحوه وعن معتمر بن سليمان التيمي قال جاء جبريل الى ابراهيم وهو يوثق ليلقى في النار فقال يا ابراهيم ألك حاجة قال أما اليك فلا وعن كعب قال ما احرقت النار من ابراهيم الا وثاقه وذهبت حرارتها وبقيت اضاءتها وعن المنهال بن عمرو قال اخبرت ان ابراهيم القي في النار فكان فيها اما خمسين واما اربعين فقال ما كنت اياما وليالي قط اطيب عيشا اذ كنت فيها ووددت ان عيشي وحياتي كلها مثل عيشي اذ كنت فيها (وأرادوا به كيدا) اى مكرا وهو التحريق (فجعلناهم الاخسرين) اى اخسر من كل خاسر ورددنا مكرهم

فحدّث نفسه فأنزل الله عزوجل ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه انفرد باخراجه مسلم دون البخاري وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي التياح قال سمعت أبا الجعد يحدث عن أبي أمامة قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قاص يقص فأمسك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قص فلأن أقعد غدوة الى أن تشرق الشمس أحب الي من أن أعتق أربع رقاب وقال أحمد أيضا حدثنا هاشم حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعت كردوس بن قيس وكان قاص العامة بالكوفة يقول أخبرني رجل من أصحاب بدر انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحب الي من أن أعتق أربع رقاب قال شعبة فقلت أي مجلس قال كان قاصا وقال أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا محمد حدثنا يزيد بن ابان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أجالس قوما يذكرون الله من صلاة الغداة الى طلوع الشمس أحب الي مما طلعت عليه الشمس ولأن أذكر الله من صلاة العصر الى غروب الشمس أحب الي من أن أعتق ثمانية من ولد اسمعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفا فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس فبلغت ستة وتسعين ألفا وههنا من يقول أربعة من ولد اسمعيل والله ما قال الا ثمانية دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفا وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن اسحق الاهوازي حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا عمرو ابن ثابت عن علي بن الاقمر عن الاغر ابي مسلم وهو الكوفي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم سكت فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم هكذا رواه أبو أحمد عن عمرو بن ثابت عن علي بن الاقمر عن الاغر مرسلا وحدثنا يحيى بن المعلى عن منصور حدثنا محمد بن الصلت حدثنا عمرو بن ثابت عن علي بن الاقمر عن الاغر أبي مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن بكير حدثنا ميمون المرئي حدثنا ميمون بن سياه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك الا وجهه الا ناداهم مناد

لمقتلا هذه الآية أو قرأ هذه الآية نارا احاط بهم سرادقها ثم قال والله لا ادخلها أبدا أو مادمت حيا ولا يصيبنى منها قطرة وقوله وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه الآية قال ابن عباس المهل الماء الغليظ مثل دردى الزيت وقال مجاهد هو كالدم والقيح وقال عكرمة هو الشئ الذى انتهى حره وقال آخرون هو كل شئ أذيب وقال قتادة اذاب ابن مسعود شيأ من الذهب فى اخدود فلما انماع وأزبد قال هذا أشبه شئ بالمهل وقال الضحاك ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها اسود وهذه الاقوال ليس شئ منها ينفى الآخر فان المهل يجمع هذه الاوصاف الرذيلة كلها فهو أسود منتن غليظ حار ولهذا قال يشوى الوجوه اى من حره اذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه كما جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد باسناده المتقدم فى سرادق النار عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ماء كالمهل قال كعكر الزيت فاذا قربه اليه سقطت فروة وجهه فيه وهكذا رواه الترمذى فى صفة النار من جامعه من حديث رشدين ابن سعد عن عمرو بن الحرث عن دراج به ثم قال لا نعرفه الا من حديث رشدين وقد تكلم فيه من قبل حفظه هكذا قال وقد رواه الامام أحمد كما تقدم عن حسن الاشيب عن ابن لهيعة عن دراج والله أعلم وقال عبد الله بن المبارك وبقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو عن عبد الله بن بشر عن أبى امامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله ويسقى من ماء صديد يتجرعه قال يقرب اليه فيتكرهه فاذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع امعاءه يقول الله تعالى وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وقال سعيد بن جبير اذا جاع أهل النار استغاثوا فاغيثوا بشجرة الزقوم فيأكلون منها فاجتثت جلود وجوههم فلو أن مارا مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل وهو الذى قد انتهى حره فاذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة بئس الشراب أى بئس هذا الشراب كما قال فى الآية الاخرى وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم وقال تعالى تسقى من عين آنية أى حارة كما قال تعالى وبين حميم آن وساءت مرتفقا اى وساءت النار منزلا ومقيلا ومجتمعا وموضعا للارتفاق كما قال فى الآية

(الصلاة) الاصل الاقامة الا ان المضاف اليه جعل بدلا من الهاء والمعنى المحافظة عليها (وايتاء الزكاة) الواجبة وخصهما بالذكر لان الصلاة أفضل العبادات البدنية وشرعت لذكر الله والزكاة أفضل العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله (وكانوا لنا) خاصة دون غيرنا من الاصنام قاله العمادى (عابدين) أى مطيعين فاعلين لما نأمرهم به تاركين لما ننهاهم عنه وقيل موحدين (ولوطا آتيناه حكما) أى نبوة (وعلما) أى معرفة بأمر الدين أو فقها لائقا به فيكون من عطف السبب على المسبب وقيل الحكم هو فصل الخصومات بالحق وقيل هو الفهم (ونجيناه من القرية) هى سدوم كما تقدم (التى كانت تعمل) أى يعمل أهلها ففيه مجاز عقلى (الخبائث) هى اللواطة والضراط وخذف الحصى والرمى بالبندق واللعب بالطيور وغير ذلك كما سيأتى ثم علل سبحانه ذلك بقوله (انهم كانوا قوم سوء فاسقين) أى خارجين عن طاعة الله (وأدخلناه) بانجائنا له من القوم المذكورين (فى) أهل (رحمتنا) وقيل فى النبوة وقيل فى الاسلام وقيل فى الثواب وقيل فى الجنة (انه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى (و) اذكر (نوحا اذ نادى) ربه (من قبل) أى من قبل هؤلاء الانبياء المذكورين وبعث وهو ابن أربعين سنة ومكث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين سنة فتكون مدة عمره ألفا وخمسين سنة كذا فى التحبير وكان عليه السلام أطول الانبياء عمرا وأشدهم بلاء والمعنى دعا على قومه بقوله رب لا تذر الخ دعاء تفصيليا ودعا دعاء آخر اجماليا بقوله انى مغلوب فانتصر واما نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فدعا لقومه بالهداية بقوله رب اهد قومى فانهم لا يفهمون كما فهمنا ولذلك ورد أن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثلثا أهل الجنة ولهم ثلاثة أرباع الجنة بل تسعة اعشارها وبقية الامم لهم العشر ذكره السنوسى فى شرح الصغرى (فاستجبنا له) دعاءه (فنجيناه وأهله) أى المؤمنين منهم (من الكرب العظيم) أى من الغرق بالطوفان وتكذيب قومه له والكرب الغم الشديد (ونصرناه) نصرا مستتبعا للانتقام وقيل منعناه (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) الدالة على رسالته أى من ان يصلوا اليه بسوء وقيل من بمعنى على ثم علل سبحانه ذلك بقوله (انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم أجمعين) أى لم نترك منهم أحدا بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وانثاهم بسبب اصرارهم على الذنب (و) اذكر (داود وسليمان)

الاخرى انها ساءت مستقرا ومقاما (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا اولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب و يلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا) لما ذكر تعالى حال الاشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤا به وعملوا بما أمروهم به من الاعمال الصالحة فلهم جنات عدن والعدن الاقامة تجرى من تحتهم الانهار أى من تحت غرفهم ومنازلهم قال فرعون وهذه الانهار تجرى من تحتى الآية يحلون أى من الحلية فيها من أساور من ذهب وقال في المكان الآخر ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وفصله ههنا فقال و يلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق فالسندس ثياب رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق وقوله متكئين فيها على الارائك الاتكاء قيل الاضطجاع وقيل التربع في الجلوس وهو أشبه بالمراد ههنا ومنه الحديث الصحيح اما أنا فلا آكل متكئا فيه القولان والارائك جمع أريكة وهى السرير تحت الحجلة والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخاناه والله أعلم قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة على الارائك قال هى الحجال قال معمر وقال غيره السرر في الحجال وقوله نعم الثواب وحسنت مرتفقا أى حسنت منزلا ومقيلا كما قال في النار بئس الشراب وساءت مرتفقا وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله انها ساءت مستقرا ومقاما ثم ذكر صفات المؤمنين فقال أولئك يجزون الغرفة بما صبروا و يلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيأ وفجرنا خلالهما نهرا وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن ان تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا) يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم فضرب لهم ولهم مثلا برجلين جعل الله لاحدهما جنتين اى بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع وكل

أى قصتهما (اذ يحكمان) أى وقت حكمهما والمراد من ذكرهما ذكر خبرهما (في) شأن (الحرث) قيل كان زرعا وهو أشبه بالعرف وقيل كرما وعليه أكثر المفسرين و به قال ابن عباس واسم الحرث يطلق عليهما قال مرة كان الحرث تبنا (اذ نفشت) قال ابن السكيت النفش بالتحريك ان تنشر الغنم بالليل من غير راع أى تفرقت وانتشرت و رعت بان انفلتت (فيه غنم القوم) أى غنم بعض القوم من أمة داود (وكنا لحكمهم) أى لحكم الحاكمين وفيه جواز اطلاق الجمع على الاثنين وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشرى والرضى وتقدمهما الى القول به الفراء وانما وقع الجمع موقع التثنية مجازا أو لان التثنية جمع واقل الجمع اثنان وتدل عليه قراءة لحكمهما وقيل المراد الحاكمان والمحكوم عليه فهؤلاء جماعة وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز فان الحقيقة اضافة المصدر لفاعله والمجاز اضافته لمفعوله ومعنى (شاهدين) حاضرين والجملة اعتراضية وقد روى البيهقى في سننه عن ابن مسعود ولفظه قال كرم قد أنبتت عناقيده فافسدته الغنم فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان غير هذا يانبى الله قال وما ذاك قال يدفع الكرم الى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها حتى اذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم الى صاحبه والغنم الى صاحبها فذلك قوله (ففهمناها سليمان) وعن مسروق نحوه وكذا عن ابن عباس لكنه لم يذكر الكرم وعنه باطول منه والضمير المنصوب يعود الى القضية المفهومة من الكلام أو الى الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينما امرأتان معهما ابنان جاء الذئب فاخذ أحد الابنين فتحا كما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال هاتوا السكين أشقه بينهما فقالت الصغرى رحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى وهذا الحديث وان لم يكن داخلا فيما حكته الآية لكنه من جملة ما وقع لهما قال المفسرون دخل رجلان على داود وعنده ابنه سليمان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث ان هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت في حرثى فلم تبق منه شيأ فقال لك رقاب الغنم فقال سليمان أو غير ذلك ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبوا من ألبانها ومنافعها و يقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى اذا كان كليلة نفشت فيه دفع هؤلاء الى هؤلاء غنمهم ودفع هؤلاء

تين الاشجار والزروع ثمر مقبل في غاية الجودة ولهذا قال كلتا الجنتين آتت أكلها أي أخرجت ثمرها ولم تظلم منه شيأ أي ولم تنقص منه شيأ وفجرنا خلالهما نهرا أي والانهار متفرقة فيهما ههنا وههنا وكان له ثمر قيل المراد به المال روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وقيل الثمار وهو أظهر ههنا ويؤيده القراءة الاخرى وكان له ثمر بضم الثاء وتسكين الميم فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب وقرأ آخرون ثمر بفتح الثاء والميم فقال أي صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره أي يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويترأس أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا أي أكثر خدما وحشما وولدا قال قتادة تلك والله أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر وقوله ودخل جنته وهو ظالم لنفسه أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وانكاره المعاد قال ما أظن ان تبيد هذه ابدا وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والاشجار والانهار المطردة في جوانبها وارجائها ظن انها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله واعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة ولهذا قال وما أظن الساعة قائمة أي كائنة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد الى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا كما قال في الآية الاخرى ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وقال افرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أي في الدار الآخرة تألى على الله عز وجل وكان سبب نزولها في العاص بن وائل كما سيأتي بيانه في موضعه ان شاء الله وبه الثقة (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا لكنا هو الله ربي ولا اشرك بربي أحدا ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة الا بالله ان ترن أنا اقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) يقول تعالى مخبرا عما اجابه به صاحبه المؤمن واعظا له وزاجرا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار أكفرت بالذي خلقك من تراب الآية وهذا انكار وتعظيم لما وقع فيه من جحوده ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الانسان من طين وهو آدم ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين كما قال تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم الآية أي كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم

هؤلاء الى هؤلاء كرمهم فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك قال النحاس انما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لان ثمنها كان قريبا منه وأما في حكم سليمان فقد قيل كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء قال جماعة من العلماء ان داود حكم بوحي وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحي وقال الجمهور ان حكمهما كان باجتهاد وكلام أهل العلم في حكم اجتهاد الانبياء معروف وهكذا ما ذكروه في اختلاف المجتهدين وهل كل مجتهد مصيب أو الحق مع واحد وقد استدل المستدلون بهذه الآية على ان كل مجتهد مصيب ولا شك انها تدل على رفع الاثم عن المخطئ وأما كون كل واحد منهما مصيبا فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها بل صرح الحديث المتفق عليه في الصحيحين وغيرهما ان الحاكم اذا اجتهد فاصاب فله اجران وان اجتهد فاخطأ فله اجر فسماه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخطئا فكيف يقال انه مصيب لحكم الله موافق له فان حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين والا لزم توقف حكمه عز وجل على اجتهادات المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله وأيضا يستلزم أن تكون العين التي اختلف فيها اجتهاد المجتهدين بالحل والحرمة حلالا وحراما في حكم الله سبحانه وهذا اللازم باطل بالاجماع فالملزوم مثله وأيضا يلزم ان حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد في تلك الحادثة ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها الا بانقطاع المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله والحاصل ان المجتهدين لا يقدرون على اصابة الحق في كل حادثة لكن لا يصرون على الخطأ كما رجع داود هنا الى حكم سليمان لما ظهر له انه الصواب وقد أوضح الشوكاني هذه المسئلة بما لا مزيد عليه في القول المفيد وأدب الطلب فمن أحب الوقوف على تحقيق الحق فليرجع اليهما والى المؤلف الذي سماه حصول المأمول من علم الاصول والى كتابنا الجنة في الاسوة الحسنة بالسنة ففيهما ما يغني عن غيرهما قال الحسن لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده وقال مجاهد كان هذا صلحا وما فعله داود كان حكما والصلح خير فان قلت فما حكم هذه الحادثة التي حكم فيها داود وسليمان في هذه الشريعة المحمدية والملة الاسلامية قلت قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حديث البراء انه شرع لأمته ان على أهل الماشية حفظها بالليل وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار وان

تعالى خلقه كل أحد يعلم من نفسه ذلك فانه ما من احد من المخلوقات الا ويعلم أنه كان معدوما ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستندا الى شيء من المخلوقات لانه بمثابته فعلم اسناد ايجاده الى خالقه وهو الله لا اله الا هو خالق كل شيء ولهذا قال المؤمن لكنا هو الله ربي أي لكن أنا لا أقول بمقالتك بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية ولا أشرك بربي أحدا أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له ثم قال ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ان ترن انا أقل منك مالا وولدا

أي هلا اذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت اليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل ما شاء الله لا قوة الا بالله وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة وقد روي فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حدثنا جراح ابن مخلد حدثنا عمر بن يونس حدثنا عيسى بن عون حدثنا عبد الملك ابن زرارة عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال او ولد فيقول ما شاء الله لا قوة الا بالله فيرى فيه آفة دون الموت وكان يتأول هذه الآية ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله قال الحافظ أبو الفتح الازدي عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح حديثه وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة وحجاج حدثني شعبة عن عاصم بن عبيد الله عن عبيد مولى أبي رهم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة لا قوة الا بالله تفرد به أحمد وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة لا حول ولا قوة الا بالله وقال الامام أحمد حدثنا بكر بن عيسى حدثنا أبو عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون قال قال أبو هريرة قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة الا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش قال قلت نعم فداك أبي وامي قال ان تقول لا قوة الا بالله قال أبو بلج واحسب انه قال فان الله يقول أسلم عبدي واستسلم قال فقلت لعمرو قال أبو بلج قال عمرو قلت لابي هريرة لا حول ولا قوة الا بالله فقال لا انها في سورة الكهف ولولا اذ دخلت

ما أفسدت المواشي بالليل مضمون على أهلها وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عينا أو قيمة وقد ذهب جمهور العلماء الى العمل بما تضمنه هذا الحديث وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين الى ان هذا الحكم منسوخ وان البهائم اذا أفسدت زرعا في ليل أو نهار لا يلزم صاحبها شيء وادخلوا افسادها في عموم قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم جرح العجماء جبار قياسا لجميع أفعالها على جرحها ويجاب عنه بان هذا القياس فاسد الاعتبار لانه في مقابلة النص ومن أهل العلم من ذهب الى انه يضمن رب الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار ويجاب عنه بحديث البراء وقد بسط الشوكاني رحمه الله الكلام عليه في شرحه للمنتقى ومما يدل على ان هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحي من الله سبحانه لا باجتهاد قوله ففهمناها سليمان (وكلا آتينا حكما وعلما) فان الله سبحانه أخبرنا بانه أعطى كل واحد منهما هذين الامرين وهما ان كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التي حكاها الله سبحانه عنهما مقدم على صدقهما على غيرها وان كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم وهو ما وقع من كل واحد منهما في هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم من عدم كون حكم داود حكما شرعيا أي وكل واحد منهما أعطيناه حكما وعلما كثيرا لا سليمان وحده ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك ذكر ما يختص بكل واحد منهما فبدأ بداود فقال (وسخرنا) التسخير التكليف للعمل بلا أجرة وسخره تسخيرا كلفه عملا بلا أجرة والمراد هنا التذليل أي ذللنا (مع داود الجبال يسبحن) التسبيح اما حقيقة أو مجاز وقد قال بالاول جماعة وهو الظاهر وذلك ان داود كان اذا سبح سبحت الجبال معه وقيل انها كانت تصلي معه اذا صلى قاله قتادة وهو معنى التسبيح وقال بالمجاز جماعة آخرون وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجبا من عظيم خلقها وقدرة خالقها وقيل كانت الجبال تسير مع داود حيث سار وكان من رآها سائرة معه سبح والظاهر وقوع التسبيح منها بالنطق خلق الله فيها الكلام كما سبح الحصى في كف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسمع الناس ذلك وكان داود هو الذي يسمع وحده قاله أبو حيان (و) كذا سخرنا (الطير) للتسبيح معه (وكنا فاعلين) ما ذكر من التفهيم وايتاء الحكم والتسخير وقدم الجبال على الطير لان تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة

وادخل

جنتك قلت ماشاء الله لاقوة الا بالله وقوله فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك أي في الدار الآخرة ويرسل عليها أي على جنتك في
الدنيا التي ظننت انها لاتبيد ولاتفنى حسبانا من السماء قال ابن عباس والضحاك وقتادة ومالك عن الزهري أي عذابا من
السماء والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ولهذا قال فتصبح صعيدا زلقا أي بلقعا ترابا أملس لا يثبت فيه قدم وقال
ابن عباس كالجرز الذي لا ينبت شيأ وقوله أو يصبح ماؤها غورا أي غائرا في الارض وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الارض فالغائر
يطلب اسفلها كما قال تعالى قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين أي جار وسائح وقال ههنا
أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا والغور مصدر بمعنى غائر وهو أبلغ منه كما قال الشاعر

تظل جياده نوحا عليه
تقلده اعنتها صفوفا

بمعنى نائحات عليه (وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحدا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا) يقول تعالى وأحيط بثمره بأمواله أو بثماره على القول الآخر والمقصود انه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من ارسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله عز وجل فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وقال قتادة يصفق كفيه متأسفا متلهفا على الأموال التي أذهبها عليها ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحدا ولم تكن له فئة أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق اختلف القراء ههنا فمنهم من يقف على قوله وما
كان منتصرا هنالك أي في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله فلا منقذ له منه ويبتدئ بقوله الولاية لله الحق ومنهم من يقف على وما
كان منتصرا ويبتدئ بقوله هنالك الولاية لله الحق ثم اختلفوا في قراءة الولاية فمنهم من فتح الواو من الولاية فيكون المعنى هنالك
الموالاة لله أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع الى الله والى موالاته والخضوع له اذا وقع العذاب كقوله فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا
بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين وكقوله اخبارا عن فرعون حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل
وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ومنهم من كسر الواو من الولاية أي هنالك الحكم لله الحق ثم منهم من

وأدخل في الاعجاز لانها جماد والطير حيوان ناطق وهو جمع طائر وجمع الطير طيور وأطيار
ويقع الطير على الواحد والجمع وقال ابن الانباري الطير جماعة وتأنيثها أكثر من التذكير
ولا يقال للواحد طير بل طائر وقلما يقال للانثى طائرة (وعلمناه صنعة لبوس لكم)
اللبوس عند العرب السلاح كله درعا كان أو جوشنا أو سيفا أو رمحا والمراد في الآية
الدروع خاصة وهو بمعنى الملبوس كالركوب والحلوب قيل أول من صنع الدروع
وسردها واتخذها حلقا داود عليه السلام وكانت من قبل صفائح قالوا ان الله ألان الحديد
لداود عليه السلام بان يعمل منه بغير نار كأنه طين والدرع يجمع بين الخفة والحصانة وهو
قوله (لتحصنكم) بالفوقية بارجاع الضمير الى الصنعة أو الى اللبوس بتأويل الدرع أي
لتمنعكم وقرئ بالنون بارجاع الضمير اليه سبحانه وقرئ بالياء بارجاع الضمير الى اللبوس
أو الى داود أو الى الله سبحانه (من بأسكم) أي من حربكم مع أعدائكم أو من وقع
السلاح فيكم (فهل أنتم) يا أهل مكة (شاكرون) لهذه النعمة التي انعمنا بها
عليكم والاستفهام في معنى الامر ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان فقال (و) سخرنا
(لسليمان الريح) عبر هنا باللام الدالة على التمليك وفي داود بمع وذلك ان الجبال والطير لما
اشتركا معه في التسبيح ناسب فيه ذكر مع الدالة على الاصطحاب ولما كانت الريح مستخدمة
لسليمان أتى بلام الملك لانها في طاعته وتحت أمره والريح هو جسم متحرك لطيف
ممتنع بلطفه من القبض عليه يظهر للحس بحركته ويخفى عن البصر بلطفه (عاصفة)
أي شديدة الهبوب وخفيفته يقال عصفت الريح أي اشتدت فهي ريح عاصف
وعصوف (تجري بأمره) أي ان أراد أن تشتد اشتدت وان أراد أن تلين لانت فهي
جامعة للوصفين في وقت واحد وهذه آية أخرى غير التسخير (الى الارض التي باركنا فيها)
أي تجري منتهية اليها في رواحه من سفره أي رجوعه منه وهي أرض الشام عن ابن عباس
قال كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسي ثم يجيء أشراف الانس فيجلسون مما يليه ثم
يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي أشراف الانس ثم يدعو الطير فتظلهم ثم يدعو الريح
فتحملهم تسير مسيرة شهر في الغداة الواحدة (وكنا بكل شئ) وتدبيره (عالمين و) سخرنا له
(من الشياطين) أي الكافرين من الجن دون المؤمنين (من يغوصون له) في
البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم والغوص النزول تحت الماء يقال غاص في الماء

رفع الحق على انه نعت للولاية كقوله تعالى الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ومنهم من خفض القاف على انه نعت لله عز وجل كقوله ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الآية ولهذا قال تعالى هو خير ثوابا وخير عقبا أي جزاء وخير عقبا أي الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا * المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) يقول تعالى (٤٥-٤٦) واضرب يا محمد للناس مثل الحياة الدنيا في زوالها وفنائها وانقضائها كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض أي ما فيها من الحب فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله أصبح هشيما يابسا تذروه الرياح أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال وكان الله على كل شيء مقتدرا أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال وكثيرا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام الآية وقال في الزمر ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه الآية وقال في الحديد اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته الآية وفي الحديث الصحيح الدنيا خضرة حلوة وقوله المال والبنون زينة الحياة الدنيا كقوله زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب الآية وقال تعالى إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم ولهذا قال والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف الباقيات الصالحات الصلوات الخمس وقال عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات ما هي فقال هي لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم رواه الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الله المقرئ حدثنا حيوة حدثنا أبو عقيل أنه سمع الحرث مولى

والغواص الذي يغوص في البحر على الدر (ويعملون عملا دون ذلك) قال الفراء أي سوى ذلك ودون بمعنى غير وسوى لا بمعنى أقل وأدون أي سوى الغوص كبناء والنورة والطاحون والقوارير والصابون لأن ذلك من استخراجهم وقيل المراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه (وكنا لهم) أي لأعمالهم (حافظين) وقال الفراء أي من أن يهربوا أو يمتنعوا أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره قال الزجاج كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار (و) اذكر (أيوب إذ نادى ربه) لما ابتلي بفقد ماله وولده وتفرق جسده وهجر جميع الناس له إلا زوجته وضيق عيشه (أني) أي بأني (مسني الضر) اختلف في الضر الذي كان نزل به ماذا هو فقيل إنه قام ليصلي فلم يقدر على النهوض وقيل إنه أقر بالعجز فلا يكون ذلك منافيا للصبر وقيل انقطع الوحي عنه أربعين يوما وقيل إن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها في موضعها فأكلت منه فصاح مسني الضر وقيل كانت الدود تناول بدنه فصبر حتى تناولت دودة قلبه وقيل إنه ضر قول إبليس لزوجته اسجدي لي فخاف ذهاب إيمانها وقيل إنه تقذره قومه وقيل أراد بالضر الشماتة وقيل غير ذلك وأخرج ابن عساكر والديلمي وابن النجار عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله لأيوب تدري ما جرمك علي حتى ابتليتك قال لا يا رب قال لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده في كلمتين وعن ابن عباس قال إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه ولم يأمر بالمعروف وينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله وفي إسناده جويبر ولما نادى ربه متضرعا إليه وصفه بغاية الرحمة فقال (وأنت أرحم الراحمين) وألطف في السؤال ولم يصرح بالمطلوب فكأنه قال أنت أهل أن ترحم وأيوب أهل أن يرحم فارحمه واكشف عنه الضر قيل وإنما شكى إليه تلذذا بالنجوى منه لا تضررا بالشكوى والشكاية إليه غاية القرب كما أن الشكاية منه غاية البعد فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه فقال (فاستجبنا له) نداءه الذي في ضمنه الدعاء (فكشفنا ما به من ضر) أي شفاه الله مما كان به وأعاده عما ذهب عليه وقال له اركض برجلك فركض فنبعت عين ماء فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد فأمره أن

يشرب

عثمان رضي الله عنه يقول جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا بماء في اناء أظنه سيكون فيه مد فتوضأ ثم قال رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وضوئي هذا ثم قال من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين
الصبح ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين المغرب
ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم ان قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهي الحسنات يذهبن السيآت قالوا هذه
الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان قال هي لا اله الا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة
الا بالله العلي العظيم تفرد به وروى
مالك عن عمارة بن عبد الله بن صياد
عن سعيد بن المسيب قال الباقيات
الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا اله
الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة
الا بالله وقال محمد بن عجلان عن
عمارة قال سألني سعيد بن المسيب
عن الباقيات الصالحات فقلت
الصلاة والصيام قال لم تصب فقلت
الزكاة والحج فقال لم تصب
ولكنهن الكلمات الخمس لا اله الا
الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله
ولا حول ولا قوة الا بالله وقال ابن
جريج أخبرني عبد الله بن عثمان بن
خثيم عن نافع بن سرجس انه
أخبره انه سأل ابن عمر عن الباقيات
الصالحات قال لا اله الا الله والله أكبر
وسبحان الله ولا حول ولا قوة الا بالله
قال ابن جريج وقال عطاء بن أبي
رباح مثل ذلك وقال مجاهد
الباقيات الصالحات سبحان الله
والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر
وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن
الحسن وقتادة في قوله والباقيات
الصالحات قال لا اله الا الله والله أكبر
والحمد لله وسبحان الله هن الباقيات
الصالحات قال ابن جرير وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار عن أبي نصر التمار عن عبد العزيز بن مسلم عن محمد بن عجلان
عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر هن
الباقيات الصالحات قال وحدثني يونس اخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحرث ان دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي
سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وماهي يا رسول الله قال الملة قيل وماهي
يا رسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله وهكذا رواه أحمد من حديث دراج به قال ابن وهب

يشرب منها فشرب فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما كان عن عبد الله بن عبيد بن
عمير قال كان لأيوب اخوان جاآ يوما فلم يستطيعا ان يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد
فقال احدهما للآخر لو كان علم الله من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما
جزعا لم يجزع من شئ قط مثله فقال اللهم ان كنت تعلم اني لم أبت ليلة قط شبعانا وانا أعلم
مكان جائع فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال اللهم ان كنت تعلم اني لم ألبس
قميصا قط وانا أعلم مكان عار فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم خر ساجدا وقال
اللهم بعزتك لا ارفع رأسي حتى تكشف عني فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه
وقد رواه ابن أبي حاتم مرفوعا بنحو هذا (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) قيل تركهم الله عز
وجل واعطاه مثلهم في الدنيا قال النحاس والاسناد بذلك صحيح وقد كان مات أهله جميعا
الا امرأته فأحياهم الله في أقل من طرف البصر وآتاه مثلهم معهم وهو ظاهر القرآن وبه
قال اكثر المفسرين وكان له سبعة بنين وسبع بنات وقيل كان ذلك بان ولد له ضعف الذين
أماتهم الله فيكون معنى الآية على هذا آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم وعن مجاهد قال قيل
له يا أيوب ان أهلك لك في الجنة فان شئت آتيناك بهم وان شئت تركناهم لك في الجنة
وعوضناك مثلهم قال له بل اتركهم لي في الجنة قال فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في
الدنيا وقال ابن مسعود أوتي أهله بأعيانهم ومثلهم معهم وأخرج ابن أبي الدنيا وابو يعلى
وابن جرير وابن أبي حاتم والروياني وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن انس
ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه
القريب والبعيد الا رجلين من اخوانه كانا من اخص اخوانه كانا يغدوان اليه ويروحان
فقال احدهما لصاحبه ذات يوم تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد قال وما ذاك
قال منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به فلما راحا الى أيوب لم يصبر الرجل
حتى ذكر له ذلك فقال أيوب لا ادري ما تقول غير أن الله يعلم اني امر بالرجلين يتنازعان
يذكران الله فارجع الى بيتي فأكفر عنهما كراهة أن يذكر الله الا في حق وكان يخرج
لحاجته فاذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم ابطأ عليها
فاوحى الله الى أيوب في مكانه ان اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فاستبطأته
فتلقته واقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان فلما رأته قالت اي

بارك الله فيك رأيت نبي الله المبتلى والله على ذلك ما رأيت رجلا أشبه بك منه اذ كان صحيحا قال فاني أنا هو قال وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت احداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الاخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض والأندر هو البيدر بلغة أهل الشام والجمع الأنادر والبيدر موضع يداس فيه الطعام والأندر اسم جنس فيكون مصروفا (رحمة من عندنا) أي تفضلا رحمة له (وذكرى للعابدين) أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كثوابه واختلف في مدة اقامته على البلاء فقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقيل ثلاثين سنة وقيل ثماني عشرة سنة قال الكرخي وهذا القول هو الصحيح وعاش أيوب ثلاثا وستين سنة وكان أيوب رجلا من الروم ينتسب للعيص بن اسحق وكانت أمه من ولد لوط بن هاران (و) اذكر (اسمعيل) الصابر على الانقياد للذبح وعاش مائة وثلاثين سنة (وادريس) هو اخنوخ جد نوح وأدرك حياة آدم قبل موته بثلثمائة سنة وبعث بعد موته بمائتي سنة وعاش بعد نبوته مائة وخمسين سنة فيكون جملة عمره اربعمائة وخمسين سنة وكان بينه وبين نوح ألف سنة (وذا الكفل) هو الياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا والصحيح انه رجل من بني اسرائيل كان لا يتورع عن شيء من المعاصي فتاب فغفر الله له وقيل ان اليسع لما كبر قال من يتكفل لي بكذا وكذا من خصال الخير حتى أستخلفه فقال رجل أنا فاستخلفه وسمي ذا الكفل وقيل كان رجلا يتكفل بشأن كل انسان اذا وقع في شيء من المهمات وقيل هو ولد أيوب واسمه بشر بعثه الله بعد أبيه وسماه ذا الكفل وأمره بالتوحيد وكان مقيما بالشام حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة وعن مجاهد قال رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمي ذا الكفل وعن ابن عباس قال كان في بني اسرائيل قاض فحضره الموت فقال من يقوم مقامي على أن لا يغضب فقال رجل أنا فسمي ذا الكفل فكان ليله جميعا يصلي ثم يصبح صائما فيقضي بين الناس وذكر قصة وعن أبي موسى الاشعري قال ما كان ذو الكفل نبيا ولكن كان في بني اسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة فتوفي فتكفل له ذو الكفل من بعده فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن حبان والطبراني والبيهقي في شعب الايمان وغيرهم عن ابن

عمر

أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن مولى سالم بن عبد الله حدثه قال أرسلني سالم الى محمد بن كعب القرظي في حاجة فقال قل له القني عند زاوية القبر فان لي اليك حاجة قال فالتقيا فسلم أحدهما على الآخر ثم قال سالم ما تعد الباقيات الصالحات فقال لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله فقال له سالم متى جعلت فيها لا حول ولا قوة الا بالله قال ما زلت اجعلها قال فراجعه مرتين أو ثلاثا فلم ينزع قال فأبيت قال سالم أجل فأتيت فان أبا أيوب الانصاري حدثني انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول عرج بي الى السماء فرأيت ابراهيم عليه السلام فقال يا جبريل من هذا معك فقال محمد فرحب بي وسهل ثم قال مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة فان تربتها طيبة وأرضها واسعة فقلت وما غراس الجنة قال لا حول ولا قوة الا بالله وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن يزيد عن العوام حدثني رجل من الانصار من آل النعمان بن بشير قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء فرفع بصره الى السماء ثم خفض حتى ظننا انه قد حدث في السماء شيء ثم قال أما انه سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس مني ولا أنا منه ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ألا وان سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر هن الباقيات الصالحات وقال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد عن أبي سلام عن مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بخ بخ لخمس ما أثقلهن في الميزان لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والداه وقال بخ بخ لخمس من لقي الله مستيقنا بهن دخل الجنة يؤمن بالله واليوم الآخر وبالجنة وبالنار وبالبعث بعد الموت وبالحساب وقال الامام أحمد حدثنا روح حدثنا الاوزاعي عن حسان بن عطية قال كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلا فقال لغلامه ائتنا بالشفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت الا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتي هذه فلا تحفظوها علي واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات

عمرعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال كان ذوالكفل من بني اسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك أكرهتك قالت لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملني عليه الا الحاجة فقال تفعلين أنت هذا وما فعلته اذهبي فهي لك وقال والله لا أعصى الله بعدها أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابه ان الله قد غفر لذي الكفل وقد ذهب الجمهور الى انه ليس بنبي وبه قال أبو موسى الاشعري ومجاهد وغيرهما وقال جماعة هو نبي ولعله هو الصحيح وبه قال الحسن لان الله قرن ذكره باسمعيل وادريس ولان السورة ملقبة بسورة الانبياء ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال (كل من الصابرين) على القيام بما كلفهم الله به (وأدخلناهم في رحمتنا) أي في الجنة أو في النبوة أو في الخير على عمومه ثم علل ذلك بقوله (انهم من الصالحين) أي الكاملين في الصلاح (و) اذكر (ذا النون) هو يونس بن متى على وزن شتى اسم لوالده على ما ذكره صاحب القاموس أو اسم لامه على ما قاله ابن الاثير وغيره وقال الشهاب ومتى اسم أبيه على الصحيح وسمي ذا النون لابتلاع الحوت له فان النون اسم للحوت وجمعه أنوان ونينان والحوت السمكة وجمعه حيتان وقيل سمي به لانه رأى صبيا مليحا فقال دسموا نونته لئلا تصيبه العين وعن ابن الاعرابي ان نونة الصبي هي الثقبة التي تكون في ذقن الصبي الصغير ومعنى دسموا سودوا (اذ ذهب مغاضبا) أي اذكره وقت ذهابه مغاضبا أي مراغما لقومه لا لربه وقال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير مغاضبا لربه واختاره ابن جرير والقتيبي وحكى عن ابن مسعود قال النحاس وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح والمعنى مغاضبا لاجل ربه كما تقول غضبت لك أي من أجلك وقال الضحاك مغاضبا لقومه وحكى عن ابن عباس وقالت فرقة منهم الاخفش انما خرج مغاضبا للملك الذي كان في وقته واسمه حزقيا وقيل لم يغاضب ربه ولا قومه ولا الملك ولكنه مأخوذ من غضب اذا أنف وذلك انه لما وعد قومه بالعذاب وكانوا يسكنون فلسطين وخرج عنهم تابوا وكشف الله عنهم العذاب فلما رجع وعلم انهم لم يهلكوا أنف من ذلك وخرج عنهم (فظن أن لن نقدر عليه) بفتح النون وكسر الدال واختلف في معنى الآية على هذه القراءة فقيل معناها انه وقع في ظنه ان الله تعالى لا يقدر على معاقبته وقد حكى هذا القول عن

اللهم اني أسألك الثبات في الامر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم انك أنت علام الغيوب ثم رواه أيضا والنسائي من وجه آخر عن شداد بنحوه وقال الطبراني حدثنا عبد الله بن ناجية حدثنا محمد بن سعد العوفي حدثني أبي حدثنا عمر بن الحسين عن يونس ابن نفيع الجدلي عن سعد بن جنادة رضي الله عنه قال كنت في أول من أتى النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الطائف فخرجت من أهلي من السراة غدوة فأتيت منى عند العصر فتصاعدت في الجبل ثم هبطت فأتيت (١٤٥) النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت وعلمني قل هو الله احد واذا زلزلت وعلمني هؤلاء الكلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقال هن الباقيات الصالحات وبهذا الاسناد من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه ثم قال سبحان الله مائة مرة والحمد لله مائة مرة والله أكبر مائة مرة ولا اله الا الله مائة مرة غفرت ذنوبه الا الدماء فانها لا تبطل قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله والباقيات الصالحات قال هي ذكر الله قول لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وتبارك الله ولا حول ولا قوة الا بالله وأستغفر الله وصلى الله على رسول الله والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لاهلها في الجنة ما دامت السموات والارض وقال العوفي عن ابن عباس هن الكلام الطيب وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هي الاعمال الصالحة كلها واختاره ابن جرير رحمه الله (ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الامور العظام كما قال تعالى يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب وقال تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش وقال و يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا

ولا أمتا ذكر تعالى انه تذهب الجبال وتتساوى المهاد وتبقى الارض قاعا صفصفا أى سطحا مستويا لاعوج فيه ولا أمتا أى لاوادى ولا جبل ولهذا قال تعالى وترى الارض بارزة أى بادية ظاهرة ليس فيها معلم لاحد ولا مكان يوارى أحدا بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لاتخفى عليه منهم خافية قال مجاهد وقتادة وترى الارض بارزة لاحجر فيها ولا غيابة قال قتادة ولا بناء ولا شجر وقوله وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا اى وجمعناهم الاولين منهم والآخرين فلم نترك منهم احدا لاصغيرا ولا كبيرا كما قال قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم وقال ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وقوله وعرضوا

على ربك صفا يحتمل ان يكون المراد ان جميع الخلائق يقومون بين يدى الله صفا واحدا كما قال تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا ويحتمل انهم يقومون صفوفا صفوفا كما قال وجاء ربك والملك صفا صفا وقوله لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة هذا تقريع للمنكرين للمعاد وتوبيخ لهم على رؤس الاشهاد ولهذا قال مخاطبا لهم بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا أى ما كان ظنكم ان هذا واقع بكم ولا ان هذا كائن وقوله ووضع الكتاب أى كتاب الاعمال الذى فيه الجليل والحقير والفتيل والقطمير والصغير والكبير فترى المجرمين مشفقين مما فيه أى من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ويقولون ياويلتنا أى ياحسرتنا وويلنا على ما فرطنا فى أعمارنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها أى لايترك ذنبا صغيرا ولا كبيرا ولا عملا وان صغر الا احصاها اى ضبطها وحفظها وروى الطبرانى باسناده المتقدم فى الآية قبلها الى سعد بن جنادة قال لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة حنين نزلنا قفرا نصب من الارض ليس فيه شئ فقال النبى صلى الله عليه وسلم اجمعوا من وجد عودا فليأت به ومن وجد حطبا أو شيأ فليأت به قال فما كان الا ساعة حتى جعلناه ركاما فقال النبى صلى الله عليه وسلم اترون هذا فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة فانها محصاة عليه وقوله ووجدوا ما عملوا حاضرا أى من خير وشر كما قال تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الآية وقال تعالى ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر وقال تعالى يوم تبلى السرائر اى تظهر المخبآت والضمائر

الحسن وسعيد بن جبير وهو قول مردود فان هذا الظن بالله كفر ومثل ذلك لايقع من الانبياء عليهم السلام وذهب جمهور العلماء الى ان معناها فظن ان لن نضيق عليه كقوله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أى يضيق ومنه قوله ومن قدر عليه رزقه يقال قدر وقدر وقتر وقتر أى ضيق وقيل هو من القدر الذى هو القضاء والحكم دون القدرة والاستطاعة أى فظن أن لن نقضى عليه العقوبة قاله قتادة ومجاهد واختاره الفراء والزجاج قال ثعلب هو من التقدير ليس من القدرة يقال منه قدر الله لك الخير يقدره قدرا ويؤيده قراءة عمر بن عبد العزيز والزهرى نقدر بضم النون وتشديد الدال من التقدير وحكى هذا عن ابن عباس ويؤيده قراءة قتادة والاعرج يقدر مبنيا للمفعول من التقدير وقرئ يقدر مخففا مبنيا للمفعول وقد اختلف العلماء فى تأويل الحديث الصحيح فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرا قط لاهله أن يحرقوه اذا مات ثم قال فوالله لئن قدر الله على الحديث كما اختلفوا فى تأويل هذه الآية والكلام فى هذا يطول وقد ذكرناههنا ما لا يحتاج معه الناظر الى غيره (فنادى فى الظلمات) الفاء فصيحة أى كان ما كان من التقام الحوت له فنادى والمراد بالظلمات ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت قاله ابن مسعود وكان نداؤه هو قوله (أن) أى بان (لا اله الا أنت سبحانك) يعنى تنزيها من أن يعجزك شئ (انى كنت من الظالمين) الذين يظلمون أنفسهم وأول هذا الدعاء تهليل وأوسطه تسبيح وآخره اقرار بالذنب وقال الحسن وقتادة هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته قال ذلك وهو فى بطن الحوت قيل مكث فيه أربعين يوما وليلة وقيل سبعة وقيل ثلاثة كما فى الخازن وفى البيضاوى أربع ساعات ثم أخبر الله سبحانه انه استجاب له فقال (فاستجبنا له) دعاءه الذى دعانا به فى ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه (ونجيناه من الغم) أى غم الذلة والوحشة والوحدة باخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه الى الساحل (وكذلك ننجى المؤمنين) أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم وما أعددناه لهم من الرحمة اذا دعونا واستغاثوا بنا وهذا هو معنى الآية الاخرى وهى قوله فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون قرئ نجى بنونين وبواحدة وجيم مشددة وتسكين الياء على الفعل الماضى واضمار المصدر أى وكذلك نجى النجاة المؤمنين كما تقول ضرب زيدا أى ضرب الضرب زيدا قاله الفراء وأبو عبيد وثعلب وخطأها أبو حاتم والزجاج وقال هى لحن لانه

قال الإمام أحمد حدثنا ابو الوليد حدثنا شعبة عن ثابت عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به اخرجاه في الصحيحين وفي لفظ يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته يقال هذه غدرة فلان بن فلان وقوله ولا يظلم ربك احدا اي فيحكم بين عباده في اعمالهم جميعا ولا يظلم احدا من خلقه بل يعفو و يصفح و يغفر و يرحم و يعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله و يملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم قال تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها الآية (١٤٧) وقال ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ الى قوله حاسبين والآيات في هذا كثيرة وقال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكي عن عبد الله بن محمد بن عقيل انه سمع جابر بن عبد الله يقول بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم فاشتريت بعيرا ثم شددت عليه رحلا فسرت عليه شهرا حتى قدمت عليه الشام فاذا عبد الله بن أنيس فقلت للبواب قل له جابر على الباب فقال ابن عبد الله قلت نعم فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته فقلت حديث بلغني عنك انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص فخشيت ان تموت أو اموت قبل ان اسمعه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة أو قال العباد عراة غرلا بهما قلت وما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب انا الملك انا الديان لا ينبغي لاحد من أهل النار ان يدخل النار وله عند أحد من اهل الجنة حق حتى اقصه منه ولا ينبغي لاحد من اهل الجنة ان يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصه منه حتى اللطمة قال قلنا كيف وانما نأتي الله عز وجل حفاة عراة غرلا بهما قال بالحسنات والسيآت وعن شعبة عن العوام بن مزاحم عن ابي عثمان عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة رواه عبد الله ابن الامام أحمد وله شواهد من وجوه اخر وقد ذكرناها عند قوله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وعند قوله تعالى الا امم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن

نصب اسم ما لم يسم فاعله وانما يقال نجي المؤمنون وقيل أدغم النون في الجيم وبه قال القتيبي وأبو عبيدة واعترضه النحاس فقال هذا لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج المدغم والمدغم فيه قيل كانت هذه الواقعة قبل الرسالة وصححه الخازن ويدل له قوله تعالى بعد ذكر خروجه من بطن الحوت في سورة الصافات وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وأخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي عن سعد بن أبي وقاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال دعوة ذي النون اذ هو في بطن الحوت لا اله الا أنت الخ لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط الا استجاب له وأخرج ابن جرير عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى قلت يا رسول الله هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين قال هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة اذا دعوا به ألم تسمع قول الله وكذلك ننجي المؤمنين فهو شرط من الله لمن دعاه وأخرج الحاكم من حديثه أيضا نحوه وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينبغي لاحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى وروى أيضا في الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود وروى أيضا في الصحيحين من حديث أبي هريرة (و) اذكر خبر (زكريا اذ نادى ربه) أي وقت ندائه له به قال (رب لا تذرني فردا) أي منفردا وحيدا لا ولد لي يرثني وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران (وأنت خير الوارثين) أي خير من يبقى بعد كل من يموت فانت حسبي ان لم ترزقني ولدا فاني اعلم انك لا تضيع دينك وانه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ (فاستجبنا له) دعاءه (ووهبنا له يحيى) ولدا وقد تقدم تفسيره مستوفى في سورة مريم (وأصلحنا له زوجه) قال اكثر المفسرين انها كانت عاقرا فجعلها الله ولودا فهذا هو المراد باصلاح زوجه وقيل كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ولا مانع من ارادة الامرين جميعا وذلك بان يصلح الله سبحانه ذاتها فتكون ولودا بعد ان كانت عاقرا ويصلح أخلاقها فتكون اخلاقها مرضية بعد ان كانت غير مرضية قال ابن عباس كان في لسان امرأة زكريا طول فاصلحه الله وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين وقال أيضا وهبنا له ولدها وعن قتادة قال كانت عاقرا فجعلها الله ولودا ووهب له منها يحيى (انهم كانوا يسارعون في الخيرات) هذه الجملة تعليل لما قبلها من

أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) يقول تعالى منبها بني آدم على عداوة ابليس لهم ولأبيهم من قبلهم ومقرعا لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه وهو الذي انشأه وابتدأه بالطافه ورزقه وغذاه ثم بعد هذا كله والى ابليس وعادى الله فقال تعالى واذ قلنا للملائكة أي لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة اسجدوا لآدم أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم كما قال تعالى واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين وقوله فسجدوا الا ابليس كان من الجن أي خانه أصله فانه خلق من مارج من نار وأصل خلق الملائكة من نور كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خلقت الملائكة من نور وخلق ابليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه وخانه الطبع عند الحاجة وذلك انه كان قد توسم بافعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة ونبه تعالى ههنا على انه من الجن اي على انه خلق من نار كما قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال الحسن البصري ما كان ابليس من الملائكة طرفة عين قط وانه لأصل الجن كما ان آدم عليه السلام أصل البشر رواه ابن جرير باسناد صحيح عنه وقال الضحاك عن ابن عباس كان ابليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة وكان اسمه الحرث وكان خازنا من خزان الجنة وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي قال وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذي يكون في طرفها اذا التهبت وقال الضحاك أيضا عن ابن عباس كان ابليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الارض وكان مما سولت له نفسه من قضاء الله انه رأى ان له بذلك شرفا على أهل السماء فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه الا الله واستخرج الله ذلك الكبر منه حيث أمره بالسجود لآدم فاستكبر وكان من الكافرين قال ابن عباس وقوله كان من الجن أي من خزان الجنان كما يقال الرجل مكي ومدني وبصري وكوفي وقال ابن جرير عن ابن عباس نحو ذلك وقال سعيد بن جبير عن ابن

احسانه سبحانه الى أنبيائه عليهم السلام والمعنى يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير وهو السر في ايثار كلمة في على كلمة الى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين اليها كما في قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وقيل الضمير راجع الى زكريا وامرأته ويحيى (ويدعوننا رغبا ورهبا) أي يتضرعون الينا في حال الرخاء وحال الشدة وقيل الرغبة رفع بطون الاكف الى السماء والرهبة رفع ظهورها والتقدير يرغبون رغبا ويرهبون رهبا أو للرغب والرهب أو راغبين وراهبين (وكانوا لنا خاشعين) أي متواضعين متضرعين قال قتادة أذلاء وقال ابن جريج رغبا في رحمة الله ورهبا من عذاب الله وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله رغبا ورهبا فقال رغبا هكذا ورهبا هكذا وبسط كفيه يعني جعل ظهرهما للارض في الرغبة وعكسه في الرهبة (و) اذكر خبر (التي أحصنت فرجها) وهي مريم فانها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر وانما ذكرها مع الانبياء وان لم تكن منهم لاجل ذكر عيسى وما في ذكر قصتها من الآية الباهرة ومعنى أحصنت عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها وقيل المراد بالفرج جيب القميص اي انها طاهرة الاثواب وقد مضى بيان مثل هذا في سورة النساء ومريم (فنفخنا فيها من روحنا) أضاف سبحانه الروح اليه وهو للملك تشريفا وتعظيما وهو يريد روح عيسى وقيل المراد بالروح جبريل أي أمرناه فنفخ في جيب درعها فحملت بعيسى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) قال الزجاج الآية فيهما واحدة لانها ولدته من غير فحل وقيل ان التقدير على مذهب سيبويه وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية كقوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه والمعنى أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل أراد بالآية الجنس الشامل لكل واحد منهما من الآيات ثم لما ذكر سبحانه الانبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال (ان هذه أمتكم أمة واحدة) الأمة الملة وهي الدين كما قال ابن قتيبة ومنه انا وجدنا آباءنا على أمة أي على دين وملة كأنه قال ان هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الامم المختلفة في التوحيد ولا يخرج عن ذلك الا الكفرة المشركون بالله وقيل المعنى ان هذه الشريعة التي بينتها لكم في كتابكم شريعة واحدة وقيل المعنى ان هذه ملتكم ملة واحدة وهي ملة الاسلام والنصب على الحال أي

امة

عباس قال هو من خزان الجنة وكان يدبر امر السماء الدنيا رواه ابن جرير من حديث الاعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد به
وقال سعيد بن المسيب كان رئيس ملائكة سماء الدنيا وقال ابن اسحق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال كان
ابليس قبل ان يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الارض وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما
فذلك دعاه الى الكبر وكان من حي يسمون جنا وقال ابن جريج عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبي نمر أحدهما او كلاهما
عن ابن عباس قال ان من الملائكة قبيلة من الجن وكان ابليس منها وكان يوسوس

أمة متفقة غير مختلفة قال ابن عباس أي ان هذا دينكم دينا واحدا وعن مجاهد مثله وعن قتادة نحوه (وأنا ربكم فاعبدون) خاصة لا تعبدوا غيري كائنا ما كان (وتقطعوا أمرهم بينهم) أي تفرقوا افرقا في الدين حتى صاروا كالقطع المتفرقة وقال الاخفش اختلفوا فيه وهو كالقول الاول قال الازهري أي تفرقوا في أمرهم فنصب أمرهم بحذف في والمقصود بالآية المشركون ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله وقيل المراد جميع الخلق وانهم جعلوا أمرهم في أديانهم قطعا وقسموه بينهم فهذا موحد وهذا يهودي وهذا نصراني وهذا مجوسي وهذا عابد وثن ثم أخبر سبحانه بان مرجع الجميع اليه فقال (كل الينا راجعون) أي كل واحد من هذه الفرق الثابت على دينه الحق والزائغ عنه الى غيره راجع الينا بالبعث لا الى غيرنا (فمن يعمل من الصالحات) أي بعض الاعمال الصالحة كالفرائض والنوافل لا كلها اذ لا يطيق ذلك أحد وقيل من زائدة (وهو مؤمن) بالله ورسله واليوم الآخر (فلا كفران لسعيه) أي لا جحود لعمله ولا بطلان لثوابه ولا تضييع لجزائه بل يشكر ويثاب عليه والمراد نفي الجنس للمبالغة لان نفي الماهية يستلزم نفي جميع افرادها والكفر ضد الايمان والكفر أيضا جحود النعمة وهو ضد الشكر يقال كفر كفورا وكفرانا وفي قراءة ابن مسعود فلا كفر لسعيه (وانا له) أي لسعيه (كاتبون) أي حافظون بان نأمر الحفظة بكتبه فنجازيه عليه ومثله قوله سبحانه اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى (وحرام) هكذا قرأ أهل المدينة وقرأ أهل الكوفة وحرم وبها قرأ علي وابن مسعود وابن عباس وهما لغتان مثل حل وحلال وقرئ وحرم (على قرية أهلكناها) أي قدرنا اهلاكها (انهم لا يرجعون) أي ممتنع البتة عدم رجوعهم الينا للجزاء وقيل لا زائدة أي ان يرجعوا بعد الهلاك الى الدنيا واختاره أبو عبيدة وقيل ان لفظ حرام هنا بمعنى الواجب أي واجب على قرية وقيل حرام أي ممتنع رجوعهم الى التوبة على ان لا زائدة قال النحاس والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما روي عن ابن عباس في معنى الآية قال واجب انهم لا يتوبون قال الزجاج وأبو علي الفارسي ان في الكلام اضمارا أي وحرام على قرية حكمنا باستئصالها أو بالختم على قلوب أهلها ان يتقبل منهم عمل لانهم لا يرجعون أي لا يتوبون (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) حتى هذه هي التي يحكى بعدها الكلام وقيل حتى للغاية والمعنى ان هؤلاء المذكورين سابقا مستمرون على

ما بين السماء والارض فعصى فسخط الله عليه فمسخه شيطانا رجيما لعنه الله ممسوخا قال واذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجه واذا كانت في معصية فارجه وعن سعيد بن جبير أنه قال كان من الخزانين الذين يعملون في الجنة وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الاسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله اعلم بحال كثير منها ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بايدينا وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الاخبار المتقدمة لانها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين كما لهذه الامة من الائمة والعلماء والسادة والاتقياء والبررة النجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروه وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من اصناف الرجال كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر صلى الله عليه وسلم ان ينسب اليه كذب او يحدث عنه بما ليس فرضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل وقوله ففسق عن امر ربه اى خرج عن طاعة الله فان الفسق هو الخروج يقال فسقت الرطبة اذا خرجت من أكمامها وفسقت الفأرة من جحرها اذا خرجت منه للعبث والفساد ثم قال تعالى مقرعا وموبخا لمن اتبعه واطاعه افتتخذونه وذريته أولياء من دوني الآية اى بدلا عني ولهذا قال بئس للظالمين بدلا وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة واهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والاشقياء في سورة

يس وامتازوا اليوم أيها المجرمون الى قوله افلم تكونوا تعقلون (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولاخلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا) يقول تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم اولياء من دوني عبيد أمثالكم لايملكون شيأ ولا اشهدتهم خلق السموات والارض ولا كانوا اذذاك موجودين يقول تعالى انا المستقل بخلق الاشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدي ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير كما قال قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده الالمن اذن له الآية ولهذا قال وما

كنت متخذ المضلين عضدا قال مالك اعوانا (ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) يقول تعالى مخبرا عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤس الاشهاد تقريعا لهم وتوبيخا نادوا شركائي الذين زعمتم أي في دار الدنيا ادعوهم اليوم ينقذونكم مما انتم فيه كما قال تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون وقوله فدعوهم فلم يستجيبوا لهم كما قال وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم الآية وقال ومن اضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الآيتين وقال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقوله وجعلنا بينهم موبقا قال ابن عباس وقتادة وغير واحد مهلكا وقال قتادة ذكر لنا ان عمرا البكالي حدث عن عبدالله بن عمرو قال هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة وقال قتادة موبقا واديا في جهنم وقال ابن جرير حدثني محمد بن سنان القزاز حدثنا عبد الصمد حدثنا يزيد بن درهم سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى وجعلنا بينهم موبقا قال واد في جهنم من قيح ودم وقال الحسن البصري موبقا عداوة والظاهر من السياق ههنا انه المهلك ويجوز أن يكون واديا في جهنم أو غيره اذ المعنى ان الله تعالى بين انه لاسبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم الى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا وانه يفرق بينهم وبينها في الآخرة فلا خلاص لاحد

ماهم عليه الى يوم القيامة وهي يوم فتح سد يأجوج ومأجوج وأطال سليمان الجمل في بيان حتى هذه وذكر لها وجوها و يأجوج ومأجوج بالهمزة وتركها اسمان أعجميان وهما قبيلتان من الانس يقال انهما تسعة أعشار بني آدم والمراد بالفتح فتح السد الذي عليهم على حذف المضاف (وهم) أي يأجوج ومأجوج أو العالم باسره والاول أظهر (من كل حدب) أي نشز وهو كل أكمة وكدية من الارض مرتفعة والجمع أحداب مأخوذ من حدبة الارض ومعنى (ينسلون) يسرعون وقيل يخرجون قال الزجاج النسلان مشية الذئب اذا أسرع يقال نسل فلان في العدو ينسل بالكسر والضم نسلا ونسولا ونسلانا والنسلان مقارنة الخطا مع الاسراع وقال ابن عباس ينسلون يقبلون وقد ورد في صفة يأجوج ومأجوج وفي وقت خروجهم وبيان حالهم وما لهم أحاديث وآثار كثيرة لا يتعلق بذكرها هنا كثير فائدة وكتابنا حجج الكرامة قد اشتمل عليها اشتمالا تاما فليرجع اليه (واقترب الوعد الحق) المراد به ما بعد الفتح من الحساب وقال الفراء والكسائي وغيرهما المراد بالوعد الحق القيامة والواو زائدة والمعنى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة فاقترب جواب اذا ومنه قوله تعالى فلما أسلما وتله للجبين وناديناه وأجاز الفراء أن يكون جوابه فاذا هي شاخصة وقال البصريون الجواب محذوف والتقدير قالوا ياويلنا وبه قال الزجاج وقيل غير ذلك (فاذا هي) يعني القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة (شاخصة أبصار الذين كفروا) يعني أن القيامة اذا قامت شخصت أبصار الكفار من شدة الاهوال ولا تكاد تطرف من هول ذلك اليوم وهول ما هم فيه ومعنى شاخصة مرتفعة الاجفان وانما هو في القيامة بعد النفخة الثانية فالتعقيب عرفي أريد به المبالغة هنا (ياويلنا) على تقدير القول (قد كنا في غفلة) في الدنيا (من هذا) أي من هذا الذي دهمنا من البعث والحساب (بل كنا ظالمين) اضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة أي لم نكن غافلين بل كنا ظالمين لانفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسل ثم بين سبحانه حال معبوديهم يوم القيامة فقال (انكم) يا أهل مكة (وما تعبدون من دون الله) من الاصنام والشمس والقمر وابليس وأعوانه (حصب) أي وقود (جهنم) وحطبها فكل ما أوقدت به النار أو هيجتها به فهو حصب كذا قال الجوهري وقال أبو عبيدة كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به ومثل ذلك قوله تعالى فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة

من الفريقين الى الآخر بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير وأما ان جعل الضمير في قوله بينهم عائدا الى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو انه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به فهو كقوله تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون وقال يومئذ يصدعون وقال تعالى وامتازوا اليوم أيها المجرمون وقال تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين اشركوا مكانكم انتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم الى قوله وضل عنهم ما كانوا يفترون وقوله ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا أي انهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فاذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة انهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم فان توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز وقوله ولم يجدوا عنها مصرفا أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها قال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب اخبرني عمرو بن الحرث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الكافر ليرى جهنم فيظن انها مواقعته من مسيرة اربعين سنة وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصب الكافر مقدار خمسين الف سنة كما لم يعمل في الدنيا وان الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة اربعين سنة (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلا) يقول تعالى ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الامور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى ومع هذا البيان وهذا الفرقان الانسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل الا من هدى الله وبصره لطريق النجاة قال الامام احمد حدثنا ابو اليمان اخبرنا شعيب عن الزهري اخبرني علي بن الحسين أن حسين بن علي اخبره ان علي بن ابي طالب اخبره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال ألا تصليان فقلت يا رسول الله انما انفسنا بيد الله فاذا شاء ان يبعثنا بعثنا فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيأ ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول وكان الانسان أكثر شيء جدلا اخرجاه في الصحيحين (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم

والحجارة وقرئ حطب جهنم بالطاء وقرئ حضب بالمعجمة قال الفراء ذكر لنا ان الحضب في لغة أهل اليمن الحطب ووجه القاء الاصنام في النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحس به التبكيت لمن عبدها وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم وقيل انها تحمى فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم وكذلك الشمس والقمر يكونان ثورين عقيرين في النار أيضا كما صح بذلك خبر أبي هريرة أخرجه البيهقي وأصله في البخاري (أنتم لها واردون) الخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا واللام في لها للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل وقيل هي بمعنى على والمراد بالورود هنا الدخول قال كثير من أهل العلم ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة لان ما لما لا يعقل ولو أراد العموم لقال ومن تعبدون قال الزجاج ولان المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية قال المشركون فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله فنزلت ان الذين سبقت الآية وفي الباب روايات (لو كان هؤلاء) اى هذه الاصنام (آلهة) كما تزعمون (ما وردوها) أي ما ورد العابدون والمعبودون في النار وقيل العابدون فقط لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة وفي هذا تبكيت لعباد الاصنام وتوبيخ شديد (وكل فيها) أي كل العابدين والمعبودين في النار (خالدون) لا يخرجون منها (لهم) أي لهؤلاء الذين وردوا النار (فيها زفير) وهو صوت نفس المغموم والمراد هنا الانين والبكاء والتنفس الشديد والعويل وقد تقدم بيان هذا في هود (وهم فيها لا يسمعون) أي لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وقال ابن مسعود في الآية اذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخر ثم تلك التوابيت في توابيت أخر عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيأ ولا يرى أحد منهم ان في النار أحدا يعذب غيره وقيل لا يسمعون شيأ لانهم يحشرون صما كما قال سبحانه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وانما سلبوا السماع لان فيه بعض تروح وتأنس وقيل لا يسمعون ما يسرهم بل يسمعون ما يسوءهم ثم لما بين سبحانه حال هؤلاء الاشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال (ان) هي بمعنى الا (الذين سبقت لهم منا الحسنى) أي العدة الجميلة والخصلة الحسنى التي هي أحسن الخصال وهي السعادة وقيل التوفيق أو التبشير بالجنة أو نفس الجنة (أولئك) أي الموصوفون بتلك الصفة (عنها) عن جهنم (مبعدون) لانهم قد صاروا في الجنة

الهدى ويستغفروا ربهم الا ان تأتيهم سنة الاولين او يأتيهم العذاب قبلا وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) يخبر تعالى عن تمرد الكفرة فى قديم الزمان وحديثه وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات وأنه ما منعهم من اتباع ذلك الا طلبهم ان يشاهدوا العذاب الذى وعدوا به عيانا كما قال اولئك لنبيهم فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين وآخرون قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين وقالت قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين الى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك ثم قال الا ان تأتيهم سنة الاولين من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم او يأتيهم العذاب قبلا أى يرونه عيانا مواجهة ومقابلة ثم قال تعالى وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين أى قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم ومنذرين من كذبهم وخالفهم ثم أخبر عن الكفار بانهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به أى ليضعفوا به الحق الذى جاءتهم به الرسل وليس ذلك بحاصل لهم واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا أى اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التى بعث بها الرسل وما انذروهم وخوفوهم به من العذاب هزوا أى سخروا منهم فى ذلك وهو أشد التكذيب (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فاعرض عنها ونسى ما قدمت يداه انا جعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) يقول تعالى واى عباد الله اظلم ممن ذكر بآيات الله فاعرض عنها اى تناساها واعرض عنها ولم يصغ لها ولا ألقى اليها بالا ونسى ما قدمت يداه أى من الاعمال السيئة والافعال القبيحة انا جعلنا على قلوبهم أى قلوب هؤلاء أكنة أى أغطية وغشاوة ان يفقهوه أى لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان وفى آذانهم وقرا أى صمما معنويا عن الرشاد وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا وقوله وربك الغفور ذو الرحمة اى ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة

وقال الجنيد المعنى سبقت منا العناية فى البداية فظهرت لهم الولاية فى النهاية (لا يسمعون حسيسها) الحس والحسيس الصوت تسمعه من شىء يمر قريبا منك والمعنى لا يسمعون حركة النار وصوتها او حركة تلهبها أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال حيات على الصراط تقول حس حس وعن أبى عثمان النهدى قال حيات على الصراط تلسعهم فاذا لسعتهم قالوا حس حس وقال ابن عباس لا يسمع أهل الجنة حسيس النار اذا نزلوا منزلهم من الجنة (وهم فيما اشتهت أنفسهم) من النعيم والكرامة (خالدون) أى دائمون مقيمون والشهوة طلب النفس اللذة وفى الجنة ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين كما قال تعالى ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ما تدعون (لا يحزنهم) بفتح الياء وضم الزاى وقرئ بضم الياء وكسر الزاى قال اليزيدى حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم بيان لنجاتهم من الفزع بالكلية اثر بيان نجاتهم من النار لانهم اذا لم يحزنهم (الفزع الاكبر) وهو أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب والامر بالعبد الى النار لا يحزنهم ما عداه بالضرورة وقال ابن عباس هو النفخة الآخرة وقيل هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود ولا موت وقيل هو حين يطبق على جهنم وذلك بعد ان يخرج الله منها من يريد أن يخرجه ثم تغلق النار على أهلها واخرج أحمد والترمذى وحسنه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الاكبر يوم القيامة رجل أم قوما وهم له راضون ورجل كان يؤذن فى كل يوم وليلة وعبد أدى حق الله وحق مواليه (وتتلقاهم الملائكة) أى تستقبلهم على أبواب الجنة يهنونهم وقال المحلى عند خروجهم من القبور ولا مانع انها تستقبلهم فى الحالين ويقولون لهم (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) به فى الدنيا وتبشرون بما فيه هكذا قال جماعة من المفسرين ان المراد بقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الى هنا هم كافة الموصوفين بالايمان والعمل الصالح لا المسيح وعزير والملائكة لان عليا قرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن ابن عوف وقال أكثر المفسرين انه لما نزل انكم وما تعبدون الآية أتى ابن (١) الزبعرى الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا محمد ألست تزعم ان عزيرا رجل صالح وان عيسى رجل صالح وان مريم امرأة صالحة قال بلى قال فان الملائكة وعيسى وعزيرا ومريم

---

(١) الزبعرى معناه السيئ الخلق الغليظ وهو لقب والده عبد الله القرشى وقد أسلم بعد هذه القصة اهـ منه

لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب كما قال ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب والآيات في هذا كثيرة شتى ثم أخبر انه يحلم ويستر ويغفر وربما هدى بعضهم من الغي الى الرشاد ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد وتضع كل ذات حمل حملها ولهذا قال بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل وقوله وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم وجعلنا لمهلكهم موعدا أي جعلناه (١٥٣) الى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر (واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) سبب قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون هذا الكلام انه ذكر له ان عبدا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحلة اليه وقال لفتاه ذلك لا أبرح أي لا أزال سائرا حتى أبلغ مجمع البحرين أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين قال الفرزدق

فما برحوا حتى تهادت نساؤهم * ببطحاء ذي قار عات اللطائم

قال قتادة وغير واحد وهما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب وقال محمد بن كعب القرظي مجمع البحرين عند طنجة يعني في أقصى بلاد المغرب فالله أعلم وقوله أو أمضي حقبا أي ولو أني أسير حقبا من الزمان قال ابن جرير رحمه الله ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب ان الحقب في لغة قيس سنة ثم قد روي عن عبد الله بن عمرو انه قال الحقب ثمانون سنة وقال مجاهد سبعون خريفا وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله أو أمضي حقبا قال دهرا وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك وقوله فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما وذلك انه كان قد أمر

يعبدون من دون الله فهؤلاء في النار فأنزل الله هذه الآية الى آخرها أخرجه ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس وأخرجه أبو داود والطبراني من وجه آخر عنه بأطول منه (يوم نطوي) بنون العظمة أي اذكر يوم نطوي (السماء كطي السجل للكتب) وقرئ تطوى بالفوقية ورفع السماء وبالتحتية على معنى يطوي الله السماء والأولى أظهر وأوضح والطي في هذه الآية يحتمل معنيين أحدهما الذي هو ضد النشر ومنه قوله والسموات مطويات بيمينه والثاني الاخفاء والتعمية والمحو لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها والمراد بالسماء الجنس والسجل الصحيفة أي طيا كطي الطومار للكتابة وقيل السجل الصك وهو مشتق من المساجلة وهي المكاتبة وأصلها من السجل وهو الدلو يقال ساجلت الرجل اذا نزعت دلوا ونزع هو دلوا ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام وقرئ السجل بضم السين والجيم وتشديد اللام وقرئ السجل بفتح السين واسكان الجيم وقيل السجل اسم ملك في السماء الثالثة وهو الذي يطوي كتب بني آدم وقيل هو اسم كاتب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاله ابن عباس أخرجه أبو داود والنسائي وعن ابن عمر مثله قال ابن كثير هذا منكر جدا وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه وان كان في سنن أبي داود منهم الحافظ المزي وقد أفرد الشوكاني لهذا الحديث جزأ على حدة وقد تصدى الامام ابن جرير للانكار على هذا الحديث ورده أتم رد وقال ولا نعرف في الصحابة أحدا اسمه سجل وكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا معروفين وليس فيهم أحد اسمه السجل انتهى وصدق رحمه الله في ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا فانما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم قال والصحيح عن ابن عباس ان السجل هو الصحيفة ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة قلت فالأولى التعويل على المعنى اللغوي والمصير اليه وأخرج النسائي عن ابن عباس قال السجل هو الرجل أي بلغة الحبشة والأول أولى وقرئ للكتب جمعا وللكتاب وهو متعلق بمحذوف حال من السجل أي كطي السجل كائنا للكتب فان الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطي حقيقة وأما على الثانية فالكتاب مصدر واللام للتعليل أي كما يطوى الطومار للكتابة أي ليكتب فيه أو لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة والأعمال

بحمل حوت مملوح معه وقيل له متى فقدت الحوت فهو ثمة فسارا حتى بلغا مجمع البحرين وهناك عين يقال لها عين الحياة فناما هنالك
واصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام وطفر من المكتل الى البحر فاستيقظ يوشع
عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده ولهذا قال تعالى واتخذ سبيله في البحر سربا
اي مثل السرب في الارض قال ابن جرير قال ابن عباس صار اثره كأنه حجر وقال العوفي عن ابن عباس جعل الحوت لا يمس شيئا من
البحر الا يبس حتى يكون صخرة وقال محمد (١٥٤) بن اسحق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن أبي بن كعب
قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم حين ذكر حديث ذلك ما انجاب
ماء منذ كان الناس غيره ثبت مكان
الحوت الذي فيه فانجاب كالكوة
حتى رجع اليه موسى فرأى مسلكه
فقال ذلك ما كنا نبغي وقال قتادة
سرب من البحر حتى افضى الى البحر
ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه
طريقا الا صار ماء جامدا وقوله
فلما جاوزا أي المكان الذي نسيا
الحوت فيه ونسب النسيان اليهما
وان كان يوشع هو الذي نسيه
كقوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ
والمرجان وانما يخرج من المالح
على أحد القولين فلما ذهبا عن
المكان الذي نسياه فيه بمرحلة
قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد
لقينا من سفرنا هذا أي الذي
جاوزا فيه المكان نصبا يعني تعبا
قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة
فاني نسيت الحوت وما أنسانيه الا
الشيطان أن أذكره قال قتادة
وقرأ ابن مسعود ان أذكره ولهذا
قال فاتخذ سبيله أي طريقه في البحر
عجبا قال ذلك ما كنا نبغي أي هذا
هو الذي نطلب فارتدا أي رجعا
على آثارهما أي طريقهما قصصا أي يقصان آثر مشيهما ويقفوان أثرهما فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة عليه
من عندنا وعلمناه من لدنا علما وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الاحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
البخاري حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرني سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالي يزعم أن
موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني اسرائيل قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه انه سمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان موسى قام خطيبا في بني اسرائيل فسئل أي الناس أعلم قال انا فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم

المنتشرة وهذا على ان معنى الطي ضد النشر وعن علي قال كطي السجل ملك وعن عطية
وأبي جعفر مثله قال ابن عمر السجل ملك فاذا اصعد بالاستغفار قال اكتبوها نورا (كما بدأنا
أول خلق نعيده) بعد اعدامه تشبيه للاعادة بالابتداء في تناول القدرة لهما على السواء
أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم وأخرجناهم الى الارض حفاة عراة غرلا كذلك نعيدهم
يوم القيامة وانما خص أول الخلق بالذكر تصويرا للايجاد عن العدم والمقصود بيان صحة
الاعادة بالقياس على المبدا لشمول الامكان الذاتي لهما وقيل معنى الآية نهلك كل نفس
كما كان أول مرة قاله ابن عباس وقيل المعنى نغير السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها
وزوالها والاول اولى وهو مثل قوله ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ثم قال
سبحانه (وعدا علينا) أي وعدنا وعدا علينا انجازه والوفاء به وهو البعث والاعادة ثم
أكد سبحانه ذلك بقوله (انا كنا فاعلين) أي محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا
صالح الاعمال للخلاص من هذه الاحوال قال الزجاج معناه انا كنا قادرين على ما نشاؤه
وقيل فاعلين ما وعدناكم ومثله قوله كان وعده مفعولا (ولقد كتبنا في الزبور) هو في الاصل
الكتاب يقال زبرت أي كتبت وعلى هذا يصح اطلاق الزبور على التوراة والانجيل وعلى
كتاب داود المسمى بالزبور والمراد جنس الكتب المنزلة قاله الزجاج وقيل المراد به هنا
كتاب داود خاصة (من بعد الذكر) أي اللوح المحفوظ كما في البيضاوي والخازن وأبي
السعود وأبي حيان وقيل هو القرآن قاله ابن عباس وعنه قال والذكر الاصل الذي
نسخت منه هذه الكتب الذي في السماء أي والله لقد كتبنا في كتاب داود من بعد كتبنا في
التوراة أو من بعد كتبنا في اللوح المحفوظ (أن الارض يرثها عبادي الصالحون) قد
اختلف في معنى هذه الآية فقيل المراد أرض الجنة قاله ابن عباس واستدل القائلون بهذا
بقوله سبحانه وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض وقيل هي الارض المقدسة
وقيل هي أرض الامم الكثيرة الكافرة يرثها نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وأمته بفتحها
وقيل المراد بذلك بنو اسرائيل بدليل قوله سبحانه وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون
مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها والظاهر ان هذا تبشير لامته صلى الله عليه وآله
وسلم بوراثة أرض الكافرين وعليه أكثر المفسرين قال ابن عباس أخبر الله سبحانه في
التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والارض أن يورث أمة محمد صلى الله

عليه وآله وسلم ويدخلهم الجنة وهم الصالحون وقيل عام فى كل صالح فيتناول أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وغيرها من الامم (ان فى هذا لبلاغا) أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه لكفاية ووصول الى البغية قاله الرازى يقال فى هذا الشئ بلاغ وبلغة وتبلغ أى كفاية وقيل الاشارة بهذا الى القرآن والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر (لقوم عابدين) أى مشغولين بعبادة الله مهتمين بها والعبادة هى الخضوع والتذلل وهم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورأس العبادة الصلاة قال أبو هريرة الصلوات الخمس وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الآية قال ان فى الصلوات الخمس شغلا للعبادة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية وقال هى الصلوات الخمس فى المسجد الحرام جماعة وقيل هم العالمون العاملون الموحدون وقال الرازى والاولى انهم الجامعون بين الامرين لان العلم كالشجرة والعمل كالثمرة والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن (وما أرسلناك) يا محمد بالشرائع والاحكام (الا رحمة للعالمين) أى الانس والجن والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال والعلل أى ما أرسلناك لعلة من العلل الا لرحمتنا الواسعة فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين وقيل معنى كونه رحمة للكفار أنهم أمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال وقيل المراد بالعالمين المؤمنون خاصة والاول أولى بدليل قوله سبحانه وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وعن ابن عباس فى الآية قال من آمن تمت به الرحمة فى الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن عوفى مما كان يصيب الأمم فى عاجل الدنيا من العذاب من المسخ والخسف والقذف وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال قيل يارسول الله ادع الله على المشركين قال انى لم أبعث لعانا وانما بعثت رحمة وأخرج أحمد والطيالسى والطبرانى وأبو نعيم عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للمتقين وأخرج أحمد والطبرانى عن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ايما رجل من أمتى سببته سبة فى غضبى أو لعنته لعنة فانما أنا رجل من بنى آدم أغضب كما يغضبون وانما بعثنى رحمة للعالمين فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة وأخرج البيهقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انما أنا رحمة مهداة وقد روى معنى هذا من طرق ثم بين سبحانه ان أصل تلك

اليه فأوحى الله اليه ان لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب وكيف لى به قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به قال له فتاه أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا قال فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا فقال ذلك ما كنا نبغى فارتدا على آثارهما قصصا قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا الى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام فقال انا موسى فقال موسى بنى اسرائيل قال نعم قال أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معى صبرا ياموسى انى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه فقال موسى ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا قال له الخضر فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم ان يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ الا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قد حملونا بغير نول فعمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ امرا قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت الاولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر ما علمى وعلمك فى علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل اذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيأ نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا قال وهذه

أشد من الاولى قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها
فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض أى مائلا فقال الخضر بيده فأقامه فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا
ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم وددنا ان موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما قال سعيد بن جبير كان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ
كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ وأما (١٥٦) الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ثم رواه البخارى عن قتيبة عن سفيان
ابن عيينة فذكر نحوه وفيه فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا الى الصخرة فنزلا عندها قال فوضع موسى رأسه فنام قال سفيان وفى حديث غير عمرو قال وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شئ الا حيي فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر فلما استيقظ قال موسى لفتاه آتنا غداءنا الآية قال وساق الحديث ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر فقال الخضر لموسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله الا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه وقال البخارى أيضا حدثنا ابراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف ان ابن جريج أخبرهم قال أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبير يزيد أحدهما على صاحبه وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبير قال انا لعند ابن عباس فى بيته اذ قال سلوني فقلت أى أبا عباس جعلني
الله فداك بالكوفة رجل قاص يقال له نوف يزعم انه ليس بموسى بنى اسرائيل أما عمرو فقال لى قال كذب عدو الله بحكمك
وأما يعلى فقال لى قال ابن عباس حدثنى أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى رسول الله ذكر الناس يوما
حتى اذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فادركه رجل فقال أى رسول الله هل فى الارض أحد أعلم منك قال لا فعتب الله عليه اذ
لم يرد العلم الى الله قيل بلى قال أى رب وأين قال بمجمع البحرين قال أى رب اجعل لى علما أعلم ذلك به قال قال لى عمرو حيث يفارقك
الحوت وقال لى يعلى خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح فاخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه لا أكلفك الا أن تخبرني بحيث

الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال (قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد) ان كانت ما موصولة فالمعنى ان الذى يوحى الى هو ان وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها الى ما يناقضها أو يضادها وان كانت ما كافة فالمعنى ان الوحى الى مقصور على استئثار الله بالوحدة (فهل أنتم مسلمون) منقادون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه والمراد بهذا الاستفهام الامر أى أسلموا (فان تولوا) أى أعرضوا عن الاسلام (فقل) لهم (آذنتكم) أى أعلمتكم انا واياكم حرب لا صلح بيننا كائنين (على سواء) فى الاعلام لم أخص به بعضكم دون بعض كقوله سبحانه واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء أى أعلمهم انك نقضت العهد نقضا سويت بينهم فيه وقال الزجاج المعنى أعلمتكم بما يوحى الى على استواء فى العلم به ولا أظهر لاحد شيأ كتمته على غيره (وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون) أى ما أدرى أقريب حصوله أم بعيد وهو غلبة الاسلام وأهله على الكفر وأهله وقيل المراد العذاب أو القيامة المشتملة عليه ولا يعلمها الا الله تعالى وقيل آذنتكم بالحرب ولكن لا ادرى ما يؤذن لى فى محاربتكم (انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) أى يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الاسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه لا يخفى عليه منه خافية (وان أدرى لعله) أى ما أدرى لعل الامهال (فتنة لكم) واختبار ليرى كيف صنيعكم عن الربيع بن أنس قال لما اسرى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم رأى فلانا وهو بعض بنى أمية على المنبر يخطب الناس فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانزل الله هذه الآية يقول هذا الملك وقال ابن عباس يقول ما أخبركم به من العذاب والساعة لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم (ومتاع الى حين) أى وتمتع الى وقت مقدر تقتضيه حكمته ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (قال رب احكم بالحق) بينى وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوض الامر اليه سبحانه وقال ابن عباس لا يحكم الله الا بالحق وانما يستعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربه وقرئ رب بضم الباء قال النحاس وهذا لحن عند النحويين وقرئ أحكم بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم أى قال محمد ربى أحكم بالحق من كل حاكم وقرئ أحكم بصيغة الماضى أى أحكم الامور بالحق وقرئ قل بصيغة الامر أى قل يا محمد قال أبو عبيدة الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير رب احكم

بحكمه الحق وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فعذبهم ببدر ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله رب العالمين ثم قال سبحانه متمما لتلك الحكاية (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) من الكفر والتكذيب أي هو كثير الرحمة لعباده والمستعان به في الامور التي من جملتها ما تصفونه من ان الشوكة تكون لكم ومن قولكم هل هذا الا بشر مثلكم وقولكم اتخذ الرحمن ولدا وكثيرا ما يستعمل الوصف في كتاب الله بمعنى الكذب كقوله ولكم الويل مما تصفون وقوله سيجزيهم وصفهم وقرئ بالتحتية وبالفوقية على الخطاب

(سورة الحج هي سبع أو ثمان وسبعون آية)

اختلف العلماء هل هي مكية أو مدنية قال ابن عباس نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير ومجاهد مثله وقال قتادة الا أربع آيات وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الى قوله عذاب يوم عقيم فهن مكيات وقال ابن عباس سوى ثلاث آيات وقيل أربع آيات الى قوله عذاب الحريق وعن النقاش انه عد ما نزل منها بالمدينة عشر آيات وقال الجمهور ان السورة مختلطة منها مكي ومنها مدني قال القرطبي وهذا هو الصحيح لان الآيات تقتضي ذلك لان يا أيها الناس مكي ويا أيها الذين آمنوا مدني قال الغزنوي وهي من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا سفرا وحضرا مكيا ومدنيا سلميا وحربيا ناسخا ومنسوخا محكما ومتشابها وقد ورد في فضلها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين قال نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأها قال الترمذي هذا حديث حسن ليس اسناده بالقوي وقد روي عن كثير من الصحابة ان فيها سجدتين وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد واسحق وقال بعضهم ان فيها سجدة واحدة وهو قول سفيان الثوري وروي هذا عن ابن عباس وابراهيم النخعي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

لما انجر الكلام في خاتمة السورة المتقدمة الى ذكر الاعادة وما قبلها وما بعدها بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها حثا على التقوى التي هي أنفع زاد فقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم) أي احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد على ما تقرر

والآخذ شيئا من شيء ذلك الصبا ذال رقد نزع الله عنك النصب ليست هذه منه فعندئذ جبير قال حيث قبيصة بن عمرو ... ... حيث قبل الحي قالت فدخلت ... ... سلمان على حفنة خضراء على كبد البحر قال سعيد ... ... قد سعل ... فقمت رجاله كثرة ... فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال هل بأرضي من سلام من أنت قال انا موسى قال موسى بني اسرائيل قال نعم قال فما شانك قال جئت لتعلمني مما علمت رشدا قال اما يكفيك ان التوراة بيديك وان الوحي يأتيك يا موسى ان لي علما لا ينبغي لك أن تعلمه وان لك علما لا ينبغي لي أن أعلمه فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله الا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر حتى اذا ركبا في السفينة وجدا معابر صغارا تحمل أهل هذا الساحل الى هذا الساحل الآخر عرفوه فقالوا عبد الله الصالح قال فقلنا لسعيد بن جبير خضر قال نعم لا نحمله بأجر فخرقها ووتد فيها وتدا قال موسى أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا قال مجاهد منكرا قال ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا كانت الاولى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا فانطلقا حتى لقيا غلاما فقتله قال يعلى قال سعيد وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما كافرا ظريفا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين فقال أقتلت نفسا زكية لم تعمل الحنث ابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاما زكيا فانطلقا فوجدا جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا قال يعلى حسبت ان سعيدا قال فمسحه بيده فاستقام قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال سعيد أجرا نأكله وكان وراءهم ملك وكان أمامهم قرأها ابن عباس أمامهم ملك يزعمون عن غير سعيد أنه هدد بن بدد والغلام المقتول اسمه يزعمون حيسور ملك يأخذ كل سفينة غصبا فأردت اذا هي مرت به أن يدعها بعيبها فاذا

في موضعه وقد قدمنا طرفا من ذلك في سورة البقرة (ان زلزلة الساعة شيء عظيم) تعليل لما قبله من الامر بالتقوى والزلزلة شدة الحركة والازعاج وأصلها من زل عن الموضع أي زال عنه وتحرك وزلزل الله قدمه أي حركها وتكرير الحرف يدل على تأكيد المعنى وهو من اضافة المصدر الى فاعله ومفعوله محذوف تقديره الارض ويكون اسناد الزلزلة الى الساعة على سبيل المجاز العقلي وهي على هذا الزلزلة التي هي احدى اشراط الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة هذا قول الجمهور أو الى الظرف لانها تكون فيها كقوله بل مكر الليل والنهار ووقتها يكون يوم القيامة وقيل انها تكون في النصف من شهر رمضان ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها ولا حجة فيه للمعتزلة في تسمية المعدوم شيأ فان هذا اسم لها حال وجودها وقيل في التعبير عنها بالشيء ايذان بأن العقول قاصرة عن ادراك كنهها وقد أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم عن عمران بن حصين قال لما نزلت يا أيها الناس الى قوله عذاب شديد أنزلت عليه هذه وهو في سفر فقال أتدرون أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار قال يارب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار وواحد الى الجنة فانشأ المسلمون يبكون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاربوا وسددوا وأبشروا فانها لم تكن نبوة قط الا كان بين يديها جاهلية فتؤخذ العدة من الجاهلية فان تمت والا كملت من المنافقين وما مثلكم والامم الا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير ثم قال اني لارجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال اني لارجو ان تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال اني لارجو ان تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا قال ولا أدري قال الثلثين أم لا وأخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر عنه مرفوعا نحوه وقال في آخره اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده انكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء الا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم ومن بني ابليس فسري عن القوم بعض الذي يجدون قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس الا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكر نحوه وفي آخره فقال من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد وهل أنتم في الامم الا كالشعرة السوداء في الثور الابيض أو كالشعرة

جزروا أصلحوها فانتفعوا بها منهم من يقول سدوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار كان أبواه مؤمنين وكان هو كافرا فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا ان يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه فاردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة كقوله أقتلت نفسا زكية وقوله وأقرب رحما هما به أرحم منهما بالاول الذي قتل خضر وزعم غير سعيد بن جبير انهما أبدلا جارية وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد انها جارية وقال عبد الرزاق اخبرنا معمر عن أبي اسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطب موسى عليه السلام بني اسرائيل فقال ما أحد أعلم بالله وبأمره مني فامر ان يلقى هذا الرجل فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان والله أعلم وقال محمد بن اسحق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة عن سعيد بن جبير قال جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم يا أبا العباس ان نوفا ابن امرأة كعب يزعم عن كعب ان موسى النبي الذي طلب العلم انما هو موسى بن ميشا قال سعيد فقال ابن عباس أنوف يقول هذا يا سعيد فقلت له نعم انا سمعت نوفا يقول ذلك قال أنت سمعته حدثنا سعيد قال قلت نعم قال كذب نوف ثم قال ابن عباس حدثني أبي ابن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان موسى بني اسرائيل سأل ربه فقال أي رب ان كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدلني عليه فقال له نعم في عبادي من هو أعلم منك ثم نعت له مكانه وأذن له في لقيه فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح قد قيل له اذا حيي هذا الحوت في مكان فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك فخرج موسى ومعه فتاه ومعه ذلك الحوت يحملانه فسار حتى جهده السير وانتهى الى الصخرة والى ذلك الماء وذلك الماء ماء الحياة من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت الا حيي فلما نزلا ومس الحوت الماء حيي فاتخذ سبيله في البحر سربا فانطلقا فلما جاوزا النقلة قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال الفتى وذكر أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان ان أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال ابن عباس فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا اليها فاذا رجل متلفف في كساء له فسلم موسى فرد عليه السلام ثم قال له ما جاء بك ان كان لك في قومك لشغل قال له موسى جئتك لتعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا وكان رجلا يعلم علم الغيب قد علم ذلك فقال موسى بلى قال وكيف

تصبر على مالم تحط به خبرا أى انما تعرف ظاهر ماترى من العدل ولم تحط من علم
أعصى لك أمرا وان رأيت ما يخالف هوى قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ وان أنكرته حتى
على ساحل البحر يتعرضان الناس يلتمسان من يحملهما حتى مرت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمر ... السفن ... سن ولا
اجمل ولا أوثق منها فسألا أهلها أن يحملوهما فحملوهما فلما اطمأنا فيها ولجت بهما مع أهلها أخرج منقارا له ومطرقة ثم عمد الى
ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها ثم أخذ لوحا فطبقه عليها ثم جلس (١٥٩) عليها يرقعها فقال له موسى ورأى أمرا فظع به
أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ
امرا قال ألم أقل انك لن تستطيع
معى صبرا قال لا تؤاخذنى بما
نسيت اى بما تركت من عهدك ولا
ترهقنى من أمرى عسرا ثم خرجا
من السفينة فانطلقا حتى آتيا أهل
قرية فاذا غلمان يلعبون خلفها فيهم
غلام ليس فى الغلمان غلام أظرف
منه ولا أثرى ولا أوضأ منه فأخذه
بيده وأخذ حجرا فضرب به رأسه
حتى دمغه فقتله قال فرأى موسى
أمرا فظيعا لاصبر عليه صبى صغير
قتله لاذنب له قال أقتلت نفسا
زكية أى صغيرة بغير نفس لقد جئت
شيأ نكرا قال ألم أقل لك انك لن
تستطيع معى صبرا قال ان سألتك
عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد
بلغت من لدنى عذرا أى قد عذرت
فى شأنى فانطلقا حتى اذا آتيا أهل
قرية استطعما أهلها فأبوا أن
يضيفوهما فوجدا فيها جدارا
يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد
يبنيه فضجر موسى مما يراه يصنع
من التكليف ومالبس عليه
صبرا فأقامه قال لو شئت لاتخذت
عليه أجرا أى قد استطعمناهم فلم
يطعمونا وضفناهم فلم يضيفونا ثم قعدت تعمل من غير صنيعة ولو شئت لاعطيت عليه أجرا فى عمله قال هذا فراق بينى و بينك
سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاردت ان أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ
كل سفينة غصبا وفى قراءة أبى بن كعب كل سفينة صالحة وانما عبتها لا رده عنها فسلمت منه حين رأى العيب الذى صنعت بها وأما
الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما وأما الجدار
فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من

كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود (يوم ترونها) أى وقت رؤيتكم للزلزلة (تذهل كل
مرضعة عما أرضعت) أى تغفل كل ذات رضاع عن رضيعها قال قطرب تذهل تشتغل
وقيل تنسى وقيل تلهو وقيل تسلو وهذه معانيها متقاربة قال المبرد ماهنا بمعنى المصدر
أى تذهل عن الارضاع قال وهذا يدل على أن هذه الزلزلة فى الدنيا اذ ليس بعد القيامة حمل
وارضاع الا أن يقال ان من ماتت حاملا فتضع حملها للهول ومن ماتت مرضعة بعثت
كذلك ويقال هذا مثل كما يقال يوما يجعل الولدان شيبا وقيل يكون مع النفخة الاولى قال
ويحتمل أن تكون الزلزلة عبارة عن أهوال يوم القيامة كما فى قوله مستهم البأساء والضراء
وزلزلوا (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تلقى جنينها لغير تمام من شدة الهول كما أن
المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك (وترى الناس سكارى) قرأ الجمهور بفتح التاء والراء
خطابا لكل واحد أى يراهم الرائى كأنهم سكارى وقرئ ترى بضم التاء مسندا الى المخاطب
من أرأيتك أى تظنهم سكارى قال الفراء ولهذه وجه جيد فى العربية (وماهم بسكارى)
حقيقة وقرئ سكرى بغير ألف وهما لغتان يجمع بهما سكران مثل كسلى وكسالى ولما نفى
سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذى لاجله شابهوا السكارى فقال (ولكن عذاب
الله شديد) فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم واضطربت افهامهم
فصاروا كالسكارى بجامع سلب كمال التميز وصحة الادراك وروى ان هاتين الآيتين نزلتا
فى غزوة بنى المصطلق ليلا فقرأهما النبى صلى الله عليه وآله وسلم فلم ير أكثر باكيا من تلك
الليلة قاله أبو حيان فى البحر ثم لما أراد سبحانه ان يحتج على منكرى البعث قدم قبل ذلك
مقدمة تشمل أهل الجدال كلهم فقال (ومن الناس من يجادل فى الله) أى فى شأن الله
وقدرته وصفاته والمعنى انه يخاصم فى ذلك فيزعم انه غير قادر على البعث (بغير علم) يعلمه
ولا حجة يدلى بها أو يؤول أو يمثل أو يعطل أو يشبه صفاته بصفات الخلق من دون حجة نيرة
أو يكابر فى دين الله و يقول فيه مالا خير فيه من الاباطيل وتقليد آراء الرجال (ويتبع)
فيما يقوله ويتعاطاه ويحتج به ويجادل عنه (كل شيطان مريد) أى متمرد على الله متجرد
للفساد وهو العاتى سمى بذلك لخلوه عن كل خير وقال الزجاج المريد والمارد المرتفع الاملس
والمراد اما ابليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم الى الكفر قال
المفسرون نزلت فى النضر بن الحرث وكان كثير الجدال وكان ينكر ان الله يقدر على احياء

الاموات وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة (كتب عليه) أي قضي على الشيطان قاله قتادة وعن مجاهد مثله (انه من تولاه) أي من اتخذه وليا واتبعه (فانه) أي فشأن الشيطان انه (يضله) عن طريق الحق والجنة وقد وصف الشيطان بوصفين الاول انه مريد والثاني ما أفاده جملة كتب عليه الخ (ويهديه الى عذاب السعير) أي يحمله على مباشرة ما يصير به في العذاب وفي الآية زجر عن اتباعه ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدمة فقال (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث) قرأ الجمهور بسكون العين وقرئ بفتحها وهي لغة وشكهم يحتمل ان يكون في وقوعه أو في مكانه والمعنى ان كنتم في شك من الاعادة بعد الموت فانظروا في مبدا خلقكم أي خلق أبيكم آدم ليزول عنكم الريب ويرتفع الشك وتدحض الشبهة الباطلة (فانا خلقناكم من تراب) في ضمن خلق أبيكم آدم وهذا أول تطور الانسان في أطوار سبعة وهي التراب والنطفة والعلقة والمضغة والاخراج طفلا وبلوغ الاشد والتوفي أو الرد الى أرذل العمر كما سيأتي تفصيل ذلك (ثم) خلقناكم (من نطفة) أي من مني سمي نطفة لقلته والنطفة القليل من الماء وقد يقع على الكثير منه والنطفة القطرة يقال نطف ينطف أي قطر وليلة نطوف أي دائمة القطر (ثم من علقة) وهي الدم الجامد والعلق الدم العبيط أي الطري أو المتجمد وقيل الشديد الحمرة والمراد الدم الجامد المتكون من مني (ثم من مضغة) وهي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ الماضغ تتكون من العلقة (مخلقة) اى مستبينة الخلق ظاهرة التصوير (وغير مخلقة) اى لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها قال ابن عباس المخلقة ما كان حيا تام الخلق وغير المخلقة ما كان سقطا وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين وقال ابن الاعرابي مخلقة يريد قد بدا خلقه وغير مخلقة لم تصور قال الاكثر ما اكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتمام وما سقط كان غير مخلقة اى غير حي باكمال خلقته بالروح قال الفراء مخلقة تام الخلق وغير مخلقة السقط واخرج البخاري ومسلم واهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدوق ان احدكم يجمع خلقه في بطن امه اربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه واجله وعمله وشقي أو سعيد فو الذي لا اله غيره ان أحدكم

ربك وما فعلته عن امري أي ما فعلته عن نفسي ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا فكان ابن عباس يقول ما كان الكنز الا علما وقال العوفي عن ابن عباس قال لما ظهر موسى وقومه على مصر نزل قومه مصر فلما استقرت بهم الدار أنزل الله ان ذكرهم بايام الله فخطب قومه فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة وذكرهم اذ نجاهم الله من آل فرعون وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم الله في الارض وقال كلم الله نبيكم تكليما واصطفاني لنفسه وأنزل علي محبة منه وآتاكم الله من كل ما سألتموه فنبيكم أفضل أهل الارض وأنتم تقرؤن التوراة فلم يترك نعمة (١٦٠) أنعم الله عليهم الا وعرفهم اياها فقال له رجل من بني اسرائيل هم كذلك يا نبي الله قد عرفنا الذي تقول فهل على الارض أحد أعلم منك يا نبي الله قال لا فبعث الله جبرائيل الى موسى عليه السلام فقال ان الله يقول وما يدريك أين أضع علمي بلى ان على شط البحر رجلا هو أعلم منك قال ابن عباس هو الخضر فسأل موسى ربه أن يريه اياه فاوحى اليه ان ائت البحر فانك تجد على شط البحر حوتا فخذه فادفعه الى فتاك ثم الزم شاطئ البحر فاذا نسيت الحوت وهلك منك فثم تجد العبد الصالح الذي تطلب فلما طال سفر موسى نبي الله ونصب فيه سأل فتاه عن الحوت فقال له فتاه وهو غلامه أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان ان أذكره لك قال الفتى لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله في البحر سربا فأعجب ذلك فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيأ من البحر الا يبس عنه الماء حتى يكون صخرة فجعل نبي الله يعجب من ذلك حتى انتهى به الحوت الى جزيرة من جزائر البحر فلقي الخضر بها فسلم عليه فقال الخضر وعليك السلام وانى يكون السلام بهذه الارض ومن أنت قال انا موسى قال الخضر صاحب بني اسرائيل فرحب به وقال ما جاء بك قال جئتك على ان تعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا يقول لا تطيق ذلك قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا قال فانطلق به وقال له لا تسألني عن شيء اصنعه حتى ابين لك شأنه فذلك قوله حتى أحدث لك منه ذكرا وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس انه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري

في صاحب موسى فقال ابن عباس هو خضر فمرّ بهما أبيّ بن كعب فدعاه ابن عباس فقال اني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل الى لقيه فهل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه قال اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بينا موسى في ملا من بني اسرائيل اذ جاءه رجل فقال تعلم مكان رجل أعلم منك قال لا فأوحى الله الى موسى بلى عبدنا خضر فسأل موسى السبيل الى لقيه فجعل الله له الحوت آية وقيل له اذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر فقال فتى موسى لموسى أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت قال موسى ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا عبدنا خضرا فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال

ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا) يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما انه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر قال له موسى هل أتبعك سؤال تلطف لا على وجه الالزام والاجبار وهكذا ينبغي ان يكون سؤال المتعلم من العالم وقوله أتبعك اى أصحبك وأرافقك على أن تعلمني مما علمت رشدا اى مما علمك الله شيأ أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح فعندها قال الخضر لموسى انك لن تستطيع معي صبرا اى انك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الافعال التي تخالف شريعتك لاني على علم من علم الله ما علمكه الله وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه وأنت لا تقدر على صحبتي وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا فانا أعرف انك ستنكر على ما أنت معذور فيه ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك قال اى موسى ستجدني ان شاء الله صابرا أي على ما أرى من أمورك ولا أعصي لك أمرا اى ولا أخالفك في شئ فعند ذلك شارطه الخضر قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شئ أي ابتداء حتى أحدث لك منه ذكرا أي حتى أبدأك أنا به قبل ان تسألني قال ابن جرير حدثنا حميد بن جبير حدثنا يعقوب عن هرون عن عبيدة عن أبيه عن ابن عباس قال سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال أي رب اى عبادك احب اليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأي عبادك أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال اى رب اى عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه الى هدى أو ترده عن ردى قال اى رب فهل في أرضك أحد أعلم

احدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها والاحاديث في هذا الباب كثيرة جدا (لنبين لكم) أي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم لتستدلوا بها في ابتداء الخلق على اعادته (ونقر) مستأنف أي نثبت (في الارحام ما نشاء) فلا يكون سقطا ولم يقل من نشاء لانه يرجع الى الحمل وهو جماد قبل ان ينفخ فيه الروح وقرئ ما نشاء بكسر النون (الى أجل مسمى) وهو وقت الولادة (ثم نخرجكم) من بطون أمهاتكم (طفلا) أي اطفالا وانما أفرده ارادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد قال الزجاج طفلا في معنى اطفالا ودل عليه ذكر الجماعة يعني في نخرجكم والعرب كثيرا ما تطلق اسم الواحد على الجماعة والمعنى نخرج كل واحد منكم نحو القوم يشبعهم رغيف أي كل واحد منهم وقال المبرد هو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعدل فيقع على الواحد والجمع قال الله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا ثم قيل نصبه على التمييز قاله ابن جرير وفيه بعد والظاهر انه على الحال والطفل يطلق على الولد الصغير من وقت انفصاله الى البلوغ وأما الطفل بالفتح فهو الناعم والمرأة طفلة (ثم لتبلغوا أشدكم) كانه قيل نخرجكم لتكبروا شيأ فشيأ ثم لتبلغوا الى الاشد وقيل ان ثم زائدة والاشد هو كمال العقل وكمال القوة والتمييز قيل وهو ما بين الثلاثين الى الاربعين وهو في الاصل جمع شدة كانعم جمع نعمة وقد تقدم الكلام على هذا مستوفى في الانعام (ومنكم من يتوفى) اى يموت قبل بلوغ الاشد والكبر وقرئ مبنيا للفاعل أيضا (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أي أخسه وادونه وهو الهرم والخرف وهو خمس وسبعون سنة قاله علي وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة حتى لا يعقل ولهذا قال سبحانه (لكيلا يعلم) أي يعقل (من بعد علم) أي بعد عقله الاول (شيأ) من الاشياء أو شيأ من العلم والمعنى انه يصير من بعد ان كان

منى قال نعم قال فمن هو قال الخضر قال وأين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة التى ينفلت عندها الحوت قال فخرج موسى يطلبه حتى كان ماذكر الله وانتهى موسى اليه عند الصخرة فسلم كل واحد منهما على صاحبه فقال له موسى انى أحب أن أصحبك قال انك لن تطيق صحبتى قال بلى قال فان صحبتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا قال فسار به فى البحر حتى انتهى الى مجمع البحور وليس فى البحر مكان أكثر ماء منه قال وبعث الله الخطاف فجعل يستقى منه بمنقاره فقال لموسى كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء قال ما أقل مارزأ قال يا موسى فان علمى وعلمك فى علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء وكان موسى قد حدث نفسه انه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به فمن ثم أمر ان يأتى الخضر وذكر تمام الحديث فى خرق السفينة وقتل الغلام واصلاح الجدار وتفسيره له ذلك (فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ امرا قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) يقول تعالى مخبرا عن موسى وصاحبه وهو الخضر انهما انطلقا لما توافقا واصطحبا واشترط عليه أن لا يسأله عن شئ أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه فركبا فى السفينة وقد تقدم فى الحديث كيف ركبا فى السفينة وانهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول يعنى بغير أجرة تكرمة للخضر فلما استقلت بهم السفينة فى البحر ولجت أى دخلت اللجة قام الخضر فخرقها واستخرج لوحا من ألواحها ثم رقعها فلم يملك موسى عليه السلام نفسه ان قال منكرا عليه أخرقتها لتغرق أهلها وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل كما قال الشاعر

* لدوا للموت وابنوا للخراب *

لقد جئت شيأ امرا قال مجاهد منكرا وقال قتادة عجبا فعندها قال الخضر مذكرا بما تقدم من الشرط ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا يعنى وهذا الصنيع فعلته قصدا وهو من الامور التى اشترطت معك أن لا تنكر على فيها لانك لم تحط بها خبرا ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت قال اى موسى لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا اى لا تضيق على وتشدد على ولهذا تقدم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كانت الاولى من موسى نسيانا (فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيأ نكرا قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا) يقول تعالى فانطلقا أى بعد ذلك حتى اذا لقيا غلاما فقتله وقد تقدم انه كان يلعب مع الغلمان فى قرية من القرى وانه عمد اليه من بينهم وكان أحسنهم وأجملهم وأصفاهم

ذا علم بالاشياء وفهم لها الا علم له ولا فهم كهيئته الاولى فى أوان الطفولية من سخافة الرأى وقلة الفقه والعقل والفهم فينسى ما يعلمه وينكر ما يعرفه ومثله قوله تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين وقوله ومن نعمره ننكسه فى الخلق قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة أى فهذا الرد والنكس خاص بغير قارئ القرآن والعلماء واما هؤلاء فلا يردون فى آخر عمرهم الى الارذل بل يزداد عقلهم كلما طال عمرهم (وترى الارض هامدة) هذه حجة أخرى على البعث فانه سبحانه احتج باحياء الارض بانزال الماء على احياء الاموات والهامدة اليابسة التى لا تنبت شيأ قال ابن قتيبة أى ميتة يابسة كالنار اذا طفئت وقيل دارسة والهمود السكون والخشوع والدروس وقيل هى التى ذهب عنها الندى وقيل هالكة ومعانى هذه الاقوال متقاربة (فاذا أنزلنا عليها الماء) أى ماء المطر والانهار والبحار والعيون والسواقى (اهتزت) أى تحركت فى رأى العين والاهتزاز شدة الحركة يقال هززت الشئ فاهتز أى حركته فتحرك والمعنى تحركت بالنبات لان النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض ازالة حقيقية فسماه اهتزازا مجازا وقال المبرد المعنى اهتز نباتها واهتزازه شدة حركته والاهتزاز فى النبات أظهر منه فى الارض (وربت) أى ارتفعت وقيل انتفخت وزادت والمعنى واحد وأصله الزيادة يقال ربا الشئ يربو ربوا اذا زاد ومنه الربا والربوة وربأت أى ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية وهو الذى يحفظ القوم على مكان مشرف ويقال له راب ورابية وربيئة (وأنبتت) أى أخرجت (من كل زوج بهيج) أى من كل صنف حسن ولون مستحسن سار للناظرين اليه والبهجة الحسن قاله ابن عباس يعنى الشئ المشرق الجميل ومن زائدة والاسناد مجازى لان المنبت فى الحقيقة هو الله تعالى (ذلك) الصنع البديع حاصل (بأن) أى بسبب ان (الله هو الحق) وحده فى ذاته وصفاته وأفعاله المحقق والموجد لما سواه من الاشياء فهذه الآثار الخاصة من فروع القدرة العامة التامة والحق هو

الموجود

فقتله وروى انه احتز رأسه وقيل رضخه بحجر وفي رواية اقتلعه بيده والله أعلم فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الاول وبادر فقال أقتلت نفسا زكية أي صغيرة لم تعمل الحنث ولا عملت اثما بعد فقتلته بغير نفس أي بغير مستند لقتله لقد جئت شيأ نكرا أي ظاهر النكارة قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا فأكد أيضا في التذكار بالشرط الاول فلهذا قال له موسى ان سألتك عن شئ بعدها أي ان اعترضت عليك بشئ بعد هذه المرة فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا أي قد اعذرت الى مرة بعد مرة قال ابن جرير حدثنا عبد الله بن زياد حدثنا حجاج بن محمد عن حمزة الزيات عن أبي اسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكر أحدا فدعا له بدأ بنفسه فقال ذات يوم رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لابصر العجب ولكن قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني و بينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) يقول تعالى مخبرا عنهما انهما انطلقا بعد المرتين الاوليين حتى اذا أتيا أهل قرية روى ابن جرير عن ابن سيرين انها الايكة وفي الحديث حتى اذا أتيا أهل قرية لئاما أي بخلاء فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض اسناد الارادة ههنا الى الجدار على سبيل الاستعارة فان الارادة في المحدثات بمعنى الميل والانقضاض هو السقوط وقوله فأقامه أي فرده الى حالة الاستقامة وقد تقدم في الحديث انه رده بيديه ودعمه حتى رد ميله وهذا خارق فعند ذلك قال موسى له لو شئت لاتخذت عليه أجرا أي لاجل انهم لم يضيفونا كان ينبغي ان لا تعمل لهم مجانا قال هذا فراق بيني و بينك أي لانك شرطت عند قتل الغلام انك ان سألتني عن شئ بعدها فلا تصاحبني فهو فراق بيني و بينك سأنبئك بتأويل أي بتفسير ما لم تستطع عليه صبرا (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت ان أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على باطنه فقال ان السفينة انما خرقتها لاعيبها لانهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة يأخذ كل سفينة صالحة أي جيدة غصبا فأردت ان أعيبها لارده عنها لعيبها فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شئ ينتفعون به غيرها وقد قيل انهم أيتام و روى ابن جريج عن وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي ان اسم ذلك الملك هدد بن بدد وقد تقدم أيضا في رواية البخاري وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن اسحق وهو من الملوك المنصوص عليهم

الموجود الذي لا يتغير ولا يزول وقيل ذو الحق على عباده وقيل الحق في أفعاله قال الزجاج ذلك في موضع رفع أي الامر ما وصف لكم وبين بان الله هو الحق والجملة مستأنفة ولما ذكر افتقار الموجودات اليه سبحانه وتسخيرها على وفق ارادته واقتداره قال بعد ذلك هذه المقالات (وانه يحيي الموتى وأنه على كل شئ) من الاشياء (قدير) والمعنى انه المتفرد بهذه الامور وانها من شأنه لا يدعي غيره انه يقدر على شئ منها فدل سبحانه بهذا على انه الحق الحقيقي الغني المطلق وان وجود كل موجود مستفاد منه (وأن الساعة آتية) أي في مستقبل الزمان قيل لابد من اضمار فعل أي ولتعلموا أن الساعة آتية (لاريب فيها) ولا تردد ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال (وأن الله يبعث من في القبور) فيجازيهم بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر وان ذلك كائن لا محالة والحاصل انه تعالى ذكر أسبابا خمسة الثلاثة الاول مؤثرة والاخيران غير مؤثرين (ومن الناس من يجادل في) شأن (الله) كقول من قال ان الملائكة بنات الله والمسيح ابن الله وعزير ابن الله قيل نزلت في النضر بن الحرث وقيل في أبي جهل وقيل في رجل من بني عبد الدار قاله ابن عباس وقيل هي عامة لكل من يتصدى لاضلال الناس واغوائهم وعلى كل حال فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ وان كان السبب خاصا والمعنى ومن الناس فريق يجادل في الله فيدخل في ذلك كل مجادل في ذات الله أو صفاته أو شرائعه الواضحة (بغير علم) أي كائنا بغير علم قيل والمراد بالعلم هو العلم الضروري (ولا هدى) وهو العلم النظري الاستدلالي لان الدليل يهدي الى المعرفة والاولى حمل العلم على العموم وحمل الهدى على معناه اللغوي وهو الارشاد (ولا كتاب) أي وحي (منير) وهو القرآن والمعنى انه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية والعلم للانسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة والمنير البين الحجة الواضح البرهان وهو وان دخل تحت قوله بغير علم فافراده بالذكر كافراد جبريل بالذكر بعد ذكر الملائكة وذلك لكونه الفرد الكامل

في التوراة والله اعلم (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما) قد تقدم ان هذا الغلام كان اسمه حيثور وفي الحديث عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا رواه ابن جرير من حديث ابن اسحق عن سعيد عن ابن عباس به ولهذا قال فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر قال قتادة قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض امرؤ بقضاء الله فان قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وصح في الحديث لا يقضي الله لمؤمن قضاء الا كان خيرا له وقال تعالى وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وقوله فأردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما أي ولدا أزكى من هذا وهما أرحم به منه قاله ابن جريج وقال قتادة

أبر بوالديه وقد تقدم انهما بدلا جارية وقيل لما قتله الخضر كانت أمه حاملا بغلام مسلم قاله ابن جريج (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) في هذه الآية دليل على اطلاق القرية على المدينة لانه قال أولا حتى اذا أتيا أهل قرية وقال ههنا فكان لغلامين يتيمين في المدينة كما قال تعالى فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعني مكة والطائف ومعنى الآية ان هذا الجدار انما أصلحته لانه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما قال عكرمة وقتادة وغير واحد كان تحته مال مدفون لهما وهذا ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وقال العوفي عن ابن عباس كان تحته كنز علم وكذا قال سعيد بن جبير وقال مجاهد صحف فيها علم وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده المشهور حدثنا ابراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا بشر بن المنذر حدثنا الحرث بن عبد الله اليحصبي عن عياش بن عباس الغساني عن أبي حجيرة عن أبي ذر رفعه قال ان الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل لا اله الا الله محمد رسول الله بشر بن المنذر هذا يقال له قاضي المصيصة قال الحافظ ابو جعفر العقيلي في حديثه وهم وقد روي في هذا آثار عن السلف فقال ابن جرير في تفسيره حدثني يعقوب حدثنا الحسن بن حبيب بن ندبة حدثنا سلمة عن نعيم العنبري وكان من جلساء الحسن قال سمعت الحسن يعني البصري يقول

الفائق على غيره من افراد العلم واما من حمل العلم على الضروري والهدى على الاستدلالي فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعي فتكون الآية متضمنة لنفي الدليل العقلي ضروريا كان أو استدلاليا ومتضمنة لنفي الدليل النقلي باقسامه وما ذكرناه أولى قيل والمراد بهذا المجادل في هذه الآية هو المجادل في الآية الاولى أعني قوله ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد وبذلك قال كثير من المفسرين والتكرير للمبالغة في الذم كما تقول لرجل تذمه وتوبخه أنت فعلت هذا أنت فعلت هذا ويجوز ان يكون التكرير لكونه وصفه في كل آية بزيادة على ما وصفه به في الآية الاخرى وقيل الآية الاولى واردة في المقلدين اسم فاعل والثانية في المقلدين اسم مفعول ذكره الزمخشري وقال وهو أوفق وأظهر بالمقام انتهى ولا وجه لهذا كما أنه لا وجه لقول من قال ان الآية الاولى خاصة باضلال المتبوعين لتابعيهم والثانية عامة في كل اضلال وجدال (ثاني عطفه) حال أي لاوي عنقه قاله قتادة وعن ابن عباس والسدي وابن زيد وابن جريج أنه المعرض والعطف الجانب وعطفا الرجل جانباه من يمين وشمال وفي تفسيره وجهان الاول ان المراد به من يلوي عنقه مرحا وكبرا ذكر معناه الزجاج قال وهذا يوصف به المتكبر قال ابن عباس أي مستكبرا في نفسه وقال المبرد العطف ما انثنى من العنق الوجه الثاني ان المراد بقوله ثاني عطفه الاعراض أي معرضا عن الذكر كذا قال الفراء والمفضل وغيرهما كقوله تعالى ولى مستكبرا كأن لم يسمعها وقوله لووا رؤسهم وقوله اعرض ونأى بجانبه وقيل المعنى مانع تعطفه الى غيره (ليضل عن سبيل الله) أي ليستمر أو ليزيد ضلاله وان ضلاله كالغرض له لكونه مآله قرئ ليضل بفتح الياء وضمها والسبيل هنا الدين يعني ان غرضه هو الاضلال عن السبيل وان لم يعترف بذلك وقيل هي لام العاقبة كأنه جعل ضلاله غاية لجداله (له في الدنيا خزي) مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة والخزي والذل وذلك بما يناله من العقوبة

في الدنيا من العذاب المعجل وسوء الذكر على ألسن الناس وقيل الخزى الدنيوى هو القتل كما وقع في يوم بدر (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) أى عذاب النار المحرقة ثم يقال له (ذلك) أى ما تقدم من العذاب الدنيوى والاخروى (بما قدمت يداك) من الكفر والمعاصى والباء للسببية وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصى تكون بها في الغالب وفي غير هذه السورة أيديكم لان هذه الآية نزلت في أبي جهل وحده وفي غيرها نزلت في جماعة تقدم ذكرهم (وان الله ليس بظلام) أى بذى ظلم (للعبيد) أى والامر انه سبحانه لا يعذب عباده بغير ذنب وقدم الكلام على هذه الآية في آخر آل عمران فلا نعيده (ومن الناس من يعبد الله على حرف) هذا بيان لشقاق أهل الشقاق قال أكثر المفسرين الحرف الشك وأصله من حرف الشئ أى طرفه مثل حرف الجبل والحائط فان القائم عليه غير مستقر والذى يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذى هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطرابا ويضعف قيامه فقيل للشاك في دينه انه يعبد الله على حرف أى متزلزلا لانه على غير يقين من وعده ووعيده بخلاف المؤمن لانه يعبده على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف ففى الآية استعارة تمثيلية وقيل الحرف الشرط والشرط هو قوله (فان أصابه خير) دنيوى من رخاء وصحة وعافية وسلامة وخصب وكثرة مال (اطمأن به) أى ثبت على دينه واستمر على عبادته أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذى أصابه وسكن اليه (وان أصابته فتنة) أى شئ يفتتن به من مكروه يصيبه في أهله وماله أو نفسه ومعيشته كالجدب والمرض وسائر المحن (انقلب على وجهه) أى ارتد ورجع الى الوجه الذى كان عليه من الكفر ثم بين حاله بعد انقلابه على وجهه فقال (خسر الدنيا والآخرة) أى ذهبا منه وفقدهما فلا حظ له في الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن وصون المال والدم ولا في الآخرة من الاجر وما أعده الله للصالحين من عباده وقرئ خاسر الدنيا على اسم الفاعل (ذلك هو الخسران المبين)

في قوله وكان تحته كنز لهما قال لوح من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وحدثنى يونس اخبرنا ابن وهب اخبرنى عبد الله بن عياش عن عمر مولى غفرة قال ان الكنز الذى قال الله في السورة التى يذكر فيها الكهف وكان تحته كنز لهما قال كان لوحا من ذهب مصمت مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجب لمن عرف الموت ثم ضحك عجب لمن ايقن بالقدر ثم نصب عجب لمن ايقن بالموت ثم أمن اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله وحدثنى احمد بن حازم الغفارى حدثنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت سمعت صاحبى حماد بن الوليد الثقفى يقول سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى وكان تحته كنز لهما قال سطران ونصف لم يتم الثالث عجبت للمؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح وقد قال الله وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين قالت وذكر انهما حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاح وكان بينهما وبين الاب الذى حفظا به سبعة آباء وكان نساجا وهذا الذى ذكره هؤلاء الائمة وورد به الحديث المتقدم وان صح لا ينافى قول عكرمة انه كان مالا لانهم ذكروا أنه كان لوحا من ذهب وفيه مال جزيل أكثر ما زادوا انه كان مودعا فيه علم وهو حكم ومواعظ والله أعلم وقوله وكان أبوهما صالحا فيه دليل على ان الرجل يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم الى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة قال سعيد بن جبير عن ابن عباس حفظا بصلاح ابيهما ولم يذكر لهما صلاحا وتقدم انه كان الاب السابع فالله أعلم وقوله فأراد ربك ان يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ههنا اسند الارادة الى الله تعالى لان بلوغهما الحلم لا يقدر عليه الا الله وقال في الغلام فأردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وقال في السفينة فأردت ان اعيبها فالله اعلم وقوله تعالى رحمة من ربك وما فعلته عن امرى أى هذا الذى فعلته في هذه الاحوال الثلاثة انما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ووالدى الغلام وولدى الرجل الصالح وما فعلته عن أمرى أى لكنى أمرت به ووقفت عليه وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما وقال آخرون كان رسولا وقيل بل كان ملكا نقله الماوردى في تفسيره وذهب كثيرون الى انه لم يكن نبيا بل كان وليا فالله اعلم وذكر ابن قتيبة في المعارف ان اسم الخضر بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن

نون عليه السلام قالوا وكان يكنى بأبي العباس ويلقب بالخضر وكان من أبناء الملوك ذكره النووي في تهذيب الأسماء وحكى هو وغيره في كونه باقيا إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه وذكروا في ذلك حكايات وآثارا عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث ولا يصح شيء من ذلك وأشهرها حديث التعزية وإسناده ضعيف ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك واحتجوا بقوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وبقول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حضر عنده ولا قاتل معه ولو كان حيا لكان من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأنه عليه السلام كان مبعوثا إلى جميع الثقلين الجن والإنس وقد قال لو كان موسى وعيسى حيين ما وسعهما إلا اتباعي وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخضر قال إنما سمي خضرا لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء ورواه أيضا عن عبد الرزاق وقد ثبت أيضا في صحيح البخاري عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز تحته خضراء والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات قاله عبد الرزاق وقيل المراد بذلك وجه الأرض وقوله ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعا ولم تصبر حتى أخبرتك به ابتداء ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال تسطع وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلا فقال سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف كما قال فما اسطاعوا أن يظهروه وهو الصعود إلى أعلاه وما استطاعوا له نقبا وهو أشق من ذلك فقابل كلا بما يناسبه لفظا ومعنى والله أعلم فإن قيل فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما وفتى موسى معه تبع وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره حيث قال حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة حدثني ابن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن أبيه عن عكرمة قال قيل لابن عباس لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث وقد كان معه قال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال شرب الفتى من الماء فخلد فأخذه العالم

أي الواضح الظاهر الذي لا خسران مثله قيل إذا لم ينضم إليه الأخرى أو بالعكس لم يتحقق خسرانهما فلم يتغير كونه كذلك ظهورا تاما فالخسران الذي فيه على مثل عليه الآن بتضمن التصل قاله الكرخي أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس في الآية قال كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما وأنتجت خيله قال هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه بسند صحيح قال كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا ما في ديننا هذا خير فأنزل الله هذه الآية وعن أبي سعيد قال أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أقلني فقال إن الإسلام لا يقال فقال لم أصب من ديني هذا خيرا ذهب بصري ومالي ومات ولدي فقال يا يهودي الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة فنزلت هذه الآية أخرجه ابن مردويه (يدعو) أي يعبد هذا الذي انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر (من دون الله) أي متجاوزا عبادة الله إلى عبادة الأصنام (ما لا يضره) إن ترك عبادته وعصاه (وما لا ينفعه) إن عبده وأطاعه لكون ذلك المعبود جمادا لا يقدر على ضر ولا نفع والجمع بين نفي النفع والضر هنا وإثباتهما في قوله لمن ضره أقرب من نفعه الآية كما سيأتي أن معبوداتهم لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن بسبب عبادتها يتسبب الضرر إليها كما في قوله تعالى رب إنهن أضللن كثيرا من الناس حيث أضاف الإضلال إليها من حيث إنها كانت سبب الضلال وقال الشهاب دفع التنافي بأن النفي باعتبار ما في نفس الأمر والإثبات باعتبار زعمهم الباطل انتهى (ذلك) أي الدعاء المفهوم من يدعو (هو الضلال البعيد) عن الحق والرشد مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار

بضلاله

فطابق به بسفينة ثم ارسله في البحر فانه التموج به الى يوم القيامة وذلك انه لم يكن له ان يشرب منه فشرب اسناده ضعيف والحسن متروك وابوه غير معروف (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا انا مكنا له في الارض وآتيناه من كل شئ سببا) يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ويسألونك يا محمد عن ذي القرنين أي عن خبره وقد قدمنا انه بعث كفار مكة الى اهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا اسلوه عن رجل طواف في الارض وعن فتية لا يدرى ما صنعوا وعن الروح فنزلت سورة الكهف وقد اورد ابن جرير ههنا والاموي في مغازيه حديثا اسنده وهو ضعيف عن عقبة بن عامر ان نفرا من اليهود جاؤا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين فاخبرهم بما جاؤا له ابتداء فكان فيما اخبرهم به انه كان شابا من الروم وانه بنى الاسكندرية وانه علا به ملك في السماء وذهب به الى

السد ورأى اقواما وجوههم مثل وجوه الكلاب وفيه طول ونكارة ورفعه لا يصح واكثر ما فيه انه من اخبار بني اسرائيل والعجب ان ابا زرعة الرازي مع جلالة قدره ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة وذلك غريب منه وفيه من النكارة انه من الروم وانما الذي كان من الروم الاسكندر الثاني وهو ابن فيليبس المقدوني الذي تؤرخ به الروم (١) فأما الاول فقد ذكر الازرقي وغيره انه طاف بالبيت مع ابراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر عليه السلام واما الثاني فهو اسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف المشهور والله اعلم وهو الذي تؤرخ من مملكته الروم وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة فأما الاول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل كما ذكره الازرقي وغيره وانه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه ابراهيم عليه السلام وقرب الى الله قربانا وقد ذكرنا طرفا صالحا من أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية ولله الحمد وقال وهب بن منبه كان ملكا وانما سمي ذا القرنين ان صفحتي رأسه كانتا من نحاس قال وقال بعض أهل الكتاب لانه ملك الروم وفارس وقال بعضهم كان في رأسه شبه القرنين وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل قال سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين فقال كان عبدا ناصح الله فناصحه دعا قومه الى الله فضرب على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه الى الله فضربوه على قرنه فمات فسمي ذا القرنين وكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل سمع عليا يقول ذلك ويقال انه انما سمي ذا القرنين لانه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب وقوله انا مكنا له في الارض أي أعطيناه ملكا عظيما ممكنا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات

بضلاله بعيدا عنها قال الفراء البعيد الطويل (يدعو) أي يقول هذا الكافر يوم القيامة (لمن ضره أقرب من نفعه) هذه الجملة مقررة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالا بعيدا والاصنام لا نفع فيها بحال من الاحوال بل هي ضرر بحت لمن عبدها لانه دخل النار بسبب عبادتها واير اد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرة للمبالغة في تقبيح حال ذلك الداعي أو ذلك من باب وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين واللام هي الموطئة للقسم ومن موصولة أو موصوفة وضره مبتدأ خبره أقرب والجملة صلة الموصول وجملة (لبئس المولى ولبئس العشير) جواب القسم والمعنى انه يقول ذلك الكافر يوم القيامة لبئس المولى أنت ولبئس العشير أنت والمولى الناصر والعشير الصاحب وقال الزجاج أي ذلك هو الضلال البعيد يدعوه وعلى هذا قوله من ضره كلام مستأنف مبتدأ وخبره لبئس المولى قال وهذا لان اللام لليمين والتوكيد فجعلها أول الكلام وقال الزجاج والفراء يجوز ان يكون يدعو مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء أي يدعو ما لا يضره ولا ينفعه يدعو وقال الفراء والكسائي والزجاج معنى الكلام القسم والتقدير يدعو من لضره أقرب من نفعه وقال محمد بن يزيد المعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه الها قال النحاس وأحسب هذا القول غلطا منه وقال الفراء والقفال اللام صلة والمعنى يدعو من ضره أقرب من نفعه واللام في لبئس المولى ولبئس العشير على هذا موطئة للقسم (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) لما فرغ سبحانه من ذكر حال المشركين ومن يعبد الله على حرف ذكر حال المؤمنين في الآخرة وأخبر انه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة وهذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبده على حرف وقد تقدم الكلام في جرى الانهار من تحت الجنات وبينا انه ان أريد بها الاشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الانهار من تحتها ظاهر وان أريد بها الارض فلابد من تقدير مضاف أي من تحت أشجارها (ان الله يفعل ما يريد) تعليل لما قبلها أي

---

(١) قوله فاما الاول الخ كذا بالنسخ وفي العبارة شبه تكرار فحرر اه

الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الارض ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد وخدمته الامم من العرب والعجم ولهذا ذكر بعضهم أنه انما سمى ذا القرنين لانه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقوله وآتيناه من كل شئ سببا قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى وقتادة والضحاك وغيرهم يعنى علما وقال قتادة أيضا فى قوله وآتيناه من كل شئ سببا قال منازل الارض وأعلامها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله وآتيناه من كل شئ سببا قال تعليم الالسنة قال كان لا يغزو قوما الا كلمهم بلسانهم وقال ابن لهيعة حدثنى سالم بن غيلان عن سعيد بن أبى هلال ان معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الاحبار أنت تقول ان ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا فقال له كعب ان كنت قلت ذلك فان الله قال وآتيناه من كل شئ سببا وهذا الذى أنكره معاوية رضى الله عنه على كعب الاحبار هو الصواب والحق مع معاوية فى الانكار

فان معاوية كان يقول عن كعب ان كنا لنبلو عليه الكذب يعنى فيما ينقله لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس فى صحفه ولكن الشأن فى صحفه أنها من الاسرائيليات التى غالبها مبدل مصحف محرف مختلق ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسول الله صلى الله عليه وسلم الى شئ منها بالكلية فانه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض وتأويل كعب قول الله وآتيناه من كل شئ سببا واستشهاده فى ذلك على ما يجده فى صحفه من انه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق فانه لا سبيل للبشر الى شئ من ذلك ولا الى الترقى فى أسباب السموات وقد قال الله فى حق بلقيس وأوتيت من كل شئ أى مما يؤتى مثلها من الملوك وهكذا ذو القرنين يسر الله له الاسباب أى الطرق والوسائل الى فتح الاقاليم والرساتيق والبلاد والاراضى وكسر الاعداء وكبت ملوك الارض واذلال أهل الشرك قد أوتى من كل شئ مما يحتاج اليه مثله سببا والله أعلم وفى المختارة للحافظ ضياء المقدسى من طريق قتيبة عن أبى عوانة عن سماك بن حرب عن حبيب بن حماد قال كنت عند على رضى الله عنه وسأله رجل عن ذى القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب فقال سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الاسباب وبسط له اليد (فاتبع سببا حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) قال ابن عباس فأتبع سببا يعنى بالسبب المنزل وقال مجاهد فأتبع سببا منزلا وطريقا ما بين المشرق والمغرب وفى رواية عن مجاهد سببا قال طرفى الارض وقال قتادة أى اتبع منازل الارض ومعالمها وقال الضحاك فاتبع سببا اى المنازل وقال سعيد بن جبير

يفعل ما يريده من الافعال لا يسئل عما يفعل فيثيب من يشاء ويعذب من يشاء ويكرم من يطيعه ويهين من يعصيه (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) قال النحاس ومن أحسن ما قيل فى هذه الآية ان المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وانه يتهيأ له ان يقطع النصر الذى أوتيه صلى الله عليه وآله وسلم (فليمدد بسبب) أى فليطلب حيلة يصل بها (الى السماء ثم ليقطع) النصر ان تهيأ له (فلينظر هل يذهبن كيده) وحيلته (ما يغيظ) اياه من نصر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وحمل من على الكفار يوافق كلام الجلال ومثله فى العمادى وقال أبو السعود المعنى انه تعالى ناصر لرسوله فى الدنيا والآخرة لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته بعض الامور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ فى استفراغ المجهود وليجاوز فى الجد كل حد معهود فقصارى اثره وعاقبة أمره ان يختنق خنقا مما يرى من ضلال مساعيه وعدم انتاج مقدمات مباديه وقيل المعنى فليشدد حبلا فى سقف بيته ثم ليقطع أى ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقا والمعنى فليختنق غيظا حتى يموت فان الله ناصره صلى الله عليه وآله وسلم ومظهره ولا ينفعه غيظه وبه قال ابن عباس وقيل المعنى من كان يظن ان الله لا يرزقه فليقتل نفسه فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق (وكذلك) أى مثل ذلك الانزال البديع من الآيات السابقة (أنزلناه) أى القرآن (آيات بينات) واضحات ظاهرة الدلالة على مدلولاتها (وان الله يهدى من يريد) هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهديا من قبل ويضل من يريد ضلالته معطوف على هاء انزلناه فان وصلتها فى محل نصب ويصح ان تكون فى موضع رفع خبر المبتدا مضمر أى والامر ان الله الخ (ان الذين آمنوا) بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أو بما ذكر من الآيات البينات (والذين هادوا) هم اليهود المنتسبون الى ملة موسى (والصابئين) هم قوم يعبدون النجوم وقيل هم من

في قوله فأتبع سببا قال علما وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى والسدي وقال مطر معالم وآثار كانت قبل ذلك وقوله حتى اذا بلغ مغرب الشمس أي فسلك طريقا حتى وصل الى أقصى ما يسلك فيه من الارض من ناحية المغرب وهو مغرب الارض وأما الوصول الى مغرب الشمس من السماء فمتعذر وما يذكره أصحاب القصص والاخبار من انه سار في الارض مدة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاف زنادقتهم وكذبهم وقوله وجدها تغرب في عين حمئة أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى الى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه والحمئة مشتقة على احدى القراءتين من الحمأة وهو الطين كما قال تعالى اني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون أي طين أملس وقد تقدم بيانه وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أنبأنا نافع بن أبي نعيم سمعت عبد الرحمن الاعرج يقول كان ابن عباس يقول في عين حمئة ثم فسرها ذات حمأة قال نافع وسئل عنها كعب الاحبار فقال أنتم أعلم بالقرآن مني ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء وكذا روى غير واحد عن ابن عباس وبه قال مجاهد وغير واحد وقال أبو داود الطيالسي حدثنا محمد بن دينار عن سعد بن أوس عن مصدع عن ابن عباس عن أبي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم اقرأه حمئة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وجدها تغرب في عين حامية يعني حارة وكذا قال الحسن البصري وقال ابن جرير والصواب انهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب قلت ولا منافاة بين معنييهما اذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل وحمئة في ماء وطين أسود كما قال كعب الاحبار وغيره وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا العوام حدثني مولى لعبد الله بن عمرو عن عبد الله قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الشمس حين غابت فقال في نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لاحرقت ما على الارض قلت ورواه الامام أحمد عن يزيد بن هرون وفي صحة رفع هذا الحديث نظر ولعله من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا حجاج بن حمزة حدثنا محمد يعني ابن بشر حدثنا عمرو بن ميمون أنبأنا ابن حاضر ان ابن عباس ذكر له ان معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف تغرب في عين حامية قال ابن عباس لمعاوية ما نقرؤها الا حمئة فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها فقال عبد الله كما قرأتها قال ابن عباس فقلت لمعاوية في بيتي نزل القرآن فأرسل الى كعب فقال له أين تجد الشمس

جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع الى ملة من الملل المنتسبة الى الانبياء (والنصارى) هم المنتسبون الى ملة عيسى (والمجوس) هم الذين يعبدون النار ويقولون ان للعالم أصلين النور والظلمة وقيل هم قوم يعبدون الشمس والقمر وقيل هم يستعملون النجاسات وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح وقيل انهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى (والذين أشركوا) هم الذين يعبدون الاصنام وقد مضى تحقيق هذا في البقرة ولكنه سبحانه قدم هنالك النصارى على الصابئين وأخرهم عنهم هنا فقيل وجه التقديم هنالك انهم أهل كتاب دون الصابئين ووجه تقديمهم هنا ان زمنهم متقدم على زمن النصارى قال قتادة الصابئون هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون القبلة ويقرؤن الزبور والمجوس عبدة الشمس والقمر والنيران والذين أشركوا عبدة الاوثان (ان الله يفصل) أي يقضي (بينهم يوم القيامة) فيدخل المؤمنين منهم الجنة والكافرين منهم النار وقيل الفصل هو ان يميز المحق من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما وقيل يفصل بينهم في الاحوال والاماكن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد قال قتادة الاديان ستة خمسة للشيطان وواحد للرحمن وعن عكرمة قال فصل قضاء بينهم فجعل الخمسة مشتركة وجعل هذه الامة واحدة وعن ابن عباس قال والذين هادوا اليهود والصابئون ليس لهم كتاب والمجوس أصحاب الاصنام والمشركون نصارى العرب (ان الله) تعليل لما قبله أو كأن قائلا قال هذا الفصل عن علم أولا فقيل ان الله (على كل شيء) من أفعال خلقه وأقوالهم (شهيد) عالم علم مشاهدة لا يعزب عنه شيء منها ومن قضيته الاحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة والظاهر تعميم الكلام لعبدة الاوثان ولعباد الشمس والقمر والنجوم قاله الكرخي (ألم تر ان الله يسجد له من في السموات ومن في الارض) الرؤية هنا هي القلبية لا البصرية وذلك لان رؤية سجود

تغرب في التوراة فقال له تبيع أما العربية فأنتم أعلم بها وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب قال ابن حاضر لو أني عندكما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة في حمئة قال ابن عباس وإذا ما هو قلت فيما يؤثر من قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم واتباعه إياه

بلغ المشارق والمغارب يبتغي * أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغار الشمس عند غروبها * في عين ذي خلب وثأط حرمد

فقال ابن عباس ما الخلب قلت الطين بكلامهم قال فما الثأط قلت الحمأة قال فما الحرمد قلت الأسود قال فدعا ابن عباس رجلا أو غلاما فقال اكتب ما يقول هذا الرجل وقال

سعيد بن جبير بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ وجدها تغرب في عين حمئة فقال كعب والذي نفس كعب بيده ما سمعت أحدا يقرؤها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس فإنا نجدها في التوراة تغرب في مدرة سوداء وقال أبو يعلى الموصلي حدثنا إسحق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف قال في تفسير ابن جريج ووجد عندها قوما قال مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها سمع الناس وجوب الشمس حين تجب وقوله ووجد عندها قوما أي أمة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم وقوله قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا معنى هذا أن الله تعالى مكنه منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم وخيره إن شاء قتل وسبى وإن شاء من أو فدى فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبينه في قوله أما من ظلم أي استمر على كفره وشركه بربه فسوف نعذبه قال قتادة بالقتل وقال السدي كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا وقال وهب بن منبه كان يسلط الظلمة فتدخل أفواههم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم وقوله ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا أي شديدا بليغا وجيعا أليما وفي هذا إثبات المعاد والجزاء وقوله وأما من آمن أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له فله جزاء الحسنى أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل وسنقول له من أمرنا يسرا قال مجاهد معروفا (ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) يقول تعالى ثم سلك طريقا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم من كل أمة

عند أن شاهدته أم بطريق العقل لا الإدراك بالبصر والخطاب لكل من يصلح له وهو من تأتى منه الرؤية والمراد بالسجود هنا هو الانقياد الكامل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء أو عامة لهم ولغيرهم ولهذا عطف (والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) على من فإنه لو كان المراد بالسجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء وإنما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعدا في العادة وقوله (وكثير من الناس) مرتفع على الابتداء وخبره محذوف تقديره وكثير من الناس يستحق الثواب أو مرتفع بالعطف على من لأن سجود هؤلاء الكثير هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء والمراد بالسجود المتقدم هو الانقياد فلو ارتفع بالعطف لكان في ذلك جمع بين معنيين مختلفين في لفظ واحد وأنت خبير بأنه لا ملجئ إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد ولا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص فارتفاعه بالعطف لا بأس به وإن منع منه صاحب الكشاف ومتابعوه (وكثير) مرتفع بالابتداء وخبره (حق عليه العذاب) قاله الكسائي والفراء وقيل معطوف على كثير الأول أي وكثير من الناس يسجد وكثير منهم يأبى ذلك وقيل المعنى وكثير من الناس في الجنة وكثير حق عليه العذاب هكذا حكاه ابن الأنباري (ومن يهن الله) أي من أهانه الله بأن جعله كافرا شقيا (فما له من مكرم) يكرمه فيصير سعيدا عزيزا وحكى الأخفش والكسائي والفراء أي من إكرام فهو على هذا مكرم بفتح الراء اسم مصدر (إن الله يفعل ما يشاء) من الأشياء التي من جملتها ما تقدم ذكره من الشقاوة والسعادة والإكرام والإهانة وظاهر هذه الآية والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم لأنهم يقولون شاء أشياء ولم يفعل وهو يقول يفعل ما يشاء وهذه الآية من مواضع السجود فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند تلاوتها أو سماعها (هذان خصمان) أحدهما أنجس الفرق اليهود

مايستعين به مع جيوشه على قتال الاقاليم المتاخمة لهم وذكر في أخبار بني اسرائيل انه عاش ألفا وستمائة سنة يجوب الارض طولها والعرض حتى بلغ المشارق والمغارب ولما انتهى الى مطلع الشمس من الارض كما قال تعالى وجدها تطلع على قوم أي أمة لم نجعل لهم من دونها سترا أي ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس وقال سعيد بن جبير كانوا احمر اقصارا مساكنهم الغيران اكثر معيشتهم من السمك وقال أبو داود الطيالسي حدثنا سهل بن أبي الصلت سمعت الحسن وسئل عن قول الله تعالى لم نجعل لهم من دونها سترا قال ان أرضهم لا تحمل البناء فاذا طلعت الشمس تغوروا في المياه فاذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم قال الحسن هذا حديث سمرة وقال قتادة ذكر لنا انهم بارض لا تنبت لهم شيأ فهم اذا طلعت الشمس في اسراب حتى اذا زالت الشمس خرجوا الى حروثهم ومعايشهم وعن سلمة بن كهيل انه قال ليست لهم أكنان اذا طلعت الشمس طلعت عليهم فلاحدهم أذنان يفرش احدهما ويلبس الاخرى قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا قال هم الزنج وقال ابن جرير في قوله وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا قال لم يبنوا فيها بناء قط ولم يبن عليهم فيها بناء قط كانوا اذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى تزول الشمس او دخلوا البحر وذلك ان أرضهم ليس فيها جبل جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها قالوا لا نبرح حتى تطلع الشمس ما هذه العظام قالوا هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا وقال فذهبوا هاربين في الارض وقوله كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا قال مجاهد والسدي علما أي نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شئ وان تفرقت أممهم وتقطعت بهم الارض فانه تعالى لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء

(ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا) يقول تعالى مخبرا عن ذي القرنين ثم اتبع سببا أي ثم سلك طريقا من مشارق الارض حتى اذا بلغ بين السدين وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادا ويهلكون الحرث والنسل ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين ان الله تعالى يقول يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول ابعث بعث النار فيقول وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها فقال ان

اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا والخصم الآخر المسلمون فهما فريقان يختصمان قاله الفراء وغيره وقيل المراد بالخصمين الجنة والنار قالت الجنة خلقني لرحمته وقالت النار خلقني لعقوبته وهو ضعيف وقيل المراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر فمن المؤمنين حمزة وعلي وعبيدة ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وقد كان أبو ذر يقسم ان هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيحين وغيرهما وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة والتابعين وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أيضا عن علي انه قال فينا نزلت هذه الآية وانا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة وقال سبحانه (اختصموا) ولم يقل اختصما لانهم جمع ولو قال اختصما لجاز قاله الفراء (في) شأن (ربهم) أي في دينه أو في ذاته أو في صفاته أو في شريعته لعباده أو في جميع ذلك قال أبو حيان الظاهر ان الاختصام هو في الآخرة بدليل التقسيم بالفاء الدالة على التعقيب في قوله فالذين كفروا وان قلنا هذا في الدنيا فالجواب انه لما كان تحقيق مضمونه في ذلك اليوم صح جعل يوم القيامة ظرفا له بهذا الاعتبار ثم فصل سبحانه ما أجمله في قوله يفصل بينهم فقال (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) أي قدرت لهم على قدر جثثهم لان الثياب الجدد تقطع على مقدار بدن من يلبسها فالتقطيع مجاز عن التقدير بذكر المسبب وهو التقطيع وارادة السبب وهو التقدير والتخمين والظاهر انه بعد ذلك جعل تقطيعها استعارة تمثيلية تهكمية شبه اعداد النار واحاطتها بهم بتفصيل ثياب لهم وجمع الثياب لأن النار لتراكمها عليهم كالثياب الملبوس بعضها فوق بعض وهذا أبلغ من جعلها من مقابلة الجمع بالجمع قال الازهري المعنى سويت وجعلت لبوسا لهم وانما شبهت النار بالثياب لانها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيها على تحقق وقوعه وقيل ان هذه الثياب من نحاس قد اذيب فصار كالنار وهي السرابيل المذكورة

فيكم أمتين ما كانتا فى شئ الا كثرتاه يأجوج ومأجوج وقد حكى النووى رحمه الله فى شرح مسلم عن بعض الناس ان يأجوج ومأجوج خلقوا من منى خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء وهذا قول غريب جدا لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الاحاديث المفتعلة والله أعلم وفى مسند الامام أحمد عن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولد نوح ثلاثة سام أبو العرب وحام أبو السودان ويافث أبو الترك قال بعض العلماء هؤلاء من نسل يافث أبى الترك وقال انما سمى هؤلاء تركا لانهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة والا فهم أقرباء أولئك بغيا وفسادا وجراءة وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثرا طويلا عجيبا فى سير ذى القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له وفيه طول وغرابة (١٧٢) ونكارة فى اشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم وروى ابن أبى حاتم عن أبيه فى ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها والله أعلم وقوله وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا أى لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أجرا عظيما يعنى انهم أرادوا ان يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه اياه حتى يجعل بينه وبينهم سدا فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير ما مكنى فيه ربى خير أى ان الذى أعطانى الله من الملك والتمكين خير لى من الذى تجمعونه كما قال سليمان عليه السلام أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم الآية وهكذا قال ذو القرنين الذى أنا فيه خير من الذى تبذلونه ولكن ساعدونى بقوة أى بعملكم وآلات البناء أجعل بينكم وبينهم ردما آتونى زبر الحديد والزبر جمع زبرة وهى القطعة منه قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وهى كاللبنة يقال كل لبنة زنة قنطار بالدمشقى أو تزيد عليه حتى اذا ساوى بين الصدفين أى وضع بعضه على بعض من الاساس حتى اذا حاذى به رؤس الجبلين طولا وعرضا واختلفوا فى مساحة عرضه وطوله على اقوال قال انفخوا أى أجج عليه النار حتى صار كله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدى هو النحاس زاد بعضهم المذاب ويستشهد بقوله تعالى وأسلنا له عين القطر ولهذا يشبه بالبرد المحبر قال ابن جرير حدثنا بشر بن يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال ذكر لنا ان رجلا قال يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال انعته لى قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء قال قد رأيته هذا حديث مرسل وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض امرائه وجهز معه جيشا سرية لينظروا الى السد ويعاينوه وينعتوه له اذا رجعوا فوصلوا من بلاد الى بلاد ومن ملك الى ملك حتى وصلوا اليه

فى آية اخرى قاله سعيد بن جبير وزاد ليس من الآنية شئ اذا حمى أشد حرا منه وقيل المعنى فى الآية أحاطت النار بهم والحق اجراء النظم القرآنى على ظاهره ولا ترتضى تأويله بما يخالف لفظه ومعناه وقرئ قطعت بالتخفيف (يصب من فوق رؤسهم الحميم) هو الماء الحار المغلى بنار جهنم انتهت حرارته والجملة مستأنفة قال النحاس يذاب على رؤسهم (يصهر به) أى يذاب بالحميم (ما فى بطونهم) قال ابن عباس تسيل امعاؤهم (والجلود) قال ابن عباس يتناثر جلودهم وعن أبى هريرة انه تلا هذه الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الحميم ليصب على رؤسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص الى جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان أخرجه الترمذى والحاكم وصححاه وابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهم وعن ابن عباس قال يشوون وأمعاؤهم تساقط وجلودهم وعنه قال يسقون ماء اذا دخل فى بطونهم أذابها والجلود مع البطون والصهر الاذابة والصهارة ما ذاب منه يقال صهرت الشئ فانصهر أى أذبته فذاب فهو صهير والمعنى انه يذاب بذلك الحميم ما فى بطونهم من الامعاء والاحشاء ويصهر به الجلود وقيل ان الجلود لا تذاب بل تحرق فيقدر فعل يناسب ذلك ويقال وتحرق به الجلود ولا يخفى انه لا ملجئ الى هذا فان الحميم اذا كان يذيب ما فى البطون فاذابته للجلد الظاهر بالاولى (ولهم) يجوز فى الضمير وجهان أظهرهما انه يعود على الذين كفروا وفى اللام حينئذ قولان أحدهما أنها للاستحقاق والثانى أنها بمعنى على كقوله ولهم اللعنة وليس بشئ الوجه الثانى ان الضمير يعود على الزبانية أعوان جهنم ويدل عليه سياق الكلام وفيه بعد وقوله (مقامع) جمع مقمعة ومقمع يقال قمعته ضربته بالمقمعة وهى قطعة من حديد يقال قمعه يقمعه من باب قطع اذا ضربه بشئ يزجره به ويذله والمقمعة المطرقة وقيل السوط وسميت المقامع مقامع لانها تقمع المضروب أى تذلله قال ابن السكيت يقال أقمعت الرجل عنى اقماعا اذا اطلع عليك فرددته عنك والمعنى لهم

مقامع

ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس وذكروا أنهم رأوا فيه بابا عظيما وعليه اقفال عظيمة ورأوا ...
حرسا من الملوك المتأخمة له وانه عال منيف شاهق لا ... اعوا ولا ما حو ... الجبال ثم رجعوا ... كثر من
سنتين وشاهدوا أهوالا وعجائب ثم قال الله تعالى (فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا قال ... ن ر ... جاء وعد
ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا) يقول تعالى مخبرا عن يأجوج
ومأجوج انهم ما قدروا على ان يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله ولما كان الظهور عليه اسهل من نقبه قابل
كلا بما يناسبه فقال فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا وهذا دليل على انهم لم يقدروا على نقبه ولا على شئ منه فاما الحديث
الذى رواه الامام أحمد حدثنا روح حدثنا سعيد بن أبى عروبة

عن قتادة حدثنا أبو رافع عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون اليه كاشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم واراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله فيستثنى فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الارض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفا فى رقابهم فيقتلهم بها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفس محمد بيده ان دواب الارض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم ودمائهم ورواه احمد أيضا عن حسن هو ابن موسى الاشيب عن سفيان عن قتادة به وكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان عن عبد الاعلى عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قال
حدث أبو رافع وأخرجه الترمذى من حديث أبى عوانة عن قتادة ثم قال غريب لا يعرف الا من هذا الوجه واسناده جيد قوى ولكن
متنه فى رفعه نكارة لان ظاهر الآية يقتضى انهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لاحكام بنائه وصلابته وشدته ولكن هذا قد
روى عن كعب الاحبار انهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه الا القليل فيقولون غدا نفتحه فيأتون من الغد وقد عاد كما
كان فيلحسونه حتى لا يبقى منه الا القليل فيقولون كذلك فيصبحون وهو كما كان فيلحسونه ويقولون غدا نفتحه ويلهمون ان يقولوا
ان شاء الله فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه وهذا متجه ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب فانه كان كثيرا ما كان يجالسه ويحادثه فحدث
به أبو هريرة فتوهم بعض الرواة عنه انه مرفوع فرفعه والله أعلم ويؤيد ما قلناه من انهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شئ منه ومن

مقامع كائنة (من حديد) يضربون بها أخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن مقمعا من حديد وضع فى الارض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الارض ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان (كلما أرادوا) الارادة هنا مجاز عن القرب (ان يخرجوا منها) أى من النار (من) أجل (غم) شديد من غموم النار يأخذ بأنفاسهم وهو بدل اشتمال من منها باعادة الجار والاولى لابتداء الغاية والثانية بمعنى من أجل أى من أجل غم يلحقهم فخرجوا (أعيدوا فيها) أى ردوا اليها بالضرب بالمقامع وهى الجرز من الحديد والمراد اعادتهم الى معظم النار لانهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون اليها عن سلمان قال النار سوداء مظلمة لا يضئ لهبها ولا جمرها ثم قرأ كلما أرادوا الآية (و) قيل لهم (ذوقوا عذاب الحريق) أى المحرق الغليظ المنتشر العظيم الاهلاك البالغ نهاية الاحراق وأصل الحريق الاسم من الاحتراق تحرق الشئ بالنار واحترق حرقة واحتراقا والذوق مماسة يحصل معها ادراك الطعم وهو هنا توسع والمراد به ادراك الالم قال الزجاج وهذا لاحد الخصمين وقال فى الخصم الآخر وهم المؤمنون (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) ثم بين بعض ما أعده لهم من النعيم بعد دخولهم الجنة فقال (يحلون فيها) بالتشديد والبناء للمفعول وقرئ مخففا اى يحليهم الله أو الملائكة بأمره (من) للتبعيض أى يحلون بعض (أساور) للبيان او زائدة وهى جمع اسورة والاسورة جمع سوار وفيه لغتان كسر السين وضمها وفيه لغة ثالثة وهى أسوار (من ذهب) من للبيان (ولؤلؤا) بالنصب أى ويحلون لؤلؤا وهو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف قال القشيرى والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ولا يبعد أن يكون فى الجنة سوار من لؤلؤ مصمت كما ان فيها أساور من ذهب قال القرطبى يسور المؤمن فى الجنة بثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ

نكارة هذا المرفوع قول الامام أحمد حدثنا سفيان عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم قال سفيان أربع نسوة قالت استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق قلت يارسول الله انهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على اخراجه من حديث الزهري ولكن سقط في رواية البخاري ذكر حبيبة وأثبتها مسلم وفيه اشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الاسناد منها رواية الزهري عن عروة وهما تابعيان ومنها اجتماع اربع نسوة في سنده كلهن يروي بعضهن عن بعض ثم كل منهن صحابية ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان رضي الله عنهن (١٧٤) وقد روي نحو هذا عن أبي هريرة أيضا فقال البزار حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا مؤمل بن اسمعيل حدثنا وهب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد التسعين واخرجه البخاري ومسلم من حديث وهيب به وقوله قال هذا رحمة من ربي أي لما بناه ذو القرنين قال هذا رحمة من ربي أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم من العبث في الارض والفساد فاذا جاء وعد ربي أي اذا اقترب الوعد الحق جعله دكا أي ساواه بالارض تقول العرب ناقة دكاء اذا كان ظهرها مستويا لا سنام لها وقال تعالى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا أي مساويا للارض وقال عكرمة في قوله فاذا جاء وعد ربي جعله دكا قال طريقا كما كان وكان وعد ربي حقا أي كائنا لامحالة وقوله وتركنا بعضهم أي الناس يومئذ أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم وهكذا قال السدي في قوله وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض قال ذاك حين يخرجون على الناس وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال كما سيأتي بيانه عند قوله حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق الآية وهكذا قال ههنا وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض قال هذا أول يوم القيامة ثم نفخ في الصور على اثر ذلك فجمعناهم جمعا وقال آخرون بل المراد بقوله وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض قال اذا ماج الجن والانس يوم القيامة يختلط الانس والجن وروى ابن جرير عن محمد بن حميد عن يعقوب القمي عن هرون بن عنترة عن شيخ من بني فزارة في قوله وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض قال اذا ماج الانس والجن قال ابليس أنا أعلم لكم علم هذا الامر فيظعن الى المشرق فيجد الملائكة قد بطنوا الارض ثم يظعن الى المغرب فيجد الملائكة قد بطنوا الارض فيقول ما من

(ولباسهم) أي جميع ما يلبسونه (فيها حرير) كما تفيده هذه الاضافة ويجوز أن يراد ان هذا النوع من الملبوس الذي كان محرما عليهم في الدنيا حلال لهم في الآخرة وانه من جملة ما يلبسونه فيها ففيها ما تشتهيه الانفس وكل واحد منهم يعطى ما تشتهيه نفسه وينال ما يريده وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وفي الباب أحاديث وغير الاسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا للمحافظة على الفواصل وللدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة في الجنة فان العدول الى الجملة الاسمية يدل على الدوام (وهدوا) أي أرشدوا (الى الطيب من القول) قيل هو لا اله الا الله وقيل الحمد لله وقيل القرآن وقيل هو ما يأتيهم من الله سبحانه من البشارات وقد ورد في القرآن ما يدل على هذا القول المجمل هنا وهو قوله سبحانه الحمد لله الذي صدقنا وعده الحمد لله الذي هدانا لهذا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وقال ابن عباس هدوا ألهموا وعن أبي العالية قال في الخصومة اذا قالوا الله مولانا ولا مولى لكم وعن ابن زيد قال لا اله الا الله والله أكبر والحمد لله الذي صدقنا وعده (و) معنى (هدوا الى صراط الحميد) انهم أرشدوا الى الصراط المحمود وهو الطريق الموصلة الى الجنة وصراط الله الذي هو دينه القويم وهو الاسلام قاله الضحاك (ان الذين كفروا ويصدون) أي يمنعون (عن سبيل الله) ودينه من أراد الدخول فيه وعطف المضارع على الماضي لان المراد بالمضارع ما مضى من الصد ومثل هذا قوله ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله والمسجد الحرام أو المراد بالصد هنا الاستمرار لا مجرد الاستقبال فصح عطفه بذلك على الماضي أي كفروا والحال انهم يصدون وقيل الواو زائدة والمضارع خبر ان والاولى أن يقدر خبر ان بعد قوله الآتي والباد وذلك نحو خسروا أو هلكوا والمراد بالصد المنع (والمسجد الحرام) قيل المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني وقيل الحرم كله لان المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وآله

محيص ثم يظعن يمينا وشمالا الى اقصى الارض فيجد الملائكة قد بطنوا الارض فيقول ما من محيص فبينما هو كذلك اذ عرض له طريق كالشراك فاخذ عليه هو وذريته فبينما هم عليه اذ هجموا على النار فاخرج الله خازنا من خزان النار فقال يا ابليس ألم تكن لك المنزلة عند ربك الم تكن في الجنان فيقول ليس هذا يوم عتاب لو أن الله فرض علي فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من خلقه فيقول فان الله قد فرض عليك فريضة فيقول ماهي فيقول يأمرك ان تدخل النار فيتلكئ عليه فيقول به وبذريته بجناحيه فيقذفهم في النار فتزفر النار زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الا جثى لركبتيه وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به ثم رواه من وجه آخر عن يعقوب عن هرون عن عنترة عن أبيه عن ابن عباس وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض قال الجن والانس يموج بعضهم في بعض وقال الطبراني حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الاصبهاني حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا المغيرة بن مسلم عن أبي اسحق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لافسدوا على الناس معايشهم وان يموت منهم رجل الا ترك من ذريته ألفا فصاعدا ومن ورائهم ثلاث أمم تاويل ومارس ومنسك هذا حديث غريب بل منكر ضعيف وروى النسائي من حديث شعبة عن النعمان بن سالم وعن عمرو بن أوس عن أبيه عن جده أوس بن أبي أوس مرفوعا ان يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ماشاؤا وشجر يلقحون ماشاؤا ولا يموت رجل منهم الا ترك من ذريته الفا فصاعدا وقوله ونفخ في الصور والصور كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه والذي ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام كما قد تقدم في الحديث بطوله والاحاديث فيه كثيرة وفي الحديث عن عطية عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعا كيف انعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته واستمع متى يؤمر قالوا كيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وقوله فجمعناهم جمعا أي احضرنا الجميع للحساب قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا أفحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادي من دوني أولياء انا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا) يقول تعالى مخبرا عما يفعله بالكفار يوم القيامة انه يعرض عليهم جهنم أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك

وآله وسلم وأصحابه عنه يوم الحديبية وقيل المراد به مكة بدليل قوله (الذي جعلناه للناس) على العموم يصلون فيه ويطوفون به (سواء) مستويان (العاكف) المقيم (فيه) الملازم له ويدخل فيه الغريب اذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه (والباد) أي الواصل من البادية والمراد به الطارئ عليه المنتاب اليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصادين عنه وقيل جعلناه للناس قبلة لصلاتهم ومنسكا ومتعبدا للعاكف والبادي سواء في تعظيم حرمته وقضاء النسك به واليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة من أهل العلم ومعنى التسوية هو التسوية في تعظيم الكعبة وقضاء النسك فيه وفي فضل الصلاة فيه والطواف به عن جبير بن مطعم ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار أخرجه الترمذي وابو داود والنسائي قال القرطبي وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام نفسه واختلفوا في مكة فذهب مجاهد ومالك الى ان دور مكة ومنازلها يستوي فيها المقيم والطارئ وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة الى أن للقادم ان ينزل حيث وجد وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أم أبى وذهب الجمهور الى ان دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ولاهلها منع الطارئ من النزول فيها والحاصل ان الكلام في هذا راجع الى أصلين الاول ما في هذه الآية هل المراد بالمسجد الحرام نفسه أو جميع الحرم او مكة على الخصوص والثاني هل كان فتح مكة صلحا أو عنوة وعلى فرض ان فتحها كان عنوة وهل أقرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أيدي أهلها على الخصوص أو جعلها لمن نزل بها على العموم وقد أوضح الشوكاني هذا في شرحه على المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه الى زيادة ثم قال فيه بعد ذكر حجج الفريقين ومن أوضح الادلة على أنها فتحت عنوة قوله صلى الله عليه وآله وسلم وانما أحلت لي ساعة من نهار فان هذا تصريح بانها أحلت له في ذلك بسفك الدماء بها وان حرمتها ذهبت فيه

ثم قال مخبرا عنهم الذين كانت اعينهم في غطاء عن ذكرى أي تغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال ههنا وكانوا لا يستطيعون سمعا أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه ثم قال أفحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادي من دوني أولياء أي اعتقدوا انهم يصح لهم ذلك وينتفعون به كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ولهذا أخبر الله تعالى انه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلا (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) قال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو عن مصعب قال سألت أبي يعني سعد بن أبي وقاص عن قول الله قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا أهم الحرورية قال لا هم اليهود والنصارى أما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد هم الحرورية ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه ان هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء بل هي أعم من هذا فان هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية وانما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب انه مصيب فيها وان عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود كما قال تعالى وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية وقال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال تعالى والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ وقال في هذه الآية الكريمة قل هل ننبئكم أي نخبركم بالاخسرين أعمالا ثم فسرهم فقال الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا أي عملوا أعمالا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا أي يعتقدون انهم على شئ وانهم مقبولون محبوبون وقوله أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا أي لا نثقل موازينهم لانها خالية عن الخير قال البخاري حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا سعيد بن أبي مريم اخبرنا المغيرة حدثني أبو الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليأتي الرجل العظيم السمين يوم

وعادت بعده ولو كانت مفتوحة صلح لما كان اذاك معنى وقد ذكر المقبلي في الاتحاف أدلة قوية على ان المراد به نفس المسجد وعن ابن عباس المسجد الحرام الحرم كله خلق الله فيه سواء وعن سعيد بن جبير مثله وأيضا قال هم في منازل مكة سواء فينبغي لاهل مكة أن يتوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم والبادي واهل مكة سواء يعني في المنزل والحرم وعن ابن عمر وقال من أخذ من اجور بيوت مكة انما يأكل في بطنه نارا وعن عمر بن الخطاب ان رجلا قال له عند المروة اقطعني مكانا لي ولعقبي فاعرض عنه وقال هو حرم الله سواء العاكف فيه والباد وكان عمر يمنع أهل مكة ان يجعلوا لها ابوابا حتى ينزل الحاج في عرصات الدور وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية سواء المقيم والذي يدخل أخرجه الطبراني وغيره قال السيوطي باسناد صحيح وعن ابن عمر مرفوعا قال مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها اخرجه ابن مردويه وعن علقمة بن نضلة قال توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابو بكر وعمر وما يدعى رباع مكة الا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى سكن رواه ابن ماجه واخرج الدارقطني عن ابن عمر مرفوعا من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة واجارتها لانها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي واليه ذهب ابو حنيفة وعلى القول الاول يجوز ذلك واليه ذهب الشافعي مستدلا بقوله تعالى الذين اخرجوا من ديارهم فنسب الديار اليهم نسبة ملك واشتراء وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الفتح من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن والاول اقوى والله اعلم (ومن يرد فيه بالحاد بظلم) مفعول يرد محذوف لقصد التعميم أي من يرد فيه مرادا أي مرادا بعدول عن القصد والاعتدال والالحاد في اللغة الميل الا انه سبحانه بين هنا انه الميل بظلم وقد اختلف في هذا الظلم ماذا هو فقيل هو الشرك وقيل الشرك والقتل وقيل صيد حيواناته وقطع أشجاره وقيل هو الحلف فيه بالايمان الفاجرة وقيل المراد المعاصي فيه على العموم

حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم وقيل احتكار الطعام لما روى يعلى بن أمية ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان احتكار الطعام في الحرم الحاد فيه أخرجه أبو داود وعن ابن عمر بيع الطعام بمكة الحاد وعنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول احتكار الطعام بمكة الحاد أخرجه البيهقي في الشعب والباء في بالحاد قيل ليست بزائدة ان كان مفعول يرد محذوفا كما ذكرنا وقيل زائدة وبه قال الاخفش والمعنى عنده ومن يرد فيه الحادا بظلم وقال أهل الكوفة المعنى بان يلحد وقيل من يرد الناس بالحاد وقيل ان يرد مضمنا معنى يهم والمعنى من يهم فيه بالحاد والباء في بظلم للسببية وقيل غير ذلك (نذقه من عذاب أليم) في الآخرة الا أن يتوب قاله السدي قيل المراد بهذه الآية انه يعاقب بمجرد الارادة للمعصية في ذلك المكان وقد ذهب الى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحاك وابن زيد وغيرهم حتى قالوا لو هم الرجل في الحرم بقتل رجل بعدن لعذبه الله وعن ابن مسعود رفعه قال لو ان رجلا هم فيه بالحاد بظلم وهو بعدن أبين لاذاقه الله عذابا أليما قال ابن كثير هذا الاسناد صحيح على شرط البخاري ووقفه أشبه من رفعه وعنه قال من هم بخطيئة فلم يعملها في سوى البيت لم يكتب عليه حتى يعملها ومن هم بخطيئة في البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم وعن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثه مع رجلين احدهما مهاجر والآخر من الانصار فافتخروا في الانساب فغضب ابن أنيس فقتل الانصاري ثم ارتد عن الاسلام وهرب الى مكة فنزلت فيه ومن يرد فيه بالحاد بظلم يعني من لجأ الى الحرم بالحاد يعني بميل عن الاسلام والحاصل ان هذه الآية دلت على ان من كان في البيت الحرام مأخوذ بمجرد الارادة للظلم فهي مخصصة لما ورد من ان الله غفر لهذه الامة ما حدثت به أنفسها الا أن يقال ان الارادة فيها زيادة على مجرد حديث النفس وبالجملة فالبحث عن هذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الادلة ويرفع الاشكال

القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وعن يحيى بن بكير عن مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد مثله هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقا وقد رواه مسلم عن أبي بكر محمد بن اسحق عن يحيى بن بكير به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الوليد حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالرجل الاكول الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها قال وقرأ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن أبي الصلت عن أبي الزناد عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة مرفوعا فذكره بلفظ البخاري سواء وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار حدثنا العباس بن محمد حدثنا عون بن عمار حدثنا هاشم بن حسان عن واصل عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل رجل من قريش يخطر في حلة له فلما قام على النبي صلى الله عليه وسلم قال يا بريدة هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزنا ثم قال تفرد به واصل مولى أبي عيينة وعون بن عمار وليس بالحافظ ولم يتابع عليه وقد قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الاعمش عن شمر عن أبي يحيى عن كعب قال يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل فلا يزن عند الله جناح بعوضة اقرؤا فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وقوله ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا أي انما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسوله هزوا واستهزؤا بهم وكذبوهم أشد التكذيب (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاؤا به ان لهم جنات الفردوس قال مجاهد الفردوس هو البستان بالرومية وقال كعب والسدي والضحاك هو البستان الذي فيه شجر الاعناب وقال أبو أمامة الفردوس الجنة وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وقد روي هذا مرفوعا من حديث سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها وهكذا رواه اسمعيل بن مسلم عن الحسن عن سمرة مرفوعا وروي عن قتادة عن أنس بن مالك مرفوعا بنحوه روى ذلك كله ابن جرير رحمه الله وفي الصحيحين اذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وقوله تعالى نزلا أي ضيافة فان النزل الضيافة وقوله خالدين فيها أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدا لا يبغون عنها حولا أي لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها كما قال الشاعر

حلت سويدى القلب لا أنا باغيا * سواها ولا عن حبها أتحول

وفى قوله لا يبغون عنها حولا تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم فى المكان دائما انه قد يسأمه أو يمله فاخبر انهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا انتقالا ولا ظعنا ولا رحلة ولا بدلا (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) يقول تعالى قل يا محمد لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذى يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالات عليه لنفد البحر قبل ان يفرغ كتابة ذلك ولو جئنا بمثله أى بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جرا بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله كما قال تعالى ولو ان ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم وقال الربيع بن أنس ان مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة

من ماء البحور كلها وقد انزل الله ذلك قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى يقول لو كانت تلك البحور مدادا لكلمات الله والشجر كلها أقلاما لانكسرت الاقلام وفنى ماء البحر وكلمات الله قائمة لا يفنيها شئ لان أحدا لا يستطيع ان يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه ان ربنا كما يقول وفوق ما نقول ان مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة كحبة من خردل فى خلال الارض كلها (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) روى الطبرانى من طريق هشام بن عمار عن اسمعيل بن عياش عن عمرو بن قيس الكوفى انه سمع معاوية بن أبى سفيان انه قال هذه آخر آية أنزلت يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه قل لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك اليهم انما أنا بشر مثلكم فمن زعم انى كاذب فليأت بمثل ما جئت به فانى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضى عما سألتم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين مما هو مطابق فى نفس الامر لولا ما أطلعنى الله عليه وانما أخبركم انما الهكم الذى أدعوكم الى عبادته اله واحد لا شريك له فمن كان يرجو لقاء ربه أى ثوابه وجزاءه الصالح فليعمل عملا صالحا ما كان موافقا لشرع الله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له وهذان ركنا العمل المتقبل لا بد أن يكون خالصا صوابا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى ابن أبى حاتم من حديث معمر عن عبد الكريم الجزرى عن طاوس قال قال رجل يا رسول الله انى أقف المواقف أريد وجه الله وأحب ان يرى موطنى فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ حتى نزلت هذه الآية فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وهكذا أرسل هذا مجاهد وغير واحد وقال الاعمش

يطول جدا ومثل هذه الآية حديث اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل صاحبه فدخل النار هنا بمجرد حرصه على قتل صاحبه وقد أفرد الشوكانى هذا البحث برسالة مستقلة (و) اذكر (اذ بوأنا لابراهيم) يقال بوأته منزلا وبوأت له كما يقال مكنتك ومكنت لك قال الزجاج معناه جعلنا (مكان البيت) مبوأ لابراهيم وقيل معنى بوأنا بينا له وقيل وطأنا وقد رفع البيت الى السماء أيام الطوفان فاعلم الله ابراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم وجعل طوله فى السماء سبعة أذرع بذراعهم وذرعه فى الارض ثلاثين ذراعا بذراعهم وأدخل الحجر فى البيت ولم يجعل له سقفا وجعل له بابا وحفر له بئرا يلقى فيها ما يهدى للبيت وبناه قبله شيث وقبل شيث آدم وقبل آدم الملائكة وقد تقدم الكلام عليه فى سورة البقرة (ان لا تشرك بى شيأ) أى أوحينا اليه ان لا تعبد غيرى قال المبرد كأنه قيل له وحدنى فى هذا البيت لان معنى لا تشرك بى وحدنى وقالت فرقة الخطاب بقوله ان لا تشرك لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ضعيف جدا (وطهر بيتى) من الشرك والاقذار وعبادة الاوثان وفى الآية طعن على ان من أشرك من قطان البيت أى هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم فلم تفوا بل أشركتم والمعنى تطهيره من الكفر والاوثان والدماء والبدع وسائر النجاسات وقيل عنى به التطهير عن الاوثان فقط وذلك ان جرهما والعمالقة كانت لهم أصنام فى محل البيت وحوله قبل ان يبنيه ابراهيم وقيل المعنى نزهه ان يعبد فيه صنم وهذا أمر باظهار التوحيد فيه وقد مر فى سورة براءة ما فيه كفاية فى هذا المعنى (للطائفين) الذين يطوفون بالبيت (والقائمين) هم المصلون (و) ذكر قوله (الركع السجود) بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة وقرن الطواف بالصلاة لانهما لا يشرعان الا فى البيت كالطواف عنده والصلاة اليه (وأذن) أى ناد (فى الناس بالحج) أى بدعوته والامر به وقرئ آذن بالمد والاذان

حدثنا حمزة أبو عامر مولى بنى هاشم عن شهر بن حوشب قال جاء رجل الى عبادة بن الصامت فقال أجب عما أسألك عنه أرأيت رجلا يصلى يبتغى وجه الله ويحب ان يحمد ويصوم ويبتغى وجه الله ويحب ان يحمد ويتصدق ويبتغى وجه الله ويحب ان يحمد ويحج ويبتغى وجه الله ويحب ان يحمد فقال عبادة ليس له شئ وان الله يقول أنا خير شريك فمن كان له معى شرك فهو له كله لا حاجة لى فيه وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير حدثنا كثير بن زيد عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه عن جده قال كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا فكثر المحبوسون واهل النوب فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه النجوى فقلنا تبنا الى الله أى نبى الله انما كنا فى ذكر المسيح وفرقنا منه فقال أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى

والاذان الاعلام وعن ابن عباس قال لما فرغ ابراهيم من بناء البيت قال قد فرغت قال أذن فى الناس بالحج قال يارب وما يبلغ صوتى قال أذن وعلى البلاغ قال رب كيف أقول قال قل يا أيها الناس كتب عليكم الحج الى البيت العتيق فسمعه من فى السماء والارض ألا ترى انهم يجيئون من أقصى الارض يلبون وفى الباب آثار عن جماعة من الصحابة وبه قال جماعة من المفسرين وزادوا فعلا على المقام فاشرف به حتى صار كاعلى الجبال وقيل علا على جبل أبى قبيس فلما صعده للنداء خفضت الجبال رؤسها ورفعت له القرى فادخل اصبعيه فى اذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا ونادى فى الناس بالحج وقال يا أيها الناس ان ربكم بنى بيتا وكتب عليكم الحج اليه فاجيبوا ربكم فاجابه كل من كتب له أن يحج ممن كان فى أصلاب الرجال وأرحام الامهات لبيك اللهم لبيك قال القسطلانى فمن لبى مرة حج مرة ومن لبى مرتين حج مرتين ومن لبى أكثر حج بقدر تلبيته انتهى قيل أول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجا وقيل ان الخطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى أعلمهم يامحمد بوجوب الحج عليهم وعلى هذا فالخطاب لابراهيم انتهى عند قوله والركع السجود وقيل ان خطابه انتهى عند قوله مكان البيت ومابعده خطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمره ان يقول ذلك فى حجة الوداع عن أبى هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا أخرجه مسلم قال فى المدارك والاول أظهر وقرأ الجمهور بالحج بفتح الحاء وابن اسحق فى كل القرآن بكسرها (يأتوك رجالا) هذا جواب الامر وعده الله اجابة الناس له الى حج البيت مابين راجل وراكب فمعنى رجالا مشاة جمع راجل وقيل جمع رجل وقرئ بضم الراء رجالا وقرئ على وزن كسالى وقدم الرجال على الركبان فى الذكر لزيادة تعبهم فى المشى قال الكرخى اذ للراكب بكل خطوة سبعون حسنة وللراجل سبعمائة من حسنات الحرم كل حسنة مائة ألف حسنة وابراهيم واسمعيل عليهما السلام حجا ماشيين انتهى أقول المعتمد فى الباب

قال قلنا بلى قال الشرك الخفى أن يقوم الرجل يصلى لمكان الرجل وقال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد عن ابن بهرام قال قال شهر بن حوشب قال ابن غنم لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة بن الصامت فاخذ يمينى بشماله وشمال أبى الدرداء بيمينه فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى والله اعلم بما نتناجى به فقال عبادة ابن الصامت ان طال بكما عمر احدكما أو كليكما لتوشكان ان تريا الرجل من ثبج المسلمين يعنى من وسط قراء القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فأعاده وأبداه وأحل حلاله وحرم حرامه ونزل عند منازله لا يجوز فيكم الا كما يجوز رأس الحمار الميت قال فبينما نحن كذلك اذ طلع شداد بن أوس رضى الله عنه وعوف بن مالك فجلسا الينا فقال شداد ان أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من الشهوة الخفية والشرك فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء اللهم غفرا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدثنا ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب وأما الشهوة الخفية قد عرفناها هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها فما هذا الشرك الذى تخوفنا به ياشداد فقال شداد أرأيتكم لو رأيتم رجلا يصلى لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق أترون انه قد أشرك قالوا نعم والله ان من صلى لرجل أو صام أو تصدق له لقد أشرك فقال شداد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من صلى يرائى فقد أشرك ومن صام يرائى فقد اشرك ومن تصدق يرائى فقد اشرك قال عوف بن مالك عند ذلك أفلا يعمد الله الى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ماخلص له ويدع ما أشرك به فقال شداد عند ذلك فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بى من اشرك بى شيأ فان عمله قليله وكثيره لشريكه الذى اشرك به أنا عنه غنى (طريق اخرى لبعضه) قال الامام أحمد حدثنا

زيد بن الحباب حدثني عبد الواحد بن زياد أخبرنا عبادة بن نسي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى فقيل له ما يبكيك قال شيء
سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبكاني سمعت رسول الله يقول أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية قلت يا رسول الله
أتشرك أمتك من بعدك قال نعم أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكن يراؤن بأعمالهم والشهوة الخفية أن يصبح
أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان عن عبادة بن نسي به وعبادة
فيه ضعف وفي سماعه من شداد نظر (حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا الحسن بن علي بن جعفر الأحمر حدثنا علي بن
ثابت حدثنا قيس بن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله يوم القيامة أنا خير
شريك فمن أشرك بي أحدا فهو له كله وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت العلاء
يحدث عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل أنه قال أنا خير الشركاء فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك تفرد به من هذا الوجه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا الليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بكر أخبرنا عبد الحميد يعني ابن جعفر أخبرني أبي عن زياد بن ميناء عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا جمع
الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن
الله أغنى الشركاء عن الشرك وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث محمد وهو البرساني به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا
أحمد بن عبد الملك حدثنا بكار حدثني أبي يعني عبد العزيز بن أبي بكرة عن أبي بكرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية حدثنا شيبان عن فراس عن عطية عن أبي سعيد
الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من يرائي يرائي الله به ومن يسمع يسمع الله به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى
ابن سعيد عن شعبة حدثني عمرو بن مرة قال سمعت رجلا في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر أنه سمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول من سمع الناس بعمله سمع الله به سامع خلقه وصغره وحقره فذرفت عينا عبد الله وقال الحافظ أبو بكر

ان الركوب أفضل من المشي لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حج راكبا كما في الروايات
الصحيحة المشهورة وفضيلة الاتباع تربو على غيره وإن كان المشي فضيلة في نفسه سواء
قدر على المشي أم لا قبل الإحرام وبعده والحديث الذي ذكره الكرخي تبعا للغزالي
والرافعي ضعيف على ما فيه قاله ابن علان في مثير شوق الأنام إلى بيت الله الحرام وممن
ضعفه ابن حجر المكي في شرح العباب وشرح المنهاج والجواب عن التقديم أنه قد لا يفيد
التفضيل قطعا أو على الأصح وقد يتقدم المفضول ويتأخر الأفضل قال تعالى فمنكم كافر
ومنكم مؤمن وقال لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة وقال إن مع العسر يسرا
إلى غير ذلك من الآيات فليعلم وقال يأتوك وإن كانوا يأتون البيت لأن من أتى الكعبة
حاجا فقد أتى إبراهيم لأنه أجاب نداءه (وعلى كل ضامر) أي وركبانا على كل بعير والضامر
البعير المهزول الذي أتعبه السفر يقال ضمر يضمر ضمورا وضمر الفرس من باب دخل وضمر
أيضا بالضم فهو ضامر فيهما وناقة ضامر وضامرة وتضمير الفرس أيضا أن تعلفه حتى يسمن
ثم ترده إلى القوت وذلك في أربعين يوما ووصف الضامر بقوله (يأتين) باعتبار المعنى لأن
ضامر في معنى ضوامر (من كل فج عميق) الفج الطريق الواسع الجمع فجاج والعميق
البعيد قال النسفي قدم الرجال على الركبان إظهارا لفضيلة المشاة انتهى وليس بشيء لأن
الاستطاعة المفسرة بالزاد والراحلة في الحديث الصحيح شرط في فريضة الحج واستدل
بذلك بعضهم على أنه لا يجب الحج على راكب البحر وهو استدلال ضعيف لأن مكة ليست
على بحر وإنما يتوصل إليها على إحدى هاتين الحالتين بمشي أو ركوب فذكر تعالى ما يتوصل
به إليها (ليشهدوا) أي ليحضروا (منافع لهم) وهي تعم منافع الدنيا والآخرة وقيل المراد
بها المناسك وقيل المغفرة وقيل التجارة كما في قوله ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من
ربكم قال ابن عباس أسواقا كانت لهم ما ذكر الله منافع إلا الدنيا وعنه قال منافع في الدنيا
ومنافع في الآخرة فأما منافع الآخرة فرضوان الله وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم
البدن

البزار حدثنا عمرو بن يحيى الايلي حدثنا الحرث بن غسان حدثنا أبو عمران الجونى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض أعمال بنى آدم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة فى صحف مختمة فيقول الله ألقوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة يارب والله مارأينا منه الاخيرا فيقول ان عمله كان لغير وجهى ولا أقبل اليوم من العمل الاما أريد به وجهى ثم قال الحرث بن غسان روى عنه جماعة وهو بصرى ليس به بأس وقال ابن وهب حدثنى يزيد بن عياض عن عبد الرحمن الاعرج عن عبد الله بن قيس الخزاعى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قام رياء وسمعة لم يزل فى مقت الله حتى يجلس وقال أبو يعلى حدثنا محمد بن أبى بكر حدثنا محمد بن دينار عن ابراهيم الهجرى عن أبى الاحوص عوف بن مالك عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الصلاة حيث يراها الناس واساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل وقال ابن جرير حدثنا أبو عمرو اسمعيل بن عمرو السكونى حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن عياش حدثنا عمرو بن قيس الكندى انه سمع معاوية بن أبى سفيان تلا هذه الآية فمن كان يرجو لقاء ربه الآية وقال انها آخر آية نزلت من القرآن وهذا أثر مشكل فان هذه الآية آخر سورة الكهف وكلها مكية ولعل معاوية أراد انه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها بل هى مثبتة محكمة فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على مافهمه والله أعلم وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد ابن على بن الحسن بن سفيان حدثنا النضر بن شميل حدثنا أبو قرة عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ فى ليلة من كان يرجو لقاء ربه الآية كان له من النور من عدن أبين الى مكة حشو ذلك النور الملائكة غريب جدا آخر تفسير سورة الكهف

(تفسير سورة مريم وهى مكية)

وقد روى محمد بن اسحق فى السيرة من حديث أم سلمة واحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة الى أرض الحبشة من مكة أن جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه (بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص ذكر رحمت ربك عبده زكريا اذ نادى ربه نداء خفيا قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة وقوله ذكر رحمت ربك أى هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا وقرأ يحيى بن يعمر ذكر رحمت ربك عبده زكرياه وزكريا يمد ويقصر قراءتان مشهورتان وكان نبيا عظيما من أنبياء بنى اسرائيل وفى صحيح البخارى انه كان نجارا يأكل من عمل يده

البدن فى ذلك اليوم والذبائح والتجارات ونكر منافع لانه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادات وللنسفى فى هذا المقام كلام حسن من باب الاعتبار تركنا ذكره روما للاختصار فمن شاء ادراكه فليرجع الى المدارك (ويذكروا اسم الله) عند ذبح الهدايا والضحايا وقيل ان هذا الذكر كناية عن الذبح لانه لا ينفك عنه تنبيها على ان المقصود مما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسمه (فى أيام معلومات) هى أيام النحر كما يفيد ذلك قوله الآتى على مارزقهم من بهيمة الانعام وبه قال ابن عمر والصاحبان وقيل عشر ذى الحجة وهو قول أكثر المفسرين والشافعى وأبى حنيفة قال ابن عباس الايام المعلومات أيام العشر وعنه قال يوم النحر وثلاثة أيام بعده وعنه قال أيام التشريق وعنه قال قبل يوم التروية بيوم ويوم التروية ويوم عرفة وقد تقدم الكلام فى الايام المعلومات والمعدودات فى البقرة فلا نعيده والكلام فى وقت ذبح الاضحية معروف فى كتب الفقه وشروح الحديث (على) ذبح (مارزقهم من بهيمة الانعام) هى الانعام فالاضافة فى هذا كالاضافة فى قولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى والبهيمة مبهمة فى كل ذات أربع فى البر والبحر فبينت بالانعام وهى الابل والبقر والضأن والمعز التى تنحر فى يوم العيد ومابعده من الهدايا والضحايا (فكلوا منها) أى من لحومها والامر هنا للندب عند الجمهور وذهبت طائفة الى أن الامر للوجوب وهذا التفات من الغيبة الى الخطاب (وأطعموا البائس الفقير) البائس ذو البؤس وهو شدة الفقر فذكر الفقير بعده لمزيد الايضاح وقال ابن عباس البائس الزمن الذى لا شئ له والامر هنا للوجوب وقيل للندب (ثم) أى بعد حلهم خروجهم من الاحرام وبعد الاتيان بما عليهم من النسك (ليقضوا تفثهم) المراد بالقضاء هنا هو التأدية أى ليأدوا ازالة وسخهم لان التفث هو الوسخ والدرن والشعث والقذارة من طول الشعر والاظفار وقد أجمع المفسرون كما حكاه النيسابورى على هذا قال الزجاج ان أهل اللغة لا يعرفون التفث وقال أبو عبيدة لم يأت فى الشعر

في التجارة وقوله اذ نادى ربه نداء خفيا قال بعض المفسرين انما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد الى الرعونة لكبره حكاه الماوردي وقال آخرون انما أخفاه لانه أحب الى الله كما قال قتادة في هذه الآية اذ نادى ربه نداء خفيا ان الله يعلم القلب التقي ويسمع الصوت الخفي وقال بعض السلف قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية يارب يارب يارب فقال الله له لبيك لبيك لبيك قال رب اني وهن العظم مني أي ضعفت وخارت القوى واشتعل الرأس شيبا أي اضطرم المشيب في السواد كما قال ابن دريد في مقصورته

أما ترى رأسي حاكى لونه * طرة صبح تحت أذيال الدجا
واشتعل المبيض في مسوده * مثل اشتعال النار في جمر الغضا

والمراد من هذا الاخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة وقوله ولم أكن بدعائك رب شقيا أي ولم أعود منك الا الاجابة في الدعاء ولم تردني قط فيما سألتك وقوله

وانى خفت الموالي من ورائي قرأ الاكثرون بنصب الياء من الموالي على انه مفعول وعن الكسائي انه سكن الياء كما قال الشاعر

كأن أيديهن في القاع القرق
أيدي جوار يتعاطين الورق

وقال الآخر

فتى لو ينادي الشمس ألقت قناعها
أو القمر الساري لالقى المقالدا

ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي

تغاير الشعر منه اذ سهرت له
حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وقال مجاهد وقتادة والسدي أراد بالموالي العصبة وقال أبو صالح الكلالة وروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه انه كان يقرؤها واني خفت الموالي من ورائي بتشديد الفاء بمعنى قلت عصباتي من بعدي وعلى القراءة الاولى وجه خوفه انه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحى اليه فاجيب في ذلك لا أنه خشي من وراثتهم له ماله فان النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله الى ما هذا حده أن يأنف من وراثة عصباته له ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم هذا وجه الثاني انه لم يذكر انه كان ذا مال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه ومثل هذا لا يجمع مالا ولا سيما الانبياء فانهم كانوا أزهد شئ في الدنيا الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا نورث ما تركنا صدقة وفي رواية عند الترمذي باسناد صحيح نحن معشر الانبياء لا نورث وعلى هذا فتعين حمل قوله فهب لي من لدنك وليا يرثني على ميراث النبوة ولهذا قال ويرث من آل يعقوب كقوله وورث سليمان داود أي في النبوة اذ لو كان في المال لما خصه من بين اخوته بذلك ولما كان في الاخبار بذلك كبير فائدة اذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل ان الولد يرث أباه فلولا انها وراثة خاصة لما أخبر بها وكل هذا يقرره ويثبته ما صح

ما يحتج به في معنى التفث وقال المبرد أصل التفث في اللغة كل قاذورة تلحق الانسان وقيل قضاؤه ادهانه لان الحاج مغبر شعث لم يدهن ولم يستحد فاذا قضى نسكه وخرج من احرامه حلق شعره ولبس ثيابه فهذا هو قضاء التفث قال الزجاج كأنه خروج من الاحرام الى الاحلال وعن ابن عمر قال التفث المناسك كلها وعن ابن عباس نحوه وعنه قال التفث حلق الرأس والاخذ من العارضين ونتف الابط وحلق العانة والوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار وقص الاظفار وقص الشوارب والذبح (وليوفوا) بالتخفيف والتشديد (نذورهم) أي ما ينذرون به من البر في حجهم والامر للوجوب وقيل المراد بالنذر هنا أعمال الحج أو الهدايا والضحايا (وليطوفوا بالبيت العتيق) هذا الطواف هو طواف الافاضة الواجب ووقته يوم النحر بعد الرمي والحلق قال ابن جرير لا خلاف في ذلك بين المتأولين والعتيق القديم كما يفيده قوله سبحانه ان أول بيت وضع للناس الآية وقد سمي العتيق لان الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله منه وقيل لان الله يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب وقيل لانه أعتق من غرق الطوفان فانه رفع في أيامه وقيل لانه لم يملك قط وقيل العتيق الكريم وقد ورد في وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة وهو مطاف أهل الغبراء كما ان العرش مطاف أهل السماء فان الطالب اذا هاجته معمعة الطرب وجذبته جواذب الطلب جعل يقطع مناكب الارض مراحل ويتخذ مسالك المهالك منازل فاذا عاين البيت لم يزده التسلي به الا اشتياقا ولم يفده باستلام الحجر الا احتراقا فيرده الاسف لهفان ويرده اللهف حوله في الدوران وورد في فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها (ذلك) أي الامر ذلك وهذا وأمثاله يطلق ويذكر للفصل بين الكلامين أو بين طرفي كلام واحد كما يقدم الكاتب جملة من كلامه في بعض المعاني ثم اذا أراد الخوض في معنى آخر قال هذا وقد كان كذا قاله أبو حيان في البحر أو المعنى افعلوا ذلك والمشار اليه هو ما سبق

ماسبق من أعمال الحج (ومن يعظم حرمات الله) جمع حرمة وهى مالايحل انتهاكه قال الزجاج الحرمة ماوجب القيام به وحرم التفريط فيه وهى فى هذه الآية مانهى عنها ومنع من الوقوع فيها كالجدال والجماع والصيد والظاهر من الآية عموم كل حرمة فى الحج وغيره كما يفيده اللفظ وان كان السبب خاصا وتعظيمها ترك ملابستها قال مجاهد الحرمة مكة والحج والعمرة ومانهى الله عنه من معاصيه كلها وقيل هى البيت الحرام والمشعر الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام وتعظيمها القيام بمراعاتها وحفظ حرمتها وقيل هى مناسك الحج وتعظيمها اقامتها واتمامها (فهو) أى فالتعظيم (خير له) من التهاون بشئ منها (عند ربه) يعنى فى الآخرة وقيل ان صيغة التفضيل هنا لايراد بها معناها الحقيقى بل المراد أن ذلك التعظيم خير ينتفع به أى قربة وطاعة يثاب عليها عند الله فهو عدة بخير (وأحلت لكم الانعام) ان تأكلوها بعد الذبح وهى الابل والبقر والغنم كما تقدم (الا مايتلى عليكم) تحريمه فى الكتاب العزيز من المحرمات وهى الميتة وماذكر معها فى آية المائدة فالاستثناء منقطع لماذكر فى آية المائدة بماليس من جنس الانعام كالدم ولحم الخنزير ويجوز أن يكون متصلا بان يصرف الى مايحرم من بهيمة الانعام بسبب عارض كالموت ونحوه وقيل وجه الانقطاع انه ليس فى الانعام محرم قاله الشهاب والسمين وقيل فى قوله الا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) الرجس القذر والوسخ وعبادة الاوثان قذر معنوى والوثن التمثال وأصله من وثن الشئ أى أقام فى مقامه وسمى الصليب وثنا لانه ينصب ويركز فى مقامه فلايبرح عنه والمراد اجتناب عبادة الاوثان وسماها رجسا لانها سبب الرجس وهو العذاب وقيل جعلها سبحانه رجسا حكما والرجس النجس وليست النجاسة وصفا ذاتيا لها ولكنها وصف شرعى فلاتزول الا بالايمان كما انه لاتزول النجاسة الحسية الا بالماء قال الزجاج من هنا لتخليص جنس من أجناس أى فاجتنبوا الرجس الذى هو وثن وقال ابن عباس يقول اجتنبوا طاعة الشيطان فى

فى الحديث نحن معاشر الانبياء لانورث ماتركناه فهو صدقة قال مجاهد فى قوله يرثنى ويرث من آل يعقوب كان وراثته علما وكان زكريا من ذرية يعقوب وقال هشيم أخبرنا اسمعيل بن أبى خالد عن أبى صالح فى قوله يرثنى ويرث من آل يعقوب قال يكون نبيا كما كانت آباؤه أنبياء وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن يرث نبوته وعلمه وقال السدى يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب وعن مالك عن زيد بن اسلم ويرث من آل يعقوب قال نبوتهم وقال جابر بن نوح ويزيد بن هرون كلاهما عن اسمعيل بن أبى خالد عن أبى صالح فى قوله يرثنى ويرث من آل يعقوب قال يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يرحم الله زكريا وما كان عليه من وراثة ماله ويرحم الله لوطا ان كان ليأوى الى ركن شديد وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح عن مبارك هو ابن فضالة عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى زكريا ما كان عليه من وراثة ماله حين قال هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب وهذه مرسلات لاتعارض الصحاح والله أعلم وقوله واجعله رب رضيا أى مرضيا عندك وعند خلقك تحبه وتحببه الى خلقك فى دينه وخلقه (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) هذا الكلام يتضمن محذوفا وهو انه أجيب الى ماسأل فى دعائه فقيل له يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى كما قال تعالى هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين وقوله لم نجعل له من قبل سميا قال قتادة وابن جريج وابن زيد أى لم يسم أحد قبله بهذا الاسم واختاره ابن جرير رحمه الله وقال مجاهد لم نجعل له من قبل سميا أى شبيها أخذه من معنى قوله واعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا أى شبيها وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أى لم تلد العواقر قبله مثله وهذا دليل على ان زكريا عليه السلام كان لايولد له وكذلك امرأته كانت عاقرا من أول عمرها بخلاف ابراهيم وسارة عليهما السلام فانهما انما تعجبا من البشارة باسحق لكبرهما لا لعقرهما ولهذا قال أبشرتمونى على ان مسنى الكبر فبم تبشرون مع انه كان قد ولد له قبله اسمعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشئ عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد (قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب الى ماسأل وبشر بالولد ففرح

فرحا شديدا وسأل عن كيفية ما يولد له والوجه الذي يأتيه منه الولد مع ان امرأته عاقر لا تلد من أول عمرها مع كبرها ومع انه قد كبر
وعتا أي عس عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع والعرب تقول للعود اذا يبس عتا يعتو عتيا وعتوا وعسى يعسو عسوا وعسيا
وقال مجاهد عتيا يعني نحول العظم وقال ابن عباس وغيره عتيا يعني الكبر والظاهر أنه أخص من الكبر وقال ابن جرير حدثنا
يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس قال لقد علمت السنة كلها غير اني لا ادري أكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقرأ في الظهر والعصر أم لا ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف وقد بلغت من الكبر عتيا أو عسيا ورواه الامام أحمد عن سريج
ابن النعمان وأبو داود عن زياد بن أيوب كلاهما عن هشيم به قال أي الملك مجيبا لزكريا عما استعجب منه كذلك قال ربك هو على هين
أي ايجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها هين

أي يسير سهل على الله ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه
فقال وقد خلقتك من قبل ولم تك شيأ
كما قال تعالى هل أتى على الانسان
حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا
(قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن
لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا
فخرج على قومه من المحراب فأوحى
اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا) يقول
تعالى مخبرا عن زكريا عليه السلام
انه قال رب اجعل لي آية أي علامة
ودليلا على وجود ما وعدتني لتستقر
نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال
ابراهيم عليه السلام رب أرني كيف
تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى
ولكن ليطمئن قلبي قال آيتك أي
علامتك أن لا تكلم الناس ثلاث
ليال سويا أي أن تحبس لسانك
عن الكلام ثلاث ليال وأنت
صحيح سوي من غير مرض ولا علة
قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة
ووهب والسدي وقتادة وغير واحد
اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة
قال ابن زيد بن أسلم كان يقرأ ويسبح
ولا يستطيع ان يكلم قومه الا اشارة
وقال العوفي عن ابن عباس ثلاث ليال سويا أي متتابعات والقول الاول عنه وعن الجمهور أصح كما قال تعالى في آل حضض
عمران قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار وقال مالك
عن زيد بن اسلم ثلاث ليال سويا من غير خرس وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها الا رمزا أي
اشارة ولهذا قال في هذه الآية الكريمة فخرج على قومه من المحراب أي الذي بشر فيه بالولد فأوحى اليهم أي أشار خفية سريعة
أن سبحوا بكرة وعشيا أي موافقة له أي فيما أمر في هذه الايام الثلاثة زيادة على اعماله شكرا لله على ما أولاه قال مجاهد
فأوحى اليهم أي أشار وبه قال وهب وقتادة وقال مجاهد في رواية عنه فأوحى اليهم أي كتب لهم في الارض وكذا قال السدي
(يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد

عبادة الاوثان (واجتنبوا قول الزور) الذي هو الباطل وسمي زورا لانه مائل عن الحق
ومنه قوله تعالى تزاور عن كهفهم وقوله مدينة زوراء أي مائلة والمراد هنا قول الزور على
العموم فهو تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان رأس الزور والمشرك زاعم ان الوثن
تحق له العبادة فأعظمه الشرك بالله بأي لفظ كان وقال الزجاج المراد هنا تحليلهم بعض
الانعام وتحريمهم بعضها وقولهم هذا حلال وهذا حرام وقيل المراد به شهادة الزور وقال
ابن عباس يعني الافتراء على الله والتكذيب به وقيل هو قول المشركين في تلبيتهم لبيك
لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك أخرج أحمد والترمذي وابن المنذر وغيرهم
عن أيمن بن خريم قال قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطيبا فقال يا أيها الناس
عدلت شهادة الزور شركا بالله ثلاثا ثم قرأ هذه الآية قال أحمد غريب ولا نعرف لايمن
ابن خريم سماعا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من
حديث أبي بكرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا أنبئكم بأكبر الكبائر
ثلاثا قلنا بلى يا رسول الله قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال
وقول الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت (حنفاء لله) أي مستقيمين
على الحق أو مائلين الى الحق مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه ولفظ حنفاء من الاضداد
يقع على الاستقامة ويقع على الميل وقيل معناه حجاجا قاله ابن عباس وعن أبي بكر
الصديق نحوه ولا وجه لهذا (غير مشركين به) شيأ من الاشياء كما يفيده الحذف من العموم
تأكيد لما قبله وهما حالان من الواو في اجتنبوا والاولى مؤسسة والثانية مؤكدة
قيل ان أهل الجاهلية كانوا يحجون مشركين فلما أظهر الله الاسلام قال الله للمسلمين حجوا
الآن غير مشركين به (ومن يشرك بالله) مبتدأ مؤكد لما قبله من الامر بالاجتناب
والغرض بهذا ضرب المثل لمن يشرك بالله والمعنى ان بعد من أشرك به عن الحق والايمان
(فكأنما خر) أي كبعد من سقط (من السماء) الى الارض أي انحط من أوج الايمان الى

ويوم يموت ويوم يبعث حيا) وهذا أيضا تضمن محذوفا تقديره انه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام وان الله علمه الكتاب وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ويحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار وقد كان سنه اذذاك صغيرا فلهذا نوه بذكره وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال يا يحيى خذ الكتاب بقوة أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد وآتيناه الحكم صبيا أي الفهم والعلم والجد والعزم والاقبال على الخير والاكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال ما للعب خلقنا قال فلهذا أنزل الله وآتيناه الحكم صبيا وقوله وحنانا من لدنا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وحنانا من لدنا يقول ورحمة من عندنا وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك وزاد لا يقدر عليها غيرنا وزاد قتادة رحم الله بها زكريا وقال مجاهد وحنانا من لدنا وتعطفا من ربه عليه وقال عكرمة وحنانا من لدنا قال محبة عليه وقال ابن زيد أما الحنان فالمحبة وقال عطاء بن أبي رباح وحنانا من لدنا قال تعظيما من لدنا وقال ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار انه سمع عكرمة عن ابن عباس انه قال لا والله ما أدري ما حنانا وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن منصور سألت سعيد بن جبير عن قوله وحنانا من لدنا فقال سألت عنها ابن عباس فلم يجد فيها شيأ والظاهر من السياق ان قوله وحنانا معطوف على قوله وآتيناه الحكم صبيا أي وآتيناه الحكم وحنانا وزكاة أي وجعلناه ذا حنان وزكاة فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب حنت الناقة على ولدها وحنت المرأة على زوجها ومنه سميت المرأة حنة من الحنة وحن الرجل الى وطنه ومنه التعطف والرحمة كما قال الشاعر

تعطف على هداك المليك * فان لكل مقام مقالا

وفي المسند للامام أحمد عن أنس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة يا حنان يا منان وقد يثنى ومنهم من يجعل ما ورد من ذلك لغة بذاتها كما قال طرفة

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا * حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقوله وزكاة معطوف على وحنانا فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب وقال قتادة الزكاة العمل الصالح وقال الضحاك وابن جريج العمل الصالح الزكي وقال العوفي عن ابن عباس وزكاة وكان تقيا طهر فلم يعمل بذنب وقوله وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا لما ذكر تعالى طاعته لربه وانه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما ومجانبته عقوقهما قولا وفعلا أمرا ونهيا ولهذا قال ولم يكن جبارا عصيا ثم قال بعد هذه الاوصاف الجميلة جزاء له على ذلك وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا أي له الأمان

حضيض الكفر (فتخطفه الطير) يقال خطفه يخطفه اذا سلبه ومنه قوله يخطف أبصارهم أي تخطف لحمه وتسلبه وتقطعه بمخالبها وتذهب به وقرئ بتشديد الطاء وفتحها وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما (أو تهوي به الريح) أي تقذفه وترمي به (في مكان سحيق) يقال سحق يسحق سحقا فهو سحيق اذا بعد أي بعيد فلا يصل اليه احد بحال قاله الزجاج وقيل شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء لانه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقطه الريح فهو هالك لا محالة اما باستلاب الطير لحمه أو بسقوطه في المكان السحيق قال الزمخشري يجوز في هذا التشبيه ان يكون من المركب والمفرق فان كان تشبيها مركبا فكأنه قال من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلاكا ليس بعده هلاك بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير متفرقا مزعا في حواصلها وعصفت به الريح حتى هوت به في بعض الاماكن البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان في علوه بالسماء والذي ترك الايمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والاهواء المردية بالطير المختطفة والشيطان الموقع في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة (ذلك ومن يعظم شعائر الله) جمع شعيرة أو شعارة بالكسر بوزن قلادة وهي كل شيء فيه لله شعار ومنه شعار القوم في الحرب وهو علامتهم التي يتعارفون بها ومنه اشعار البدن وهو الطعن في جانبها الأيمن فشعائر الله أعلام دينه وتدخل فيها الهدايا في الحج دخولا أوليا وعن ابن عباس في الآية قال الشعائر البدن والاستسمان والاستحسان والاستعظام وينبغي للانسان ان يترك المشاحة في ثمنها روي ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهدى مائة بدنة فيها جمل لابي جهل في أنفه برة من ذهب وان عمر أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار (فانها) الضمير يرجع الى الشعائر بتقدير مضاف محذوف أي فان تعظيم الشعائر (من تقوى القلوب) أي مبتدأ أو ناشئ من أفعال القلوب التي هي من التقوى وانما ذكر القلوب لانها مراكز

فى هذه الثلاثة الاحوال وقال سفيان بن عيينة أوحش مايكون الخلق فى ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه
ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم ويوم يبعث فيرى نفسه فى محشر عظيم قال فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه
فقال وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزى عن صدقة بن الفضل عنه وقال
عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله جبارا عصيا قال كان ابن المسيب يذكر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن
أحد يلقى الله يوم القيامة الاذا ذنب الايحيى بن زكريا قال قتادة ماأذنب ولاهم بأمر مرسل وقال محمد بن اسحق عن
يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب حدثنى ابن العاص انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم قال كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب
الاما كان من يحيى بن زكريا ابن اسحق مدلس وقد ضعف هذا الحديث فالله أعلم وقال الامام أحمد
حدثنا عفان حدثنا حماد أخبرنا على
ابن زيد عن يوسف بن مهران عن
ابن عباس ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال مامن أحد من ولد
آدم الاوقد أخطأ أوهم بخطيئة ليس
يحيى بن زكريا وما ينبغى لاحد أن
يقول أنا خير من يونس بن متى
وهذا أيضا ضعيف لان على بن زيد
ابن جدعان له منكرات كثيرة
والله أعلم وقال سعيد بن أبى عروبة
عن قتادة أن الحسن قال يحيى
وعيسى عليهما السلام التقيا
فقال له عيسى استغفر لى أنت
خير منى فقال له الآخر أنت
خير منى فقال له عيسى أنت خير
منى سلمت على نفسى وسلم الله عليك
فعرف والله فضلهما (واذكر فى
الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها
مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم
حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها
بشرا سويا قالت انى أعوذ بالرحمن
منك ان كنت تقيا قال انما أنا
رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك الآية
قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام وانه أوجد منه فى حال
كبره وعقم زوجته ولدا زكيا طاهرا مباركا عطف بذكر قصة مريم فى ايجاده ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب فان بين
القصتين مناسبة ومشابهة ولهذا ذكرهما فى آل عمران وههنا وفى سورة الانبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما فى المعنى
ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه وانه على مايشاء قادر فقال واذكر فى الكتاب مريم وهى مريم بنت عمران من سلالة داود
عليه السلام وكانت من بيت طاهر طيب فى بنى اسرائيل وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها فى سورة آل عمران وانها نذرتها محررة
أى تخدم مسجد بيت المقدس وكانوا يتقربون بذلك فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ونشأت فى بنى اسرائيل نشأة عظيمة

التقوى (لكم فيها) أى فى الشعائر على العموم أو على الخصوص وهى البدن كما يدل
عليه السياق واجبة او مندوبة (منافع) ومنها الركوب والدر والنسل والصوف والوبر
وغير ذلك مما لايضرها (الى أجل مسمى) وهو وقت نحرها وقيل الى ان تسمى بدنا قاله ابن
عباس وعن مجاهد نحوه وقال فى ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها منافع
الى ان تسمى هديا فاذا سميت هديا ذهبت المنافع (ثم محلها) أى حيث يحل نحرها حين
تسمى (الى البيت العتيق) المعنى انها تنتهى الى البيت وما يليه من الحرم فمنافعهم الدنيوية
المستفادة منها مستمرة الى وقت نحرها ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية وقيل ان محلها
ههنا مأخوذ من احلال الحرام والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار
والسعى ينتهى الى طواف الافاضة بالبيت فالبيت على هذا مراد بنفسه قال عكرمة اذا
دخلت الحرم فقد بلغت محلها (ولكل أمة) هى الجماعة المجتمعة على مذهب واحد (جعلنا
منسكا) مصدر من نسك ينسك اذا ذبح القربان والذبيحة نسيكة قال الازهرى ان المراد
بالمنسك فى الآية موضع النحر ويقال منسك بكسر السين وفتحها لغتان قال الفراء المنسك
فى كلام العرب الموضع المعتاد فى خير أو شر وقال ابن عرفة منسكا أى مذهبا من طاعة
الله وروى عن الفراء ان المنسك العيد وبه قال ابن عباس وقيل هو الحج وقال مجاهد فى
الآية اهراق الدماء وعن عكرمة قال ذبحا وعن زيد بن أسلم قال مكة لم يجعل الله لأمة
قط منسكا غيرها والاول أولى لقوله (ليذكروا اسم الله) والمعنى جعلنا لكل أهل دين من
الاديان أو لجماعة مسلمة سلفت قبلكم ذبحا يذبحونه ودما يريقونه أو متعبدا أو طاعة
أو عيدا أو حجا يحجونه ليذكروا اسم الله وحده ويجعلوا نسكهم خاصا به (على) ذبح
(مارزقهم من بهيمة الانعام) سماها بهيمة لانها لاتتكلم وقيد بالانعام لان القربان لايكون
الامن الانعام دون غيرها وان جاز أكله وفى القاموس البهيمة كل ذات أربع قوائم ولو فى
الماء أو كل حى لايميز والجمع بهائم والابهم الاعجم واستبهم استعجم فلم يقدر على الكلام وفى

فكانت احدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤب وكانت في كفالة زوج خالتها زكريا نبي بني اسرائيل اذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون اليه في دينهم ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب فذكر انه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء كما تقدم بيانه في سورة آل عمران فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة ان يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام انتبذت من أهلها مكانا شرقيا أي اعتزلتهم وتنحت عنهم وذهبت الى شرقي المسجد المقدس قال السدي لحيض أصابها وقيل لغير ذلك قال أبو كدينة عن قابوس بن ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال ان أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة الى البيت

والحج اليه وما صرفهم عنه الا قيل ربك فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا قال خرجت مريم مكانا شرقيا فصلوا قبل مطلع الشمس رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال ابن جرير أيضا حدثنا اسحق ابن شاهين حدثنا خالد بن عبد الله عن داود عن عامر عن ابن عباس قال اني لأعلم خلق الله لأي شئ اتخذت النصارى المشرق قبلة لقول الله تعالى فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا واتخذوا ميلاد عيسى قبلة وقال قتادة مكانا شرقيا شاسعا متنحيا وقال محمد بن اسحق ذهبت الى بقلتها لتستقي الماء وقال نوف البكالي اتخذت لها منزلا تتعبد فيه فالله أعلم وقوله فاتخذت من دونهم حجابا أي استترت منهم وتوارت فأرسل الله تعالى اليها جبريل عليه السلام فتمثل لها بشرا سويا أي على صورة انسان تام كامل قال مجاهد والضحاك وقتادة وابن جريج ووهب ابن منبه والسدي في قوله فأرسلنا اليها روحنا يعني جبرائيل عليه السلام وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن فانه تعالى قد قال في الآية الاخرى نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال ان روح عيسى عليه السلام من جملة الارواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم عليه السلام وهو الذي تمثل لها بشرا سويا أي روح عيسى فحملت الذي خاطبها وحل في فيها وهذا في غاية الغرابة والنكارة وكأنه اسرائيلي قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت انه يريدها على نفسها فقالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا أي ان كنت تخاف الله تذكير له بالله وهذا هو المشروع في الدفع ان يكون بالاسهل فالاسهل فخوفته أولا بالله عز وجل قال ابن جرير حدثني أبو كريب حدثنا أبو بكر عن عاصم قال قال أبو وائل

الآية دليل على ان المقصود من الذبح المذكور هو ذكر اسم الله عليه وقد وردت أحاديث في الاضحية ليس هذا موضع ذكرها ثم أخبرهم سبحانه بتفرده بالالهية وانه لا شريك له فقال (فالهكم اله واحد) الفاء للترتيب ما بعدها على ما قبلها ثم أمرهم بالاسلام والانقياد لطاعته وعبادته فقال (فله أسلموا) أي انقادوا وأخلصوا وأطيعوا وتقديم الظرف على الفعل للقصر والفاء كالفاء التي قبلها (وبشر المخبتين) من عباده أي المتواضعين الخاشعين المخلصين وقال مجاهد أي المطمئنين وقال عمرو بن أوس هم الذين لا يظلمون الناس واذا ظلموا لم ينتصروا وهو مأخوذ من الخبت وهو المنخفض من الارض والمعنى بشرهم يا محمد بما أعد الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه ولا يخفى حسن التعبير بالمخبتين هنا من حيث ان نزول الخبت مناسب للحجاج لما فيهم من صفات المتواضعين كالتجرد عن اللباس وكشف الرأس والغربة عن الاوطان ولذا وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي خافت وحذرت مخالفته وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوة ايمانهم (والصابرين على ما أصابهم) من البلايا والمصائب والمحن في طاعة الله (والمقيمي الصلاة) وصفهم باقامة الصلاة أي الاتيان بها في أوقاتها على وجه الكمال لان السفر مظنة التقصير فيها ثم وصفهم سبحانه بقوله (ومما رزقناهم ينفقون) أي يتصدقون به وينفقونه في وجوه البر ويضعونه في مواضع الخير والمراد صدقة التطوع ويعلم منه انهم كانوا يتصدقون الصدقة الواجبة بالاولى (والبدن) قرئ بضم الباء وسكون الدال وبضمهما وهما لغتان وهذا الاسم خاص عند الشافعي بالابل وسميت بدنة لانها تبدن والبدانة السمن وقال أبو حنيفة ومالك انه يطلق على الابل والبقر والاول أولى لما سيأتي من الاوصاف التي هي ظاهرة في الابل ولما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالابل قال ابن لقيمة فكلام الشافعية موافق لكلام الازهري وكلام الحنفية موافق لكلام الصحاح وقال ابن كثير في تفسيره

وذكر قصة مريم فقال قد علمت ان التقي ذو نهية حين قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما أنا رسول ربك أى فقال لها الملك مجيبا لها ومزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها لست مما تظنين ولكني رسول ربك أى بعثني الله اليك ويقال انها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا وعاد الى هيئته وقال انما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهوري القراء وقرأ الآخرون لأهب لك غلاما زكيا وكلا القراءتين له وجه حسن ومعنى صحيح وكل تستلزم الاخرى قالت أنى يكون لى غلام أى فتعجبت مريم من هذا وقالت كيف يكون لى غلام أى على أى صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج ولا يتصور مني الفجور ولهذا قالت ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا والبغي هي الزانية ولهذا جاء في الحديث النهى عن مهر البغي قال كذلك قال ربك هو على هين أى فقال لها الملك مجيبا لها عما سألت ان الله قد قال انه سيوجد منك

غلاما وان لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة فانه على ما يشاء قادر ولهذا قال ولنجعله آية للناس أى دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذى نوع فى خلقهم فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى الا عيسى فانه أوجده من أنثى بلا ذكر فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا اله غيره ولا رب سواه وقوله ورحمة منا أى ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبيا من الانبياء يدعو الى عبادة الله تعالى وتوحيده كما قال تعالى فى الآية الاخرى اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين أى يدعو الى عبادة ربه فى مهده وكهولته قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الرحيم بن ابراهيم حدثنا مروان حدثنا العلاء بن الحرث الكوفي عن مجاهد قال قالت مريم عليها السلام كنت اذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو فى بطنى واذا كنت مع الناس سبح فى بطنى وكبر وقوله وكان أمرا مقضيا يحتمل ان هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها ان هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيئته ويحتمل ان يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وانه كنى بهذا عن النفخ فى فرجها كما قال تعالى ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وقال والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا قال محمد بن اسحق وكان أمرا مقضيا أى ان الله قد عزم على هذا فليس منه بد واختار هذا أيضا ابن جرير فى تفسيره ولم يحك غيره والله أعلم

(فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) يقول تعالى مخبرا

واختلفوا فى صحة اطلاق البدنة على البقرة على قولين أصحهما انه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح فى الحديث قال ابن عمر لا نعلم البدن الا من الابل والبقر وقال أيضا البدن ذات الجوف وعن مجاهد قال ليس البدن الا من الابل وعن عطاء نحو ما قال ابن عمر وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وقيل لا تسمى الغنم بدنة لصغرها (جعلناها لكم من شعائر الله) أى من أعلام الشريعة التي شرعها الله تعالى واضافتها الى اسمه تعظيم لها وقيل لانها تشعر وهو أن تطعن بحديدة فى سنامها فيعلم بذلك أنها هدى وقد تقدم بيانه قريبا (لكم فيها خير) أى منافع دينية ودنيوية كما تقدم وهى جملة مستأنفة مقررة لما قبلها أو حالية قاله السمين (فاذكروا اسم الله عليها) أى على نحرها بان تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا اله الا الله والله أكبر اللهم منك واليك (صواف) أى انها قائمات قد صفت قوائمها لانها تنحر قائمة معقولة وقرئ صوافى أى خوالص لله لا يشركون به فى التسمية على نحرها أحدا وواحد صواف صافة وهى قراءة الجمهور وواحد صوافى صافية وفى قراءة ابن مسعود صوافن بالنون جمع صافنة وهى التي قد رفعت احدى يديها بالعقل لئلا تضطرب ومنه قوله تعالى الصافنات الجياد وأصل هذا الوصف فى الخيل يقال صفن الفرس فهو صافن اذا قام على ثلاث قوائم وثنى الرابعة قال ابن عباس فى الآية اذا أردت ان تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ثم قل بسم الله والله أكبر وفى الصحيحين وغيرهما عنه انه رأى رجلا قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال ابعثها قياما مقيدة سنة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكون قيامها سنة انما هو على سبيل الندب ويجوز نحرها وذبحها مضطجعة على جنبها كالبقر (فاذا وجبت جنوبها) الوجوب السقوط يقال وجبت الشمس أى سقطت ووجب الجدار سقط ومنه الواجب الشرعي كأنه سقط علينا ولزمنا أى فاذا سقط جنبها بعد نحرها على الارض وذلك عند خروج روحها فهو كناية عن الموت وجمع الجنوب مع ان البعير اذا خر يسقط على أحد جنبيه لان ذلك الجمع فى مقابلة جمع

البدن

عن مريم انها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال انها استسلمت لقضاء الله تعالى فذكر غير واحد من علماء السلف ان الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد باذن الله تعالى فلما حملت به ضاقت ذرعا ولم تدر ماذا تقول للناس فانها لا تعلم ان الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به غير انها أفشت سرها وذكرت أمرها لخالتها امرأة زكريا وذلك ان زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب الى ذلك فحملت امرأته فدخلت عليها مريم فقامت اليها فاعتنقتها وقالت أشعرت يا مريم اني حبلى فقالت لها مريم وهل علمت أيضا أني حبلى وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها وكانوا بيت ايمان وتصديق ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك اذا واجهت مريم تجد الذي في جوفها يسجد للذي في بطن مريم أي يعظمه ويخضع له فان السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعا كما سجد ليوسف أبوه واخوته وكما أمر الله الملائكة ان تسجد لآدم عليه السلام ولكن حرم في ملتنا هذه لتعظيم جلال الرب تعالى قال ابن ابي حاتم حدثنا علي ابن الحسين قال قرئ على الحرث بن مسكين وأنا أسمع أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال قال مالك رحمه الله بلغني ان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة وكان حملهما جميعا معا فبلغني ان أم يحيى قالت لمريم اني أرى ان ما في بطني يسجد لما في بطنك قال مالك أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام لان الله جعله يحيي الموتى و يبرئ الاكمه والابرص ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور انها حملت به تسعة أشهر وقال عكرمة ثمانية أشهر قال ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر وقال ابن جريج أخبرني المغيرة بن عتبة بن عبد الله الثقفي سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم قال لم يكن الا ان حملت فوضعت وهذا غريب وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة فالفاء وان كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شيء بحسبه كقوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فهذه الفاء للتعقيب بحسبها وقد ثبت في الصحيحين ان بين كل صفتين أربعين يوما وقال تعالى ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة فالمشهور الظاهر والله على كل شيء قدير انها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس يقال له يوسف النجار فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه

البدن (فكلوا منها) ان شئتم ذهب الجمهور الى ان هذا الامر للندب (وأطعموا القانع والمعتر) هذا الامر قيل هو للندب كالاول وبه قال مجاهد والنخعي وابن جرير وابن سريج وقال الشافعي وجماعة هو للوجوب واختلف في القانع من هو فقيل هو السائل يقال قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرها اذا سأل وقيل هو المتعفف عن السؤال المستغني بلغة ذكر معناه الخليل وبه قال ابن عباس قال ابن السكيت من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة وهي الرضا والتعفف وترك المسئلة وبالاول قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن وبالثاني قال عكرمة وقتادة وقال ابن عمر وابن عباس القانع الذي يقنع بما آتيته واما المعتر فقال محمد بن كعب القرظي ومجاهد وابراهيم والكلبي والحسن انه الذي يتعرض من غير سؤال وقيل هو الذي يعتريك ويسألك وقال مالك أحسن ما سمعت ان القانع الفقير والمعتر الزائر وروي عن ابن عباس ان كليهما الذي لا يسأل ولكن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل والمعتر الذي يتعرض لك ولا يسألك وقرأ الحسن والمعتري ومعناه كمعنى المعتر يقال اعتره واعتراه وعره وعراه اذا تعرض لما عنده أو طلبه ذكره النحاس قال ابن عباس المعتر السائل وعنه الذي يعترض وعنه القانع الذي يجلس في بيته وعنه انه سئل عن هذه الآية فقال أما القانع فالقانع بما أرسلت اليه في بيته والمعتر الذي يعتريك وعنه قال القانع الذي يسأل والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل وقيل القانع المسكين والمعتر الذي ليس بمسكين وقيل القانع جارك الذي ينظر ما دخل عليك والمعتر الذي يعتر ببابك ويريك نفسه وقد روي عن التابعين في تفسير هذه الآية أقوال مختلفة والمرجع المعنى اللغوي لاسيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم في تفسير ذلك (كذلك) أي مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله صواف (سخرناها) أي ذللناها البدن (لكم) فصارت تنقاد لكم الى مواضع نحرها فتنحرونها او تنتفعون بها بعد ان كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهورها

ـفمل نفسة على أن عرض لها فى القول فقال يا مريم انى سائلك عن أمر فلا تعجلى على قالت وما هو قال هل يكون قط شجر من غير حب وهل يكون زرع من غير بذر وهل يكون ولد من غير أب فقالت نعم وفهمت ما أشار اليه أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فان الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر وهل يكون ولد من غير أب فان الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم فصدقها وسلم لها حالها ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة انتبذت منهم مكانا قصيا أى قاصيا منهم بعيدا عنهم لئلا تراهم ولا يروها قال محمد بن اسحق فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا وشاع الحديث فى بنى اسرائيل فقالوا انما صاحبها يوسف ولم يكن معها فى الكنيسة غيره وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجابا فلا يراها أحد ولا تراه وقوله فأجاءها المخاض الى جذع النخلة أى فاضطرها وألجأها الطلق الى جذع نخلة فى المكان الذى تحت اليه وقد اختلفوا فيه فقال السدى كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس وقال وهب بن منبه ذهبت هاربة فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق وفى رواية عن وهب كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس فى قرية هناك يقال لها بيت لحم قلت وقد تقدم فى أحاديث الاسراء من رواية النسائى عن أنس رضى الله عنه والبيهقى عن شداد بن أوس رضى الله عنه ان ذلك بيت لحم فالله أعلم وهذا هو المشهور الذى تلقاه الناس بعضهم عن بعض ولا يشك فيه النصارى انه بيت لحم وقد تلقاه الناس وقد ورد به الحديث ان صح وقوله تعالى اخبارا عنها قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة فانها عرفت انها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها فى خبرها وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية فقالت يا ليتنى مت قبل هذا أى قبل هذا الحال وكنت نسيا منسيا أى لم أخلق ولم أك شيأ قاله ابن عباس وقيل وقال السدى قالت وهى تطلق من الحبل استحياء من الناس يا ليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه والحزن بولادتى المولود من غير بعل وكنت نسيا منسيا نسى فترك طلبه كخرق الحيض اذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر وكذلك كل شئ نسى وترك فهو نسى وقال قتادة وكنت نسيا منسيا أى شيأ لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا وقال الربيع بن أنس وكنت نسيا منسيا هو السقط وقال ابن زيد لم أكن شيأ قط وقد قدمنا الاحاديث الدالة على النهى عن تمنى الموت الا عند الفتنة عند قوله توفنى مسلما

والحلب لها ونحو ذلك (لعلكم تشكرون) هذه النعمة التى أنعم الله بها عليكم (لن ينال الله) أى لن يصعد ولا يرفع اليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه (لحومها) التى تتصدقون بها (ولا دماؤها) التى تنصب عند نحرها من حيث انها لحوم ودماء (ولكن يناله) أى يبلغ اليه (التقوى منكم) أى تقوى قلوبكم ويصل اليه اخلاصكم له فى العمل الصالح وارادتكم بذلك وجهه مع الايمان فان ذلك هو الذى يقبله الله ويجازى عليه وقيل المراد أصحاب اللحوم والدماء أى لن يرضى المضحون والمتقربون الى ربهم باللحوم والدماء ولكن بالتقوى قال الزجاج أعلم الله ان الذى يصل اليه تقواه وطاعته فيما يأمر به وحقيقة معنى هذا الكلام تعود الى القبول وذلك ان ما يقبله الانسان يقال قد ناله ووصل اليه فخاطب الله الخلق كعادتهم فى مخاطباتهم قال ابن عباس كان المشركون اذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها نحو الكعبة فأراد المسلمون ان يفعلوا ذلك فأنزل الله لن ينال الله لحومها ولا دماؤها وعن ابن جريج نحوه (كذلك سخرها لكم) كرر هذا التذكير (لتكبروا الله) هو قول الناحر الله أكبر عند النحر فذكر فى الآية الاولى الامر بذكر اسم الله عليها وذكر هنا التكبير للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير وقيل المراد بالتكبير وصفه سبحانه بما يدل على الكبرياء ومعنى (على ما هداكم) على ما أرشدكم اليه من علمكم بكيفية التقرب بها وما مصدرية أو موصولة (وبشر المحسنين) قيل المراد بهم المخلصون وقيل الموحدون والظاهر ان المراد بهم كل من يصدر منه من الخير ما يصح به اطلاق اسم المحسن عليه (ان الله يدافع) وقرئ يدفع وصيغة المفاعلة هنا مجردة عن معناها الاصلى وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدل عليه القراءة الاخرى وقد ترد هذه الصيغة ولا يراد بها معناها الاصلى كثيرا مثل عاقبت اللص ونحو ذلك وقد قدمنا تحقيقه وقيل ان ايراد هذه الصيغة هنا للمبالغة وقيل للدلالة على تكرر الواقع (عن الذين آمنوا) أى يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين

وألحقنى بالصالحين (فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا) قرأ بعضهم من تحتها بمعنى الذى تحتها وقرأ الآخرون من تحتها على انه حرف جر واختلف المفسرون فى المراد بذلك من هو فقال العوفى وغيره عن ابن عباس فناداها من تحتها جبرائيل ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وعمرو بن ميمون والسدى وقتادة انه الملك جبرائيل عليه الصلاة والسلام أى ناداها من أسفل الوادى وقال مجاهد فناداها من تحتها قال عيسى بن مريم وكذا قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال قال الحسن هو ابنها وهو احدى الروايتين عن سعيد بن جبير انه ابنها قال أولم تسمع الله يقول فأشارت اليه واختاره ابن زيد وابن جرير فى تفسيره وقوله أن لا تحزنى أى ناداها قائلا لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا قال سفيان الثورى وشعبة عن أبى اسحق عن البراء بن عازب قد جعل ربك تحتك سريا قال الجدول وكذا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس السرى النهر وبه قال عمرو بن ميمون نهر تشرب منه وقال مجاهد هو النهر بالسريانية وقال سعيد بن جبير السرى النهر الصغير بالنبطية وقال الضحاك هو النهر الصغير بالسريانية وقال ابراهيم النخعى هو النهر الصغير وقال قتادة هو الجدول بلغة أهل الحجاز وقال وهب ابن منبه السرى هو ربيع الماء وقال السدى هو النهر واختار هذا القول ابن جرير وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع فقال الطبرانى حدثنا أبو شعيب الحرانى حدثنا يحيى بن عبد الله البابلى حدثنا أيوب بن نهيك سمعت عكرمة مولى ابن عباس سمعت ابن عمر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان السرى الذى قال الله لمريم قد جعل ربك تحتك سريا نهر أخرجه الله لتشرب منه وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلى قال فيه أبو حاتم الرازى ضعيف وقال أبو زرعة منكر الحديث وقال أبو الفتح الازدى متروك الحديث وقال آخرون المراد بالسرى عيسى عليه السلام وبه قال الحسن والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر وهو احدى الروايتين عن قتادة وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والقول الاول أظهر ولهذا قال بعده وهزى اليك بجذع النخلة أى وخذى اليك بجذع النخلة قيل كانت يابسة قاله ابن عباس وقيل مثمرة قال مجاهد كانت عجوة وقال الثورى عن أبى داود نفيع الاعمى كانت صرفانة والظاهر انها كانت شجرة ولكن لم تكن فى ابان ثمرها قاله وهب بن منبه ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاما وشرابا فقال تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا أى طيبى نفسا ولهذا قال عمرو بن ميمون ما من شئ خير للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية

وقيل يعلى حجتهم وقيل يوفقهم وقال أبو حيان لم يذكر الله مايدفعه عنهم ليكون أفخم وأعظم وأعم والجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من رب العالمين وانه المتولى للمدافعة عنهم (ان الله لا يحب كل خوان كفور) مقررة لمضمون الجملة الاولى فان المدافعة من الله لهم عن عباده المؤمنين مشعرة أتم اشعار بانهم مبغضون الى الله غير محبوبين له قال الزجاج من ذكر غير اسم الله وتقرب الى الاصنام بذبيحته فهو خوان كفور وايراد صيغتى المبالغة للدلالة على أنهم كذلك فى الواقع لا لاخراج من خان دون خيانتهم أو كفر دون كفرهم (أذن للذين يقاتلون) قرئ أذن مبنيا للمفعول وللفاعل وكذلك يقاتلون وعلى كلا القراءتين فالاذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بانهم اذا صلحوا للقتال أو قاتلهم المشركون قاتلوهم قال المفسرون كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسنتهم وأيديهم فيشكون ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول لهم اصبروا فانى لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزل الله هذه الآية بالمدينة وهى أول آية نزلت فى القتال بعدما نهى عنه فى نيف وسبعين آية وقيل نزلت فى قوم باعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فاذن الله فى قتال الذين يمنعونهم من الهجرة وهذه الآية مقررة أيضا لمضمون قوله ان الله يدافع فان اباحة القتال لهم هى من جملة دفع الله عنهم والباء فى (بانهم ظلموا) للسببية أى بسبب ما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرد ثم وعدهم الله سبحانه النصر على المشركين على طريق الرمز والكناية كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم فقال (وان الله على نصرهم لقدير) وفيه تأكيد لما مر من المدافعة أيضا أخرج أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه عن ابن عباس قال لما أخرج النبى صلى الله عليه وآله وسلم من مكة قال أبو بكر أخرجوا نبيهم انا لله وانا اليه راجعون ليهلكن القوم فنزلت أذن للذين يقاتلون الخ وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله

الكريمة وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي ابن الحسين حدثنا شيبان حدثنا مسرور بن سعيد التميمي حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي عن عروة بن رويم عن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام وليس من الشجر شيء يلقح غيرها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعموا نساءكم الولد الرطب فان لم يكن رطب فتمر وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران هذا حديث منكر جدا ورواه أبو يعلى عن شيبان به وقرأ بعضهم تساقط بتشديد السين وآخرون بتخفيفها وقرأ أبو نهيك تسقط عليك رطبا جنيا وروى أبو اسحق عن البراء انه قرأها تساقط أي الجذع والكل متقارب وقوله فاما ترين من البشر أحدا أي مهما رأيت من أحد فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا (١٩٢) المراد بهذا القول الاشارة اليه بذلك لا المراد به القول اللفظي لئلا ينافي فلن أكلم اليوم انسيا قال أنس بن مالك في قوله اني نذرت للرحمن صوما قال صمتا وكذا قال ابن عباس والضحاك وفي رواية عن أنس صوما وصمتا وكذا قال قتادة وغيرهما والمراد انهم كانوا اذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد قال ابن اسحق عن حارثة قال كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال ما شأنك قال أصحابه حلف أن لا يكلم الناس اليوم فقال عبد الله بن مسعود كلم الناس وسلم عليهم فان تلك امرأة علمت ان أحدا لا يصدقها انها حملت من غير زوج يعني بذلك مريم عليها السلام ليكون عذرا لها اذا سئلت ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله وقال عبد الرحمن بن زيد لما قال عيسى لمريم لا تحزني قالت وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة أي شيء عذري عند الناس يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا قال لها عيسى أنا أكفيك الكلام فاما ترين من البشر أحدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا قال هذا كله من كلام عيسى لامه وكذا قال وهب (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) يقول تعالى مخبرا عن مريم حين أمرت ان تصوم يومها ذلك وان لا تكلم أحدا من البشر فانها ستكفى أمرها ويقام بحجتها فسلمت لامر الله عز وجل واستسلمت لقضائه فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله فلما رأوها كذلك أعظموا

(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) المراد بالديار مكة (الا أن يقولوا) قال سيبويه هو استثناء منقطع أي لكن لقولهم (ربنا الله) أي أخرجوا بغير حق يوجب اخراجهم لكن لقولهم ربنا الله وحده وقال الفراء والزجاج هو استثناء متصل والتقدير الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق الا بان يقولوا ربنا الله فيكون مثل قوله سبحانه وما تنقمون منا الا ان آمنا بآيات ربنا (ولولا دفع الله الناس) وقرئ دفاع (بعضهم) بدل بعض من الناس (ببعض لهدمت) بالتشديد للتكثير وبالتخفيف أي لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل وتكرر الهدم لكثرة المواضع (صوامع) للرهبان ومعابدهم المتخذة في الصحراء وقيل صوامع الصابئين وهي جمع صومعة وهي بناء مرتفع محدب يقال صمع الثريدة اذا رفع رأسها ورجل أصمع القلب أي حاد الفطنة والاصمع من الرجال الحديد القول وقيل الصغير الاذن ثم استعمل في المواضع التي يؤذن عليها في الاسلام (وبيع) جمع بيعة وهي كنيسة النصارى في البلد وقيل مساجد اليهود (وصلوات) هي كنائس اليهود وقيل النصارى وقد ذكر ابن عطية في صلوات تسع قراآت وهي جمع صلاة وسميت الكنيسة صلاة لانه يصلى فيها وقيل هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوثا قاله السمين ومعناه في لغتهم المصلى فلا يكون مجازا قاله الشهاب (ومساجد) للمسلمين وقدمت الصوامع والبيع والصلوات على المساجد لكونها أقدم بناء وأسبق وجودا أو ليكون فيه الانتقال من شريف الى أشرف والظاهر من الهدم معناه الحقيقي كما ذكره الزجاج وغيره وقيل المعنى المجازي وهو تعطيلها من العبادة والمعنى لولا ما شرعه الله للانبياء والمؤمنين من قتال الاعداء بعضهم ببعض واقامة الحدود لاستولى أهل الشرك وذهبت مواضع العبادة من الارض وقيل المعنى لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس وفي زمن عيسى الصوامع والبيع وفي زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم المساجد قال ابن عطية هذا أصوب ما قيل في تأويل هذه الآية فعلى هذا انما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل

التحريف

أمرها واستنكروه جداً وقالوا يا مريم لقد جئت شيأ فرياً أي أمراً عظيماً قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال وخرج قومها في طلبها قال وكانت من أهل بيت نبوة وشرف فلم يحسوا منها شيأ فلقوا راعي بقر فقالوا رأيت فتاة كذا وكذا نعتها قال لا ولكني رأيت الليلة من بقري مالم أره منها قط قالوا وما رأيت قال رأيتها الليلة تسجد نحو هذا الوادي قال عبد الله بن أبي زياد واحفظ عن سيار أنه قال رأيت نوراً ساطعاً فتوجهوا حيث قال لهم فاستقبلتهم مريم فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها فجاؤا حتى قاموا عليها وقالوا يا مريم لقد جئت شيأ فرياً أمراً عظيماً يا أخت هرون أي يا شبيهة هرون في العبادة ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح

والعبادة والزهادة فكيف صدر هذا منك قال علي بن أبي طلحة والسدي قيل لها يا أخت هرون أي أخي موسى وكانت من نسله كما يقال للتميمي يا أخا تميم وللمضري يا أخا مضر وقيل نسبت الى رجل صالح كان فيهم اسمه هرون فكانت تتأسى به في الزهادة والعبادة وحكى ابن جرير عن بعضهم انهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له هرون رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وأغرب من هذا كله مارواه ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين الهسنجاني حدثنا ابن أبي مريم حدثنا المفضل يعني ابن فضالة حدثني أبو صخر عن القرظي في قول الله عز وجل يا أخت هرون قال هي أخت هرون لأبيه وأمه وهي أخت موسى أخي هرون التي قصت أثر موسى فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وهذا القول خطأ محض فان الله تعالى قد ذكر في كتابه انه قفى بعيسى بعد الرسل فدل على انه آخر الانبياء

التحريف وقيل النسخ وقيل المعنى ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة وقيل لولا دفع الله العذاب بدعاء الاخيار وعن علي قال انما نزلت هذه الآية في أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى لولا دفع الله باصحاب محمد عن التابعين لهدمت الآية قال أبو حيان أجرى الله العادة في الامم بذلك بان ينتظم به الامر وتقوم الشرائع وتصان المتعبدات من الهدم وأهلها من القتل والشتات ويؤيد ذلك قوله تعالى وقتل داود جالوت ثم قال ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض (يذكر فيها اسم الله) ذكراً أو وقتاً (كثيراً) والجملة صفة للمساجد وقيل لجميع المذكورات الاربع لان كل واحد منها جمع (ولينصرن الله) اللام هي جواب لقسم محذوف أي والله لينصرن الله (من ينصره) أي دينه وأولياءه ومعنى نصره تعالى هو ان يظفر أولياءه باعدائهم ويكون النصر بالتجلد في القتال وبايضاح الادلة والبينات وبالاعانة على المعارف والطاعات (ان الله لقوي) على نصر أوليائه (عزيز) على انتقام أعدائه والقوي القادر على الشئ والعزيز الجليل الشريف قاله الزجاج وقيل الممتنع الذي لا يرام ولا يدافع ولا يمانع (الذين ان مكناهم في الارض) بنصرهم على عدوهم قيل المراد بهم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان وقيل أهل الصلوات الخمس وقيل ولاة العدل وقيل غير ذلك وهو اخبار من الله بالغيب عما ستكون عليه سيرتهم ان مكن لهم في الارض وعن عثمان هذا والله ثناء قبل بلاء يريد ان الله أثنى عليهم قبل ان يحدثوا من الخير ما أحدثوا فتبا لمن يطعن بهم من أهل البدع والرفض بعد ذلك وتعساً لهم (أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) هذا جواب الشرط وفيه ايجاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على من مكنه الله في الارض وأقدره على القيام بذلك وقد تقدم تفسير الآية (ولله عاقبة الامور) أي مرجعها الى حكمه وتدبيره دون غيره وعن زيد بن أسلم في قوله الذين ان مكناهم في الارض قال أرض المدينة أقاموا الصلاة قال المكتوبة وآتوا الزكاة

بعثاً وليس بعده الا محمد صلوات الله وسلامه عليهما ولهذا ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أنا أولى الناس بابن مريم لانه ليس بيني وبينه نبي ولو كان الامر كما زعم محمد بن كعب القرظي لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد ولكان قبل سليمان وداود فان الله قد ذكر ان داود بعد موسى عليهما السلام في قوله تعالى ألم تر الى الملا من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله وذكر القصة الى ان قال وقتل داود جالوت الآية والذي جرأ القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وبني اسرائيل من البحر واغراق فرعون وقومه قال وقامت مريم بنت عمران أخت موسى وهرون النبيه تضرب بالدف هي والنساء معها يسبحن الله و يشكرنه على ما أنعم به على بني اسرائيل فاعتقد القرظي ان هذه هي أم عيسى وهذه هفوة وغلطة شديدة بل هي باسم هذه وقد كانوا يسمون بأسماء

آبائهم وصالحيهم كما قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن ادريس سمعت أبي يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى نجران فقالوا أرأيت ما تقرؤن يا أخت هرون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا قال فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا أخبرتهم انهم كانوا يسمون بالانبياء والصالحين قبلهم انفرد باخراجه مسلم والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن ادريس عن أبيه عن سماك به وقال الترمذي حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من حديث ابن ادريس وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن سعيد بن أبي صدقة عن محمد بن سيرين قال أنبئت ان كعبا قال ان قوله يا أخت هرون ليس بهرون أخي موسى قال فقالت له عائشة كذبت قال يا أم المؤمنين ان كان النبي صلى الله عليه وسلم قاله فهو أعلم وأخبر والا فاني أجد بينهما ستمائة سنة قال فسكتت وفي هذا التاريخ نظر وقال ابن جرير أيضا حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قوله يا أخت هرون الآية قال كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به وكان هرون مصلحا محببا في عشيرته وليس بهرون أخي موسى ولكنه هرون آخر قال وذكر لنا انه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم يسمى هرون من بني اسرائيل وقوله فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا أي انهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة فأحالت الكلام عليه وأشارت لهم الى خطابه وكلامه فقالوا متهكمين بها ظانين انها تزدري بهم وتلعب بهم كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال ميمون بن مهران فأشارت اليه قالت كلموه فقالوا على ما جاءت به من الداهية تأمرنا ان نكلم من كان ما كانوا في المهد صبيا وقال السدي لما أشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حتى تأمرنا ان نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره كيف يتكلم قال اني عبد الله أول شئ تكلم به ان نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد وأثبت لنفسه العبودية لربه وقوله آتاني الكتاب وجعلني نبيا تبرئة لامه مما نسبت اليه من الفاحشة قال نوف البكالي لما قالوا لامه ما قالوا كان يرتضع ثديه فنزع الثدي من فمه واتكأ على جنبه الايسر وقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا الى قوله مادمت حيا وقال حماد بن سلمة عن ثابت البناني رفع اصبعه السبابة فوق منكبه وهو يقول اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا الآية وقال عكرمة آتاني الكتاب أي قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى وقال ابن أبي حاتم

قال المفروضة وأمروا بالمعروف قال بلا اله الا الله ونهوا عن المنكر قال عن الشرك بالله ولله عاقبة الامور قال وعند الله ثواب ما صنعوا وقد أنجز الله تعالى وعده بان سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم وعن عثمان بن عفان قال فينا نزلت هذه الآية أخرجنا من ديارنا بغير حق ثم مكنا في الارض فاقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهي لي ولاصحابي

(وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد) قوم هود (وثمود) قوم صالح (وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين) هم قوم شعيب هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعزية له متضمنة للوعد له باهلاك المكذبين له كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله وفيه ارشاد له صلى الله عليه وآله وسلم الى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الانبياء في ذلك وقد تقدم ذكر هذه الامم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم والمعنى فأنت يا أشرف الخلق لست بأوحدي في التكذيب فان هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك فتسل بهم قاله الخطيب وتأنيث قوم باعتبار المعنى وهو الامة أو قبيلة واستغنى في عاد وثمود عن ذكر قوم لاشتهارهم بهذا الاسم الاخصر والاصل في التعبير العلم ولا علم لغيرهما فلهذا لم يقل قوم هود وقوم صالح ولم يقل قوم شعيب لان قومه يشملون أصحاب مدين وأصحاب الايكة وأصحاب مدين سابقون على أصحاب الايكة في التكذيب له فخصوا في الذكر بسبقهم في التكذيب وانما غير النظم في قوله (وكذب موسى) فجاء بالفعل مبنيا للمفعول ولم يقل وقوم موسى لان قوم موسى لم يكذبوه وانما كذبه غيرهم من القبط (فأمليت للكافرين) اى أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم والفاء لترتيب الامهال على التكذيب وفيه وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التشنيع عليهم والنداء عليهم بصفة الكفر (ثم أخذتهم) أي أخذت كل فريق من المكذبين السبعة بالعذاب بعد انقضاء مدة الامهال (فكيف كان نكير) هذا الاستفهام للتقرير أي فانظر كيف كان انكاري وتغييري

حدثنا أبي حدثنا محمد بن المصفى حدثنا يحيى بن سعيد هو العطار عن عبد العزيز بن زياد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان عيسى بن مريم قد درس الانجيل وأحكمها وهو في بطن أمه فذلك قوله اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا يحيى بن سعيد العطار الحمصي متروك وقوله وجعلني مباركا أينما كنت قال مجاهد وعمرو بن قيس والثوري وجعلني معلما للخير وفي رواية عن مجاهد نفاعا وقال ابن جرير حدثني سليمان بن عبد الجبار حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي سمعت وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال لقي عالم عالما هو فوقه في العلم فقال له يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي قال الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فانه دين الله الذي بعث به أنبياءه الى عباده وقد أجمع الفقهاء على قول الله وجعلني مباركا أينما كنت وقيل ما بركته قال الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان وقوله وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا

كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس في قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا قال أخبره بما هو كائن من أمره الى أن يموت ما أبينها لاهل القدر وقوله وبرا بوالدتي أي وأمرني ببر والدتي ذكره بعد طاعة ربه لان الله تعالى كثيرا ما يقرن بين الامر بعبادته وطاعة الوالدين كما قال تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا وقال أن اشكر لي ولوالديك الى المصير وقوله ولم يجعلني جبارا شقيا أي ولم يجعلني جبارا مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك قال سفيان الثوري الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب وقال بعض السلف لا تجد أحدا عاقا لوالديه الا وجدته جبارا شقيا ثم قرأ وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا قال ولا تجد سيء الملكة الا وجدته مختالا فخورا ثم قرأ وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا وقال قتادة ذكر لنا ان امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص في آيات سلطه الله عليهن وأذن له فيهن فقالت طوبى للبطن الذي حملك وطوبى للثدي الذي أرضعت به فقال نبي الله عيسى عليه السلام يجيبها طوبى لمن تلا كتاب الله فاتبع ما فيه ولم يكن جبارا شقيا وقوله والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا اثبات منه لعبوديته لله عز وجل وانه مخلوق من خلق الله يحيي ويميت ويبعث كسائر الخلائق ولكن له السلامة في هذه الاحوال التي هي أشق ما يكون على العباد صلوات الله وسلامه عليه

(ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ذلك الذي قصصناه

ما كانوا فيه من النعم وجعل الاستفهام على التعجب أو نحو قال أبو حيان ويصحب هذا الاستفهام معنى التعجب فكانه قيل ما أشد ما كان انكاري عليهم والنكير اسم من المنكر ومصدر بمعنى الانكار قال الزجاج أي ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ انكار قال الجوهري النكير والانكار تغيير المنكر فالمراد بالانكار التغيير للضد بالضد كالحياة بالموت والعمارة بالخراب وليس بمعنى الانكار اللساني والقلبي وأثبت ياء نكير حيث وقع في القرآن ورش في الوصل وحذفها في الوقف والباقون يحذفونها وصلا ووقفا ثم ذكر سبحانه كيف عذب أهل القرى المكذبة فقال (فكأين من قرية أهلكناها) أي أهلها وقد تقدم الكلام على هذا التركيب في آل عمران (وهي ظالمة) المراد بنسبة الظلم اليها نسبته الى أهلها أي وأهلها ظالمون (فهي خاوية) الخوي بمعنى السقوط أي فهي ساقطة (على عروشها) أي سقوفها وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها واسناد السقوط على العروش اليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدته وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة قال قتادة خربة ليس فيها أحد (وبئر) أي ومن أهل بئر (معطلة) هكذا قال الزجاج يقال بأرت الارض أي حفرتها ومنه التأبير وهو شق كيزان طلع الاناث وذر طلع الذكور فيه والبئر فعل بمعنى مفعول وهي مؤنثة وقد تذكر على معنى القليب والمراد بالمعطلة المتروكة وقيل الخالية عن أهلها لهلاكهم وقيل الغائرة وقيل معطلة من الدلاء والارشية قال قتادة عطلها أهلها وتركوها وقال ابن عباس التي تركت لا أهل لها (وقصر مشيد) هو المرفوع البنيان كذا قال قتادة والضحاك وعن قتادة أيضا شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد وابن عباس المراد بالمشيد المجصص مأخوذ من الشيد وهو الجص وقيل المشيد الحصين قاله الكلبي وقال الجوهري المشيد المعمول بالشيد والشيد بالكسر كل شيء طليت به الحائط من جص أو بلاط وبالفتح المصدر تقول شاده يشيده جصصه والمشيد

عليك من خبر عيسى عليه السلام قول الحق الذي فيه يمترون أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ولهذا قرأ الأكثرون قول الحق برفع قول وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر قول الحق وعن ابن مسعود أنه قرأ ذلك عيسى بن مريم قال الحق والرفع أظهر إعرابا ويشهد له قوله تعالى الحق من ربك فلا تكن من الممترين ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبدا نبيا نزه نفسه المقدسة فقال ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوا كبيرا إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون أي إذا أراد شيئا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين وقوله وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته فقال فاعبدوه هذا صراط مستقيم أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم أي قويم من اتبعه رشد وهدى ومن خالفه ضل وغوى وقوله فاختلف الأحزاب من بينهم أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله على أنه ولد زنية وقالوا كلامه هذا سحر وقالت طائفة أخرى إنما تكلم الله وقال آخرون بل هو ابن الله وقال آخرون ثالث ثلاثة وقال آخرون بل هو عبد الله ورسوله وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون قال اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع فقال بعضهم هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية فقال الثلاثة كذبت ثم قال اثنان منهم للثالث قل أنت فيه قال هو ابن الله وهم النسطورية فقال الاثنان كذبت ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه فقال هو ثالث ثلاثة الله إله وهو إله وأمه إله وهم الإسرائيلية ملوك النصارى عليهم لعائن الله وقال الرابع كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا فاقتتلوا وظهروا على المسلمين وذلك قول الله تعالى ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس قال قتادة وهم الذين قال الله فاختلف الأحزاب من بينهم قال اختلفوا فيه فصاروا أحزابا وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وعن عروة بن الزبير عن بعض أهل العلم قريبا من ذلك وقد ذكر غير واحد من علماء

بالتشديد المطول قال الكسائي للواحد من قوله تعالى في بروج مشيدة وإنما بني هناك من شاده وفي النساء من شيده لأنه هناك وقع بعد جمع فناسب التكثير وهنا وقع بعد مفرد فناسب التخفيف ولأنه رأس آية وفاصلة والمعنى وكم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة ومعنى التعطيل في القصر هو أنه معطل من أهله أو من آلاته أو نحو ذلك قال القرطبي في تفسيره ويقال إن هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال والبئر في سفحه لا تقر الريح شيئا سقط فيها إلا أخرجته وحكى الثعلبي وغيره أن البئر كان بعدن من اليمن في بلد الحضر وأصحاب القصر الحضر وأصحاب البئر ملوك البدو وحكى الثعلبي وغيره أيضا أن البئر كان بعدن من اليمن في بلد يقال له حضور نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح فمات صالح فسمي المكان حضرموت لأن صالحا لما حضره مات فبنوا حضورا وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا منهم فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الأصنام وكفروا فأرسل الله إليهم نبيا يقال له حنظلة بن صفوان وكان حمالا فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخربت قصورهم ثم ذكر قصة طويلة وقال بعد ذلك وأما القصر المشيد فقصر بناه شداد بن عاد بن إرم لم يبن في الأرض مثله فيما ذكروا وزعموا وحاله أيضا كحال هذه البئر المذكورة في إيحاشه بعد الأنس وإقفاره بعد العمران وإن أحدا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا فذكرهم الله سبحانه في هذه الآية موعظة وعبرة قال وقيل إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدم في سورة الأنبياء في قوله وكم قصمنا من قرية فتعطلت بئرهم وخربت قصورهم انتهى وقال النسفي والأظهر أن البئر والقصر على العموم ثم أنكر الله سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلا (أفلم يسيروا في الأرض) حثا لهم على السفر ليروا

مصارع

التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم ان قسطنطين جمعهم فى محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم فكان جماعة الاساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفا فاختلفوا فى عيسى بن مريم عليه السلام اختلافا متباينا جدا فقالت كل شرذمة فيه قولا فمائة تقول فيه شيأ وسبعون تقول فيه قولا آخر وخمسون تقول شيأ آخر ومائة وستون تقول شيأ ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثمائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه فمال اليهم الملك وكان فيلسوفا فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم فوضعوا له الامانة الكبيرة بل هى الخيانة العظيمة ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعا كثيرة وحرفوا دين المسيح وغيروه فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار فى مملكته كلها بلاد الشام والجزيرة والروم فكان مبلغ الكنائس فى أيامه ما يقارب اثنى عشر ألف كنيسة وبنت أمه هيلانة قمامة على المكان الذى صلب

فيه المصلوب الذى يزعم اليهود انه المسيح وقد كذبوا بل رفعه الله الى السماء وقوله فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم ان له ولدا ولكن انظرهم تعالى الى يوم القيامة وأجلهم حلما وثقة بقدرته عليهم فانه الذى لا يعجل على من عصاه بل كما جاء فى الصحيحين ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد وفى الصحيحين أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله انهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم وقد قال الله تعالى وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير وقال تعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار ولهذا قال ههنا فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم أى يوم القيامة وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه وان الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعون) يقول تعالى مخبرا عن الكفار يوم القيامة انهم يكونون أسمع شئ وأبصره كما قال تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا الآية أى يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدى عنهم شيأ ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعا لهم ومنقذا من عذاب الله ولهذا قال أسمع بهم وأبصر أى ما أسمعهم وأبصرهم يوم يأتوننا

مصارع تلك الامم فيعتبروا ويحتمل ان يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا فلهذا أنكر عليهم كما فى قوله وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون وعلى هذا فالاستفهام ليس على حقيقته (فتكون لهم قلوب) تفريع على المنفى فهو منفى أيضا (يعقلون بها) ما يجب ان يعقل من التوحيد ونحوه والعقل هنا بمعنى العلم والمعنى انهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب ان يتعقلوه وأسند التعقل الى القلوب لانها محل العقل كما ان الآذان محل السمع وقيل ان العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك فان القلب هو الذى يبعث على ادراك العقل وان كان محله خارجا عنه وقد اختلف علماء المعقول فى محل العقل وماهيته اختلافا كثيرا لا حاجة الى التطويل بذكره (أو آذان يسمعون بها) ما يجب ان يسمعوه مما تلاه عليهم انبياؤهم من كلام الله وما نقله أهل الاخبار اليهم من أخبار الامم المهلكة ومنازل المكذبين (فانها لا تعمى الابصار) قال الفراء الهاء عماد يجوز أن يقال فانه وهى قراءة ابن مسعود والمعنى واحد التذكير على الخبر والتأنيث على الابصار أو القصة أى فان الابصار لا تعمى أو فان القصة لا تعمى الابصار أى أبصار العيون (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) أى ليس الخلل فى مشاعرهم وانما أصابت الآفة عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى التقليد أى لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار قال الفراء والزجاج ان قوله التى فى الصدور من التوكيد الذى تزيده العرب فى الكلام كقوله عشرة كاملة ويقولون بأفواههم ويطير بجناحيه ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال (ويستعجلونك) أى يطلبون عجلتك (بالعذاب) لانهم كانوا منكرين لمجيئه أشد انكار فاستعجالهم له هو على طريقة الاستهزاء والسخرية وكأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما يقوله الانبياء عن الله سبحانه من الوعد منه عز وجل بوقوعه عليهم وحلوله بهم ولهذا قال (وان يخلف الله وعده) قال الفراء فى هذه الآية وعيد لهم بالعذاب فى الدنيا

يعنى يوم القيامة لكن الظالمون اليوم أى فى الدنيا فى ضلال مبين أى لايسمعون ولايبصرون ولايعقلون فحيث يطلب منهم الهدى لايهتدون ويكونون مطيعين حيث لاينفعهم ذلك ثم قال تعالى وأنذرهم يوم الحسرة أى انذر الخلائق يوم الحسرة اذ قضى الامر أى فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل الى ماصار اليه مخلدا فيه وهم أى اليوم فى غفلة عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة وهم لايؤمنون أى لايصدقون به قال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا الاعمش عن ابى صالح عن ابى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كانه كبش املح فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا اهل الجنة هل تعرفون هذا قال فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت قال فيقال يا اهل النار هل تعرفون هذا قال فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح قال ويقال يا أهل الجنة خلود ولاموت ويا أهل النار خلود ولاموت ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون واشار بيده ثم قال أهل الدنيا فى غفلة الدنيا هكذا رواه الامام أحمد وقد خرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الاعمش به ولفظهما قريب من ذلك وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة حدثنى أسباط ابن محمد عن الاعمش عن أبى صالح عن ابى هريرة مرفوعا مثله وفى سنن ابن ماجه وغيره من حديث محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة بنحوه وهو فى الصحيحين عن ابن عمر ورواه ابن جريج قال قال ابن عباس فذكر من قبله نحوه ورواه أيضا عن أبيه انه سمع عبيد ابن عمير يقول فى قصصه يؤتى بالموت كانه دابة فيذبح والناس ينظرون وقال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل حدثنا أبو الزعراء عن عبد الله هو ابن مسعود فى قصة ذكرها قال فليس نفس الا وهى تنظر الى بيت فى الجنة وبيت فى النار وهو يوم الحسرة فيرى اهل النار البيت الذى فى الجنة ويقال لهم لو عملتم فتأخذهم الحسرة قال ويرى اهل الجنة البيت الذى فى النار فيقال لولا ان الله من عليكم وقال السدى عن زياد عن زر بن حبيش عن ابن مسعود فى قوله وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر قال اذا دخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار اتى بالموت فى صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار ثم ينادى مناديا اهل الجنة هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا فلا يبقى أحد فى اهل عليين ولا فى اسفل درجة فى الجنة الا نظر اليه ثم ينادى مناديا اهل النار هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا فلا يبقى احد فى ضحضاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم الا نظر اليه ثم يذبح بين الجنة والنار ثم ينادى يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد

والآخرة وذكر الزجاج وجها آخر فقال اعلم ان الله لايفوته شئ وان يوما عنده وألف سنة فى قدرته واحد ولافرق بين وقوع مايستعجلون به من العذاب وتأخره فى القدرة الا ان الله تفضل بالامهال انتهى والمعنى والحال انه لايخلف وعده أبدا وقد سبق الوعد فلابد من مجيئه حتما أو الجملة اعتراضية مبينة لما قبلها قال المحلى أنجزه يوم بدر أى أنزل العذاب بهم فى الدنيا فقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون (وان يوما) من أيام عذابهم (عند ربك) فى الآخرة (كألف سنة مما تعدون) أى من سنى الدنيا والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حالهم فى الاستعجال وخطابهم فى ذلك لبيان كمال حكمه لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما فى قوله انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا قال الفراء هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة أى يوم من أيام عذابهم فى الآخرة فى الثقل والاستطالة كألف سنة وقيل المعنى وان يوما من الخوف والشدة فى الآخرة كألف سنة من سنى الدنيا فيها خوف وشدة وكذلك يوم النعيم قياسا واقتصر فى التشبيه على الالف لان الالف منتهى العدد بلا تكرار وقرئ يعدون بالتحتية لقوله ويستعجلونك وبالفوقية على الخطاب واختار الاولى أبو عبيدة والثانية أبو حاتم وعن ابن عباس قال ان يوما من الايام الستة التى خلق الله فيها السموات والارض كألف سنة وعن عكرمة قال هو يوم القيامة وعنه قال الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة وقد مضى منها ستة آلاف وأخرج ابن عدى والديلمى عن أنس مرفوعا نحوه وتمام البحث فى مدة الدنيا ماضيها وباقيها فى كتابنا لقطة العجلان مما تمس الى معرفته حاجة الانسان (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها) أى أخذتها هذا اعلام منه سبحانه انه أخذ قوما بعد الاملاء والتأخير قيل وتكرير هذا مع ذكره قبله للتأكيد وليس بتكرار فى الحقيقة لان الاول سيق لبيان الاهلاك مناسبا لقوله فكيف كان نكير والثانى سيق لبيان الاملاء مناسبا لقوله ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة فكأنه قيل وكم من أهل قرية كانوا مثلكم

ظالمين

ميتا من فرح ماتوا ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتا من شهقة ماتوا فذلك قوله وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر يقول إذا ذبح الموت ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله وأنذرهم يوم الحسرة من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله وأنذرهم يوم الحسرة قال يوم القيامة وقرأ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وقوله إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس ولا أحد يدعي ملكا ولا تصرفا بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيهم فلا تظلم نفس شيأ ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة قال ابن أبي حاتم ذكر هدبة بن خالد القيسي حدثنا حزم بن أبي حزم القطعي قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة أما بعد فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت فجعل مصيرهم إليه وقال فيما أنزل في كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حفظه أنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم واذكر في الكتاب إبراهيم واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته ويدعون أنهم على ملته وقد كان صديقا نبيا مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام فقال يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضررا يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك يقول وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك لأني ولدك فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد فاتبعني أهدك صراطا سويا أي طريقا مستقيما موصلا إلى نيل المطلوب والنجاة من المرهوب يا أبت لا تعبد الشيطان أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به كما قال تعالى ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وقال إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا وقوله إن الشيطان كان للرحمن عصيا أي مخالفا مستكبرا عن طاعة ربه فطرده وأبعده فلا تتبعه تصر مثله يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن أي على شركك وعصيانك لما آمرك به فتكون للشيطان وليا يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصرا ولا مغيثا إلا إبليس وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء بل اتباعك له موجب

ظالمين قد أمهلتهم حينا ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع للكل إلى حكمي (و) جملة (إلي المصير) تذييل لتقرير ما قبلها (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) أمره سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدي الساعة مبين لهم ما نزل إليهم فمن آمن وعمل صالحا فاز بالمغفرة وستر الذنوب ومن كان على خلاف ذلك فهو في النار والرزق الكريم الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته (والذين سعوا في آياتنا) أي اجتهدوا في إبطالها حيث قالوا القرآن شعر أو سحر أو أساطير الأولين (معاجزين) يقال عاجزه سابقه لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر فإذا سبقه قيل أعجزه وعجزه قاله الأخفش وقيل معناه ظانين ومقدرين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم قاله الزجاج وقيل معاندين قاله الفراء وقال ابن عباس مراغمين ومشاقين (أولئك أصحاب الجحيم) أي النار الموقدة (وما أرسلنا من قبلك) من لابتداء الغاية وهذا شروع في تسلية ثانية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد التسلية الأولى (من رسول ولا نبي) من زائدة لتأكيد النفي وفيه دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الأنبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا فقيل فكم الرسل منهم فقال ثلثمائة وثلاثة عشر والفرق بينهما أن الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانا ومحاورته شفاها والنبي الذي يكون وحيه إلهاما أو مناما وقيل الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه والنبي من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله ولم ينزل عليه كتاب ولا بد لهما جميعا من المعجزة الظاهرة وقرأ ابن مسعود ولا نبي ولا محدث وعن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله وزاد فنسخت محدث قال والمحدثون صاحب يس ولقمان ومؤمن آل فرعون وصاحب موسى (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) معنى تمنى تشهى وهيأ في نفسه ما يهواه قال الواحدي قال المفسرون معنى تمنى تلا قال جماعة المفسرين في سبب نزول هذه الآية أنه

لاحاطة العذاب بل كما قال تعالى تالله لقد أرسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم

(قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) يقول تعالى مخبرا عن جواب أبى ابراهيم لولده ابراهيم فيما دعاه اليه انه قال أراغب انت عن آلهتى يا ابراهيم يعنى ان كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فانته عن سبها وشتمها وعيبها فانك ان لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك وهو قوله لارجمنك قاله ابن عباس والسدى وابن جريج والضحاك وغيرهم وقوله واهجرنى مليا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن اسحق يعنى دهرا وقال الحسن البصرى زمانا طويلا وقال السدى واهجرنى مليا قال أبدا وقال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس واهجرنى مليا قال سويا سالما قبل ان تصيبك منى عقوبة وكذا قال الضحاك وقتادة وعطية الجدلى ومالك وغيرهم واختاره ابن جرير فعندها قال ابراهيم لابيه سلام عليك كما قال تعالى فى صفة المؤمنين واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقال تعالى واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ومعنى قول ابراهيم لابيه سلام عليك يعنى اما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا اذى وذلك لحرمة الابوة سأستغفر لك ربى ولكن سأسأل الله فيك ان يهديك ويغفر ذنبك انه كان بى حفيا قال ابن عباس وغيره لطيفا اى فى ان هدانى لعبادته والاخلاص له وقال قتادة ومجاهد وغيرهما انه كان بى حفيا قال عوده الاجابة وقال السدى الحفى الذى يهتم بأمره وقد استغفر ابراهيم صلى الله عليه وسلم لابيه مدة طويلة وبعد أن هاجر الى الشام وبنى المسجد الحرام وبعد أن ولد له اسمعيل واسحق عليهما السلام فى قوله ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الاسلام وذلك اقتداء بابراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى قد كان لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله الى قوله الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء الآية يعنى الا فى هذا القول فلا تتأسوا به ثم بين تعالى ان ابراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية الى قوله وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم وقوله وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى أى أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله وأدعو ربى أى وأعبد ربى وحده لا شريك له عسى ان لا أكون بدعاء ربى شقيا

صلى الله عليه وآله وسلم لما شق عليه اعراض قومه عنه تمنى فى نفسه أن لا ينزل عليه شىء ينفرهم عنه لحرصه على ايمانهم فكان ذات يوم جالسا فى نادمن أنديتهم وقد نزل عليه سورة والنجم اذا هوى فأخذها يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى وكان ذلك التمنى فى نفسه فجرى على لسانه مما القاه الشيطان عليه تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قراءته حتى ختم السورة فلما سجد فى آخرها سجد معه جميع من فى النادى من المسلمين والمشركين فتفرقت قريش مسرورين بذلك وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فأتاه جبريل فقال ما صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله فحزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخاف خوفا شديدا فأنزل الله هذه الآية هكذا قالوا ولم يصح شىء من هذا ولا ثبت بوجه من الوجوه ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه حيث قال الله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين وقوله وما ينطق عن الهوى وقوله ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا فنفى المقاربة للركون فضلا عن الركون قال البزار هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم باسناد متصل وقال البيهقى هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم ان رواة هذه القصة مطعون فيهم وقال امام الائمة ابن خزيمة ان هذه القصة من وضع الزنادقة قال القاضى عياض فى الشفاء ان الامة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الاخبار عن شىء بخلاف ما هو عليه لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا قال الرازى هذه القصة باطلة موضوعة لا يجوز القول بها قال تعالى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى وقال تعالى سنقرئك فلا تنسى ولا شك ان من جوز على الرسول تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان أعظم سعيه كان فى نفى الاوثان ولو جوزنا ذلك لارتفع الامان عن شرعه وجوزنا فى كل واحد من الاحكام

والشرائع

وعيسى هذه موجبة لامحالة فانه عليه السلام سيد الانبياء بعد محمد صلى سنعتزلهم وما يعبدون من دون الله
وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا يقول تعالى فلما اعتزل الخليل أباه
وقومه في الله أبدله الله من هو خير منهم ووهب له اسحق ويعقوب يعني ابنه وابن اسحق ثم قال في الآية الاخرى ويعقوب نافلة
وقال ومن وراء اسحق يعقوب ولا خلاف ان اسحق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة أم كنتم شهداء اذ حضر
يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق ولهذا انما ذكرههنا اسحق
ويعقوب أي جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته ولهذا قال وكلا جعلنا نبيا فلولم يكن يعقوب عليه السلام قد نبئ
في حياة ابراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف فانه نبي أيضا كما قال (٢٠١) رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق
على صحته حين سئل عن خير الناس فقال يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن اسحق نبي الله ابن ابراهيم خليل الله وفي اللفظ الآخر ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وقوله ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني الثناء الحسن وكذا قال السدي ومالك ابن أنس وقال ابن جرير انما قال عليا لان جميع الملل والاديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين (واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) لما ذكر تعالى ابراهيم الخليل وأثنى عليه عطف بذكر الكليم فقال واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا قرأ

والشرائع ان يكون كذلك أي مما ألقاه الشيطان على لسانه ويبطل قوله تعالى بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته فانه لافرق عند العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه النقلية والعقلية عرفنا على سبيل الاجمال ان هذه القصة موضوعة انتهى ملخصا قال ابن كثير قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرين الى أرض الحبشة ظنا منهم ان مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والحاصل ان جميع الروايات في هذا الباب اما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها وقد أسلفنا عن الحفاظ في هذا البحث ما فيه كفاية وفي الباب روايات من أحب الوقوف على جميعها فلينظرها في الدر المنثور للسيوطي ولا يأتي التطويل بذكرها هنا بفائدة فقد عرفناك انها جميعها لا تقوم بها الحجة لانه لم يروها أحد من أهل الصحة ولا أسندها ثقة بسند صحيح أو سليم متصل وانما رواها المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب الملفقون من الصحف كل صحيح وسقيم وقد دل على ضعف هذه القصة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها والذي جاء في الصحيح من حديث ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير ان شيخا من قريش أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه الى جبهته قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافرا أخرجه البخاري ومسلم وصح من حديث ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس رواه البخاري فهذا الذي جاء في الصحيح لم يذكر فيه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر تلك الالفاظ ولا قرأها والذي ذكره المفسرون عن ابن عباس في هذه القصة فقد رواه عنه الكلبي وهو ضعيف جدا بل متروك لا يعتمد عليه وكذا أخرجه النحاس بسند آخر فيه الواقدي فهذا توهين هذه القصة وقد أجابوا عنه من حيث المعنى بوجوه أخرى يطول ذكرها بلا فائدة زائدة وقد استوفاها الخازن في تفسيره والنسفي في

بعضهم بكسر اللام من الاخلاص في العبادة قال الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي ثمامة قال
قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن المخلص لله قال الذي يعمل لله لا يحب ان يحمده الناس وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى انه كان
مصطفى كما قال تعالى اني اصطفيتك على الناس وكان رسولا نبيا جمع له بين الوصفين فانه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة
وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الانبياء أجمعين وقوله وناديناه من جانب الطور
أي الجبل الايمن أي من جانبه الايمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة فرآها تلوح فقصدها فوجدها في جانب الطور
الايمن منه غربيه عند شاطئ الوادي فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه روى ابن جرير حدثنا ابن يسار حدثنا يحيى هو القطان
حدثنا سفيان عن عطاء بن يسار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وقربناه نجيا قال أدنى حتى سمع صريف القلم وهكذا قال مجاهد

وأبو العالية وغيرهم يعنون صريف القلم بكتابة التوراة وقال السدي وقربناه نجيا قال ادخل في السماء فكلم وعن مجاهد نحوه وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة وقربناه نجيا قال نجا بصدقه وروى ابن أبي حاتم حدثنا عبد الجبار بن عاصم حدثنا محمد بن سلمة الحراني عن أبي الواصل عن شهر بن حوشب عن عمرو بن معديكرب قال لما قرب الله موسى نجيا بطور سيناء قال يا موسى اذا خلقت لك قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين على الخير فلم اخزن عنك من الخير شيأ ومن اخزن عنه هذا فلم افتح له من الخير شيأ وقوله ووهبنا له من رحمتنا اخاه هرون نبيا أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في اخيه فجعلناه نبيا كما قال في الآية الاخرى واخي هرون هو افصح مني لسانا فارسله معي ردأ يصدقني اني أخاف ان يكذبون وقال قد أوتيت سؤلك يا موسى وقال فارسل الى هرون ولهم علي ذنب فاخاف أن يقتلون ولهذا قال بعض السلف (٢٠٢) ماشفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هرون ان يكون نبيا قال الله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا قال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن داود عن عكرمة قال قال ابن عباس قوله ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا قال كان هرون أكبر من موسى ولكن أراد وهب له نبوته وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقا عن يعقوب وهو ابن ابراهيم الدورقي به (واذكر في الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) هذا ثناء من الله تعالى على اسمعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد قال ابن جريج لم يعد ربه عدة الا انجزها يعني ما التزم عبادة قط بنذر الا قام بها ووفاها حقها وقال ابن جرير حدثني يونس انبأنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحرث ان سهل بن عقيل حدثه ان اسمعيل النبي عليه السلام وعد رجلا مكانا ان يأتيه فجاء ونسي الرجل فظل به اسمعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال ما برحت من ههنا قال لا قال اني نسيت قال لم أكن لابرح حتى تأتيني فلذلك كان صادق الوعد وقال سفيان الثوري بلغني انه أقام في ذلك المكان ينتظره حولا حتى جاءه وقال ابن شوذب بلغني انه اتخذ ذلك الموضع مسكنا وقد روى أبو داود في سننه وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي في كتابه مكارم الاخلاق من طريق ابراهيم بن طهمان عن عبد الله بن ميسرة عن عبد الكريم يعني ابن عبد الله بن شقيق عن أبيه عن عبد الله بن أبي الحمساء قال بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فبقيت له علي بقية فوعدته ان آتيه بها في مكانه ذلك قال فنسيت يومي والغد فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك فقال لي يا فتى لقد شققت علي انا ههنا منذ ثلاث أنتظرك لفظ الخرائطي وساق آثارا حسنة في ذلك ورواه ابن منده أبو عبد الله في كتاب

المدارك ونبه الحافظ ابن حجر على ثبوت أصلها في الجملة وقال ان ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح لكنها مراسيل واذا تقرر لك بطلان ذلك عرفت ان معنى تمنى قرأ وتلا كما قدمنا من حكاية الواحدي لذلك عن المفسرين قال البغوي ان أكثر المفسرين قالوا معنى تمنى تلا وقرأ كتاب الله ومعنى ألقى الشيطان في أمنيته أي في تلاوته وقراءته قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام ويؤيد هذا ما تقدم في تفسير قوله لا يعلمون الكتاب الا أماني وقيل معنى تمنى حدث ومعنى في أمنيته في حديثه روى هذا عن ابن عباس وقيل معنى تمنى قال فحاصل معنى الآية ان الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون ان يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا جرى على لسانه فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي لا يهولنك ذلك ولا يحزنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والانبياء وعلى تقدير ان معنى تمنى حدث نفسه كما حكاه الفراء والكسائي فانهما قالا يقال تمنى اذا حدث نفسه فالمعنى انه اذا حدث نفسه بشئ تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من دون ان يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا جرى على لسانه قال ابن عطية لا خلاف ان القاء الشيطان انما هو لالفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة قال القاضي عياض وهذا أحسن الوجوه وهو الذي يظهر ترجيحه وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل وقال في أمنيته في تلاوته وقد قيل في تأويل الآية ان المراد بالغرانيق الملائكة ويرد بقوله الآتي فينسخ الله ما يلقي الشيطان أي يبطله وشفاعة الملائكة غير باطلة وقيل ان ذلك جرى على لسانه سهوا ونسيانا وهما مجوزان على الانبياء ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرر في مواطنه قال الضحاك يعني بالتمني التلاوة والقراءة فينسخ الله أي جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال مجاهد اذا تمنى أي تكلم وأمنيته كلامه فاخبر تعالى في هذه الآية ان سنة الله في رسله اذا قالوا قولا زاد الشيطان فيه من

معرفة الصحابة له باسناده عن ابراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبد الكريم وقال بعضهم انما قيل له صادق الوعد لانه قال لابيه ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فصدق فى ذلك فصدق الوعد من الصفات الحميدة كما ان خلفه من الصفات الذميمة قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان ولما كانت هذه صفات المنافقين كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله اسمعيل بصدق الوعد وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق الوعد أيضا لا يعد أحدا شيأ الا وفى له به وقد أثنى على أبى العاص بن الربيع زوج ابنته زينب فقال حدثنى فصدقنى ووعدنى فوفى لى ولما توفى النبى صلى الله عليه وسلم قال الخليفة أبو بكر الصديق من كان له عند رسول الله (٢٠٣) صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنى انجزله فجاءه جابر بن عبد الله فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قال لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا يعنى ملء كفيه فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابرا فغرف بيديه من المال ثم أمره بعده فاذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثليها معها وقوله وكان رسولا نبيا فى هذا دلالة على شرف اسمعيل على أخيه اسحق لانه انما وصف بالنبوة فقط واسمعيل وصف بالنبوة والرسالة وقد ثبت فى صحيح مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسمعيل وذكر تمام الحديث فدل على صحة ما قلناه وقوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا هذا أيضا من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة حيث كان صابرا على طاعة ربه عز وجل آمرا بها لاهله كما قال تعالى لرسوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها الآية وقال يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون أى مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ولا تدعوهم هملا فتأكلهم النار يوم القيامة وقد جاء فى الحديث عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فان أبت نضح فى وجهها الماء رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فان أبى نضحت فى وجهه الماء أخرجه أبو داود وابن ماجه وعن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا استيقظ الرجل من الليل وايقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه واللفظ له (واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا) ذكر ادريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه كان صديقا نبيا وان الله

قبل نفسه فهذا نص فى أن الشيطان زاد فى قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قاله لانه معصوم وقد سبق الى ذلك الطبرى مع جلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده فى النظر فصوب هذا المعنى قاله الحافظ فى الفتح ثم لما سلاه سبحانه بهذه التسلية وانها قد وقعت لمن قبله من الرسل والانبياء بين سبحانه انه يبطل ذلك ولا يثبته ولا يستمر تغرير الشيطان به فقال (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) أى يبطله ويجعله ذاهبا غير ثابت (ثم يحكم الله آياته) أى يثبتها (والله عليم حكيم) أى كثير العلم والحكمة فى كل أقواله وافعاله (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة) تعليل أى ذلك الالقاء الذى يلقيه الشيطان ضلالة ومحنة وبلية (للذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق (والقاسية قلوبهم) هم المشركون فان قلوبهم لا تلين للحق أبدا ولا ترجع الى الصواب بحال ثم سجل سبحانه على هاتين الطائفتين بأنهم ظالمون فقال (وان الظالمين لفى شقاق بعيد) أى عداوة شديدة ووصف الشقاق بالبعد مبالغة والموصوف به حقيقة من قام به ولما بين سبحانه ان ذلك الالقاء كان فتنة فى حق أهل النفاق والشك والشرك بين انه فى حق المؤمنين العالمين بالله العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حق وصدق فقال (وليعلم الذين أوتوا العلم) أى التوحيد والقرآن والتصديق بنسخ الله ما يشاء (انه الحق من ربك) أى الحق النازل من عنده وقيل الضمير فى انه راجع الى تمكين الشيطان من الالقاء لانه مما جرت به عادته مع أنبيائه ولكنه يرد هذا قوله (فيؤمنوا به) فان المراد الايمان بالقرآن أى يثبتوا على الايمان به (فتخبت له قلوبهم) أى تخشع وتسكن وتنقاد فان الايمان به واخبات القلوب له لا يمكن ان يكونا للتمكين من الشيطان بل للقرآن (وان الله لهادى الذين آمنوا) فى أمور دينهم (الى صراط مستقيم) أى طريق صحيح قويم لا عوج به وقرئ لهاد بالتنوين (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه) أى فى شك من القرآن وقيل من الدين الذى يدل عليه ذكر الصراط المستقيم وقيل من الرسول وقيل من القاء الشيطان

ورفعناه مكانا عليا وقد تقدم في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به في ليلة الاسراء وهو في السماء الرابعة وقد روى ابن جرير هنا أثرا غريبا عجيبا فقال حدثني يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني جرير بن حازم عن سليمان الاعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر فقال له ماقول الله عز وجل لادريس ورفعناه مكانا عليا فقال كعب اما ادريس فان الله أوحى اليه انى أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بنى آدم فأحب ان يزداد عملا فأتاه خليل له من الملائكة فقال له ان الله أوحى الى كذا وكذا فكلم لى ملك الموت فليؤخرنى حتى ازداد عملا فحمله بين جناحيه حتى صعد به الى السماء فلما كان فى السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدرا فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه ادريس فقال وأين ادريس فقال هو ذا على ظهرى قال ملك الموت فالعجب بعثت وقيل لى اقبض روح ادريس (٢٠٤) فى السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الارض فقبض روحه هنالك فذلك قول الله ورفعناه مكانا عليا هذا من أخبار كعب الاحبار الاسرائيليات وفى بعضه نكارة والله أعلم وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر عن ابن عباس انه سأل كعبا فذكر نحو ماتقدم غير انه قال لذلك الملك هل لك ان تسأله يعنى ملك الموت كم بقى من أجلى لكى ازداد من العمل وذكر باقيه وفيه انه لما سأله عما بقى من أجله قال لا أدرى حتى انظر فنظر ثم قال انك تسألنى عن رجل مابقى من عمره الا طرفة عين فنظر الملك تحت جناحه فاذا هو قد قبض عليه السلام وهو لا يشعر به ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس ان ادريس كان خياطا فكان لا يغرز ابرة الا قال سبحان الله فكان يمسى حين يمسى وليس فى الارض أحد أفضل عملا منه وذكر بقيته كالذى قبله أو نحوه وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله ورفعناه مكانا عليا قال ادريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى وقال سفيان عن منصور عن مجاهد ورفعناه مكانا عليا قال السماء على

الرابعة وقال العوفى عن ابن عباس ورفعناه مكانا عليا قال رفع الى السماء السادسة فمات بها وهكذا قال الضحاك بن مزاحم وقال الحسن وغيره فى قوله ورفعناه مكانا عليا قال الجنة (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) يقول تعالى هؤلاء النبيون وليس المراد المذكورين فى هذه السورة فقط بل جنس الانبياء عليهم السلام استطرد من ذكر الاشخاص الى الجنس الذى أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم الآية قال السدى وابن جرير رحمه الله فالذى عنى به من ذرية آدم ادريس والذى عنى به ممن حملنا مع نوح ابراهيم والذى عنى به من ذرية ابراهيم اسحق ويعقوب واسمعيل والذى عنى به من ذرية اسرائيل موسى وهرون وزكريا ويحيى

فيقولون مابالهذكر الاصنام بخير ثم رجع عن ذلك وقرئ مرية بضم الميم وهما لغتان مشهورتان وظاهر كلام أبى البقاء انهما قراءتان قال السمين ولا أحفظ الضم هنا (حتى تأتيهم الساعة) أى القيامة أو الموت (بغتة) أى فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) وهو يوم القيامة لانه لا يوم بعده فكان بهذا الاعتبار عقيما وهو فى اللغة من لا يكون له ولد ولما كانت الايام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم وقيل يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر قاله ابن عباس وعن أبى بن كعب نحوه وعن سعيد بن جبير وعكرمة مثله وعن مجاهد قال يوم القيامة لا ليلة له وعن الضحاك وسعيد مثله أيضا وقيل ان اليوم وصف بالعقم لانه لا رأفة فيه ولا رحمة فكأنه عقيم من الخير ومنه قوله تعالى فأرسلنا عليهم الريح العقيم أى التى لا خير فيها ولا تأتى بمطر وفيه استعارة بالكناية بان شبه اليوم المنفرد عن سائر الايام والزمان الذى لا خير فيه بالنساء العقم تشبيها مضمرا فى النفس واثبات العقم تخييل فان الايام بعضها نتائج لبعض فكل يوم يلد مثله (الملك يومئذ) أى السلطان القاهر والاستيلاء التام يوم القيامة والتنوين عوض عن الجملة أى يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم (لله) سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه (يحكم) أى يفصل (بينهم) مستأنفة أو هى حالية ثم فسر هذا الحكم بقوله (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) كائنون (فى جنات النعيم) مستقرون فى أرضها منغمسون فى نعيمها فضلا من الله (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته (فأولئك لهم عذاب) متصف بأنه (مهين) للمعذبين بالغ منهم المبلغ العظيم بسبب كفرهم (والذين هاجروا فى سبيل الله) أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصا لهم بمزيد الشرف وتعظيما لشأنهم قال بعض المفسرين هم الذين هاجروا من مكة الى المدينة وقال بعضهم الذين هاجروا من الاوطان فى سرية أو عسكر ولا يبعد حمل ذلك على الامرين والكل فى سبيل الله وطاعته (ثم قتلوا) وقرئ مشددا

وعيسى بن مريم قال ابن جرير ولذلك فرق أنسابهم وان كان يجمع جميعهم آدم لان فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو ادريس فانه جد نوح (قلت) هذا هو الاظهر ان ادريس في عمود نسب نوح عليهما السلام وقد قيل انه من أنبياء بني اسرائيل اخذا من حديث الاسراء حيث قال في سلامه على النبي صلى الله عليه وسلم مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح ولم يقل والولد الصالح كما قال آدم وابراهيم عليهما السلام وروى ابن أبي حاتم حدثنا يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب بن عبد الله ابن عمر وان ادريس أقدم من نوح فبعثه الله الى قومه فامرهم ان يقولوا لا اله الا الله ويعملوا ما شاؤا فابوا فاهلكهم الله عز وجل ومما يؤيد ان المراد بهذه الآية جنس الانبياء انها كقوله تعالى في سورة الانعام وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا (٢٠٥) من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين واسمعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم الى قوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقال سبحانه وتعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وفي صحيح البخاري عن مجاهد انه سأل ابن عباس أفي ص سجدة فقال نعم ثم تلا هذه الآية أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده فنبيكم ممن أمر ان يقتدى بهم قال وهو منهم يعني داود وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا أي اذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة حمدا وشكرا على ما هم فيه من النعم العظيمة والبكي جمع باك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعا لمنوالهم قال سفيان الثوري عن الاعمش عن ابراهيم عن أبي معمر قال قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد وقال هذا السجود فأين البكي يريد البكاء رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وسقط من روايته ذكر أبي معمر فيما رأيت فالله أعلم (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا الا من تاب وآمن وعمل صالحا فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيأ) لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الانبياء عليهم السلام ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ذكر انه خلف من بعدهم خلف أي قرون أخر أضاعوا الصلاة واذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع لانها عماد الدين وقوامه وخير اعمال العباد وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فهؤلاء سيلقون غيا أي خسارا يوم القيامة وقد اختلفوا في المراد باضاعة الصلاة ههنا فقال

على التكثير (أو ماتوا) في حال المهاجرة (ليرزقنهم الله) جواب قسم محذوف (رزقا) أي مرزوقا (حسنا) أو مصدر مؤكد وفيه دليل على وقوع الجملة القسمية خبرا للمبتدا ومن منعه فقوله مرجوح والرزق الحسن هو نعيم الجنة الذي لا ينقطع وقيل هو الغنيمة لانه حلال وقيل هو العلم والفهم كقول شعيب ورزقني منه رزقا حسنا والتسوية في الوعد بالرزق لا يدل على تفضيل في قدر المعطى ولا تسوية فان يكن تفضيل فمن دليل آخر والمقرر في كتب الفروع ان المقتول أفضل لانه شهيد وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول من مات مرابطا أجرى الله عليه مثل ذلك الاجر وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين اقرؤا ان شئتم والذين هاجروا الى قوله حليم (قلت) ويؤيد هذا قوله سبحانه ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله (وان الله لهو خير الرازقين) أي أفضلهم فانه سبحانه يرزق بغير حساب بمحض الاحسان وكل رزق يجري على يد العباد بعضهم لبعض فهو منه سبحانه لا رازق سواه ولا معطي غيره والجملة تذييل مقررة لما قبلها ولما ذكر الرزق أعقبه بذكر المسكن بقوله (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) مستأنفة أو بدل من جملة ليرزقنهم الله قرئ مدخلا بفتح الميم وبضمها وهو اسم مكان أريد به الجنة أو مصدر ميمي مؤكد للفعل المذكور وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة سبحان وفي هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره فان المدخل الذي يرضونه هو الاوفق لنفوسهم والاقرب الى مطلبهم على انهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا (وان الله لعليم) بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم وقيل بأحوال من قضى نحبه مجاهدا وآمال من مات وهو ينتظر معاهدا (حليم) عن تفريط المفرطين منهم بامهال من قاتلهم معاندا لا يعاجلهم بالعقوبة (ذلك) أي ما تقدم أو الامر ذلك وما بعده مستأنف وقال الزجاج أي الامر

قال الأولون المراد باضاعتها تركها بالكلية قاله محمد بن كعب القرظي وابن زيد بن أسلم والسدي واختاره ابن جرير ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الامام أحمد وقول عن الشافعي الى تكفير تارك الصلاة للحديث بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة والحديث الآخر العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر وليس هذا محل بسط هذه المسئلة وقال الاوزاعي عن موسى بن عثمان عن القاسم بن مخيمرة في قوله فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة قال انما اضاعوا المواقيت ولو كان تركا كان كفرا وقال وكيع عن المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن سعد عن ابن مسعود انه قيل له ان الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن الذين هم عن صلاتهم ساهون وعلى صلاتهم دائمون وعلى صلاتهم يحافظون فقال ابن مسعود على مواقيتها قالوا ما كنا نرى ذلك الا على الترك قال ذلك (٢٠٦) الكفر وقال مسروق لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين وفي افراطهن الهلكة وافراطهن اضاعتهن عن وقتهن وقال الاوزاعي عن ابراهيم بن يزيد ان عمر بن عبد العزيز قرأ فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ثم قال لم تكن اضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات قال عند قيام الساعة وذهاب صالحي أمة محمد صلى الله عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض في الازقة وكذا روى ابن جريج عن مجاهد مثله وروى جابر الجعفي عن مجاهد وعكرمة وعطاء ابن أبي رباح انهم من هذه الأمة يعنون في آخر الزمان وقال ابن جرير حدثني الحرث حدثنا الحسن الاشيب حدثنا شريك عن ابراهيم بن مهاجر عن مجاهد فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات قال هم في هذه الأمة يتراكبون تراكب الانعام والحمر في الطرق لا يخافون الله في السماء ولا يستحيون من الناس في الارض وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي حدثنا أبو عبد الرحمن المقري حدثنا حيوة حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني ان الوليد بن قيس حدثه انه سمع أبا سعيد الخدري يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ثم يكون خلف يقرؤن القرآن لا يعدو تراقيهم ويقرأ القرآن ثلاثة مؤمن ومنافق وفاجر وقال بشير قلت للوليد ما هؤلاء الثلاثة قال المؤمن مؤمن به والمنافق كافر به والفاجر يتأكل به وهكذا رواه أحمد عن أبي عبد الرحمن المقري وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثني أبي حدثنا ابراهيم بن موسى أنبأنا عيسى بن يونس حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن وهب عن مالك عن أبي الرجال ان عائشة كانت ترسل بالشئ صدقة لاهل الصفة وتقول لا تعطوا

ما قصصنا عليكم من انجاز الوعد للمهاجرين خاصة اذا قتلوا أو ماتوا فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) أي من جازى الظالم بمثل ما ظلمه والعقاب مأخوذ من التعاقب وهو مجيء الشئ بعد غيره وحينئذ يسمى الابتداء عقابا باسم الجزاء مشاكلة كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها وقوله فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم أو من قبيل تسمية السبب باسم المسبب والعقوبة في الاصل انما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه والمراد بالمثلية انه اقتصر على المقدار الذي ظلم به ولم يزد عليه عن ابن جريج قال تعاون المشركون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فأخرجوه فوعده الله ان ينصره وهو في القصاص أيضا (ثم بغي عليه) أي ان الظالم له في الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الاولى وقيل المراد بهذا البغي هو ما وقع من المشركين من ازعاج المسلمين من أوطانهم بعد ان كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به وقيل المعنى ثم كان المجازي مبغيا عليه أي مظلوما ومعنى ثم تفاوت الرتبة لان الابتداء بالقتال معه نوع ظلم كما قيل في امثال العرب البادئ أظلم وقيل ان هذه الآية مدنية وهي في القصاص والجراحات (لينصرنه الله) اللام جواب قسم محذوف أي والله لينصرن الله المبغي عليه على الباغي (ان الله لعفو غفور) أي لكثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب أو القتال في الشهر الحرام وقيل العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو (ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) اشارة الى ما تقدم من نصر الله سبحانه للمبغي عليه والباء للسببية أي ذلك النصر بسبب انه سبحانه قادر ومن كمال قدرته ايلاج الليل في النهار والنهار في الليل قاله الرازي وقال البيضاوي قادر على تقليب الامور بعضها على بعض جارية عادته على المداولة بين الأشياء المتعاندة وعبر عن الزيادة بالايلاج لان زيادة احدهما تستلزم نقصان الآخر وقيل يجعل ظلمة الليل مكان ضياء النهار وذلك بتغييبه الشمس ويجعل ضياء النهار مكان ظلمة الليل بطلوع الشمس فالمراد

منه برياولا بريبة فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هم الخلف الذين قال الله تعالى فيهم فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة هذا حديث غريب وقال أيضا حدثنى أبى حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك حدثنا الوليد بن جرير عن شيخ من أهل المدينة انه سمع محمد بن كعب القرظى يقول فى قول الله فخلف من بعدهم خلف الآية قال هم أهل الغرب يملكون وهم شر من ملك وقال كعب الاحبار والله انى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عز وجل شرابين للقهوات تراكين للصلوات لعابين بالكعبات رقادين عن العتمات مفرطين فى الغدوات تراكين للجماعات قال ثم تلا هذه الآية فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وقال الحسن البصرى عطلوا المساجد ولزموا الضيعات وقال أبو الاشهب العطاردى أوحى الله الى داود عليه السلام ياداود حذر وانذر أصحابك أكل الشهوات فان القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة وان أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى اذا آثر شهوة من شهواته ان أحرمه طاعتى وقال الامام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو التميمى عن ابى قبيل انه سمع عبد الله بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أخاف على أمتى اثنتين القرآن (١) والكنى اما الكنى فيتبعون الزيف ويتبعون الشهوات ويتركون الصلاة وأما القرآن فيتعلمه المنافقون فيجادلون به المؤمنين ورواه عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة حدثنا ابو قبيل عن عقبة به مرفوعا بنحوه تفرد به وقوله فسوف يلقون غيا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فسوف يلقون غيا أى خسرانا وقال قتادة شرا وقال سفيان الثورى وشعبة ومحمد بن اسحق عن أبى اسحق السبيعى عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود فسوف يلقون غيا قال واد فى جهنم بعيد القعر خبيث الطعم وقال الاعمش عن زياد عن أبى عياض فى قوله فسوف يلقون غيا قال واد فى جهنم من قيح ودم وقال الامام أبو جعفر بن جرير حدثنى عباس بن أبى طالب حدثنا محمد بن زياد حدثنا شرقى بن قطامى عن لقمان بن عامر الخزاعى قال جئت أبا أمامة صدى بن عجلان الباهلى فقلت حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم دعا بطعام ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن صخرة زنة عشر اواق قذف بها من شفير جهنم مابلغت قعرها خمسين خريفا ثم تنتهى الى غى وآثام قال قلت ماغى وآثام قال بئران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار وهما اللذان ذكرهما الله فى كتابه أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وقوله فى الفرقان ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما هذا حديث غريب ورفعه منكر وقوله الامن تاب وآمن وعمل صالحا أى الامن رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات

فالمراد تحصيل أحد العرضين فى محل الآخر وقد مضى فى آل عمران معنى هذا الايلاج (وان الله سميع) يسمع كل مسموع لايشغله سمع عن سمع (بصير) يبصر كل مبصر أو سميع للاقوال وان اختلفت فى النهار الاصوات بفنون اللغات بصير بما يفعلون لايستتر عنه شئ بشئ فى الليالى وان توالت الظلمات فلا يعزب عنه مثقال ذرة (ذلك) اشارة الى ماتقدم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام (بأن الله هو الحق) أى هو سبحانه ذو الحق فدينه حق وعبادته حق ونصره لاوليائه على اعدائه حق ووعده حق فهو عز وجل فى نفسه وافعاله وصفاته كلها حق (وان مايدعون من دونه هو الباطل) قرئ بالفوقية على الخطاب للمشركين وبالتحتية على الخبر وهما سبعيتان والمعنى ان الذى يدعونه الها وهى الاصنام هو الباطل الذى لاثبوت له ولا لكونه الها أى المعدوم فى حد ذاته والباطل ألوهيته والباطل الزائل وقال مجاهد الباطل هنا الشيطان (وان الله هو العلى) أى العالى على كل شئ بقدرته وذاته المتقدس عن الاشباه والانداد المتصف بصفات الكمال المتنزه عما يقوله الظالمون والمعطلون (الكبير) أى ذو الكبرياء الذى يصغر كل شئ سواه وهو عبارة عن كمال ذاته وعظيم قدرته وسلطانه وتفرده بالالهية ثم ذكر سبحانه دليلا بينا على كمال قدرته فقال (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) الاستفهام للتقرير كما قاله الخليل وسيبويه قال الخليل المعنى ألم تعلم انه أنزل من السماء مطرا فكان كذا وكذا ذكر هنا ستة أشياء أولها انزال الماء الناشئ منه اخضرار الارض كما قال (فتصبح الارض مخضرة) قال الفراء أى ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة أى ذات بقل وسباع وهو عبارة عن استعجالها اثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الاشعار بتجدد الانزال واستمراره وهذا المعنى لايحصل الا بالمستقبل والرفع هنا متعين لانه لو نصب لانعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب الى نفى الاخضرار والمقصود اثباته قال ابن عطية هذا لايكون بعد الاخضرار فى صباح ليلة

(١) قوله والكنى الخ كذا فى الاصل الذى بايدينا وحرر لفظ الحديث اه

فان الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم ولهذا قال فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيأ وذلك لان التوبة تجب ما قبلها وفي الحديث الآخر التائب من الذنب كمن لا ذنب له ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيأ ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لان ذلك ذهب هدرا وترك نسيا وذهب مجانا من كرم الكريم وحلم الحليم وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق الى قوله وكان الله غفورا رحيما (جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) يقول تعالى الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن أي اقامة التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب أي هي (٢٠٨) من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه وذلك لشدة ايقانهم وقوة ايمانهم وقوله انه كان وعده مأتيا تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره فان الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله كقوله وكان وعده مفعولا أي كائنا لا محالة وقوله ههنا مأتيا أي العباد صائرون اليه وسيأتونه ومنهم من قال مأتيا بمعنى آتيا لان كل ما أتاك فقد أتيته كما تقول العرب أتت على خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد وقوله لا يسمعون فيها لغوا أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له كما قد يوجد في الدنيا وقوله الا سلاما استثناء منقطع كقوله لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما وقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات لان هنالك ليلا ونهارا ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها باضواء وأنوار كما قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها ولا يتغوطون آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الالوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشيا أخرجاه في الصحيحين من حديث معمر به وقال الامام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن اسحق حدثنا الحرث بن فضيل الانصاري عن محمود بن لبيد الانصاري عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال الضحاك عن ابن عباس ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا قال مقادير الليل والنهار وقال ابن جرير حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم قال سألت زهير بن محمد

المطر الا بمكة وتهامة والظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الارض في نفسها الا باعتبار النبات فيها كما في قوله فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت والمراد بقوله (ان الله لطيف) أي يصل علمه الى كل دقيق وجليل وقيل لطيف بارزاق عباده وقيل باستخراج النبات (خبير) أي انه ذو خبرة بتدبير عباده وما يصلح لهم وقيل خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر وقيل خبير بحاجتهم وفاقتهم والثاني قوله (له ما في السموات وما في الارض) خلقا وملكا وتصرفا وعبيدا وكلهم محتاجون الى رزقه (وان الله لهو الغني) فلا يحتاج الى شيء (الحميد) أي المستوجب للحمد في كل حال (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض) هذه نعمة أخرى ثالثة ذكرها الله سبحانه فأخبر عباده بانه سخر لهم وذلل ما يحتاجون اليه من الدواب والشجر والانهار والحجر والحديد والنار لما يراد منها والحيوان للاكل والركوب والحمل عليه والنظر اليه وجعله لمنافعهم (و) سخر لكم (الفلك) أي السفن في حال جريها (تجري في البحر بأمره) أي بتقديره واذنه فلولا ان الله سخرها لكانت تغوص أو تقف وهذه نعمة رابعة والخامسة قوله (ويمسك السماء) كراهة (ان تقع على الارض) وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للامساك لان النعم المتقدمة لا تكمل الا به والسماء جرم ثقيل وما كان كذلك لا بد له من السقوط لولا مانع يمنع منه وهو القدرة فأمسكها الله بقدرته لئلا تسقط فتبطل النعم التي امتن بها علينا (الا باذنه) أي بارادته ومشيئته وذلك يوم القيامة والظاهر انه استثناء مفرغ من أعم الاحوال وهو لا يقع في الكلام الموجب الا أن قوله ويمسك السماء ان تقع على الارض في قوة النفي أي لا يتركها تقع في حالة من الاحوال الا في حالة كونها ملتبسة بمشيئته تعالى فالباء للملابسة (ان الله بالناس لرؤف رحيم) أي كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الامور لعباده وهيأ لهم اسباب المعاش وأمسك السماء ان تقع على الارض فتهلكهم تفضلا منه على عباده وانعاما عليهم ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى سادسة فقال (وهو الذي أحياكم) بعد ان كنتم جمادا

عن قول الله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا قال ليس في الجنة ليل هم في نور أبدا ولهم مقدار الليل والنهار يعرفون مقدار الليل بارخاء الحجب واغلاق الابواب ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الابواب وبهذا الاسناد عن الوليد بن مسلم عن خليد عن الحسن البصري وذكر أبواب الجنة فقال أبواب يرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتكلم فيفهمهم انفتحي انغلقي فتفعل وقال قتادة في قوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا فيها ساعتان بكرة وعشى ليس ثم ليل ولا نهار وانما هو ضوء ونور وقال مجاهد ليس بكرة ولا عشى ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا وقال الحسن وقتادة وغيرهما كانت العرب الانعم فيهم من يتغدى ويتعشى فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم فقال تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وقال ابن مهدى عن حماد بن زيد عن هشام عن الحسن ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا قال البكور يرد على العشى والعشى يرد (٢٠٩) على البكور ليس فيها ليل وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثني أبي حدثني محمد بن زياد قاضي أهل سماط عن عبد الله بن جدير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من غداة من غدوات الجنة وكل الجنة غدوات الا انه يزف الى ولى الله فيها زوجة من الحور العين ادناهن التي خلقت من الزعفران قال أبو محمد هذا حديث غريب منكر وقوله تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا أى هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى أن قال أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون

(وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) قال الامام أحمد حدثنا يعلى ووكيع قالا حدثنا عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبرائيل ما يمنعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا قال فنزلت وما نتنزل الا بأمر ربك الى آخر الآية انفرد باخراجه البخاري فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعيم عن عمر بن ذر به ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عمر بن ذر به وعندهما زيادة في آخر الحديث فكان ذلك الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم وقال العوفي عن ابن عباس احتبس جبرائيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وحزن فاتاه جبرائيل فقال يا محمد وما نتنزل الا بأمر ربك الآية وقال مجاهد لبث جبرائيل عن محمد صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة ليلة ويقولون أقل فلما جاءه قال

جمادا بل لم تكونوا شيأ (ثم يميتكم) عند انقضاء اعماركم (ثم يحييكم) عند البعث للحساب والعقاب (ان الانسان لكفور) أى لكثير الجحود لنعم الله عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة ولا ينافي هذا خروج بعض الافراد عن هذا الجحود لان المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من افراده مبالغة وعن الحسن في قوله كفور قال يعد المصيبات وينسى النعم ثم عاد سبحانه الى بيان أمر التكاليف مع الزجر لمعاصرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الاديان عن منازعته فقال (لكل أمة جعلنا منسكا) أى لكل قرن من القرون الماضية والباقية وضعنا شريعة خاصة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها الى شريعة أخرى لا استقلالا ولا اشتراكا وقيل عيدا وقيل موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة (هم ناسكوه) الضمير لكل أمة أى تلك الامة هي العاملة به لا غيرها فكانت التوراة منسك الامة التي كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى والانجيل منسك الامة التي كانت من مبعث عيسى الى مبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن منسك المسلمين الى يوم القيامة والمنسك مصدر لا اسم مكان كما يدل عليه هم ناسكوه ولم يقل ناسكون فيه وقيل هو الذبائح ولا وجه للتخصيص ولا اعتبار بخصوص السبب (فلا ينازعنك في الامر) الفاء لترتيب النهى على ما قبله والضمير راجع الى الامم الباقية آثارهم يعني قد عينا لكل أمة شريعة ومن جملة الامم هذه الامة المحمدية وذلك موجب لعدم منازعة من بقى منهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومستلزم لطاعتهم اياه في امر الدين والنهى اما على حقيقته أو كناية عن نهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن الالتفات الى نزاعهم له قال الزجاج انه نهى له صلى الله عليه وآله وسلم عن منازعتهم أى لا تنازعهم انت كما تقول لا يخاصمنك فلان أى لا تخاصمه وكما تقول لا يضار بنك فلان اى لا تضاربه وذلك ان المفاعلة تقتضى العكس ضمنا ولا يجوز لا يضربنك فلان وأنت تريد لا تضربه وحكى عن الزجاج انه قال في معنى الآية فلا ينازعنك اى فلا يجادلنك قال

ياجبريل لقد رثت على حتى ظن المشركون كل ظن فنزلت وما نتنزل الا بامر ربك الآية قال وهذه الآية كالتي في الضحى وكذلك قال الضحاك بن مزاحم وقتادة والسدي وغير واحد انها نزلت في احتباس جبريل وقال الحكم بن أبان عن عكرمة قال ابطأ جبرائيل النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين يوما ثم نزل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما نزلت حتى اشتقت اليك فقال له جبريل بل انا كنت اليك أشوق ولكني مأمور فأوحى الله الى جبرائيل ان قل له وما نتنزل الا بأمر ربك الآية رواه ابن أبي حاتم رحمه الله وهو غريب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن مجاهد قال أبطأت الرسل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أتاه جبريل فقال له ما حبسك ياجبريل فقال له جبريل وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون اظفاركم ولا تنقون براجمكم ولا تأخذون شواربكم ولا تستاكون ثم قرأ وما نتنزل الا بامر ربك الى آخر الآية وقد قال الطبراني حدثنا أبو عامر النحوي حدثنا محمد بن ابراهيم الصوري حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا اسمعيل بن عياش أخبرني ثعلبة بن مسلم عن أبي كعب مولى ابن عباس عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ان جبرائيل أبطأ عليه فذكر له ذلك فقال وكيف وأنتم لا تستنون ولا تقلمون أظفاركم ولا تقصون شواربكم ولا تنقون براجمكم وهكذا رواه الامام أحمد عن أبي اليمان عن اسمعيل بن عياش عن ابن عباس بنحوه وقال الامام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا المغيرة ابن حبيب عن مالك بن دينار حدثني شيخ من أهل المدينة عن أم سلمة قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أصلحي لنا المجلس فانه ينزل ملك الى الارض لم ينزل اليها قط وقوله له ما بين أيدينا وما خلفنا قيل المراد بما بين أيدينا أمر الدنيا وما خلفنا أمر الآخرة وما بين ذلك ما بين النفختين هذا قول أبي العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة في رواية عنهما العلم والسدي والربيع بن أنس وقيل ما بين أيدينا ما يستقبل من أمر الآخرة وما خلفنا أي ما مضى من الدنيا وما بين ذلك أي ما بين الدنيا والآخرة يروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن جريج والثوري واختاره ابن جرير أيضا والله أعلم وقوله وما كان ربك نسيا قال مجاهد والسدي معناه ما نسيك ربك وقد تقدم عنه ان هذه الآية كقوله والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وقال ابن أبي حاتم حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقي حدثنا محمد بن عثمان يعني أبا الجماهر حدثنا اسمعيل بن عياش حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن أبيه عن أبي الدرداء يرفعه قال ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته فان الله لم يكن لينسى شيأ ثم تلا هذه الآية وما كان ربك نسيا وقوله رب السموات

ودل على هذا وان جادلوك وقرئ فلا ينزعنك في الامر اي لا يستخفنك ولا يغلبنك على دينك وقرأ الجمهور فلا ينازعنك من المنازعة كما تقدم وقال ابن عباس هم ناسكوه اي ذابحوه فلا ينازعنك في الامر اي في الذبح وعن عكرمة ومجاهد نحوه وعن مجاهد قال قول اهل الشرك اما ماذبح الله بيمينه فلا تأكلوه واما ماذبحتم بايديكم فهو حلال (وادع) هؤلاء المنازعين او ادع الناس على العموم (الى) دين (ربك) وتوحيده والايمان به (انك لعلى هدى) اي طريق (مستقيم) لا عوج فيه (وان جادلوك) اي وان ابوا الا الجدال بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم (فقل الله أعلم بما تعملون) فكل امرهم الى الله وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد (الله يحكم بينكم) أي بين المسلمين والكافرين (يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) من امر الدين فيتبين حينئذ الحق من الباطل وفي هذه الآية تعليم لهذه الامة بما ينبغي لهم ان يجيبوا به من اراد الجدال بالباطل وقيل انها منسوخة بآية السيف وهذا انما يصح اذا كان المراد من قوله وان جادلوك الكف عن قتالهم وهو غير متعين بل يصح ان يكون المعنى فاترك جدالهم وفوض الامر الى الله فيكون هذا وعيدا لهم على اعمالهم وهذا المعنى لا تنسخه آية السيف بل هو باق بعد مشروعية القتال لعدم المنافاة (ألم تعلم) مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها والاستفهام للتقرير اي قد علمت يامحمد وتيقنت (ان الله يعلم ما في السماء والارض) ومن جملة ذلك ما انتم عليه من الاختلاف (ان ذلك) الذي في السماء والارض من معلوماته (في كتاب) اي مكتوب عنده في ام الكتاب اخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة مائة عام وقال للقلم قبل ان يخلق الخلق وهو على عرشه اكتب قال ما اكتب قال علمي في خلقي الى يوم تقوم الساعة فجرى القلم بما هو كائن في علم الله الى يوم القيامة فذلك قوله سبحانه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ألم تعلم ان الله يعلم ما في السماء والارض يعني ما في السموات السبع والارضين السبع ان ذلك

والارض وما بينهما أى خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذى لا معقب لحكمه فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا قال على بن ابى طلحة عن ابن عباس هل تعلم للرب مثلا أو شبيها وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم وقال عكرمة عن ابن عباس ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه (ويقول الانسان أئذا مامت لسوف اخرج حيا أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيأ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا ثم لنحن أعلم بالذين هم اولى بها صليا) يخبر تعالى عن الانسان انه يتعجب ويستبعد اعادته بعد موته كما قال تعالى وان تعجب فعجب قولهم ائذا كنا ترابا ائنا لفى خلق جديد وقال اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم وقال ههنا ويقول الانسان أئذا مامت لسوف اخرج حيا أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيأ يستدل تعالى بالبداءة على الاعادة يعنى انه تعالى قد خلق الانسان ولم يك شيأ أفلا يعيده وقد صار شيأ كما قال تعالى وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وفى الصحيح يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى أما تكذيبه اياى فقوله ان يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق باهون على من آخره وأما اذاه اياى فقوله ان لى ولدا وأنا الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقوله فوربك لنحشرنهم والشياطين أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة انه لابد ان يحشرهم جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا قال العوفى عن ابن عباس يعنى قعودا كقوله وترى كل أمة جاثية وقال السدى فى قوله جثيا يعنى قياما وروى عن مرة عن ابن مسعود مثله وقوله ثم لننزعن من كل شيعة يعنى من كل أمة قاله مجاهد أيهم أشد على الرحمن عتيا قال الثورى عن على بن الاقمر عن أبى الاحوص عن ابن مسعود قال يحبس الاول على الآخر حتى اذا تكاملت العدة أتاهم جميعا ثم بدأ بالاكابر فالاكابر جرما وهو قوله ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا وقال قتادة ثم لننزعن من كل شيعة ايهم أشد على الرحمن عتيا قال ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر وكذا قال ابن جرير وغير واحد من السلف وهذا كقوله تعالى حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار الى قوله بما كنتم تكسبون وقوله ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر والمراد انه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد ان يصلى بنار جهنم ويخلد فيها وبمن يستحق تضعيف العذاب

العلم فى كتاب يعنى فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل ان يخلق السموات والارضين (ان ذلك) يعنى ان الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه (على الله يسير) أى هين أو ان احاطة علمه بما فى السماء والارض جملة وتفصيلا يسير عليه وان تعذر على الخلق (ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا) هذا حكاية لبعض فضائحهم أى انهم يعبدون اصناما لم يتمسكوا فى عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه فهو نفى للدليل السمعى (وما ليس لهم به علم) من دليل عقلى يدل على جواز ذلك بوجه من الوجوه (وما للظالمين) بالاشراك (من نصير) ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله وقد تقدم الكلام على هذه الآية فى آل عمران (واذا تتلى عليهم آياتنا) من القرآن (بينات) أى حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) أى الامر الذى ينكر وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها والمراد بالمنكر الانكار أى تعرف فى وجوههم انكارها والمنكر مصدر وقيل هو التجبر والترفع وهذا من ايقاع الظاهر موقع المضمر للشهادة عليهم بوصف الكفر (يكادون يسطون) السطو الوثب والبطش والسطوة شدة البطش يقال سطا به يسطو اذا بطش به بضرب أو شتم أو أخذ باليد وأصل السطو القهر وقال ابن عباس أى يبطشون (بالذين يتلون عليهم آياتنا) هم النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم والجملة مستأنفة كأنه قيل ماذلك المنكر الذى يعرف فى وجوههم فقيل يكادون يسطون وهكذا ترى أهل البدع المضلة اذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة مخالفا لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت فى وجهه من المنكر مالو تمكن من ان يسطو بذلك العالم لفعل به مالا يفعله بالمشركين وقد رأينا وسمعنا من ذلك من أهل البدع مالا يحيط به الوصف والله ناصر الحق ومظهر الدين ومدحض الباطل ودامغ البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس ما نزل اليهم وهو حسبنا ونعم الوكيل ثم أمر رسوله ان يرد عليهم

كما قال في الآية المتقدمة قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون (وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) قال الامام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا خالد بن سليمان عن كثير بن زياد البرساني عن أبي سمية قال اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم يدخلونها جميعا ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له انا اختلفنا في الورود فقال يردونها جميعا وقال سليمان مرة يدخلونها جميعا وأهوى باصبعيه الى اذنيه وقال صمتا ان لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على ابراهيم حتى ان للنار ضجيجا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا غريب ولم يخرجوه وقال الحسن بن عرفة حدثنا مروان بن معاوية عن بكار بن أبي مروان عن خالد بن معدان قال قال اهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة الم يعدنا ربنا الورود على النار قال قد مررتم عليها وهي خامدة وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن اسمعيل بن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم قال كان عبد الله بن رواحة واضعا رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته قال ما يبكيك قالت رأيتك تبكي فبكيت قال اني ذكرت قول الله عز وجل وان منكم الا واردها فلا أدري أنجو منها أم لا وفي رواية وكان مريضا وقال ابن جرير حدثنا ابو كريب حدثنا ابن يمان عن مالك بن مغول عن أبي اسحق كان أبو ميسرة اذا أوى الى فراشه قال يا ليت امي لم تلدني ثم يبكي فقيل له ما يبكيك يا أبا ميسرة فقال اخبرنا انا واردوها ولم نخبر انا صادرون عنها وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري قال قال رجل لاخيه هل أتاك بانك وارد النار قال نعم قال فهل اتاك انك صادر عنها قال لا قال ففيم الضحك قال فما رؤي ضاحكا حتى لحق بالله وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا ابن عيينة عن عمرو أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الازرق فقال ابن عباس الورود الدخول فقال نافع لا فقرأ ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون وردوا ام لا وقال يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار وردوا ام لا اما انا وانت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع وروى ابن جرير عن عطاء قال قال أبو راشد الحروري وهو نافع ابن الازرق لا يسمعون حسيسها فقال ابن عباس ويلك أمجنون انت أين قوله يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وان منكم الا واردها والله ان كان دعاء من مضى اللهم أخرجني من النار سالما وأدخلني الجنة غانما وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبيد المحاربي حدثنا أسباط عن عبد الملك عن عبيد الله عن مجاهد قال كنت عند ابن عباس فاتاه رجل يقال له أبو راشد وهو نافع بن الازرق فقال له يا ابن

فقال (قل أفأنبئكم) أي أخبركم (بشر من ذلكم) الذي فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب وهو (النار) التي (وعدها الله الذين كفروا) وقيل المعنى افاخبركم بشر مما يلحق تالي القرآن منكم من الاذى والتوعد لهم والتوثب عليهم وقرئ النار بالحركات الثلاث (وبئس المصير) أي الموضع الذي يصيرون اليه وهو النار (يا أيها الناس ضرب مثل) هذا متصل بقوله ويعبدون من دون الله وانما قال ضرب مثل لان حجج الله عليهم بضرب الامثال لهم أقرب الى افهامهم قال ابن عباس نزلت في صنم قال الاخفش ليس ثم مثل وانما المعنى ضربوا الى مثلا قال النحاس المعنى ضرب الله عز وجل لما يعبدونه من دونه مثلا قال وهذا من أحسن ما قيل فيه أي بين الله لكم شبها ولمعبودكم وقال القتيبي معنى ضرب مثل أي عبدت آلهة لم تستطع ان تخلق ذبابا وأصل المثل جملة من الكلام متلقاة بالرضاء والقبول مسيرة في الناس مستغربة عندهم وجعلوا مضربها مثلا لموردها ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها في الغرابة كهذه القصة المذكورة في هذه الآية (فاستمعوا له) أي لضرب هذا المثل وتدبروه حق تدبره فان الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع والمعنى ان الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره فكأنه قال جعلوا لي شبيها في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه ثم بين حالها وصفتها فقال (ان الذين تدعون من دون الله) المراد بهم الاصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها وقيل المراد بهم السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحل والعقد فيهم وقيل الشياطين الذين حملوهم على معصية الله والاول أوفق بالمقام واظهر في التمثيل (لن يخلقوا ذبابا) واحدا مع ضعفه وصغره وقلته وهو اسم للواحد يطلق على الذكر والانثى وجمع القلة اذبة والكثرة ذبان بالكسر مثل غراب وأغربة وغربان وبالضم كقضبان وقال الجوهري الذباب معروف الواحد ذبابة وسمي ذبابا لانه كلما ذب لاستقذاره آب لاستكباره ولن لتأكيد النفي المستقبل وتأكيده هنا للدلالة

عباس أرأيت قول الله وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا قال اما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها ام لا وقال أبو داود الطيالسي قال شعبة وأخبرني عبد الله بن السائب عمن سمع ابن عباس يقرؤها وان منهم الا واردها يعني الكفار وهكذا روى عمر بن الوليد البستي انه سمع عكرمة يقرؤها كذلك وان منهم الا واردها قال وهم الظلمة كذلك كنا نقرؤها رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال العوفي عن ابن عباس قوله وان منكم الا واردها يعني البر والفاجر ألا تسمع الى قول الله لفرعون يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار الآية ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فسمى الورود في النار دخولا وليس بصادر وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن عن اسرائيل عن السدي عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود وان منكم الا واردها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها باعمالهم ورواه الترمذي

عن عبد بن حميد عن عبيد الله عن اسرائيل عن السدي به ورواه من طريق شعبة عن السدي عن مرة عن ابن مسعود مرفوعا هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعا وقد رواه اسباط عن السدي عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال يرد الناس جميعا الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يصدرون على الصراط باعمالهم فمنهم من يمر مثل البرق ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير ومنهم من يمر كاجود الخيل ومنهم من يمر كاجود الابل ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى ان آخرهم مرا رجل نوره على موضع ابهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القتاد حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس وذكر تمام الحديث رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثنا خلاد بن مسلم حدثنا النضر حدثنا اسرائيل أخبرنا أبو اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله قوله وان منكم الا واردها قال الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الاولى كالبرق والثانية كالريح والثالثة كاجود الخيل والرابعة كاجود البهائم ثم يمرون والملائكة يقولون اللهم سلم سلم ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن الجريري عن أبي السليل عن غنيم بن قيس قال ذكروا ورود النار فقال كعب تمسك النار للناس كأنها متن اهالة حتى يستوي عليها أقدام الخلائق برهم وفاجرهم ثم يناديها مناد أن امسكي أصحابك ودعي أصحابي قال فتخسف بكل ولي لها هي أعلم بهم من الرجل بولده ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم قال كعب ما بين منكبي الخازن من خزنتها مسيرة سنة مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين يدفع به الدفع فيصرع به في النار سبعمائة ألف وقال الامام أحمد حدثنا ابو معاوية حدثنا الاعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر

للدلالة على ان خلق الذباب منهم مستحيل كأنه قال محال ان يخلقوا وتخصيص الذباب لمهانته واستقذاره والمعنى لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات وهو أجهل الحيوانات لانه يرمي نفسه في المهلكات ومدة عيشه أربعون يوما وأصل خلقته من العفونات ثم يتوالد بعضه من بعض يقع روثه على الشيء الابيض فيرى أسود وعلى الاسود فيرى أبيض (ولو اجتمعوا له) أي لخلق الذباب والتقدير ان يخلقوه على كل حال ولو في هذه الحالة المقتضية لجمعهم فكأنه تعالى قال ان هذه الاصنام ان اجتمعت لا تقدر على خلق ذبابة على ضعفها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا كما أشار اليه في التقرير ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال (وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه) أي اذا أخذ واختطف منهم هذا الخلق الاقل الارذل شيأ من الاشياء بسرعة لا يقدرون على تخليصه منه لكمال عجزهم وفرط ضعفهم والاستنقاذ والانقاذ التخليص واذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف وعن استنقاذ ما أخذه منهم فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرما وأشد منه قوة أعجز وأضعف قال عكرمة أي لا تستنقذ الاصنام ذلك الشيء ثم عجب سبحانه من ضعف الاصنام والذباب فقال (ضعف الطالب والمطلوب) فالصنم كالطالب من حيث انه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه والمطلوب الذباب وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ولو حققت وجدت الطالب أضعف فان الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب وقيل الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم قال ابن عباس الطالب آلهتهم والمطلوب الذباب ثم بين سبحانه ان المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة الى هذه الغاية في العجز ما عرفوا الله حق معرفته فقال (ما قدروا الله حق قدره) أي ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذه الاصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال وقد تقدم في الانعام (ان الله لقوي) على خلق كل شيء (عزيز) غالب لا يغالبه أحد بخلاف آلهة المشركين فانها اجماد لا يعقل ولا ينفع

عن حفصة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأرجو ان لا يدخل النار ان شاء الله أحد شهد بدرا والحديبية قالت فقلت أليس الله يقول وان منكم الا واردها قالت فسمعته يقول ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا وقال أحمد أيضا حدثنا ابن ادريس حدثنا الاعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة فقال لا يدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية قالت حفصة أليس الله يقول وان منكم الا واردها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ننجي الذين اتقوا الآية وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار الا تحلة القسم وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرني الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من مات له ثلاثة لم تمسه النار

الا تحلة القسم يعني الورود وقال أبو داود الطيالسي حدثنا زمعة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فتمسه النار الا تحلة القسم قال الزهري كأنه يريد هذه الآية وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا وقال ابن جرير حدثني عمران بن بكار الكلاعي حدثنا أبو المغيرة حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم حدثنا اسمعيل بن عبيد الله عن أبي صالح عن أبي هريرة قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود رجلا من أصحابه وعك وأنا معه ثم قال ان الله تعالى يقول هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن ليكون حظه من النار في الآخرة غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه وحدثنا أبو كريب حدثنا أبو اليمان عن عثمان ابن الاسود عن مجاهد قال الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ وان منكم الا واردها وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا آخر زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرا في الجنة فقال عمر اذا نستكثر يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكثر وأطيب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ان شاء الله ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعا لا بأجر سلطان لم ير النار بعينيه الا تحلة القسم قال الله تعالى وان منكم الا واردها وان الذكر في سبيل الله يضاعف فوق النفقة بسبعمائة ضعف وفي رواية بسبعمائة ألف ضعف وروى أبو داود عن أبي الطاهر عن ابن وهب وعن يحيى بن أيوب كلاهما عن زبان عن سهل عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الصلاة

ولا يضر ولا يقدر على شيء ثم أراد سبحانه ان يرد عليهم ما يعتقدونه في النبوات والالهيات فقال (الله يصطفي من الملائكة رسلا) كجبريل واسرافيل وميكائيل وعزرائيل والحفظة (و) يصطفي أيضا رسلا (من الناس) وهم الانبياء فيرسل الملك الى النبي والنبي الى الناس أو يرسل الملك بقبض أرواح مخلوقاته أو لتحصيل ما ينفعه أو لانزال العذاب عليهم أخرج الحاكم وصححه عن عكرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله اصطفى موسى بالكلام وابراهيم بالخلة وأخرج عن أنس وصححه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال موسى بن عمران صفي الله قال المحلى نزل لما قال المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا أي وليس بأكبرنا ولا أشرفنا والقائل هو الوليد بن المغيرة ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها انه لما ذكر ما يتعلق بالالهيات ذكر ههنا ما يتعلق بالنبوات وقال الرازي وجه المناسبة انه لما أبطل فيما قبلها عبادة الاوثان أبطل ههنا عبادة الملائكة (ان الله سميع) لاقوال عباده (بصير) بمن يختاره من خلقه (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أي ما قدموا من الاعمال وما يتركونه من الخير والشر كقوله تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم وقيل ما مضى ولم يأت وقيل ما عملوا وما سيعملوه أو أمر الدنيا وأمر الآخرة (والى الله) لا الى غيره (ترجع الامور) لما تضمن ما ذكره من ان الامور ترجع اليه الزجر لعباده عن معاصيه والحض لهم على طاعاته صرح بالمقصود فقال (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) أي صلوا الصلاة التي شرعها الله لكم لأن الصلاة لا تكون الا بالركوع والسجود وخص الصلاة لكونها أشرف العبادات ثم عمم فقال (واعبدوا ربكم) أي افعلوا جميع أنواع العبادة التي أمركم الله بها وقيل وحدوه (وافعلوا الخير) أي ما هو خير وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة وقيل المراد بالخير هنا المندوبات ثم علل ذلك بقوله (لعلكم تفلحون) أي اذا فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح وفي هذا اشارة الى ان دخول الجنة ليس مرتبا على هذه الاعمال مثلا بل هذه أمور كلفنا الله بها شرعا وأما قبولها فشيء

والصيام والذكر يضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قوله وان منكم الا واردها قال هو الممر عليها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله وان منكم الا واردها قال ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين ان يدخلوها وقال النبي صلى الله عليه وسلم الزالون والزالات يومئذ كثير وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم وقال السدي عن مرة عن ابن مسعود في قوله كان على ربك حتما مقضيا قال قسما واجبا وقال مجاهد حتما قال قضاء وكذا قال ابن جريج وقوله ثم ننجي الذين اتقوا أي اذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقا كثيرا قد أكلتهم النار الا دارات وجوههم وهي مواضع السجود واخراجهم اياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الايمان فيخرجون أولا من كان في قلبه مثقال دينار من ايمان ثم الذي يليه ثم الذي يليه ثم الذي يليه حتى يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من ايمان ثم يخرج الله من النار من قال يوما من الدهر لا اله الا الله وان لم يعمل خيرا قط ولا يبقى في النار الا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الاحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان انهم يصدون ويعرضون عن ذلك ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بانهم خير مقاما وأحسن نديا أي أحسن منازل وارفع دورا وأحسن نديا وهو مجتمع الرجال للحديث أي ناديهم أعمر وأكثر واردا وطارقا يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الارقم بن أبي الارقم ونحوها من الدور على الحق كما قال تعالى مخبرا عنهم وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه وقال قوم نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون وقال تعالى وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ولهذا قال تعالى رادا عليهم شبهتهم وكم أهلكنا قبلهم من قرن أي وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم هم أحسن أثاثا ورئيا أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالا وأمتعة ومناظر واشكالا قال الاعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس خير مقاما وأحسن

آخر يتفضل الله به علينا وهذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعي ومن وافقه لا عند أبي حنيفة ومن قال بقوله وقد تقدم ان هذه السورة فضلت بسجدتين وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية وقد اختلف في عدة سجود التلاوة فذهب أكثر أهل العلم الى انها أربع عشرة سجدة لكن الشافعي رحمه الله تعالى قال في الحج سجدتان وأسقط سجدة ص وقال أبو حنيفة في الحج سجدة وأثبت سجدة ص وقيل خمس عشرة سجدة وقال قوم ليس في المفصل سجدة فعلى هذا تكون احدى عشرة سجدة وسجود التلاوة سنة عند الشافعي وواجب عند أبي حنيفة ودلائل الاقوال مبسوطة في مواطنها ثم أمرهم بما هو سنام الدين وأعظم أعماله فقال (وجاهدوا في الله) أي في ذاته ومن أجله والمراد به الجهاد الاكبر وهو الغزو للكفار ومدافعتهم اذا غزوا بلاد المسلمين وقيل المراد بالجهاد هنا امتثال ما أمرهم الله به في الآية المتقدمة وامتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم ومعنى (حق جهاده) المبالغة في الامر بهذا الجهاد باستفراغ الطاقة لانه أضاف الحق الى الجهاد والاصل اضافة الجهاد الى الحق أي جهادا خالصا لله فعكس ذلك لقصد المبالغة وأضاف الجهاد الى الضمير اتساعا أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولا له ومن أجله وقيل المراد بحق جهاده هو ان لا يخافوا في الله لومة لائم وقيل المراد باستفراغ ما في وسعهم في احياء دين الله وقال مقاتل والكلبي ان الآية منسوخة بقوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم كما ان قوله اتقوا الله حق تقاته منسوخ بذلك ورد ذلك بان التكليف مشروط بالقدرة فلا حاجة الى المصير الى النسخ عن عبد الرحمن بن عوف قال قال لي عمر ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ وجاهدوا في الله حق جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله قلت بلى فمتى هذا يا أمير المؤمنين قال اذا كانت بنو أمية الامراء وبنو المغيرة الوزراء وأخرج الترمذي وصححه وابن حبان عن فضالة بن عبيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله (هو

ندیا قال المقام المنزل والندى المجلس والاثاث المتاع والرئى المنظر وقال العوفي عن ابن عباس المقام المسكن والندى المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها وهو كما قال الله لقوم فرعون حين اهلكهم وقص شأنهم في القرآن كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم فالمقام المسكن والنعيم والندى المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط وتأتون في ناديكم المنكر والعرب تسمي المجلس النادي وقال قتادة لما رأوا اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في عيشهم خشونة وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك ما تسمعون أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا وكذا قال مجاهد والضحاك ومنهم من قال في الاثاث هو المال ومنهم من قال الثياب ومنهم من قال المتاع والرئى المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد وقال الحسن البصري يعني الصور (٢١٦) وكذا قال مالك اثاثا ورئيا اكثر اموالا واحسن صورا والكل متقارب صحيح (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى اذا رأوا ما يوعدون اما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا واضعف جندا) يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين انهم على الحق وانكم على الباطل من كان في الضلالة اى منا ومنكم فليمدد له الرحمن مدا اى فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضي اجله اما بعذاب يصيبه واما الساعة بغتة تأتيه فسيعلمون حينئذ من هو شر مكانا وأضعف جندا في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى قال مجاهد في قوله فليمدد له الرحمن مدا فليدعه الله في طغيانه هكذا قرر ذلك ابو جعفر بن جرير رحمه الله وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون انهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين اى ادعوا بالموت على المبطل منا او منكم ان كنتم تدعون انكم على الحق فانه لا يضركم الدعاء فنكلوا عن ذلك وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة مبسوطا ولله الحمد وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم ان عيسى ولد الله وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى وانه مخلوق كآدم قال تعالى بعد ذلك فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين فنكلوا ايضا عن ذلك (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا) لما ذكر تعالى امداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه اخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول ايكم

اجتباكم) أي اختاركم لدينه وفيه تشريف لهم عظيم ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال (وما جعل عليكم في الدين من حرج) أي من ضيق وشدة وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه الله فقيل هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وما ملكت اليمين وقيل المراد قصر الصلاة والافطار للمسافر والصلاة بالايماء على من لا يقدر على غيره واسقاط الجهاد عن الاعرج والاعمى والمريض وأكل الميتة عند الضرورة واغتفار الخطا في تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الاهلة وكذا في الفطر والاضحى وقيل المعنى انه سبحانه ما جعل عليهم حرجا بتكليف ما يشق عليهم ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ورفع عنهم التكاليف التي فيها حرج فلم يتعبدهم بها كما تعبد بها بني اسرائيل وقيل المراد بذلك انه جعل لهم من الذنب مخرجا بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والارش أو القصاص في الجنايات ورد المال أو مثله أو قيمته في الغصب ونحوه فليس في دين الاسلام ما لا يجد العبد فيه سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب وقيل المراد بالدين التوحيد ولا حرج فيه بل فيه تخفيف فانه يكفر ما قبله من الشرك وان امتد ولا يتوقف الاتيان به على زمان أو مكان معين وفي القرطبي قال العلماء رفع الحرج انما هو لمن استقام على منهاج الشرع واما السراق واصحاب الحدود فعليهم الحرج وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين وليس في الشرع أعظم حرجا من الزام ثبات رجل لاثنين في سبيل الله لكنه مع صحة اليقين وجودة العزم ليس بحرج انتهى والمعنى الاول أولى والظاهر ان الآية أعم من هذا كله فقد حط سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده اما باسقاطها من الاصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم أو بالتخفيف وتجويز العدول الى بدل لا مشقة فيه أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله وما انفع هذه الآية وأجل موقعها وأعظم فائدتها ومثلها قوله سبحانه فاتقوا الله ما استطعتم وقوله يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقوله ربنا ولا تحمل

زادته هذه إيمانا الآيتين وقوله والباقيات الصالحات قد تقدم تفسيرها والكلام عليها وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف خير عند ربك ثوابا أي جزاء وخير مردا أي عاقبة ومردا على صاحبها وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر بن راشد عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأخذ عودا يابسا فحط ورقه ثم قال إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة قال أبو سلمة فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال لأهللن الله ولأكبرن الله ولأسبحن الله حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون وهذا ظاهره أنه مرسل ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة عن أبي الدرداء والله أعلم وهكذا وقع في سنن ابن ماجه من حديث أبي معاوية عن عمر بن راشد عن يحيى عن أبي سلمة عن أبي الدرداء فذكر نحوه (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا) قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق عن خباب بن الأرت قال كنت رجلا قينا وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث قال فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك فأنزل الله أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا إلى قوله ويأتينا فردا أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما من غير وجه عن الأعمش به وفي لفظ البخاري كنت قينا بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئت أتقاضاه فذكر الحديث وقال أم اتخذ عند الرحمن عهدا قال موثقا وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال قال خباب بن الأرت كنت قينا بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل فاجتمعت لي عليه دراهم فجئت لأتقاضاه فقال لي لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث قال فإذا بعثت كان لي مال وولد قال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله أفرأيت الذي كفر بآياتنا الآيات وقال العوفي عن ابن عباس أن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين فأتوه يتقاضونه فقال ألستم تزعمون أن في الجنة ذهبا وفضة وحريرا ومن كل الثمرات قالوا بلى قال فإن موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالا وولدا ولأوتين

علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال قد فعلت كما سبق بيانه في تفسير هذه الآية والأحاديث في هذا كثيرة وعن عائشة أنها سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية فقال الضيق وقال أبو هريرة لابن عباس أما علينا في الدين من حرج في أن نسرق أو نزني قال بلى قال فما هذه الآية قال الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم وعن ابن عباس كان يقول وما جعل عليكم في الدين من حرج توسعة الإسلام وما جعل الله من التوبة والكفارات وعنه قال هذا في هلال رمضان إذا شك فيه الناس وفي الحج إذا شكوا في الأضحى وفي الفطر وأشباهه وعنه سئل عن الحرج فقال ادع لي رجلا من هذيل فجاءه فقال ما الحرج فيكم قال الحرجة من الشجر التي ليس فيها مخرج فقال ابن عباس الذي ليس له مخرج وفي لفظ قال الهذلي الشيء الضيق قال هو ذاك وعن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ثم قال ادع لي رجلا من بني مدلج وقال ما الحرج فيكم قال الضيق (ملة أبيكم إبراهيم) أي وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم قاله الزمخشري وقال الزجاج المعنى اتبعوا ملة أبيكم وبه قال الحوفي وتبعه أبو البقاء وقال الفراء كملة أبيكم وقيل التقدير وافعلوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم فأقام الملة مقام الفعل وقيل النصب على الإغراء وقيل على الاختصاص أي أعني بالدين ملة أبيكم وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أبا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال السدي ملة أبيكم أي دين أبيكم (هو سماكم المسلمين من قبل) أي قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة قال ابن عباس الله عز وجل سماكم وروي نحوه عن جماعة من التابعين وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه والترمذي وصححه والنسائي والبيهقي وغيرهم عن الحرث الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم قال رجل يا رسول الله وإن صام وصلى قال نعم فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها

مثل كتابكم الذي جئتم به فضرب الله مثلا في القرآن فقال أفرأيت الذي كفر بآياتنا الى قوله ويأتينا فردا وهكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم انها نزلت في العاص بن وائل وقوله لأوتين مالا وولدا قرأ بعضهم بفتح الواو من ولدا وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه قال رؤبة

الحمد لله العزيز فردا * لم يتخذ من ولد شيء ولدا

وقال الحرث بن حلزة

ولقد رأيت معاشرا * قد ثمروا مالا وولدا

وقال الشاعر

فليت فلانا كان في بطن أمه * وليت فلانا كان ولد حماره

وقيل ان الولد بالضم جمع والولد بالفتح مفرد وهي لغة قيس والله أعلم وقوله اطلع الغيب انكار على هذا القائل لأوتين مالا وولدا يعني يوم القيامة أي أعلم ماله في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك ام اتخذ عند الرحمن عهدا أم له عند الله عهدا

سيؤتيه ذلك وقد تقدم عند البخاري انه الموثق وقال الضحاك عن ابن عباس اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا قال لا اله الا الله فيرجو بها وقال محمد بن كعب القرظي الامن اتخذ عند الرحمن عهدا قال شهادة ان لا اله الا الله ثم قرأ الامن اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله كلا هي حرف ردع لما قبلها وتأكيد لما بعدها سنكتب ما يقول أي من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما تمناه وكفره بالله العظيم ونمد له من العذاب مدا أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا ونرثه ما يقول أي من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال انه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولدا زيادة على الذي له في الدنيا بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا ولهذا قال تعالى ويأتينا فردا أي من المال والولد قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ونرثه ما يقول قال نرثه وقال مجاهد ونرثه ما يقول ماله وولده وذلك الذي قال العاص بن وائل وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ونرثه ما يقول قال ما عنده وهو قوله لأوتين مالا وولدا وفي حرف ابن مسعود ونرثه ما عنده وقال قتادة ويأتينا فردا لا مال له ولا ولدا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ونرثه ما يقول قال ما جمع من الدنيا وما عمل فيها قال ويأتينا فردا قال فردا من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا) يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم انهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الالهة عزا يعتزون بهم ويستنصرونهم ثم اخبر انه ليس الامر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا فقال كلا سيكفرون بعبادتهم أي يوم

المسلمين والمؤمنين عباد الله وقيل ان الكناية راجعة الى ابراهيم يعني ابراهيم سماكم المسلمين في ايامه من قبل هذا الوقت وهو قوله ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله دعاءه فينا (وفي هذا) أي في حكمه ان من اتبع محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فهو مسلم قال النحاس وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة وقيل أي في القرآن يعني فضلكم على سائر الامم وسماكم بهذا الاسم الاكرم ثم علل سبحانه ذلك بقوله (ليكون الرسول شهيدا عليكم) يوم القيامة بتبليغه اليكم (وتكونوا) أنتم (شهداء على الناس) ان رسلهم قد بلغتهم فان تسمية الله أو ابراهيم لهم بحكم باسلامهم وعدالتهم وهو سبب لقبول شهادة الرسول الداخل فيهم دخولا أوليا وقبول شهادتهم على الامم قاله الشهاب وقد تقدم بيان معنى هذه الآية في البقرة ثم أمرهم بما هو أعظم الاركان الاسلامية فقال (فأقيموا الصلاة) بواجباتها وداوموا عليها (وآتوا الزكاة) بشرائطها وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما (واعتصموا بالله) أي اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون والتجئوا اليه في جميع أحوالكم ولا تطلبوا ذلك الا منه وقيل الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة وقيل تمسكوا بدين الله وقيل ثقوا به تعالى في مجامع أموركم (هو مولاكم) أي ناصركم ومتولي أموركم دقيقها وجليلها (فنعم المولى) هو (ونعم النصير) أي الناصر لكم هو يعني لا مماثل له في الولاية لاموركم والنصرة على أعدائكم

*(سورة المؤمنين)

قال القرطبي كلها مكية في قول الجميع أي بلا خلاف وآياتها مائة وتسع عشرة آية عند البصريين ومائة وثماني عشرة آية عند الكوفيين وسبب هذا الاختلاف فيهم في قوله ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين هل هو آية أو بعض آية وقد أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن عبد الله بن السائب قال صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة الصبح فاستفتح سورة المؤمنين حتى اذا جاء ذكر موسى وهرون أو ذكر

القيامة ويكونون عليهم ضدا أي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقرأ أبو نهيك كل سيكفرون بعبادتهم وقال السدي كلا سيكفرون بعبادتهم أي بعبادة الاوثان وقوله ويكونون عليهم ضدا أي بخلاف ما رجوا منهم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ويكونون عليهم ضدا قال أعوانا قال مجاهد عونا عليهم تخاصمهم وتكذبهم وقال العوفي عن ابن عباس ويكونون عليهم ضدا قال قرناء وقال قتادة قرناء في النار يلعن بعضهم بعضا ويكفر بعضهم ببعض وقال السدي ويكونون عليهم ضدا قال الخصماء الأشداء في الخصومة وقال الضحاك ويكونون عليهم ضدا قال أعداء وقال ابن زيد الضد البلاء وقال عكرمة الضد الحسرة وقوله ألم تر

انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس تغويهم اغواء وقال العوفي عنه تحرضهم على محمد وأصحابه وقال مجاهد تشليهم اشلاء وقال قتادة تزعجهم ازعاجا الى معاصي الله وقال سفيان الثوري تغريهم اغراء وتستعجلهم استعجالا وقال السدي تطغيهم طغيانا وقال عبد الرحمن بن زيد هذا كقوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقوله فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم انما نعد لهم عدا أي انما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط وهم صائرون لا محالة الى عذاب الله ونكاله وقال ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون الآية فمهل الكافرين أمهلهم رويدا انما نملي لهم ليزدادوا اثما نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ قل تمتعوا فان مصيركم الى النار وقال السدي انما نعد لهم عد السنين والشهور والايام والساعات وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس انما نعد لهم عدا قال نعد أنفاسهم في الدنيا (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم وأطاعوهم فيما أمروهم به وانتهوا عما عنه زجروهم انه يحشرهم يوم القيامة وفدا اليه والوفد هم القادمون ركبانا ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة وهم قادمون على خير موفود اليه الى دار كرامته ورضوانه وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم فانهم يساقون عنفا الى النار وردا عطاشا قاله عطاء وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد وههنا يقال أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا ابن خالد عن

ذكر عيسى أخذته سعلة فركع وأخرج البيهقي من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال لما خلق الله الجنة قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون وقد ورد في فضائل العشر الآيات من أول هذه السورة ما سيأتي قريبا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد أفلح المؤمنون) قال الفراء قد لتأكيد فلاحهم وافادة ثبوت ما كان يتوقع الثبوت من قبل أو لتقريب الماضي من الحال ألا تراهم يقولون قد قامت الصلاة قبل حال قيامها والمعنى ان الفلاح قد حصل لهم وانهم عليه في الحال والفلاح الظفر بالمراد والفوز بالمرام والنجاة عن المكروه وقيل البقاء في الخير ويقال أفلح اذا دخل في الفلاح ويقال أفلحه اذا أصاره الى الفلاح وقد تقدم معنى الفلاح في البقرة وقرئ أفلح بناء للمفعول وقرئ أفلحوا على الابهام والتفسير أو على لغة أكلوني البراغيث وقد أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال كان اذا أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فأنزل الله عليه يوما فمكثنا ساعة فسري عنه فاستقبل القبلة فقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارضنا وارض عنا ثم قال لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر وفي اسناده يونس بن سليم قال النسائي لا نعرفه وعن يزيد بن بابنوس قال قلنا لعائشة كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت كان خلقه القرآن ثم قالت تقرأ سورة المؤمنين اقرأ قد أفلح المؤمنون حتى بلغ العشر فقالت هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله (الذين هم في صلاتهم خاشعون) وما عطف عليه والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ومنهم من جعله من افعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث وهو في اللغة السكون والتواضع والخوف والتذلل وقد اختلف الناس

عمرو بن قيس الملائي عن ابن مرزوق يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا قال يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها
وأطيبها ريحا فيقول من أنت فيقول أما تعرفني فيقول لا الا ان الله قد طيب ريحك وحسن وجهك فيقول أنا عملك الصالح
وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه فطالما ركبتك في الدنيا فهلم اركبني فيركبه فذلك قوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا
وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا قال ركبانا وقال ابن جرير حدثني ابن المثنى حدثنا ابن مهدي
عن سعيد عن اسمعيل عن رجل عن أبي هريرة يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا قال على الابل وقال ابن جريج على النجائب وقال
الثوري على الابل النوق وقال قتادة يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا قال الى الجنة وقال عبد الله بن الامام أحمد في مسند أبيه حدثنا
سويد بن سعيد أخبرنا علي بن مسهر عن

عبد الرحمن بن اسحق حدثنا النعمان بن سعيد قال كنا جلوسا
عند علي رضي الله عنه فقرأ هذه
الآية يوم نحشر المتقين الى الرحمن
وفدا قال لا والله ما على أرجلهم
يحشرن ولا يحشر الوفد على أرجلهم
ولكن نوق لم ير الخلائق مثلها عليها
رحائل من ذهب فيركبون عليها حتى
يضربوا أبواب الجنة وهكذا رواه
ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث
عبد الرحمن بن اسحق المدني به
وزاد عليها رحائل الذهب وأزمتها
الزبرجد والباقي مثله وروى ابن
أبي حاتم ههنا حديثا غريبا جدا
مرفوعا عن علي فقال حدثنا أبي
حدثنا أبو غسان مالك بن اسمعيل
المدني حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي
سمعت أبا معاذ البصري قال ان
عليا كان ذات يوم عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقرأ هذه الآية
يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا
فقال ما أظن الوفد الا الركب
يا رسول الله فقال النبي صلى الله
عليه وسلم والذي نفسي بيده انهم
اذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب شرك نعالهم نور التفاتهم
يتلألأ كل خطوة منها مد البصر فينتهون الى شجرة ينبع من أصلها عينان فيشربون من احداهما فتغسل ما في بطونهم من دنس
ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون أو فيأتون باب الجنة فاذا
حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين يا علي فيبلغ كل حوراء ان زوجها قد
أقبل فتبعث قيمها فيفتح له فاذا رآه خر له قال مسلمة اراه قال ساجدا فيقول ارفع رأسك فانما أنا قيمك وكلت بأمرك فيتبعه ويقفو
اثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه ثم تقول أنت حبي وأنا حبك وأنا الخالدة التي لا أموت
وأنا الناعمة التي لا أبأس وأنا الراضية التي لا أسخط وأنا المقيمة التي لا أظعن فيدخل بيتا من أسه الى سقفه مائة ألف ذراع بناؤه على

في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها على قولين قيل الصحيح الاول وقيل
الثاني وادعى عبد الواحد بن زيد اجماع العلماء على انه ليس للعبد الا ما عقل من صلاته
حكاه النيسابوري في تفسيره قال ومما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى أفلا يتدبرون
القرآن والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى وكذا قال أقم الصلاة لذكري والغفلة
تضاد الذكر ولهذا قال ولا تكن من الغافلين وقوله حتى تعلموا ما تقولون نهي للسكران
والمستغرق في هموم الدنيا بمنزلته أخرج البيهقي عن محمد بن سيرين قال نبئت ان رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فنزلت الذين هم في صلاتهم
خاشعون وزاد عبد الرزاق عنه فامره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده وأخرج الحاكم
وصححه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فنزلت هذه الآية
فطأطأ رأسه وعن علي قال الخشوع في القلب وأن تلين كتفك للمرء المسلم وان لا تلتفت
في صلاتك وقال ابن عباس خاشعون خائفون ساكنون وقيل خاضعون بالقلب ساكنون
بالجوارح فلا يلتفتون يمينا ولا شمالا وهذا من فروض الصلاة عند الغزالي وذهب بعضهم
الى انه ليس بواجب لان اشتراط الخضوع والخشوع مخالف لاجماع الفقهاء فلا يلتفت
اليه وقد ورد في مشروعية الخشوع في الصلاة والنهي عن الالتفات وعن رفع البصر الى
السماء أحاديث معروفة في كتب الحديث (والذين هم عن اللغو معرضون) قال الزجاج
اللغو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجمل من القول والفعل وقد تقدم تفسيره
في البقرة وقال الضحاك ان اللغو هنا الشرك وقال الحسن انه المعاصي كلها وقيل هو
معارضة الكفار بالسب والشتم وقال ابن عباس اللغو الباطل وقيل المراد باللغو كل
ما كان حراما أو مكروها أو مباحا لم تدع اليه ضرورة ولا حاجة والمعنى ان لهم من الجد
ما شغلهم عن الهزل وفي وصفهم بالخشوع أولا وبالاعراض ثانيا جمع لهم الفعل والترك
الشاقين على الانفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف ومعنى اعراضهم عنه تجنبهم له وعدم
التفاتهم

جندل اللؤلؤ طرائق أصفر وأحمر وأخضر ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها وفي البيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون حشية على كل حشية سبعون زوجة على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الحلل يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه الانهار من تحتهم تطرد أنهار من ماء غير آسن قال صاف لا كدر فيه وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ولم يخرج من ضروع الماشية وأنهار من خمر لذة للشاربين لم يعتصرها الرجال بأقدامها وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل فيستحلي الثمار فان شاء أكل قائما وان شاء قاعدا وان شاء متكئا ثم تلا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض وربما قال أخضر فترفع أجنحتها فيأكل من جنوبها أي الالوان شاء ثم يطير فيذهب فيدخل الملك فيقول سلام عليكم تلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ولو أن شعرة من شعر الحوراء رفعت

لاهل الارض لأضاءت الشمس معها سواد في نورها كذا وقع في هذه الرواية مرفوعا وقد رويناه في المقدمات من كلام علي رضي الله عنه بنحوه وهو أشبه بالصحة والله اعلم وقوله ونسوق المجرمين الى جهنم وردا أي عطاشا الا يملكون الشفاعة أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما قال تعالى مخبرا عنهم فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وقوله الا من اتخذ عند الرحمن عهدا هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا وهو شهادة أن لا اله الا الله والقيام بحقها قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الا من اتخذ عند الرحمن عهدا قال العهد شهادة أن لا اله الا الله ويبرأ الى الله من الحول والقوة ولا يرجو الا الله عز وجل وقال ابن أبي حاتم حدثنا عثمان بن خالد الواسطي حدثنا محمد بن الحسن الواسطي عن المسعودي عن عون بن عبد الله عن أبي فاختة عن الاسود بن يزيد قال قرأ عبد الله يعني ابن مسعود هذه الآية الا من اتخذ عند الرحمن عهدا ثم قال اتخذوا عند الله عهدا فان الله يقول يوم القيامة من كان له عند الله عهد فليقم قالوا يا أبا عبد الرحمن فعلمنا قال قولوا اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة فاني اعهد اليك في هذه الحياة الدنيا انك ان تكلني الى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير واني لا أثق الا برحمتك فاجعل لي عندك عهدا تؤديه الي يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد قال المسعودي فحدثني زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن أخبرنا ابن مسعود وكان يلحق بهن خائفا مستجيرا مستغفرا راهبا راغبا اليك ثم رواه من وجه آخر عن المسعودي بنحوه (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى

التفاتهم اليه وظاهره اتصافهم بصفة الاعراض عن اللغو في كل الاوقات فيدخل وقت الصلاة في ذلك دخولا أوليا كما تفيده الجملة الاسمية (والذين هم للزكاة فاعلون) أي يؤدونها فعبر عن التأدية بالفعل لانها مما يصدق عليه الفعل أو المراد بالزكاة هنا المصدر لانه الصادر عن الفاعل وقيل يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف أي والذين هم لتأدية الزكاة فاعلون أي داءبون (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة فهو اسم سوأتهما والمراد بحفظهم لها انهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحل لهم قيل والمراد هنا الرجال خاصة دون النساء بدليل قوله (الا على أزواجهم) الخ للاجماع على انه لا يحل للمرأة ان يطأها من تملكه قال الفراء على بمعنى من وقيل ان الاستثناء من نفي الارسال المفهوم من الحفظ أي لا يرسلونها على أحد الا على أزواجهم وقيل يلامون على كل مباشرة الا على ما أحل لهم فانهم غير ملومين عليه ودل على المحذوف ذكر اللوم في آخر الآية وقيل المعنى الا والين على أزواجهم وقوامين عليهم من قولهم كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان قاله الزمخشري والمعنى انهم لفروجهم حافظون في جميع الاحوال الا في حال تزوجهم أو تسريهم وجملة (أو ما ملكت أيمانهم) في محل جر والمراد بذلك الاماء وعبر عنهن بما التي لغير العقلاء لانه اجتمع فيهن الانوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهن كسائر السلع فأجراهن بهذين الامرين مجرى غير العقلاء ولهذا تباع كما تباع البهائم والمراد الاماء والجواري (فانهم غير ملومين) في اتيانهن بجماع أو غيره تعليل للاستثناء مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه (فمن ابتغى وراء) أي سوى (ذلك) من الزوجات وملك اليمين وقال الزجاج ما بعد ذلك (فأولئك هم العادون) أي المجاوزون الى ما لا يحل لهم فسمى سبحانه من نكح ما لا يحل عاديا وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة وعن القاسم بن محمد انه سئل عن المتعة فقال اني لأرى تحريمها في القرآن ثم تلا هذه الآية واستدل بها بعض

عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الانكار على من زعم أن له ولدا تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا فقال وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم أي في قولكم هذا شيئا إدا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك أي عظيما ويقال إدا بكسر الهمزة وفتحها ومع مدها أيضا ثلاث لغات أشهرها الاولى وقوله تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم اعظاما للرب واجلالا لانهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وانه لا اله الا هو وانه لا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا كفء له بل هو الاحد الصمد

وفي كل شيء له آية * تدل على انه الواحد قال ابن جرير حدثني علي حدثنا عبد الله حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس في قوله تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض

وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا قال ان الشرك فزعت منه السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت ان تزول منه لعظمة الله وكما لا ينفع مع الشرك احسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقنوا موتاكم شهادة ان لا اله الا الله فمن قالها عند موته وجبت له الجنة فقالوا يارسول الله فمن قالها في صحته قال تلك أوجب وأوجب ثم قال والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والارضين ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة ان لا اله الا الله في الكفة الاخرى لرجحت بهن هكذا رواه ابن جرير ويشهد له حديث البطاقة والله أعلم وقال الضحاك تكاد السموات يتفطرن منه أي يتشققن فرقا من عظمة الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وتنشق الارض أي غضبا لله عز وجل وتخر الجبال هدا قال ابن عباس هدما وقال سعيد بن جبير هدا ينكسر بعضها على بعض متتابعات وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا مسعر عن عون بن عبد الله قال ان الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل فيقول نعم ويستبشر قال عون لهي للخير اسمع فيسمعن الزور والباطل اذا قيل ولا يسمعن غيره ثم قرأ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا هوذة حدثنا عوف عن غالب بن عجرد حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال بلغني ان الله لما خلق الارض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الارض شجرة يأتيها بنو آدم الا أصابوا منها منفعة أو قال كان لهم فيها منفعة ولم تزل الارض والشجر بذلك حتى تكلم فجرة بني آدم بتلك الكلمة العظيمة قولهم اتخذ الرحمن ولدا فلما تكلموا بها اقشعرت الارض وشاك الشجر وقال كعب الاحبار غضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا ما قالوا وقال الامام

أهل العلم على تحريم الاستمناء لانه من الوراء المذكور فهو حرام عند الجمهور وقد جمع شيخنا الشوكاني في ذلك رسالة سماها بلوغ المنى في حكم الاستمنا وذكر فيها ادلة المنع والجواز وترجيح الراجح منهما (والذين هم لأماناتهم) قرئ بالجمع وقرأ ابن كثير بالافراد والامانة ما يؤتمنون عليه (وعهدهم) هو ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه أو من جهة عباده وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الانسان من أمر الدين والدنيا فلا يرد ما يقال كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبعة بالفلاح مع انه تعالى لم يتمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والامانة أعم من العهد فكل عهد أمانة (راعون) أي حافظون والراعي القائم على الشيء بحفظ واصلاح كراعي الغنم (والذين هم على صلواتهم) قرأ الجمهور بالجمع ومن قرأ بالافراد فقد أراد اسم الجنس وهو في معنى الجمع (يحافظون) المحافظة على الصلاة اقامتها والمحافظة عليها في أوقاتها واتمام ركوعها وسجودها وقراءتها والمشروع من اذكارها عن ابن مسعود أنه قيل له ان الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن الذين هم على صلاتهم دائمون والذين هم على صلاتهم يحافظون قال ذلك على مواقيتها قالوا ما كنا نرى ذلك الا على تركها قال تركها كفر وقد وصفهم أولا بالخشوع في الصلاة وآخرا بالمحافظة عليها فليس في الآية تكرار والطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات لكونها من شرائطها ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال (أولئك هم الوارثون) أي الاحقاء بان يسموا بهذا الاسم دون غيرهم لان ضمير الفصل يدل على التخصيص والحصر اضافي لا حقيقي لانه ثبت ان الجنة يدخلها الاطفال والمجانين والولدان والحور ويدخلها الفساق من اهل القبلة بعد العفو لقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء قاله الكرخي ثم بين الموروث بقوله (الذين يرثون الفردوس) لغة رومية معربة وقيل فارسية وقيل حبشية وقيل عربية وهو أوسط الجنة وأعلى الجنان كما صح تفسيره بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ان من عمل بما ذكر في هذه الآيات فهو الوارث الذي يرث من الجنة

أحمد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أحد اصبر على أذى سمعه من الله ان يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم أخرجاه في الصحيحين وفي لفظ انهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم وقوله وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا أي لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته لانه لا كفء له من خلقه لان جميع الخلائق عبيد له ولهذا قال ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا لقد احصاهم وعدهم عدا اى قد علم عددهم منذ خلقهم الى يوم القيامة ذكرهم وانثاهم وصغيرهم وكبيرهم وكلهم آتيه يوم القيامة فردا اى لا ناصر له ولا مجير الا الله وحده لا شريك له فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ولا يظلم أحدا

(ان الذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا (٢٢٣) فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) يخبر تعالى انه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات وهي الاعمال التي ترضى الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه وقد وردت بذلك الاحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير وجه قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا سهيل عن ابيه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال يا جبريل اني أحب فلانا فأحبه قال فيحبه جبريل قال ثم ينادي في أهل السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه قال فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الارض وان الله اذا أبغض عبدا دعا جبريل فقال يا جبريل اني أبغض فلانا فابغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء ان الله يبغض فلانا فابغضوه قال فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الارض ورواه مسلم من حديث سهيل ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن جريج عن موسى بن عتبة عن نافع مولى ابن عمر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ميمون أبو محمد المرائي حدثنا محمد بن عباد المخزومي عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليلتمس مرضاة الله عز وجل فلا يزال كذلك فيقول الله عز وجل لجبريل ان فلانا عبدي يلتمس ان يرضيني الا وان رحمتي عليه فيقول جبريل رحمة الله على فلان ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السموات السبع ثم تهبط الى الارض غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه وقال الامام أحمد

ذلك المكان وهذا بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد اطلاقها وتفسير لها بعد ابهامها وتفخيم لها ورفع لمحلها وهي استعارة لاستحقاقهم الفردوس باعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه وقيل المعنى انهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فرقوها على انفسهم لانه سبحانه خلق لكل انسان منزلا في الجنة ومنزلا في النار وعن أبي هريرة قال يرثون مساكنهم ومساكن اخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فاذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله أولئك هم الوارثون أخرجه ابن ماجه وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي وغيرهم وأخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وعبد بن حميد عن أنس فذكر قصة وفيها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها ويدل على هذه الوراثة المذكورة هاهنا قوله تعالى تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا وقوله تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ويشهد لحديث أبي هريرة هذا ما في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى وفي لفظ له قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان يوم القيامة دفع الله الى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فكاكك من النار (هم فيها خالدون) حالية أو مستأنفة لا محل لها ومعنى الخلود أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها وتأنيث الضمير مع انه راجع الى الفردوس لانه بمعنى الجنة ولما حث الله سبحانه عباده على العبادة ووعدهم الفردوس على فعلها وتضمن ذلك المعاد الأخروي عاد الى تقرير المبدا ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين فان الابتداء في العادة أصعب من الاعادة لقوله وهو أهون عليه وجملة ما ذكره من الدلائل انواع أربعة الاول الاستدلال بتقلب الانسان في أطوار الخلقة وهي تسعة آخرها تبعثون الثاني خلق السموات بقوله ولقد

حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن محمد بن سعد الواسطي عن أبي ظبية عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المقة من الله قال شريك هي المحبة والصيت من السماء فاذا أحب الله عبدا قال لجبريل عليه السلام اني أحب فلانا فينادي جبريل ان ربكم يمقه يعني يحب فلانا فاحبوه أرى شريكا قد قال فتنزل له المحبة في الارض واذا ابغض عبدا قال لجبريل اني أبغض فلانا فابغضه قال فينادي جبريل ان ربكم يبغض فلانا فابغضوه أرى شريكا قال فيجري له البغض في الارض غريب ولم يخرجوه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو داود الحفري حدثنا عبد العزيز يعني ابن محمد وهو الدراوردي عن سهيل ابن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبدا نادى جبريل اني قد احببت فلانا فاحبه فينادي في السماء ثم ينزل له المحبة في أهل الارض فذلك

قول الله عز وجل ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ورواه مسلم والترمذي كلاهما عن عبد الله عن قتيبة عن الدروادي به وقال الترمذي حسن صحيح وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله سيجعل لهم الرحمن ودا قال حبا وقال مجاهد عنه سيجعل لهم الرحمن ودا قال محبة في الناس في الدنيا وقال سعيد ابن جبير عنه يحبهم ويحببهم يعني الى خلقه المؤمنين كما قال مجاهد أيضا والضحاك وغيرهم وقال العوفي عن ابن عباس أيضا الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن واللسان الصادق وقال قتادة ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا أي والله في قلوب أهل الايمان ذكر لنا ان هرم بن حيان كان يقول ما أقبل عبد بقلبه الى الله الا أقبل الله بقلوب المؤمنين اليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم وقال قتادة وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول ما من عبد يعمل خيرا أو شرا الا كساه الله عز وجل رداء عمله وقال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن الربيع بن صبيح عن الحسن البصري وذلك رحمه الله قال قال رجل والله لاعبدن الله عبادة اذكر بها فكان لا يرى في حين صلاة الا قائما يصلي وكان أول داخل الى المسجد وآخر خارج فكان لا يعظم فمكث بذلك سبعة أشهر وكان لا يمر على قوم الا قالوا انظروا الى هذا المرائي فاقبل على نفسه فقال لا اراني أذكر الا بشر لاجعلن عملي كله لله عز وجل فلم يزد على ان قلب نيته ولم يزد على العمل الذي كان يعمله فكان يمر بعد بالقوم فيقولون رحم الله فلانا الآن الآن وتلا الحسن ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا وقد روى ابن جرير أثرا ان هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف وهو خطأ فان هذه السورة بكمالها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة ولم يصح سنده ذلك والله أعلم وقوله فانما يسرناه يعني القرآن بلسانك أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل لتبشر به المتقين أي

خلقنا فوقكم سبع طرائق الثالث انزال الماء بقوله وأنزلنا من السماء ماء الرابع الاستدلال باحوال الحيوانات بقوله وان لكم في الانعام لعبرة وأحوال الحيوان أربعة مذكورة في الآية فقال (ولقد) أي والله لقد (خلقنا الانسان) أي الجنس لانهم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم وقيل المراد به آدم (من سلالة) فعالة من السل وهو استخراج الشيء من الشيء والسلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر وقيل انما هي التراب الذي خلق آدم منه سلالة لانه سل من كل تربة يقال سللت الشعرة من العجين والسيف من الغمد فانسل فالنطفة سلالة والولد سليل وسلالة أيضا وقيل السلالة الطين اذا عصرته انسل من بين أصابعك فالذي يخرج هو السلالة قاله الكلبي وعن ابن عباس قال السلالة صفو الماء الرقيق الذي يكون منه الولد وعن ابن مسعود قال ان النطفة اذا وقعت في الرحم طارت في شعر وظفر فمكث أربعين يوما ثم ينحدر في الرحم فيكون علقة وللتابعين في تفسير السلالة أقوال قد قدمنا الاشارة اليها أي سلالة كائنة (من طين) من للبيان والمعنى انه سبحانه خلق جوهر الانسان أولا من طين لان الاصل آدم وهو من طين خالص وأولاده من طين ومني (ثم جعلناه) أي الجنس باعتبار افراده الذين هم بنو آدم أو جعلنا نسله على حذف مضاف ان أريد بالانسان آدم (نطفة) وقد تقدم تفسير النطفة في سورة الحج وكذلك تفسير العلقة والمضغة (في قرار مكين) المراد به الرحم وعبر عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغة واختلاف العواطف بثم والفاء لتفاوت الاستحالات يعني ان بعضها مستبعد حصوله مما قبله وهو المعطوف بثم فجعل الاستبعاد عقلا أو رتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسي لان حصول النطفة من اجزاء ترابية غريب جدا وكذا جعل النطفة البيضاء دما أحمر بخلاف جعل الدم لحما مشابها له في اللون والصورة وكذا تصليبها حتى تصير عظما لانه قد يحصل ذلك بالمكث فيما يشاهد وكذا مد لحم المضغة عليه ليستره فسقط ما قيل ان الوارد في الحديث ان مدة كل استحالة أربعون يوما

المستحيين لله المصدقين لرسوله وتنذر به قوما لدا أى عوجا عن الحق مائلين الى الباطل وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قوما لدا لا يستقيمون وقال الثورى عن اسمعيل وهو السدى عن أبى صالح وتنذر به قوما لدا عوجا عن الحق وقال الضحاك الالد الخصم وقال القرظى الالد الكذاب وقال الحسن البصرى قوما لدا صما وقال غيره صم آذان القلوب وقال قتادة قوما لدا يعنى قريشا وقال العوفى عن ابن عباس قوما لدا فجارا وكذا روى ليث بن أبى سليم عن مجاهد وقال ابن زيد الالد الظلوم وقرأ قوله تعالى وهو ألد الخصام وقوله وكم أهلكنا قبلهم من قرن أى من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا أى هل ترى منهم أحدا أو تسمع لهم ركزا قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة والحسن البصرى وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد يعنى صوتا وقال الحسن وقتادة هل ترى عينا أو تسمع صوتا والركز فى اصل اللغة هو الصوت الخفى قال الشاعر

فتوجست ركز الانيس فراعها
عن ظهر غيب والانيس سقامها

آخر تفسير سورة مريم ولله الحمد والمنة يتلوه ان شاء الله تفسير سورة طه ولله الحمد

(سورة طه وهى مكية)

روى امام الائمة محمد بن اسحق بن خزيمة فى كتاب التوحيد عن زياد ابن أيوب عن ابراهيم بن المنذر الحزامى حدثنا ابراهيم بن مهاجر بن سمار عن عمر بن حفص بن ذكوان عن مولى الحرقة يعنى عبد الرحمن ابن يعقوب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قرأ طه ويس قبل ان يخلق آدم بألف عام فلما سمعت الملائكة قالوا طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسن تتكلم بهذا هذا حديث غريب وفيه نكارة وابراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة بما أغنى عن اعادته وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسين بن محمد بن شيبة الواسطى حدثنا أبو أحمد يعنى الزبيرى أنبأنا اسرائيل عن سالم الافطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال طه يا رجل وهكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبى مالك وعطية العوفى والحسن وقتادة والضحاك والسدى وابن أبزى انهم قالوا طه بمعنى يا رجل وفى رواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثورى انها كلمة بالنبطية معناها يا رجل وقال أبو مالك هى معرب وأسند القاضى عياض فى كتابه الشفا من طريق عبد بن حميد فى تفسيره حدثنا هاشم بن القاسم عن ابن جعفر

وذلك يقتضى عطف الجميع بثم ان نظر لآخر المدة وأولها أو يقتضى العطف بالفاء ان نظر لآخرها فقط (ثم خلقنا النطفة علقة) أى انه سبحانه أحال النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) أى قطعة لحم غير مخلقة (فخلقنا المضغة) أى غالبها أو كلها قولان حكاهما أبو السعود (عظاما) أى متصلبة لتكون عمود البدن على اشكال مخصوصة (فكسونا العظام لحما) من بقية المضغة أو مما أنبت الله سبحانه على كل عظم لحما على المقدار الذى يليق به ويناسبه (ثم أنشأناه خلقا آخر) مباينا للخلق الاول أى نفخنا فيه الروح بعد ان كان جمادا قاله ابن عباس وبه قال مجاهد وعكرمة والشعبى والحسن وأبو العالية والربيع بن أنس والسدى والضحاك وابن زيد واختاره ابن جرير وقيل أخرجناه الى الدنيا وقيل هو نبات الشعر وقيل خروج الأسنان قاله ابن عباس وقيل تكميل القوى المخلوقة فيه وقيل كمال شبابه وقيل ان ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال الى الرضاع الى القعود والقيام الى المشى الى الفطام الى ان يأكل ويشرب الى ان يبلغ الحلم ويتقلب فى البلاد الى ما بعدها والصحيح انه عام فى هذا وفى غيره من النطق والادراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات الى ان يموت قال الكرخى المعنى حولنا النطفة عن صفاتها الى صفة لا يحيط بها وصف الواصفين (فتبارك الله) أى استحق التعظيم والثناء وقيل مأخوذ من البركة أى كثر خيره وبركته (أحسن الخالقين) أى المصورين والخلق فى اللغة التقدير يقال خلقت الأديم اذا قسته لتقطع منه شيأ فمعناه أتقن الصانعين المقدرين خلقا فى الظاهر والا فالله خالق الكل عن صالح أبى الخليل قال لما نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم الى قوله ثم أنشأناه خلقا آخر قال عمر رضى الله عنه فتبارك الله أحسن الخالقين قال والذى نفسى بيده ختمت بالذى تكلمت به يا عمر وعن أنس قال قال عمر وافقت ربى فى أربع قلت يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقلت يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا

عن الربيع بن أنس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا صلى قام على رجل ورفع الاخرى فانزل الله تعالى طه يعنى طأ الارض يامحمد ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ثم قال ولا يخفى ما فى هذا من الاكرام وحسن المعاملة وقوله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى قال جويبر عن الضحاك لما أنزل الله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم قام به هو وأصحابه فقال المشركون من قريش ما أنزل هذا القرآن على محمد الا ليشقى فانزل الله تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى فليس الامر كما زعمه المبطلون بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيرا كثيرا كما ثبت فى الصحيحين عن معاوية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وما أحسن الحديث رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى ذلك حيث قال حدثنا أحمد بن زهير حدثنا العلاء بن سالم حدثنا ابراهيم الطالقانى حدثنا ابن المبارك عن سفيان (٢٢٦) عن سماك بن حرب عن ثعلبة بن الحكم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة اذا قعد على كرسيه لقضاء عباده انى لم أجعل علمى وحكمتى فيكم الا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالى اسناده جيد وثعلبة ابن الحكم هذا هو الذى ذكره أبو عمر فى استيعابه وقال نزل البصرة ثم تحول الى الكوفة وروى عنه سماك ابن حرب وقال مجاهد فى قوله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى هى كقوله فاقرؤا ما تيسر منه وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم فى الصلاة وقال قتادة ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى لا والله ما جعله شقاء ولكن جعله رحمة ونورا ودليلا الى الجنة الا تذكرة لمن يخشى ان الله أنزل كتبه وبعث رسله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه وقوله تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى أى هذا القرآن الذى جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شئ ومليكه القادر على ما يشاء الذى خلق الارض بانخفاضها وكثافتها وخلق السموات العلى فى ارتفاعها ولطافتها وقد جاء فى الحديث الذى صححه الترمذى وغيره ان سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام وبعد ما بينها والتى تليها مسيرة خمسمائة عام وقد أورد ابن أبى حاتم ههنا حديث الأوعال من رواية العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه وقوله الرحمن على العرش استوى تقدم الكلام على ذلك فى سورة الاعراف بما أغنى عن اعادته أيضا وأن المسلك الاسلم فى ذلك طريقة السلف امرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل وقوله له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى أى الجميع ملكه وفى قبضته وتحت تصرفه ومشيئته وارادته وحكمه وهو خالق ذلك ومالكه والهه لا اله سواه ولا رب غيره وقوله وما تحت الثرى قال محمد بن كعب أى ما تحت الارض السابعة وقال الاوزاعى ان يحيى بن أبى كثير حدثه ان كعبا سئل فقيل له ما تحت هذه الارض فقال الماء قيل وما تحت الماء قال الارض قيل وما تحت الارض قال الماء قيل

فانه يدخل عليك البر والفاجر فانزل الله واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب وقلت لازواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجا خيرا منكن فنزلت عسى ربه ان طلقكن الآية ونزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة الى قوله ثم أنشأناه خلقا آخر فقلت فتبارك الله أحسن الخالقين أخرجه الطيالسى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر وعن زيد بن ثابت قال أملى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية ولقد خلقنا الانسان الآية فقال معاذ بن جبل فتبارك الله أحسن الخالقين فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له معاذ مم ضحكت يا رسول الله قال بها ختمت وفى اسناده جعفر الجعفى وهو ضعيف جدا قال ابن كثير وفى خبره هذا نكارة شديدة وذلك ان هذه السورة مكية وزيد بن ثابت انما كتب الوحى بالمدينة وكذلك اسلام معاذ انما كان بالمدينة والله تعالى أعلم (ثم انكم بعد ذلك) أى الأمور المتقدمة (لميتون) أى لصائرون الى الموت لا محالة (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) من قبوركم الى المحشر للحساب والجزاء والعقاب (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) اللام جواب قسم محذوف والجملة مبتدأة مشتملة على بيان خلق ما يحتاجون اليه بعد بيان خلق انفسهم والمراد بالفوق جهة العلو من غير اعتبار فوقيته لهم لان تلك النسبة انما تعرض لهم بعد خلقهم ووقت خلق السموات لم نكن مخلوقين ولم تكن هى فوقنا بل خلقنا بعد قاله الحفناوى والطرائق هى السموات قال الخليل والفراء والزجاج سميت طرائق لانها طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل وكل ما فوقه مثله فهو طريقة قاله البيضاوى قال أبو عبيدة طارقت الشئ جعلت بعضه فوق بعض والعرب تسمى كل شئ فوق شئ طريقة وقيل لانها طرائق الملائكة فى العروج والهبوط والطيران قاله الرازى وقيل لانها طرائق الكواكب ومتقلباتها (وما كنا عن الخلق غافلين) المراد بالخلق هنا المخلوق أى وما كنا عن هذه السبع الطرائق وحفظها عن ان تقع على الارض بغافلين وقال أكثر المفسرين

وماتحت الماء قال الارض قيل وماتحت الارض قال الماء قيل وماتحت الماء قال الارض قيل وماتحت الارض قال الماء قيل وماتحت الماء قال الارض قيل وماتحت الارض قال صخرة قيل وماتحت الصخرة قال ملك قيل وماتحت الملك قال حوت معلق طرفاه بالعرش قيل وماتحت الحوت قال الهواء والظلمة وانقطع العلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبيد الله بن أخي بن وهب حدثنا عمي حدثنا عبد الله بن عياش حدثنا عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الارضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء والحوت على صخرة والصخرة بيد الملك والثانية سجن الريح والثالثة فيها حجارة جهنم والرابعة فيها كبريت جهنم والخامسة فيها حيات جهنم والسادسة فيها عقارب جهنم والسابعة فيها سقر (٢٢٧) وفيها ابليس مصفد بالحديد يد أمامه ويد خلفه فاذا أراد الله ان يطلقه لما يشاء أطلقه وهذا حديث غريب جدا ورفعه فيه نظر وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده حدثنا أبو موسى الهروي عن العباس بن الفضل قلت ابن الفضل الانصاري قال نعم عن القاسم بن عبد الرحمن عن محمد ابن علي عن جابر بن عبد الله قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فاقبلنا راجعين في حر شديد فنحن متفرقون بين واحد واثنين منتشرين قال وكنت في أول العسكر اذ عارضنا رجل فسلم ثم قال ايكم محمد ومضى أصحابي ووقفت معه فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل في وسط العسكر على جمل أحمر مقنع بثوبه على رأسه من الشمس فقلت أيها السائل هذا رسول الله قد أتاك فقال أيهم هو فقلت صاحب البكر الأحمر فدنا منه فأخذ بخطام راحلته فكف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنت محمد قال نعم قال اني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمهن أحد من أهل الارض الا رجل أو رجلان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سل عما شئت قال يا محمد أينام النبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه قال صدقت ثم قال يا محمد من اين يشبه الولد أباه وأمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة رقيق فأي الماءين غلب على الآخر غلب على الولد فقال صدقت فقال ما للرجل من الولد وما للمرأة منه فقال للرجل العظام والعروق والعصب وللمرأة اللحم والدم والشعر قال صدقت ثم قال يا محمد ماتحت هذه يعني الارض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق فقال فما تحتهم قال ارض قال فما تحت الارض قال الماء قال فما تحت الماء قال ظلمة قال فما تحت الظلمة قال الهواء قال فما تحت الهواء قال الثرى قال فما تحت الثرى ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء وقال انقطع علم الخلق عند علم الخالق أيها السائل ما المسؤل عنها بأعلم من السائل قال فقال صدقت

المفسرين المراد الخلق كلهم بل حفظنا السموات عن ان تسقط وحفظنا من في الارض ان تسقط السماء عليهم فتهلكهم أو تميد بهم الارض أو يهلكون بسبب من الاسباب المستأصلة لهم ويجوز أن يراد نفي الغفلة عن القيام بمصالحهم وما يعيشهم ونفي الغفلة عن حفظهم وعن أعمالهم وأقوالهم (وأنزلنا من السماء ماء) هذا من جملة ما امتن الله سبحانه به على خلقه والمراد بالماء ماء المطر فان به حياة الارض وما فيها من الحيوان ومن جملة ذلك ماء الانهار النازل من السماء والعيون والآبار المستخرجة من الارض فان اصلها من ماء السماء وقيل ماء اي عذبا والا فالاجاج ثابت في الارض مع القحط والعذب يقل مع القحط وفي الاحاديث ان الماء كان موجودا قبل خلق السموات والارض ثم جعل الله منه في السماء ماء وفي الارض ماء كذا في البحر ومن ابتدائية وتقديمها على المفعول الصريح للاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والعدول عن الاضمار لان الانزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل بمجرد كونها بصفة العلو (بقدر) اي بتقدير منا لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم او بمقدار ما يكون به صلاح الزرائع والثمار والشرب فانه لو كثر لكان به هلاك ذلك ومثله قوله تعالى وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم (فاسكناه في الارض) أي جعلناه ساكنا مستقرا ثابتا فيها بعضه على ظهرها وبعضه في بطنها ينتفعون به وقت حاجتهم اليه كالماء الذي يبقى في المستنقعات والغدران ونحوها عند انقطاع المطر وأخرج ابن مردويه والخطيب قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال انزل الله من الجنة الى الارض خمسة انهار سيحون وهو نهر الهند وجيحون وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر انزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من اسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل فاستودعها الجبال وأجراها في الارض وجعلها منافع للناس في اصناف معايشهم فذلك قوله وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الارض فاذا كان عند خروج يأجوج

أشهد انك رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايها الناس هل تدرون من هذا قالوا الله ورسوله اعلم قال هذا جبريل صلى الله عليه وسلم هذا حديث غريب جدا وسياق عجيب تفرد به القاسم بن عبد الرحمن هذا وقد قال فيه يحيى بن معين ليس يساوي شيأ وضعفه أبو حاتم الرازي وقال ابن عدي لا يعرف قلت وقد خلط في هذا الحديث ودخل عليه شيء في شيء وحديث في حديث وقد يحتمل انه تعمد ذلك أو ادخل عليه فيه والله أعلم وقوله وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى أي أنزل هذا القرآن الذي خلق الارض والسموات العلى الذي يعلم السر وأخفى كما قال تعالى قل انزله الذي يعلم السر في السموات والارض انه كان غفورا رحيما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعلم السر واخفى قال السر ما أسره ابن آدم في نفسه وأخفى ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل ان يعلمه فالله يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق في ذلك

عنده كنفس واحدة وهو قوله ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وقال الضحاك يعلم السر وأخفى قال السر ما تحدث به نفسك وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد وقال سعيد بن جبير انت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غدا وقال مجاهد وأخفى يعني الوسوسة وقال أيضا هو وسعيد بن جبير وأخفى أي ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه وقوله الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى أي الذي انزل عليك القرآن هو الله الذي لا اله الا هو ذو الاسماء الحسنى والصفات العلى وقد تقدم بيان الاحاديث الواردة في الاسماء الحسنى في أواخر سورة الاعراف ولله الحمد والمنة (وهل اتاك حديث موسى اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى وكيف كان ابتداء الوحي اليه وتكليمه اياه وذلك بعد ما قضى موسى الاجل الذي بالسقي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار باهله قيل قاصدا بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية ونزل منزلا بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب وجعل يقدح بزند معه ليوري نارا كما جرت له العادة به فجعل لا يقدح شيأ ولا يخرج منه شرر ولا شيء فبينما هو كذلك اذ آنس من جانب الطور نارا أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه فقال لاهله يبشرهم اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أي شهاب من نار وفي الآية الاخرى أو جذوة من النار وهي الجمر الذي معه لهب لعلكم تصطلون دل على وجود البرد وقوله بقبس دل على وجود الظلام وقوله او أجد على النار هدى أي من يهديني الطريق دل على أنه كان قد تاه عن الطريق كما قال الثوري عن أبي سعد الاعور عن عكرمة

ومأجوج ارسل الله جبريل فرفع من الارض القرآن والعلم والحجر الاسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء فذلك قوله (وانا على ذهاب به لقادرون) فاذا رفعت هذه الاشياء من الارض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة قال البغوي رواه الحسن بن سفيان بالاجازة عن سعيد بن سابق السكندري عن مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس والمعنى كما قدرنا على انزاله فنحن قادرون على ان نذهب به بوجه من الوجوه اما بالافساد واما بالتصعيد واما بالتعميق والتغوير في الارض ولهذا التنكير حسن موقع لا يخفى وفي هذا تهديد شديد لما يدل عليه من قدرته سبحانه على اذهابه وتغويره حتى يهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم ومثله قوله قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ثم بين سبحانه ما يتسبب عن انزال الماء فقال (فأنشأنا) أي أوجدنا (لكم به) أي بذلك الماء (جنات من نخيل وأعناب) انما أفردهما بالذكر لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام والادام والفواكه رطبا ويابسا وقيل اقتصر سبحانه عليهما لانهما الموجودان في الطائف والمدينة وما يتصل بذلك كذا قال ابن جرير وقيل لانهما أشرف الاشجار ثمرة وأطيبها منفعة وطعما ولذة (لكم فيها) أي في هذه الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها تأكلون) وتطعمون منها شتاء وصيفا وقيل المعنى ومن هذه الجنات وجوه ارزاقكم ومعاشكم كقولهم فلان يأكل من حرفة كذا وهو بعيد وقيل المعنى ان لكم فيها فواكه من غير العنب والنخل وقيل المعنى لكم في هذين النوعين خاصة فواكه لان فيهما أنواعا مختلفة متفاوتة في الطعم واللون وقد اختلف أهل الفقه في لفظ الفاكهة على ماذا يطلق اختلافا كثيرا وأحسن ما قيل انها تطلق على الثمرات التي يأكلها الناس وليست بقوت لهم ولا طعام ولا ادام واختلف في البقول هل تدخل في الفاكهة أم لا (وشجرة) قال الواحدي والمفسرون كلهم يقولون ان المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون وخصت بالذكر لانها لا يتعاهدها أحد

عن ابن عباس في قوله أو أجد على النار هدى قال من يهديني الى الطريق وكانوا شاتين وضلوا الطريق فلما رأى النار قال ان لم أجد أحدا يهديني الطريق آتيتكم بنار توقدون بها (فلما أتاها نودي ياموسى اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) يقول تعالى فلما أتاها أي النار واقترب منها نودي ياموسى وفي الآية الاخرى نودي من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى اني أنا الله وقال ههنا اني أنا ربك أي الذي يكلمك ويخاطبك فاخلع نعليك قال علي بن أبي طالب وأبو ذر وأبو أيوب وغير واحد من السلف كانتا من جلد حمار غير ذكي وقيل انما أمره بخلع نعليه تعظيما للبقعة - وقال سعيد بن جبير كما يؤمر الرجل ان يخلع نعليه اذا أراد أن يدخل الكعبة وقيل ليطأ الارض المقدسة بقدميه حافيا غير منتعل وقيل غير ذلك والله أعلم وقوله طوى قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس هو اسم للوادي وكذا قال غير واحد فعلى هذا يكون عطف بيان وقيل عبارة عن الامر بالوطء بقدميه وقيل لانه قدس مرتين وطوى له البركة وكررت والاول أصح كقوله اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى وقوله وأنا اخترتك كقوله اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي أي على جميع الناس من الموجودين في زمانه وقد قيل ان الله تعالى قال ياموسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس قال لا قال لاني لم يتواضع الي أحد تواضعك وقوله فاستمع لما يوحى أي استمع الآن ما أقول لك وأوحيه اليك انني أنا الله لا اله الا أنا هذا أول واجب على المكلفين ان يعلموا انه لا اله الا الله وحده لا شريك له وقوله فاعبدني أي وحدني وقم بعبادتي من غير شريك وأقم الصلاة لذكري قيل معناه صل لتذكرني وقيل معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي ويشهد لهذا الثاني ما قال الامام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا المثنى بن سعيد عن قتادة عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها اذا ذكرها فان الله تعالى قال وأقم الصلاة لذكري وفي الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك وقوله ان الساعة آتية أي قائمة لا محالة وكائنة لا بد منها وقوله أكاد أخفيها قال الضحاك عن ابن عباس انه كان يقرأ ها أكاد أخفيها من نفسي يقول لانها لا تخفى من نفس الله أبدا وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس من نفسه وكذا قال مجاهد وأبو صالح ويحيى بن رافع وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أكاد أخفيها يقول لا أطلع عليها أحدا غيري وقال السدي ليس أحد من أهل

بالسقي وهي التي يخرج الدهن منها وهي أول شجرة نبتت بعد الطوفان تعمر في الارض كثيرا حتى قال بعضهم انها تعمر ثلاثة آلاف سنة على ما ذكره الخازن فذكرها الله سبحانه امتنانا منه على عباده بها ولانها أكرم الشجر وأعمها نفعا وأكثرها بركة (تخرج من طور سيناء) خصت به مع انها تخرج من غيره أيضا لان أصلها منه ثم نقلت الى غيره ذكره زكريا وهو جبل بيت المقدس والطور الجبل في كلام العرب وقيل هو مما عرب من كلام العجم واختلف في معنى سيناء فقيل هو الحسن باللغة النبطية وقيل بالحبشية وقيل بالسريانية ومعناه الجبل الملتف بالاشجار وقيل كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سيناء وسينين وقيل هو من السنا وهو الارتفاع وقيل هو المبارك وذهب الجمهور الى انه اسم للجبل كما تقول جبل أحد وقيل هو جبل فلسطين وقيل هو اسم المكان الذي فيه هذا الجبل وقيل سيناء اسم حجر بعينه أضيف الجبل اليه لوجوده عنده وقيل هو كل جبل يحمل الثمار وقرئ سيناء بفتح السين وبكسرها ولم يصرف لانه جعل اسما للبقعة وزعم الاخفش انه أعجمي قال ابن عباس هو الجبل الذي نودي منه موسى (تنبت بالدهن) قال ابن عباس هو الزيت يؤكل منه ويدهن به وقرئ بفتح التاء وضم الباء وبضم التاء وكسر الباء من الثلاثي والرباعي والمعنى على الاولى انها تنبت في نفسها متلبسة بالدهن وعلى الثانية الباء بمعنى مع فهي للمصاحبة قال أبو علي الفارسي التقدير تنبت جناها ومعه الدهن وقيل الباء زائدة قاله أبو عبيدة وقال الفراء والزجاج انبت ونبت بمعنى والاصمعي ينكر أنبت وقرئ تنبت بضم التاء وفتح الباء قال الزجاج وابن جني أي تنبت ومعها الدهن وقرأ ابن مسعود تخرج بالدهن وقرئ تنبت الدهن بحذف حرف الجر وقرئ بالدهان والدهن عصارة كل شئ ذي دسم قاله السمين (وصبغ للآكلين) أي تنبت بالشئ الجامع بين كونه دهنا يدهن به وكونه صبغا يؤتدم به وقرئ أصباغ مثل لبس ولباس وكل ادام يؤتدم به فهو صبغ وصباغ وأصل الصبغ ما يلون به الثوب وشبه الادام به لان الخبز يكون بالادام

السموات والارض الاقد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة وهي في قراءة ابن مسعود اني أكاد أخفيها من نفسي يقول كتمتها من الخلائق حتى لو استطعت ان أكتمها من نفسي لفعلت وقال قتادة أكاد أخفيها وهي في بعض القرآآت أخفيها من نفسي ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الانبياء والمرسلين قلت وهذا كقوله تعالى قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وقال ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم الا بغتة أي ثقل علمها على أهل السموات والارض وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب حدثنا أبو نميلة حدثني محمد بن سهل الاسدي عن ورقاء قال اقرأنيها سعيد بن جبير أكاد أخفيها يعني نصب الالف وخفض الفاء يقول أظهرها ثم قال اما سمعت قول الشاعر داب شهرين ثم شهرا دميكا * بار يكين يخفيان غميرا

قال الاسدي الغمير نبت رطب ينبت في خلال يبس والاريكين موضع والدميك الشهر التام وهذا الشعر لكعب بن زهير وقوله سبحانه وتعالى لتجزى كل نفس بما تسعى أي أقيمها لا محالة لأجزى كل عامل بعمله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وانما تجزون ما كنتم تعملون وقوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها الآية المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملاذه في دنياه وعصى مولاه واتبع هواه فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر فتردى أي تهلك وتعطب قال الله تعالى وما يغني عنه ماله اذا تردى (وما تلك بيمينك ياموسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى قال ألقها ياموسى فألقاها فاذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى) هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ومعجزة عظيمة وخرق للعادة باهر دال على انه لا يقدر على مثل هذا الا الله عزوجل وانه لا يأتي به الا نبي مرسل وقوله وما تلك بيمينك ياموسى قال بعض المفسرين انما قال له ذلك على سبيل الايناس له وقيل انما قال له ذلك على وجه التقرير أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن وما تلك بيمينك ياموسى استفهام تقرير قال هي عصاي أتوكأ عليها أي أعتمد عليها في حال المشي وأهش بها على غنمي أي أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي قال عبد الرحمن بن القاسم عن الامام مالك الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود فهذا الهش ولا يخبط وكذا قال ميمون بن مهران أيضا وقوله ولي فيها مآرب أخرى أي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت فقيل كانت تضيء له بالليل وتحرس له الغنم اذا نام ويغرسها فتصير شجرة تظله وغير ذلك من الامور الخارقة

كالمصبوغ به جعل الله سبحانه في هذه الشجرة المباركة أدما وهو الزيتون ودهنا وهو الزيت (وان لكم في الانعام لعبرة) هذه من جملة النعم التي امتن الله بها عليهم وقد تقدم تفسير الانعام في سورة النحل وهي الابل والبقر والغنم قال النيسابوري ولعل القصد بالانعام هنا الى الابل خاصة لانها هي المحمول عليها في العادة ولانه قرنها بالفلك وهي سفائن البر كما ان الفلك سفائن البحر قال ذو الرمة * سفائن بر تحت خدي زمامها * وبين سبحانه انها عبرة وعظة لانها مما يستدل بخلقها وأفعالها على عظم القدرة الالهية وخصها بالعبرة دون النبات لان العبرة فيها أظهر ثم فصل سبحانه ما في هذه الانعام من النعم بعد ما ذكره من العبرة فيها للعباد فقال (نسقيكم) بضم النون وفتحها (مما في بطونها) يعني اللبن المتكون في بطونها المنصب الى ضروعها من بين فرث ودم فان في انعقاد ما تأكله من العلف واستحالته الى هذا الغذاء اللذيذ والمشروب النفيس أعظم عبرة للمعتبرين وأكبر موعظة للمتعظين وقرئ بالفوقية على ان الفاعل هو الانعام وذكره هنا بلفظ الجمع لانه راجع للانعام مرادا بها الجمع وفي النحل قال مما في بطونه بالافراد نظرا الى ان الانعام اسم مفرد ذكره ذكريا في متشابه القرآن وقال الكرماني ان ما في النحل مراد به بعض الانعام وهو الاناث فأتى بالضمير مفردا مذكرا والمراد منه هنا الكل الشامل للاناث والذكور بدليل العطف في قوله الآتي ولكم فيها منافع فان هذا لا يخص الاناث وهذا العطف لم يذكر في النحل ثم ذكر ما فيها من المنافع اجمالا فقال (ولكم فيها) أي في ظهورها وألبانها وأولادها وأصوافها وأشعارها وهي جمة (منافع كثيرة) ثم ذكر منفعة خاصة فقال (ومنها تأكلون) بعد الذبح لما في الاكل من عظيم الانتفاع لهم وكذلك ذكر الركوب عليها لما فيه من المنفعة العظيمة فقال (وعليها) أي وعلى الانعام فان أريد بها الابل والبقر والغنم فالمراد وعلى بعض الانعام وهو الابل خاصة وان أريد بها الابل خاصة فالمعنى واضح ثم لما كانت الانعام غالب ما يكون الركوب عليه في البر ضم اليها ما يكون الركوب عليه

في

للعادة والظاهر أنها لم تكن كذلك ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه الصلاة والسلام صيرورتها ثعبانا نافخا كان يفر منها هاربا
ولكن كل ذلك من الاخبار الاسرائيلية وكذا قول بعضهم انها كانت لآدم عليه الصلاة والسلام وقول الآخر انها هي الدابة التي
تخرج قبل يوم القيامة وروى عن ابن عباس انه قال كان اسمها ماشا والله اعلم بالصواب وقوله تعالى قال ألقها يا موسى اي هذه العصا
التي في يدك يا موسى ألقها فألقاها فاذا هي حية تسعى أي صارت في الحال حية عظيمة ثعبانا طويلا يتحرك حركة سريعة فاذا هي
تهتز كأنها جان وهو أسرع الحيات حركة ولكنه صغير فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة تسعى أي تمشي وتضطرب قال
ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حفص بن جميع حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس فألقاها فاذا هي حية
تسعى ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ومرت بصخرة فابتلعتها (٢٣١) فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها
فولى مدبرا ونودي أن يا موسى
خذها فلم يأخذها ثم نودي الثانية ان
خذها ولا تخف فقيل له في الثالثة
انك من الآمنين فأخذها وقال
وهب بن منبه في قوله فألقاها فاذا
هي حية تسعى قال فألقاها على
وجه الارض ثم حانت منه نظرة
فاذا بأعظم ثعبان نظر اليه
الناظرون يدب يلتمس كأنه يبتغي
شيأ يريد أخذه يمر بالصخرة مثل
الخلفة من الابل فيلتقمها ويطعن
بالناب من أنيابه في أصل الشجرة
العظيمة فيجتثها عيناه تتقدان نارا
وقد عاد المحجن منها عرفا قيل شعر
مثل النيازك وعاد الشعبتان فما مثل
القليب الواسع فيه أضراس
وأنياب لها صريف فلما عاين ذلك
موسى ولى مدبرا ولم يعقب فذهب
حتى أمعن ورأى انه قد أعجز الحية ثم
ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودي
يا موسى اي ارجع حيث كنت
فرجع موسى وهو شديد الخوف
فقال خذها بيمينك ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف قد خلها بخلال من عيدان فلما أمره
بأخذها لف طرف المدرعة على يده فقال له ملك أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيأ قال لا ولكني
ضعيف ومن ضعف خلقت فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الاضراس والانياب ثم قبض فاذا هي عصاه
التي عهدها واذا يده في موضعها الذي كان يضعها اذا توكأ بين الشعبتين ولهذا قال تعالى سنعيدها سيرتها الاولى أي الى حالها التي
تعرف قبل ذلك (واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه
طغى قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي
اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا) وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام وهو

في البحر فقال (وعلى الفلك تحملون) تتميما للنعمة وتكميلا للمنة ولما ذكر سبحانه
الفلك اتبعه بذكر نوح لانه أول من صنعه وذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب اهمالهم
للتفكر في مخلوقات الله سبحانه والتذكر لنعمه عليهم فقال (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه)
وفي ذلك تعزية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتسلية له ببيان ان قوم غيره من
الانبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه واللام جواب قسم محذوف
والواو للاستئناف وهذا شروع في خمس قصص هذا أولها والثانية قصة هود وأولها ثم
انشأنا من بعدهم قرنا آخرين والثالثة قوله ثم انشأنا من بعدهم قرونا آخرين والرابعة قصة
موسى وهرون المذكورة بقوله ثم أرسلنا موسى وأخاه والخامسة قصة عيسى وأمه
المذكورة بقوله وجعلنا ابن مريم وأمه آية ثم ان اسم نوح يشكر ونوح لقبه على ما قاله
الرازي أو عبد الله على ما قاله السيوطي وعاش نوح من العمر ألف سنة وخمسين كما مر
مرارا وقدمت قصته لتتصل بقصة آدم المذكورة للمناسبة بين نوح وآدم من حيث انه
آدم الثاني لانحصار النوع الانساني بعده في نسله (فقال يا قوم اعبدوا الله) وحده
وأطيعوه ولا تشركوا به شيأ كما يستفاد من الآيات الأخرى وجملة (ما لكم من اله غيره)
واقعة موقع التعليل لما قبلها أي ما لكم في الوجود اله غيره سبحانه ومن زائدة (أفلا
تتقون) تخافون ان تتركوا عبادة ربكم الذي لا يستحقها غيره وليس لكم اله سواه وقيل
المعنى أفلا تخافون ان يرفع عنكم ما خولكم من النعم ويسلبها عنكم وقيل المعنى أفلا
تقون أنفسكم عذابه الذي تقتضيه ذنوبكم بعبادتكم غيره (فقال الملأ) أي الاشراف
(الذين كفروا) به (من قومه) لأتباعهم وحاصل ما ذكروه من الشبه خمسة أولاها قولهم
(ما هذا الا بشر مثلكم) أي من جنسكم في البشرية لا فرق بينه وبينكم (يريد) أي يطلب
(أن يتفضل عليكم) بأن يسودكم ويتشرف حتى تكونوا تابعين له منقادين لامره

أن الله أمره أن يدخل يده فى جيبه كما صرح به فى الآية الاخرى وهنا عبر عن ذلك بقوله واضمم يدك الى جناحك وقال فى مكان آخر واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه وقال مجاهد واضمم يدك الى جناحك كفه تحت عضدك وذلك ان موسى عليه السلام كان اذا ادخل يده فى جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر وقوله تخرج بيضاء من غير سوء أى من غير برص ولا أذى ومن غير شين قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسدى وغيرهم وقال الحسن البصرى أخرجها والله كأنها مصباح فعلم موسى انه قد لقى ربه عز وجل ولهذا قال تعالى لنريك من آياتنا الكبرى وقال وهب قال له ربه ادنه فلم يزل يدنيه حتى سند ظهره بجذع الشجرة فاستقر وذهبت عنه الرعدة وجمع يده فى العصى وخضع برأسه وعنقه وقوله اذهب الى فرعون انه طغى أى اذهب الى فرعون ملك مصر الذى خرجت فارا منه وهاربا فادعه الى عبادة الله وحده لا شريك له ومره فليحسن الى بنى اسرائيل ولا يعذبهم فانه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسى الرب الأعلى قال وهب بن منبه قال الله لموسى انطلق برسالتى فانك بسمعى وعينى وان معك أيدى ونصرى وانى قد ألبستك جنة من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى فانت جند عظيم من جندى بعثتك الى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكرى وغرته الدنيا عنى حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى وزعم انه لا يعرفنى فانى أقسم بعزتى لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والارض والجبال والبحار فان أمرت السماء حصبته وان أمرت الارض ابتلعته وان أمرت الجبال دمرته وان أمرت البحار غرقته ولكنه هان علىّ وسقط من عينى ووسعه حلمى واستغنيت بما عندى وحق انى أنا الغنى لا غنى غيرى فبلغه رسالتى وادعه الى عبادتى وتوحيدى واخلاصى وذكره ايامى وحذره نقمتى وبأسى وأخبره انه لا يقوم شئ لغضبى وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وأخبره انى الى العفو والمغفرة اسرع منى الى الغضب والعقوبة ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا فان ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس الا باذنى وقل له أجب ربك فانه واسع المغفرة وقد أمهلك أربعمائة سنة فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة تسبه وتمثل به وتصد عباده عن سبيله وهو يمطر عليك السماء وينبت لك الارض لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب ولو شاء الله أن يعاجلك العقوبة لفعل ولكنه ذو أناة وحلم عظيم وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده فانى لو شئت ان آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجموعه ان الفئة القليلة ولا قليل منى تغلب الفئة الكثيرة باذنى ولا تعجبكما زينته

ثم صرحوا بان البشر لا يكون رسولا فقالوا (ولو شاء الله) ارسال رسول (لأنزل) أى لأرسل ملائكة رسلا وهى الشبهة الثانية وانما عبر بالانزال عن الارسال لان ارسالهم الى العباد يستلزم نزولهم اليهم وقيل معناه لو شاء ان لا يعبد غيره لأنزل (ملائكة) لا بشرا (ما سمعنا بهذا) أى بمثل دعوى هذا المدعى للنبوة من البشر أو بمثل كلامه وهو الامر بعبادة الله وحده أو ما سمعنا ببشر يدعى هذه الدعوى وقيل الباء زائدة وهذه هى الشبهة الثالثة والعجب منهم انهم رضوا بالالوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر (فى آبائنا الاولين) أى فى الامم الماضية قبل هذا قالوا هذا اعتمادا منهم على التقليد واعتصاما بحبله ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا اليه الكذب البحت والبهت الصراح فقالوا (ان هو الا رجل به جنة) أى حالة جنون لا يدرى ما يقول وهى الشبهة الرابعة (فتربصوا به حتى حين) أى انتظروا به حتى يستبين أمره بان يفيق من جنونه فيترك هذه الدعوى أو حتى يموت فتستريحوا منه وهى الشبهة الخامسة ولم يتعرض لردها لظهور فسادها قال الفراء ليس يريد بالحين هنا وقتا بعينه انما هو كقولهم دعه الى يوم ما فلما سمع عليه السلام كلامهم وعرف تماديهم على الكفر واصرارهم عليه (قال رب انصرنى) عليهم فانتقم منهم بما تشاء وكيف تريد (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم اياى (فأوحينا اليه) أى أرسلنا اليه رسولا من السماء (أن اصنع الفلك) أن مفسرة لما فى الوحى من معنى القول فلا حاجة الى جعلها مصدرية والفلك السفينة (بأعيننا) اى بمرأى منا أو متلبسا بحفظنا وكلاءتنا وقيل بعلمنا لئلا يتعرض له أحد ولا يفسد عليه عمله والاول أولى وجمع الاعين للمبالغة وان كانت العادة ان الرائى له عينان فقط وقد تقدم معنى هذا فى هود (ووحينا) اى بامرنا لك وتعليمنا اياك لكيفية صنعها قيل وقد صنعها فى عامين وجعل طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين وارتفاعها ثلاثين وجعلها ثلاث طبقات السفلى للسباع والهوام والوسطى

ولامامتع به ولاتعدا الى ذلك أعينكما فانها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ولو شئت ان أزينكما من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين ينظر اليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ولكنى أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما وكذلك أفعل بأوليائى وقديما ما جرت فى ذلك فانى لأذودهم عن نعيمها وزخارفها كما يذود الراعى الشفيق ابله عن مبارك العناء وماذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم فى دار كرامتى سالما موفرا لم تكلمه الدنيا واعلم انه لم يتزين لى العباد بزينة هى ابلغ فيما عندى من الزهد فى الدنيا فانها زينة المتقين عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود أولئك أوليائى حقا حقا فاذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل قلبك ولسانك واعلم أنه من أهان لى وليا أو أخافه فقد بارزنى بالمحاربة وبادانى وعرض لى نفسه ودعانى اليها وانا أسرع شئ الى نصرة أوليائى افيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى (٢٣٣) أم يظن الذى يعادينى أن يعجزنى أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة لا أكل نصرتهم الى غيرى رواه ابن أبى حاتم قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل ان يشرح له صدره فيما بعثه به فانه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم بعثه الى أعظم ملك على وجه الارض اذ ذاك وأجبرهم وأشدهم كفرا وأكثرهم جنودا وأعمرهم ممالكا وأطغاهم وأبلغهم تمردا بلغ من أمره ان ادعى انه لا يعرف الله ولا يعلم لرعاياه الها غيره هذا وقد مكث موسى فى داره مدة وليدا عندهم فى حجر فرعون على فراشه ثم قتل منهم نفسا فخافهم ان يقتلوه فهرب منهم هذه المدة بكمالها ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل اليهم نذيرا يدعوهم الى الله عز وجل ان يعبدوه وحده لا شريك له ولهذا قال رب اشرح

لى صدرى ويسر لى أمرى أى ان لم تكن أنت عونى ونصيرى وعضدى وظهيرى والا فلا طاقة لى بذلك واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه كما سيأتى بيانه وما سأل ان يزول ذلك بالكلية بل بحيث ما يزول العى ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال ولكن الانبياء لا يسألون الا بحسب الحاجة ولهذا بقيت بقية قال الله تعالى اخبارا عن فرعون انه قال أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين أى يفصح بالكلام وقال الحسن البصرى واحلل عقدة من لسانى قال حل عقدة واحدة ولو سأل أكثر من ذلك أعطى وقال ابن عباس شكا موسى الى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه فانه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه ان يعينه بأخيه هرون يكون له ردأ ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فآتاه سؤله فحل

والوسطى للدواب والانعام والعليا للانس كامر (فاذا جاء أمرنا) الفاء لترتيب مضمون ما بعدها على ما قبلها من صنع الفلك والمراد بالامر الامر بالعذاب (وفار التنور) اى ان مجىء الامر هو فور التنور أى تنور آدم الذى تخبز فيه حواء الصائر الى نوح وكان من حجارة وقيل التنور وجه الارض واختلف فى مكانه فقيل فى مسجد الكوفة وقيل بالشام وقيل بالهند والمعنى اذا وقع ذلك (فاسلك) اى فادخل (فيها) يقال سلك فى كذا أى دخله وأسلكته ادخلته وقال ابن عباس اجعل معك فى السفينة (من كل زوجين اثنين) قرئ كل بالتنوين وبالاضافة ومعنى الاولى من كل أمة زوجين ومعنى الثانية من كل زوجين وهما أمة الذكر والانثى اثنين اى من غير البشر والا فانه ادخل فيها من البشر سبعين أو ثمانين فادخل من هذا النوع زيادة على اثنين (وأهلك) أى واسلك فيها اهلك اى زوجتك وأولادك (الامن سبق عليه القول) اى الوعد الازلى باهلاكه منهم كابنه كنعان وأمه (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) بالدعاء لهم بانجائهم (انهم مغرقون) تعليل للنهى عن المخاطبة اى انهم مقضى عليهم بالاغراق لظلمهم ومن كان هكذا فهو لا يستحق الدعاء له (فاذا استويت) أى علوت (أنت) واعتدلت (ومن معك) من أهلك واتباعك (على الفلك) راكبين عليه (فقل) وكان الظاهر أن يقال فقولوا اى أنت ومن معك وانما أفرد نوحا بالامر بالدعاء المذكور اظهارا لفضله واشعارا بان فى دعائه مندوحة عن دعائهم (الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) اى حال بيننا وبينهم وخلصنا منهم كقوله فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وقد تقدم تفسير هذه القصة فى سورة هود على التمام والكمال وانما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق جزما لانه قد سبق فى علمه ان ذلك سبب نجاتهم من الظلمة وسلامتهم من ان يصابوا بما أصيبوا به من العذاب ثم أمره ان يسأل ربه ما هو انفع له وأتم فائدة فقال (وقل رب أنزلنى منزلا مباركا) اى أنزلنى فى السفينة قرئ منزلا بضم الميم وفتح الزاى على انه مصدر وبفتح الميم وكسر الزاى على انه اسم

عقدة من لسانه وقال ابن أبي حاتم ذكر عن عمرو بن عثمان حدثنا بقية عن ارطاة بن المنذر حدثني بعض أصحاب محمد بن كعب عنه قال أتاه ذو قرابة له فقال له مابك بأس لولا انك تلحن في كلامك ولست تعرب في قراءتك فقال القرظي يا ابن أخي ألست أفهمك اذا حدثتك قال نعم قال فان موسى عليه السلام انما سأل ربه ان يحال عقدة من لسانه كي يفقه بنو اسرائيل كلامه ولم يزد عليها هذا لفظه وقوله واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي وهذا أيضا سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه وهو مساعدة أخيه هرون له قال الثوري عن أبي سعد عن عكرمة عن ابن عباس انه قال نبي هرون ساعتئذ حين نبي موسى عليهما السلام وقال ابن أبي حاتم ذكر عن ابن نمير حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة انها خرجت فيما كانت تعتمر فنزلت ببعض الاعراب فسمعت رجلا يقول أي أخ كان في الدنيا (٢٣٤) أنفع لاخيه قالوا ماندري قال أنا والله أدري قالت فقلت في نفسي في حلفه لا يستثني انه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لاخيه قال موسى حين سأل لاخيه النبوة فقلت صدق والله قلت ومن هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام وكان عند الله وجيها وقوله اشدد به أزري قال مجاهد ظهري وأشركه في أمري أي في مشاورتي كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا قال مجاهد لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا وقوله انك كنت بنا بصيرا أي في اصطفائك لنا واعطائك ايانا النبوة وبعثتك لنا الى عدوك فرعون فلك الحمد على ذلك (قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك مايوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني اذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا) هذه اجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه عز وجل وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه لانه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان فاتخذت له تابوتا فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل وتمسكه الى منزلها بحبل فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر فحصل لها من الغم والهم ماذكره الله عنها في قوله وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها فذهب به البحر الى دار فرعون فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا أي قدرا مقدورا من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني اسرائيل حذرا من وجود موسى فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة ان لا يربى الا على فراش

مكان فعلى الاولى التقدير أنزلني انزالا مباركا وعلى الثانية انزلني مكانا مباركا قال الجوهري المنزل بفتح الميم والزاي النزول وهو الحلول تقول نزلت نزولا ومنزلا عن مجاهد قال قال الله تعالى لنوح حين انزل من السفينة وقيل أمره الله سبحانه بان يقول هذا القول عند دخول السفينة وقيل عند خروجه منها وأراد بالبركة النجاة من الغرق وكثرة النسل بعد الانجاء والآية تعليم من الله لعباده اذا ركبوا ثم نزلوا ان يقولوا هذا القول قال الواحدي قال المفسرون انه أمر أن يقول عند استوائه على الفلك الحمد لله وعند نزوله منها رب أنزلني منزلا مباركا (وأنت خير المنزلين) هذا ثناء منه على الله عز وجل اثر دعائه له (ان في ذلك) اى ماتقدم مما قصه الله علينا من أمر نوح عليه السلام والسفينة وهلاك الكفار (لآيات) اى دلالات على كمال قدرته سبحانه وعلامات يستدل بها على عظيم شأنه (وان كنا لمبتلين) أى لمختبرين قوم نوح بارساله اليهم ووعظه أو لمختبرين لهم بارسال الرسل اليهم ليظهر المطيع والعاصي للناس أو للملائكة وقيل المعنى انه يعاملهم سبحانه معاملة المختبر لأحوالهم تارة بالارسال وتارة بالعذاب لينظر من يعتبر ويذكر كقوله ولقد تركناها آية فهل من مدكر (ثم أنشأنا من بعدهم) اى من بعد اهلاكهم (قرنا) اى قوما (آخرين) قال أكثر المفسرين ان هؤلاء هم عاد قوم هود لمجيء قصتهم على اثر قصة نوح في غير هذا الموضع ولقوله في الاعراف واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وقيل هم ثمود لانهم الذين أهلكوا بالصيحة وقد قال سبحانه في هذه القصة فأخذتهم الصيحة وقيل هم أصحاب مدين قوم شعيب لانهم ممن أهلك بالصيحة (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) عدى فعل الارسال بفي مع انه يتعدى بالى للدلالة على ان الرسول المرسل اليهم نشأ فيهم وبين أظهرهم يعرفون مكانه ومولده ليكون سكونهم الى قوله أكثر من سكونهم الى من يأتيهم من غير مكانهم وقيل وجه التعدية بفي انه ضمن معنى القول والاول أولى لان تضمين أرسلنا معنى قلنا لا يستلزم تعديته بفي (أن اعبدوا الله) ان مفسرة لارسلنا أى قلنا لهم على لسان

الرسول

فرعون ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ولهذا قال تعالى يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى أى عند عدوك جعلته يحبك قال سلمة بن كهيل وألقيت عليك محبة منى قال حببتك الى عبادى ولتصنع على عينى قال أبو عمران الجونى تربى بعين الله وقال قتادة تغذى على عينى وقال معمر بن المثنى ولتصنع على عينى بحيث أرى وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعنى أجعله فى بيت الملك ينعم ويترف وغذاؤه عندهم غذاء الملك فتلك الصنعة وقوله اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرددناك الى أمك كى تقر عينها وذلك انه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها قال الله تعالى وحرمنا عليه المراضع من قبل فجاءت أخته فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون تعنى هل أدلكم على من يرضعه لكم بالاجرة فذهبت به وهم معها الى أمه فعرضت عليه ثديها فقبله ففرحوا بذلك فرحا شديدا (٢٣٥) واستأجروها على ارضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة فى الدنيا وفى الآخرة أعظم وأجزل ولهذا جاء فى الحديث مثل الصانع الذى يحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها وقال تعالى ههنا فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن أى عليك وقتلت نفسا يعنى القبطى فنجيناك من الغم وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ففر منهم هاربا حتى ورد ماء مدين وقال له ذلك الرجل الصالح لا تخف نجوت من القوم الظالمين وقوله وفتناك فتونا قال الامام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى رحمه الله فى كتاب التفسير من سننه قوله وفتناك فتونا حديث الفتون حدثنا عبد الله ابن محمد حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا أصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبى أيوب أخبرنى سعيد بن جبير قال سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام وفتناك فتونا فسألته عن الفتون ما هو فقال استأنف النهار يا ابن جبير فان لها حديثا طويلا فلما أصبحت غدوت الى ابن عباس لانتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون فقال تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد ابراهيم عليه السلام ان يجعل فى ذريته أنبياء وملوكا فقال بعضهم ان بنى اسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه وكانوا يظنون انه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد ابراهيم عليه السلام فقال فرعون كيف ترون فائتمروا واجمعوا أمرهم على ان يبعث رجالا معهم الشفار يطوفون فى بنى اسرائيل فلا يجدون مولودا ذكرا الا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأوا ان الكبار من بنى اسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا يوشك ان تفنوا بنى اسرائيل فتصيروا ان تباشروا من الاعمال والخدمة التى كانوا يكفونكم فاقتلوا عاما كل مولود ذكر واتركوا بناتهم ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار فانهم ان يكثروا بمن تستحيون

الرسول هذا القول (ما لكم من اله غيره) تعليل للامر بالعبادة (أفلا تتقون) عذابه الذى يقتضيه شرككم (وقال الملأ من قومه) أى قادتهم وأشرافهم ثم وصف الملأ بالكفر والتكذيب فقال (الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة) أى بما فى الآخرة من الحساب والعقاب أو بالمصير اليها أو كذبوا بالبعث (وأترفناهم فى الحياة الدنيا) اى وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه من كثرة المال ورفاهة العيش حتى وصفوا رسولهم بمساواتهم فى البشرية وفى الاكل والشرب فقالوا (ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) منه قاله الفراء وقيل ما مصدرية فلا تحتاج الى عائد وذلك يستلزم عندهم انه لا فضل له عليهم وهذه شبهة أولى تنتهى عند قوله لخاسرون (ولئن أطعتم بشرا مثلكم) فيما ذكر من الاوصاف (انكم اذا) اى اذا أطعتموه (لخاسرون) أى مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم اياه من غير فضيلة له عليكم ومن حمقهم انهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم (أيعدكم انكم اذا متم) الهمزة للانكار والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تقبيح اتباعهم له بانكار وقوع ما يدعوهم الى الايمان به واستبعاده قرئ بكسر الميم من متم من مات يمات كخاف يخاف وبضمها من مات يموت كقال يقول (وكنتم) أى كان بعض اجزائكم (ترابا و) بعضها (عظاما) نخرة لا لحم فيها ولا أعصاب عليها قيل وتقديم التراب لكونه أبعد فى عقولهم وقيل المعنى كان متقدموكم ترابا ومتأخروكم عظاما (انكم مخرجون) أى مبعوثون من قبوركم احياء كما كنتم للسؤال والحساب والثواب والعقاب وثنى انكم للتأكيد وحسن ذلك طول الفصل بين الاولى والثانى بالظرف واليه ذهب الجرمى والمبرد والفراء وقيل بدل من الاولى واليه ذهب سيبويه (هيهات هيهات) أى بعد وقال ابن عباس بعيد بعيد قال ابن الانبارى وفى هيهات عشر لغات ثم سردها وهى مبينة فى علم النحو وقد قرئ ببعضها وقال سليمان الجمل فيه لغات كثيرة تزيد على أربعين ثم ذكر منها مشهورها وما قرئ به تركناها لقلة الفائدة هنا وهو اسم فعل ماض بمعنى

منهم فتخافوا مكاثرتهم اياكم ولم يفنوا بأن تقتلون وتحتاجون اليهم فاجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهرون فى العام الذى
لايذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع فى قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون
يا ابن جبير مادخل عليه وهو فى بطن أمه مما يراد به فأوحى الله اليها ان لاتخافى ولاتحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فأمرها
اذا ولدت ان تجعله فى تابوت ثم تلقيه فى اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت فى نفسها مافعلت
بابنى لوذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب الى من أن ألقيه الى دواب البحر وحيتانه فانتهى الماء به حتى أوفى به عند مرفعة
مستقى جوارى امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه فاردن ان يفتحن التابوت فقال بعضهم ان فى هذا مالا وانا ان فتحناه لم تصدقنا
امرأة الملك بما وجدنا فيه فحملنه كهيئته (٢٣٦) لم يخرجن منه شيأ حتى دفعنه اليها فلما فتحته رأت فيه غلاما فألقى الله عليه
منها محبة لم تلق منها على أحد قط
وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر
كل شئ الا من ذكر موسى فلما سمع
الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم
الى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك
من الفتون يا ابن جبير فقالت لهم
اقروه فان هذا الواحد لايزيد
فى بنى اسرائيل حتى آتى فرعون
فأستوهبه منه فان وهبه لى كنتم
قد أحسنتم وأجملتم وان أمر بذبحه
لم ألمكم فأتت فرعون فقالت قرة
عين لى ولك فقال فرعون يكون
لك فأمالى فلاحاجة لى فيه فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم
والذى يحلف به لو أقر فرعون أن
يكون قرة عين له كما أقرت امرأته
لهداه الله كما هداها ولكن حرمه
ذلك فارسلت الى من حولها الى كل
امرأة لها لان تختار له ظئرا فجعل
كلما أخذته امرأة منهن لترضعه
لم يقبل على ثديها حتى أشفقت
امرأة فرعون ان يمتنع من اللبن
فيموت فأحزنها ذلك فامرت به فأخرج الى السوق ومجمع الناس ترجو ان تجد له ظئرا يأخذ منها فلم يقبل وقيل
وأصبحت أم موسى والها فقالت لأخته قصى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أحى ابنى أم قد أكلته الدواب ونسيت ما كان الله
وعدها فيه فبصرت به أخته عن جنب وهم لايشعرون والجنب أن يسمو بصر الانسان الى شئ بعيد وهو الى جنبه لايشعر به فقالت
من الفرح حين أعياهم الظؤرات انا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا ومايدريك ما نصحهم له هل
تعرفينه حتى شكوا فى ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى صهر الملك ورجاء منفعة الملك
فتركوها فانطلقت الى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته فى حجرها نزا الى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا وانطلق البشير
الى امرأة فرعون يبشرونها ان قد وجدنا لابنك ظئرا فأرسلت اليها فأتيت بها وبه فلما رأت مايصنع بها قالت امكثى ترضعى ابنى هذا

مصدر والغالب فى الاستعمال ان تستعمل هذه الكلمة مكررة والثانية توكيد لفظى
للاولى وليست المسئلة من التنازع واللام فى (لما توعدون) لبيان المستبعد كما فى قوله
هيت لك كأنه قيل لماذا هذا الاستبعاد فقيل لما توعدون والمعنى بعد اخراجكم للوعد
الذى توعدون هذا على ان هيهات اسم فعل وقال الزجاج هو فى تقدير المصدر أى البعد لما
توعدون أو بعد لما توعدون على قراءة من نون ثم بين سبحانه اترافهم بأنهم قالوا (ان هى)
أى ما الحياة (الا حياتنا الدنيا) لا الحياة الآخرة التى تعدنابها فأقيم الضمير مقام الاولى
لدلالة الثانية عليها حذرا من التكرار واشعارا باغنائها عن التصريح كما فى هى النفس
تحمل ما حملت وهى العرب تقول ماشاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالة على
الجنس كانت ان النافية بمنزلة لا النافية للجنس وجملة (نموت ونحيى) مفسرة لما ادعوه من
قصرهم حياتهم على حياة الدنيا وقيل يموت الآباء ويحيا الابناء وقيل يموت قوم ويحيا
قوم أو يموت بعض ويولد بعض وينقرض قرن فيأتى آخر وفيه تقديم وتأخير أى نحيى
ونموت وبه قرأ أبى وابن مسعود ثم صرحوا بنفى البعث وان الوعد به منه افتراء على الله
فقالوا (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت (ان هو الا رجل افترى على الله كذبا) أى ما هو
فيما يدعيه من النبوة والبعث الا مفتريا يكذب على الله (وما نحن له بمؤمنين) أى بمصدقين
له فيما يقوله (قال) نبيهم لما علم بأنهم لايصدقون البتة (رب انصرنى) عليهم وانتقم
لى منهم (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم اياى (قال) الله سبحانه مجيبا لدعائه
واعدا له بالقبول لما دعا به (عما قليل) من الزمان وفى معناه عن قريب وعن قليل بعد
وما مزيدة بين الظرف للتوكيد لقلة الزمان كما فى قوله فبما رحمة من الله (ليصبحن نادمين)
على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والاصرار على الكفر ثم أخبر سبحانه بأنهم
أخذتهم الصيحة وحاق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه فقال (فأخذتهم الصيحة) قال
المفسرون صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التى أهلكهم الله بها فماتوا جميعا

وقيل الصيحة هي نفس العذاب والهلاك الذى نزل بهم (بالحق) أى كائنة بالعدل من الله فانوا يقال فلان يقضى بالحق أى بالعدل ثم أخبر سبحانه عما صاروا اليه بعد العذاب النازل بهم فقال (فجعلناهم غثاء) أى كغثاء السيل قيل الغثاء الجفاء وقال الزجاج هو البالى من ورق الشجر اذا جرى السيل خالط زبده وقيل كل ما يلقيه السيل والقدر مما لا ينتفع به وبه يضرب المثل فى ذلك ولامه واو لانه من غثا الوادى يغثو غثوا وكذلك غثت القدر وقال المحلى هو نبت يبس وعنه هو العشب اذا يبس والمعنى صيرناهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء وقال ابن عباس جعلوا كالشئ الميت البالى من الشجر (فبعدا للقوم الظالمين) أى بعدوا بعدا أو الزمنا بعدا فهو اخبار أو دعاء واللام لبيان من قيل له ذلك كما فى سقيا له وجدعا له قاله الزمخشرى وقال العوفى متعلق ببعدا وهذا مردود لانه لا يحفظ حذف هذه اللام ووصول المصدر الى مجرورها البتة ولذلك منعوا الاشتغال فى قوله فتعسا لهم وهو من المصادر المنصوبة بافعال لا يستعمل اظهارها ووضع الظاهر موضع المضمر للتعليل (ثم انشأنا من بعدهم قرونا آخرين) أى مع رسلهم بعد اهلاكهم قيل هم قوم صالح ولوط وشعيب ويونس وأيوب وغيرهم كما وردت قصتهم على هذا الترتيب فى الاعراف وهود وقيل هم بنو اسرائيل وكان فيهم الرسل قبل موسى والقرون الامم ولعل وجه الجمع هنا للقرون والافراد فيما سبق قريبا انه أراد ههنا أمما متعددة وهنالك أمة واحدة ثم بين سبحانه كمال علمه وقدرته فى شأن عباده فقال (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى ما يتقدم كل طائفة مجتمعة فى قرن آجالها المكتوبة لها فى الهلاك ولا يتأخر عنها ومثل ذلك قوله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ذكر الضمير بعد تأنيثه رعاية للمعنى لان أمة بمعنى قوم ثم بين سبحانه ان رسله كانوا بعد هذه القرون متواترين وان شأن أممهم كان واحدا فى التكذيب لهم فقال (ثم أرسلنا رسلنا تترى) يعنى ارسال كل رسول متأخر عن انشاء القرن الذى أرسل اليه لا على معنى ان ارسال الرسل جميعا متأخر

فانى لم أحب شيأ حبه قط قالت أم موسى لا أستطيع ان ادع بيتى وولدى فيضيع فان طابت نفسك ان تعطينيه فاذهب به الى بيتى فيكون معى لا آلوه خيرا فعلت فانى غير تاركة بيتى وولدى وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت ان الله منجز وعده فرجعت به الى بيتها من يومها وأنبته الله نباتا حسنا وحفظه لما قد قضى فيه فلم يزل بنو اسرائيل وهم فى ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى أزيرينى ابنى فوعدتها يوما تزورها اياه فيه وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها لا يبقين أحد منكم الا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك وأنا باعثة أمينا يحصى ما يصنع كل انسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه الى أن دخل على امرأة فرعون فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به ونحلت أمه لحسن (٢٣٧) أثرها عليه ثم قالت لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه فلما دخلت به عليه جعله فى حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها الى الارض فقال الغواة من أعداء الله لفرعون ألا ترى ما وعد الله ابراهيم نبيه انه زعم ان يرثك ويعلوك ويصرعك فارسل الى الذباحين ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به وأريد به فتونا فجاءت امرأة فرعون فقالت ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لى فقال ألا ترينه يزعم انه يصرعنى ويعلونى فقالت اجعل بينى وبينك أمرا يعرف الحق به ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن اليه فان بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت انه يعقل وان تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت ان أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل فقرب اليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده فقالت المرأة ألا ترى فصرفه الله عنه بعدما كان قد هم به وكان الله بالغا فيه أمره فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص الى أحد من بنى اسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة اذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر اسرائيلى فاستغاثه الاسرائيلى على الفرعونى فغضب موسى غضبا شديدا لانه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى اسرائيل وحفظه لهم لا يعلم الناس الا انما ذلك من الرضاع الا أم موسى الا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره فوكز موسى الفرعونى فقتله وليس يراهما أحد الا الله عز وجل والاسرائيلى فقال موسى حين قتل الرجل هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ثم قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم فأصبح فى المدينة خائفا يترقب الاخبار فأتى فرعون فقيل له ان بنى اسرائيل قتلوا رجلا من

آل فرعون خذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فقال ابغوني قاتله ومن يشهد عليه فان الملك وان كان صفوه مع قومه لا يستقيم له ان يقيد بغير بينة ولا ثبت فاطلبوا الي علم ذلك آخذ لكم بحقكم فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبتا اذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الاسرائيلي يقاتل رجلا من آل فرعون آخر فاستغاثه الاسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى فغضب الاسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني فقال للاسرائيلي لما فعل بالامس واليوم انك لغوي مبين فنظر الاسرائيلي الى موسى بعد ما قال له ما قال فاذا هو غضبان كغضبه بالامس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف أن يكون بعد ما قال له انك لغوي مبين أن يكون اياه أراد ولم يكن اراده انما أراد الفرعوني فخاف الاسرائيلي وقال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس وانما قاله مخافة أن يكون اياه (٢٣٨) أراد موسى ليقتله فتتاركا وانطلق الفرعوني فاخبرهم بما سمع من الاسرائيلي من الخبر حين يقول يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس فارسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فاخذ رسل فرعون في الطريق الاعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون ان يفوتهم فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقا حتى سبقهم الى موسى فاخبره وذلك من الفتون يا ابن جبير فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم الا حسن ظنه بربه عز وجل فانه قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان يعني بذلك حابستين غنمهما فقال لهما ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس قالتا ليس لنا قوة نزاحم القوم وانما نسقي من فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغترف في الدلو ماء كثيرا حتى كان أول الرعاء فانصرفتا بغنمهما الى أبيهما وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير واستنكر أبوهما سرعة صدرهما بغنمهما حفلا بطانا فقال ان لكما اليوم لشأنا فاخبرتاه بما صنع موسى فامر احداهما ان تدعوه فأتت موسى فدعته فلما كلمه قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته فقالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين فاحتملته الغيرة على ان قال لها ما يدريك ما قوته وما امانته فقالت اما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلا قط أقوى في ذلك السقي منه وأما الامانة فانه نظر الي حين أقبلت اليه وشخصت له فلما علم اني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ثم قال لي امشي خلفي وانعتي لي الطريق فلم يفعل هذا الا وهو أمين فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت فقال له هل لك ان أنكحك

عن انشاء تلك القرون جميعا ومعنى تترى تتواتر واحدا بعد واحد ويتبع بعضهم بعضا من الوتر وهو الفرد قال الاصمعي واترت كتبي عليه اتبعت بعضها بعضا الا أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة وقال غيره المواترة المتابعة بغير مهلة والاول أولى لان ما كان بدونها قيل مداركة ومواصلة كما في القاموس لا تترى وقرئ تترا بالتنوين على انه مصدر قال النحاس وعلى هذا يجوز تترا بكسر التاء لان معنى ثم أرسلنا واترنا وقرئ بألف من غير تنوين كشبعى ودعوى فألفه للتأنيث أو في موضع الحال أي متواترين قال ابن عباس بعضهم على اثر بعض أي غير متواصلين لان بين كل رسولين زمنا طويلا (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) مستأنفة مبينة لمجيء كل رسول لأمته على ان المراد بالمجيء التبليغ (فاتبعنا) الأمم والقرون (بعضهم بعضا) أي في الهلاك بما نزل بهم من العذاب (وجعلناهم أحاديث) أي سمرا وقصصا وأخبارا يسمع بها و يتعجب منها و يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به الناس كالأعاجيب جمع أعجوبة وهي ما يتعجب الناس منه أو جمع حديث على غير قياس وفي السمين ولكنه شاذ وقال الاخفش انما يقال ذلك في الشر ولا يقال في الخير كما يقال صار فلان حديثا أي عبرة وكما قال سبحانه في آية أخرى فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق قلت وهذه الكلية غير مسلمة فقد يقال صار فلان حديثا حسنا وقد شذت العرب في الفاظ فجمعوها على صيغة أفاعيل كاباطيل وأقاطيع وقال الزمخشري الاحاديث تكون اسم جمع للحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفاعيل ليس من أبنية اسم الجمع وانما ذكره أصحابنا فيما شذ من الجموع كقطيع وأقاطيع واذا كان عباديد قد حكموا عليه بأنه جمع تكسير مع انهم لم يلفظوا له بواحد فأحرى أحاديث وقد لفظ له بواحد وهو حديث فاتضح انه جمع تكسير لا اسم جمع لما ذكرنا (فبعدا القوم) دعاء عليهم (لا يؤمنون) وصفهم هنا بعدم الايمان وفيما سبق قريبا بالظلم لكون كل من الوصفين صادرا عن كل طائفة من

الطائفتين

احدى ابنتى هاتين على ان تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين ففعل فكانت على نبى الله موسى ثمان سنين واجبة وكانت سنتان عدة منه فقضى الله عنه عدته فاتمها عشرا قال سعيد وهو ابن جبير فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال هل تدرى أى الاجلين قضى موسى قلت لا وانا يومئذ لا أدرى فلقيت ابن عباس فذكرت ذلك له فقال أما علمت ان ثمانيا كانت على نبى الله واجبة لم يكن نبى الله لينقص منها شيأ ويعلم ان الله كان قاضيا عن موسى عدته الذى كان وعده فانه قضى عشر سنين فلقيت النصرانى فاخبرته ذلك فقال الذى سألته فاخبرك أعلم منك بذلك قلت أجل وأولى فلما سار موسى باهله كان من أمر النار والعصى ويده ما قص الله عليك فى القرآن فشكا الى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه فانه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام (٢٣٩) وسأل ربه ان يعينه باخيه هرون يكون له ردأ ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فآتاه الله سؤله وحل عقدة من لسانه وأوحى الله الى هرون وأمره ان يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هرون عليه السلام فانطلقا جميعا الى فرعون فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا انا رسولا ربك قال فمن ربكما فاخبراه بالذى قص الله عليك فى القرآن قال فما تريدان وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت قال أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بنى اسرائيل فأبى عليه وقال ائت بآية ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هى حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة الى فرعون فلما رآها فرعون قاصدة اليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى ان يكفها عنه ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص ثم ردها فعادت الى لونها الاول فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له هذان ساحران يريدان ان يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى يعنى ملكهم الذى هم فيه والعيش وأبوا على موسى ان يعطوه شيأ مما طلب وقالوا له اجمع لهما السحرة فانهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما فارسل الى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم فلما أتوا فرعون قالوا بما يعمل هذا الساحر قالوا يعمل بالحيات قالوا فلا والله ما أحد فى الارض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل فما أجرنا ان نحن غلبنا قال لهم أنتم أقاربى وخاصتى وانا صانع الكم كل شئ أحببتم فتواعدوا يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى قال سعيد بن جبير فحدثنى ابن عباس ان يوم الزينة اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء فلما اجتمعوا فى صعيد قال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الامر لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين يعنون موسى وهرون استهزاء بهما فقالوا يا موسى

الطائفتين أو لكون هؤلاء لم يقع منهم الا مجرد عدم التصديق وأولئك ضموا اليه تلك الاقوال الشنيعة التى هى أشد الظلم وأفظعه ثم حكى سبحانه ما وقع من فرعون وقومه عند ارسال موسى وهرون اليهم فقال (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون) متلبسين (بآياتنا) هى التسع المتقدم ذكرها غير مرة ولا يصح عد فلق البحر منها هنا لان المراد الآيات التى كذبوا بها واستكبروا عنها (وسلطان مبين) المراد به الحجة الواضحة البينة قيل هى الآيات التسع نفسها والعطف من باب الى الملك القرم وابن الهمام وقيل أراد العصا لانها أم الآيات فيكون من باب عطف جبريل على الملائكة وقيل المراد بالآيات الدلائل التى كانت لهما وبالسلطان المبين التسع الآيات (الى فرعون وملئه) أى الاشراف منهم كما سبق بيانه غير مرة (فاستكبروا) أى طلبوا الكبر وتكلفوه وتعظموا عن الايمان ولم ينقادوا للحق (وكانوا قوما عالين) قاهرين للناس أو لبنى اسرائيل بالبغى والظلم مستعلين عليهم متطاولين كبرا وعنادا وتمردا (فقالوا أنؤمن لبشرين) يعنون بهما موسى وهرون (مثلنا) الاستفهام للانكار أى كيف نصدق من كان مثلنا فى البشرية والبشر يطلق على الواحد كقوله بشرا سويا كما يطلق على الجمع كقوله فاما ترين من البشر أحدا فتثنيته هنا هى باعتبار المعنى الاول ويطلق على المثنى والمذكر والمؤنث وأفرد المثل لانه فى حكم المصدر يجرى مجراه فى الافراد والتذكير ولا يؤنث أصلا وقد يطابق ما هو له تثنية كقوله يرونهم مثليهم رأى العين وجمعا كقوله ثم لا يكونوا أمثالكم (وقومهما) أى بنو اسرائيل (لنا عابدون) أى انهم مطيعون لنا منقادون لما نأمرهم به كانقياد العبيد قال المبرد العابد المطيع الخاضع قال أبو عبيدة العرب تسمى كل من دان الملك عابدا له وقيل يحتمل انه كان يدعى الالهية فدعا الناس الى عبادته فاطاعوه وتقديم الظرف لرعاية الفواصل والجملة حالية (فكذبوهما) أى فأصروا على تكذيبهما (فكانوا من المهلكين) بالغرق فى البحر ثم حكى سبحانه ما جرى على قوم موسى بعد اهلاك عدوهم فقال (ولقد

تغذرهم بسحرهم اما ان تلقي واما ان نكون نحن الملقين قال بل القوا فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فرأى موسى من سحرهم ما اوجس في نفسه خيفة فاوحى الله اليه ان الق عصاك فلما القاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزا الى الثعبان تدخل فيه حتى ما ابقت عصا ولا حبلا الا ابتلعته فلما عرف السحرة ذلك قالوا لو كان هذا سحرا لم يبلغ من سحرنا كل هذا ولكن هذا أمر من الله عز وجل آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله ونتوب الى الله مما كنا عليه فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن واشياعه وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون واشياعه فمن رآها من آل فرعون ظن انها انما ابتذلت الشفقة على فرعون واشياعه وانما كان حزنها (٢٤٠) وهمها لموسى فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عنده ان يرسل معه بني اسرائيل فاذا مضت أخلف موعده وقال هل يستطيع ربك ان يصنع غير هذا فارسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو الى موسى ويطلب اليه ان يكفها عنه ويواثقه على ان يرسل معه بني اسرائيل فاذا كف ذلك عنه أخلف موعده ونكث عهده حتى امر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا فلما أصبح فرعون ورأى انهم قد مضوا ارسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله الى البحر اذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه ثم التق على من بقي بعد من فرعون واشياعه فنسي موسى ان يضرب البحر بالعصا وانتهى الى البحر وله قصيف مخافة ان يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى انا لمدركون افعل ما أمرك به ربك وقيل فانه لم يكذب ولم تكذب قال وعدني ربي اذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى جاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما ان جاز موسى واصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه انا نخاف ان لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون ان هؤلاء متبر ما هم فيه الآية قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى فأنزلهم موسى منزلا وقال أطيعوا هارون فاني قد استخلفته عليكم فاني ذاهب الى ربي وأجلهم ثلاثين يوما ان يرجع اليهم فيها فلما أتى ربه

آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة وخص موسى بالذكر لان التوراة أنزلت عليه في الطور وكان هرون خليفته في قومه (لعلهم) أي لعل قوم موسى (يهتدون) بها الى الحق ويعملون بما فيها من الشرائع فجعل سبحانه ايتاء موسى اياها ايتاء لقومه لانها وان كانت منزلة على موسى فهي لارشاد قومه وقيل المعنى آتينا قوم موسى الكتاب وقيل ضمير لعلهم يرجع الى فرعون وملئه وهو وهم لان موسى لم يؤت التوراة الا بعد هلاك فرعون وقومه كما قال سبحانه ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى ثم أشار سبحانه الى قصة عيسى اجمالا فقال (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أي علامة تدل على عظيم قدرتنا وبديع صنعنا وقد تقدم الكلام على هذا في آخر سورة الانبياء في تفسير قوله سبحانه وجعلناها وابنها آية للعالمين قال قتادة آية أي ولدته من غير أب وخلق من غير نطفة وعن الربيع بن أنس قال آية أي عبرة ولم يقل آيتين لان الاعجوبة فيهما واحدة أو المراد ابن مريم آية وأمه آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها (وآويناهما) أي أسكناهما وأنزلناهما وأوصلناهما وجعلناهما يأويان (الى ربوة) بفتح الراء وضمها قراءتان سبعيتان قيل هي أرض دمشق وبه قال عبد الله بن سلام وسعيد بن المسيب ومقاتل وقيل بيت المقدس قاله قتادة وكعب وقيل أرض فلسطين قاله السدي قال ابن عباس الربوة المستوية وهي المكان المرتفع من الارض وهو أحسن ما يكون فيه النبات وأنبئنا انه دمشق وقيل هو أعلى مكان من الارض فيزيد على غيره في الارتفاع ثمانية عشر ميلا فهو أقرب بقاع الارض الى السماء وعن مرة البهزي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الربوة الرملة أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم وعن أبي هريرة قال هي الرملة من فلسطين وقيل مصر وسبب الايواء انها فرت بابنها اليها لان ملك ذلك الزمان كان أراد أن يقتل عيسى فهربت به الى تلك الربوة ومكثت بها اثنتي عشرة سنة حتى هلك ذلك الملك (ذات قرار) أي مستوى مستقر ليستقر عليه ساكنوه وقال ابن عباس أي ذات خصب

وقيل ذات ثمار (و) ماء (معين) قال الزجاج والفراء هو الماء الجاري في العيون فالميم على هذا زائدة كزيادتها في مبيع وقيل هو فعيل بمعنى مفعول قال علي بن سليمان الاخفش يقال معن الماء اذا جرى فهو معين وممعون وكذا قال ابن الاعرابي وقيل هو مأخوذ من الماعون وهو النفع قال ابن عباس المعين الماء الجاري وقيل الذي تراه العيون وهو النهر الذي قال الله قد جعل ربك تحتك سريا (ياأيها الرسل كلوا) قال الزجاج هذه مخاطبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال ابن جرير ان الخطاب لعيسى قال الفراء هو كما تقول للرجل الواحد كفوا عنا وقيل ان هذه المقالة خوطب بها كل نبي في زمانه لان هذه طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها فيكون المعنى وقلنا ياأيها الرسل خطابا لكل واحد على انفراده لاختلاف أزمنتهم ويدخل تحته عيسى دخولا أوليا فهذه حكاية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وجه الاجمال لما خوطب به كل رسول في عصره جيء بها اثر حكاية ايواء عيسى وأمه الى الربوة ايذانا بأن ترتيب مبادي التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام بل اباحة الطعام شرع قديم جرى عليه جميع الرسل ووصوا به أي وقلنا لكل رسول من الرسل كلوا (من الطيبات) وهو ما يستطاب ويستلذ وقيل هي الحلالات وقيل هي ما جمع الوصفين المذكورين ثم بعد ان أمرهم بالاكل من الطيبات أمرهم بالعمل الصالح فقال (واعملوا) عملا (صالحا) وهو ما كان موافقا للشرع فعبر عن تلك الاوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية اجمالا للايجاز وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهبان من رفض الطيبات ما لا يخفى ثم علل هذا الامر بقوله (اني بما تعملون عليم) لا يخفى علي شيء منه واني مجازيكم على حسب أعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر وهو تخويف للرسل والمقصود أممهم أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ياأيها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ياأيها الرسل كلوا الآية وقال

وأراد ان يكلمه في ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره ان يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم الارض شيأ فمضغه فقال له ربه حين أتاه لم أفطرت وهو أعلم بالذي كان قال يارب اني كرهت ان أكلمك الا وفمي طيب الريح قال أوما علمت ياموسى ان ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ارجع فصم عشرا ثم ائتني ففعل موسى عليه السلام ما أمره به فلما رأى قوم موسى انه لم يرجع اليهم في الاجل ساءهم ذلك وكان هرون قد خطبهم وقال انكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ولكم فيهم مثل ذلك فاني أرى انكم تحتسبون مالكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ولسنا برادين اليهم شيأ من ذلك ولا ممسكيه لانفسنا فحفر حفيرا وأمر كل قوم عندهم من ذلك شيء من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير ثم أوقد عليه النار فأحرقته فقال لا يكون لنا ولا لهم وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني اسرائيل ولم يكن من بني اسرائيل فاحتمل مع موسى وبني اسرائيل حين احتملوا فقضى له ان رأى له أثرا فقبض منه قبضة فمر بهرون فقال له هرون عليه السلام ياسامري ألا تلقي ما في يدك وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ولا ألقيها لشيء الا ان تدعو الله اذا ألقيتها ان يجعلها ما أريد فألقاها ودعا له هرون فقال أريد ان يكون عجلا فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عجلا أجوف ليس فيه روح وله خوار قال ابن عباس لا والله ما كان له صوت قط انما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه وكان ذلك الصوت من ذلك فتفرق بنو اسرائيل فرقا فقالت فرقة ياسامري ما هذا وأنت أعلم به قال هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق فقالت فرقة لا نكذب بها حتى يرجع الينا موسى فان كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه وان لم يكن ربنا فانا نتبع قول موسى وقالت فرقة هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا التكذيب به فقال لهم هرون ياقوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا هذه أربعون يوما قد مضت وقال سفهاؤهم أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه فلما كلم الله موسى وقال له ما قال أخبره بما لقي قومه من بعده فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا فقال لهم ما سمعتم في القرآن وأخذ برأس أخيه يجره اليه وألقى الالواح من الغضب ثم انه عذر أخاه بعذره واستغفر له وانصرف الى السامري فقال له ما حملك على ما صنعت قال قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم فنبذتها وكذلك

سولت لى نفسى قال فاذهب فان لك فى الحياة ان تقول لامساس وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ولو كان الهالم يخلص الى ذلك منه فاستيقن بنو اسرائيل بالفتنة واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هرون فقالوا لجماعتهم ياموسى سل لنا ربك ان يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا ماعملنا فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك لا يألوا الخير خيار بنى اسرائيل ومن لم يشركه فى العجل فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الارض فاستحيا نبى الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم مافعل فقال لو شئت أهلكتهم من قبل واياى اتهلكنا بما فعل السفهاء منا وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وايمانه به فلذلك رجفت بهم الارض فقال رحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون (٢٤٢) الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل فقال يارب سألتك التوبة لقومى فقلت ان رحمتى كتبتها لقوم غير قومى هلا أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة فقال له ان توبتهم ان يقتل كل رجل منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهرون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ماأمروا وغفر الله للقاتل والمقتول ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الارض المقدسة وأخذ الالواح بعد ماسكت عنه الغضب فأمرهم بالذى أمرهم به ان يبلغهم من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا ان يقروا بها فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا ان يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون الى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة ان يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الارض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوما جبارين خلقهم خلق منكر وذكروا من ثمارهم أمرا عجيبا من عظمها فقالوا ياموسى ان فيها قوما جبارين لاطاقة لنا بهم ولا ندخلها ماداموا فيها فان يخرجوا منها فانا داخلون قال رجلان من الذين يخافون قيل ليزيد هكذا قرأت قال نعم من الجبارين آمنا بموسى وخرجا اليه قالوا نحن أعلم بقومنا ان كنتم انما تخافون مارأيتم من أجسامهم وعددهم فانهم لاقلوب لهم ولا منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون ويقول اناس انهم من قوم موسى فقال الذين يخافون بنو اسرائيل قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون فاغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية واساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله له

ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يمد يديه الى السماء يارب يارب فأنى يستجاب لذلك وعن حفص الفزارى قال ذلك عيسى بن مريم كان يأكل من غزل أمه وهو مرسل لان حفصا تابعى (وان هذه أمتكم أمة واحدة) هذا من جملة ماخوطب به الانبياء والمعنى واعلموا ان هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملة واحدة وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم مابعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه وهو دعاء جميع الانبياء الى عبادة الله وحده لاشريك له والمراد بها على هذا العقائد اذ هى التى اتحدت فى كل الشرائع أما الاحكام الفرعية فقد اختلفت باختلاف الشرائع وقيل المعنى ان هذا الذى تقدم ذكره هو دينكم وملتكم فالزموه على ان المراد بالامة هنا الدين كما فى قوله انا وجدنا آباءنا على أمة وقال الخليل أى أنا عالم بان هذا دينكم الذى أمرتكم ان تؤمنوا به قال الفراء واعلموا ان هذه أمتكم وقال سيبويه فاتقون لان أمتكم أمة واحدة وانما أشير اليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد وانتظامها بسبب ذلك فى سلك الامور المشاهدة والفاء فى (وأنا ربكم فاتقون) لترتيب الامر بالتقوى على ماقبله من كونه ربكم المختص بالربوبية أى لاتفعلوا مايوجب العقوبة عليكم منى بأن تشركوا بى غيرى أو تخالفوا ماأمرتكم به أو نهيتكم عنه ثم ذكر سبحانه ماوقع من الامم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل فقال (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) الفاء لترتيب عصيانهم على ماسبق من الامر بالتقوى والضمير يرجع الى مايدل عليه لفظ الامة والمعنى انهم جعلوا دينهم مع اتحاده قطعا متفرقة وأديانا مختلفة قال المبرد زبرا فرقا وقطعا مختلفة واحدها زبور وهى الفرقة والطائفة ومثله الزبرة وجمعها زبر بالضم والفتح قيل معنى زبرا كتبا فوصف سبحانه الامم بأنهم اختلفوا فاتبعت فرقة التوراة وفرقة الزبور وفرقة الانجيل ثم حرفوا وبدلوا وفرقة مشركة اتبعوا مارسمه لهم آباؤهم من الضلال قرئ زبرا بضم الباء

وقرئ

وسماهم كما سماهم فاسقين وحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار وظلل عليهم
الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا وأمر موسى فضربه
بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من منقلة
الا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالامس رفع ابن عباس هذا الحديث الى النبي صلى الله عليه وسلم وصدق ذلك
عندي ان معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فانكر عليه ان يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي
قتل فقال كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه الا الاسرائيلي الذي حضر ذلك فغضب ابن عباس فاخذ بيد معاوية
وانطلق به الى سعد بن مالك الزهري فقال له يا أبا اسحق هل تذكر يوم حدثنا (٢٤٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتيل
موسى الذي قتل من آل فرعون
الاسرائيلي الذي أفشى عليه أم
الفرعوني قال انما أفشى عليه
الفرعوني بما سمع من الاسرائيلي
الذي شهد على ذلك وحضره هكذا
رواه النسائي في السنن الكبرى
وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن
أبي حاتم في تفسيريهما كلهم من
حديث يزيد بن هرون به وهو موقوف
من كلام ابن عباس وليس فيه
مرفوع الا قليل منه وكأنه تلقاه
ابن عباس رضي الله عنهما مما أبيح
نقله من الاسرائيليات عن كعب
الاحبار أو غيره والله أعلم وسمعت
شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي
يقول ذلك أيضا وقوله عز وجل
(فلبثت سنين في أهل مدين ثم
جئت على قدر يا موسى واصطنعتك
لنفسي اذهب أنت وأخوك بآياتي
ولا تنيا في ذكري اذهبا الى فرعون
انه طغى فقولا له قولا لينا لعله
يتذكر أو يخشى) يقول تعالى
مخاطبا لموسى عليه السلام انه لبث مقيما في أهل مدين فارا من فرعون وملئه يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الاجل ثم
جاء موافقا لقدر الله وارادته من غير ميعاد والامر كله لله تبارك وتعالى وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء ولهذا قال ثم جئت على
قدر يا موسى قال مجاهد أي على موعد وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله ثم جئت على قدر يا موسى قال على قدر الرسالة
والنبوة وقوله واصطنعتك لنفسي أي اصطفيتك واجتبيتك رسولا لنفسي أي كما أريد وأشاء وقال البخاري عند تفسيرها حدثنا
الصلت بن محمد حدثنا مهدي بن ميمون حدثنا محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال التقى آدم وموسى
فقال موسى أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة فقال آدم وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل
عليك التوراة قال نعم قال فوجدته مكتوبا علي قبل ان يخلقني قال نعم فحج آدم موسى أخرجاه وقوله اذهب أنت وأخوك بآياتي

وقرئ بفتحها أي قطعا كقطع الحديد (كل حزب بما لديهم فرحون) أي كل فريق من
هؤلاء المختلفين بما عندهم من الدين معجبون مسرورون لاعتقادهم انهم على الحق
(فذرهم في غمرتهم) أي اتركهم في جهلهم فليسوا بأهل للهداية ولا يضق صدرك
بتأخير العذاب عنهم فلكل شيء وقت شبه سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذي يغمر من
دخل فيه والغمرة في الاصل ما يغمرك ويعلوك وأصلها الستر والغمر الماء الكثير لانه
يغطي الارض وغمر الرداء هو الذي يشمل الناس بالعطاء ويقال للحقد الغمر والمراد هنا
الحيرة والغفلة والضلالة والآية خارجة مخرج التهديد لهم والتسلية لرسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم لا مخرج الامر له صلى الله عليه وآله وسلم بالكف عنهم بل نهي له عن
الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره ومعنى (حتى حين) حتى يحضر وقت عذابهم
بالقتل أو حتى يموتوا على الكفر فيعذبون بالنار (أيحسبون) الهمزة للانكار والجواب
عنه مقدر يدل عليه قوله الآتي بل لا يشعرون (أنما نمدهم به من مال وبنين) أي ما نعطيهم
في هذه الدنيا من الاموال والبنين ونجعله مددا لهم (نسارع لهم في الخيرات) أي فيما فيه
خيرهم واكرامهم قال الزجاج المعنى نسارع لهم به في الخيرات فحذفت به وما في أنما
موصولة والرابط هو هذا المحذوف وقال الكسائي ان أنما هو حرف واحد فلا تحتاج الى
رابط وقرئ يسارع بالتحتية على ان فاعله هو الامداد أو يسارع الله لهم وقرئ بالنون قال
الثعلبي وهذه هي الصواب لقوله نمدهم وهذه الآية حجة على المعتزلة في مسئلة الاصلح لانهم
يقولون ان الله لا يفعل بأحد من الخلق الا ما هو أصلح له في الدين وقد أخبر ان ذلك ليس
بخير لهم في الدين ولا أصلح (بل لا يشعرون) عطف على مقدر ينسحب اليه الكلام
أي اضراب انتقالي عن الحسبان المستفهم عنه استفهام تقريع والمعنى كلا لا نفعل
ذلك بل هم لا يشعرون بشيء أصلا كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل فان ما خولناهم من النعم

أي يجعني وبراعيني ومجزاني ولا تنيا في ذكري قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لا تبطئا وقال مجاهد عن ابن عباس لا تضعفا والمراد انهما لا يفتران في ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عونا لهما عليه وقوة لهما وسلطانا كاسرا له كما جاء في الحديث ان عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه وقوله اذهبا الى فرعون انه طغى أي تمرد وعتى وتجبر على الله وعصاه فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو ان فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه اذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون الا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الرقاشي عند قوله فقولا له قولا لينا يا من يتحبب الى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه وقال وهب بن منبه قولا له اني الى العفو والمغفرة أقرب مني الى الغضب والعقوبة وعن عكرمة في قوله فقولا له قولا لينا قال لا اله الا الله وقال عمرو بن عبيد عن الحسن البصري فقولا له قولا لينا اعذرا اليه قولا له ان لك ربا ولك معادا وان بين يديك جنة ونارا وقال بقية عن علي بن هرون عن رجل عن الضحاك بن مزاحم عن النزال بن سبرة عن علي في قوله فقولا له قولا لينا قال كنه وكذا روي عن سفيان الثوري كنه بابي مرة والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وقوله لعله يتذكر أو يخشى أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى أي يوجد طاعة من خشي ربه كما قال تعالى لمن أراد ان يذكر أو يخشى فالتذكر الرجوع عن المحذور والخشية تحصيل الطاعة وقال الحسن البصري لعله يتذكر أو يخشى يقول لا تقل أنت يا موسى وأخوك هرون أهلكه قبل ان اعذر اليه وههنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل ويروى لأمية بن أبي الصلت فيما ذكره ابن اسحق

وانت الذي من فضل من ورحمة * بعثت الى موسى رسولا مناديا

فقلت له فاذهب وهرون فادعوا * الى الله فرعون الذي كان باغيا

فقولا له أأنت سويت هذه * بلا وتد حتى استقلت كما هيا

وقولا له أأنت رفعت هذه * بلا عمد أرفق اذن بك بانيا

وقولا له أأنت سويت وسطها * منيرا اذا ما جنه الليل هاديا

وقولا له من يخرج الشمس بكرة * فيصبح ما مست من الارض ضاحيا

وقولا له من ينبت الحب في الثرى * فيصبح منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤسه * ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وأمددناهم به من الخيرات انما هو استدراج لهم واستجرار الى زيادة الاثم ليزدادوا اثما كما قال سبحانه انما نملي لهم ليزدادوا اثما وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات ولما نفى سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلا وآجلا فوصفهم بصفات أربع الاولى قوله (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) الاشفاق الخوف تقول انا مشفق من هذا الامر أي خائف قيل الاشفاق هو الخشية فظاهر ما في الآية هو التكرار وأجيب بحمل الخشية على العذاب أي من عذاب ربهم خائفون ولو من غير فعل خطيئة وبه قال الكلبي ومقاتل وأجيب ايضا بحمل الاشفاق على ما هو أثره وهو الدوام على الطاعة أي داعون على طاعته وأجيب أيضا بان الاشفاق كمال الخوف فلا تكرار وقيل هو تكرير للتأكيد كما أشار اليه في التقرير وفيه نظر والصفة الثانية قوله (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) قيل المراد بالآيات هي التنزيلية وقيل هي التكوينية وقيل بمجموعهما قيل وليس المراد بالايمان بها هو التصديق بوجودها فقط فان ذلك معلوم بالضرورة ولا يوجب المدح بل المراد التصديق بكونها دلائل وأن مدلولها حق والصفة الثالثة قوله (والذين هم بربهم لا يشركون) معه غيره أي يتركون الشرك تركا كليا ظاهرا وباطنا والصفة الرابعة قوله (والذين يؤتون) أي يعطون (ما آتوا) أي ما أعطوا (وقلوبهم وجلة) أي خائفة أشد الخوف من أجل ذلك الاعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله والجملة حالية قال الزجاج قلوبهم وجلة من (أنهم الى ربهم راجعون) وسبب الوجل هو ان يخافوا ان لا يقبل منهم ذلك على الوجه المطلوب لا مجرد رجوعهم اليه سبحانه وقيل المعنى أن من اعتقد الرجوع الى الجزاء والحساب وعلم ان المجازي والمحاسب هو الرب الذي لا تخفى عليه خافية لم يخل من وجل وقرئ يأتون ما أتوا مقصورا من الاتيان قال الفراء ولو صحت لم تخالف قراءة الجماعة لان من العرب من يلزم في

وقوله عز وجل (قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا انني معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى انا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى) يقول تعالى اخبارا عن موسى وهرون عليهما السلام انهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكين اليه انا نخاف ان يفرط علينا أو أن يطغى يعنيان ان يبدر اليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن يفرط يعجل وقال مجاهد يبسط علينا وقال الضحاك عن ابن عباس أو أن يطغى يعتدي قال لا تخافا انني معكما أسمع وأرى أي لا تخافا منه فانني معكما أسمع كلامكما وكلامه وأرى مكانكما ومكانه لا يخفى علي من أمركم شيء واعلما ان ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش الا باذني وبعد أمري وأنا معكما بحفظي ونصري (٢٤٥) وتأييدي وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال لما بعث الله عز وجل موسى الى فرعون فقال رب أي شيء أقول قال قل هيا شراهيا قال الاعمش فسر ذلك أنا الحي قبل كل شيء والحي بعد كل شيء اسناده جيد وشيء غريب فأتياه فقولا انا رسولا ربك قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس انه قال مكثا على بابه حينا لا يؤذن لهما ثم أذن لهما بعد حجاب شديد وذكر محمد بن اسحق ابن يسار ان موسى وأخاه هرون خرجا فوقفا بباب فرعون يلتمسان الاذن عليه وهما يقولان انا رسولا رب العالمين فآذنوا بنا هذا الرجل فمكثا فيما بلغني سنتين يغدوان ويروحان لا يعلم بهما ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطال له يلاعبه ويضحكه فقال له أيها الملك ان على بابك رجلا يقول قولا عجيبا يزعم ان له الها غيرك أرسله اليك قال ببابي قال نعم قال أدخلوه فدخل ومعه أخوه هرون وفي يده عصاه فلما وقف على فرعون قال اني رسول رب العالمين فعرفه فرعون وذكر السدي انه لما قدم بلاد مصر ضاف أمه وأخاه وهما لا يعرفانه وكان طعامهما ليلتئذ الطفشيل (١) وهو اللفت ثم عرفاه وسلما عليه فقال له موسى يا هرون ان ربي قد أمرني ان آتي هذا الرجل فرعون فادعوه الى الله وأمرك ان تعاونني قال افعل ما أمرك ربك فذهبا وكان ذلك ليلا فضرب موسى باب القصر بعصاه فسمع فرعون فغضب وقال من يجترئ على هذا الصنيع الشديد فأخبره السدنة والبوابون بان ههنا رجلا مجنونا يقول انه رسول الله فقال علي به فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذكر الله في كتابه وقوله قد جئناك بآية من ربك أي بدلالة ومعجزة من ربك والسلام على من اتبع الهدى أي والسلام عليك ان اتبعت الهدى ولهذا لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل عظيم الروم كتابا كان

(١) قوله الطفشيل كذا بالنسخ وليحرر

الهمز الالف في كل الحالات قال النحاس ومعناها يعملون ما عملوا ويفعلون ما فعلوا من الطاعات أخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة قالت قلت يا رسول الله قول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله قال لا ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله ان لا يتقبل منه وعن ابن عباس قال يعطون ما أعطوا ويعملون خائفين وعن ابن عمر قال الزكاة وعن عائشة قالت هم الذين يخشون الله ويطيعونه وأخرج البخاري في تاريخه والدارقطني والحاكم وصححه وغيرهم عن عبيد بن عمير انه سأل عائشة كيف كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ هذه الآية والذين يؤتون ما آتوا والذين يأتون ما أتوا قالت أيتهما أحب اليك قلت والذي نفسي بيده لاحدهما أحب الي من الدنيا وما فيها جميعا قالت أيتهما قلت الذين يأتون ما أتوا فقالت أشهد ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرؤها كذلك وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف وفي اسناده اسمعيل بن علي وهو ضعيف (أولئك) أي المتصفون بهذه الصفات (يسارعون في الخيرات) أي يبادرون بها ويرغبون في الطاعات أشد الرغبة قال الفراء والزجاج ينافسون فيها وقيل يسابقون وقرئ يسرعون (وهم لها سابقون) اللام للتقوية أي هم سابقون اياها وقيل اللام بمعنى الى كما في قوله بأن ربك أوحى لها أي اليها وقيل هم سابقون الناس لاجلها والاظهر ان الضمير يعود على الخيرات لتقدمها في اللفظ وقيل يعود على الجنة وقيل على السعادة قال ابن عباس أي سبقت لهم السعادة من الله ثم لما انجر الكلام الى ذكر أعمال المكلفين ذكر لها حكمين الاول قوله (ولا نكلف نفسا الا وسعها) قد تقدم بيان هذا في آخر سورة البقرة وفي تفسير الوسع قولان الاول انه الطاقة كما فسره بذلك أهل اللغة الثاني انه دون الطاقة وبه قال مقاتل والضحاك والكلبي والمعتزلة قالوا ان الوسع انما سمي وسعا لانه يتسع على فاعله فعله ولا يضيق عليه فمن لم

أوله بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وكذلك لما كتب مسيلمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا صورته من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد فانى قد أشركت فى الامر فلك المدر ولى الوبر ولكن قريش قوم يعتدون فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ولهذا قال موسى وهرون عليهما السلام لفرعون والسلام على من اتبع الهدى انا قد أوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى أى قد أخبرنا الله فيما أوحاه الينا من الوحى المعصوم ان العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته كما قال تعالى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وقال تعالى فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى وقال تعالى فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى أى كذب بقلبه وتولى بفعله (قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) يقول تعالى مخبرا عن فرعون انه قال لموسى منكرا وجود الصانع الخالق اله كل شئ وربه ومليكه قال فمن ربكما يا موسى أى الذى بعثك وأرسلك من هو فانى لا أعرفه وما علمت لكم من اله غيرى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول خلق لكل شئ زوجه وقال الضحاك عن ابن عباس جعل الانسان انسانا والحمار حمارا والشاة شاة وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد أعطى كل شئ صورته وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد سوى خلق كل دابة وقال سعيد بن جبير فى قوله أعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال أعطى كل ذى خلق ما يصلحه من خلقه ولم يجعل للانسان من خلق الدابة ولا للدابة من خلق الكلب ولا للكلب من خلق الشاة وأعطى كل شئ ما ينبغى له من النكاح وهيأ كل شئ على ذلك ليس شئ منها يشبه شيأ من أفعاله فى الخلق والرزق والنكاح وقال بعض المفسرين أعطى كل شئ خلقه ثم هدى كقوله تعالى الذى قدر فهدى أى قدر قدرا وهدى الخلائق اليه أى كتب الاعمال والآجال والارزاق ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه يقول ربنا الذى خلق الخلق وقدر القدر وجبل الخليقة على ما أراد قال فما بال القرون الاولى أصح الاقوال فى معنى ذلك ان فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر فهدى شرع يحتج بالقرون الاولى أى الذين لا يعبدون الله أى فما بالهم اذ كان الامر كذلك

يستطع الجلوس فليوم ايماء ومن لم يستطع الصوم فليفطر وهذه جملة مستأنفة للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى الى نيل الكرامات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة وان ذلك عادة الله سبحانه فى تكليف عباده وهو رد على من جوز تكليف ما لا يطاق (و) جملة (لدينا كتاب ينطق بالحق) من تمام ما قبلها من نفى التكليف بما فوق الوسع والمراد بالكتاب صحائف الاعمال أى عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل واحد من المكلفين على ما هى عليه يظهر به الحق المطابق للواقع من دون زيادة ولا نقص ومثله قوله سبحانه هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وفى هذا تهديد للعصاة وتأنيس للمطيعين من الحيف والظلم وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فانه قد كتب فيه كل شئ وقيل المراد القرآن والاول أولى وفى هذه الآية تشبيه للكتاب بمن يصدر عنه البيان بالنطق بلسانه فان الكتاب يعرب عما فيه كما يعرب الناطق الحق والمعنى ينطق متلبسا بالحق وجملة (وهم لا يظلمون) مبينة لما قبلها من تفضله تعالى وعدله فى جزاء عباده أى النفوس العاملة لا يظلمون شيأ منها بنقص ثواب أو بزيادة عقاب ومثله قوله سبحانه ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا والجمع باعتبار عموم النفس لوقوعها فى سياق النفى ثم أضرب سبحانه عن هذا فقال (بل قلوبهم فى غمرة) أى بل قلوب الكفار فى غمرة غامرة لها (من هذا) الكتاب الذى ينطق بالحق أو عن الامر الذى عليه المؤمنون يقال غمره الماء اذا غطاه ونهر غمر يغطى من دخله والمراد بها هنا الغطاء والغفلة أو الحيرة والعمى والجهالة قال ابن عباس يعنى بالغمرة الكفر والشك (ولهم) أى للكفار (أعمال من دون ذلك) قال ابن عباس يقول أعمال سيئة دون الشرك منها اقامة اماثم فى الزنا وقال قتادة ومجاهد أى لهم خطايا لا بد ان يعملوها من دون الحق وقال الحسن وابن زيد لهم أعمال سيئة لم يعملوها من دون ما هم عليه لا بد أن يعملوها فيدخلون بها النار والمراد بالدون الغير أى الضد أى ان لهم أعمالا

لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره فقال له موسى فى جواب ذلك هم وان لم يعبدوه فان علمهم عند الله مضبوط عليهم وسيجزيهم بعملهم فى كتاب وهو اللوح المحفوظ وكتاب الاعمال لا يضل ربى ولا ينسى أى لا يشذ عنه شئ ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيأ يصف علمه تعالى بأنه بكل شئ محيط وأنه لا ينسى شيأ تبارك وتعالى وتقدس وتنزه فان علم المخلوق يعتريه نقصانان أحدهما عدم الاحاطة بالشئ والآخر نسيانه بعد علمه فنزه نفسه عن ذلك (الذى جعل لكم الارض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه عز وجل حين سأله فرعون عنه فقال الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ثم أعرض الكلام بين ذلك ثم قال (٢٤٧) الذى جعل لكم الارض مهادا وفى قراءة بعضهم مهدا أى قرارا تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها وسلك لكم فيها سبلا أى جعل لكم طرقا تمشون فى مناكبها كما قال تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى أى من أ[نو]اع النباتات من زروع وثمار ومن حامض وحلو ومر وسائر الانواع كلوا وارعوا أنعامكم أى شئ لطعامكم وفاكهتكم وشئ لانعامكم لاقواتها خضرا ويبسا ان فى ذلك لآيات أى لدلالات وحجج وبراهين لأولى النهى أى لذوى العقول السليمة المستقيمة على انه لا اله الا الله ولا رب سواه منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى أى من الارض مبدؤكم فان أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الارض وفيها نعيدكم أى واليها تصيرون اذا متم وبليتم ومنها نخرجكم تارة أخرى يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا وهذه الآية كقوله تعالى قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون وفى الحديث الذى فى السنن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر وقال منها خلقناكم ثم أخذ أخرى وقال وفيها نعيدكم ثم أخرى وقال ومنها نخرجكم تارة أخرى وقوله ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى يعنى فرعون انه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات وعاين ذلك وأبصره فكذب بها وأباها كفرا وعنادا وبغيا كما قال تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا الآية (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى) يقول تعالى مخبرا عن فرعون انه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى وهى القاء عصاه فصارت ثعبانا عظيما ونزع يده من تحت

أعمال مضادة ومخالفة لاوصاف المؤمنين وقيل الاشارة بقوله ذلك اما الى أعمال المؤمنين أو الى أعمال الكفار أى لهم أعمال من دون أعمال المؤمنين التى ذكرها الله أو من دون أعمال الكفار التى تقدم ذكرها من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة مما ذكر وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن قال الواحدى اجماع المفسرين وأصحاب المعانى على ان هذا اخبار عما سيعملونه من أعمالهم الخبيثة التى كتبت عليهم لابد لهم ان يعملوها وجملة (هم لها عاملون) مقررة لما قبلها أى واجب عليهم أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم فى الازل من الشقاوة لا محيص لهم عن ذلك أى مستمرون عليها ثم رجع سبحانه الى وصف الكفار فقال (حتى) ابتدائية أو حرف جر أو غائية عاطفة أقوال (اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون) مبينة لما قبلها والضمير راجع الى ما تقدم ذكره من الكفار والمراد بالمترفين المتنعمون منهم وهم الذين أمدهم الله بما تقدم ذكره من المال والبنين أو المراد بهم الرؤساء منهم والمراد بالعذاب هو عذابهم بالسيف يوم بدر أو بالجوع بدعاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم عليهم حيث قال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف وقيل المراد عذاب الآخرة ورجح هذا بأن ما يقع منهم من الجؤار انما يكون عند عذاب الآخرة لانه الاستغاثة بالله ولم يقع منهم ذلك يوم بدر ولا فى سنى الجوع ويجاب عنه بأن الجؤار فى اللغة الصراخ والصياح قال الجوهرى الجؤار مثل الخوار يقال جأر الثور يجأر أى صاح وقد وقع منهم ومن أهلهم وأولادهم عند أن عذبوا بالسيف يوم بدر وبالجوع فى سنى الجوع وليس الجؤار ههنا مقيدا بالجؤار الذى هو التضرع بالدعاء حتى يتم ما ذكره هذا القائل وجملة اذا هم يجأرون جواب الشرط واذا هى الفجائية والمعنى حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فاجؤا الصراخ قال ابن عباس يجأرون يستغيثون أى بربهم ويلتجئون اليه فى كشف العذاب عنهم ومع ذلك لا ينفعهم ولذلك أخبر سبحانه انه يقال لهم حينئذ على جهة

جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء فقال هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم ولا يتم هذا معك فان عندنا سحرا مثل سحرك فلا يغرنك ما أنت فيه فاجعل بيننا وبينك موعدا اى يوما نجتمع نحن وأنت فيه فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين فعند ذلك قال لهم موسى موعدكم يوم الزينة وهو يوم عيدهم ونيروزهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الانبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ولهذا قال وان يحشر الناس أى جميعهم ضحى أى ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح وهكذا شأن الانبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج ولهذا لم يقل ليلا ولكن نهارا ضحى قال ابن عباس وكان يوم الزينة يوم عاشوراء وقال السدى وقتادة وابن زيد كان يوم عيدهم وقال سعيد بن جبير كان يوم سوقهم ولا منافاة قلت وفى مثله أهلك الله فرعون وجنوده كما ثبت فى الصحيح وقال وهب بن منبه قال فرعون يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلا ننظر فيه قال موسى لم أومر بهذا انما أمرت بمناجزتك ان أنت لم تخرج دخلت اليك فاوحى الله الى موسى ان اجعل بينك وبينه أجلا وقل له أن يجعل هو قال فرعون اجعله الى أربعين يوما ففعل وقال مجاهد وقتادة مكانا سوى منصفا وقال السدى عدلا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مكانا سوى مستو بين الناس وما فيه لا يكون صوت ولا شئ يتغيب بعض ذلك عن بعض مستو حتى يرى (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى) يقول تعالى مخبرا عن فرعون انه لما تواعد هو وموسى عليه السلام الى وقت ومكان معلومين تولى أى شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته كل من ينسب الى السحر فى ذلك الزمان وقد كان السحر فيهم كثيرا نافقا جدا كما قال تعالى وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ثم أتى أى اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة وجلس فرعون على سرير مملكته واصطف له أكابر دولته ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئا على عصاه ومعه أخوه هرون ووقف السحرة بين يدى فرعون صفوفا وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم فى اجادة عملهم فى ذلك اليوم ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم يقولون ائن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا أى لا تخيلوا للناس باعمالكم ايجاد أشياء لا حقائق لها

التبكيت (لا تجأروا اليوم) فالقول مضمر والجملة مسوقة لتبكيتهم واقناطهم وقطع أطماعهم وخص سبحانه المترفين مع ان العذاب لاحق بهم جميعا واقع على مترفيهم وغير مترفيهم لبيان انهم بعد النعمة التى كانوا فيها صاروا الى حالة تخالفها وتباينها فانتقلوا من النعيم التام الى الشقاء الخالص وخص اليوم بالذكر للتهويل والمعنى لا تصيحوا ولا تضجوا ولا تضجروا ولا تجزعوا ولا تستغيثوا والجؤار الصراخ باستغاثة وفى القاموس جأر كمنع جأرا وجؤارا رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث والبقرة والثور صاحا والنبات طال والارض طال نبتها (انكم منا لا تنصرون) تعليل للنهى عن الجؤار والمعنى انكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم وقيل المعنى لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم عما دهمكم من العذاب ثم عدد الله سبحانه عليهم قبائحهم توبيخا لهم فقال (قد كانت آياتى) اى القرآن (تتلى عليكم) فى الدنيا (فكنتم على اعقابكم تنكصون) أى ترجعون وراءكم قال ابن عباس تدبرون وأصل النكوص ان يرجع القهقرى اى الى جهة الخلف وهو اقبح المشيات لانه لا يرى ما وراءه وهو هنا استعارة للاعراض عن الحق وقرأ على بن ابى طالب على ادباركم بدل على اعقابكم (مستكبرين به) اى بالبيت العتيق وقيل بالحرم والذى سوغ الاضمار قبل الذكر اشتهارهم بالاستكبار به وافتخارهم بولايته والقيام به وكانوا يقولون لا يظهر علينا أحد لانا اهل الحرم وخدامه والى هذا ذهب جمهور المفسرين وقيل الضمير عائد الى القرآن والمعنى ان سماعه يحدث لهم كبرا وطغيانا فلا يؤمنون به قال ابن عطية وهذا قول جيد وقال النحاس القول الاول أولى وبينه بما ذكرناه فعلى الاول يكون به متعلقا بمستكبرين وعلى الثانى بقوله (سامرا) لانهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه والسامر كالحاضر والحاج والراكب والغائب فى الاطلاق على الجمع قال الواحدى السامر الجماعة يسمرون بالليل اى يتحدثون وقيل مأخوذ من السمر وهو سهر الليل وقال الراغب

وانها مخلوقة وليست مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله فيسحتكم بعذاب أي يهلككم بعقوبة هلاكا لابقية له وقد خاب من افترى فتنازعوا امرهم بينهم قيل معناه انهم تشاجروا فيما بينهم فقائل يقول ليس هذا بكلام ساحر انما هذا كلام نبي وقائل يقول بل هو ساحر وقيل غير ذلك والله أعلم وقوله وأسروا النجوى أي تناجوا فيما بينهم قالوا ان هذان لساحران وهذه لغة لبعض العرب جاءت هذه القراءة على اعرابها ومنهم من قرأ ان هذين لساحران وهذه اللغة المشهورة وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الاولى بما ليس هذا موضعه والغرض ان السحرة قالوا فيما بينهم تعلمون ان هذا الرجل وأخاه يعنون موسى وهرون ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر يريدان في هذا اليوم ان يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده فينصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم (٢٤٩) وقوله ويذهبا بطريقتكم المثلى أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر فانهم كانوا معظمين بسببها لهم أموال وأرزاق عليها يقولون اذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الارض وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم وقد تقدم في حديث الفتون أن ابن عباس قال في قوله ويذهبا بطريقتكم المثلى يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا هشيم عن عبد الرحمن بن اسحق سمع الشعبي يحدث عن علي في قوله ويذهبا بطريقتكم المثلى قال يصرفا وجوه الناس اليهما وقال مجاهد ويذهبا بطريقتكم المثلى قال أولو الشرف والعقل والاسنان وقال أبو صالح بطريقتكم المثلى أشرافكم وسرواتكم وقال عكرمة بخيركم وقال قتادة وطريقتهم المثلى يومئذ بنو اسرائيل وكانوا أكثر القوم عددا وأموالا فقال عدو الله

يريدان أن يذهبا بهم لانفسهما وقال عبد الرحمن بن زيد بطريقتكم المثلى بالذي انتم عليه وقوله فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا اي اجتمعوا كلكم صفا واحدا والقوا ما في ايديكم مرة واحدة لتبهتوا الابصار وتغلبوا هذا واخاه وقد افلح اليوم من استعلى اي منا ومنه أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل وأما هو فينال الرياسة العظيمة (قالوا يا موسى اما ان تلقي واما ان نكون اول من القى قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فاوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك انت الاعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) يقول تعالى مخبرا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام انهم قالوا لموسى اما ان تلقي أي أنت أولا واما ان نكون أول من ألقى قال بل ألقوا أي انتم والا ليرى الناس ماذا تصنعون من السحر وليظهر للناس جلية

الراغب السامر الليل المظلم وقرئ سمرا وسمارا ورويت هذه عن ابن عباس قال الراغب ويقال سامر وسمار وسمر وسامرون ويجوز أن يتعلق به قوله (تهجرون) والهجر بالفتح الهذيان أي تهذون في شأن القرآن أو من الهجر بالضم وهو الفحش وقرئ تهجرون من أهجر أي أفحش في منطقه ومن هجر بالتشديد ومن الهجران وهو الترك ومن الهجر بسكون الجيم وهو القطع والصد أي تهجرون آيات الله ورسوله وتزهدون فيهما فلا تصلونهما وقرئ بالتحتية وفيه التفات قال ابن عباس تسمرون حول البيت وتقولون هجرا وكانت قريش يتحلقون حلقا يتحدثون حول البيت وعنه قال كان المشركون يهجرون برسول الله صلى الله عليه وسلم في القول بسمرهم وعنه قال انما كره السمر حين نزلت هذه الآية أخرجه النسائي (أفلم يدبروا القول) بين سبحانه ان سبب اقدامهم على الكفر هو أحد هذه الامور الاربعة الاول عدم التدبر في القرآن فانهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه وآمنوا به وبما فيه والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر اي فعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا والمراد بالقول القرآن ومثله افلا يتدبرون القرآن والثاني قوله (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين) ام هي المنقطعة اي بل أجاءهم من الكتاب فكان ذلك سببا لاستنكارهم للقرآن والمقصود تقرير انه لم يأت آباءهم الاولين رسول فلذلك انكروه ومثله قوله لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم وقيل انه أتى آباءهم الاقدمين رسل أرسل الله اليهم كما هي سنة الله سبحانه في ارسال الرسل الى عباده فقد عرف هؤلاء ذلك فكيف كذبوا هذا القرآن وقيل المعنى أم جاءهم من الأمن من عذاب الله ما لم يأت آباءهم الاولين كاسمعيل ومن بعده والثالث قوله (ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) وفي هذا اضراب وانتقال من التوبيخ بما تقدم الى التوبيخ بوجه آخر أي بل ألم يعرفوه بالامانة والصدق فانكروه ومعلوم انهم قد عرفوه بذلك عن أبي صالح قال عرفوه ولكنهم حسدوه والرابع قوله (أم يقولون به جنة) هذا أيضا انتقال من توبيخ الى توبيخ أي بل أيقولون به جنون مع انهم قد

امرهم فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى وفى الآية الاخرى انهم لما القوا قالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون وقال تعالى وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم وقال ههنا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى وذلك انهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد بحيث يخيل للناظر انها تسعى باختيارها وانما كانت حيلة وكانوا جما غفيرا وجمعا كثيرا فالقى كل منهم عصا وحبلا حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضها بعضا وقوله فاوجس فى نفسه خيفة موسى أى خاف على الناس ان يفتنوا بسحرهم و يغتروا بهم قبل ان يلقى ما فى يمينه فأوحى الله تعالى اليه فى الساعة الراهنة ان الق ما فى يمينك يعنى عصاك فاذا هى تلقف ما صنعوا وذلك انها صارت تنينا عظيما ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيأ الا تلقفته وابتلعته والسحرة والناس ينظرون الى ذلك عيانا جهرة نهارا ضحوة فقامت المعجزة واتضح البرهان ووقع الحق وبطل السحر ولهذا قال تعالى انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد ابن موسى الشيبانى حدثنا حماد بن خالد حدثنا ابن معاذ أحسبه الصائغ عن الحسن عن جندب بن عبد الله البجلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أخذتم يعنى الساحر فاقتلوه ثم قرأ ولا يفلح الساحر حيث أتى قال لا يؤمن حيث وجد وقد روى أصله الترمذى موقوفا ومرفوعا فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين ان هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل وانه حق لا مرية فيه ولا يقدر على هذا الا الذى يقول للشئ كن فيكون فعند ذلك وقعوا سجدا لله وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير كانوا أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء بررة قال محمد بن كعب كانوا ثمانين ألفا وقال القاسم بن أبى بزة كانوا سبعين ألفا وقال السدى بضعة وثلاثين ألفا وقال الثورى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى ثمامة كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفا وقال محمد بن اسحق كانوا خمسة عشر ألفا وقال كعب الاحبار كانوا اثنى عشر ألفا وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن على بن حمزة حدثنا على بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس كانت السحرة سبعين رجلا أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا المسيب بن واضح بمكة حدثنا ابن المبارك قال قال الاوزاعى لما خر السحرة سجدا رفعت لهم الجنة حتى نظروا اليها قال وذكر عن سعيد بن سلام حدثنا اسمعيل بن عبد الله بن سليمان عن سالم الافطس عن سعيد بن جبير قوله فألقى السحرة سجدا قال رأوا منازلهم تبنى لهم وهم فى سجودهم وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبى بزة (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من

علموا انه أرجح الناس عقلا وأتقبهم ذهنا وأوجههم لبا ولكنه جاء بما يخالف هواهم فدفعوه وجحدوه تعصبا وحمية وسيأتى خامس فى قوله ام تسألهم خرجا ثم أضرب سبحانه عن ذلك كله فقال (بل جاءهم بالحق) أى ليس الامر كما زعموا فى حق القرآن والرسول بل جاءهم متلبسا بالحق والحق هو الدين القويم أو القرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الاسلام وعن أبى صالح قال الحق هو الله عز وجل (وأكثرهم للحق كارهون) لما جبلوا عليه من التعصب والانحراف عن الصواب والبعد عن الحق فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر والمراد بالحق هنا أعم من الاول ولذلك أتى به مظهرا فى مقام المضمر وظاهر النظم القرآنى ان أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ولكنهم لم يظهروا الايمان خوفا من الكارهين له أو لقلة فطنتهم وعدم فكرتهم لا لكراهة الحق (ولو اتبع الحق أهواءهم) مستأنفة لبيان انه لو جاء الحق على ما يهوونه ويريدونه من الشريك والولد لله تعالى لكان ذلك مستلزما للفساد العظيم وخروج نظام العالم عن الصلاح بالكلية وهو معنى قوله (لفسدت السموات والارض) قال ابن جريج ومقاتل والسدى الحق هو الله والمعنى لو جعل الله مع نفسه كما يحبون شريكا لفسدت هى (ومن فيهن) وقال الفراء والزجاج الحق القرآن أى لو نزل القرآن بما يحبون من الشرك لما استقام نظام العالم وقيل المعنى لو كان الحق ما يقولون من اتخاذ الآلهة مع الله لاختلفت الآلهة ومثل ذلك قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا لوجود التمانع فى الشئ عادة عند تعدد الحاكم وقد ذهب الى القول الاول الاكثرون ولكنه يرد عليه ان المراد بالحق هنا هو الحق المذكور قبله من قوله بل جاءهم بالحق ولا يصح ان يكون المراد به هنالك الله سبحانه فالاولى تفسير الحق هنا وهناك بالصدق الصحيح من الدين الخالص من شرع الله والمعنى ولو ورد الحق متابعا لاهوائهم موافقا لفاسد مقاصدهم لحصل الفساد والمراد بمن فى السموات والارض من فيهما من المخلوقات وخص العقلاء بالذكر لان غيرهم تبع وقرأ ابن مسعود وما بينهما أو بسبب فساد

المكلفين

خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا اشد عذابا وابقى قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى مارأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة ورأى الذى قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب شرع فى المكابرة والبهت وعدل الى استعمال جاهه وسلطانه فى السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال آمنتم له اى صدقتموه قبل ان آذن لكم اى وما أمرتكم بذلك وافتتم على فى ذلك وقال قولا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم انه بهت وكذب انه لكبيركم الذى علمكم السحر اى أنتم انما أخذتم السحر عن موسى واتفقتم انتم واياه على وعلى رعيتى لتظهروه كما قال تعالى فى الآية الاخرى ان هذا لمكر مكرتموه فى (٢٥١) المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ثم أخذ يتهددهم فقال لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل أى لاجعلنكم مثلة لاقتلنكم ولاشهرنكم قال ابن عباس فكان أول من فعل ذلك رواه ابن أبى حاتم وقوله ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى أى انتم تقولون انى وقومى على ضلالة وأنتم مع موسى وقومه على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم انفسهم فى الله عز وجل وقالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات اى لن نختارك على ماحصل لنا من الهدى واليقين والذى فطرنا يحتمل أن يكون قسما ويحتمل أن يكون معطوفا على البينات يعنون لانختارك على فاطرنا وخالقنا الذى انشأنا من العدم المبتدئ خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لاأنت أفاقض ما انت قاض آى فافعل ما شئت وما وصلت اليه يدك انما تقضى هذه الحياة الدنيا أى انما لك تسلط فى هذه الدار وهى دار الزوال ونحن قد رغبنا فى دار القرار انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا أى ما كان منا من الآثام خصوصا ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا سفيان بن عيينة عن ابى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى وما أكرهتنا عليه من السحر قال أخذ فرعون أربعين غلاما من بنى اسرائيل فامر ان يعلموا السحر بالفرما وقال علموهم تعليما لايعلمه احد فى الارض قال ابن عباس فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقوله والله خير وابقى اى خير لنا منك وابقى اى أدوم ثوابا مما كنت وعدتنا ومنيتنا وهو رواية عن ابن اسحق رحمه الله وقال محمد بن كعب القرظى والله خير اى لنا منك ان اطيع وأبقى اى منك عذابا ان عصى وروى نحوه عن ابن

المكلفين من بنى آدم ظاهر وهو ذنوبهم التى من جملتها الهوى المخالف للحق واما فساد ماعداهم فعلى وجه التبع لانهم مدبرون فى الغالب بذوى العقول فلما افسدوا افسد واثم ذكر سبحانه ان نزول القرآن عليهم من جملة الحق فقال (بل أتيناهم بذكرهم) اضراب وانتقال عن قوله واكثرهم للحق كارهون اى كيف يكرهون الحق مع ان القرآن اتاهم بتشريفهم وتعظيمهم فاللائق بهم الانقياد فالمراد بالذكر هنا القرآن أى أتيناهم بالكتاب الذى هو فخرهم وشرفهم لان الرسول منهم والقرآن بلغتهم ومثله قوله وانه لذكر لك ولقومك وحاصل المعنى بل اتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم ان يقبلوه ويقبلوا عليه وقال قتادة المعنى بذكرهم الذى ذكر فيه ثوابهم وعقابهم وقيل المعنى بذكر مالهم به حاجة من أمر الدين وقرئ اتيتهم بتاء التكلم وآتيتهم بتاء الخطاب أى أتيتهم يامحمد وقرئ بذكراهم ونذكرهم بصيغة التكلم من التذكير وقيل الذكر هو الوعظ وقيل الذى كانوا يتمنونه ويقولون لوان عندنا ذكرا من الاولين وقال ابن عباس أتيناهم بينا لهم (فهم) بما فعلوا من الاستكبار والنكوص (عن ذكرهم) المختص بهم (معرضون) بسوء اختيارهم لايلتفتون اليه بحال من الاحوال وأتى بذكرهم مظهرا للتوكيد والتشنيع عليهم وفى هذا التركيب مايدل على ان اعراضهم مختص بذلك لايتجاوزه الى غيره ثم بين سبحانه ان دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم ليست مشوبة باطماع الدنيا فقال (أم) منقطعة والمعنى لكنهم يزعمون انك (تسألهم خرجا) تأخذه على الرسالة والخرج الاجر والجعل فتركوا الايمان بك وبما جئت به لاجل ذلك مع انهم يعلمون انك لم تسألهم ذلك ولا طلبته منهم (فخراج) أى فرزق (ربك) الذى يرزقك فى الدنيا واجره الذى يعطيك فى الآخرة (خير) لك وقرئ خراجا والخرج هو الذى يكون مقابلا للدخل يقال لكل ماتخرجه الى غيرك خرجا والخراج غالب فى الضريبة على الارض قال المبرد الخرج المصدر والخراج الاسم وقال ابو عمرو بن العلاء الخراج مالزمك والخرج ماتبرعت به وروى عنه ايضا الخرج من الرقاب والخراج

اسحق أيضا والظاهر ان فرعون اخذه الله صمم على ذلك وفعله بهم رحمة لهم من الله ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء (انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) الظاهر من السياق ان هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدى ويرغبونه فى ثوابه الابدى المخلد فقالوا انه من يأت ربه مجرما أى يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى كقوله لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور وقال ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى وقال تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون وقال الامام أحمد (٢٥٢) بن حنبل حدثنا اسمعيل أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم اماتة حتى اذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة فجىء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة فيقال يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل فقال رجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بالبادية وهكذا أخرجه مسلم فى كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل كلاهما عن أبى سلمة سعيد بن يزيد وقال ابن أبى حاتم ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال حدثنا أبى حدثنا حبان سمعت سليمان التيمى عن أبى نضرة عن أبى سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فأتى على هذه الآية انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى قال النبى صلى الله عليه وسلم أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون واما الذين ليسوا من أهلها فان النار تمسهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيجعل الضبائر فيؤتى بهم نهرا يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت العشب فى حميل السيل وقوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات اى ومن لقى ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله فأولئك لهم الدرجات العلى اى الجنة ذات الدرجات العاليات والغرف الآمنات والمساكن الطيبات قال الامام أحمد حدثنا عفان انبأنا همام حدثنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض والفردوس اعلاها درجة ومنها تخرج الانهار الاربعة والعرش فوقها فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ورواه الترمذى من حديث يزيد بن هرون عن همام به وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سليمان بن

من الارض فالخرج أخص من الخراج تقول خراج القرية وخرج الكوفة فزيادة اللفظ لزيادة المعنى (وهو خير الرازقين) أى أفضل المعطين والجملة مقررة لما قبلها من كون خراجه سبحانه خيرا ثم لما أثبت سبحانه لرسوله من الادلة الواضحة المقتضية لقبول ما جاء به ونفى عنه أضداد ذلك قال (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) أى الى طريق واضحة تشهد العقول بانها مستقيمة غير معوجة والصراط فى اللغة الطريق فسمى الدين طريقا لانها تؤدى اليه ثم وصفهم سبحانه بانهم على خلاف ذلك فقال (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) يقال نكب عن الطريق ينكب نكوبا اذا عدل عنه ومال الى غيره والنكوب والنكب العدول والميل ومنه النكباء الريح بين ريحين سميت بذلك لعدولها عن المهاب والمعنى ان هؤلاء الموصوفين بعدم الايمان بالآخرة أى البعث والثواب والعقاب لعادلون عن ذلك الصراط أو عن جنس الصراط ثم بين سبحانه انهم مصرون على الكفر لا يرجعون عنه بحال فقال (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر) أى من قحط وجدب (للجوا فى طغيانهم) أى لتمادوا فى ضلالهم وأصل اللجاج التمادى فى العناد ومنه اللجة بالفتح لتردد الصوت ولجة البحر تردد أمواجه ولجة الليل تردد ظلامه وقيل المعنى لو رددناهم الى الدنيا ولم ندخلهم النار وامتحناهم للجوا فى طغيانهم (يعمهون) أى يترددون ويتذبذبون ويخبطون (ولقد أخذناهم بالعذاب) تأكيد للشرطية مسوق لتقريرها والعذاب قيل هو الجوع الذى أصابهم فى سنى القحط وقيل المرض وقيل القتل يوم بدر واختاره الزجاج وقيل الموت وقيل المراد من أصابه العذاب من الامم الخالية (فما استكانوا) أى ما خضعوا ولا تذللوا (لربهم) بل أقاموا على ما كانوا فيه من التمرد على الله والانهماك فى معاصيه (وما يتضرعون) أى وما يخشعون لله فى الشدائد عند اصابتها لهم ولا يدعونه لرفع ذلك أخرج النسائى والطبرانى والحاكم وصححه وغيرهم عن ابن عباس قال

عبد الرحمن الدمشقي اخبرنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن ابيه قال كان يقال الجنة مائة درجة في كل درجة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والارض فيهن الياقوت والحلى في كل درجة أمير يرون له الفضل والسودد وفي الصحيحين ان أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الانبياء قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وفي السنن ان أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما وقوله جنات عدن أي اقامة وهي بدل من الدرجات العلى خالدين فيها أي ما كثين أبدا وذلك جزاء من تزكى أي طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك وعبد الله وحده لا شريك له واتبع المرسلين فيما جاؤا به من خبر وطلب (ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل (٢٥٣) فرعون قومه وما هدى) يقول تعالى مخبرا انه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون ان يرسل معه بني اسرائيل أن يسري بهم في الليل ويذهب بهم من قبضة فرعون وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة وذلك ان موسى لما خرج ببني اسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب فغضب فرعون غضبا شديدا وأرسل في المدائن حاشرين أي من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه يقول ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه ساق في طلبهم فاتبعوهم مشرقين أي عند طلوع الشمس فلما تراءى الجمعان أي نظر كل من الفريقين الى الآخر قال اصحاب موسى انا لمدركون قال كلا ان معي ربي سيهدين ووقف موسى ببني اسرائيل البحر أمامهم وفرعون وراءهم فعند ذلك أوحى الله اليه ان اضرب لهم طريقا في البحر يبسا فضرب البحر بعصاه وقال انفلق علي باذن الله فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم أي الجبل العظيم فارسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الارض فلهذا قال فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا أي من فرعون ولا تخشى يعني من البحر أن يغرق قومك ثم قال تعالى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم أي البحر ما غشيهم أي الذي هو معروف ومشهور وهذا يقال عند الامر المعروف المشهور كما قال تعالى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى وقال الشاعر

* انا ابو النجم وشعري شعري * أي الذي يعرف وهو مشهور وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فاضلهم وما هداهم الى سبيل الرشاد كذلك يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار وبئس الورد المورود (يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد

قال جاء ابو سفيان الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني الوبر بالدم فأنزل الله ولقد أخذناهم بالعذاب الى آخر الآية وأصل الحديث في الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش حين استعصوا فقال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف الحديث وأخرج البيهقي وغيره عن ابن عباس ان ابن أثال الحنفي لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أسير فخلى سبيله لحق باليمامة فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز فجاء أبو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أليس تزعم انك بعثت رحمة للعالمين قال بلى قال فلقد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فانزل الله هذه الآية وعن علي بن أبي طالب في الآية قال أي لم يتواضعوا في الدنيا ولم يخضعوا ولو خضعوا والله لاستجاب لهم (حتى) ابتدائية (اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) قيل هو عذاب الآخرة وقيل قتلهم يوم بدر بالسيف قاله ابن عباس وقيل القحط الذي اصابهم وقيل فتح مكة وقيل قيام الساعة (اذا هم فيه مبلسون) أي متحيرون لا يدرون ما يصنعون والابلاس التحير والاياس من كل خير وقرئ مبلسون بفتح اللام من أبلسه أي أدخله في الابلاس والابلاس مثل سلام المسح وهو فارسي معرب وأبلس ايس وقد تقدم في الانعام (وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة) امتن الله سبحانه عليهم ببعض النعم التي أعطاهم والمقصود به التقريع والتوبيخ بالنسبة للكافرين وتذكير النعم بالنسبة للمؤمنين وهي نعمة السمع والبصر والفؤاد فصارت هذه الامور معهم ليسمعوا المواعظ وينظروا العبر ويتفكروا بالافئدة فلم ينتفعوا بشيء من ذلك لاصرارهم على الكفر وبعدهم عن الحق ولم يشكروه على ذلك ولهذا قال (قليلا ما تشكرون) أي شكرا قليلا حقيرا غير معتد به باعتبار تلك النعم الجليلة وقيل المعنى انهم لا يشكرونه البتة لا ان لهم شكرا قليلا كما يقال لجاحد النعمة ما أقل شكره أي لا يشكر ومثل هذه الآية قوله فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم وفيه تنبيه

غوى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) يذكر تعالى نعمه على بنى اسرائيل العظام ومننه الجسام حيث أنجاهم من
عدوهم فرعون وأقر أعينهم منه وهم ينظرون اليه والى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة لم ينج منهم احد كما قال واغرقنا آل فرعون
وانتم تنظرون وقال البخارى حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن
عباس قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء فسألهم فقالوا هذا اليوم الذى أظفر الله فيه
موسى على فرعون فقال نحن أولى بموسى فصوموه ورواه مسلم أيضا فى صحيحه ثم انه تعالى واعد موسى بنى اسرائيل بعد هلاك
فرعون الى جانب الطور الايمن وهو الذى كلمه الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤية وأعطاه التوراة هنالك وفى غضون ذلك عبد بنو اسرائيل
العجل كما يقصه الله تعالى قريبا وأما المن والسلوى (٢٥٤) فقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة وغيرها فالمن حلوى كانت
تنزل عليهم من السماء والسلوى
طائر يسقط عليهم فيأخذون من
كل قدر الحاجة الى الغد لطفا
من الله ورحمة بهم واحسانا اليهم
ولهذا قال تعالى كلوا من طيبات
مارزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل
عليكم غضبى أى كلوا من هذا
الرزق الذى رزقتكم ولا تطغوا فى
رزقى فتأخذوه من غير حاجة
وتخالفوا ما أمرتكم به فيحل
عليكم غضبى أى أغضب عليكم
ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى
قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس
رضى الله عنهما أى فقد شقى وقال
شفى بن مانع ان فى جهنم قصرا يرمى
الكافر من أعلاه فيهوى فى جهنم
أربعين خريفا قبل أن يبلغ الصلصال
وذلك قوله ومن يحلل عليه غضبى
فقد هوى رواه ابن ابى حاتم وقوله
وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل
صالحا اى كل من تاب الى تبت
عليه من اى ذنب كان حتى انه تاب
تعالى على من عبد العجل من بنى اسرائيل وقوله تعالى تاب اى رجع عما كان فيه من كفر أو شرك بجهلهم
أو معصية أو نفاق وقوله وآمن اى بقلبه وعمل صالحا اى بجوارحه وقوله ثم اهتدى قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس اى
ثم لم يشكك وقال سعيد بن جبير ثم اهتدى اى استقام على السنة والجماعة وروى نحوه عن مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف
وقال قتادة ثم اهتدى أى لزم الاسلام حتى يموت وقال سفيان الثورى ثم اهتدى أى علم ان لهذا ثوابا وثم ههنا لترتيب الخبر على
الخبر كقوله ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات (وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على اثرى وعجلت اليك رب
لترضى قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا
حسنا أفطال عليكم العهد أم اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدى قالوا ما اخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا

على ان من لم يعمل هذه الاعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها (وهو الذى ذرأكم فى
الارض) أى بثكم فيها بالنسل كما تبث الحبوب وقد تقدم تحقيقه (واليه تحشرون) أى
تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم (وهو الذى يحيى) النسم بالانشاء ونفخ الروح فى المضغة
(ويميت) النسم بالافناء على جهة الانفراد والاستقلال وفى هذا تذكير بنعمة الحياة
وبيان الانتقال منها الى الدار الآخرة (وله اختلاف الليل والنهار) خلقا وايجادا
قال الفراء هو الذى جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان فى السواد والبياض وقيل
اختلافهما نقصان أحدهما وزيادة الآخر وقيل تكرارهما يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة
(أفلا تعقلون) كنه قدرته وتتفكرون فى ذلك ثم بين سبحانه انه لا شبهة لهم فى انكار البعث
الا التشبث بحبل التقليد المبنى على مجرد الاستبعاد فقال (بل قالوا مثل ما قال الاولون)
أى آباؤهم والموافقون لهم فى دينهم من قوم نوح وهود وصالح وغيرهم ثم بين ما قاله الاولون
فقال (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) فهذا مجرد استبعاد لم يتعلقوا فيه
بشئ من الشبه ثم كملوا ذلك القول بقولهم (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل) أى وعدنا
هذا البعث الآن ووعد آباؤنا الكائنون من قبلنا فلم نصدقه كما لم يصدقوه ثم صرحوا
بالتكذيب وفروا الى مجرد الزعم الباطل فقالوا (ان هذا الا اساطير الاولين) أى ما هذا
الا أكاذيب الاولين التى سطروها فى الكتب جمع أسطورة كأحدوثة والاساطير الاباطيل
والترهات والكذب وقيل جمع أسطار وهو جمع سطر والاول أوفق والمعنى لم نر هذا الوعد
شيأ واغمارا رأيناه اساطير الاولين ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم ان يسأل أهل
مكة عن أمور لا عذر لهم من الاعتراف فيها فقال (قل لمن الارض ومن فيها) المراد
بمن الخلق جميعا وعبر عنهم بمن تغليبا للعقلاء ولمن خبر مقدم والارض مبتدأ مؤخر
(ان كنتم تعلمون) شيأ من العلم وجواب الشرط محذوف أى فأخبرونى وفى هذا تلويح

أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى

أفلا يرون ان لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) لما سار موسى عليه السلام ببنى اسرائيل بعد هلاك فرعون وأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم اتبعها عشرا فتمت أربعين ليلة أى يصومها ليلا ونهارا وقد تقدم فى حديث الفتون بيان ذلك فسارع موسى عليه السلام مبادرا الى الطور واستخلف على بنى اسرائيل اخاه هرون ولهذا قال تعالى وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على اثرى أى قادمون ينزلون قريبا من الطور وعجلت اليك رب لترضى أى لتزداد عنى رضا قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث فى بنى (٢٥٥) اسرائيل وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك السامرى وفى الكتب الاسرائيلية انه كان اسمه هرون أيضا وكتب الله تعالى له فى هذه المدة الالواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا باحسنها سأريكم دار الفاسقين أى عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لامرى وقوله فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا اى بعدما أخبره تعالى بذلك فى غاية الغضب والحنق عليهم هو فيما هو فيه من الاعتناء بامرهم وتسليم التوراة التى فيها شريعتهم وفيها شرف لهم وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم ولهذا قال رجع اليهم غضبان أسفا والأسف شدة الغضب وقال مجاهد غضبان أسفا أى جزعا وقال قتادة والسدى أسفا حزينا على ما صنع قومه من بعده قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أى أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة وحسن العاقبة كما قد شاهدتم من نصرته اياكم على عدوكم واظهاركم عليه وغير ذلك من أيادى الله عندكم أفطال عليكم العهد أى فى انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قدم أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ام ههنا بمعنى بل وهى للاضراب عن الكلام الاول وعدول الى الثانى كأنه يقول بل اردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدى قالوا أى بنو اسرائيل فى جواب ما أنبأهم موسى وقرعهم ما أخلفنا موعدك بملكنا أى عن قدرتنا واختيارنا ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد يخبرونه عن تورعهم عما كان بايديهم من حلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر فقذفناها أى ألقيناها عنا وقد تقدم فى حديث الفتون ان هرون عليه السلام هو الذى كان أمرهم بالقاء الحلى فى حفرة فيها نار وهى فى رواية السدى عن أبى مالك عن ابن عباس انما أراد

بجهلهم وفرط غباوتهم (سيقولون لله) أى لابد أن يقولوا ذلك لانه معلوم ببداهة العقل وهذا اخبار من الله بما يقع منهم فى الجواب قبل وقوعه ثم أمره سبحانه أن يقول لهم بعد اعترافهم (قل أفلا تذكرون) ترغيبا لهم فى التدبر واعمال النظر والفكر فان ذلك مما يقودهم الى اتباع الحق وترك الباطل لان من قدر على ذلك ابتداء قدر على احياء الموتى (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله) جاء سبحانه باللام نظرا الى معنى السؤال فان قولك من ربه ولمن هو فى معنى واحد كقولك من رب هذه الدار فيقال زيد ويقال لزيد وقرئ الله بغير لام نظرا الى لفظ السؤال وهذا أوضح من الاولى ولكنه يؤيدها انها مكتوبة فى جميع المصاحف باللام بدون الالف (قل أفلا تتقون) عبادة غيره أو تحذرون عقابه أو قدرته على البعث فلا تشركوا به وفيه تنبيه على ان اتقاء عذاب الله لا يحصل الا بترك عبادة الاوثان والاعتراف بجواز الاعادة فهذا الختم أبلغ من ختم الآية الاولى لاشتماله على الوعيد الشديد ولما ذكر الارض أولا والسماء ثانيا عمم الحكم ههنا فقال (قل من بيده ملكوت كل شئ) الملكوت الملك وزيادة التاء للمبالغة نحو جبروت ورحموت ورهبوت وقال مجاهد يعنى خزائن كل شئ (وهو يجير) أى انه يغيث غيره اذا شاء ويمنعه (ولا يجار عليه) أى لا يمنع أحد أحدا من عذاب الله ولا يقدر على نصره واغاثته يقال أجرت فلانا اذا استغاث بك فحميته وأجرت عليه اذا حميت عنه والمعنى يحمى ولا يحمى عليه (ان كنتم تعلمون) فاجيبوا (سيقولون لله) قرئ باللام نظرا الى معنى السؤال كما سلف وقرئ بغير لام نظرا الى لفظ السؤال (قل فانى تسحرون) قال الفراء والزجاج أى تصرفون عن الحق وتخدعون والمعنى كيف يخيل اليكم الحق باطلا والصحيح فاسدا والخادع لهم هو الشيطان او الهوى او كلاهما ثم بين الله سبحانه انه قد بالغ فى الاحتجاج عليهم فقال (بل أتيناهم بالحق) اى بالامر الواضح الذى يحق اتباعه (وانهم لكاذبون) فيما ينسبونه الى الله تعالى من الولد والشريك ثم نفاهما عن نفسه فقال (ما اتخذ الله من ولد)

هرون ان يجمع الحلي كله في تلك الحفرة ويجعل مجرى واحدا حتى اذا رجع موسى عليه السلام رأى فيه ما يشاء ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول وسأل من هرون ان يدعو الله ان يستجيب له في دعوة فدعا له هرون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له فقال السامري عند ذلك أسأل الله أن يكون عجلا فكان عجلا له خوار أي صوت استدراجا وامهالا ومحنة واختبارا ولهذا قال فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبادة بن البختري حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا حماد عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان هرون مر بالسامري وهو ينحت العجل فقال له ما تصنع فقال أصنع ما يضر ولا ينفع فقال هرون اللهم أعطه ما سأل على ما في نفسه ومضى هرون وقال السامري اللهم اني أسألك أن يخور فخار فكان اذا خار سجدوا له واذا خار (٢٥٦) رفعوا رؤسهم ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال أعمل ما ينفع ولا يضر وقال السدي كان يخور ويمشي فقالوا أي الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه هذا الهكم واله موسى فنسي أي نسيه ههنا وذهب يتطلبه كذا تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقال سماك عن عكرمة عن ابن عباس فنسي أي نسي أن يذكركم ان هذا الهكم وقال محمد بن اسحق عن حكيم بن جبير عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس فقالوا هذا الهكم واله موسى قال فعكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيأ قط يعني مثله يقول الله فنسي أي ترك ما كان عليه من الاسلام يعني السامري قال الله تعالى ردا عليهم وتقريعا لهم وبيانا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا اليه أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا أي العجل أولا يرون انه لا يجيبهم اذا سألوه ولا اذا خاطبوه ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا أي في دنياهم ولا في اخراهم قال ابن عباس رضي الله عنهما لا والله ما كان خواره الا ان يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت وقد تقدم في متون الحديث عن الحسن البصري ان هذا العجل اسمه بهموت وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة انهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل فتورعوا عن الحقير وفعلوا الامر الكبير كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر انه سأله رجل من اهل العراق عن دم البعوض اذا أصاب الثوب يعني هل يصلي فيه أم لا فقال ابن عمر رضي الله عنهما انظروا الى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني الحسين وهم يسألون عن دم البعوضة (ولقد

قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني واطيعوا امري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) يخبر تعالى عما كان من نهي هرون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل واخباره اياهم انما هذا فتنة لكم وان ربكم

لانه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل من جنسه (وما كان معه من اله) شريك في الالوهية ومن في الموضعين زائدة لتوكيد النفي ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدعيه الكفار من اثبات الشريك فقال اذا لذهب كل اله بما خلق وفي الكلام حذف أي لو كان مع الله آلهة أخرى لانفرد كل اله بخلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخر ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب (ولعلا بعضهم على بعض) اى ولغلب القوي على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون الها واذا تقرر عدم امكان المشاركة في ذلك وانه لا يقوم به الا واحد تعين ان يكون هذا الواحد هو الله سبحانه وهذا الدليل كما دل على نفي الشريك فانه يدل على نفي الولد لان الولد ينازع أباه في ملكه ثم نزه سبحانه نفسه فقال (سبحان الله عما يصفون) من الشريك والولد واثبات ذلك لله عز وجل (عالم الغيب والشهادة) أي هو مختص بعلم ما غاب وما شوهد وأما غيره سبحانه فهو وان علم الشهادة لا يعلم الغيب وهذا دليل آخر على الوحدانية بواسطة مقدمة اخرى كانه قيل الله عالمهما وغيره لا يعلمهما فغيره ليس باله وهذا من قبيل الشكل الثاني وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف أي هو الله وقرئ بالجر على انه صفة لله عز وجل أو بدل منه وروي عن يعقوب انه كان يخفض اذا وصل ويرفع اذا ابتدأ (فتعالى الله عما يشركون) عطف على معنى ما تقدم كأنه قال علم الغيب فتعالى أو أقول فتعالى والمعنى انه سبحانه متعال عن ان يكون له شريك في الملك (قل رب اما تريني ما يوعدون) أي ان كان ولا بد ان تريني العذاب المستأصل لهم (رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) قال الزجاج أي ان أنزلت بهم النقمة يا رب فاجعلني خارجا عنهم يعني ان النداء معترض وذكر الرب مرتين قبل الشرط وبعده مبالغة في التضرع والابتهال وأمره الله ان يسأله ان لا يجعله في القوم الظالمين مع ان الانبياء لا يكونون معهم أبدا تعليما له صلى الله عليه وسلم من ربه كيف يتواضع ويهضم نفسه أو لكون شؤم الكفر قد يلحق من لم يكن من أهله كقوله

الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا ذو العرش المجيد الفعال لما يريد فاتبعوني وأطيعوا أمري أي فيما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى أي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا ان يقتلوه (قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا ان لا تتبعن أفعصيت أمري قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي) يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع الى قومه فرأى ما قد حدث فيهم من الامر العظيم فامتلأ عند ذلك غضبا وألقى ما كان في يده من الالواح الالهية وأخذ برأس أخيه يجره اليه وقد قدمنا في سورة الاعراف بسط ذلك وذكرنا هناك حديث ليس الخبر كالمعاينة وشرع يلوم أخاه هرون فقال ما منعك اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أي فتخبرني بهذا الامر اول ما وقع أفعصيت أمري أي فيما (٢٥٧) كنت قدمت اليك وهو قوله اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين قال يا ابن أم ترفق له بذكر الام مع انه شقيقه لابويه لان ذكر الام ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف ولهذا قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي الآية هذا اعتذار من هرون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم قال اني خشيت أن أتبعك فأخبرك بهذا فتقول لي لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ولم ترقب قولي أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم قال ابن عباس وكان هرون هائبا مطيعا له (قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه

في اليم نسفا انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما) يقول موسى عليه السلام للسامري ما حملك على ما صنعت وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت قال محمد بن اسحق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان السامري رجلا من أهل باجرما كان من قوم يعبدون البقر وكان حب عبادة البقر في نفسه وكان قد أظهر الاسلام مع بني اسرائيل وكان اسمه موسى بن ظفر وفي رواية عن ابن عباس انه كان من كرمان وقال قتادة كان من قرية اسمها سامرا قال بصرت بما لم يبصروا به أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون فقبضت قبضة من أثر الرسول أي من أثر فرسه هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحرث أخبرنا عبيد الله بن موسى أخبرنا اسرائيل عن السدي عن أبي عمارة عن علي رضي الله عنه قال ان جبريل عليه السلام لما نزل فصعد بموسى عليه السلام الى السماء بصر به السامري

كقوله واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ثم لما كان المشركون ينكرون العذاب ويسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكر لهم ذلك أكد سبحانه وقوعه بقوله (وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون) يعني ان الله سبحانه قادر على ان يري رسوله عذابهم ولكنه يؤخره لعلمه بان بعضهم سيؤمن أو لكون الله سبحانه لا يعذبهم والرسول فيهم وقيل قد أراه الله سبحانه ذلك يوم بدر ويوم فتح مكة ثم أمره سبحانه بالصبر الى ان ينقضي الاجل المضروب فقال (ادفع بالتي هي أحسن السيئة) أي ادفع بالخصلة التي هي أحسن من غيرها وهي الصفح والاعراض عما يفعله الكفار من الخصلة السيئة وهي الشرك قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل هي في حق هذه الامة فيما بينهم منسوخة في حق الكفار قال مجاهد أي اعرض عن أذاهم اياك وقال عطاء ادفع بالسلام وعن انس قال هو قول الرجل لاخيه ما ليس فيه فيقول ان كنت كاذبا فانا اسأل الله ان يغفر لك وان كنت صادقا فانا اسأل الله ان يغفر لي (نحن اعلم بما يصفون) اياك به مما انت على خلافه او بما يصفون من الشرك والتكذيب وفي هذا وعيد لهم بالعقوبة ثم علمه سبحانه ما يقويه على ما ارشده اليه من العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة فقال (وقل رب اعوذ بك) أي أعتصم (من همزات الشياطين) جمع همزة وهي في اللغة الدفعة باليد أو بغيرها يقال همزه ولمزه ونخسه أي دفعه وقيل الهمز كلام من وراء القفا واللمز المواجهة والمراد بها هنا خطراتها التي يخطرها بقلب الانسان ووساوسه وقيل نفخهم ونفثهم والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف اليه وفي الآية ارشاد لهذه الامة الى التعوذ من الشيطان ومن همزات الشياطين وهي سورات الغضب التي لا يملك الانسان فيها نفسه (وأعوذ بك رب ان يحضرون) امره الله سبحانه ان يتعوذ بالله من حضور الشياطين بعد ما أمره ان يتعوذ من همزاتهم واعيد كل من العامل والنداء مبالغة وزيادة اعتناء بهذه الاستعاذة والمعنى وأعوذ بك ان يكونوا معي في حال من الاحوال فانهم اذا احضروا

من بين الناس فقبض قبضة من اثر الفرس قال وحمل جبريل موسى عليهما السلام خلفه حتى اذا دنا من باب السماء صعد وكتب الله الالواح وهو يسمع صرير الاقلام في الالواح فلما أخبره ان قومه قد فتنوا من بعده قال نزل موسى فأخذ العجل فأحرقه غريب وقال مجاهد فقبضت قبضة من اثر الرسول قال من تحت حافر فرس جبريل قال والقبضة ملء الكف والقبصة باطراف الاصابع قال مجاهد نبذ السامري اى القى ما كان في يده على حلية بني اسرائيل فانسبك عجلا جسدا له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن يحيى أخبرنا علي بن المديني حدثنا يزيد بن زريع حدثنا عمارة حدثنا عكرمة ان السامري رأى الرسول فألقي في روعه انك ان أخذت من اثر هذا الفرس قبضة فالقيتها في شيء فقلت له كن فكان فقبض قبضة من اثر الرسول فيبست أصابعه على القبضة فلما ذهب موسى للميقات (٢٥٨) وكان بنو اسرائيل قد استعاروا حلي آل فرعون فقال لهم السامري انما أصابكم من أجل هذا الحلي فأجمعوه فجمعوه فأوقدوا عليه فذاب فرآه السامري فألقي في روعه انك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت كن فكان فقذف القبضة وقال كن فكان عجلا جسدا له خوار فقال هذا الهكم واله موسى ولهذا قال فنبذتها أى ألقيتها مع من ألقى وكذلك سولت لي نفسي اى حسنته وأعجبها اذ ذاك قال فاذهب فان لك في الحياة ان تقول لا مساس اى كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا ان تقول لا مساس اى لا تماس الناس ولا يمسونك وان لك موعدا اى يوم القيامة لن تخلفه اى لا محيد لك عنه وقال قتادة ان تقول لا مساس قال عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس وقوله وان لك موعدا لن تخلفه قال الحسن وقتادة وأبو نهيك لن تغيب عنه وقوله وانظر الى الهك اى معبودك الذى ظلت عليه عاكفا اى اقمت على عبادته يعني العجل لنحرقنه قال الضحاك عن ابن عباس والسدي سحله بالمبارد وألقاه على النار وقال قتادة استحال العجل من الذهب لحما ودما فحرقه بالنار ثم ألقى رماده في البحر ولهذا قال ثم لننسفنه في اليم نسفا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء انبأنا اسرائيل عن ابي اسحق عن عمارة بن عبد الله وأبي عبد الرحمن عن علي رضي الله عنه قال ان موسى لما تعجل الى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني اسرائيل ثم صوره عجلا قال فعمد موسى الى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل الا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى ما توبتنا قال يقتل بعضكم بعضا وهكذا قال السدي وقد تقدم في تفسير سورة البقرة ثم في حديث الفتون بسط ذلك وقوله انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شيء علما يقول لهم موسى عليه

الانسان لم يكن له عمل الا الوسوسة والاغراء على الشر والصرف عن الخير وفي قراءة أبي وقل رب عائذا بك وأخرج احمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والبيهقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون قال فكان ابن عمر يعلمها من بلغ من أولاده ان يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرا لا يعقل ان يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه وفي اسناده محمد بن اسحق وفيه مقال معروف وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد انه قال يا رسول الله انى أجد وحشة قال اذا أخذت مضجعك فقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون فانه لا يحضرك وبالحرى لا يضرك (حتى اذا جاء أحدهم الموت) حتى هي الابتدائية دخلت على الشرطية وهي مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بقوله لكاذبون وقيل يصفون والمراد بمجيء الموت مجيء علاماته أى رأى مقعده من النار ومقعده من الجنة لو آمن (قال) أى ذلك الاحد الذى حضره الموت تحسرا وتحزنا على ما فرط منه (رب ارجعون) أى ردوني الى الدنيا وانما قال بضمير الجماعة لتعظيم المخاطب وقيل هو على معنى تكرير الفعل أى ارجعني ارجعني ارجعني قاله أبو البقاء ومثله قوله تعالى ألقيا في جهنم قال المازني معناه ألق ألق وهكذا قيل في قول امرئ القيس * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * ومثله قول الحجاج يا حرسي اضربا عنقه وقول الآخر الا فارجموني يا اله محمد * وقيل انهم لما استغاثوا بالله قال قائلهم رب ثم رجع الى مخاطبة الملائكة فقال ارجعون (لعلى أعمل) عملا (صالحا) في الدنيا اذا رجعت اليها من الايمان وما يتبعه من أعمال الخير أخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال اذا أدخل الكافر في قبره فيرى مقعده من النار قال رب ارجعون أتوب وأعمل صالحا فيقال له قد عمرت ما كنت معمرا فيضيق عليه قبره فهو كالمنهوش ينازع

ويفزع

السلام ليس هذا الهكم انما الهكم الله الذى لا اله الا هو اى لا يستحق ذلك على العباد الا هو ولا تنبغى العبادة الا له فان كل شئ فقير اليه عبد له وقوله وسع كل شئ علما نصب على التمييز اى هو عالم بكل شئ أحاط بكل شئ علما وأحصى كل شئ عددا فلا يعزب عنه مثقال ذرة وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين والآيات فى هذا كثيرة جدا (كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والامر الواقع كذلك نقص عليك الاخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص هذا وقد آتيناك (٢٥٩) من لدنا اى من عندنا ذكرا وهو القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الذى لم يعط نبى من الانبياء منذ بعثوا الى ان ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم كتابا مثله ولا اكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن وحكم الفصل بين الناس منه ولهذا قال تعالى من اعرض عنه اى كذب به واعرض عن اتباعه أمرا وطلبا وابتغى الهدى من غيره فان الله يضله ويهديه الى سواء الجحيم ولهذا قال من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا اى اثما كما قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وهذا عام فى كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم كما قال لانذركم به ومن بلغ فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع فمن اتبعه هدى ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقى فى الدنيا والنار موعده يوم القيامة ولهذا قال من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه أى لا محيد لهم عنه ولا انفكاك وساء لهم يوم القيامة حملا أى بئس الحمل حملهم (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما) ثبت فى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصور فقال قرن ينفخ فيه وقد جاء فى حديث الصور من رواية أبى هريرة انه قرن عظيم الدائرة منه بقدر السموات والارض ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام وجاء فى الحديث كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر ان يؤذن له فقالوا يا رسول الله كيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وقوله ونحشر المجرمين يومئذ زرقا قيل معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الاهوال يتخافتون بينهم قال ابن عباس يتسارون بينهم أى يقول بعضهم لبعض ان لبثتم الا عشرا أى فى الدار الدنيا لقد كان لبثكم فيها قليلا عشرة أيام أو نحوها قال الله

ويفزع تهوى اليه حيات الارض وعقاربها وعن ابن جريج قال زعموا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة ان المؤمن اذا عاين الملائكة قالوا نرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان بل قدما الى الله وأما الكافر فيقولون له نرجعك فيقول رب ارجعون لعلى اعمل صالحا وهو مرسل وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حضر الانسان الوفاة يجمع له كل شئ يمنعه عن الحق فيجعل بين عينيه فعند ذلك يقول رب ارجعون الآية وعن ابن عباس فى قوله أعمل صالحا قال أقول لا اله الا الله (فيما تركت) أى فى الموضع الذى ضيعت أو منعت وقيل خلفت من التركة وهو الدنيا لانه ترك الدنيا وصار الى العقبى قال قتادة ما تمنى ان يرجع الى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى ان يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله امرأ عمل فيما تمناه الكافر اذا رأى العذاب ولما تمنى ان يرجع ليعمل رد الله عليه ذلك بقوله (كلا انها كلمة هو قائلها) فجاء بكلمة الردع والزجر والضمير فى انها يرجع الى قوله رب ارجعون أى ان هذه الكلمة هو قائلها لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه وليس الامر كما يظنه من انه يجاب الى الرجوع الى الدنيا أو المعنى انه لو أجيب الى ذلك لما حصل منه الوفاء كما فى قوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقيل ان الضمير فى هو يرجع الى الله أى لا خلف فى خبره وقد أخبرنا بانه لا يؤخر نفسا اذا جاء أجلها (ومن ورائهم) أى من أمامهم وبين أيديهم والضمير للاحد والجمع باعتبار المعنى لانه فى حكم كلهم كما ان الافراد فى الضمائر الاول باعتبار اللفظ (برزخ) هو الحاجز بين الشيئين قاله الجوهرى واختلف فى معنى الآية فقال الضحاك ومجاهد وابن زيد حاجز بين الموت والبعث وقال الكلبى هو الاجل بين النفختين وبينهما أربعون سنة وقال السدى هو الاجل وقيل بينهم وبين الرجوع الى الدنيا (الى يوم يبعثون) اى يوم القيامة وهو اقناط كلى عن الرجوع الى الدنيا لما علم انه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجوع فيه الى حياة تكون فى الآخرة عن عائشة

تعالى نحن أعلم بما يقولون اى فى حال تناجيهم بينهم اذ يقول أمثلهم طريقة أى العاقل الكامل فيهم ان لبثتم الا يوما اى لقصر مدة الدنيا فى أنفسهم يوم المعاد لان الدنيا كلها وان تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وايامها وساعاتها كأنها يوم واحد ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة وكان غرضهم فى ذلك رد قيام الحجة عليهم لقصر المدة ولهذا قال تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة الى قوله ولكنكم كنتم لا تعلمون وقال تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير الآية وقال تعالى كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون أى انما كان لبثكم فيها قليلا لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقى على الفانى ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف قدمتم الحاضر الفانى على الدائم الباقى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا) يقول تعالى ويسألونك عن الجبال أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول فقل ينسفها ربى نسفا أى يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرا فيذرها أى الارض قاعا صفصفا أى بسطا واحدا والقاع هو المستوى من الارض والصفصف تأكيد لمعنى ذلك وقيل الذى لا نبات فيه والاول أولى وان كان الآخر مرادا أيضا باللازم ولهذا قال لا ترى فيها عوجا ولا أمتا أى لا ترى فى الارض يومئذ واديا ولا رابية ولا مكانا منخفضا ولا مرتفعا كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصرى والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له أى يوم يرون هذه الاحوال والاهوال يستجيبون مسارعين الى الداعى حيثما أمروا بادروا اليه ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم كما قال تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا وقال مهطعين الى الداع وقال محمد بن كعب القرظى يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة ويطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر وينادى مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه فذلك قوله يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وقال قتادة لا عوج له لا يميلون عنه وقال أبو صالح لا عوج له لا عوج عنه وقوله وخشعت الاصوات للرحمن قال ابن عباس سكنت وكذا قال السدى فلا تسمع الا همسا قال سعيد بن جبير عن ابن عباس يعنى وطء الاقدام وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فلا تسمع الا همسا الصوت الخفى وهو رواية عن عكرمة والضحاك وقال سعيد بن جبير فلا تسمع الا همسا الحديث وسره ووطء الاقدام فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل اما وطء الاقدام فالمراد سعى الناس الى المحشر وهو مشيهم فى

(٢٦٠)

قالت ويل لاهل المعاصى من أهل القبور تدخل عليهم فى قبورهم حيات سود حية عند رأسه وحية عند رجليه تقرضانه حتى تلتقيا فى وسطه فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون (فاذا نفخ فى الصور) قيل هذه هى النفخة الاولى قاله ابن عباس وقيل الثانية قاله ابن مسعود وهذا أولى وهى النفخة التى بين البعث والنشور وقيل المعنى فاذا نفخ فى الاجساد أرواحها على ان الصور جمع صورة لا القرن وقد قرئ بها وبضم الصاد وسكون الواو والقرن الذى ينفخ فيه (فلا أنساب بينهم يومئذ) يتفاخرون بها أو تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف أى لا يذكرونها لما هم فيه من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة وهو جمع نسب وهو القرابة (ولا يتساءلون) أى لا يسأل بعضهم بعضا عنها فان لهم اذ ذاك شغلا شاغلا ومنه قوله يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وقوله ولا يسأل حميم حميما ولا ينافى هذا ما فى الآية الاخرى من قوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فان ذلك محمول على اختلاف المواقف يوم القيامة فالاثبات باعتبار بعضها والنفى باعتبار بعض آخر كما قررناه فى نظائر هذا مما أثبت تارة ونفى اخرى وعن ابن عباس فى الآية قال حين ينفخ فى الصور فلا يبقى حى الا الله وعنه انه سئل عن هذه الآية وقوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال انها مواقف فاما الموقف الذى لا انساب بينهم ولا يتساءلون فعند الصعقة الاولى لا انساب بينهم فيها اذ صعقوا فاذا كانت النفخة الآخرة فاذا هم قيام يتساءلون وعنه انه سئل عن الآيتين فقال هذا فى النفخة الاولى حين لا يبقى على الارض شئ واذا دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود قال اذا كان يوم القيامة جمع الله الاولين والآخرين وفى لفظ يؤخذ بيد العبد أو الامة يوم القيامة على رؤس الاولين والآخرين ثم ينادى مناد ألا ان هذا فلان بن فلان فمن كان له حق قبله فليأت الى حقه وأخرج أحمد والطبرانى والحاكم والبيهقى فى سننه عن المسور بن مخرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الانساب تنقطع يوم القيامة غير نسبى

سكون وخضوع وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال فقد قال تعالى يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد
(يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) يقول تعالى يومئذ أي يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أي عنده الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا كقوله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه وقوله وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيأ الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى وقال ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون وقال ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له وقال يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد ولد آدم واكرم (٢٦١) الخلائق على الله عز وجل انه قال آتي تحت العرش وآخر لله ساجدا ويفتح علي بمحامد لا احصيها الآن فيدعني ما شاء الله ان يدعني ثم يقول يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع قال فيحد لي حدا فادخلهم الجنة ثم اعود فذكر اربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء وفي الحديث ايضا يقول تعالى اخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال من ايمان فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقول اخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من ايمان أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة من كان في قلبه ادنى ادنى مثقال ذرة من ايمان الحديث وقوله يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم اي يحيط علما بالخلائق كلهم ولا يحيطون به علما كقوله ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وقوله وعنت الوجوه للحي القيوم قال ابن عباس وغير واحد خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت القيوم الذي لا ينام وهو قيم على كل شيء يدبره ويحفظه فهو الكامل في نفسه الذي كل شيء فقير اليه لا قوام له الا به وقوله وقد خاب من حمل ظلما أي يوم القيامة فان الله سيؤدي كل حق الى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء وفي الحديث يقول الله عز وجل وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم وفي الصحيح اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك فان الله تعالى يقول ان الشرك لظلم عظيم وقوله ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون أي لا يزاد في سيآتهم ولا ينقص من حسناتهم قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد فالظلم الزيادة بان يحمل عليه ذنب غيره والهضم النقص (وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل

نسبي وسببي وصهري وأخرج البزار والطبراني وأبو نعيم والحاكم والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الا سببي ونسبي وأخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة الا نسبي وصهري وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول على المنبر ما بال رجال يقولون ان رحم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تنفع قومه بلى والله ان رحمي موصولة في الدنيا والآخرة واني أيها الناس فرط لكم (فمن ثقلت موازينه) أي موزوناته من اعماله الصالحة فالموازين جمع موزون ويجوز كونه جمع ميزان ومع وحدته جمعه لتعدد الموزون (فاولئك هم المفلحون) أي الفائزون بمطالبهم المحبوبة الناجون من الامور التي يخافونها (ومن خفت موازينه) وهي اعماله الصالحة (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أي ضيعوها وتركوا ما ينفعها (في جهنم خالدون) قد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى فلا نعيده (تلفح وجوههم النار) أي تحرقها مستأنفة أو حالية أو خبر لأولئك واللفح أشد النفح لانه الاصابة بشدة والنفح الاصابة مطلقا كما في قوله تعالى ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك وقيل اللفح الاحراق يقال لفحته النار اذا أحرقته ولفحته بالسيف اذا ضربته وخص الوجوه لانها أشرف الاعضاء وقيل تسفع قال ابن عباس تلفح تنفخ أخرج ابن مردويه والضياء عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على اعقابهم وعن أبي مسعود قال لفحتهم لفحة فما ابقت لحما على عظم الا القته على اعقابهم (وهم فيها كالحون) حالية والكالح الذي قد شمرت شفتاه وبدت اسنانه قاله الزجاج ودهر كالح أي شديد قال أهل اللغة الكلوح تكشر في عبوس وبابه خضع ومنه كلوح الاسد أي تكشيره عن أنيابه وقيل الكلوح تقطب الوجه وكلح الرجل يكلح كلوحا وكلاحا وعن ابن مسعود قال كلوح الرأس النضيج

رب زدني علما) يقول تعالى ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة انزلنا القرآن بشيرا ونذيرا بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أي يتركون المآثم والمحارم والفواحش أو يحدث لهم ذكرا وهو ايجاد الطاعة وفعل القربات فتعالى الله الملك الحق أي تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق ووعده حق ووعيده حق ورسله حق والجنة حق والنار حق وكل شيء منه حق وعدل تعالى ان يعذب احدا قبل الانذار وبعثة الرسل والانذار الى خلقه لئلا يبقى لاحد حجة ولا شبهة وقوله ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه كقوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيامة لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه وثبت في الصحيح عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعالج من الوحي شدة فكان مما يحرك (٢٦٢) به لسانه فأنزل الله هذه الآية يعني انه عليه السلام كان اذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن فأرشده الله تعالى الى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه فقال لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه أي ان نجمعه في صدرك ثم تقرءه على الناس من غير ان تنسى منه شيأ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه وقال في هذه الآية ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه أي بل انصت فاذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده وقل رب زدني علما أي زدني منك علما قال ابن عيينة رحمه الله ولم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادة حتى توفاه الله عز وجل ولهذا جاء في الحديث ان الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن ماجه حدثنا ابو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن نمير عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن ابي هريرة رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما والحمد لله على كل حال وأخرجه الترمذي عن أبي كريب عن عبد الله بن نمير به وقال غريب من هذا الوجه ورواه البزار عن عمرو بن علي الفلاس عن ابي عاصم عن موسى بن عبيدة به وزاد في آخره وأعوذ بالله من حال أهل النار (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان

بدت اسنانهم وتقلصت شفاههم وعن ابن عباس قال كالحون أي عابسون وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب وقد ورد في صفة أهل النار وما يقولونه وما يقال لهم أحاديث كثيرة معروفة (ألم تكن آياتي تتلى عليكم) في الدنيا يعني قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها او يقال لهم ذلك توبيخا وتقريعا (فكنتم بها تكذبون) وتزعمون انها ليست من الله تعالى (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) مستأنفة والمعنى غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا فسمي ذلك شقوة لانه يؤل الى الشقاء وقرئ شقاوتنا وبها قرأ ابن مسعود والحسن وهما مصدران بمعنى سوء العاقبة والشقاء ضد السعادة والشدة والعسر (وكنا قوما ضالين) بسبب ذلك عن الهدى فانهم ضلوا عن الحق والصواب بتلك الشقوة ثم طلبوا ما لا يجابون اليه فقالوا (ربنا أخرجنا منها) أي من النار (فان عدنا) الى ما كنا عليه من الكفر والتكذيب وعدم الايمان (فانا ظالمون) لانفسنا بالعود الى ذلك (قال) تعالى لهم بلسان مالك بعد قدر الدنيا مرتين قيل هو سبعة آلاف سنة بعدد الكواكب السيارة وقيل اثنا عشر ألف سنة بعدد البروج وقيل ثلثمائة ألف سنة وستون بعدد ايام السنة ذكره القرطبي في التذكرة والتحقيق فيه ما ذكرناه في لقطة العجلان (اخسؤا فيها) أي اسكتوا في جهنم سكوت هوان قال المبرد الخسء ابعاد بمكروه وقال الزجاج تباعدوا تباعد سخط وأبعدوا ابعاد الكلاب فالمعنى أبعدوا في جهنم كما يقال للكلب اخسأ أي ابعد وخسأت الكلاب طردته (ولا تكلمون) في اخراجكم من النار ورجوعكم الى الدنيا او في رفع العذاب عنكم وقيل المعنى لا تكلمون رأسا قال الحسن هو آخر كلام يتكلم به اهل النار وما بعد ذلك الا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب ثم علل ذلك بقوله (انه) تعليل لما قبلها من الزجر عن دعائهم بالخروج منها (كان فريق من عبادي) وهم المؤمنون وقيل

الصحابة

حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الاعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال انما سمى الانسان لانه عهد اليه فنسى وكذا رواه على بن أبى طلحة عنه وقال مجاهد والحسن ترك وقوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلا وقد تقدم الكلام على هذه القصة فى سورة البقرة وفى الاعراف وفى الحجر والكهف وسيأتى فى آخر سورة ص يذكر تعالى فيها خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفا وتكريما ويبين عداوة ابليس لبنى آدم ولأبيهم قديما ولهذا قال تعالى فسجدوا الا ابليس أبى أى امتنع واستكبر فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك يعنى حواء عليهما السلام فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى أى اياك أن تسعى فى اخراجك منها فتتعب وتعنى وتشقى فى طلب رزقك فانك ههنا فى عيش رغيد هنىء بلا كلفة ولا مشقة ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى انما قرن بين الجوع والعرى لان الجوع ذل الباطن والعرى ذل الظاهر وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى وهذان أيضا متقابلان فالظمأ حر الباطن وهو العطش والضحى حر الظاهر وقوله فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى قد تقدم انه دلاهما بغرور وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين وقد تقدم ان الله تعالى عهد الى آدم وزوجه ان يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة فى الجنة فلم يزل بهما ابليس حتى أكلا منها وكانت شجرة الخلد يعنى التى من أكل منها خلد ودام مكثه وقد جاء فى الحديث ذكر شجرة الخلد فقال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن أبى الضحاك سمعت أبا هريرة يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام ما يقطعها وهى شجرة الخلد ورواه الامام أحمد وقوله فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين بن اشكاب حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر الى عورته جعل يشتد فى الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن يا آدم منى تفر فلما سمع كلام الرحمن قال رب لا ولكن استحياء أرأيت ان تبت ورجعت أعائدى الى الجنة قال نعم فذلك قوله فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وهذا منقطع بين الحسن وأبى بن كعب فلم يسمعه منه وفى رفعه نظر أيضا وقوله وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال مجاهد يرقعان كهيئة الثوب وكذا قال قتادة والسدى وقال ابن أبى حاتم حدثنا جعفر بن عون حدثنا سفيان عن ابن أبى ليلى عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما وقوله وعصى آدم ربه فغوى ثم

الصحابة المهاجرون ومنهم بلال وصهيب وعمار وخباب (يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين) ومحط التعليل قوله (فاتخذتموهم سخريا) بكسر السين وبضمها سبعيان وفرق بينهما أبو عمرو فجعل الكسر من جهة الهزء والضم من جهة السخرة قال النحاس ولا يعرف هذا الفرق الخليل ولا سيبويه ولا الكسائى ولا الفراء وحكى عن الكسائى ان الكسر بمعنى الاستهزاء والسخرية بالقول والضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعل (حتى أنسوكم ذكرى) أى اتخذتموهم سخريا الى هذه الغاية فانهم نسوا ذكر الله لشدة اشتغالهم بالاستهزاء (وكنتم منهم تضحكون) فى الدنيا والمعنى حتى نسيتم ذكرى باشتغالكم بالسخرية والضحك فنسب ذلك الى عباده المؤمنين لكونهم السبب (انى جزيتهم اليوم بما صبروا) مستأنفة لتقرير ما سبق لبيان حسن حالهم والباء للسببية (انهم هم الفائزون) بفتح الهمزة مفعول ثان لجزيتهم وقرئ بكسرها على الاستئناف والمعنى جزيتهم بصبرهم الفوز بالجنة قال الله عز وجل تذكيرا لهم بما ظنوه طويلا دائما فهو قليل بالاضافة الى ما أنكروه وقرئ قل على صيغة الامر والمعنى قل يا محمد للكفار أو يكون أمر الله للملك بسؤالهم أو التقدير قولوا فأخرج الكلام مخرج الامر للواحد والمراد الجماعة (كم لبثتم فى الارض) التى طلبتم الرجوع اليها والغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ لانهم كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة اصلا ويحتمل أن يكون السؤال عن جميع ما لبثوا فى الحياة الدنيا وفى القبور وقيل هو سؤال عن مدة لبثهم فى القبور لقوله فى الارض ولم يقل على الارض ورد بمثل قوله تعالى ولا تفسدوا فى الارض (عدد سنين) أى لبثتم كم عددا من السنين بفتح النون على انها نون الجمع ومن العرب من يخفضها أو ينونها (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) استقصروا مدة لبثهم وشكوا فى ذلك لعظم ما هم فيه من العذاب الشديد وقيل ان العذاب رفع عنهم بين النفختين فنسوا ما كانوا فيه من العذاب فى قبورهم وقيل انساهم الله ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الاولى الى النفخة الثانية ثم لما عرفوا

اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال حاج موسى آدم فقال له أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم قال آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني أو قدره الله علي قبل أن يخلقني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد. قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني أنس بن عياض عن الحرث بن أبي ذباب عن يزيد بن هرمز قال سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته

وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس الى الارض بخطيئتك قال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه وأعطاك الالواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومني على ان عملت عملا كتب الله علي ان أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى قال الحرث وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس اهبطوا منها جميعا أي من الجنة كلكم وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة بعضكم لبعض عدو قال آدم وذريته وإبليس وذريته وقوله فاما يأتينكم مني هدى قال أبو العالية الانبياء والرسل والبيان فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى قال ابن عباس لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ومن أعرض عن ذكري أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي اعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه فان له معيشة ضنكا أي ضنكا في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره بل صدره ضيق حرج لضلاله وان تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فان قلبه ما لم يخلص الى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس فان له معيشة ضنكا قال الشقاء وقال العوفي عن ابن عباس فان له معيشة ضنكا قال كلما أعطيته عبدا من عبادي قل أو كثر فلا يتقيني فيه فلا خير فيه وهو

ما أصابهم من النسيان لشدة ما هم فيه من الهول العظيم أحالوا على غيرهم فقالوا (فاسئل العادين) جمع عاد من العدد أي المتمكنين من معرفة العدد وهم الملائكة لانهم الحفظة العارفون بأعمال العباد وأعمارهم وقيل المعنى فاسئل الحاسبين العارفين بالحساب من الناس (قال ان لبثتم الا قليلا) قرئ على الخبر وقرئ قل كما في الآية الاولى وقد تقدم توجيه القراءتين أي ما لبثتم في الارض الا زمنا قليلا أو لبثا قليلا قال تعالى ذلك بلسان مالك تصديقا لهم وتقريعا وتوبيخا (لو انكم كنتم تعلمون) شيأ من العلم والجواب محذوف أي لعلمتم اليوم قلة لبثكم في الارض أو في القبور أو فيهما فكل ذلك قليل بالنسبة الى لبثهم في النار ثم زاد في توبيخهم على تماديهم في الغفلة وتركهم النظر الصحيح فيما يدل على حقية البعث والقيامة فقال (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا) لا لحكمة والهمزة للتوبيخ والتقرير والفاء للعطف على مقدر أي ألم تعلموا شيأ أفحسبتم أو أغفلتم وتلاهيتم وتعاميتم فحسبتم والمعنى عابثين أو لاجل العبث قال بالاول سيبويه وقطرب وبالثاني أبو عبيدة والعبث في اللغة اللعب وما لا فائدة فيه يقال عبث يعبث عبثا فهو عابث أي لاعب وأصله من قولهم عبثت الاقط أي خلطته والمعنى أفحسبتم انما خلقناكم للاهمال كما خلقت البهائم ولا ثواب ولا عقاب (وانكم الينا لا ترجعون) بالبعث والنشور فنجازيكم بأعمالكم قرئ ترجعون مبنيا للفاعل وللمفعول وقدم الينا على الفعل لاجل الفواصل ثم نزه سبحانه نفسه فقال (فتعالى الله) أي تنزه عن الاولاد والشركاء أو عن ان يخلق شيأ عبثا أو عن جميع ذلك وهو (الملك) الذي يحق له الملك على الاطلاق ايجادا واعداما بدأ واعادة واحياء واماتة وعقابا واثابة وكل ما سواه مملوك له بالذات مقهور لملكوته مالك بالعرض من وجه دون وجه وفي حال دون حال (الحق) في جميع أفعاله وأقواله وهذا استعظام له تعالى ولشؤنه (لا اله الا هو رب العرش الكريم) فكيف لا يكون الها وربا لما هو دون العرش الكريم وما تحته من المخلوقات وما أحاط به من الموجودات كائنا ما كان ووصف

العرش

الضنك في المعيشة وقال أيضا ان قوما ضلالا كانوا أعرضوا عن الحق وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين فكانت معيشتهم ضنكا وذلك انهم كانوا يرون ان الله ليس مخلفا لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب فاذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك وقال الضحاك هو العمل السيء والرزق الخبيث وكذا قال عكرمة ومالك بن دينار وقال سفيان بن عيينة عن أبي حازم عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قوله معيشة ضنكا قال يضيق عليه قبره حتى تختلف اضلاعه فيه قال أبو حاتم الرازي النعمر بن أبي عياش يكنى أباسلمة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل فان له معيشة ضنكا قال ضمة القبر له والموقوف أصح وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا الربيع بن سليمان (٢٦٥) حدثنا أسد بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح عن ابن حجيرة اسمه عبد الرحمن عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمن في قبره في روضة خضراء ويفسح له في قبره سبعون ذراعا وينور له قبره كالقمر ليلة البدر أتدرون فيما أنزلت هذه الآية فان له معيشة ضنكا أتدرون ما المعيشة الضنك قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره والذي نفسي بيده انه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنينا أتدرون ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤس ينهشونه في جسمه ويلسعونه ويخدشونه الى يوم يبعثون رفعه منكر جدا وقال البزار حدثنا محمد بن يحيى الازدي حدثنا محمد بن عمر حدثنا هشام ابن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن أبي حجيرة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل فان له معيشة ضنكا قال المعيشة الضنك الذي قال الله انه يسلط عليه تسعة وتسعون حية

ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو الوليد حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فان له معيشة ضنكا قال عذاب القبر اسناد جيد وقوله ونحشره يوم القيامة أعمى قال مجاهد وأبو صالح والسدي لا حجة له وقال عكرمة عمي عليه كل شيء الا جهنم ويحتمل أن يكون المراد انه يبعث أو يحشر الى النار أعمى البصر والبصيرة أيضا كما قال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم الآية ولهذا يقول رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا أي في الدنيا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها اليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا فان الجزاء من جنس العمل فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه

العرش بالكريم لنزول القرآن أو الرحمة أو الخير منه أو باعتبار من استوى عليه كما يقال بيت كريم اذا كان ساكنوه كراما أو لنسبته الى أكرم الأكرمين من حيث انه أعظم مخلوقاته وقرئ الكريم بالرفع على انه نعت لرب أخرج الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن السني في عمل اليوم والليلة وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود انه قرأ في اذن مصاب أفحسبتم حتى ختم السورة فبرئ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بماذا قرأت في اذنه فاخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي نفسي بيده لو ان رجلا موقنا قرأ بها على جبل لزال وأخرج ابن السني وابن منده وأبو نعيم قال السيوطي بسند حسن عن ابراهيم التيمي قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سرية وأمرنا ان نقول اذا أمسينا وأصبحنا أفحسبتم الخ فقرأناها فغنمنا وسلمنا ثم زيف ما عليه أهل الشرك توبيخا لهم وتقريعا فقال (ومن يدع مع الله الها آخر) يعبده مع الله أو يعبد وحده (لا برهان له به) صفة كاشفة لقوله الها اذ لا مفهوم لها أو هي صفة لازمة جيء بها للتأكيد كقوله يطير بجناحيه والبرهان الحجة الواضحة والدليل الواضح وجواب الشرط قوله (فانما حسابه عند ربه) أي فهو مجازله بقدر ما يستحقه وجملة لا برهان له به معترضة بين الشرط والجزاء وقيل ان جواب الشرط قوله لا برهان له به (انه) قرئ بالكسر على الاستئناف المفيد للعلة وبالفتح على التعليل (لا يفلح الكافرون) قرئ من أفلح وقرئ بفتح الياء مضارع فلح بمعنى أفلح فيه مراعاة معنى من وفيه الاظهار في مقام الاضمار للنداء عليهم بهذا الوصف القبيح جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون وخاتمتها انه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم ختم هذه السورة بتعليم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يدعوه بالمغفرة والرحمة فقال (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) أمره سبحانه بالاستغفار ليقتدي به أمته وقيل أمره بالاستغفار لامته وقد تقدم بيان كونه أرحم الراحمين وفي الرحمة زيادة على المغفرة وهي ايصال الاحسان

والقيام بمقتضاه فليس داخلا فى هذا الوعيد الخاص وان كان متوعدا عليه من جهة أخرى فانه قد وردت السنة بالنهى الاكيد والوعيد الشديد فى ذلك قال الامام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا خالد عن يزيد بن أبى زياد عن عيسى بن فائد عن رجل عن سعد بن عبادة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما من رجل قرأ القرآن فنسيه الا لقى الله يوم يلقاه وهو أجذم ثم رواه الامام أحمد من حديث يزيد بن أبى زياد عن عيسى بن فائد عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكر مثله سواء (وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) يقول تعالى وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ولهذا قال ولعذاب الآخرة أشد وأبقى أى أشد ألما من عذاب الدنيا وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين ان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى) يقول تعالى أفلم يهد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد كم أهلكنا من الامم المكذبين بالرسل قبلهم فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التى خلفوهم فيها يمشون فيها ان فى ذلك لآيات لاولى النهى أى العقول الصحيحة والالباب المستقيمة كما قال تعالى أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وقال فى سورة ألم السجدة أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم الآية ثم قال تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى أى لولا الكلمة السابقة من الله وهو انه لا يعذب أحدا الا بعد قيام الحجة عليه والاجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين الى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة ولهذا قال لنبيه مسليا له فاصبر على ما يقولون أى من تكذيبهم لك وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس يعنى صلاة الفجر وقبل غروبها يعنى صلاة العصر كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر فقال انكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فان استطعتم ان لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ هذه الآية وقال الامام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن عمارة بن رؤيبة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لن يلج

زيادة على غفر الذنب وأيضا الغفران قد يكون من غير احسان الذى هو معنى الرحمة ووجه اتصال هذا بما قبله انه سبحانه لما شرح أحوال الكفار أمر بالانقطاع اليه والالتجاء الى غفرانه ورحمته لان رحمته اذا أدركت أحدا أغنته عن رحمة غيره ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته

(سورة النور هى مدنية وآياتها أربع وستون آية)

وبه قال ابن عباس وابن الزبير وعن عائشة مرفوعا قال لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة يعنى النساء وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه البيهقى والحاكم وابن مردويه وعن مجاهد مرفوعا قال علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور رواه البيهقى وابن المنذر وسعيد بن جبير وهو مرسل

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سورة) هى فى اللغة اسم للمنزلة الشريفة ولذلك سميت السورة من القرآن سورة ومنه قول زهير

ألم تر أن الله اعطاك سورة * ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى منزلة وقرئ بالرفع وفيه وجهان أحدهما ان يكون خبر المبتدا محذوف والتقدير هذه سورة ورجحه الزجاج والفراء والمبرد قالوا لانها نكرة ولا يبتدأ بها فى كل موضع والثانى أن يكون مبتدأ وجاز الابتداء بالنكرة لكونها موصوفة بقوله (أنزلناها) والخبر الزانية والزانى والى هذا نحا ابن عطية والمعنى السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا اذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومختم وهذا معنى صحيح ولا وجه لما قاله الاولون وقيل التقدير فيما أوحينا اليك سورة وردبان مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة لا بيان ان فى جملة ما أوحى الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم سورة شأنها كذا وكذا وقرئ بالنصب أى اتل سورة أو اقرأ أو أنزلنا سورة أو دونك سورة قاله الزمخشرى ورده أبو حيان وقيل أنزلنا الاحكام حال كونها سورة من سور القرآن (وفرضناها) قرئ بالتخفيف والتشديد

النار أحد صلى قبل طلوع الشمس و[illegible] ورواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير به وفي المسند والسنن عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر الى أقصاه كما ينظر الى أدناه
اعلاهم منزلة لمن ينظر الى الله تعالى في اليوم مرتين وقوله ومن آناء الليل فسبح أي من ساعاته فتهجد به وحمله بعضهم على المغرب
والعشاء واطراف النهار في مقابلة آناء الليل لعلك ترضى كما قال تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وفي الصحيح يقول الله تعالى
يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول هل رضيتم فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك
فيقول اني أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا وفي
الحديث الآخر يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد ان ينجزكموه (٢٦٧) فيقولون وما هو ألم يبيض وجوهنا ويثقل
موازيننا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة فيكشف الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم خيرا من النظر اليه وهي الزيادة (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لا تنظر الى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم فانما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور وقال مجاهد أزواجا منهم يعني الاغنياء فقد آتاك خيرا مما آتاهم كما قال في الآية الأخرى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك الآية وكذلك ما ادخره الله تعالى
لرسوله صلى الله عليه وسلم في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف كما قال تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى ولهذا قال ورزق
ربك خير وأبقى وفي الصحيح ان عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه
حين آلى منهن فرآه متوسدا مضطجعا على رمال حصير وليس في البيت الا صبرة من قرظ واهبة معلقة فابتدرت عينا عمر بالبكاء
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقال يا رسول الله ان كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه فقال أو
في شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا فكان صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا مع القدرة
عليها اذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدخر لنفسه شيأ لغد قال ابن أبي حاتم أنبأنا يونس أخبرني ابن وهب أخبرني
مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله

والتشديد ومعنى المشدد قطعناها في الانزال نجما نجما والفرض القطع والتشديد
للتكثير أو للمبالغة أو لتأكيد الايجاب أو لكثرة الفرائض فيها كالزنا والقذف واللعان
والاستئذان وغض البصر وغير ذلك ومعنى المخفف أوجبناها وجعلناها مقطوعة وقيل
ألزمنا كم العمل بها وقيل قدرنا ما فيها من الحدود والفرض التقدير ومنه ان الذي فرض
عليك القرآن وقيل بيناها قاله ابن عباس وقيل أوجبنا ما فيها من الاحكام ايجابا قطعيا
وفيه من الايذان بغاية وكادة الفرضية ما لا يخفى (وأنزلنا فيها آيات بينات) أي أنزلنا في
غضونها وتضاعيفها آيات واضحة الدلالة على مدلولها وتكرير أنزلنا لكمال العناية بانزال
هذه السورة وشأنها لما اشتملت عليه من الاحكام المفروضة قال الرازي ذكر الله في أول
السورة أنواعا من الاحكام والحدود وفي آخرها دلائل التوحيد فقوله فرضناها اشارة الى
الاحكام وقوله هذا الى ما بين فيها من دلائل التوحيد ويؤيده قوله (لعلكم تذكرون)
فان الاحكام لم تكن معلومة حتى نؤمر بتذكرها أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة
لهم لظهورها فأمروا بتذكرها قيل والمعنى تتعظون وقيل قوله (الزانية والزاني) تفصيل
ما أجمل من الآيات البينات والزنا هو وطء الرجل للمرأة في فرجها من غير نكاح ولا شبهة
نكاح وقيل هو ايلاج فرج في فرج مشتهى طبعا محرم شرعا والزانية هي المرأة المطاوعة
للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المكرهة وكذلك الزاني وتقديم الزانية على الزاني
لانها الاصل في الفعل لكون الداعية فيها أوفر ولولا تمكينها منه لم يقع قاله أبو السعود وانما
قدمت المرأة هنا وأخرت في آية حد السرقة لان الزنا انما يتولد بشهوة الوقاع وهي في المرأة
أقوى وأكثر والسرقة انما تتولد من الجسارة والقوة والجرأة وهي في الرجل أقوى وأكثر
قاله الكرخي وقيل وجه تقديم الزانية على الزاني ههنا ان الزنا في ذلك الزمان كان في النساء
أكثر حتى كان لهن رايات تنصب على أبوابهن ليعرفهن من أراد الفاحشة منهن وقيل
لان العار فيهن أكثر اذ موضوعهن الحجبة والصيانة فقدم ذكر الزانية تغليظا واهتماما

لكم من زهرة الدنيا قالوا وما زهرة الدنيا يا رسول الله قال بركات الارض وقال قتادة والسدى زهرة الحياة الدنيا يعنى زينة الحياة
الدنيا وقال قتادة لنفتنهم فيه لنبتليهم وقوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها أى استنقذهم من عذاب الله باقام الصلاة واصبر
أنت على فعلها كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن صالح حدثنا
ابن وهب أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه ان عمر بن الخطاب كان يبيت عنده انا ويرفأ وكان له ساعة من الليل يصلى
فيها فربما لم يقم فنقول لا يقوم الليلة كما كان يقوم وكان اذا استيقظ اقام يعنى أهله وقال وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها وقوله
لا نسألك رزقا نحن نرزقك يعنى اذا اقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب كما قال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه
من حيث لا يحتسب وقال تعالى وما خلقت (٢٦٨) الجن والانس الا ليعبدون الى قوله ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ولهذا
قال لا نسألك رزقا نحن نرزقك وقال
الثورى لا نسألك رزقا أى لا نكلفك
الطلب وقال ابن أبى حاتم حدثنا
أبو سعيد الاشج حدثنا حفص بن
غياث عن هشام عن أبيه انه كان
اذا دخل على أهل الدنيا فرأى من
دنياهم طرفا فاذا رجع الى أهله
فدخل الدار قرأ ولا تمدن عينيك
الى قوله نحن نرزقك ثم يقول الصلاة
الصلاة رحمكم الله وقال ابن أبى
حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن
أبى زياد القطرانى حدثنا سيار
حدثنا جعفر عن ثابت قال كان
النبى صلى الله عليه وسلم اذا أصابه
خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلوا
صلوا قال ثابت وكانت الانبياء اذا
نزل بهم أمر فزعوا الى الصلاة
وقد روى الترمذى وابن ماجه من
حديث عمران بن زائدة عن أبيه عن
أبى خالد الوالبى عن أبى هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول الله تعالى يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وان لم تفعل ملأت صدرك شغلا   الزهرى
ولم أسد فقرك وروى ابن ماجه من حديث الضحاك عن الاسود عن ابن مسعود سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول من جعل
الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديته هلك وروى أيضا
من حديث شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره
وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة وقوله والعاقبة للتقوى أى وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة وهى الجنة لمن اتقى الله
وفى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت الليلة كأنا فى دار عقبة بن رافع وانا أتينا برطب من رطب ابن طاب فأولت

(فاجلدوا) الجلد الضرب يقال جلده اذا ضرب جلده مثل بطنه اذا ضرب بطنه ورأسه
اذا ضرب رأسه ودخول الفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط على مذهب الاخفش وعلى
مذهب سيبويه التقدير فيما يتلى عليكم حكم الزانية ثم بين ذلك بقوله فاجلدوا والخطاب
فى هذه الآية الكريمة للائمة ومن قام مقامهم وقيل للمسلمين أجمعين لان اقامة الحدود
واجبة عليهم جميعا والامام ينوب عنهم اذ لا يمكنهم الاجتماع على اقامة الحدود (كل
واحد منهما مائة جلدة) هو حد الزانى الحر البالغ البكر وكذلك الزانية وثبت بالسنة
زيادة على هذا الجلد وهو تغريب عام وبه قال الشافعى وقال أبو حنيفة التغريب الى رأى
الامام والحديث يرده وقال مالك يجلد الرجل ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب واما المملوك
والمملوكة فحدكل واحد منهما خمسين جلدة لقوله سبحانه فان أتين بفاحشة فعليهن نصف
ما على المحصنات من العذاب وهذا نص فى الاماء وألحق بهن العبيد لعدم الفارق وأما من
كان محصنا من الاحرار فعليه الرجم بالسنة الصحيحة المتواترة وباجماع أهل العلم بل
وبالقرآن المنسوخ لفظه الباقى حكمه وهو الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة وزاد
جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة وقد أوضح الشوكانى ما هو الحق فى ذلك فى شرحه
للمنتقى وقد مضى الكلام فى حد الزنا مستوفى وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية
الاذى اللتين فى سورة النساء وزاد النسفى والتغريب منسوخ بالآية وليس بصحيح فقد
أثبتته السنة الصحيحة كما أشرنا اليه (ولا تأخذكم) بالتأنيث مراعاة للفظ وبالياء لانه
مجازى وللفصل بالمفعول والجار (بهما رأفة) يقال رأف يرأف رأفة على وزن فعلة ورآفة
على وزن فعالة مثل النشأة والنشاءة وكلاهما بمعنى الرقة والرحمة وقيل هى أرق الرحمة
وأشدها (فى دين الله) أى فى طاعته وحكمه كما فى قوله ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك
أى لا يأخذكم اللين فى استيفاء الحدود فتعطلوها وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد
ابن جبير والنخعى والشعبى وقيل تخففوا الضرب وهو قول سعيد بن المسيب والحسن قال

ذلك ان العاقبة لنا في الدنيا والرفعة وان ذ بيناه قد طاب (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى) يقول تعالى مخبرا عن الكفار في قولهم لولا أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه أي بعلامة دالة على صدقه في انه رسول الله قال الله تعالى أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو امي لا يحسن الكتابة ولم يدارس أهل الكتاب وقد جاء فيه أخبار الاولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها فان القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما (٢٦٩) أنا نذير مبين أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما من نبي الا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي فارجو ان أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة وانما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه السلام وهو القرآن والا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه ثم قال تعالى ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا أي لو انا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل ان نرسل اليهم هذا الرسول الكريم وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى يبين تعالى ان هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم كما قال تعالى وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون الى قوله بما كانوا يصدفون وقال وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم الآية وقال وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها الآيتين ثم قال تعالى قل أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده كل متربص أي منا ومنكم فتربصوا أي فانتظروا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي أي الطريق المستقيم ومن اهتدى الى الحق وسبيل الرشاد وهذا كقوله تعالى وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا وقال سيعلمون غدا من الكذاب الاشر آخر تفسير سورة طه ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة الانبياء عليهم السلام وهي مكية) قال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا شعبة عن أبي اسحق سمعت عبد الرحمن ابن يزيد عن عبد الله قال بنو اسرائيل والكهف ومريم وطه والانبياء هن من العتاق الاول وهن من تلادي

الزهري يجتهد في حد الزنا والفرية أي القذف ويخفف في حد الشرب وقيل يجتهد في حد الزنا ويخفف دون ذلك في حد القذف ودونه في حد الشرب ثم قال مثبتا للمأمورين ومهيجا لهم (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أي ان كنتم تصدقون بالتوحيد والبعث الذي فيه جزاء الاعمال فلا تعطلوا الحدود وفيه الهاب الغضب لله ولدينه وذلك لان الايمان بهما يقتضي التجلد في طاعة الله وفي اجراء أحكامه وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب في مقابلة المسامحة في الحدود وتعطيلها والحاصل ان الواجب على المؤمنين ان يتصلبوا في دين الله ويستعملوا الجد والمتانة ولا يأخذهم اللين والهوان في استيفاء حدود الله وكفى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اسوة في ذلك حيث قال لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها (وليشهد عذابهما) أي ليحضر الجلد اذا أقيم عليهما زيادة في التنكيل بهما وشيوع العار عليهما واشتهار فضيحتهما (طائفة من المؤمنين) ندبا والطائفة الفرقة التي تكون حافة حول الشيء من الطوف وأقلها ثلاثة لانه أقل الجمع وقيل اثنان قاله عكرمة وقيل واحد قاله مجاهد وقيل أربعة لانهم عدد شهود الزنا وقيل عشرة قال ابن عباس الطائفة الرجل فما فوقه ولا يجب على الامام حضور رجم ولا على الشهود لانه صلى الله عليه وآله وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما وانما خص المؤمنين بالحضور لان ذلك أفضح والفاسق بين صلحاء قومه أخجل وتسمية الجلد عذابا دليل على انه عقوبة ثم ذكر سبحانه شيأ يختص بالزاني والزانية فقال (الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك) يعني ان الغالب ان المائل الى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح والزانية لا يرغب فيها الصلحاء فان المشاكلة علة الالفة والتضام والمخالفة سبب للنفرة والافتراق وقد اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية على أقوال الاول ان المقصود منها تشنيع الزنا وتشنيع أهله وانه محرم على المؤمنين ويكون معنى الزاني لا ينكح الا زانية الوطء لا العقد أي الزاني لا يزني الا بزانية والزانية لا تزني الا

(بسم الله الرحمن الرحيم) (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون قال ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم بل قالوا أضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها وان الناس فى غفلة عنها أى لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها وقال النسائى حدثنا أحمد بن نصر حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن أبى صالح عن ابى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى غفلة معرضون قال فى الدنيا وقال تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وقال اقتربت الساعة وانشق القمر وان (٢٧٠) يروا آية يعرضوا الآية وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن هانئ أبى نواس الشاعر انه قال أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول

الناس فى غفلاتهم
ورحا المنية تطحن

فقيل له من أين أخذ هذا قال من قول الله تعالى اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون وروى فى ترجمة عامر بن ربيعة من طريق موسى بن عبيد الآمدى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه الرجل فقال انى استقطعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم واديا فى العرب وادفضل منه وقد أردت ان اقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر لا حاجة لى فى قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ثم أخبر تعالى انهم لا يصغون الى الوحى الذى أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث أى جديد انزاله الا استمعوه وهم يلعبون كما قال ابن عباس مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤنه محضا لم يشب رواه البخارى بنحوه وقوله وأسروا النجوى الذين ظلموا أى قائلين فيما بينهم خفية هل هذا الا بشر مثلكم يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم يستبعدون كونه نبيا لانه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحى دونهم ولهذا قال أفتأتون السحر وأنتم تبصرون أى افتتبعونه فتكونون كمن يأتى السحر وهو يعلم انه سحر فقال تعالى مجيبا لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب قال ربى يعلم القول فى السماء والارض أى الذى يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الاولين والآخرين الذى لا يستطيع احد أن يأتى بمثله الا الذى يعلم السر

بزان وزاد ذكر المشركة والمشرك لكون الشرك أعم فى المعاصى من الزنا ورد هذا الزجاج وقال لا يعرف النكاح فى كتاب الله الا بمعنى التزويج ويرد هذا الرد بأن النكاح بمعنى الوطء ثابت فى كتاب الله سبحانه ومنه قوله حتى تنكح زوجا غيره فقد بينه النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأن المراد به الوطء ومن جملة القائلين بأن معنى الآية الزانى لا يزنى الا بزانية سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة كما حكاه ابن جرير عنهم وعن ابن عباس قال ليس هذا بالنكاح ولكن الجماع لا يزنى بها حين تزنى الا زان أو مشرك الثانى ان الآية هذه نزلت فى امرأة خاصة فتكون خاصة بها كما قال الخطابى عن ابن عمر وقال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح وتشترط ان تنفق عليها فأراد رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يتزوجها فأنزل الله هذه الآية أخرجه أحمد والنسائى والحاكم وصححه وغيرهم الثالث انها نزلت فى رجل من المسلمين فتكون خاصة به قاله مجاهد وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد يحمل الاسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت امرأة بغى بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وذكر قصة وفيها فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناقا فلم يرد على شيأ حتى نزلت الزانى لا ينكح الا زانية الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا مرثد الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين فلا تنكحها أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى والحاكم وصححه والبيهقى وغيرهم الرابع انها نزلت فى أهل الصفة فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح الخامس أن المراد بالزانى والزانية المحدودان حكاه الزجاج وغيره عن الحسن قال وهذا حكم من الله فلا يجوز لزان محدود ان يتزوج الا محدودة وروى نحوه عن ابراهيم النخعى وبه قال بعض أصحاب الشافعى قال ابن العربى وهذا لا يصح نظرا كما لا يثبت نقلا السادس ان هذه الآية منسوخة بقوله سبحانه وانكحوا الايامى منكم قال النحاس وهذا القول عليه أكثر العلماء والسابع

في السموات والأرض وقوله وهو السميع العليم أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وفي هذا تهديد لهم ووعيد وقوله بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه هذا اخبار عن تعنت الكفار والحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم فيه وضلالهم عنه فتارة يجعلونه سحرا وتارة يجعلونه شعرا وتارة يجعلونه اضغاث احلام وتارة يجعلونه مفترى كما قال انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وقوله فليأتنا بآية كما أرسل الاولون يعنون كناقة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون الآية ولهذا قال تعالى ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون أي ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فاهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك كلا بل ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل (٢٧١) آية حتى يروا العذاب الاليم هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو اظهر وأجلى وابهر واقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين قال ابن أبي حاتم رحمه الله ذكر عن زيد بن الحباب حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحرث بن زيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي حدثني من شهد عبادة بن الصامت يقول كنا في المسجد ومعنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقرأ بعض القرآن فجاء عبد الله بن سلول ومعه نمرقة وزربية فوضع واتكأ وكان صبيحا فصيحا جدلا فقال يا أبا بكر قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الاولون جاء موسى بالالواح وجاء داود بالزبور وصالح بالناقة وجاء عيسى بالانجيل وبالمائدة فبكى أبو بكر رضي الله عنه فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر قوموا بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم نستغيث به من هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه لا يقام لي انما يقام لله عز وجل فقلنا يا رسول الله انا لقينا من هذا المنافق فقال ان جبريل قال لي اخرج فأخبر بنعم الله التي أنعم بها عليك وفضيلته التي فضلت بها فبشرني اني بعثت الى الاحمر والاسود وأمرني ان أنذر الجن وآتاني كتابه وانا أمي وغفر ذنبي ما تقدم وما تأخر وذكر اسمي في الاذان وأمدني بالملائكة وآتاني النصر وجعل الرعب امامي وآتاني الكوثر وجعل حوضي من أعظم الحياض يوم القيامة ووعدني المقام المحمود والناس مهطعون مقنعون رؤسهم وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس وادخل في شفاعتي سبعين ألفا من أمتي الجنة بغير حساب وآتاني السلطان والملك وجعلني في أعلى غرفة في الجنة في جنات النعيم فليس فوقي أحد الا الملائكة الذين يحملون العرش واحل لي ولامتي الغنائم ولم تحل لاحد كان قبلنا وهذا الحديث غريب جدا (وما أرسلنا قبلك الا رجالا

والسابع ان هذا الحكم مؤسس على الغالب العام والمعنى ان غالب الزناة لا يرغب الا في الزواج بزانية مثله وغالب الزواني لا يرغبن الا في الزواج بزان مثلهن قال الكرخي ان الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب في نكاح المرأة الصالحة وانما يرغب في نكاح فاسقة مثله أو في مشركة والفاسقة لا ترغب في نكاح الرجل الصالح بل تنفر عنه وانما ترغب فيمن هو من جنسها من الفسقة والمشركين فهذا على الاعم الاغلب كما يقال لا يفعل الخير الا الرجل التقي وقد يفعل الخير من ليس بتقي فكذا ههنا والفرق بين قوله الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة وقوله والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ان الكلام يدل على أن الزاني لا يرغب الا في نكاح الزانية بخلاف الزانية فقد ترغب في نكاح غير الزاني فلا جرم بين ذلك بالكلام الثاني والمقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا وهذا أرجح الاقوال وسبب النزول يشهد له كما تقدم وعن شعبة مولى ابن عباس قال كنت مع ابن عباس فأتاه رجل فقال اني كنت اتبع امرأة فأصبت منها ما حرم الله علي وقد رزقني الله منها توبة فاردت ان أتزوجها فقال الناس الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة فقال ابن عباس ليس هذا موضع هذه الآية انما كن نساء بغايا متعاليات يجعلن على أبوابهن رايات يأتيهن الناس يعرفن بذلك فأنزل الله هذه الآية تزوجها فما كان فيها من اثم فعلي وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينكح الزاني المجلود الا مثله أخرجه ابو داود وابن المنذر والحاكم وابن أبي حاتم وغيرهم وعن علي ان رجلا تزوج امرأة ثم انه زنى فأقيم عليه الحد فجاؤا به الى علي ففرق بينه وبين امرأته وقال لا تتزوج الا مجلودا مثلك وعن مجاهد قال كن نساء في الجاهلية بغيات فكانت منهن امرأة جميلة تدعى أم جميل فكان الرجل من المسلمين يتزوج احداهن لتنفق عليه من كسبها فنهى الله سبحانه أن يتزوجهن أحد من المسلمين وهو مرسل وعن ابن عباس انها نزلت في بغايا معلنات كن في الجاهلية وكن زواني مشركات فحرم الله نكاحهن على المؤمنين وعنه قال

يوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) يقول تعالى رادا على من أنكر بعثة الرسل من البشر وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم أى جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالا من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة كما قال فى الآية الاخرى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى وقال تعالى قل ما كنت بدعا من الرسل وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الامم لانهم أنكروا ذلك فقالوا أبشر يهدوننا ولهذا قال تعالى فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون أى اسألوا أهل العلم من الامم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف هل كان الرسل الذين أتوهم بشرا أو ملائكة وانما كانوا بشرا وذلك من تمام نعمة الله على خلقه اذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والاخذ عنهم وقوله (٢٧٢) وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام أى بل قد كانوا أجسادا يأكلون الطعام كما قال تعالى وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق أى قد كانوا بشرا من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس ويدخلون الاسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيأ كما زعمه المشركون فى قولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها الآية وقوله وما كانوا خالدين أى فى الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وخاصتهم انهم يوحى اليهم من الله عز وجل تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه وقوله ثم صدقناهم الوعد أى الذى وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين صدقهم الله وعده وفعل ذلك ولهذا قال فأنجيناهم ومن نشاء أى أتباعهم من المؤمنين وأهلكنا المسرفين أى المكذبين بما جاءت به الرسل (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم وقيل أفلا تعقلون وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون قالوا ياويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) يقول تعالى منبها على شرف القرآن محرضا لهم على معرفة قدره لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم قال ابن عباس شرفكم وقال مجاهد حديثكم وقال الحسن دينكم أفلا تعقلون أى هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون وقوله وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة هذه صيغة تكثير كما قال وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وقال تعالى وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها الآية وقوله وأنشأنا بعدها قوما آخرين أى أمة أخرى بعدهم فلما أحسوا بأسنا أى

كانت بغايا فى الجاهلية بغايا آل فلان وبغايا آل فلان فقال الله الزانى لا ينكح الا زانية فأحكم الله ذلك فى أمر الجاهلية وروى نحو هذا عن جماعة من التابعين وعن الضحاك قال انما عنى بذلك الزنا ولم يعن به التزويج وعن ابن عباس فى هذه الآية قال الزانى من أهل القبلة لا يزنى الا بزانية مثله من أهل القبلة أو مشركة من غير أهل القبلة والزانية من أهل القبلة لا تزنى الا بزان مثلها من أهل القبلة أو مشرك من غير أهل القبلة وحرم الزنا على المؤمنين وقد اختلف فى جواز تزوج الرجل بامرأة قد زنى هو بها فقال الشافعى وأبو حنيفة بجواز ذلك وروى عن ابن عباس وعمر وابن مسعود وجابر انه لا يجوز قال ابن مسعود اذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبدا وبه قال مالك (وحرم ذلك) أى الزنا أو نكاح الزوانى لما فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والطعن فى النسب والتسبب لسوء المقالة وغير ذلك من المفاسد ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة البغايا والقحاب وقيل هو مكروه فقط وعبر بالتحريم عن كراهة التنزيه مبالغة فى الزجر (على المؤمنين) الاخيار الابرار فعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصون عنها وقدمت الزانية على الزانى أولا ثم قدم عليها ثانيا لان تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هى المادة التى منها نشأت تلك الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا فى ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه الخاطب ومنه بدء الطلب (والذين يرمون) استعار الرمى للشتم بفاحشة الزنا لكونه جناية بالقول ويسمى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قذفا أى يشتمون (المحصنات) أى النساء العفيفات بالزنا وكذا المحصنين وانما خصهن بالذكر لان قذفهن أشنع والعار فيهن أعظم ويلحق الرجال بالنساء فى هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الامة وقد جمع الشوكانى فى ذلك رسالة ردبها على بعض المتأخرين من علماء القرن الحادى عشر لما نازع فى ذلك

تيقنوا ان العذاب واقع بهم لامحالة كما وعدهم نبيهم اذا هم منها يركضون أي يفرون هاربين لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم هذا تهكم بهم نزرا أي قيل لهم نزرا لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا الى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة قال قتادة استهزاء بهم لعلكم تسئلون أي عما كنتم فيه من اداء شكر النعم قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين اي ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصدا وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودا (وماخلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين لو أردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون وله من في السموات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (٢٧٣) يسبحون الليل والنهار لا يفترون) يخبر تعالى انه خلق السموات والارض بالحق أي بالعدل والقسط ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى وانه لم يخلق ذلك عبثا ولا لعبا كما قال وماخلقنا السموات والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار وقوله تعالى لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين قال ابن أبي نجيح عن مجاهد لو أردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا يعني من عندنا يقول وماخلقنا جنة ولا نارا ولا موتا ولا بعثا ولا حسابا وقال الحسن وقتادة وغيرهما لو أردنا ان نتخذ لهوا اللهو المرأة بلسان أهل اليمن وقال ابراهيم النخعي لاتخذناه من الحور العين وقال عكرمة والسدى المراد باللهو ههنا الولد وهذا والذي قبله متلازمان وهو كقوله تعالى لو أراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار فنزه نفسه عن اتخاذ الولد

 مطلقا ولاسيما عما يقولون من الافك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة سبحان الله عما يقولون علوا كبيرا وقوله ان كنا فاعلين قال قتادة والسدى وابراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم أي ما كنا فاعلين وقال مجاهد كل شئ في القرآن ان فهو انكار وقوله بل نقذف بالحق على الباطل أي نبين الحق فيدحض الباطل ولهذا قال فيدمغه فاذا هو زاهق أي ذاهب مضمحل ولكم الويل أي أيها القائلون لله ولد مما تصفون أي تقولون وتفترون ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلا ونهارا فقال وله من في السموات والارض ومن عنده يعني الملائكة لا يستكبرون عن عبادته أي لا يستنكفون عنها كما قال لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا وقوله ولا يستحسرون أي لا يتعبون ولا يملون يسبحون الليل والنهار لا يفترون فهم دائبون في العمل ليلا ونهارا مطيعون قصدا

وقيل ان الآية تعم الرجال والنساء والتقدير الانفس المحصنات ويؤيد هذا قوله في آية أخرى والمحصنات من النساء فان البيان بكونهن من النساء يشعر بان لفظ المحصنات يشمل غير النساء والا لم يكن للبيان كثير معنى وقيل أراد بالمحصنات الفروج كما قال والتي أحصنت فرجها فتتناول الآية الرجال والنساء وقيل ان لفظ المحصنات وان كان للنساء لكنه ههنا يشمل النساء والرجال تغليبا وفيه ان تغليب النساء على الرجال غير معروف في لغة العرب وقد مضى في سورة النساء ذكر الاحصان وما يحتمله من المعاني وللعلماء في الشروط المعتبرة في المقذوف والقاذف أبحاث مطولة مستوفاة في كتب الفقه منها ما هو مأخوذ من دليل ومنها ما هو مجرد رأي بحت قرئ المحصنات بفتح الصاد وكسرها وذهب الجمهور من العلماء انه لا حد على من قذف كافرا أو كافرة وقال الزهري وسعيد بن المسيب وابن أبي ليلى يجب عليه الحد وذهب الجمهور أيضا الى ان العبد يجلد أربعين جلدة وقال ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقبيصة يجلد ثمانين قال القرطبي وأجمع العلماء على ان الحر لا يجلد للعبد اذا افترى عليه لتباين مرتبتهما وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم ان من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحد يوم القيامة الا ان تكون كما قال وشرائط الاحصان خمسة الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا والمحصن كالمحصنة في وجوب حد القذف وبسط الكلام في هذا في كتب الفروع ثم ذكر سبحانه شرط الاقامة الحد على من قذف المحصنات فقال (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) يشهدون عليهن بوقوع الزنا منهن برؤيتهم ولفظ ثم يدل على أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود في غير مجلس القذف وبه قال الجمهور وخالف في ذلك مالك وظاهر الآية انه يجوز أن تكون الشهود مجتمعين ومفترقين وخالف في ذلك الحسن ومالك واذا لم يكمل الشهود أربعة كانوا قذفة يحدون حد القذف وقال الحسن والشعبي انه لا حد على الشهود ولا على المشهود عليه وبه قال أحمد وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن ويرد ذلك ما وقع

وعلا قادرون عليه كما قال تعالى لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه اذ قال لهم هل تسمعون ما أسمع قالوا ما نسمع من شئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط وما فيها موضع شبر الا وعليه ملك ساجداً أو قائم غريب ولم يخرجوه ثم رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن أبي زريع عن سعيد عن قتادة مرسلا وقال محمد بن اسحق عن حسان بن مخارق عن عبد الله بن الحرث بن نوفل قال جلست الى كعب الاحبار وأنا غلام فقلت له أرأيت قول الله تعالى للملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل فقال من هذا الغلام فقالوا من بني عبد المطلب قال فقبل رأسي ثم قال يا بني انه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس ألست تتكلم وأنت تتنفس وأنت تمشي وأنت تتنفس (أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون أي أهم يحيون الموتى و ينشرونهم من الارض أي لا يقدرون على شئ من ذلك فكيف جعلوها لله ندا وعبدوها معه ثم اخبر تعالى انه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والارض لو كان يقال فيهما آلهة أي في السموات والارض لفسدتا كقوله تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون وقال ههنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون أي عما يقولون ان له ولداً أو شريكا سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون و يأفكون علوا كبيرا وقوله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يعترض عليه احد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه وهم يسئلون أي وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وهذه كقوله تعالى وهو يجير ولا يجار عليه (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل اكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) يقول تعالى أم اتخذوا من دونه آلهة قل يا محمد هاتوا برهانكم أي دليلكم على ما تقولون هذا ذكر من معي يعني القرآن وذكر من قبلي يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون فكل كتاب انزل على كل نبي ارسل ناطق بانه لا اله الا الله ولكن انتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فانتم معرضون

في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا ولم يخالف في ذلك أحد من الصحابة وقد اختلف في اعراب شهداء على أقوال ثم بين الله سبحانه ما يجب على القاذف فقال (فاجلدوهم) أي كل واحد منهم (ثمانين جلدة) الجلد الضرب كما تقدم والمجالدة المضاربة في الجلود أو بالجلود ثم استعير للضرب بالعصا او السيف وغيرهما وقد تقدم بيان الجلد قريبا (ولا تقبلوا لهم شهادة) أي فاجمعوا لهم بين الامرين الجلد وترك قبول الشهادة في شئ لانهم قد صاروا بالقذف غير عدول بل فسقة كما حكم الله به عليهم في آخر هذه الآية ومعنى (أبدا) ما داموا في الحياة ثم بين سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم واصرارهم عليه وعدم رجوعهم الى التوبة فقال (وأولئك هم الفاسقون) لاتيانهم كبيرة وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها والفسق هو الخروج عن الطاعة ومجاوزة الحد المعصية وفيه دليل على ان القذف من الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب كبيرة ثم بين الله سبحانه ان هذا التأبيد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال (الا الذين تابوا من بعد ذلك) أي من بعد اقترافهم لذنب القذف (وأصلحوا) أعمالهم التي من جملتها ذنب القذف ومداركة ذلك بالتوبة والانقياد للحد (فان الله غفور رحيم) يغفر ذنوبهم و يرحمهم وقد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء هل يرجع الى الجملتين قبله وهي عدم قبول الشهادة والحكم عليهم بالفسق أم الى الجملة الاخيرة وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على انه لا يعود الى جملة الجلد بل يجلد التائب كالمصر و بعد اجماعهم أيضا على ان الاستثناء يرجع الى جملة الحكم بالفسق فمحل الخلاف هل يرجع الى جملة عدم قبول الشهادة أم لا فقال الجمهور ان هذا الاستثناء يرجع الى الجملتين فاذا تاب القاذف قبلت شهادته وزال عنه الفسق لان سبب ردها هو ما كان متصفا به من الفسق بسبب القذف فاذا زال بالتوبة بالاجماع كانت الشهادة مقبولة وقال القاضي شريح وابراهيم النخعي والحسن البصري وسعيد بن جبير ومكحول وابن زيد وسفيان الثوري

عنه ولهذا قال وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون كما قال واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا
أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وقال ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فكل نبي بعثه الله يدعو
الى عبادة الله وحده لا شريك له والفطرة شاهدة بذلك أيضا والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم
عذاب شديد (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين)
يقول تعالى رادا على من زعم ان له تعالى وتقدس ولدا من الملائكة كمن قال ذلك من العرب ان الملائكة بنات الله فقال سبحانه
بل عباد مكرمون أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات (٢٧٥) سامية وهم له في غاية الطاعة قولا وفعلا
لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون أي لا يتقدمون بين يديه بامر ولا يخالفونه فيما أمرهم به بل يبادرون الى فعله وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وقوله ولا يشفعون الا لمن ارتضى كقوله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه وقوله ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له في آيات كثيرة في معنى ذلك وهم من خشيته أي من خوفه ورهبته مشفقون ومن يقل منهم اني اله من دونه أي من ادعى منهم انه اله من دون الله أي مع الله فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين أي كل من قال ذلك وهذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه كقوله قل ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين وقوله لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون
وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون
وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) يقول تعالى منبها على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الاشياء
وقهره لجميع المخلوقات فقال أولم ير الذين كفروا أي الجاحدون لالهيته العابدون معه غيره ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق
المستبد بالتدبير فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه ألم يروا أن السموات والارض كانتا رتقا أي كان الجميع متصلا
بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الامر ففتق هذه من هذه فجعل السموات سبعا والارض سبعا وفصل
بين السماء الدنيا والارض بالهواء فامطرت السماء وأنبتت الارض ولهذا قال وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون أي وهم
يشاهدون المخلوقات تحدث شيأ فشيأ عيانا وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء

وأبو حنيفة ان هذا الاستثناء يعود الى جملة الحكم بالفسق لا الى جملة عدم قبول الشهادة
فيرتفع بالتوبة عن القاذف وصف الفسق ولا تقبل شهادته أصلا وذهب الشافعي
والضحاك الى التفصيل فقالا لا تقبل شهادته وان تاب الا أن يعترف على نفسه بانه قد
قال البهتان فحينئذ تقبل شهادته وقول الجمهور هو الحق لان تخصيص التقييد بالجملة
الآخرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحدا في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف
ما تقتضيه لغة العرب وأولوية الجملة الاخيرة المتصلة بالقيد بكونه قيدا لها لا تنفي كونه قيدا
لما قبلها غاية الامر ان تقييد الاخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقييد ما قبلها به ولهذا
كان مجمعا عليه وكونه أظهر لا ينافي كونه فيما قبلها ظاهرا وقد أطال أهل الاصول الكلام
في القيد الواقع بعد جمل بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفن والحق هو هذا
والاحتجاج بما وقع تارة من القيود عائدا الى جميع الجمل التي قبله وتارة الى بعضها لا تقوم
به حجة ولا يصلح للاستدلال فانه قد يكون ذلك لدليل كما وقع هنا من الاجماع واتفاق الأئمة
الاربعة على عدم رجوع هذا الاستثناء الى جملة الجلد فالقاذف يجلد عند الجميع سواء
تاب أو لم يتب ومما يؤيد ما قررناه ويقويه ان المانع عن قبول الشهادة وهو الفسق المتسبب
عن القذف قد زال فلم يبق ما يوجب الرد للشهادة واختلف العلماء في صورة توبة القاذف
فقال عمر بن الخطاب والشعبي والضحاك وأهل المدينة ان توبته لا تكون الا بان
يكذب نفسه في ذلك القذف الذي وقع منه وأقيم عليه الحد بسببه وقالت فرقة منهم مالك
وغيره ان توبته تكون بان يحسن حاله ويصلح عمله ويندم على ما فرط منه ويستغفر الله
من ذلك ويعزم على ترك العود الى مثله وان لم يكذب نفسه ولا رجع عن قوله وقد أجمعت
الامة على أن التوبة تمحو الذنب ولو كان كفرا فتمحو ما هو دون الكفر بالاولى حكى هذا
الاجماع القرطبي قال أبو عبيد الاستثناء يرجع الى الجمل السابقة وليس من رمى غيره بالزنا
باعظم جرما من مرتكب الزنا والزاني اذا تاب قبلت شهادته لان التائب من الذنب كمن

وفي كل شئ له آية * تدل على انه واحد ❊ قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال سئل ابن عباس الليل كان قبل أو النهار فقال أرأيتم السموات والارض حين كانتا رتقا هل كان بينهما الا ظلمة ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابراهيم بن أبي حمزة حدثنا حاتم عن حمزة بن أبي محمد عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رجلا أتاه يسأله عن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما قال اذهب الى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فاخبرني بما قال لك قال فذهب الى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس نعم كانت السموات رتقا لا تمطر وكانت الارض رتقا لا تنبت فلما خلق للارض اهلا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات فرجع الرجل الى ابن عمر فاخبره فقال ابن عمر الآن قد علمت ان ابن عباس قد أوتي في القرآن علما صدق هكذا كانت قال ابن عمر قد كنت أقول ما يعجبني جراءة (٢٧٦) ابن عباس على تفسير القرآن فالآن علمت انه قد أوتي في القرآن علما وقال عطية العوفي كانت هذه رتقا لا تمطر فامطرت وكانت هذه رتقا لا تنبت فانبتت وقال اسماعيل بن ابي خالد سألت أبا صالح الحنفي عن قوله أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما قال كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات وكانت الارض واحدة ففتق منها سبع أرضين وهكذا قال مجاهد وزاد ولم تكن السماء والارض متماستين وقال سعيد بن جبير بل كانت السماء والارض ملتزقتين فلما رفع السماء وابرز منها الارض كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه وقال الحسن وقتادة كانتا جميعا ففصل بينهما بهذا الهواء وقوله وجعلنا من الماء كل شئ حي أي أصل كل الاحياء قال ابن ابي حاتم حدثنا ابي حدثنا ابو الجماهر حدثنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن ابي ميمونة عن أبي هريرة انه قال يا نبي الله اذا رأيتك قرت عيني وطابت نفسي فاخبرنا عن كل شئ قال كل شئ خلق من ماء وقال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام عن قتادة عن ابي ميمونة عن أبي هريرة قال قلت يا رسول الله اني اذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فانبئني عن كل شئ قال كل شئ خلق من ماء قال قلت أنبئني عن أمر اذا عملت به دخلت الجنة قال أفش السلام وأطعم الطعام وصل الارحام وقم بالليل والناس نيام ثم ادخل الجنة بسلام ورواه أيضا عبد الصمد وعفان وبهز عن همام تفرد به أحمد وهذا اسناد على شرط الصحيحين الا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سليم والترمذي يصحح له وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلا والله أعلم وقوله وجعلنا في الارض رواسي أي جبالا أرسى الارض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس أي تضطرب وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها لانها غامرة في الماء الا مقدار الربع فانه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات ولهذا قال

لا ذنب له واذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن منها قوله انما جزاء الذين يحاربون الله الى قوله الا الذين تابوا ولا شك ان هذا الاستثناء يرجع الى الجميع قال الزجاج وليس القاذف بأشد جرما من الكافر فحقه اذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته قال وقوله أبدا أي مادام قاذفا كما يقال لا تقبل شهادة الكافر أبدا فان معناه مادام كافرا انتهى وعن ابن عباس في الآية قال تاب الله عليهم من الفسوق وأما الشهادة فلا تجوز وعن عمر بن الخطاب انه قال لابي بكرة ان تبت قبلت شهادتك وعنه قال توبتهم اكذابهم انفسهم فان أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم وعن ابن عباس أيضا قال من تاب واصلح فشهادته في كتاب الله تقبل وفي الباب روايات عن التابعين وقصة قذف المغيرة في خلافة عمر مروية من طرق معروفة وأخرج البخاري والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم البينة والا حد في ظهرك فقال يا رسول الله اذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول البينة والا حد في ظهرك فقال هلال والذي بعثك بالحق اني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد ونزل جبريل فانزل عليه والذين يرمون أزواجهم حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فارسل اليهما فجاء هلال فشهد والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله يعلم ان أحدكما لكاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا انها موجبة فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن وأخرج

هذه

أن تميد بهم أى لئلا تميد بهم وقوله وجعلنا فيها فجاجا سبلا أى ثغرا فى الجبال يسلكون فيها طرقا من قطر الى قطر واقليم الى اقليم كما هو المشاهد فى الارض يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا الى ههنا ولهذا قال لعلهم يهتدون وقوله وجعلنا السماء سقفا محفوظا أى على الارض وهى كالقبة عليها كما قال والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون وقال والسماء وما بناها أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والبناء هو نصب القبة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى الاسلام على خمس أى خمسة دعائم وهذا لا يكون الا فى الخيام كما تعهد العرب محفوظا اى عاليا محروسا أن ينال وقال مجاهد مرفوعا وقال ابن ابى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا احمد بن عبد الرحمن الدشتكى حدثنى ابى عن ابيه عن اشعث يعنى ابن اسحق القمى عن جعفر بن ابى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال رجل يارسول الله ماهذه السماء قال هذا موج مكفوف عنكم اسناده غريب وقوله وهم عن آياتها معرضون كقوله وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون أى لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات فى ليلها وفى نهارها من هذه الشمس التى تقطع الفلك بكماله فى يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها الا الله الذى قدرها وسخرها وسيرها وقد ذكر ابن أبى الدنيا رحمه الله فى كتابه التفكر والاعتبار أن بعض عباد بنى اسرائيل تعبد ثلاثين سنة وكان الرجل منهم اذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة فلم ير ذلك الرجل شيأ مما كان يحصل لغيره فشكى ذلك الى أمه فقالت له يا بنى فلعلك أذنبت فى مدة عبادتك هذه فقال لا والله ما أعلمه قالت فلعلك هممت قال لا ولا هممت قالت فلعلك رفعت بصرك الى السماء ثم رددته بغير فكر فقال نعم كثيرا قالت فمن ههنا أتيت ثم قال منبها على بعض آياته فقال وهو الذى خلق الليل والنهار اى هذا فى ظلامه وسكونه وهذا بضيائه وانسه يطول هذا تارة ثم يقصر اخرى وعكسه الآخر والشمس والقمر هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص وهذا بنور آخر وفلك آخر وسيرا آخر وتقديرا آخر وكل فى فلك يسبحون أى يدورون قال ابن عباس يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة قال مجاهد فلا يدور المغزل الا بالفلكة ولا الفلكة الا بالمغزل كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون الا به ولا يدور الا بهن كما قال تعالى فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) يقول تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك أى يا محمد الخلد أى فى الدنيا بل كل من عليها فان ويبقى وجه

هذه القصة أبو داود الطيالسى وعبد الرزاق واحمد وعبد بن حميد وابو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مطولة وأخرجها البخارى ومسلم وغيرهما ولم يسموا الرجل ولا المرأة وفى آخر القصة ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له اذهب فلا سبيل لك عليها فقال يارسول الله مالى قال لا مال لك ان كنت صدقت عليها فهو بما استحللت من فرجها وان كنت كذبت عليها فذلك أبعد لك منها وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال جاء عويمر الى عاصم بن عدى فقال سل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا فقتله أيقتل به أم كيف يصنع فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسائل فقال عويمر والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأسألنه فأتاه فوجده قد انزل عليه فدعا بهما فلاعن بينهما قال عويمر ان انطلقت بها يارسول الله لقد كذبت عليها ففارقها قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصارت سنة للمتلاعنين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبصروها فان جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الاليتين فلا أراه الا قد صدق وان جاءت به أحمر كأنه وحرة فلا أراه الا كاذبا فجاءت به مثل النعت المكروه وفى الباب أحاديث كثيرة وفيما ذكرنا كفاية وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب وعلى وابن مسعود قالوا لا يجتمع المتلاعنان أبدا ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القذف على العموم حكم نوع من أنواع القذف وهو قذف الزوج للمرأة التى تحته بعقد النكاح فقال (والذين يرمون أزواجهم) جمع زوج بمعنى الزوجة فان حذف التاء منها أفصح من اثباتها الا فى الفرائض ولم يقيد هنا بالمحصنات اشارة الى ان اللعان يشرع فى قذف المحصنة وغيرها فهو فى قذف المحصنة يسقط الحد عن الزوج وفى قذف غيرها يسقط التعزير كأن كانت ذمية أو أمة أو صغيرة تحتمل الوطء بخلاف قذف الصغيرة التى لا تحتمله و بخلاف قذف الكبيرة التى ثبت زناها ببينة أو اقرار

ربك ذو الجلال والاكرام وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء الى أن الخضر عليه السلام مات وليس بحي الى الآن لانه بشر سواء كان وليا أو نبيا أو رسولا وقد قال تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقوله أفان مت أي يا محمد فهم الخالدون أي يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل الى الفناء ولهذا قال تعالى كل نفس ذائقة الموت وقد روي عن الشافعي رحمه الله انه أنشد واستشهد بهذين البيتين

تمنى رجال أن أموت وان أمت * فتلك سبيل لست فيها باوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى * تهيأ لاخرى مثلها فكأن قد

وقوله ونبلوكم بالشر والخير فتنة أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

ونبلوكم يقول نبتليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال وقوله والينا ترجعون أي فنجازيكم بأعمالكم (واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون) يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه واذا رآك الذين كفروا يعني كفار قريش كأبي جهل واشباهه ان يتخذونك الا هزوا اي يستهزؤن بك وينتقصونك يقولون أهذا الذي يذكر آلهتكم يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم قال تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون أي وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزؤن برسول الله كما قال في الآية الاخرى واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من اضل سبيلا وقوله خلق الانسان من عجل كما قال في الآية الاخرى وكان الانسان عجولا أي في الامور قال مجاهد خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلائق فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله قال يارب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط منها وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي وقبض أصابعه يقللها فسأل الله خيرا الا أعطاه اياه قال أبو سلمة فقال عبد الله بن سلام قد عرفت تلك الساعة هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة وهي التي خلق الله فيها آدم قال الله تعالى خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون والحكمة في ذكر عجلة الانسان ههنا انه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت

فان الواجب في قذفهما التعزير لكنه لا يلاعن لدفعه كما في كتب الفروع وقد وقع قذف الزوجة بالزنا لجماعة من الصحابة كهلال بن أمية وعويمر العجلاني وعاصم بن عدي (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون بما رموهن به من الزنا (الا أنفسهم) بالرفع على البدل من شهداء ولم يذكر الزمخشري غيره وقيل انه نعت له على أن الا بمعنى غير وبالنصب على الاستثناء على الوجه المرجوح ولا مفهوم لهذا القيد بل يلاعن ولو كان واجدا للشهود الذين يشهدون بزناها لنفي الولد ودفع العقوبة حدا أو تعزيرا (فشهادة أحدهم) أي الشهادة التي تزيل عنه حد القذف أو فالواجب شهادة احدهم أو فشهادة احدهم كائنة أو واجبة وقيل فعليهم أن يشهد أحدهم (أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين) فيما رماها به من الزنا وهي المشهود به (و) الشهادة (الخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا قرأ الجمهور أن بالتشديد ونافع بتخفيفها (ويدرأ) أي يدفع (عنها) أي عن المرأة (العذاب) الدنيوي وهو الحد والمعنى انه يدفع عن المرأة الحد (ان تشهد) أي شهادتها (أربع شهادات بالله انه) أي الزوج (لمن الكاذبين) فيما رماني به من الزنا (و) تشهد الشهادة (الخامسة ان غضب الله عليها ان كان) الزوج (من الصادقين) فيما رماها به من الزنا وتخصيص الغضب بالمرأة للتغليظ عليها لكونها أصل الفجور ومادته ولان النساء يكثرن اللعن في العادة ومع استكثارهن منه لا يكون له في قلوبهن كبير موقع بخلاف الغضب (ولولا فضل الله عليكم) فيه التفات عن الغيبة والخطاب لكل من الفريقين أي القاذفين والمقذوفات ففي الكلام تغليب صيغة الذكور على صيغة الاناث حيث لم يقل عليكم وعليكن (ورحمته) لنال الكاذب منهما عذاب عظيم قاله الزجاج أو لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان أو لفضحكم فجواب لو محذوف ثم بين سبحانه كثير توبته على من تاب وعظيم حكمته البالغة فقال (وأن الله تواب) أي يعود على من تاب اليه ورجع عن معاصيه بالتوبة عليه والمغفرة له في ذلك وغيره (حكيم)

ذلك فقال الله تعالى خلق الانسان من عجل لانه تعالى على للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته يؤجل ثم يعجل وينظر ثم لا يؤخر ولهذا قال سأريكم آياتى أى نقمى وحكمى واقتدارى على من عصانى فلا تستعجلون (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) يخبر تعالى عن المشركين انهم يستعجلون أيضا بوقوع العذاب بهم تكذيبا وجحودا وكفرا وعنادا واستبعادا فقال ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قال الله تعالى لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم أى لو تيقنوا انه واقع بهم لا محالة لما استعجلوا به لو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وقال فى هذه الآية حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم وقال سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار من فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ولا هم ينصرون أى لا ناصر لهم كما قال وما لهم من الله من واق وقوله بل تأتيهم بغتة أى تأتيهم النار بغتة أى فجأة فتبهتهم أى تذعرهم فيستسلمون لها حائرين لا يدرون ما يصنعون فلا يستطيعون ردها اى ليس لهم حيلة فى ذلك ولا هم ينظرون اى ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ام لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) يقول تعالى مسليا لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن يعنى من العذاب الذى كانوا يستبعدون وقوعه كما قال تعالى ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده فى حفظه لهم بالليل والنهار وكلاءته وحراسته لهم بعينه التى لا تنام فقال قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن أى بدل الرحمن يعنى غيره كما قال الشاعر

جارية لم تلبس المرققا * ولم تذق من البقول الفستقا

أى لم تذق بدل البقول الفستق وقوله تعالى بل هم عن ذكر ربهم معرضون أى لا يعترفون بنعمة الله عليهم واحسانه اليهم بل يعرضون عن آياته وآلائه ثم قال أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا استفهام انكار وتقريع وتوبيخ أى ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ليس الامر كما توهموا ولا كما زعموا ولهذا قال لا يستطيعون نصر أنفسهم أى هذه الآلهة التى استندوا اليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم وقوله ولا هم منا يصحبون قال العوفى عن ابن عباس ولا هم منا يصحبون أى يجارون وقال قتادة لا يصحبون من الله بخير وقال غيره ولا هم منا يصحبون يمنعون (بل متعنا

(حكيم) فيما شرع لعباده من اللعان وفرض عليهم من الحدود (ان الذين جاؤا بالافك) هذا شروع فى الآيات المتعلقة بالافك وهى ثمانية عشر تنتهى بقوله أولئك مبرؤن والافك أسوأ الكذب وأفحشه وأقبحه وهو مأخوذ من أفك الشئ اذا قلبه عن وجهه فالافك هو الحديث المقلوب لكونه مصروفا عن الحق وقيل هو البهتان وأجمع المسلمون على ان المراد بما فى الآية ما وقع من الافك على عائشة أم المؤمنين وانما وصفه الله بانه افك لان المعروف من حالها رضى الله عنها خلاف ذلك قال الواحدى ومعنى القلب فى هذا الحديث الذى جاء به أولئك النفر أن عائشة كانت تستحق الثناء بما كانت عليه من الحصانة والشرف والعقل والديانة وعلو النسب والسبب والعفة لا القذف فالذين رموها بالسوء قلبوا الامر عن وجهه فهو افك قبيح وكذب ظاهر (عصبة منكم) العصبة الجماعة من العشرة الى الأربعين والمراد بهم هنا عبد الله بن أبى رأس المنافقين وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقيل العصبة من الثلاثة الى العشرة وقيل من عشرة الى خمسة عشر وأصلها فى اللغة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض وقد أخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم حديث عائشة الطويل فى سبب نزول هذه الآيات بالفاظ متعددة وطرق مختلفة حاصله ان سبب النزول هو ما وقع من أهل الافك الذين تقدم ذكرهم فى شأن عائشة وذلك انها خرجت من هودجها تلتمس عقدا لها انقطع من جزع فرحلوا وهم يظنون انها فى هودجها فرجعت وقد ارتحل الجيش والهودج معهم فاقامت فى ذلك المكان ومر بها صفوان بن المعطل وكان متأخرا عن الجيش فاناخ راحلته وحملها عليها فلما رأى ذلك أهل الافك قالوا ما قالوا فبرأها الله مما قالوا هذا حاصل القصة مع طولها وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك وجملة (لا تحسبوه شرا لكم) ان كانت خبر الان فظاهر وان كان الخبر عصبة فهى مستأنفة خوطب بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعائشة وأبو بكر وصفوان بن المعطل الذى قذف مع عائشة

هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون انا نأتي الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون قل انما انذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) يقول تعالى مخبرا عن المشركين انما غرهم وحملهم على ماهم فيه من الضلال انهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه فاعتقدوا انهم على شئ ثم قال واعظا لهم أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها اختلف المفسرون في معناه وقد اسلفناه في سورة الرعد وأحسن ما فسر بقوله تعالى ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون وقال الحسن البصري يعني بذلك ظهور الاسلام على الكفر والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لاوليائه على أعدائه واهلاكه الامم (٢٨٠) المكذبة والقرى الظالمة وانجائه لعباده المؤمنين ولهذا قال أفهم الغالبون يعني بل هم المغلوبون الاسفلون الاخسرون الارذلون وقوله قل انما أنذركم بالوحي أي انما أنا مبلغ عن الله ما انذرتكم به من العذاب والنكال ليس ذلك الا عما أوحاه الله الي ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه ولهذا قال ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون وقوله ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شئ من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وانهم كانوا ظالمين انفسهم في الدنيا وقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة الاكثر على انه انما هو ميزان واحد وانما جمع باعتبار تعدد الاعمال الموزونة فيه وقوله فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين كما قال تعالى ولا يظلم ربك أحدا وقال ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما وقال لقمان يابني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وقال الامام أحمد حدثنا ابراهيم بن اسحق الطالقاني حدثنا ابن المبارك عن ليث بن سعد عن عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يستخلص رجلا من امتي على رؤس الخلائق يوم القيامه فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيأ أظلمك كتبتي الحافظون قال لا يارب قال افلك عذر او حسنة قال فيبهت الرجل فيقول لا يارب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها

أم المؤمنين وتسلية لهم والضمير المنصوب للافك والشر ما زاد ضره على نفعه (بل هو خير لكم) الخير ما زاد نفعه على ضره وأما الخير الذي لا شر فيه فهو الجنة والشر الذي لا خير فيه فهو النار ووجه كونه خيرا لهم انه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أم المؤمنين عائشة وصيرورة قصتها هذه شرعا عاما وهذا غاية الشرف والفضل وفيه تهويل الوعيد لمن تكلم فيهم والثناء على من ظن بهم خيرا (لكل امرئ منهم) أي من العصبة الكاذبة (ما اكتسب من الاثم) بسبب تكلمه بالافك (والذي تولى) أي تحمل (كبره) أي معظمه (منهم) فبدأ بالخوض فيه وأشاعه وهو ابن أبي قرأ جماعة بضم الكاف قال الفراء وهو وجه جيد لان العرب تقول فلان تولى عظم كذا وكذا أي أكبره وقرئ بكسرها قيل هما لغتان وقيل هو بالضم معظم الافك وبالكسر البداءة به وقيل هو بالكسر الاثم فالمعنى ان الذي تولى معظم الافك من العصبة (له عذاب عظيم) في الدنيا وفي الآخرة او فيهما واختلف في هذا الذي تولى كبره من عصبة الافك من هو منهم فقيل هو عبد الله بن أبي وقيل هو حسان والاول هو الصحيح وقد روى محمد بن اسحق وغيره ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جلد في الافك رجلين وامرأة وهم مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وقيل جلد عبد الله بن أبي وحسان وحمنة ولم يجلد مسطحا لانه لم يصرح بالقذف ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح وقيل لم يجلد احدا منهم قال القرطبي المشهور من الاخبار والمعروف عند العلماء ان الذين حدوا حسان ومسطح وحمنة ولم يسمع بحد لعبد الله بن أبي ويؤيد هذا ما في سنن أبي داود عن عائشة قالت لما نزل عذري قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم وسماهم حسان ومسطح وحمنة واختلفوا في وجه تركه صلى الله عليه وآله وسلم لجلد عبد الله بن أبي فقيل لتوفير العذاب العظيم له في الآخرة وحد من عداه ليكون ذلك تكفير الذنبهم كما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الحدود انه قال انها كفارة لمن

أقيمت عليه وقيل ترك حده تألفا لقومه واحتراما لابنه فانه كان من صالحي المؤمنين واطفاء لنائرة الفتنة فقد كان ظهرت مباديها من سعد بن عبادة ومن معه كما في صحيح مسلم وأخرج البخاري وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن الزهري قال كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال الذي تولى كبره منهم علي فقلت لا حدثني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كلهم سمع عائشة تقول الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي قال فقال لي فما كان جرمه قلت حدثني شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام انهما سمعا عائشة تقول كان مسيأ في أمري وقال يعقوب ابن شيبة في مسنده دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له يا سليمان الذي تولى كبره من هو قال ابن أبي قال كذبت هو علي قال أمير المؤمنين أعلم بما يقول فدخل الزهري فقال يا ابن شهاب من الذي تولى كبره فقال ابن أبي قال كذبت هو علي قال أنا أكذب لا أبا لك والله لو نادى مناد من السماء ان الله قد أحل الكذب ما كذبت حدثني عروة وسعيد وعبد الله وعلقمة عن عائشة ان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن مسروق قال دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبب وقال

حصان رزان ما تزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

قالت لكنك لست كذلك قلت تدعين مثل هذا يدخل عليك وقد أنزل الله فيه والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم فقالت وأي عذاب أشد من العمى ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه الى المؤمنين بطريق الالتفات فقال (لولا) تحضيضية أي هلا (اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) تأكيدا للتوبيخ والتقريع ومبالغة في معاتبتهم وشروع في توبيخهم وتعييرهم وزجرهم بتسعة زواجر الاول هذا والثاني لولا جاؤا عليه والثالث ولولا فضل الله والرابع اذ تلقونه

اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فيقول أحضروه فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول انك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة قال ولا يثقل شئ (٣) مع اسم الله الرحمن الرحيم رواه الترمذي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد وقال الترمذي حسن غريب وقال الامام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن عمرو ابن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فمايل به الميزان قال فيبعث به الى النار قال فاذا أدبر به اذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول لا تعجلوا فانه قد بقي له فيؤتى ببطاقة فيها لا اله الا الله فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان وقال الامام أحمد أيضا حدثنا أبو نوح فراد أنبأنا الليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة ان رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس بين يديه فقال يا رسول الله ان لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك اياهم فان كان عقابك اياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك وان كان عقابك اياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك وان كان عقابك اياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهتف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله ما يقرأ كتاب الله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فقال الرجل يا رسول الله ما أجد شيأ خيرا من فراق هؤلاء يعني عبيده اني أشهدك انهم أحرار كلهم (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) قد تقدم التنبيه على ان الله تعالى كثيرا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وبين كتابيهما ولهذا قال ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان قال مجاهد يعني الكتاب وقال أبو صالح التوراة وقال قتادة التوراة حلالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل وقال ابن زيد يعني النصر وجامع القول في ذلك ان الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشاد والحلال والحرام وعلى ما يحصل نورا في القلوب وهداية وخوفا وانابة وخشية ولهذا قال الفرقان وضياء وذكرا للمتقين اي تذكيرا لهم وعظة ثم وصفهم فقال الذين يخشون ربهم بالغيب كقوله من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب وقوله ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير وهم من

(٣) قوله مع بسم الله الرحمن الرحيم هكذا في الاصل وانظره مع ما قبله وحرر الرواية اهـ

الساعة مشفقون أى خائفون وجلون ثم قال تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه يعنى القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أفأنتم له منكرون أى أفتنكرونه وهو فى غاية الجلاء والظهور (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) يخبر تعالى عن خليله ابراهيم عليه السلام انه آتاه رشده من قبل أى من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه وما يذكر من الاخبار عنه فى ادخال أبيه له فى السرب وهو رضيع وانه خرج به بعد أيام فنظر الى الكوكب والمخلوقات فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم فعامتها أحاديث بنى اسرائيل فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح وما خالف شيأ من ذلك رددناه وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه بل نجعله وقفا وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف فى روايتها وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به فى الدين ولو كانت فائدته تعود على المكلفين فى دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة والذى نسلكه فى هذا التفسير الاعراض عن كثير من الاحاديث الاسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم فانهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الائمة الحفاظ المتقنون من هذه الامة والمقصود ههنا ان الله تعالى أخبر انه قد آتى ابراهيم رشده من قبل أى من قبل ذلك وقوله وكنا به عالمين أى وكان أهلا لذلك ثم قال اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون هذا هو الرشد الذى أوتيه من صغره الانكار على قومه فى عبادة الاصنام من دون الله عز وجل فقال ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون أى معتكفون على عبادتها قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد الصباح حدثنا أبو معاوية الضرير حدثنا سعد بن طريف عن الاصبغ بن نباتة قال مر على على قوم يلعبون بالشطرنج فقال ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون لان يمس أحدكم جمرا حتى يطفأ خير له من أن يمسها قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال ولهذا قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين أى الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم فأنتم وهم على غير الطريق المستقيم فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين يقولون هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبا أو محقا فيه فانا لم نسمع به قبلك قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن

والخامس ولولا اذ سمعتموه والسادس يعظكم الله والسابع ان الذين يحبون والثامن ولولا فضل الله عليكم والتاسع يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان الى سميع عليم ومعنى الآية كان ينبغى للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الافك ان يقيسوا ذلك على أنفسهم فان كان ذلك يبعد فيهم فهو فى أم المؤمنين أبعد وقيل كان ينبغى لكم بمجرد سماعه ان تحسنوا الظن فى أم المؤمنين فضلا عن ان تمادوا فى سماعه فضلا أن تصروا عليه بعد السماع قال الحسن معنى بأنفسهم بأهل دينهم لان المؤمنين كنفس واحدة فى اشتراك الكل فى الايمان ألا ترى الى قوله ولا تقتلوا أنفسكم قال الزجاج وكذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضا انهم يقتلون أنفسهم قال المبرد ومثله قوله تعالى فاقتلوا أنفسكم قال النحاس معنى بأنفسهم باخوانهم وقيل بأبناء جنسهم فأوجب الله سبحانه على المسلمين اذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه وانما عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر ولم يقل ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم ليبالغ فى التوبيخ بطريق الالتفات وليدل التصريح بلفظ الايمان على أن الاشتراك فيه يقتضى أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن وهذا من الادب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه باخوانه وكفى بالمرء كذبا ان يحدث بكل ما سمع قال العلماء فى الآية دليل على ان درجة الايمان والعفاف لا يزيلها الخبر المحتمل وان شاع وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وغيرهم عن بعض الانصار أن امرأة أبى أيوب قالت له حين قال أهل الافك ما قالوا ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة قال بلى وذلك الكذب أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب قالت لا والله قال فعائشة خير منك وأطيب انما هذا كذب وافك باطل فلما نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الافك ثم قال لولا اذ سمعتموه الآية أى كما قال أبو أيوب وصاحبته (وقالوا) أى قال المؤمنون عند سماع الافك

اى ربكم الذى لا اله غـيره هو الذى خلق السموات والارض وما حوت من المخلوقات الذى ا ... ـبع سيا
وانا على ذلكم من الشاهدين أى وانا أشهد انه لا اله غيره ولا رب سواه (وتالله لاكـيدن اصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم
جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم قالوا فاتوا
به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون) ثم
اقسم الخليل قسما أسمعه بعض قومه ليكيدن اصنامهم اى ليحرصن على اذاهم وتكسيرهم بعد ان يولوا مدبرين أى الى عيدهم
وكان لهم عيد يخرجون اليه قال السدى لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه يا بنى لو خرجت معنا الى عيدنا لاعجبك ديننا فخرج
معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه الى الارض وقال انى سقيم

فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون مه
فيقول انى سقيم فلما جاز عامتهم
وبقى ضعفاوهم قال تالله لاكيدن
اصنامكم فسمعه أولئك وقال ابن
اسحق عن أبى الاحوص عن عبد
الله قال لما خرج قوم ابراهيم الى
عيدهم مروا عليه فقالوا يا ابراهيم
الا تخرج معنا قال انى سقيم وقد كان
بالامس قال تالله لاكـيدن
أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين
فسمعه ناس منهم وقوله فجعلهم
جذاذا أى حطاما كسرها كلها
الا كبيرا لهم يعنى الا الصنم الكبير
عندهم كما قال فراغ عليهم ضربا باليمين
وقوله لعلهم اليه يرجعون ذكروا
انه وضع القدوم فى يد كبيرهم لعلهم
يعتقدون انه هو الذى غار لنفسه
وأنف ان تعبد معه هذه الاصنام
الصغار فكسرها قالوا من فعل هذا
بآلهتنا انه لمن الظالمين أى حين
رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل
باصنامهم من الاهانة والاذلال
الدال على عدم الهيتها وعلى سخافة
عقول عابديها قالوا من فعل هذا
بآلهتنا انه لمن الظالمين أى فى صنيعه هذا قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم أى قال من سمعه يحلف انه ليكيدنهم سمعنا
فتى أى شابا يذكرهم يقال له ابراهيم قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد بن منصور حدثنا جرير بن عبد الحميد عن
قابوس عن أبيه عن ابن عباس قال ما بعث الله نبيا الا شابا ولا أوتى العلم عالم الا وهو شاب وتلا هذه الآية قالوا سمعنا فتى
يذكرهم يقال له ابراهيم وقوله قالوا فأتوا به على أعين الناس أى على رؤس الاشهاد فى الملا الاكبر بحضرة الناس كلهم وكان
هذا هو المقصود الاكبر لابراهيم عليه السلام ان يبين فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الاصنام التى
لا تدفع عن نفسها ضرا ولا تملك لها نصرا فكيف يطلب منها شئ من ذلك قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله
كبيرهم هذا يعنى الذى تركه لم يكسره فاسألوهم ان كانوا ينطقون وانما أراد بهذا ان يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا انهم

الافك (هذا افك مبين) أى كذب بين ظاهر مكشوف لا حقيقة له وقوله (لولا جاؤا
عليه) من تمام ما يقوله المؤمنون أى هلا جاء الخائضون فى الافك (باربعة شهداء)
يشهدون على ما قالوا (فاذلم يأتوا بالشهداء فاولئك) أى الخائضون فى الافك (عند
الله) أى فى حكمه وقضائه الازلى أو شرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة (هم
الكاذبون) أى القاذفون الكاملون فى الكذب وهذا من باب الزواجر (ولولا فضل الله
عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة) هذا خطاب للسامعين وفيه زجر عظيم ولولا هذه هى
لامتناع الشئ لوجود غيره والمعنى لولا انى قضيت عليكم بالفضل فى الدنيا بالنعم التى من
جملتها الامهال للتوبة والرحمة فى الآخرة بالعفو (لمسكم فيما أفضتم) أى بسبب ما أفضتم
(فيه) من حديث الافك والابهام لتهويل أمره يقال أفاض فى الحديث واندفع وخاض
بمعنى (عذاب عظيم) أى لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الافك وقيل
المعنى لولا فضل الله عليكم لمسكم العذاب فى الدنيا والآخرة معا ولكن برحمته ستر عليكم
فى الدنيا ويرحم فى الآخرة من أتاه تائبا (اذ تلقونه بالسنتكم) من التلقى والاصل
تتلقونه قال مقاتل ومجاهد المعنى يرويه بعضكم عن بعض قال الكلبى وذلك ان
الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغنى كذا وكذا ويتلقونه تلقيا قال الزجاج معناه يلقيه
بعضكم الى بعض وقرئ من الالقاء ومعناها واضح وقرئ بفتح التاء وكسر اللام وضم
القاف وهى مأخوذة من قول العرب الق الرجل يلق ولقا اذا كذب قال ابن سيده جاؤا
بالمتعدى شاهدا على غير المتعدى قال ابن عطية وعندى أراد يلقون فيه فحذف حرف
الجر فاتصل الضمير وقال الخليل وأبو عمرو وأصل الولق الاسراع يقال جاءت الابل تلق
أى تسرع وعن ابن جرير مثله وزاد الولق هو الاسراع بالشئ بعد الشئ كعدد فى اثر عدد
وكلام فى اثر كلام وقرئ تألقونه من الالق وهو الكذب وقرئ تيلقونه وهو مضارع
ولق بكسر اللام والتلقى والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا ان فى الاول معنى

لا ينطقون وان هذا لا يصدر عن هذا الصنم لانه جماد وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ابراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث ثنتين في ذات الله قوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله اني سقيم قال وبيناهو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة اذ نزل منزلا فأتى الجبار رجل فقال انه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس فأرسل اليه فجاء فقال ماهذه المرأة منك قال هي أختي قال فاذهب فأرسل بها الي فانطلق الى سارة فقال ان هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته انك أختي فلا تكذبيني عنده فانك أختي في كتاب الله وانه ليس في الارض مسلم غيري وغيرك فانطلق بها ابراهيم ثم قام يصلي فلما ان دخلت عليه فرآها أهوى اليها فتناولها فأخذ أخذا شديدا فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت له فأرسل فأهوى اليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الاولتين فقال ادعي الله ولا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابه فقال انك لم تأتني بانسان ولكنك اتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر فاخرجت وأعطيت هاجر فاقبلت فلما أحس ابراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال مهيم قالت كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر قال محمد بن سيرين فكان أبو هريرة اذا حدث بهذا الحديث قال تلك أمكم يابني ماء السماء (فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) يقول تعالى مخبرا عن قوم ابراهيم حين قال لهم ماقال فرجعوا الى أنفسهم أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم فقالوا انكم أنتم الظالمون أي في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ثم نكسوا على رؤسهم أي ثم اطرقوا في الارض فقالوا لقد علمت ماهؤلاء ينطقون قال قتادة أدركت القوم حيرة سوء فقالوا لقد علمت ماهؤلاء ينطقون وقال السدي ثم نكسوا على رؤسهم أي في الفتنة وقال ابن زيد أي في الرأي وقول قتادة أظهر في المعنى لانهم انما فعلوا ذلك حيرة وعجزا ولهذا قالوا لقد علمت ماهؤلاء ينطقون فكيف تقول لنا سلوهم ان كانوا ينطقون وأنت تعلم انها لا تنطق فعندها قال لهم ابراهيم لما اعترفوا بذلك أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيأ ولا يضركم أي اذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فلم تعبدونها من دون الله أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج الا على جاهل ظالم فاجر فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها ولهذا قال تعالى وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه الآية (قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يانار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به

الاستقبال وفي الثاني معنى الخطف والاخذ بسرعة وفي الثالث معنى الحذق والمهارة وقال الراغب في التلقن الحذق في التناول وفي التلقف الاحتيال فيه (وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم) معناه ان قولهم هذا مختص بالافواه من غير أن يكون واقعا في الخارج معتقدا في القلوب وقيل ان ذكر الافواه للتأكيد كما في قوله يطير بجناحيه ونحوه (وتحسبونه) أي الحديث الذي وقع الخوض فيه والاذاعة له (هينا) أي شيأ يسيرا لا يلحقكم فيه اثم (وهو عند الله عظيم) ذنبه وعقابه والجملة في محل الحال قيل جزع بعضهم عند الموت فقيل له في ذلك فقال أخاف ذنبا لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم (ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا) هذا عتاب لجميع المؤمنين أي هلا اذ سمعتم حديث الافك قلتم تكذيبا للخائضين فيه المفترين له بمجرد أول السماع ما ينبغي لنا ولا يمكننا ان نتكلم بهذا الحديث ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه (سبحانك هذا بهتان عظيم) التعجب من أولئك الذين جاؤا بالافك وأصله التنزيه لله سبحانه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه والبهتان هو ان يقال في الانسان ماليس فيه أي هذا كذب عظيم لكونه قيل في أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وصدوره مستحيل شرعا من مثلها ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الافك فقال (يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا) أي ينصحكم أو يحرج الله عليكم قاله ابن عباس أو يحرم عليكم أو ينهاكم كراهة أن تعودوا أو من ان تعودوا أو في أن تعودوا لمثل هذا القذف أو استماع حديثه مدة حياتكم (ان كنتم مؤمنين) فان الايمان يقتضي عدم الوقوع في مثله مادمتم أحياء وفيه تهييج عظيم وتقريع بالغ (ويبين الله لكم الآيات) في الامر والنهي لتعملوا بذلك وتتأدبوا بآداب الله وتنزجروا عن الوقوع في محارمه (والله عليم) بما تبدونه وما تخفونه أو بأمر عائشة وصفوان (حكيم) في تدبيراته لخلقه أو في حكمه ببراءتهما ثم هدد سبحانه القاذفين ومن اراد ان يتسامع الناس بعيوب المؤمنين وذنوبهم فقال (ان الذين يحبون ان تشيع

كيدا فجعلناهم الاخسرين) لما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا (قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) فجمعوا حطبا كثيرا جدا قال السدي حتى ان كانت المرأة تمرض فتنذر ان عوفيت ان تحمل حطبا لحريق ابراهيم ثم جعلوه في جوبة من الارض وأضرموها نارا فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها وجعلوا ابراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق باشارة رجل من أعراب فارس من الاكراد قال شعيب الجبائي اسمه هيزن فخسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة فلما ألقوه قال حسبي الله ونعم الوكيل كما رواه البخاري عن ابن عباس انه قال حسبي الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل وروى الحافظ أبو يعلى حدثنا ابن هشام حدثنا اسحق بن (٢٨٥) سليمان عن أبي جعفر عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ألقي ابراهيم عليه السلام في النار قال اللهم انك في السماء واحد وانا في الارض واحد أعبدك ويروى انه لما جعلوا يوثقونه قال لا اله الا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك وقال شعيب الجبائي كان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة فالله أعلم وذكر بعض السلف انه عرض له جبريل وهو في الهواء فقال ألك حاجة فقال أما اليك فلا وأما من الله فبلى وقال سعيد بن جبير ويروى عن ابن عباس أيضا قال لما ألقي ابراهيم جعل خازن المطر يقول متى أومر بالمطر فارسله قال فكان أمر الله أسرع من أمره قال الله يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم قال لم يبق نار في الارض الا طفئت وقال كعب الاحبار لم ينتفع أحد يومئذ بنار ولم تحرق النار من ابراهيم سوى وثاقه وقال الثوري عن الاعمش عن شيخ عن علي بن أبي طالب قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم قال لا تضريه وقال ابن عباس وأبو العالية لولا ان الله عز وجل قال وسلاما لآذى ابراهيم بردها وقال جويبر عن الضحاك كوني بردا وسلاما على ابراهيم قال صنعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار من كل جانب فاصبح ولم يصبه منها شئ حتى أخمدها الله قال ويذكرون ان جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق فلم يصبه منها شئ غير ذلك وقال السدي كان معه فيها ملك الظل وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا يوسف أبو موسى حدثنا مهران حدثنا اسمعيل بن أبي خالد عن المنهال بن عمر قال أخبرت ان ابراهيم ألقي في النار قال فكان فيها اما خمسين واما أربعين قال ما كنت اياما وليالي قط أطيب عيشا اذ كنت فيها وددت ان عيشي وحياتي كلها مثل عيشي اذ كنت فيها وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة قال ان أحسن شئ قال أبو ابراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار وجده يرشح

الفاحشة) هي فاحشة الزنا والقول السيئ أي يحبون ان تفشو الفاحشة وتنتشر من قولهم شاع الشئ يشيع شيوعا وشيعا وشيعانا اذا ظهر وانتشر والمراد بشيوعها شيوع خبرها قال علي بن أبي طالب قائل الفاحشة والذي يشيع بها في الاثم سواء (في الذين آمنوا) أي المحصنين العفيفين أو كل من اتصف بصفة الايمان (لهم عذاب أليم في الدنيا) باقامة الحد عليهم (والآخرة) بعذاب النار (والله يعلم) جميع المعلومات (وأنتم لا تعلمون) الا ما علمكم به وكشفه لكم ومن جملة ما يعلمه الله عظم ذنب القذف وعقوبة فاعله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم) لعاجلكم بالعقوبة ومن رأفته لعباده ان لا يعاجلهم بذنوبهم ومن رحمته لهم ان يتقدم اليهم بمثل هذا الاعذار والانذار وهو تكرير لما تقدم تذكيرا للمنة منه سبحانه على عباده بترك المعاجلة لهم (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) جمع خطوة وهي ما بين القدمين والخطوة بالفتح المصدر أي لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه وآثاره ولا تسلكوا طرائقه التي يدعوكم اليها قرأ الجمهور خطوات بفتح الخاء والطاء وقرئ بضم الخاء والطاء وباسكان الطاء وهما سبعيتان (ومن يتبع خطوات الشيطان) جواب الشرط محذوف تقديره فقد غوى وقيل جزاء الشرط محذوف أقيم مقامه ما هو علة له أعني قوله (فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) أي فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لان دأبه ان يستمر آمرا لغيره بهما أو صار فيه خاصية الشيطان وهي الامر بهما والفحشاء ما أفرط قبحه والمنكر ما ينكره الشرع وضمير انه للشيطان وقيل للشان والاولى ان يكون عائدا الى من لان من اتبع الشيطان صار مقتديا به في الامر بالفحشاء والمنكر والآية عامة في حق كل واحد لان كل مكلف ممنوع من ذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) قد تقدم بيانه وجواب لولا هو قوله (ما زكى منكم من احد ابدا) أي لولا التفضل والرحمة من الله ما طهر احد منكم نفسه من دنسها ما دام حيا قرئ زكى مخففا ومشددا اي ما طهره الله وقال مقاتل ما صلح

جبينه قال عند ذلك نعم الرب ربك يا ابراهيم وقال قتادة لم يأت يومئذ دابة الا اطفأت عنه النار الا الوزغ وقال الزهري أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله وسماه فويسقا وقال ابن أبي حاتم حدثنا عبيد الله بن أخي ابن وهب حدثني عمي حدثنا جرير بن حازم ان نافعا حدثه قال حدثتني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحا فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح فقالت نقتل به هذه الاوزاغ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ابراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الارض دابة الا تطفئ النار غير الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله وقوله وارادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين أي المغلوبين الاسفلين لانهم أرادوا بنبي الله كيدا فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك وقال عطية العوفي لما ألقي ابراهيم في النار جاء ملكهم لينظر اليه فطارت شرارة فوقعت على ابهامه فأحرقته مثل الصوفة (ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا انه من الصالحين) يقول تعالى مخبرا عن ابراهيم انه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم مهاجرا الى بلاد الشام الى الارض المقدسة منها كما قال الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله الى الارض التي باركنا فيها للعالمين قال الشام وما من ماء عذب الا يخرج من تحت الصخرة وكذا قال أبو العالية أيضا وقال قتادة كان بارض العراق فأنجاه الله الى الشام وكان يقال الشام اعقار دار الهجرة وما نقص من الارض زيد في الشام وما نقص من الشام زيد في فلسطين وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر وبها ينزل لا عيسى بن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال وقال كعب الاحبار في قوله الى الارض التي باركنا فيها للعالمين الى حران وقال السدي انطلق ابراهيم ولوط قبل الشام فلقي ابراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على ان يغيرها رواه ابن جرير وهو غريب والمشهور انها ابنة عمه وانه خرج بها مهاجرا من بلاده وقال العوفي عن ابن عباس الى مكة ألا تسمع الى قوله ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وقوله ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة قال عطاء ومجاهد عطية وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عيينة النافلة ولد الولد يعني ان يعقوب ولد اسحق كما قال فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سأل واحدا فقال رب هب لي

والاولى تفسير زكى بالتطهر والتطهير وهو الذي ذكره ابن قتيبة وعن ابن عباس قال ما اهتدى أحد من الخلائق لشيء من الخير والآية على العموم وقيل خاصة بالذين خاضوا في الافك وانهم طهروا وتابوا غير عبد الله فانه استمر على الشقاوة حتى هلك والاول أولى (ولكن الله يزكي من يشاء) من عباده بالتفضل عليهم والرحمة لهم (والله سميع) لما يقولونه (عليم) بجميع المعلومات وفيه حث بالغ على الاخلاص وتهييج عظيم لعباده التائبين ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان ويحب ان تشيع الفاحشة في عباد الله المؤمنين ولا يزجر نفسه بزواجر الله سبحانه (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة) لا ناهية والفعل مجزوم بحذف الياء لانه معتل بها أي لا يحلف وزنه يفتعل من الالية كهدية يقال ألية وألايا مثل هدية وهدايا وهي اليمين يقال ائتلى يأتلي بوزن انتهى ينتهي اذا حلف ومنه قوله سبحانه للذين يؤلون من نسائهم وقالت فرقة هو من ألوت في كذا اذا قصرت ومنه لم آل جهدا أي لم أقصر وكذا منه قوله تعالى لا يألونكم خبالا والاول أولى بدليل سبب النزول قال ابن عباس لا تقسموا ان لا تنفعوا أحدا أخرج ابن المنذر عن عائشة قالت كان مسطح بن أثاثة ممن تولى كبره من اهل الافك وكان قريبا لابي بكر وكان في عياله فحلف أبو بكر ان لا ينيله خيرا ابدا فانزل الله هذه الآية قالت فاعاده أبو بكر الى عياله وقال لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا تحللتها وأتيت الذي هو خير وقد روى هذا من طرق عن جماعة من التابعين وعن ابن عباس في الآية قال كان ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد رموا عائشة بالقبيح وأفشوا ذلك وتكلموا فيها فاقسم ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم أبو بكر ان لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من هذا ولا يصلوه فقال لا يقسم أولو الفضل منكم والسعة ان لا يصلوا ارحامهم وان لا يعطوهم من أموالهم كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك فامر الله ان يغفر لهم ويعفى عنهم (أن يؤتوا) قال الزجاج أي على ان لا يؤتوا فحذف لا وقال أبو عبيدة لا حاجة الى اضمار

من الصالحين فأعطاه الله اسحق وزاد يعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين أي الجميع أهل خير وصلاح وجعلناهم أئمة أي يقتدى بهم يهدون بأمرنا أي يدعون الى الله باذنه ولهذا قال وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة من باب عطف الخاص على العام وكانوا لنا عابدين أي فاعلين لما يأمرون الناس به ثم عطف بذكر لوط وهو لوط بن هاران بن آزر كان قد آمن بابراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى فآتاه الله حكما وعلما وأوحى اليه وجعله نبيا وبعثه الى سذوم وأعمالها فكذبوه وخالفوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ماقص خبرهم في غير ماموضع من كتابه العزيز ولهذا قال ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا انه من الصالحين (ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا (٢٨٧) قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه دعا ربه أني مغلوب فانتصر وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا ولهذا قال ههنا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله أي الذين آمنوا به كما قال وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل وقوله من الكرب العظيم اي من الشدة والتكذيب والأذى فانه لبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم الا القليل وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل على خلافه وقوله ونصرناه من القوم أي ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين أي أهلكهم الله بعامة ولم يبق على وجه الارض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم (وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) قال ابن اسحق عن مرة عن ابن مسعود كان ذلك الحرث كرما قد تدلت عناقيده وكذا قال شريح وقال ابن عباس النفش الرعي وقال شريح والزهري وقتادة النفش لا يكون الا بالليل زاد قتادة والهمل بالنهار وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب وهرون بن ادريس الاصم قالا حدثنا المحاربي عن أشعث عن أبي اسحق عن مرة عن ابن مسعود في قوله وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم قال كرم قد انبتت عناقيده فأفسدته

لا والمعنى لا يحلفوا على ان لا يحسنوا الى المستحقين للاحسان من (أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) الجامعين لتلك الاوصاف وعلى الوجه الآخر يكون المعنى لا يقصروا في ان يحسنوا اليهم وان كانت بينهم وبينهم شحناء لذنب اقترفوه وقرئ بتاء الخطاب على الالتفات ثم علمهم سبحانه أدبا آخر فقال (وليعفوا) عن ذنبهم الذي أذنبوه عليهم وجنايتهم التي اقترفوها من عفا الربع أي درس والمراد محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع (وليصفحوا) باغضاء عن الجاني والاغماض عن جنايته والاعراض عن لومه فان العفو ان يتجاوز عن الجاني والصفح ان يتناسى جرمه وقيل العفو بالفعل والصفح بالقلب وقرئ في الفعلين جميعا بالفوقية ثم ذكر سبحانه ترغيبا عظيما لمن عفا وصفح فقال (ألا تحبون ان يغفر الله لكم) بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للاساءة عليكم قال أبو بكر بلى انا أحب ان يغفر الله لي ورجع الى مسطح ما كان ينفقه عليه (والله غفور رحيم) أي كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم فكيف لا يقتدى العباد بربهم في العفو والصفح عن المسيئين اليهم (ان الذين يرمون) بالزنا (المحصنات) العفائف قد مر تفسيرها وذكرنا ان الاجماع على ان حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حد القذف (الغافلات) أي اللاتي غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهن ولا يفطن لها وفي ذلك من الدلائل على كمال النزاهة وطهارة الجيب مالم يكن في المحصنات وقيل هن السليمات الصدور والنقيات القلوب اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر لانهن لم يجربن الامور ولم يرزن الاحوال فلا يفطن لما تفطن له المجربات العارفات وكذلك البله من الرجال الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس لانهم اغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها واقبلوا على آخرتهم فشغلوا نفوسهم بها (المؤمنات) بالله ورسوله وقد اختلف في هذه الآية هل هي خاصة أو عامة فقال سعيد بن جبير هي خاصة فيمن رمى عائشة وقال مقاتل هي خاصة بعبد الله بن أبي رأس

قال نقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان غير هذا يا نبي الله قال وما ذاك قال تدفع الكرم الى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها حتى اذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم الى صاحبه ودفعت الغنم الى صاحبها فذلك قوله ففهمناها سليمان وهكذا روى العوفي عن ابن عباس وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد حدثني خليفة عن ابن عباس قال قضى داود بالغنم لاصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب فقال لهم سليمان كيف قضى بينكم فاخبروه فقال لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا فاخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضي بينهم قال أدفع الغنم الى صاحب الحرث فيكون لهم أولادها والبانها وسلاؤها ومنافعها ويبذر اصحاب الغنم لاهل الحرث مثل حرثهم فاذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم الى أصحابها وقال ابن أبي حاتم

حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا خديج عن أبي اسحق عن مرة عن مسروق قال الحرث الذي نفشت فيه الغنم انما كان كرما فلم تدع فيه ورقة ولا عنقودا من عنب الا أكلته فاتوا داود فاعطاهم رقابها فقال سليمان لا بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم وهكذا قال شريح ومرة ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد وقال ابن جرير حدثنا ابن أبي زياد حدثنا يزيد بن هرون انبأنا اسمعيل عن عامر قال جاء رجلان الى شريح فقال أحدهما ان شياه هذا قطعت غزلا لي فقال شريح نهارا أم ليلا فان كان نهارا فقد برئ صاحب الشياه وان كان ليلا فقد ضمن ثم قرأ وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث الآية وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الامام احمد وأبو داود وابن ماجه من حديث الليث بن سعد عن الزهري عن حرام بن محيصة ان ناقة البراء بن عازب دخلت حائطا فافسدت فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل الحوائط حفظها بالنهار وما افسدت المواشي بالليل ضامن على اهلها وقد علل هذا الحديث وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب الاحكام وبالله التوفيق وقوله ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حماد عن حميد ان اياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى فقال ما يبكيك قال يا أبا سعيد بلغني ان القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ورجل مال به الهوى فهو في النار ورجل اجتهد فاصاب فهو في الجنة فقال الحسن البصري ان فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والانبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم قال الله تعالى وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين فاثنى الله على

المنافقين وقال الضحاك والكلبي هي في عائشة وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم دون سائر المؤمنين والمؤمنات فمن قذف احدى امهات المؤمنين فهو من أهل هذه الآية قال الضحاك ومن أحكام هذه الآية انه لا توبة لمن رمى احدى ازواجه صلى الله عليه وآله وسلم ومن قذف غيرهن فقد جعل الله له التوبة كما تقدم في قوله الا الذين تابوا وقيل ان هذه الآية خاصة بمن أصر على القذف ولم يتب وقيل انها خاصة بمشركي مكة لانهم كانوا يقولون للمرأة اذا خرجت مهاجرة انما خرجت لتفجر وقيل انها تعم كل قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين واختاره النحاس وهو الموافق لما قرره أهل الاصول من ان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب قال أهل العلم ان كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة في قوله (لعنوا في الدنيا والآخرة) الابعاد عن الثناء الحسن على ألسنة أهل الايمان وضرب الحد وهجر سائر المؤمنين لهم وزوالهم عن رتبة العدالة واستيحاش أهل الايمان منهم وان كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الامور في جانب عبد الله بن أبي رأس المنافقين وان كانت في مشركي مكة فانهم ملعونون في الدنيا والآخرة (ولهم عذاب عظيم) على ذنب عظيم وجملة (يوم تشهد عليهم ألسنتهم) مقررة لما قبلها مبينة لحلول وقت ذلك العذاب بهم وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذي لا يحيط به وصف قرئ تشهد بالفوقية وبالتحتية وهما سبعيتان والمعنى تشهد ألسنة بعضهم على بعض في ذلك اليوم وقيل تشهد عليهم ألسنتهم في ذلك اليوم بما تكلموا به (وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) أي بما عملوا في الدنيا من قول أو فعل وان الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم والمشهود به محذوف وهو ذنوبهم التي اقترفوها أي تشهد هذه عليهم بذنوبهم التي اقترفوها ومعاصيهم التي عملوها أخرج الطبراني وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقال احلفوا فيحلفون ثم

يصمتهم الله تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ثم يدخلهم النار وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من طريق جماعة من الصحابة ما يتضمن شهادة الجوارح على العصاة (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أي يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم عليها موفرا فالمراد بالدين هنا الجزاء بالحق الثابت الذي لا شك في ثبوته قرئ يوفيهم من أوفى مخففا ومن وفى مشددا وقرئ الحق بالرفع على انه نعت لله وروى ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه وبالنصب على انه نعت لدينهم قال ابو عبيدة ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ليكون نعتا لله عز وجل وليكون موافقا لقراءة أبي وذلك ان جرير بن حازم قال رأيت في مصحف أبي يوفيهم الله الحق دينهم قال النحاس وهذا الكلام من أبي عبيدة غير مرضي لانه احتج بما هو مخالف للسواد الاعظم ولا حجة أيضا فيه لانه لو صح انه في مصحف أبي كذلك لجاز أن يكون دينهم بدلا من الحق وعن ابن عباس قال دينهم أي حسابهم وكل شيء في القرآن الدين فهو الحساب واخرج الطبراني وغيره عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم (ويعلمون ان الله هو الحق المبين) أي يعلمون عند معاينتهم لذلك ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز ان الله هو الحق الثابت في ذاته وصفاته وأفعاله المبين المظهر للاشياء كما هي في أنفسها وانما سمي سبحانه الحق لان عبادته هي الحق دون عبادة غيره وقد سمي بالحق أي الموجود لان نقيضه الباطل وهو المعدوم وتفسيره بظهور ألوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير له فيها وعدم قدرة ما سواه على الثواب والعقاب ليس له كثير مناسبة للمقام ولم يغلظ الله سبحانه وتعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في افك عائشة فأوجز في ذلك واشبع وفصل واجمل وأكد وكرر وما ذلك الا ما روي عن ابن عباس من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض في أمر عائشة وهذا منه تعظيم ومبالغة في أمر الافك ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة برأ يوسف بشاهد من اهلها وموسى بالحجر الذي ذهب بثوبه

سليمان ولم يذم داود ثم قال يعني الحسن ان الله اتخذ على الحكام ثلاثا ان لا يشتروا به ثمنا قليلا ولا يتبعوا فيه الهوى ولا يخشوا فيه أحدا ثم تلا يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله وقال فلا تخشوا الناس واخشوني وقال ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا قلت أما الانبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران واذا اجتهد فأخطأ فله أجر فهذا الحديث يرد نصا ما توهمه اياس من أن القاضي اذا اجتهد فأخطأ فهو في النار والله أعلم وفي السنن القضاة ثلاثة قاض في الجنة وقاضيان في النار رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ورجل علم الحق (٢٨٩) وقضى بخلافه فهو في النار وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الامام أحمد في مسنده حيث قال حدثنا علي بن حفص أخبرنا ورقاء عن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما امرأتان معهما ابنان لهما جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال هاتوا السكين أشقه بينكما فقالت الصغرى يرحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وبوب عليه النسائي في كتاب القضاء باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه من طريق الحسن بن سفيان عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن سعيد ابن بشير عن قتادة عن مجاهد عن ابن

عباس فذكر قصة مطولة ملخصها ان امرأة حسناء في زمان بني اسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم فامتنعت على كل منهم فاتفقوا فيما بينهم عليها فشهدوا عليها عند داود عليه السلام انها مكنت من نفسها كلبا لها قد عودته ذلك منها فأمر برجمها فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله فانتصب حاكما وتزيا أربعة منهم بزي أولئك وآخر بزي المرأة وشهدوا عليها بأنها امكنت من نفسها كلبا فقال سليمان فرقوا بينهم فسأل أولهم ما كان لون الكلب فقال اسود فعزله واستدعى بالآخر فسأله عن لونه فقال أحمر وقال الآخر أغبش وقال الآخر أبيض فأمر عند ذلك بقتلهم فحكي ذلك لداود عليه السلام فاستدعى من فوره باولئك الاربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم وقوله وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير الآية وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور وكان اذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه وترد عليه

الجبال تأويبا ولهذا لما مر النبي صلى الله عليه وسلم على أبي موسى الاشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جدا فوقف واستمع لقراءته وقال لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود قال يا رسول الله لو علمت انك تستمع لحبرته لك تحبيرا وقال أبو عثمان النهدي ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه ومع هذا قال عليه السلام لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود وقوله وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم يعني صنعة الدروع قال قتادة انما كانت الدروع قبله صفائح وهو أول من سردها حلقا كما قال تعالى وألناله الحديد ان أعمل سابغات وقدر في السرد أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقدّ الحلقة ولهذا قال لتحصنكم من بأسكم يعني في القتال فهل أنتم شاكرون أي نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلمه ذلك من أجلكم وقوله ولسليمان (٢٩٠) الريح عاصفة أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها يعني أرض الشام وكنا بكل شيء عالمين وذلك انه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج اليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ثم يأمر الريح ان تحمله فتدخل تحته ثم تحمله فترفعه وتسير به وتظله الطير تقيه الحر الى حيث يشاء من الارض فينزل ويوضع آلاته وحشمه قال الله تعالى فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب وقال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر قال ابن أبي حاتم ذكر عن سفيان بن عيينة عن أبي سنان عن سعيد بن جبير قال كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس مما يليه مؤمنو الانس ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ثم يأمر الطير فتظلهم ثم يأمر الريح فتحمله صلى الله عليه وسلم وقال عبد الله بن عبيد بن عمير كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها ثم يدعو بفرس من ذوات الاجنحة فترتفع حتى تصعد على فراشه ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء وهو مطأطئ رأسه ما يلتفت يمينا ولا شمالا تعظيما لله عز وجل وشكرا لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله تعالى حتى تضعه الريح حيث شاء ان تضعه وقوله ومن الشياطين من يغوصون له أي في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك ويعملون عملا دون ذلك أي غير ذلك كما قال تعالى والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الاصفاد وقوله وكنا لهم حافظين أي يحرسه الله ان يناله احد من الشياطين بسوء بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو اليه والقرب منه بل هو يحكم فيهم ان شاء أطلق وان شاء حبس منهم من يشاء ولهذا قال وآخرين مقرنين في الاصفاد

(وأيوب اذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم

ومريم بانطاق ولدها وعائشة بهذه الآي العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر بهذه المبالغات فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك حيث لم يرض لها ببراءة صبي ولا نبي حتى برأها بكلامه من القذف والبهتان وما ذاك الا لاظهار علو منزلة رسوله والتنبيه على اناقة محله صلى الله عليه وعلى آله واصحابه أجمعين ثم ختم سبحانه الآيات الواردة في أهل الافك بكلمة جامعة فقال (الخبيثات) من النساء (للخبيثين) من الرجال أي مختصات بهم لا يكدن يتجاوزنهم الى غيرهم كلام مستأنف مؤسس على قاعدة السنة الالهية الجارية فيما بين الخلق على موجب ان الله تعالى ملكا يسوق الاهل الى أهلها (و) كذا (الخبيثون للخبيثات) أي مختصون بهن لا يتجاوزونهن لان المجانسة من دواعي الانضمام (و) هكذا (الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأكثر المفسرين المعنى الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات وعن ابن عباس مثله وزاد نزلت في الذين قالوا في زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما قالوا من البهتان وعن قتادة نحوه وكذا روي عن جماعة من التابعين قال النحاس وهذا أحسن ما قيل قال الزجاج ومعناه لا يتكلم بالخبيثات الا الخبيث من الرجال والنساء ولا يتكلم بالطيبات الا الطيب من الرجال والنساء وهذا ذم للذين قذفوا عائشة بالخبث ومدح للذين برؤها وقيل ان هذه الآية مبنية على قوله الزاني لا ينكح الا زانية فالخبيثات الزواني والطيبات العفائف وكذا الخبيثون والطيبون وعن ابن زيد قال نزلت في عائشة حين رماها المنافقون بالبهتان والفرية فبرأها الله من ذلك وكان ابن أبي هو الخبيث وكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون هو لها وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طيبا فكان أولى ان تكون له الطيبة وكانت عائشة الطيبة وكانت أولى بأن يكون لها الطيب (أولئك مبرؤن مما يقولون) الاشارة الى الطيبين والطيبات أي هم

مبرؤن

رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده وذلك انه
كان له من الدواب والانعام والحرث شيء كثير وأولاد كثيرة ومنازل مرضية فابتلى في ذلك كله وذهب عن آخره ثم ابتلى في جسده
يقال بالجذام في سائر بدنه ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل حتى عافه الجليس وأفرد في ناحية من البلد ولم
يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ويقال انها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله وقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل وفي الحديث الآخر يبتلى الرجل على قدر دينه فان كان
في دينه صلابة زيد في بلائه وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر وبه يضرب المثل في ذلك وقال يزيد بن ميسرة لما
ابتلى الله أيوب عليه السلام ومات الاهل والمال والولد ولم يبق شيء له أحسن (٢٩١) الذكر ثم قال أحمدك رب الارباب الذي
أحسنت الي أعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة الا قد دخله ذلك فأخذت ذلك كله مني وفرغت قلبي فليس يحول بيني وبينك شيء لو يعلم عدوي ابليس بالذي صنعت حسدني قال فلقي ابليس من ذلك منكرا قال وقال أيوب عليه السلام يارب انك أعطيتني المال والولد فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته وأنت تعلم ذلك وانه كان يوطأ لي الفراش فأتركها وأقول لنفسي يانفس انك لم تخلقي لوطء الفراش ماتركت ذلك الا ابتغاء وجهك رواه ابن أبي حاتم وقد روى عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة ساقها ابن جرير وابن أبي حاتم بالسند عنه وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين وفيها غرابة تركناها لحال الطول وقد روى انه مكث في البلاء مدة طويلة ثم اختلفوا في السبب المهيج له على هذا الدعاء فقال الحسن وقتادة
ابتلى أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهرا ملقى على كناسة بني اسرائيل تختلف الدواب في جسده ففرج الله عنه وأعظم له الاجر
وأحسن عليه الثناء وقال وهب بن منبه مكث في البلاء ثلاث سنين لا يزيد ولا ينقص وقال السدي تساقط لحم أيوب حتى لم يبق الا
العصب والعظام فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالرماد يكون فيه فقالت له امرأته لما طال وجعه يا أيوب لو دعوت ربك يفرج
عنك فقال قد عشت سبعين سنة صحيحا فهو قليل لله ان أصبر له سبعين سنة فجزعت من ذلك فخرجت فكانت تعمل للناس بالاجر
وتأتيه بما تصيب فتطعمه وان ابليس انطلق الى رجلين من أهل فلسطين كانا صديقين له وأخوين فأتاهما فقال أخوكما أيوب أصابه
من البلاء كذا وكذا فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أرضكما فانه ان شرب منه برئ فأتياه فلما نظرا اليه بكيا فقال من انتما فقالا
نحن فلان وفلان فرحب بهما وقال مرحبا بمن لا يجفوني عند البلاء فقالا يا أيوب لعلك كنت تسر شيأ وتظهر غيره فلذلك ابتلاك

مبرؤن مما يقوله الخبيثون والخبيثات وقيل الاشارة الى أزواج النبي صلى الله عليه وآله
وسلم وقيل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعائشة وصفوان بن المعطل وقيل الى
عائشة وصفوان فقط قال الفراء وجمع كما قال فان كان له اخوة والمراد اخوان قال ابن زيد
ههنا برئت عائشة (لهم مغفرة) عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب (ورزق كريم) هو
رزق الجنة روى ان عائشة كانت تفتخر بأشياء لم تعطها امرأة غيرها منها ان جبريل أتى
بصورتها في خرقة حرير وقال هذه زوجتك ومنها ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يتزوج
بكرا غيرها وقبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجرها وفي يومها ودفن في بيتها
وكان ينزل عليه الوحي وهي معه في اللحاف ونزلت براءتها من السماء وانها ابنة الصديق
وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلقت طيبة ووعدت مغفرة ورزقا كريما
وكان مسروق اذا حدث عن عائشة يقول حدثتني الصديقة ابنة الصديق حبيبة رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم المبرأة من السماء وقال حسان معتذرا في حقها

حصان رزان ماتزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا * نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب * كرام المساعي مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها * وطهرها من كل شين وباطل

ولما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف شرع في ذكر الزجر عن دخول البيوت بغير
استئذان لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء فربما يؤدي الى أحد الامرين المذكورين
وأيضا فان الانسان يكون في بيته ومكان خلوته على حالة لا يحب أن يراه عليها غيره فنهى
الله سبحانه عن دخول بيوت الغير فقال (ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم)
أي التي لستم تملكونها ولا تسكنونها وليس لكم عليها يد شرعية أما المكتري والمستعير
فكل منهما يدخل بيته والمعنى لا تدخلوها الى غاية هي قوله (حتى تستأنسوا)
الاستئناس الاستعلام والاستخبار أي حتى تستعلموا من في البيت والمعنى حتى تعلموا أن

الله فرفع رأسه الى السماء فقال هو يعلم ما اسررت شيأ أظهرت غيره ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم اجزع فقال الا ياأيوب اشرب من خمر نافانك ان شربت منه برأت قال فغضب وقال جاءكما الخبيث فامر كابهذا كلاكما وطعامكما وشرابكما على حرام فقاما من عنده وخرجت امرأته تعمل للناس فخبزت لاهل بيت لهم صبي فجعلت لهم قرصا وكان ابنهم نائما فكرهوا ان يوقظوه فوهبوه لها فأتت به الى أيوب فانكره وقال ما كنت تأتيني بهذا فما بالك اليوم فاخبرته الخبر قال فلعل الصبي قد استيقظ فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي على أهله فانطلقي به اليه فأقبلت حتى بلغت درجة القوم فنطحتها شاة لهم فقالت تعس أيوب الخطاء فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص ويبكي على أهله لا يقبل منهم شيأ غيره فقالت رحمه الله يعني أيوب فدفعت اليه القرص ورجعت ثم ان ابليس أتاها في صورة (٢٩٢) طبيب فقال لها ان زوجك قد طال سقمه فان اراد ان يبرأ فليأخذ ذبابا فليذبحه باسم صنم بني فلان فانه يبرأ ويتوب بعد ذلك فقالت ذلك لايوب فقال قد أتاك الخبيث لله على ان برأت ان أجلدك مائة جلدة فخرجت تسعى عليه فحظر عنها الرزق فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع حلقت من شعرها قرنا فباعته من صبية من بنات الاشراف فاعطوها طعاما طيبا كثيرا فاتت به أيوب فلما رآه أنكره وقال من أين لك هذا قالت عملت لاناس فاطعموني فأكل منه فلما كان الغد خرجت فطلبت ان تعمل فلم تجد فحلقت أيضا قرنا فباعته من تلك الجارية فاعطوها أيضا من ذلك الطعام فاتت به أيوب فقال والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو فوضعت خمارها فلما رأى رأسها محلوقا جزع جزعا شديدا فعند ذلك دعا الله عز وجل فقال رب اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين قال ابن أبي حاتم حدثنا ابي حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حماد حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي ان الشيطان الذي عرج في ايوب كان يقال له مبسوط قال وكانت امرأة أيوب تقول ادع الله فيشفيك فجعل لا يدعو حتى مر به نفر من بني اسرائيل فقال بعضهم لبعض ما اصابه ما أصابه الا بذنب عظيم أصابه فعند ذلك قال رب اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * وحدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال كان لايوب عليه السلام أخوان فجاآ يوما فلم يستطيعا ان يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد فقال احدهما للآخر لو كان الله علم من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع من شيء قط فقال اللهم ان كنت تعلم اني لم ابت ليلة قط شبعان وانا اعلم مكان جائع فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال اللهم ان كنت تعلم اني لم يكن لي قميصان قط وانا اعلم مكان عار فصدقني فصدق من

صاحب البيت قد علم بكم وتعلموا أنه قد أذن بدخولكم فاذا اعلمتم ذلك دخلتم ومنه قوله فان آنستم منهم رشدا أي علمتم قال الخليل الاستئناس الاستكشاف من أنس الشيء اذا أبصره كقوله اني آنست نارا أي أبصرت وقال ابن جرير انه بمعنى تؤنسوا أنفسكم قال ابن عطية وتصريف الفعل يأبى ان يكون من أنس ومعنى كلام ابن جرير هذا انه من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش لان الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا فهو كالمستوحش حتى يؤذن له فاذا أذن له استأنس فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤذن للداخل وقيل هو من الانس وهو ان يتعرف هل ثم انسان أم لا قال الواحدي قال جماعة المفسرين حتى تستأذنوا ويؤيده ما حكاه القرطبي عن ابن عباس وأبي وسعيد ابن جبير انهم قرؤا حتى تستأذنوا قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان وعن ابن عباس قال أخطأ الكاتب حتى تستأذنوا (وتسلموا على أهلها) وفي مصحف عبد الله حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وعن عكرمة نحوه أخرج ابن أبي شيبة والطبراني وغيرهما عن ابي أيوب قال قلت يارسول الله أرأيت قول الله حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها هذا التسليم قد عرفناه فما الاستئناس قال يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت قال ابن كثير هذا حديث غريب وأخرج الطبراني عن أبي أيوب ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الاستئناس ان تدعو الخادم حتى يستأنس أهل البيت الذين تسلم عليهم وفي الصحيحين وغيرهما من حديث سهل بن سعد قال اطلع رجل من جحر في حجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه قال لو أعلم انك تنظر لطعنت بها في عينك انما جعل الاستئذان من أجل النظر وفي لفظ انما جعل الاذن من أجل البصر وعن أنس قال قال رجل من المهاجرين لقد طلبت عمري كله في هذه الآية فما أدركتها ان استأذن على بعض اخواني فيقول ارجع فأرجع وأنا مغتبط لقوله وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم وعن ابن عباس

السماء وهو ما يسمعان ثم قال اللهم بعزتك ثم خر ساجدا فقال اللهم بعزتك لا ارفع رأسي ابدا حتى تكشف عني فما رفع رأسه حتى كشف عنه وقد رواه ابن ابي حاتم من وجه آخر مرفوعا بنحو هذا فقال اخبرنا يونس بن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب اخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد الا رجلين من اخوانه كانا من اخص اخوانه له كانا يغدوان اليه ويروحان فقال احدهما لصاحبه تعلم والله لقد اذنب ايوب ذنبا ما اذنبه احد من العالمين فقال له صاحبه وما ذاك قال منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به فلما راحا اليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب عليه السلام ما ادري ما تقول غير ان الله عزوجل يعلم اني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فارجع الى بيتي فأكفر عنهما كراهية ان يذكر الله الا (٢٩٣) في حق قال وكان يخرج في حاجته فاذا قضاها امسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم ابطأت عليه فأوحى الله الى أيوب في مكانه أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب رفع هذا الحديث غريب جدا وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حماد أخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب فجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب فجعلت تكلمه ساعة فقال ويحك أنا أيوب قالت أتسخر مني يا عبد الله فقال ويحك أنا أيوب قد رد الله على جسدي وبه قال ابن عباس ورد عليه ماله وولده عيانا ومثلهم معهم وقال وهب بن منبه أوحى الله الى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فان فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك رواه ابن أبي حاتم وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما عافى الله أيوب أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه قال فقيل له يا ايوب اما تشبع قال يارب ومن يشبع من رحمتك اصله في الصحيحين وسيأتي في موضع آخر وقوله وآتيناه اهله ومثلهم معهم قد تقدم عن ابن عباس انه قال ردوا عليه بأعيانهم وكذا رواه العوفي عن ابن عباس ايضا وروي مثله عن ابن مسعود ومجاهد وبه قال الحسن وقتادة وقد زعم بعضهم ان اسم زوجته رحمة فان كان اخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة وان كان اخذه من نقل اهل الكتاب وصح ذلك عنهم فهو مما لا يصدق ولا يكذب وقد سماها ابن عساكر في تاريخه رحمه الله تعالى قال ويقال اسمها ليا بنت منشا بن يوسف بن يعقوب بن اسحق

قال نسخ واستثنى من ذلك فقال ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم اخرج احمد والبخاري في الادب وابو داود والترمذي والنسائي والبيهقي من طريق كلدة أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبأ وضغابيس والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعلى الوادي قال فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ارجع فقل السلام عليكم أأدخل قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه الا من حديثه واخرج أحمد والبخاري في الادب وأبو داود والبيهقي في السنن من طريق ربعي قال حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في بيت فقال أألج فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لخادمه اخرج الى هذا فعلمه الاستئذان فقل له قل السلام عليكم أأدخل وأخرج ابن جرير عن عمر بن سعيد الثقفي نحوه مرفوعا ولكنه قال ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لامة له يقال لها روضة قومي الى هذا فعليه واختلفوا هل يقدم الاستئذان على السلام او العكس فقيل يقدم الاستئذان فيقول أأدخل سلام عليكم لتقديم الاستئناس في الآية على السلام وقال الاكثرون انه يقدم السلام على الاستئذان فيقول السلام عليكم أأدخل وهو الحق لان البيان منه صلى الله عليه وآله وسلم للآية كان هكذا وقيل ان وقع بصره على انسان قدم السلام والا قدم الاستئذان (ذلكم) اى الاستئناس والتسليم اى دخولكم مع الاستئذان والسلام (خير لكم) من التهجم بغير اذن ومن الدخول بغتة (لعلكم تذكرون) ان الاستئذان خير لكم وهذه الجملة متعلقة بمقدر اي امرتم بالاستئذان والمراد بالتذكر الاتعاظ والعمل بما أمروا به (فان لم تجدوا فيها) اى في البيوت التي لغيركم (احدا) ممن يستأذن عليه ويصلح للاذن او كان ولكنه لم يأذن أو لم يكن فيها احد اصلا (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) بدخولها من جهة من يملك الاذن فان المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط بل وعلى ما يخفيه الناس عادة مع ان التصرف في ملك الغير بغير اذنه محظور واستثنى ما اذا عرض فيه حرق او غرق

ابن ابراهيم قال ويقال لبا بنت يعقوب عليه السلام زوجة ايوب كانت معه بأرض الثنية وقال مجاهد قيل له يا ايوب ان اهلك لك في الجنة فان شئت آتيناك بهم وان شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم قال لا بل أتركهم في الجنة فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا وقال حماد بن زيد عن ابي عمران الجوني عن نوف البكالي قال اوتي اجرهم في الآخرة واعطي مثلهم في الدنيا قال فحدثت به مطرفا فقال ماعرفت وجهها قبل اليوم وهكذا روى عن قتادة والسدي وغير واحد من السلف والله اعلم وقوله رحمة من عندنا أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به وذكرى للعابدين اي وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن اهل البلاء انما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ولتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء وله الحكمة البالغة في ذلك (واسمعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم (٢٩٤) في رحمتنا انهم من الصالحين) اما اسمعيل فالمراد به ابن ابراهيم الخليل عليهما السلام وقد تقدم ذكره في سورة مريم وكذا ادريس عليه السلام واما ذو الكفل فالظاهر من السياق انه ماقرن مع الانبياء الا وهو نبي وقال آخرون انما كان رجلا صالحا وكان ملكا عادلا وحكما مقسطا وتوقف ابن جرير في ذلك فالله اعلم قال ابن جريج عن مجاهد في قوله وذا الكفل قال رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه ان يكفيه الله قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمي ذا الكفل وكذا روى ابن ابي نجيح عن مجاهد ايضا وروى ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا داود عن مجاهد قال لما كبر اليسع قال لو أني استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى انظر كيف يعمل فجمع الناس فقال من يتقبل مني بثلاث أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب قال فقام رجل تزدريه العين فقال أنا فقال أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب قال نعم قال فردهم ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا فاستخلفه قال فجعل ابليس يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم ذلك فقال دعوني واياه فأتاه في صورة شيخ كبير فقير فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام الليل والنهار الا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا قال شيخ كبير مظلوم قال فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه فقال ان بيني وبين قومي خصومة وانهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا بي وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة فقال اذا رحت فأتني آخذ لك بحقك فانطلق وراح فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه فلما رجع الى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من هذا قال الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال

او كان فيه منكر ونحوه وعن مجاهد قال المعنى فان لم تجدوا فيها أحدا اي لم يكن فيها امتاع وضعفه ابن جرير وهو حقيق بالضعف فان المراد بالاحد المذكور اهل البيوت الذين يأذنون للغير بدخولها لا امتاع الداخلين اليها (وان قيل لكم) اي ان قال لكم اهل البيت (ارجعوا فارجعوا) ولا تعاودوهم بالاستئذان مرة اخرى ولا تنتظروا بعد ذلك ان يؤذن لكم بعد امرهم لكم بالرجوع ولا تقفوا على الباب ملازمين ثم بين سبحانه ان الرجوع افضل من الالحاح وتكرير الاستئذان والقعود على الباب والاصرار على الانتظار فقال (هو) اي الرجوع (أزكى لكم) اي افضل واطهر من التدنس بالمشاحة على الدخول ومن اللج والعناد والوقوف على الابواب لما في ذلك من سلامة الصدر والبعد من الريبة والفرار من الدناءة والرذالة واذا حضر احد الى الباب فلم يستأذن وقعد على الباب منتظرا جاز وكان ابن عباس يأتي دور الانصار لطلب الحديث فيقعد على الباب ولا يستأذن حتى يخرج اليه الرجل فيراه ويقول يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو اخبرتني بمكانك فيقول هكذا امرنا ان نطلب العلم (والله بما تعملون عليم) لا تخفى عليه من اعمالكم خافية ومنه الدخول باذن وغير اذن (ليس عليكم جناح) في الدخول بغير استئذان (أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) اي البيوت التي ليست بموضوعة لسكنى طائفة مخصوصة بل كانت موضوعة ليدخلها كل من له حاجة تقصدها وقد اختلف الناس في المراد بهذه البيوت فقال محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد هي الفنادق التي في الطرق السابلة الموضوعة لابن السبيل يأوي اليها وقال ابن زيد والشعبي هي حوانيت القيساريات وبيوت التجار وحوانيتهم في الاسواق والربط قال الشعبي لانهم جاؤا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس هلم وقال عطاء المراد بها الخرب التي يدخلها الناس للبول والغائط ففي هذا أيضا امتاع وقيل هي بيوت مكة روى ذلك عن محمد بن الحنفية أيضا وهو موافق لقول من قال ان الناس شركاء فيها ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بانها غير

مسكونة

ألم أقل لك اذا قعدت فأتني قال انهم أخبث قوم اذا عرفوا انك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك واذا قمت جحدوني قال فانطلق فاذا رحت فأتني قال ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظره ولا يراه وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله لا تدع أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فاني قد شق على النوم فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل وراءك وراءك قال اني قد أتيته أمس وذكرت له أمرى فقال لا والله لقد أمرنا ان لا ندع أحدا يقربه فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فاذا هو في البيت واذا هو يدق الباب من داخل قال واستيقظ الرجل فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلي والله فلم تؤت فانظر من أين أتيت قال فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه واذا الرجل معه في البيت فعرفه فقال أعدو الله قال نعم أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك فسماه الله ذا الكفل لانه تكفل بأمر فوفى به وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث زهير بن اسحق عن (٢٩٥) داود عن مجاهد بمثله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن يونس حدثنا أبو بكر بن عياش عن الاعمش عن مسلم قال قال ابن عباس كان قاض في بني اسرائيل فحضره الموت فقال من يقوم مقامي على أن لا يغضب قال فقال رجل أنا فسمي ذا الكفل قال فكان ليله جميعا يصلي ثم يصبح صائما فيقضي بين الناس قال وله ساعة يقيلها قال فكان كذلك فأتاه الشيطان عند نومته فقال له أصحابه مالك قال انسان مسكين له على رجل حق وقد غلبني عليه قالوا كما انت حتى يستيقظ قال وهو فوق نائم قال فجعل يصيح عمدا حتى يوقظه قال فسمع فقال مالك قال انسان مسكين له على رجل حق قال فاذهب فقل له يعطيك قال قد أبى قال اذهب انت اليه قال فذهب ثم جاء من الغد فقال مالك قال ذهبت اليه فلم يرفع بكلامك رأسا قال اذهب اليه فقل له يعطيك حقك قال فذهب ثم جاء من الغد حين قال قال فقال له أصحابه اخرج فعل الله بك تجيء كل يوم حين ينام لا تدعه ينام قال فجعل يصيح من اجل اني انسان مسكين لو كنت غنيا قال فسمع ايضا فقال مالك قال ذهبت اليه فضربني قال امش حتى أجيء معك قال فهو ممسك بيده فلما رآه ذهب معه نثر يده منه ففر وهكذا روى عن عبد الله بن الحرث ومحمد بن قيس وابي حجيرة الاكبر وغيرهم من السلف نحو هذه القصة والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر أخبرنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن كنانة بن الاخنس قال سمعت الاشعري وهو يقول على هذا المنبر ما كان ذو الكفل بنبي ولكن كان يعني في بني اسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال قال أبو موسى الاشعري فذكره منقطعا والله أعلم وقد روى الامام أحمد حديثا غريبا فقال حدثنا أسباط بن محمد حدثنا

مسكونة (فيها متاع لكم) المتاع المنفعة عند أهل اللغة فيكون معنى الآية فيها منفعة لكم كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الرحال والسلع والشراء والبيع ومنه قوله ومتعوهن وقولهم أمتع الله بك وقد فسر الشعبي المتاع في كلامه المتقدم بالاعيان التي تباع قال جابر ابن زيد وليس المراد بالمتاع الجهاز ولكن ماسواه من الحاجة قال النحاس وهو حسن موافق للغة (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) أي ما تظهرون وما تخفون وفيه وعيد لمن لم يتأدب بآداب الله في دخول بيوت الغير ويدخل الخربات والدور الخالية من أهل الريبة ولما ذكر سبحانه حكم الاستئذان أتبعه بذكر حكم النظر على العموم فقال (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) فيندرج تحته غض البصر من المستأذن كما قال صلى الله عليه وآله وسلم انما جعل الاذن من أجل البصر وخص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم لكون قطع ذرائع الزنا التي منها النظر هم أحق بها من غيرهم وأولى بذلك ممن سواهم وقيل ان في الآية دليلا على ان الكفار غير مخاطبين بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم وفي الكلام حذف والتقدير قل للمؤمنين غضوا يغضوا ومعنى غض البصر اطباق الجفن على العين بحيث يمنع الرؤية ومن هي التبعيضية واليه ذهب الاكثرون وعليه اقتصر القاضي كالكشاف وبينوه بان المعنى غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وقيل وجه التبعيض انه يعفى للناظر أول نظرة تقع من غير قصد وقال الاخفش انها زائدة وأنكر ذلك سيبويه وقيل انها لبيان الجنس قاله أبو البقاء واعترض عليه بانه لم يتقدم مبهم حتى يكون مفسرا بمن وقيل انها لابتداء الغاية قاله ابن عطية وعليه اقتصر أبو حيان في النهر وقيل الغض النقصان يقال غض فلان من فلان أي وضع منه فالبصر اذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض منه ومنقوص فتكون من صلة للغض وليست لمعنى من تلك المعاني الاربعة وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر الى غير من يحل النظر اليه قال ابن عباس يغضوا أبصارهم يعني من شهواتهم مما يكره الله وأخرج أبو داود والترمذي والبيهقي في سننه عن بريدة قال

الاعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لو لم أسمعه الا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال كان الكفل من بني اسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على ان يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال ما يبكيك أكرهتك قالت لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط وانما حملني عليه الحاجة قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ثم نزل فقال اذهبي بالدنانير لك ثم قال والله لا يعصي الله الكفل أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه قد غفر الله للكفل هكذا وقع في هذه الرواية الكفل من غير اضافة والله أعلم وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة واسناده غريب وعلى كل تقدير فلفظ الحديث ان كان الكفل ولم يقل ذو الكفل فلعله رجل آخر والله أعلم (٢٩٦) (وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) هذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة الصافات وفي سورة ن وذلك ان يونس بن متى عليه السلام بعثه الله الى اهل قرية نينوى وهي قرية من ارض الموصل فدعاهم الى الله تعالى فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا الى الصحراء باطفالهم وانعامهم ومواشيهم وفرقوا بين الامهات وأولادها ثم تضرعوا الى الله عز وجل وجأروا اليه ورغت الابل وفصلانها وخارت البقر وأولادها وثغت الغنم وسخالها فرفع الله عنهم العذاب قال الله تعالى فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين واما يونس عليه السلام فانه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ثم أعادوها فوقعت عليه ايضا فأبوا ثم أعادوها فوقعت عليه ايضا قال الله تعالى فساهم فكان من المدحضين اي وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم ألقى نفسه في البحر وقد ارسل الله سبحانه من البحر الاخضر فيما قاله ابن مسعود حوتا يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة فأوحى الله الى ذلك الحوت ان لا تأكل له لحما ولا تهشم له عظما فان يونس ليس لك رزقا وانما بطنك تكون له سجنا وقوله وذا النون يعني الحوت صحت الاضافة اليه بهذه النسبة وقوله اذ ذهب مغاضبا قال الضحاك لقومه فظن أن لن نقدر عليه أي نضيق عليه في بطن الحوت يروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم واختاره ابن جرير واستشهد

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تتبع النظرة النظرة فان الاولى لك وليست لك الاخرى وفي مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي عن جرير البجلي قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نظرة الفجأة فأمرني ان أصرف وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اياكم والجلوس على الطرقات قالوا يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها فقال ان ابيتم فاعطوا الطريق حقه قالوا وما حقه يا رسول الله قال غض البصر وكف الاذى ورد السلام والامر بالمعروف والنهي عن المنكر (ويحفظوا فروجهم) أي يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم ولا يحل لهم وقيل المراد ستر فروجهم عن ان يراها من لا تحل له رؤيتها ولا مانع من ارادة المعنيين فالكل يدخل تحت حفظ الفرج وقيل وجه المجيء بمن في الابصار دون الفروج انه موسع في النظر فانه لا يحرم منه الا ما استثنى ألا ترى ان المحارم لا بأس بالنظر الى شعورهن وصدورهن وكذا الاماء المستعرضات للبيع بخلاف حفظ الفرج فانه مضيق فيه فانه لا يحل منه الا ما استثنى وقيل الوجه ان غض البصر كله كالمتعذر بخلاف حفظ الفرج فانه ممكن على الاطلاق قال أبو العالية كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا الا ما في هذا الموضع فانه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه (ذلك) أي ما ذكر من الغض والحفظ (أزكى) أي أطهر (لهم) من دنس الريبة وأطيب من التلبس بهذه الدنيئة (ان الله خبير بما يصنعون) لا يخفى عليه شيء من صنعهم فيجازيهم عليه وفي ذلك وعيد لمن لم يغض بصره ويحفظ فرجه (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) خص سبحانه الاناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهن تحت خطاب المؤمنين تغليبا كما في سائر الخطابات القرآنية وظهر التضعيف في يغضضن ولم يظهر في يغضوا لان لام الفعل من الاول متحركة ومن الثاني ساكنة وهما في موضع جزم جوابا للامر وبدأ سبحانه بالغض في الموضعين قبل حفظ الفرج لان النظر وسيلة الى عدم حفظ الفرج والوسيلة مقدمة على المتوسل اليه وعن

عليه بقوله تعالى ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله الآية وقال عطية العوفي أي فظن أن لن نقدر عليه أي نقضي عليه كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير فان العرب تقول قدر وقدر بمعنى واحد قال الشاعر

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى * تباركت ما تقدر يكن فلك الامر ومنه قوله تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر أي قدر وقوله فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين قال ابن مسعود ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل وكذا روي عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة وقال سالم بن أبي الجعد ظلمة حوت في بطن حوت آخر في ظلمة البحر قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما وذلك انه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به الى قرار البحر فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره فعند ذلك وهنالك قال لا اله الا أنت (٢٩٧) سبحانك اني كنت من الظالمين وقال عوف الاعرابي لما صار يونس في بطن الحوت ظن انه قد مات ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه ثم نادى يا رب اتخذت لك مسجدا في موضع لم يبلغه أحد من الناس وقال سعيد بن أبي الحسن البصري مكث في بطن الحوت أربعين يوما رواهما ابن جرير وقال محمد بن اسحق بن يسار عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا فاوحى الله اليه وهو في بطن الحوت ان هذا تسبيح دواب البحر قال وسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا انا نسمع صوتا ضعيفا بارض غريبة قال ذلك عبدي

يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا العبد الصالح الذي كان يصعد اليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم قال فشفعوا له عند ذلك فامر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله تعالى وهو سقيم رواه ابن جرير ورواه البزار في مسنده من طريق محمد بن اسحق (١) بنحوه ثم قال لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم الا من هذا الوجه بهذا الاسناد وروى ابن أبي حاتم عن يزيد الرقاشي حدثه قال سمعت أنس بن مالك ولا أعلم الا ان انسا يرفع الحديث الى رسول الله صلى الله

(١) قوله من طريق محمد بن اسحق وجد في بعض النسخ زيادة بعد قوله من طريق محمد بن اسحق وهي عن عبد الله بن مسلم عن علي مرفوعا لا ينبغي لعبد ان يقول أنا خير من يونس بن متى سبح الله في الظلمات وقد روى هذا الحديث بدون هذه الزيادة من حديث ابن عباس وابن مسعود وعبد الله بن جعفر وسيأتي أسانيدها في سورة ن وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبيد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي ابن وهب حدثني عمي حدثني أبو صخر اه

مقاتل قال بلغنا والله أعلم ان جابر بن عبد الله الانصاري حدث ان أسماء بنت يزيد كانت في نخل لها لبني حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما في أرجلهن يعني الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله في ذلك وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن الآية وبالجملة أمر الله سبحانه المؤمنين والمؤمنات بغض الابصار فلا يحل للرجل ان ينظر الى المرأة ولا للمرأة أن تنظر الى الرجل فان علاقتها به كعلاقته بها وقصدها منه كقصده منها وقال مجاهد اذا أقبلت المرأة جلس ابليس على رأسها فزينها لمن ينظر واذا أدبرت جلس على عجيزتها فزينها لمن ينظر وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على خمسة وعشرين ضمير الاناث ما بين مرفوع ومجرور ولم يوجد لها نظير في القرآن في هذا الشأن (و) كذلك (يحفظن فروجهن) أي يجب عليهن حفظ فروجهن على الوجه الذي تقدم في حفظ الرجال لفروجهم أخرج البخاري وأهل السنن وغيرهم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر قال احفظ عورتك الا من زوجتك أو ما ملكت يمينك قلت يا نبي الله اذا كان القوم بعضهم في بعض قال ان استطعت ان لا يراها أحد فلا يرينها قلت اذا كان أحدنا خاليا قال فالله أحق ان يستحيا منه من الناس وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الاذنين السماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطو والنفس تمنى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النظرة سهم من سهام ابليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه الله ايمانا يجد حلاوته في قلبه والاحاديث في هذا الباب كثيرة (ولا يبدين زينتهن) أي ما يتزين به من الحلية وغيرها مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الاذن والقلائد في العنق فلا يجوز للمرأة اظهارها ولا يجوز للاجنبي النظر

عليه وسلم ان يونس النبي عليه السلام حين بدا له ان يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال اللهم لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين فاقبلت هذه الدعوة تحن بالعرش فقالت الملائكة يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال أما تعرفون ذاك قالوا يارب ومن هو قال عبدي يونس قالوا عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة قالوا يارب أولا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء قال بلى فامر الحوت فطرحه في العراء وقوله فاستجبنا له ونجيناه من الغم أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات وكذلك ننجي المؤمنين أي اذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين الينا ولا سيما اذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الانبياء قال الامام أحمد حدثنا اسمعيل بن عمر حدثنا يونس بن أبي اسحق الهمداني حدثنا ابراهيم بن محمد بن سعد حدثني (٢٩٨) والدي محمد عن أبيه سعد هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد على السلام فاتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أمير المؤمنين هل حدث في الاسلام شيء مرتين قال لا وما ذاك قلت لا الا اني مررت بعثمان آنفا في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد على السلام قال فارسل عمر الى عثمان فدعاه فقال ما منعك ان لا تكون رددت على أخيك السلام قال ما فعلت قال سعد قلت بلى حتى حلف وحلفت قال ثم ان عثمان ذكر فقال بلى واستغفر الله وأتوب اليه انك مررت بي آنفا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والله ماذكرتها قط الا تغشى بصري وقلبي غشاوة قال سعد فانا أنبئك بها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة ثم جاء اعرابي فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته فلما أشفقت ان يسبقني الى منزله ضربت بقدمي الارض فالتفت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من هذا أبو اسحق قال قلت نعم يارسول الله قال فمه قلت لا والله الا انك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الاعرابي فشغلك قال نعم دعوة ذي النون اذ هو في بطن الحوت لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين فانه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط الا استجاب له ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه سعد به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد الاحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب قال أبو خالد أحسبه عن مصعب يعني ابن سعد عن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا بدعاء يونس استجيب له قال أبو سعيد يريد به وكذلك ننجي المؤمنين وقال ابن جرير حدثني عمران بن بكار الكلاعي حدثنا يحيى بن صالح حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد

اليها ثم استثنى سبحانه من هذا النهي فقال (الا ما ظهر منها) أي ما جرت العادة والجبلة على ظهوره واختلف الناس في ظاهر الزينة ما هو فقال ابن مسعود وسعيد بن جبير هو الثياب وزاد سعيد الوجه وقال عطاء والاوزاعي الوجه والكفان وقال ابن عباس وقتادة والمسور بن مخرمة هو الكحل والخاتم والسوار والخضاب في الكف الى نصف الساق ونحو ذلك فانه يجوز للمرأة ان تبديه وقال ابن عطية ان المرأة لا تبدي شيأ من الزينة وتخفي كل شيء من زينتها ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة ولا يخفى عليك ان ظاهر النظم القرآني النهي عن ابداء الزينة الا ما ظهر منها كالجلباب والخمار ونحوهما مما في الكف والقدمين من الحلية ونحوها وان كان المراد بالزينة مواضعها كان الاستثناء راجعا الى ما يشق على المرأة ستره كالكفين والقدمين ونحو ذلك وهكذا اذا كان النهي عن اظهار الزينة يستلزم النهي عن اظهار مواضعها بفحوى الخطاب فانه يحمل الاستثناء على ما ذكرناه في الموضعين وأما اذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة وما تتزين به النساء فالامر واضح والاستثناء يكون من الجميع قال القرطبي في تفسيره الزينة على قسمين خلقية ومكتسبة فالخلقية وجهها فانه أصل الزينة والمكتسبة ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها كالثياب والحلي والكحل والخضاب ومنه قوله تعالى خذوا زينتكم وعن ابن مسعود قال الزينة السوار والدملج والخلخال والقرط والقلادة الا ما ظهر منها قال الثياب والجلباب وعنه قال الزينة زينتان زينة ظاهرة وزينة باطنة لا يراها الا الزوج فاما الزينة الظاهرة فالثياب وأما الزينة الباطنة فالكحل والسوار والخاتم وفي لفظ فالظاهرة منها الثياب وما خفي الخلخالان والقرطان والسواران وعن ابن عباس في الآية قال الكحل والخاتم والقرط والقلادة وعنه قال هو خضاب الكف والخاتم وعن ابن عمر قال الزينة الظاهرة الوجه والكفان وقال ابن عباس الا ما ظهر منها أي وجهها وكفاها والخاتم وعنه قال رقعة الوجه وباطن الكف وعن عائشة انها سئلت عن الزينة الظاهرة فقالت القلب

والفتخ

عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبي وقاص يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اسم الله الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى قال قلت يارسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين قال هي ليونس بن متى خاصة ولجماعة المؤمنين عامة اذا دعوا بها ألم تسمع قول الله عز وجل فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبناله ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين فهو شرط من الله لمن دعاه به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي شريح حدثنا داود بن المحبر بن محذم العرش عن كثير بن معبد قال سألت الحسن فقلت يا أبا سعيد اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى قال ابن أخي أما تقرأ القرآن قول الله تعالى وذا النون اذ ذهب مغاضبا الى قوله وكذلك ننجي المؤمنين ابن أخي هذا اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به أجاب واذا سئل به أعطى

(وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبيا وقد تقدمت القصة مبسوطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضا وههنا أخصر منهما اذ نادى ربه أي خفية عن قومه رب لا تذرني فردا أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس وأنت خير الوارثين دعاء وثناء مناسب للمسئلة قال الله تعالى فاستجبناله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه أي امرأته قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير كانت عاقرا لا تلد فولدت وقال عبد الرحمن بن مهدي عن طلحة بن عمرو عن عطاء كان في لسانها طول فأصلحها الله وفي رواية كان في خلقها شئ فأصلحها الله وهكذا قال محمد بن كعب والسدي والاظهر من السياق الاول وقوله انهم كانوا يسارعون في الخيرات أي في عمل القربات وفعل الطاعات ويدعوننا رغبا ورهبا قال الثوري رغبا فيما عندنا ورهبا مما عندنا وكانوا لنا خاشعين قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي مصدقين بما أنزل الله وقال مجاهد مؤمنين حقا وقال أبو العالية خائفين وقال أبو سنان الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدا وعن مجاهد أيضا خاشعين أي متواضعين وقال الحسن وقتادة والضحاك خاشعين أي متذللين لله عز وجل وكل هذه الاقوال متقاربة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا محمد بن فضيل حدثنا عبد الرحمن ابن اسحق عن عبد الله القرشي عن عبد الله بن حكيم قال خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال أما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله وتثنوا عليه بما هو له أهل وتخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الالحاف بالمسئلة فان الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال

والفتح وضمت طرف كمها وأخرج أبو داود والبيهقي وابن مردويه عن عائشة ان أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعليها ثياب رقاق فاعرض عنها وقال يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الا هذا وأشار الى وجهه وكفه وهذا مرسل لانه من طريق خالد بن دريك عن عائشة ولم يسمع منها وانما رخص في هذا القدر للمرأة أن تبديه من بدنها لان المرأة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن قال الحلي فيجوز نظره أي نظر ما ظهر منها الاجنبي ان لم يخف فتنة في أحد وجهين والثاني يحرم لانه مظنة الفتنة ورجح حسما للباب انتهى أي باب النظر عن تفاصيل الاحوال كالخلوة بالاجنبية (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) الخمر جمع خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها ومنه اختمرت المرأة وتخمرت والجيوب جمع جيب وهو موضع القطع من الدرع والقميص مأخوذ من الجوب وهو القطع وقيل المراد بالجيب هنا محله وهو العنق والا فهو في الاصل طوق القميص وعدى الضرب بعلى لتضمينه معنى الالقاء والباء زائدة أو تبعيضية وقال المفسرون ان نساء الجاهلية كن يسدلن خمرهن من خلفهن وكانت جيوبهن من قدام واسعة فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن فامرن ان يضربن بمقانعهن على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدو منها وفي لفظ الضرب مبالغة في الالقاء الذي هو الالصاق وقرئ خمرهن بتحريك الميم وبكسرها وكثير من متقدمي النحويين لا يجوزون الكسر قال الزجاج يجوز ان تبدل من الضمة كسرة وأما ماروى عن حمزة من الجمع بين الضم والكسرة فمحال لا يقدر الانسان ان يتكلم به الا على الايماء وقد فسر الجمهور الجيوب بما قدمنا وهو المعنى الحقيقي وقال مقاتل ان معنى على جيوبهن على صدورهن فالمضاف محذوف أي على مواضع جيوبهن وقد أخرج البخاري في صحيحه وأبو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم في سننهم عن عائشة قالت

انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام فيذكر أولا قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم لان تلك مربوطة بهذه فانها ايجاد ولد من شيخ كبير قد طعن فى السن ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب فانها ايجاد ولد من انثى بلا ذكر هكذا وقع فى سورة آل عمران وفى سورة مريم وههنا ذكر قصة زكريا ثم اتبعها بقصة مريم بقوله والتى أحصنت فرجها يعنى مريم عليهما السلام كما قال فى سورة التحريم ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وقوله وجعلناها وابنها آية للعالمين أى دلالة على ان الله على كل شئ قدير وانه يخلق ما يشاء وانما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون وهذا كقوله ولنجعله آية للناس قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمرو بن على حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن شعيب يعنى ابن بشير عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله للعالمين قال العالمين الجن والانس (ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله ان هذه أمتكم أمة واحدة يقول دينكم دين واحد وقال الحسن البصرى فى هذه الآية بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال ان هذه أمتكم أمة واحدة أى سنتكم سنة واحدة فقوله ان هذه ان واسمها وأمتكم خبر ان أى هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم وقوله أمة واحدة نصب على الحال ولهذا قال وأنا ربكم فاعبدون كما قال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا الى قوله وأنا ربكم فاتقون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن معشر الانبياء أولاد علات ديننا واحد يعنى ان المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله كما قال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقوله وتقطعوا أمرهم بينهم أى اختلفت الامم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب ولهذا قال كل الينا راجعون أى يوم القيامة فيجازى كلا بحسب عمله ان خيرا فخير وان شرا فشر ولهذا قال فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن أى قلبه مصدق وعمل عملا صالحا فلا كفران لسعيه كقوله انا لا نضيع أجر من أحسن عملا أى لا يكفر سعيه وهو عمله بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ولهذا قال وانا له كاتبون أى يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شئ (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد

رحم الله نساء المهاجرات الاولات لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن أكثف مروطهن فاختمرن به وأخرج الحاكم وصححه وابن جرير وغيرهما عنها بلفظ أخذ النساء أزرهن فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها (ولا يبدين زينتهن) أى مواضع الزينة الباطنة وهى ما عدا الوجه والكفين كالصدر والساق والرأس ونحوها قال الخطيب أى الزينة الخفية التى لم يبح لهن كشفها فى الصلاة ولا للاجانب وقال أبو السعود كرر النهى لاستثناء بعض مواضع الرخصة باعتبار الناظر بعد ما استثنى بعض موارد الضرورة باعتبار المنظورة فقال (الا لبعولتهن) أى لا يبدين الجلباب والخمار الا لازواجهن والبعل هو الزوج والسيد فى كلام العرب وقدم البعول لانهم المقصودون بالزينة ولان كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم ومثله قوله سبحانه والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ثم لما استثنى الله سبحانه الزوج اتبعه باستثناء ذوى المحارم فقال (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى اخواتهن) فيجوز للنساء أن يبدين الزينة الباطنة لهؤلاء لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وعدم خشية الفتنة من قبلهم لما فى الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وقد روى عن الحسن والحسين رضى الله عنهما انهما كانا لا ينظران الى أمهات المؤمنين ذهابا منهما الى ان أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهى قوله لا جناح عليهن فى آبائهن والمراد بأبناء بعولتهن ذكور أولاد الازواج ويدخل فى قوله أو أبنائهن أولاد الاولاد وان سفلوا وأولاد بناتهن وان سفلوا وكذا آباء البعولة وآباء الآباء وآباء الامهات وان علوا وكذلك أبناء البعولة وان سفلوا وكذلك أبناء الاخوة والاخوات وذهب الجمهور الى أن العم والخال كسائر المحارم فى جواز النظر الى ما يجوز لهم وقال الشعبى وعكرمة ليس العم والخال من المحارم قال الكرخى وعدم ذكر الاعمام والاخوال لما ان الاحوط ان يتسترن منهم حذرا
من

الحق فاذاهى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هـذا بل كنا ظالمين) يقول تعالى وحرام على قرية قال ابن عباس وجب يعنى قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا انهـم لا يرجعون الى الدنيا قبل يوم القيامة هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد وفى رواية عن ابن عباس انهم لا يرجعون أى لا يتوبون والقول الاول أظهر والله أعلم وقوله حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج قد قدمنا انهم من سلالة آدم عليه السـلام بل هـم من نسل نوح أيضا من أولاد يافث أى أبى الترك والترك شرذمة منهم تركوا من وراء السـد الذى بناه ذو القرنين وقال هـذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعـله دكاء وكان وعد ربى حقا وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض الآية وقال فى هذه الآية الكريمة حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهـم من كل حدب ينسلون أى يسرعون فى المشى الى الفساد والحدب هو المرتفع من

الارض قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثورى وغيرهم وهذه صفتهم فى حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ولا ينبئك مثل خبير هـذا اخبار عالم ما كان وما يكون الذى يعلم غيب السموات والارض لا اله الا هو وقال ابن جرير حدثنا محمد بن مثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عبد الله بن يزيد قال رأى ابن عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض يلعبون فقال ابن عباس هكذا يخرج يأجوج ومأجوج وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية فالحـديث الاول قال الامام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن ابن اسحق عن عاصم بن عمرو ابن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل وهم من كل حدب ينسلون فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم الى مدائنهم وحصونهم ويضمون اليهم مواشيهم ويشربون مياه الارض حتى ان بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسا حتى ان من بعدهـم ليمر بذلك النهر فيقول قد كان ههنا ماء مرة حتى اذا لم يبق من الناس احـد الا أحد فى حصن أو مدينة قال قائلهم هؤلاء أهل الارض قد فرغنا منهم بقى أهل السماء قال ثم يهز أحدهـم حربته ثم يرمى بها الى السماء فترجع اليه مخضبة دما للبلاء والفتنة فبيناهم على ذلك بعث الله عز وجل دودا فى أعناقهم كنغف الجراد الذى يخرج فى أعناقه فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس فيقول المسلمون ألا رجل يشرى لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو قال فيتجرد رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطنها على انه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادى يا معشر المسلمين ألا أبشروا ان الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فما يكون لها رعى الا لحومهم فتشكر عنه كأحسن

من ان يصفوهن لابنائهـم والمعنى ان سائر القرابات تشترك مع الاب والابن فى المحرمية الا ابنى العم والخال وهـذا من الدلالات البليغة فى وجوب الاحتياط عليهن فى النسب وليس فى الآية ذكر الرضاع وهو كالنسب (أو نسائهن) أى المختصات بهن من جهة الاشتراك فى الايمان الملابسات لهن بالخدمة أو الصحبة ويخرج من ذلك نساء الكفار من أهل الذمة وغيرهم فلا يحل لهن ان يبدين زينتهن لهن لانهن لا يتحرجن عن وصفهن للرجال وفى هذه المسـئلة خلاف بين أهـل العـلم قال ابن عباس هن المسلمات لا تبديها ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما يحرم ان يراه الا محرم وأخرج سعيد ابن منصور والبيهقى وابن المنذر عن عمر بن الخطاب انه كتب الى أبى عبيدة أما بعـد فانه بلغنى ان نساء من نسـاء المؤمنين يدخلن الحمامات مع نساء أهـل الشرك فانه من قبلك عن ذلك فانه لا يحـل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان ينظر الى عورتها الا أهـل ملتها (أو ما ملكت أيمانهن) فيجوز لهم نظرهن الا ما بين السرة والركبة فيحرم نظره لغير الازواج قاله المحلى وظاهر الآية يشمل العبيد والاماء من غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين وبه قال جماعة من أهل العـلم واليه ذهبت عائشة وأم سلمة وابن عباس ومالك وقال سعيد بن المسيب لا تغرنكم هـذه الآية انما عنى بها الاماء ولم يعن بها العبيد وكان الشعبى يكره أن ينظر المملوك الى شعر مولاته وهو قول عطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وروى عن ابن مسعود وبه قال أبو حنيفة وابن جريج وقال ابن عباس لا بأس ان يرى العبد شعر سيدته وأخرج البيهقى وأبو داود وغيرهما عن أنس ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم أتى فاطمة رضى الله تعالى عنها بعبد قد وهب لها وعلى فاطمة ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما تلقى قال انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وهو ظاهر القرآن وأخرج عبد الرزاق وأحمد عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسـلم قال اذا كان لاحداكن مكاتب

ما شكرت عن شيء من النبات أصابه قط ورواه ابن ماجه من حديث يونس بن بكير عن ابن اسحق به * الحديث الثاني قال الامام
أحمد أيضا حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص
حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه انه سمع النواس بن سمعان الكلابي قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم
الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل فقال غير الدجال أخوفني عليكم فان يخرج وأنا فيكم فانا حجيجه دونكم
وان يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم وانه شاب جعد قطط عينه طافية وانه يخرج خلة
بين الشام والعراق فعاث يمينا وشمالا يا عباد الله اثبتوا قلنا يا رسول الله ما لبثه في الارض قال أربعين يوما يوم كسنة ويوم كشهر
ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة قال
لا اقدروا له قدره قلنا يا رسول الله
فما أسرعه في الارض قال كالغيث
استدبرته الريح قال فيمر بالحي
فيدعوهم فيستجيبون له فيأمر
السماء فتمطر والارض فتنبت
وتروح عليهم سارحتهم وهي
اطول ما كانت ذرا وامده خواصر
وأسبغه ضروعا ويمر بالحي
فيدعوهم فيردون عليه قوله فتتبعه
أموالهم فيصبحون ممحلين ليس
لهم من أموالهم شيء ويمر بالخربة
فيقول لها اخرجي كنوزك فتتبعه
كنوزها كيعاسيب النحل قال
ويأمر برجل فيقتل فيضربه
بالسيف فيقطعه جزلتين رمية
الغرض ثم يدعوه فيقبل اليه
فبينما هم على ذلك اذ بعث الله عز
وجل المسيح بن مريم فينزل عند
المنارة البيضاء شرقي دمشق بين
مهرودتين واضعا يديه على أجنحة
ملكين فيتبعه فيدركه فيقتله
عند باب لد الشرقي قال فبينما هم
كذلك اذ أوحى الله عز وجل الى عيسى بن مريم عليه السلام اني قد اخرجت
عبادا من عبادي لا يدان لك بقتالهم فحرز عبادي الى الطور فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج كما قال تعالى وهم من كل
حدب ينسلون فيرغب عيسى وأصحابه الى الله عز وجل فيرسل عليهم نغفا في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة فيهبط
عيسى وأصحابه فلا يجدون في الارض بيتا الا قد ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب عيسى وأصحابه الى الله عز وجل فيرسل عليهم طيرا
كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله قال ابن جابر فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب او غيره قال فتطرحهم
بالمهبل قال جابر فقلت يا ابا يزيد واين المهبل قال مطلع الشمس قال ويرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوما
فيغسل الارض حتى يتركها كالزلفة ويقال للارض انبتي ثمرك ودري بركتك قال فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون

وكان له ما يؤدي فلا تحتجب منه قال سليمان الجمل عن شيخه فيجوز لهن ان يكشفن لهم
ما عدا ما بين السرة والركبة ويجوز للعبيد أيضا ان ينظروا اليه وان يكشفوا لهن من
أبدانهم ما عدا ما بين السرة والركبة لكن بشرط العفة وعدم الشهوة من الجانبين
(أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال) أصل الاربة والارب والمأربة الحاجة والجمع
مآرب أي حوائج ومنه قوله سبحانه ولي فيها مآرب أخرى قيل المراد بغير أولي الاربة من
الرجال الحمقاء الذين لا حاجة لهم في النساء وقيل البله وقيل العنين وقيل الخصي وقيل
المخنث وقيل الشيخ الكبير وقيل هو المجبوب ولا وجه لهذا التخصيص بل المجبوب الذي
بقي أنثياه والخصي الذي بقي ذكره والعنين والمخنث وهو المتشبه بالنساء والشيخ الهرم
كالفحل كذا أطلق الاكثرون وقال في الشامل لا يحصل للخصي النظر الى ان يكبر ويهرم
وتذهب شهوته وكذا المخنث وبه قال شيخه القاضي أبو الطيب وأطلق أبو مخلد البصري
في الخصي والمخنث وجهين والمراد بالآية ظاهرها وهم من يتبع أهل البيت في فضول
الطعام ولا حاجة له في النساء ولا يحصل منه ذلك في حال من الاحوال فيدخل في هؤلاء من
هو بهذه الصفة ويخرج من عداه قال ابن عباس في الآية هذا الذي لا تستحي منه النساء
وعنه قال هذا الرجل يتبع القوم وهو مغفل في عقله لا يكترث للنساء ولا يشتهي النساء
وعنه قال كان الرجل يتبع الرجل في الزمان الاول لا يغار عليه ولا ترهب المرأة ان تضع
خمارها عنده وهو الاحمق الذي لا حاجة له في النساء وعنه قال هو المخنث الذي لا يقوم
زبه وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم عن عائشة قالت كان رجل يدخل
على أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخنث فكانوا يعدونه من غير أولي الاربة فدخل
النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوما وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال اذا أقبلت
أقبلت بأربع واذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأرى هذا
يعرف ما ههنا لا يدخلن عليكم فحجبوه (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء)

الطفل

بقحفها ويبارك في الرسل حتى ان اللقحة من الابل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفي الفخذ والشاة من الغنم تكفي اهل البيت قال فبيناهم على ذلك اذ بعث الله عز وجل ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم او قال مؤمن ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة انفرد باخراجه مسلم دون البخاري فرواه مع بقية اهل السنن من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به وقال الترمذي حسن صحيح * الحديث الثالث قال الامام أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو عن ابن حرملة عن خالته قالت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عاصب اصبعه من لدغة عقرب فقال انكم تقولون لا عدو لكم وانكم لا تزالون تقاتلون عدوا حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون صهب الشعاف من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة وكذا روى ابن أبي حاتم من حديث (٣٠٣) محمد بن عمرو عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي عن خالة له عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره مثله سواء * الحديث الرابع قد تقدم في آخر تفسير سورة الاعراف من رواية الامام أحمد عن هشيم عن العوام عن جبلة بن سحيم عن مرثد بن عفان عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقيت ليلة أسري بي ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام قال فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم الى ابراهيم فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم الى موسى فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم الى عيسى فقال اما وجبتها فلا يعلم بها أحد الا الله وفيما عهد الى ربي ان الدجال خارج ومعي قضيبان فاذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله اذا رآني حتى ان الحجر والشجر يقول يا مسلم ان تحتي كافرا فتعال فاقتله قال فيهلكهم الله ويرجع الناس الى بلادهم وأوطانهم قال فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤن بلادهم لا يأتون على شيء الا أهلكوه ولا يمرون على ماء الا شربوه قال ثم يرجع الناس الى أوطانهم يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الارض من نتن ريحهم وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ففيما عهد الى ربي ان ذلك اذا كان كذلك ان الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهارا ورواه ابن ماجه عن محمد بن بشار عن يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب به بنحوه وزاد قال العوام ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ورواه ابن جرير ههنا من حديث ابن جبلة به والاحاديث في هذا كثيرة جدا والآثار عن السلف كذلك وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث معمر عن غير واحد عن حميد بن هلال عن أبي الصيف قال قال كعب اذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج

الطفل يطلق على المفرد والمثنى والمجموع أو المراد به هنا الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع وفي مصحف أبي أو الاطفال على الجمع قاله ابن قتيبة قيل معناه لم يبلغوا حد الشهوة قاله الفراء والزجاج يقال ظهرت على كذا اذا غلبته وقهرته والمعنى لم يطلعوا على عورات النساء ويكشفوا عنها للجماع أو لم يبلغوا حد الشهوة للجماع وقيل لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر وقيل لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء من ظهر على فلان اذا قوي عليه وقيل لم يحتلم قرأ الجمهور عورات بسكون الواو تخفيفا لحرف العلة وهي لغة جمهور العرب وعامتها وقرئ بفتحها وهي لغة هذيل بن مدركة والعورات جمع عورة وهي ما يريد الانسان ستره من بدنه وغلب في السوأتين واختلف العلماء في وجوب ستر ما عدا الوجه والكفين من الاطفال فقيل لا يلزم لانه لا تكليف عليه وهو الصحيح وقيل يلزم لانها قد تشتهي المرأة وهكذا الاختلاف في عورة الشيخ الكبير الذي قد سقطت شهوته والاولى بقاء الحرمة كما كانت فلا يحل النظر الى عورته ولا يحل له ان يكشفها وقد اختلف العلماء في حد العورة قال القرطبي أجمع المسلمون على ان السوأتين عورة من الرجل والمرأة وان المرأة كلها عورة الا وجهها ويديها على خلاف في ذلك وقال الاكثر ان عورة الرجل من سرته الى ركبتيه قال ابن عباس الزينة التي تبديها لهؤلاء قرطها وقلادتها وسوارها فاما خلخالها ومعضدها ونحرها وشعرها فانها لا تبديها الا لزوجها ومجموع هذه المستثنيات اثنا عشر نوعا (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) أي لا تضرب المرأة برجلها اذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمون انها ذات خلخال فان ذلك مما يورث الرجال ميلا اليهن ويوهم ان لهن ميلا الى الرجال وهذا سد لباب المحرمات وتعليم للاحوط والا فصوت النساء ليس بعورة عند الشافعي فضلا عن صوت خلخالهن وقال الزجاج وسماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من ابدائها قال ابن عباس في الآية وهو ان تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال أو تكون في رجلها خلاخل فتحركهن عند

حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم فاذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجيء غدا فنخرج فيعيده الله كما كان فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم فاذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجيء غدا فنخرج ان شاء الله فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه فيحفرون حتى يخرجوا فتمر الزمرة الاولى بالبحيرة فيشربون ماءها ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون قد كان ههنا مرة ماء فيفر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء ثم يرمون بسهامهم الى السماء فترجع اليهم مخضبة بالدماء فيقولون غلبنا أهل الارض وأهل السماء فيدعو عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول اللهم لا طاقة ولا يدلنا بهم فاكفناهم بما شئت فيسلط الله عليهم دودا يقال له النغف فيفرس رقابهم ويبعث الله عليهم طيرا تأخذهم بمناقيرها (٣٠٤) فتلقيهم في البحر ويبعث الله عينا يقال لها الحياة يطهر الله الارض وينبتها حتى ان الرمانة ليشبع منها السكن قيل وما السكن يا كعب قال أهل البيت قال فبينما الناس كذلك اذ أتاهم الصريخ ان ذا السويقتين يريده قال فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة أو بين السبعمائة والثمانمائة حتى اذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة فيقبض فيها روح كل مؤمن ثم يبقى عجاج الناس فيتسافدون كما تتسافد البهائم فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه متى تضع قال كعب فمن قال بعد قولي هذا شيأ أو بعد علي هذا شيأ فهو المتكلف وهذا من أحسن سياقات كعب الاحبار لما شهد له من صحيح الاخبار وقد ثبت في الحديث أن عيسى بن مريم يحج البيت العتيق وقال الامام أحمد حدثنا سليمان بن داود حدثنا عمران عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج انفرد باخراجه البخاري وقوله واقترب الوعد الحق يعني يوم القيامة اذا حصلت هذه الاهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت فاذا كانت ووقعت قال الكافرون هذا يوم عسر ولهذا قال تعالى فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا أي من شدة ما يشاهدونه من الامور العظام يا ويلنا أي يقولون يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا أي في الدنيا بل كنا ظالمين يعترفون بظلمهم لانفسهم حيث لا ينفعهم ذلك

(انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) يقول تعالى مخاطبا لاهل مكة من مشركي قريش

الرجال فنهى الله عن ذلك لانه من عمل الشيطان وسماع صوت الزينة كاظهارها ومنه سمي صوت الحلي وسواسا فنبه به على ان الذي لاجله نهى عنه ان يعلم به ما عليهن من الحلي وغيره وفي القرطبي من فعل ذلك منهن فرحا بحليهن فهو مكروه ومن فعل ذلك منهن تبرجا وتعرضا للرجال فهو حرام مذموم وكذلك من ضرب بنعله الارض من الرجال ان فعل ذلك عجبا حرم فان العجب كبيرة وان فعل ذلك تبرجا لم يحرم انتهى ثم أرشد سبحانه عباده الى التوبة عن المعاصي فقال (وتوبوا الى الله جميعا أيه المؤمنون) مما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره وفيه الامر بالتوبة ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها وانها فرض من فرائض الدين قيل العبد لا يخلو عن سهو وتقصير في أوامره ونواهيه وان اجتهد فلذا أوصاهم جميعا بالتوبة وقد تقدم الكلام على التوبة في سورة النساء وقيل ان المراد بالتوبة هنا هي عما كانوا يعملونه في الجاهلية والاول أولى لما تقرر في السنة ان الاسلام يجب ما قبله وقد ورد أحاديث في الامر بالتوبة والاستكثار منها قيل وأحوج الناس الى التوبة من توهم انه ليس له حاجة الى التوبة وظاهر الآية يدل على ان العصيان لا ينافي الايمان ثم ذكر ما رغبهم في التوبة فقال (لعلكم تفلحون) أي تفوزون بسعادة الدنيا والآخرة أو تنجون من ذلك لقبول التوبة منه وفي الآية تغليب الذكور على الاناث ولما أمر سبحانه بغض الابصار وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك الى ما يحل للعباد من النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة وسكون دواعي الزنا ويسهل بعده غض البصر عن جميع المحرمات وحفظ الفرج عما لا يحل فقال (وأنكحوا الايامى منكم) الايم بالتشديد التي لا زوج لها ومن ليس له زوجة فيشمل الرجل والمرأة الغير المتزوجين والجمع أيامى والاصل أيايم قال أبو عمرو والكسائي اتفق أهل اللغة على ان الايم في الاصل هي المرأة التي لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا قال أبو عبيد يقال رجل أيم وامرأة أيم وأكثر ما يكون في النساء وهو كالمستعار في الرجال والخطاب في الآية للاولياء والسادة وقيل

للازواج

ومن دان بدينهم من عبدة الاصنام والاوثان انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال ابن عباس أى وقودها يعنى كقوله وقودها الناس والحجارة وقال ابن عباس أيضا حصب جهنم يعنى شجر جهنم وفى رواية قال حصب جهنم يعنى حطب جهنم بالزنجية وقال مجاهد وعكرمة وقتادة حطبها وهى كذلك فى قراءة على وعائشة رضى الله عنهما وقال الضحاك حصب جهنم أى ما يرمى به فيها وكذا قال غيره والجميع قريب وقوله أنتم لها واردون أى داخلون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها يعنى لو كانت هذه الاصنام والانداد التى اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها وكل فيها خالدون أى العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون لهم فيها زفير كما قال تعالى لهم فيها زفير وشهيق والزفير خروج أنفاسهم والشهيق ولوج أنفاسهم وهم فيها لا يسمعون قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا ابن فضيل حدثنا عبد الرحمن يعنى المسعودى عن أبيه قال قال ابن مسعود اذا بقى من يخلد فى النار جعلوا فى توابيت من نار فيها مسامير من نار فلا يرى أحد منهم انه يعذب فى النار غيره ثم تلا عبد الله لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ورواه ابن جرير من حديث حجاج ابن محمد عن المسعودى عن يونس ابن حبان عن ابن مسعود فذكره وقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى قال عكرمة الرحمة وقال غيره السعادة أولئك عنها مبعدون لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الاعمال الصالحة فى الدنيا كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وقال هل جزاء الاحسان الا الاحسان فكما أحسنوا العمل فى الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب فقال أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها أى حريقها فى الاجساد وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن عمار حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن أبيه عن أبى عثمان الجويرى (٣) عن أبى عثمان لا يسمعون حسيسها قال حيات على الصراط تلسعهم فاذا لسعتهم قال حس حس وقوله وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون فسلمهم من المحذور والمرهوب وحصل لهم المطلوب والمحبوب قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى شريح حدثنا محمد بن الحسن بن أبى يزيد الهمدانى عن ليث بن أبى سليم عن ابن عم النعمان بن بشير قال وسمر مع على ذات ليلة فقرأ ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون قال أنا منهم وعمر منهم وعثمان منهم والزبير منهم وطلحة منهم وعبد الرحمن منهم أو قال سعد منهم قال وأقيمت الصلاة فقام وأظنه يجر ثوبه وهو يقول لا يسمعون حسيسها وقال شعبة عن أبى بشر عن يوسف المكى وعن محمد بن حاطب

للازواج والاول أرجح وفيه دليل على ان المرأة لا تنكح نفسها عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال أيما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذى وعندهما عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا نكاح الا بولى وقد خالف فى ذلك أبو حنيفة فجوز للمرأة تزويج نفسها واختلف أهل العلم فى هذا النكاح هل هو مباح أو مستحب أو واجب فذهب الى الاول الشافعى وغيره والى الثانى مالك وأبو حنيفة والى الثالث بعض أهل العلم على تفصيل لهم فى ذلك فقالوا ان خشى على نفسه الوقوع فى المعصية وجب عليه والا فلا والظاهر ان القائلين بالاباحة والاستحباب لا يخالفون فى الوجوب مع تلك الخشية وبالجملة فهو مع عدمها سنة من السنن المؤكدة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث الصحيح بعد ترغيبه فى النكاح ومن رغب عن سنتى فليس منى ولكن مع القدرة عليه وعلى مؤنه وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء أخرجه البخارى ومسلم قال ابن عباس أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه وأمرهم ان يزوجوا احرارهم وعبيدهم ووعدهم فى ذلك الغنى كما سيأتى وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى وعن قتادة قال ذكر لنا ان عمر بن الخطاب قال ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى فى الباءة وقد وعد الله فيها ما وعد فقال ان يكونوا فقراء الآية وعن ابن مسعود نحوه وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انكحوا النساء فانهن يأتينكم بالمال أخرجه البزار والدارقطنى وأخرجه أبو داود فى مراسيله عن عروة مرفوعا وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الاداء والغازى فى سبيل الله وقد ورد فى الترغيب فى مطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا

(٣) قوله عن أبى عثمان الجويرى عن أبى عثمان الخ هكذا فى الاصل وحرر اهـ

قال سمعت عليا يقول في قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى قال عثمان وأصحابه ورواه ابن أبي حاتم أيضا ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد وليس بابن ماهك عن محمد بن حاطب عن علي فذكره ولفظه عثمان منهم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون فاولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرا هو أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثيا فهذا مطابق لما ذكرناه وقال آخرون بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزير والمسيح كما قال حجاج ابن محمد الاعور عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ثم استثنى فقال ان الذين سبقت لهم منا الحسنى فيقال هم الملائكة وعيسى ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج وقال

الضحاك عن ابن عباس في قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى قال نزلت في عيسى بن مريم وعزير عليهما السلام وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة حدثنا أبو زهير حدثنا سعد ابن طريف عن الاصبغ عن علي في قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى قال كل شيء يعبد من دون الله في النار الا الشمس والقمر وعيسى بن مريم اسناده ضعيف وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد أولئك عنها مبعدون قال عيسى وعزير والملائكة وقال الضحاك عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبي صالح وغير واحد وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثا غريبا جدا فقال حدثنا الفضل بن يعقوب الرخامي حدثنا سعد بن مسلمة بن عبد الملك حدثنا الليث بن أبي سليم عن مغيث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون قال عيسى وعزير والملائكة وذكر بعضهم قصة ابن الزبعرى ومناظرة المشركين قال أبو بكر ذكر ابن مردويه حدثنا محمد بن علي حدثنا سهل حدثنا محمد بن حسن الانماطي حدثنا ابراهيم بن محمد بن عروة حدثنا يزيد بن أبي حكيم حدثنا الحكم يعني ابن ابان عن عكرمة عن ابن عباس قال جاء عبد الله بن الزبعرى الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تزعم ان الله أنزل عليك هذه الآية انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون قال ابن الزبعرى قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى بن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا فنزلت ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ثم نزلت ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه الاحاديث المختارة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان يعني الثوري

موضع ذكرها والمراد بالأيامى هنا الأحرار والحرائر وأما المماليك فقد بين ذلك بقوله (والصالحين من عبادكم وامائكم) وقرئ عبيدكم والصلاح هو الايمان وقيل القيام بحقوق النكاح حتى يقوم العبد بما يلزم لها وتقوم الامة بما يلزم للزوج أو المراد بالصلاح ان لا تكون صغيرة لا تحتاج الى النكاح وخص الصالحين بالذكر ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم ولان الصالحين منهم هم الذين مواليهم يشفقون عليهم وينزلونهم منزلة الاولاد في المودة وكانوا مظنة التوصية والاهتمام بهم ومن ليس بصالح فحاله على العكس من ذلك وذكر سبحانه الصلاح في المماليك دون الاحرار لان الغالب في الاحرار الصلاح بخلاف المماليك وفيه دليل على ان المملوك لا يزوج نفسه وانما يزوجه ويتولى تزويجه مالكه وسيده وقد ذهب الجمهور الى انه يجوز للسيد ان يكره عبده وامته على النكاح وقال مالك لا يجوز ثم رجع سبحانه الى الكلام في الاحرار فقال (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) أي لا تمتنعوا من تزويج الاحرار بسبب فقر الرجل والمرأة أو احدهما فانهم ان يكونوا فقراء يغنهم الله سبحانه ويتفضل عليهم بذلك فان في فضل الله غنية عن المال فانه غاد ورائح قال الزجاج حث الله على النكاح وأعلم انه سبب لنفي الفقر ولا يلزم أن يكون هذا حاصلا لكل فقير اذا تزوج فان ذلك مقيد بالمشيئة وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى اذا تزوجوا وقيل المعنى انه يغنيهم بغنى النفس أي القناعة وقيل المعنى ان يكونوا فقراء الى النكاح يغنهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا والوجه الاول اولى ويدل عليه قوله سبحانه وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء فيحمل المطلق هنا على المقيد هناك وقيل هو اجتماع الرزقين رزق الزوج والزوجة وقيل ان الله وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق وهو قوله وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وجملة (والله واسع عليم) مقررة لما قبلها ومؤكدة والمراد انه سبحانه ذو سعة لا ينقص من سعة ملكه غنى من يغنيه من عباده عليم بمصالح خلقه يغني من يشاء ويفقر من يشاء ثم

عن الاعمش عن أصحابه عن ابن عباس قال لما نزلت انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون قال المشركون فالملائكة وعزير وعيسى يعبدون من دون الله فنزلت لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها التى يعبدون الآلهة وكل فيها خالدون وروى عن ابى كدينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل ذلك وقال فنزلت ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون وقال محمد بن اسحق بن يسار رحمه الله فى كتاب السيرة وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد فجاء النضر بن الحرث حتى جلس معهم وفى المسجد غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه وتلا عليه وعليهم انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون الى قوله وهم فيها لا يسمعون ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم واقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس معهم فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى والله ما قام النضر بن الحرث لابن عبد المطلب آنفا ولا قعد وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم فقال عبد الله بن الزبعرى أما والله لو وجدته لخصمته فسلوا محمدا كل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كل من أحب ان يعبد من دون الله فهو مع من عبده انهم انما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته وأنزل الله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون أى عيسى وعزير ومن عبدوا من الاحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله ونزل فيما يذكرون انهم يعبدون الملائكة وانهم بنات الله وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون الى قوله ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وانه يعبد من دون الله وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الارض يخلفون وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها أى ما وضعت على يديه من الآيات من احياء الموتى وابراء الاسقام فكفى به دليلا على علم الساعة يقول فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم وهذا الذي قاله ابن

ذكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز مناكحتهم ارشادا لهم الى ما هو الاولى فقال (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) يقال استعف اذا طلب أن يكون عفيفا أى ليطلب العفة عن الزنا والحرام من لا يجد سبب نكاح وهو المال وقيل النكاح هنا ما ينكح به المرأة من المهر والنفقة كاللحاف اسم لما يلتحف به واللباس اسم لما يلبس قال ابن عباس ليتزوج من لا يجد فان الله سيغنيه وقيد سبحانه هذا النهى بتلك الغاية وهى (حتى يغنيهم الله من فضله) أى يرزقهم رزقا يستغنون به ويتمكنون بسببه من النكاح وفى هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الاولى وهى ان يكونوا فقراء يغنهم الله بالمشيئة كما ذكرنا فانه لو كان وعدا حتما لا محالة فى حصوله لكان الغنى والزواج متلازمين وحينئذ لا يكون للامر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة فانه يستغنى عند تزوجه لا محالة فيكون فى تزوجه مع فقره تحصيل للغنى الا أن يقال ان الامر بالاستعفاف للعاجز عن تحصيل مبادى النكاح ولا ينافى ذلك وقوع الغنى له من بعد ان ينكح فانه قد صدق عليه انه لم يجد نكاحا اذا كان غير واجد لاسبابه التى يتحصل بها واعظمها المال وانظر كيف رتب هذه الاوامر فامر أولا بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر ثم بالنكاح المحصن للدين المغنى عن الحرام ثم بعزة النفس الامارة بالسوء عن الطموح الى الشهوة عند العجز عن النكاح الى ان يقدر عليه ثم لما رغب سبحانه فى تزويج الصالحين من العبيد والاماء ارشد المالكين الى طريقة يصير بها المملوك من جملة الاحرار فقال (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم) من العبيد والاماء والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة يقال كاتب يكاتب كتابا ومكاتبة كما يقال قاتل يقاتل قتالا ومقاتلة وقيل الكتاب ههنا اسم عين للكتاب الذى يكتب فيه الشئ وذلك لانهم كانوا اذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا فيكون المعنى الذين يطلبون كتاب المكاتبة ومعناها فى الشرع ان يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجما فاذا أداه فهو حر عن عبد الله بن

الزبعرى خطأ كبيرا لان الآية انما نزلت خطابا لاهل مكة في عبادتهم الاصنام التي هي جماد لا تعقل ليكون ذلك تقريعا وتوبيخا لعابديها ولهذا قال انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على ان ما لما لا يعقل عند العرب وقد أسلم عبد الله بن الزبعرى بعد ذلك وكان من الشعراء المشهورين وقد كان يهاجي المسلمين أولا ثم قال معتذرا يا رسول المليك ان لساني * راتق ما فتقت اذ أنا بور اذ أجاري الشيطان في سنن الغي ومن مال ميله مثبور وقوله لا يحزنهم الفزع الاكبر قيل المراد بذلك الموت رواه عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء وقيل المراد بالفزع الاكبر النفخة في الصور قاله العوفي عن ابن عباس وابو سنان سعيد بن سنان الشيباني واختاره ابن جرير في تفسيره وقيل حين يؤمر (٣٠٨) بالعبد الى النار قاله الحسن البصري وقيل حين تطبق النار على أهلها قاله سعيد بن جبير وابن جريج وقيل حين يذبح الموت بين الجنة والنار قاله أبو بكر الهذلي فيما رواه ابن أبي حاتم عنه وقوله وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم اذا خرجوا من قبورهم هذا يومكم الذي كنتم توعدون أي فأملوا ما يسركم (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين) يقول تعالى هذا كائن يوم القيامة يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما قال تعالى وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون وقد قال البخاري حدثنا مقدم بن محمد حدثني عمي القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله يقبض يوم القيامة الارضين وتكون السموات بيمينه انفرد به من هذا الوجه البخاري رحمه الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن احمد بن الحجاج الرقي حدثنا محمد بن سلمة عن أبي الواصل عن أبي المليح الازدي عن أبي الجوزاء الازدي عن ابن عباس قال يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والارضين السبع بما فيها من الخليقة يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة وقوله كطي السجل للكتب قيل المراد بالسجل الكتاب وقيل المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء حدثنا يحيى بن يمان حدثنا أبو الوفاء الاشجعي عن أبيه عن ابن عمر في قوله تعالى يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب قال السجل ملك فاذا صعد بالاستغفار قال اكتبها نورا وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن ابن يمان به قال ابن أبي حاتم وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن

صبيح عن أبيه قال كنت مملوكا لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة فأبى فنزلت هذه الآية وظاهر قوله (فكاتبوهم) ان العبد اذا طلب الكتابة من سيده وجب عليه أن يكاتبه بالشرط المذكور بعده وهو (ان علمتم فيهم خيرا) الخير هو القدرة على اداء ما كوتب عليه وان لم يكن له مال وقيل هو المال فقط كما ذهب اليه مجاهد والحسن وعطاء والضحاك وطاوس ومقاتل وروي عن علي وابن عباس وعنه أيضا امانة ووفاء وعنه قال ان علمت مكاتبك يقضيك وعنه قال حيلة ولا تلقوا مؤنتهم على المسلمين وذهب الى الاول ابن عمر وابن زيد واختاره مالك والشافعي والفراء والزجاج قال الفراء يقول ان رجوتم عندهم وفاء وتأدية للمال وقال الزجاج لما قال فيهم كان الاظهر الاكتساب والوفاء واداء الامانة وقال النخعي ان الخير الدين والامانة وروي مثل هذا عن الحسن وقال عبيدة السلماني اقامة الصلاة قال الطحاوي وأقول من قال انه المال لا يصح عندنا لان العبد مال لمولاه فكيف يكون له مال قال والمعنى عندنا ان علمتم فيهم الدين والصدق قال أبو عمرو بن عبد البر من لم يقل ان الخير هنا المال انكر ان يقال ان علمتم فيهم مالا وانما يقال علمت فيه الخير والصلاح والامانة ولا يقال علمت فيه المال هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم في الخير المذكور في هذه الآية واذا تقرر لك هذا فاعلم انه قد ذهب الى ظاهر ما يقتضيه الامر المذكور في الآية من الوجوب عكرمة وعطاء ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك وأهل الظاهر فقالوا يجب على السيد ان يكاتب مملوكه اذا طلب منه ذلك وعلم فيه خيرا وقال الجمهور من أهل العلم لا يجب ذلك وتمسكوا بالاجماع على انه لو سأل العبد سيده ان يبيعه من غيره لم يجب عليه ذلك ولم يجبر عليه فكذا الكتابة لانها معاوضة ولا يخفاك ان هذه حجة واهية وشبهة داحضة والحق ما قاله الاولون وبه قال عمر وابن عباس واختار ابن جرير عن أنس بن مالك قال سألني سيرين المكاتبة فأبيت عليه فأتى عمر بن الخطاب فأقبل علي بالدرة وقال كاتبه وتلا فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا فكاتبته قال ابن

كثير

الحسن ان السجل ملك وقال السدى فى هذه الآية السجل ملك موكل بالصحف فاذا مات الانسان رفع كتابه الى السجل فطواه ورفعه الى يوم القيامة وقيل المراد به اسم رجل صحابى كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم الوحى قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا نصر بن على الجهضمى حدثنا نوح بن قيس عن عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب قال السجل هو الرجل قال نوح وأخبرنى يزيد بن كعب هو المعوذى عن عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال السجل كاتب للنبى صلى الله عليه وسلم وهكذا رواه أبو داود والنسائى كلاهما عن قتيبة بن سعيد عن نوح بن قيس عن يزيد بن كعب عن عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال السجل كاتب للنبى صلى الله عليه وسلم ورواه ابن جرير عن نصر بن على الجهضمى كما تقدم ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النكرى عن أبيه (٣٠٩) عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كاتب يسمى السجل وهو قوله يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب قال كما يطوى السجل الكتاب كذلك تطوى السماء ثم قال وهو غير محفوظ وقال الخطيب البغدادى فى تاريخه أنبأنا أبو بكر البرقانى أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجى أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخى أن حمدان بن سعيد حدثهم عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال السجل كاتب للنبى صلى الله عليه وسلم وهذا منكر جدا من حديث نافع عن ابن عمر لا يصح أصلا وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبى داود وغيره لا يصح أيضا وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه وان كان فى سنن أبى داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزى فسح الله فى عمره ونسأ فى أجله وختم له بصالح عمله وقد أفردت لهذا الحديث جزأ على حدته ولله الحمد وقد تصدى الامام أبو جعفر ابن جرير للانكار على هذا الحديث ورده أتم رد وقال لا يعرف فى الصحابة أحد اسمه السجل وكتاب النبى صلى الله عليه وسلم معروفون وليس فيهم أحد اسمه السجل وصدق رحمه الله فى ذلك وهو من أقوى الادلة على نكارة هذا الحديث وأما من ذكره فى اسماء الصحابة فانما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم والصحيح عن ابن عباس ان السجل هى الصحيفة قاله على بن أبى طلحة والعوفى عنه ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير لانه المعروف فى اللغة فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب أى على الكتاب بمعنى المكتوب كقوله فلما أسلما وتله للجبين أى على الجبين وله نظائر فى اللغة والله أعلم وقوله كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين يعنى هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقا جديدا كما بدأهم هو القادر على اعادتهم وذلك واجب الوقوع لانه من جملة وعد الله الذى لا يخلف ولا يبدل وهو القادر على ذلك ولهذا قال انا كنا فاعلين وقال الامام حدثنا وكيع وابو جعفر

كثير ان اسناده صحيح وعن يحيى بن كثير قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان علمتم فيهم حرفة ولا ترسلوهم كلا على الناس أخرجه أبو داود فى المراسيل والبيهقى فى سننه ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعى وجوزها أبو حنيفة الى نجم واحد وقيل ان الامر مطلق فيجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم ثم أمر سبحانه الموالى بالاحسان الى المكاتبين فقال (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) ففى هذه الآية الامر للمالكين باعانة المكاتبين على مال الكتابة اما بان يعطوهم شيأ من المال أو بان يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار وقيل الثلث وقيل الربع وقيل العشر ولعل وجه تخصيص الموالى بهذا الامر هو كون الكلام فيهم وسياق الكلام معهم فانهم هم المأمورون بالكتابة وقال الحسن والنخعى وبريدة ان الخطاب بقوله وآتوهم لجميع الناس وقال زيد بن أسلم ان الخطاب للولاة بان يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم كما فى قوله سبحانه وفى الرقاب وللمكاتب أحكام معروفة اذا وفى ببعض مال الكتابة قال ابن عباس أى ضعوا عنهم من مكاتبتهم وعن نافع قال كان ابن عمر يكره ان يكاتب عبده اذا لم تكن له حرفة ويقول تطعمنى من أوساخ الناس وعن ابن عباس فى الآية قال أمر الله المؤمنين ان يعينوا فى الرقاب وعن على بن أبى طالب أمر الله السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه وهذا تعليم من الله ليس بفريضة ولكن فيه أجرا وقال صاحب الجمل ان الامر للوجوب وعن بريدة فى الآية قال حث الناس على ان يعطوه ثم انه سبحانه لما أرشد الموالى الى نكاح الصالحين من المماليك نهى المسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من اكراه امائهم على الزنا فقال (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) المراد بالفتيات هنا الاماء وان كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الاحرار فى مواضع أخر والفتى الشاب والفتاة الشابة والبغاء بالكسر والمد مصدر بغت المرأة تبغى بغاء اذا زنت وفجرت وهذا مختص بزنا النساء فلا يقال للرجل اذا زنى انه بغى قاله الازهرى والجمع البغايا والبغى القينة وان كانت

وعفان المعنى قالوا حدثنا شعبة عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة فقال انكم محشورون الى الله عز وجل حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين وذكر تمام الحديث اخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة ذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه وقد روى ليث بن ابي سليم عن مجاهد عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ذلك وقال العوفي عن ابن عباس في قوله كما بدأنا اول خلق نعيده قال يهلك كل شئ كما كان أول مرة (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون ان في هذا البلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الارض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى ان الارض لله يورثها من يشاء (٣١٠) من عباده والعاقبة للمتقين وقال انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وأخبر تعالى ان هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة ولهذا قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر قال الاعمش سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر فقال الزبور التوراة والانجيل والقرآن وقال مجاهد الزبور الكتاب وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد الزبور الذى انزل على داود والذكر التوراة وعن ابن عباس الذكر القرآن وقال سعيد بن جبير الذكر الذى في السماء وقال مجاهد الزبور الكتب بعد الذكر والذكر أم الكتاب عند الله واختار ذلك ابن جرير رحمه الله وكذا قال زيد ابن أسلم هو الكتاب الاول وقال الثوري هو اللوح المحفوظ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقد الزبور الكتب التى أنزلت على الانبياء والذكر أم الكتاب الذى يكتب فيه الاشياء قبل ذلك وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس اخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل ان تكون السموات والارض ان يورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم الارض ويدخلهم الجنة وهم الصالحون وقال مجاهد عن ابن عباس ان الارض يرثها عبادي الصالحون قال أرض الجنة وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدى وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري وقال أبو الدرداء نحن الصالحون وقال السدى هم المؤمنون وقوله ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين أي ان في هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم لبلاغا لمنفعة وكفاية لقوم عابدين وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات

حقيقة لثبوت الفجور لها في الاصل قاله الجوهري ولا يراد به الشتم لانه اسم جعل كاللقب والامة تباغي أي تزاني وشرط الله سبحانه هذا النهي بقوله (ان أردن تحصنا) لان الاكراه لا يتصور ولا يكون الا عند ارادتهن للتحصن فان من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال انها مكرهة على الزنا والمراد بالتحصن هنا التعفف والتزوج وقيل ان هذا القيد راجع الى الايامى قال الزجاج والحسين بن الفضل في الكلام تقديم وتأخير أي وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان أردن تحصنا وقيل ان هذا الشرط ملغى وقيل ان هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه فانهم كانوا يكرهونهن وهن يردن التعفف وليس لتخصيص النهي بصورة ارادتهن التعفف عن الزنا وقيل ان هذا الشرط خرج مخرج الغالب لان الغالب ان الاكراه لا يكون الا عند ارادة التحصن فلا يلزم منه جواز الاكراه عند عدم ارادة التحصن وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه فان الامة قد تكون غير مريدة للحلال ولا للحرام كما فيمن لا رغبة لها في النكاح والصغيرة فتوصف بانها مكرهة على الزنا مع عدم ارادتها للتحصن فلا يتم ما قيل من انه لا يتصور الاكراه الا عند ارادة التحصن الا أن يقال ان المراد بالتحصن هنا مجرد التعفف وانه لا يصدق على من كانت تريد الزواج انها مريدة للتحصن وهو بعيد فقد قال الحبر بن عباس ان المراد بالتحصن التعفف والتزوج وتابعه على ذلك غيره أخرج مسلم وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وغيرهم عن جابر بن عبد الله قال كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له اذهبي فابغينا شيأ وكانت كارهة فأنزل الله هذه الآية وذكر مسلم في صحيحه عن جابر ان جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة وكان يريدهما على الزنا فشكتا ذلك الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله هذه الآية وأخرج البزار وغيره عن أنس نحو حديث جابر الاول وعن على بن أبي طالب قال كان أهل الجاهلية يبغين اماءهم فنهوا عن ذلك في الاسلام وعن ابن عباس قال كانوا في الجاهلية يكرهون اماءهم على الزنا يأخذون أجورهن فنزلت الآية

وقدورد النهي منه صلى الله عليه وآله وسلم عن مهر البغي وكسب الحجام وحلوان الكاهن ثم علل سبحانه هذا النهي بقوله (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) وهو ما تكسبه الامة بفرجها وهذا التعليل أيضا خارج مخرج الغالب والمعنى ان هذا الغرض هو الذي كان يحملهم على اكراه الاماء على البغاء في الغالب لان اكراه الرجل لامته على البغاء لا لفائدة له اصلا لا يصدر مثله عن العقلاء فلا يدل هذا التعليل على انه يجوز له ان يكرهها اذا لم يكن مبتغيا باكراهها عرض الحياة الدنيا وقيل ان هذا التعليل للاكراه هو باعتبار ان عادتهم كانت كذلك لأنه مدار النهي عن الاكراه لهن وهذا يلاقي المعنى الاول ولا يخالف (ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) هذا مقرر لما قبله ومؤكد له والمعنى ان عقوبة الاكراه راجعة الى المكرهين لا الى المكرهات كما تدل عليه قراءة ابن مسعود وغيره فان الله غفور رحيم لهن قيل وفي هذا التفسير بعد لان المكرهة على الزنا غير آثمة وأجيب بانها وان كانت مكرهة فربما لا تخلو في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة اما بحكم الجبلة البشرية او بكون الاكراه قاصرا عن حد الالجاء المزيل للاختيار بالمرة واما الغاية تهويل امر الزنا وحث المكرهات على التثبت في التجافي عنه والتشديد في تحذير المكرهين ببيان انهن حيث كن عرضة للعقوبة لولا ان تداركهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر في حقهن فما حال من يكرههن في استحقاق العقاب وقيل ان المعنى غفور رحيم لهم اما مطلقا أو بشرط التوبة ولما فرغ سبحانه من بيان تلك الاحكام شرع في وصف القرآن بصفات ثلاث فقال (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) فالاولى انه آيات بينات أي واضحات في أنفسهن تصدقها الكتب المتقدمة والعقول المستقيمة أو موضحات ومبينات فيدخل فيها الآيات المذكورة في هذه السورة دخولا أوليا والصفة الثانية كونه مثلا من الذين خلوا من قبل هؤلاء أي خبرا عجيبا كائنا من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة والامثال

أنفسهم وقوله وما أرسلناك الا رحمة للعالمين يخبر تعالى ان الله جعل محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وقال تعالى في صفة القرآن قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد وقال مسلم في صحيحه حدثنا ابن أبي عمر حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن ابن حازم عن أبي هريرة قال قيل يارسول الله ادع على المشركين قال اني لم أبعث لعانا وانما بعثت رحمة انفرد باخراجه مسلم وفي الحديث الآخر انما أنا رحمة مهداة رواه عبد الله بن أبي عوانة وغيره عن وكيع عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا قال ابراهيم الحربي وقد رواه غيره عن وكيع فلم يذكر أبا هريرة وكذا قال البخاري وقد سئل عن هذا الحديث فقال كان عند حفص بن غياث مرسلا قال الحافظ بن عساكر وقد رواه مالك بن سعيد بن الخمس عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقري وأبي أحمد الحاكم كلاهما عن بكر بن محمد بن ابراهيم الصوفي حدثنا ابراهيم بن سعيد الجوهري عن أبي أسامة عن اسمعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا رحمة مهداة ثم أورده من طريق الصلت بن مسعود عن سفيان بن عيينة عن مسعر عن سعيد بن خالد عن رجل عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثني رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين قال أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان حدثنا أحمد بن صالح قال وجدت كتابا بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وابراهيم بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عمرو بن عوف عن محمد بن صالح التمار عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة يامعشر قريش ان محمدا نزل يثرب وأرسل طلائعه وانما يريد أن يصيب منكم شيأ فاحذروا ان تمروا طريقه أو تقاربوه فانه كالاسد الضاري انه حنق عليكم لانكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم والله ان له لسحرة ما رأيته قط ولا أحدا من أصحابه الا رأيت معهم الشياطين وانكم قد عرفتم عداوة ابني قيلة يعني الاوس والخزرج فهو عدو استعان بعدو فقال له مطعم بن عدي يا أبا الحكم والله ما رأيت أحدا اصدق لسانا ولا أصدق موعدا من أخيكم الذي طردتم واذ فعلتم الذي فعلتم فكونوا أكف الناس عنه قال ابو سفيان بن الحرث كونوا أشد ما كنتم عليه ان ابني قيلة ان ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم الا ولا ذمة وان أطعتموني الجأتموهم حير كنانة

أو تخرجوا محمدا من بين ظهرانيهم فيكون وحيدا مطرودا واما بنا قيلة فوالله ماهما وأهل دهماك فى المذلة الاسواء وسأ كفيكم حدهم وقال سأمنع جانبا منى غليظا * على ما كان من قرب وبعد رجال الخزرجية أهل ذل * اذا ما كان هزل بعد جد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والذى نفسى بيده لاقتلنهم ولاصلبنهم ولاهدينهم وهم كارهون انى رحمة بعثنى الله ولا يتوفانى حتى يظهر الله دينه لى خمسة اسماء انا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وانا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب وقال أحمد بن صالح أرجو أن يكون الحديث صحيحا وقال الامام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة حدثنى عمرو بن قيس عن عمرو بن أبى قرة الكندى قال كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حذيفة الى سلمان فقال سلمان يا حذيفة (٢١٢) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال أيما رجل سببته فى غضبى أو لعنته لعنة فانما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون وانما بعثنى رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة ورواه أبو داود عن أحمد بن يونس عن زائدة فان قيل فاى رحمة حصلت لمن كفر به فالجواب مارواه أبو جعفر بن جرير حدثنا اسحق بن شاهين حدثنا اسحق الازرق عن المسعودى عن رجل يقال له سعيد عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس فى قوله وما أرسلناك الا رحمة للعالمين قال من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة فى الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفى مما أصاب الامم من الخسف والقذف وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث المسعودى عن أبى سعد وهو سعيد ابن المرزبان البقال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بنحوه والله أعلم وقد رواه أبو القاسم الطبرانى عن عبدان بن احمد عن عيسى بن يونس الرملى عن أيوب ابن سويد عن المسعودى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وما أرسلناك الا رحمة للعالمين قال من تبعه كان له رحمة فى الدنيا والآخرة ومن لم يتبعه عوفى مما كان يبتلى به سائر الامم من الخسف والمسخ والقذف

(قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) يقول تعالى آمرا رسوله صلوات الله وسلامه عليه ان يقول للمشركين انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون أى متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له فان تولوا أى تركوا ما دعوتهم اليه فقل آذنتكم على سواء أى أعلمتكم انى حرب لكم كما انكم حرب لى برىء منكم كما انتم برآء منى كقوله وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل

المضروبة لهم فى الكتب السابقة فان العجب من قصة عائشة هو كالعجب من قصة يوسف ومريم وما اتهما به ثم تبين بطلانه وبراءتهما سلام الله عليهما والصفة الثالثة كونه موعظة ينتفع بها المتقون خاصة فان الله قد ختم على قلوب غيرهم وجعل على أبصارهم غشاوة عن سماع المواعظ والاعتبار بقصص الذين خلوا وفهم ما تشتمل عليه الآيات البينات ثم أردف الله وصف القرآن بكونه سبحانه فى غاية الكمال ونهاية الجمال فقال (الله نور السموات والارض) مستأنفة لتقرير ما قبلها قال البيضاوى النور فى الاصل كيفية تدركها الباصرة أولا وتدرك بواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين على الاجرام الكثيفة المحاذية لهما وهو بهذا المعنى لا يصح اطلاقه على الله تعالى الا بتقدير مضاف أى ذو نور السموات كقولك زيد عدل أو يكون المراد المبالغة فى وصفه سبحانه بانه نور لكمال جلاله وظهور عدله وبسطه أحكامه كما يقال فلان نور البلد وقمر الزمن وشمس العصر قيل ومعنى النور فى اللغة الضياء وهو الذى يبين الاشياء ويرى الابصار حقيقة ما تراه فيجوز اطلاق النور على الله على طريقة المدح ولكونه أوجد الاشياء المنورة وأوجد أنوارها ويدل عليه قراءة زيد بن على وأبى جعفر وعبد العزيز المكى الله نور السموات والارض على صيغة الفعل الماضى وفاعله ضمير يرجع الى الله والسموات مفعوله فمعنى الله نورهما انه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما وكمال تدبيره عز وجل لمن فيهما كما يقال الملك نور البلد وهكذا قال الحسن ومجاهد والازهرى والضحاك والقرظى وابن عرفة وابن جرير وغيرهم وقال هشام الجواليقى وطائفة من المجسمة انه سبحانه نور لا كالانوار وجسم لا كالاجسام وقال ابن عباس وأنس فى الآية الله هادى السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقيل نور السماء بالملائكة ونور الارض بالانبياء وقيل مزين السماء والارض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبياء والعلماء والمؤمنين ويقال زين الارض بالنبات

وأنا برىء مما تعملون وقال وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء وهكذا ههنا فان تولوا فقل آذنتكم على سواء أي أعلمكم براءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك وقوله وان أدري أقريب أم بعيد ما توعدون أي هو واقع لا محالة ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون أي ان الله يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون يعلم الظواهر والضمائر ويعلم السر وأخفى ويعلم ما العباد عاملون في اجهارهم واسرارهم وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل وقوله وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع الى حين قال ابن جرير لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع الى أجل مسمى وحكاه عون عن ابن عباس فالله أعلم قال رب احكم بالحق أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق قال قتادة كانت الانبياء

عليهم السلام يقولون ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول ذلك وعن مالك عن زيد بن أسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا شهد غزاة قال رب احكم بالحق وقوله وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون أي على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والافك والله المستعان عليكم في ذلك آخر تفسير سورة الانبياء عليهم السلام ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة الحج)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) يقول تعالى آمرا عباده بتقواه ومخبرا لهم بما يستقبلون من

أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم الى عرصات القيامة أو ذلك عبارة عن زلزلة الارض قبل قيام الناس من اجداثهم كما قال تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها وأخرجت الارض أثقالها وقال تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة الآية وقال تعالى اذا رجت الارض رجا وبست الجبال بسا الآية فقال قائلون هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا يحيى حدثنا سفيان عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة في قوله ان زلزلة الساعة شيء عظيم قال قبل الساعة ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري عن منصور والاعمش عن ابراهيم عن علقمة فذكره قال وروي عن الشعبي وابراهيم وعبيد بن عمير نحو ذلك وقال أبو كدينة عن عطاء عن عامر الشعبي يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم قال

بالنبات والاشجار وقيل معناه ان الانوار كلها منه وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح كما قال الشاعر

اذا سار عبد الله من مرو ليلة * فقد سار عنها نورها وجمالها

وعن ابن عباس يدبر الامر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما (مثل نوره) مبتدأ وخبره (كمشكاة) أي صفة نوره الفائض عنه الظاهر على الاشياء كمشكاة وهذه الجملة ايضاح لما قبلها وتفسير فلا محل لها وثم مضاف محذوف أي كمثل مشكاة وهي الكوة في الحائط التي لا منفذ لها كذا حكاه الواحدي عن جميع المفسرين وحكاه القرطبي عن جمهورهم قيل هي لغة حبشية وقيل عربية ورسمت بالواو كالصلاة والزكاة وأصل المشكاة الوعاء يجعل فيه الشيء وقيل هي عمود القنديل الذي يجعل فيه الفتيلة وقيل هي الانبوبة في وسط القنديل وقيل هي الحديدة أو الرصاصة التي يوضع فيها الزيت وقيل هي العمود الذي يوضع على رأسه المصباح وقيل ما يعلق فيه القنديل من الحديدة وقال مجاهد هي القنديل والاول أولى ووجه تخصيص المشكاة انها أجمع للضوء الذي يكون فيها من مصباح أو غيره وعن ابن عباس قال في الآية مثل نوره أي هداه في قلب المؤمن كمشكاة يقول موضع الفتيلة وفي اسناده مقال وعن أبي بن كعب قال هو المؤمن الذي قد جعل الايمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال الله نور السموات والارض مثل نوره وبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فصدر المؤمن المشكاة وعن ابن عباس مثل نوره الذي اعطى المؤمن كمشكاة وفي قراءة أبي مثل نور المؤمن وفي لفظ نور من آمن به كمشكاة وعن ابن عباس أيضا مثل نور من آمن بالله كمشكاة وهي الكوة وعنه قال هي خطأ من الكاتب هي أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة بل مثل نور المؤمن كالمشكاة وقيل المعنى مثل نور الله عز وجل في قلب المؤمن وهو النور الذي يهتدى به وقيل أراد بالنور القرآن وقيل أراد محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وقيل هو الطاعة سمى الله طاعته نورا وأضاف

هذا في الدنيا قبل يوم القيامة وقد أورد الامام ابو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصور من رواية اسمعيل بن رافع قاضي أهل المدينة عن يزيد بن أبي زياد عن رجل من الانصار عن محمد بن كعب القرظي عن رجل عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لما فرغ من خلق السموات والارض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره الى العرش ينتظر متى يؤمر قال أبو هريرة يا رسول الله وما الصور قال قرن قال فكيف هو قال قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات الاولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين يأمر الله اسرافيل بالنفخة الاولى فيقول انفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الارض الا من شاء الله ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر وهي التي يقول الله تعالى وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق فتسير (٣١٤) الجبال فتكون ترابا وترج الارض بأهلها رجا وهي التي يقول الله تعالى يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة فتكون الارض كالسفينة الموبقة في البحر تضربها الامواج تكفأها بأهلها وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الارواح فيمتد الناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الاقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضا وهي التي يقول الله تعالى يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد فبينما هم على ذلك اذ انصدعت الارض من قطر الى قطر ورأوا أمرا عظيما فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به ثم نظروا الى السماء فاذا هي كالمهل ثم خسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها ثم كشطت عنهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والاموات لا يعلمون بشيء من ذلك قال أبو هريرة فمن استثنى الله حين يقول ففزع من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله قال أولئك الشهداء وانما يصل الفزع الى الاحياء أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه وهو الذي يقول الله يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد وهذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغير واحد مطولا جدا والغرض منه انه دل على ان هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة أضيفت الى الساعة لقربها منها كما يقال اشراط الساعة ونحو ذلك والله أعلم وقال آخرون بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث الاول قال الامام أحمد حدثنا يحيى عن هشام حدثنا قتادة عن الحسن عن

هذه الانوار الى نفسه تشريفا وتفضيلا وقيل مثل نوره أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن والدلائل تسمى نورا قاله القرطبي واختلفوا في هذا التشبيه هل هو مركب أو غير مركب وقيل ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة (فيها مصباح) هو السراج الضخم وأصله من الضوء (المصباح في زجاجة) واحدة الزجاج يعني القنديل قال الزجاج النور في الزجاج وضوء النار أبين منه في كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج ووجهه ذلك ان الزجاج جسم شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور ثم وصف الزجاجة فقال (الزجاجة كأنها) والنور فيها (كوكب دري) منسوب الى الدر لكون الصفاء والحسن والاشراق فيه ما يشابه الدر وقال الضحاك الكوكب الدري الزهرة وقرئ دريء بكسر الدال أخذه من درأت النجوم تدرأ اذا اندفعت قاله أبو عمرو وقرئ بضم الدال مهموزا وأنكره الفراء والزجاج والمبرد وقال أبو عبيد ان ضممت الدال وجب ان لا يهمز لانه ليس في كلام العرب والدراري هي المشهورة من الكواكب كالمشتري والزهرة والمريخ وما يضاهيها من الثوابت وقال ابي دري أي مضيء من الدرء بمعنى الدفع لدفعه الظلام ثم وصف المصباح بقوله (يوقد) وقد قرئ بالتاء على ان الضمير راجع الى الزجاجة دون المصباح وقرئ بالتحتية وتخفيف القاف وضم الدال وقرئ توقد على انه فعل ماض من التفعل والضمير في هاتين راجع الى المصباح قال النحاس وهاتان متقاربتان لانهما جميعا للمصباح وهو أشبه بهذا الوصف لانه الذي ينير ويضيء وانما الزجاجة وعاء له وقرئ على انه فعل مضارع وأصله تتوقد (من شجرة) أي ابتداء ايقاد المصباح منها وقيل يوقد من زيت شجرة (مباركة) أي كثيرة المنافع والبركة وقيل المثماة قال أبي أصل المبارك الاخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له (زيتونة) الزيتون من أعظم الثمار نماء قيل ومن بركتها ان أغصانها تورق من أسفلها الى أعلاها وهي ادام ودهان ودباغ ووقود وليس فيها شيء الا وفيه منفعة وهي أصفى الادهان وأضوءها وقيل انها أول

عمران بن حصين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو في بعض اسفاره وقد تقارب من اصحاب السير رفع بهاتين الآيتين صوته يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فلما سمع اصحابه بذلك حثوا المطى وعرفوا انه عند قول يقوله فلما دنوا حوله قال أتدرون أي يوم ذاك ذاك يوم ينادي آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل فيقول يا آدم ابعث بعثك الى النار فيقول يارب ومابعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة قال فابلس اصحابه حتى ما اوضحوا بضاحكة فلما رأى ذلك قال أبشروا واعملوا فوالذي نفس محمد بيده انكم لمع خليقتين ما كانتا مع شئ قط الا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من بني آدم وبني ابليس قال فسرى عنهم ثم قال اعملوا وابشروا فوالذي (315) نفس محمد بيده ما انتم في الناس الا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما عن محمد ابن بشار عن يحيى وهو القطان عن هشام وهو الدستوائي عن قتادة به بنحوه وقال الترمذي حسن صحيح (طريق آخر) لهذا الحديث قال الترمذي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا ابن جدعان عن الحسن عن عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت يا أيها الناس اتقوا ربكم الى قوله ولكن عذاب الله شديد قال نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال أتدرون أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار قال يارب ومابعث النار قال تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة فانشأ المسلمون يبكون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قاربوا وسددوا فانها لم تكن نبوة قط الا كان بين يديها جاهلية قال فيؤخذ العدد من الجاهلية فان تمت والا كملت من المنافقين وما مثلكم ومثل الامم الا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير ثم قال اني لارجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال اني لارجو ان تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال اني لارجو ان تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا ثم قال ولا أدري أقال الثلثين أم لا وكذا رواه الامام أحمد عن سفيان بن عيينة به ثم قال الترمذي أيضا هذا حديث صحيح وقد روى عن عروة عن الحسن عن عمران بن الحصين وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن والعلاء بن زياد العدوي عن عمران بن الحصين فذكره وهكذا روى ابن جرير عن بندار عن غندر عن عوف عن الحسن قال بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قفل من غزوة العسرة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم وذكر الحديث فذكر نحو سياق

شجرة نبتت بعد الطوفان ونبتت في منازل الانبياء ودعا لها سبعون نبيا بالبركة منهم ابراهيم ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي شجرة لا يسقط ورقها وعن أسيد بن ثابت أو أبي أسيد الانصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة أخرجه الترمذي (لا شرقية ولا غربية) صفة لشجرة ودخلت لا لتفيد النفي وقرئ بالرفع أي لاهي شرقية ولاهي غربية وقد اختلف المفسرون في معنى هذا الوصف فقال عكرمة وقتادة وغيرهما ان الشرقية هي التي تصيبها الشمس اذا شرقت ولا تصيبها اذا غربت لان لها سترا والغربية هي التي تصيبها اذا غربت ولا تصيبها اذا شرقت وهذه الزيتونة هي في صحراء أو في منكشف من الارض بحيث لا يسترها ولا يواريها عن الشمس شئ لا في حال شروقها ولا في حال غروبها وما كانت من الزيتون هكذا فثمرها أجود وأنضج وزيتها أصفى وقيل ان المعنى انها شجرة في دوحة قد أحاطت بها فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس قال ابن عطية وهذا لا يصح عنه لان الشجرة التي بهذه الصفة يفسد جناها وذلك مشاهد في الوجود ورجح القول الاول الفراء والزجاج وقال الحسن ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا وانما هو مثل ضربه الله لنوره ولو كانت في الدنيا لكانت اما شرقية واما غربية قال الثعلبي قد أفصح القرآن بانها من شجر الدنيا لان قوله زيتونة بدل من قوله شجرة قال ابن زيد انها من شجر الشام فان الشام لا شرقي ولا غربي والشام هي الارض المباركة وشجرها أفضل وقيل معناه انها ليست في مقنأة لا تصيبها الشمس ولا في مضحاة لا يصيبها الظل فهي لا تضرها شمس ولا ظل وقيل معناها انها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر ولا في غرب يضرها البرد قال أبي فمثله كمثل شجرة التفت بها الشجر فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت لا اذا طلعت ولا اذا غربت فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصله شئ من الفتن ثم وصف الزيتونة بوصف آخر فقال (يكاد) أي يقرب (زيتها يضيء) ن

ابن جدعان والله أعلم الحديث الثانى قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن الطباع حدثنا أبو سفيان يعنى المعمرى عن معمر عن قتادة عن أنس قال نزلت ان زلزلة الساعة شئ عظيم وذكر يعنى نحو سياق الحسن عن عمران غير انه قال ومن هلك من كفرة الجن والانس ورواه ابن جرير بطوله من حديث معمر الحديث الثالث قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعنى ابن العوام حدثنا هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فذكر نحوه وقال فيه انى لارجو ان تكونوا ربع أهل الجنة ثم قال انى لارجو ان تكونوا ثلث أهل الجنة ثم قال انى لارجو ان تكونوا شطر اهل الجنة ففرحوا وزاد أيضا وانما أنتم جزء من ألف جزء الحديث الرابع قال البخارى عند تفسير هذه الآية حدثنا عمر بن حفص حدثنا أبى حدثنا الاعمش حدثنا أبو صالح عن أبى سعيد قال قال النبى صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك ربنا وسعديك فينادى بصوت ان الله يأمرك ان تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يارب وما بعث النار قال من كل ألف اراه قال تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم قال النبى صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الابيض أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الاسود انى لارجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث أهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا وقد رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع ومسلم والنسائى فى تفسيره من طرق عن الاعمش به الحديث الخامس قال الامام أحمد حدثنا عمارة بن محمد بن أخت سفيان الثورى وعبيدة المعنى كلاهما عن ابراهيم بن مسلم عن أبى الاحوص عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبعث يوم القيامة مناديا يا آدم ان الله يأمرك ان تبعث بعثا من ذريتك الى النار فيقول آدم يارب من هم فيقال له من كل مائة تسعة وتسعون فقال رجل من القوم من هذا الناجى منا بعد هذا يارسول الله قال هل تدرون ما أنتم فى الناس الا كالشامة فى صدر البعير انفرد بهذا السند وهذا السياق الامام أحمد الحديث السادس قال الامام أحمد حدثنا يحيى عن حاتم بن أبى صغيرة حدثنا ابن أبى مليكة ان القاسم بن محمد أخبره عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال انكم تحشرون الى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلا قالت عائشة يارسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم الى بعض قال ياعائشة ان الامر أشد من ان يهمهم ذاك أخرجاه فى الصحيحين الحديث السابع قال الامام أحمد

نار

صفائه (ولو لم تمسسه نار) قرئ بالفوقية لان النار مؤنثة قال أبو عبيد انه لا يعرف الا هذه القراءة وقرأ ابن عباس بالتحتية لكون تأنيثها غير حقيقى والمعنى ان هذا الزيت فى صفائه وانارته يكاد يضئ بنفسه من غير ان تمسه النار أصلا (نور) أى هو نور كائن (على نور) صفة لنور مؤكدة له وقيل نور الله أى هداه للمؤمنين نور على نور الايمان وقال مجاهد والمراد النار على الزيت وقال الكلبى المصباح نور والزجاجة نور وقيل نور الزيت مع نور النار وقال السدى نور الايمان ونور القرآن وقيل نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة وعن ابن عباس ان اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كيف يخلص نور الله من دون السماء فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة وهى كوة البيت فيها مصباح وهو السراج يكون فى الزجاجة وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى طاعته نورا ثم سماها انواعا شتى لا شرقية ولا غربية قال وهى وسط الشجر لا تنالها الشمس اذا طلعت ولا اذا غربت وذلك أجود الزيت يكاد زيتها يضئ بغير نار نور على نور يعنى بذلك ايمان العبد وعمله يهدى الله لنوره من يشاء وهو مثل المؤمن وعن ابن عمر قال المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وآله وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذى فى قلبه والشجرة ابراهيم لا شرقية ولا غربية لا يهودية ولا نصرانية ثم قرأ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما الآية وعن شمر بن عطية قال جاء ابن عباس الى كعب الاحبار فقال حدثنى عن قول الله يعنى هذه الآية قال مثل نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم كمشكوة ضربها الله مثلا لفمه فيها مصباح والمصباح قلبه والزجاجة صدره كأنها كوكب درى شبه صدر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالكوكب الدرى ثم رجع المصباح الى قلبه فقال يوقد من شجرة الى قوله يكاد قال يكاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم انه نبى كما يكاد الزيت ان يضئ ولو لم تمسسه

حدثنا يحيى بن اسحق حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة قال يا عائشة اما عند ثلاث فلا اما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا واما عند تطاير الكتب اما يعطى بيمينه واما يعطى بشماله فلا وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق وكلت بثلاثة وكلت بثلاثة وكلت بثلاثة وكلت بمن ادعى مع الله الها آخر ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ووكلت بكل جبار عنيد قال فينطوى عليهم ويرميهم في غمرات جهنم ولجهنم جسر ارق من الشعر واحد من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذان من شاء الله والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح وكاجاويد الخيل والركاب والملائكة يقولون رب سلم سلم فناج مسلم ومخدوش مسلم ومكور في النار على وجهه والاحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدا لها موضع

آخر ولهذا قال تعالى ان زلزلة الساعة شيء عظيم أي أمر عظيم وخطب جليل وطارق مفظع وحادث هائل وكائن عجيب والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع كما قال تعالى هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ثم قال تعالى يوم ترونها هذا من باب ضمير الشأن ولهذا قال مفسرا له تذهل كل مرضعة عما أرضعت أي فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس اليها والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال ارضاعها له ولهذا قال كل مرضعة ولم يقل مرضع وقال عما ارضعت أي عن رضيعها قبل فطامه وقوله وتضع كل ذات حمل حملها أي قبل تمامه لشدة الهول وترى الناس سكارى وقرئ سكرى أي من شدة الامر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم وغابت اذهانهم فمن رآهم حسب انهم سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير) يقول تعالى ذاما لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على احياء الموتى معرضا عما انزل الله على انبيائه متبعا في قوله وانكاره وكفره كل شيطان مريد من الانس والجن وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما انزل الله على رسوله من الحق المبين ويتبعون أقوال رؤس الضلالة الدعاة الى البدع بالاهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم واشباههم ومن الناس من يجادل في الله بغير علم أي علم صحيح ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه قال مجاهد يعني الشيطان يعني كتب عليه كتابة قدرية انه من تولاه أي اتبعه وقلده فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير أي يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة الى عذاب السعير وهو الحار المؤلم المقلق المزعج وقد قال السدي عن أبي مالك نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث وكذا قال ابن جريج وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن مسلم

نار قال ابن العربي قال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل ان تمسه النار فان مسته النار زاد ضوءه كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل ان يأتيه العلم فاذا جاء العلم زاده هدى على هدى ونورا على نور كقلب ابراهيم من قبل ان تجيئه المعرفة قال هذا ربي من قبل ان يخبره أحد بأن له ربا فلما أخبره الله انه ربه زاده هدى اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين وأقول ان تفسير النظم القرآني بهذا ونحوه مما تقدم عن أبي بن كعب وابن عباس وابن عمر رضي الله تعالى عنهم ليس على ما يقتضيه لغة العرب ولا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يجوز العدول عن المعنى العربي الى هذه المعاني التي هي شبيهة بالالغاز والتعمية ولكن هؤلاء الصحابة ومن وافقهم ممن جاء بعدهم استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح في المشكاة ولهذا قال ابن عباس هو أعظم من ان يكون نوره مثل نور المشكاة كما قدمنا عنه ولا وجه لهذا الاستبعاد فانا قد قدمنا في أول البحث ما يرفع الاشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه وأبلغ اسلوب وعلى ما تقتضيه لغة العرب ويفيده كلام الفصحاء فلا وجه للعدول عن الظاهر لا من كتاب ولا من سنة ولا من لغة وأما ما حكي عن كعب الاحبار في هذا كما قدمنا فان كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الاجلاء عن الظاهر في تفسير الآية فليس مثل كعب رحمه الله ممن يقتدى به في مثل ذلك وقد نبهناك فيما سبق ان تفسير الصحابي اذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيرا فلا تقوم به الحجة ولا يسوغ لاجله العدول عن التفسير العربي نعم ان صحت قراءة ابي بن كعب كانت هي المستندة لهذه التفاسير المخالفة للظاهر وتكون كالزيادة المبينة للمراد وان لم تصح فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور من السبعة وغيرهم ممن قبلهم وممن بعدهم هو المتعين (يهدي الله لنوره) هداية خاصة موصلة الى المطلوب وليس المراد بالهداية هنا مجرد الدلالة قال ابن عباس لنوره لدين الاسلام وهو نور البصيرة (من يشاء) من عباده لان الاسباب دون

البصري حدثنا عمرو بن البختري أبو قتادة حدثنا المعتمر حدثنا أبو كعب المكي قال قال خبيث من خبثاء قريش أخبرنا عن ربكم من ذهب هو او من فضة هو او من نحاس هو فتقعقعت السماء قعقعة والقعقعة في كلام العرب الرعد فاذا قحف رأسه ساقط بين يديه وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد جاء يهودي فقال يا محمد أخبرني عن ربك من أي شئ هو من در أم من ياقوت قال فجاءت صاعقة فأخذته (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيي الموتى وانه على كل شئ قدير وان الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث من في القبور) لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال يا أيها الناس ان كنتم في ريب أي في شك من البعث وهو المعاد وقيام الارواح والاجساد يوم القيامة فانا خلقناكم من تراب أي أصل برئه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ثم من نطفة أي ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم من علقة ثم من مضغة وذلك انه اذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوما كذلك يضاف اليه ما يجتمع اليها ثم ينقلب علقة حمراء باذن الله فتمكث كذلك أربعين يوما ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لاشكل فيها ولا تخطيط ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الاعضاء فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة أي كما تشاهدونها لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى أي وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها كما قال مجاهد في قوله تعالى مخلقة وغير مخلقة قال هو السقط مخلوق وغير مخلوق فاذا مضى عليها أربعون يوما وهي مضغة أرسل الله تعالى اليها ملكا فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى وكتب رزقها وأجلها وشقي أو سعيد كما ثبت في الصحيحين من حديث الاعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح وروى ابن أبي حاتم وابن

مشيئته لا يعجزه اذهاب اتمامها (ويضرب الله الامثال للناس) أي يبين الاشياء بأشباهها ونظائرها تقريبا لها الى الافهام وتسهيلا لادراكها لان ابراز المعقول في هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحا وبيانا (والله بكل شئ عليم) لا يغيب عنه شئ من الاشياء معقولا كان أو محسوسا ظاهرا كان أو باطنا ومنه ضرب الامثال (في بيوت) أي ذلك المصباح يوقد في بيوت وقيل متعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت وقيل صفة لزجاجة وقال ابن الانباري سمعت أبا العباس يقول هو حال للمصباح والزجاجة والكوكب كأنه قيل وهي في بيوت وعلى هذه الاقوال لا يوقف على عليم وقيل متعلق بما بعده وهو يسبح الآتي أي يسبح رجال في بيوت وعلى هذا يكون قوله فيها تكريرا للتوكيد والتذكير والايذان بأن التقديم للاهتمام لا لقصر التسبيح على الوقوع في البيوت فقط وقيل متعلق بمحذوف أي سبحوه في بيوت وعلى هذين القولين يوقف على عليم فهذه ستة أوجه ذكرها السمين وغيره وقيل انه منفصل عما قبله كأنه قال تعالى الله في بيوت أذن الله ان ترفع قال الحكيم الترمذي وبذلك جاءت الاخبار انه من جلس في المسجد فانما يجالس ربه وقد قيل على تقدير تعلقه بمشكاة أو بمصباح أو بيوقد ما الوجه في توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت ولا تكون المشكاة الواحدة ولا المصباح الواحد الا في بيت واحد وأجيب بأن هذا من الخطاب الذي يفتح أوله بالتوحيد ويختم بالجمع كقوله سبحانه يا أيها النبي اذا طلقتم النساء ونحوه وقيل معنى في بيوت في كل واحد من البيوت فكأنه قال في كل بيت أو في كل واحد من البيوت واختلف الناس في البيوت على أقوال الاول انها جميع المساجد وهو قول مجاهد والحسن وغيرهما قال ابن عباس بيوت الله في الارض تضيء لاهل السماء كما تضيء النجوم لاهل الارض الثاني ان المراد بها بيوت بيت المقدس روى ذلك عن الحسن الثالث انها بيوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم روى

هذا

هذا عن مجاهد الرابع هي البيوت كلها قاله عكرمة الخامس انها المساجد الاربعة الكعبة ومسجد قباء ومسجد المدينة ومسجد بيت المقدس قاله ابن زيد والقول الاول أظهر لقوله يسبح له فيها بالغدو والآصال والباء من بيوت تضم وتكسر كل ذلك ثابت في اللغة ومعنى (أذن الله) أمر وقضى ومعنى (ان ترفع) تبنى قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما ومنه قوله سبحانه واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وقال الحسن البصري وغيره معنى ترفع تعظم فلا يذكر فيها الخنا من القول ويرفع شأنها وتطهر من الانجاس والاقذار ورجحه الزجاج وقيل المراد بالرفع هنا مجموع الامرين (و) معنى (يذكر فيها اسمه) كل ذكر لله عزوجل وقيل هو التوحيد وقيل المراد تلاوة القرآن والاول أولى وفي القرطبي قد كره بعض أصحابنا تعليم الصبيان في المساجد لانهم لا يتحرزون عن الاقذار والاوساخ فيؤدي ذلك الى عدم تنظيف المساجد وقد ورد في تعظيم المساجد وتنزيهها عن القذر واللغو وتنظيفها وتطييبها أحاديث ليس هذا موضع ذكرها (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) قرئ يسبح مبنيا للفاعل وللمفعول فعلى الثانية يكون رجال مرفوعا بفعل مقدر كأنه قيل من يسبحه فقيل يسبحه رجال وعلى الاولى يكون رجال فاعل يسبح وقرئ تسبح بالفوقية وكسر الموحدة وعلى هذا يكون الفاعل أيضا رجال وانما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الاحوال واختلف في هذا التسبيح ما هو فالاكثرون حملوه على الصلاة المفروضة قالوا الغدوة صلاة الصبح والآصال صلاة الظهر والعصر والعشائين لان اسم الآصال يشملها والمعنى يصلي له فيها بالغداة صلاة الصبح وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشائين وانما وحد الغدو لان صلاته واحدة وفي الآصال صلوات والآصال جمع أصل جمع أصيل وهو العشي وقيل صلاة الصبح والعصر وقيل المراد صلاة الضحى قاله ابن عباس وعنه في الآية قال هي المساجد تكرم وينهى عن اللغو فيها ويذكر فيها اسم الله يتلى فيها كتابه يسبح له فيها بالغدو والآصال صلاة

جرير من حديث داود بن هند عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله قال النطفة اذا استقرت في الرحم جاءها ملك بكفه فقال يارب مخلقة أو غير مخلقة فان قيل غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الارحام دما وان قيل مخلقة قال أي رب ذكر او أنثى شقي أو سعيد ما الاجل وما الاثر وبأي أرض يموت قال فيقال للنطفة من ربك فتقول الله فيقال من رازقك فتقول الله فيقال له اذهب الى الكتاب فانك ستجد فيه قصة هذه النطفة قال فتخلق فتعيش في أجلها وتأكل رزقها وتطأ أثرها حتى اذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك ثم تلا عامر الشعبي يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة فاذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة وان كانت غير مخلقة قذفتها الارحام دما وان كانت مخلقة نكست نسمة وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين يوما أو خمس وأربعين فيقول أي رب أشقي أم سعيد فيقول الله ويكتبان فيقول أذكر أم أنثى فيقول الله ويكتبان ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله ثم تطوى الصحف فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة ومن طريق آخر عن أبي الطفيل بنحو معناه وقوله ثم نخرجكم طفلا أي ضعيفا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ثم يعطيه الله القوة شيأ فشيأ ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل واطراف النهار ولهذا قال ثم لتبلغوا اشدكم أي يتكامل القوى ويتزايد ويصل الى عنفوان الشباب وحسن المنظر ومنكم من يتوفى أي في حال شبابه وقواه ومنكم من يرد الى أرذل العمر وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الاحوال من الخرف وضعف الفكر ولهذا قال لكيلا يعلم من بعد علم شيأ كما قال تعالى الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا خالد الزيات حدثني داود أبو سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الانصاري عن أنس بن مالك رفع الحديث قال المولود حتى يبلغ الحنث ما عمل من حسنة كتبت لوالده أو لوالديه وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه فاذا بلغ الحنث جرى عليه القلم أمر الملكان اللذان كانا معه ان يحفظا وان يشددا فاذا بلغ أربعين سنة في الاسلام أمنه الله من البلايا الثلاث الجنون والجذام والبرص فاذا بلغ الخمسين خفف الله حسابه فاذا بلغ ستين رزقه الله الانابة اليه بما يحب فاذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء فاذا بلغ الثمانين

كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته فاذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفعه في أهل بيته وكتب أمين الله
وكان أسير الله في أرضه فاذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير فاذا عمل سيئة
لم تكتب عليه هذا حديث غريب جدا وفيه نكارة شديدة ومع هذا قد رواه الامام أحمد بن حنبل في مسنده موقوفا
ومرفوعا حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج حدثنا محمد بن عامر عن محمد بن عبد الله العاملي عن عمرو بن جعفر عن أنس قال
اذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة أمنه الله من أنواع البلايا من الجنون والبرص والجذام فاذا بلغ الخمسين لين الله حسابه واذا
بلغ الستين رزقه الله انابة يحبه عليها واذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء واذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ومحا عنه
سيآته واذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم

من ذنبه وما تأخر وسمي أسير الله في أرضه وشفع في أهله
ثم قال حدثنا هاشم حدثنا الفرج
حدثني محمد بن عبد الله العامري
عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان
عن عبد الله بن عمر بن الخطاب
عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله
ورواه الامام أحمد أيضا حدثنا أنس
ابن عياض حدثني يوسف بن أبي
ذرة الانصاري عن جعفر بن عمرو بن
أمية الضمري عن أنس بن مالك
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ما من معمر يعمر في الاسلام
أربعين سنة الا صرف الله عنه
ثلاثة أنواع من البلاء الجنون
والبرص والجذام وذكر تمام
الحديث كما تقدم سواء ورواه
الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله
ابن شبيب عن ابي شيبة عن عبد الله
ابن عبد الملك عن أبي قتادة العدوي
عن ابن أخي الزهري عن عمه عن
أنس بن مالك قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما من عبد يعمر
في الاسلام أربعين سنة الا صرف
الله عنه أنواعا من البلاء الجنون
والجذام والبرص فاذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب فاذا بلغ ستين سنة رزقه الله الانابة اليه بما يحب
فاذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي أسير الله وأحبه أهل السماء فاذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته
وتجاوز عن سيآته فاذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي أسير الله في أرضه وشفع في أهل بيته وقوله وترى
الارض هامدة هذا دليل آخر على قدرته تعالى على احياء الموتى كما يحيي الارض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها ولا شئ
قال قتادة غبراء متهشمة وقال السدي ميتة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج أي فاذا أنزل الله عليها
المطر اهتزت أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى ثم انبتت ما فيها من الالوان والفنون من
ثمار وزروع واشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ولهذا قال تعالى وانبتت من كل زوج

الغداة وصلاة العصر وهما أول ما فرض الله من الصلاة فأحب ان يذكرهما ويذكر بهما
عباده وعنه قال ان صلاة الضحى لفي القرآن وما يغوص عليها الا غواص في هذه الآية
وقيل المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي وهو تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته وصفاته
وافعاله ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة بعده وهذا أرجح مما قبله لكونه المعنى الحقيقي مع
وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب اليه الاولون وهو ما ذكرناه قيل وخص الرجال
بالذكر في هذه المساجد لان النساء ليس عليهن حضور المساجد لجمعة ولا لجماعة (لا تلهيهم
تجارة ولا بيع) هذه صفة لرجال أي لا يشغلهم التجارة في السفر والبيع في الحضر وخص
التجارة بالذكر لانها أعظم ما يشتغل به الانسان وقال الفراء التجارة لاهل الجلب والبيع
ما باعه الرجل على يديه وخص قوم التجارة ههنا بالشراء لذكر البيع بعدها وبمثل قول
الفراء قال الواقدي فقال التجار هم الجلاب المسافرون والباعة هم المقيمون ومعنى (عن
ذكر الله) هو ما تقدم في قوله يذكر فيها اسمه أي باللسان والقلب وقيل المراد الاذان
وقيل ذكره باسمائه الحسنى أي يوحدونه ويمجدونه وقيل المراد الصلاة ويرده ذكر
الصلاة بعد الذكر هنا وأخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال هم الذين يضربون في الارض يبتغون من فضل الله
واخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم
قال هم الذين يبتغون من فضل الله وعن ابن عباس قال كانوا رجالا يبتغون من فضل الله
يشترون ويبيعون فاذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما في أيديهم وقاموا الى المسجد فصلوا
وعنه في الآية قال ضرب الله هذا المثل قوله كمشكوة لاولئك القوم الذين لا تلهيهم
تجارة ولا بيع عن ذكر الله وكانوا أتجر الناس وابيعهم ولكن لم تكن تلهيهم تجارة ولا بيع عن
ذكر الله وعنه قال عن ذكر الله عن شهود الصلاة وعن ابن عمر أنه كان في السوق فاقيمت
الصلاة فاغلقوا حوانيتهم ثم دخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت رجال لا تلهيهم تجارة
ولا

بهيج اى حسن المنظر طيب الريح وقوله ذلك بأن الله هو الحق اى الخالق المدبر الفعال لما يشاء وانه يحيي الموتى أى كما أحيي الأرض الميتة وأنبت منها هذه الانواع ان الذي أحياها لمحيي الموتى وانه على كل شيء قدير فانما امره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون وان الساعة آتية لاريب فيها اى كائنة لاشك فيها ولا مرية وان الله يبعث من في القبور اى يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما ويوجدهم بعد العدم كما قال تعالى وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون والآيات في هذا كثيرة وقال الامام احمد حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة قال انبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه ابي رزين العقيلي واسمه لقيط بن عامر انه قال يارسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك في خلقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس كلكم ينظر الى القمر مخليا به قلنا بلى قال فالله اعظم قال قلت يارسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه قال أما مررت بوادي اهلك ممحلا قال بلى قال ثم مررت به يهتز خضرا قال بلى قال فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه ورواه ابوداود وابن ماجه من حديث حماد ابن سلمة به ثم رواه الامام احمد ايضا حدثنا علي بن اسحق انبأنا ابن المبارك انبأنا عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر عن سليمان بن موسى عن ابي رزين العقيلي قال اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله كيف يحيي الله الموتى قال امررت بأرض من ارضك مجدبة ثم مررت بها مخصبة قال نعم قال كذلك النشور وقال ابن ابي حاتم حدثنا ابي حدثنا عبيس بن مرحوم حدثنا بكير بن السميط عن قتادة عن ابي الحجاج عن معاذ بن جبل قال من علم ان الله هو الحق المبين وان الساعة آتية لاريب فيها

وان الله يبعث من في القبور دخل الجنة (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وان الله ليس بظلام للعبيد) لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ذكر في هذه حال الدعاة الى الضلال من رؤس الكفر والبدع فقال ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير أى بلا عقل صحيح ولا نقل صريح بل بمجرد الرأي والهوى وقوله ثاني عطفه قال ابن عباس وغيره مستكبر عن الحق اذا دعي اليه وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم ثاني عطفه أى لاوي عطفه وهي رقبته يعني يعرض عما يدعى اليه من الحق ويثني رقبته استكبارا كقوله وفي موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه الآية وقال تعالى واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله

ولا بيع عن ذكر الله وعن ابن مسعود أنه رأى ناسا من أهل السوق سمعوا الاذان فتركوا أمتعتهم فقال هؤلاء الذين قال الله فيهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأخرج البيهقي وابن أبي حاتم وغيرهما عن أسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي أين الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يعود فينادي أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يعود فينادي ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون وأخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه عن عقبة بن عامر مرفوعا نحوه (وإقام الصلاة) أى اقامتها لمواقيتها من غير تأخير وأدائها في وقتها جماعة لان مؤخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة وحذفت التاء لان الاضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله

ثلاثة تحذف تاآتها * مضافة عند جميع النحاة
وهي اذا شئت أبو عذرها * وليت شعري واقام الصلاة

وقيل الرابع عدا الامر أى عدة الامر وقيل في توجيه حذفها غير ذلك وقد احتاج من حمل ذكر الله على الصلاة المفروضة ان يحمل اقام الصلاة على تأديتها في أوقاتها فرارا من التكرار ولا ملجئ الى ذلك بل يحمل الذكر على معناه الحقيقي كما قدمنا (وايتاء الزكاة) المفروضة وقيل المراد طاعة الله والاخلاص اذ ليس لكل مؤمن مال (يخافون يوما) أى يوم القيامة والنصب على انه مفعول للفعل لا ظرف له يعني ان هؤلاء الرجال وان بالغوا في ذكر الله تعالى والطاعات فانهم مع ذلك وجلون خائفون لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته ثم وصف هذا اليوم بقوله (تتقلب فيه القلوب) أى تضطرب وتتحول من الهول

والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا وقال تعالى واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم ورأيتهم
يصدون وهم مستكبرون وقال لقمان لابنه ولا تصعر خدك للناس أى تميله عنهم استكبارا عليهم وقال تعالى واذا تتلى عليه آياتنا
ولى مستكبرا الآية وقوله ليضل عن سبيل الله قال بعضهم هذه لام العاقبة لانه قد لا يقصد ذلك ويحتمل ان تكون لام التعليل
ثم اما ان يكون المراد بها المعاندين أو يكون المراد بها ان هذا الفاعل لهذا اذا جبلناه على هذا الخلق الذى نجعله ممن يضل عن سبيل
الله ثم قال تعالى له فى الدنيا خزى وهو الاهانة والذل كما انه استكبر عن آيات الله فلقاه الله المذلة فى الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة
لانها أكبر همه ومبلغ علمه ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك أى يقال له هذا تقريعا وتوبيخا وان الله
ليس بظلام للعبيد كقوله تعالى خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب

الجحيم ذق انك أنت العزيز الكريم ان هذا ما كنتم به تمترون وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد ابن الصباح حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا هشام عن الحسن قال بلغنى ان أحدهم يحرق فى اليوم سبعين ألف مرة (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) قال مجاهد وقتادة وغيرهما على حرف على شك وقال غيرهم على طرف ومنه حرف الجبل أى طرفه أى دخل فى الدين على طرف فان وجد ما يحبه استقر والا انشمر وقال البخارى حدثنا ابراهيم بن الحرث حدثنا يحيى بن أبى بكير حدثنا اسرائيل عن أبى حصين عن سعيد
ابن جبير عن ابن عباس ومن الناس من يعبد الله على حرف قال كان الرجل يقدم المدينة فان ولدت امرأته
غلاما ونتجت خيله قال هذا دين صالح وان لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين
حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنى أبى عن أبيه عن أشعث بن اسحق القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس
قال كان ناس من الاعراب يأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسلمون فاذا رجعوا الى بلادهم فان وجدوا عام غيث وعام خصب وعام
ولاد حسن قالوا ان ديننا هذا لصالح فتمسكوا به وان وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا ما فى ديننا هذا خير فأنزل الله
على نبيه ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به الآية وقال العوفى عن ابن عباس كان أحدهم اذا قدم المدينة
وهى أرض وبيئة فان صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما رضى به واطمأن اليه وقال ما أصبت منذ كنت

والفزع وقيل المراد انها تزعجها من أماكنها الى الحناجر فلا ترجع الى أماكنها ولا تخرج
(و) تتقلب (الابصار) من هول ذلك اليوم وقيل المراد بتقلبها ان تصير عميا بعد أن
كانت مبصرة وقيل المراد بتقلب القلوب انها تكون متقلبة بين الطمع فى النجاة
والخوف من الهلاك وأما تقلب الابصار فهو نظرها من أى ناحية يؤخذون والى أى
ناحية يصيرون وقيل المراد تحول قلوبهم وأبصارهم عما كانت عليه من الشك الى اليقين
ومثله قوله فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد فما كان يراه فى الدنيا غيا يراه فى
الآخرة رشدا وقيل المراد التقلب على جمر جهنم وقيل غير ذلك (ليجزيهم الله أحسن
ما عملوا) اللام لام العاقبة والصيرورة لا لام العلة الباعثة أى يفعلون ما يفعلون من
التسبيح والذكر واقام الصلاة وايتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم حسبما
وعدهم من تضعيف ذلك الى عشرة أمثاله والى سبعمائة ضعف وقيل المراد بما فى هذه
الآية ما يتفضل به سبحانه عليهم زيادة على ما يستحقونه والاول أولى لقوله (ويزيدهم من
فضله) فان المراد به التفضل عليهم بما فوق الجزاء الموعود به أى يتفضل بأشياء لم توعد لهم
بخصوصياتها أو بمقاديرها ولم يخطر ببالهم كيفياتها ولا كمياتها بل انما وعدت بطريق
الاجمال فى مثل قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وقوله عليه السلام حكاية
عنه عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر وغير ذلك من المواعيد الكريمة التى من جملتها قوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير
حساب) فانه تذييل مقرر للزيادة ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير اجور أعمالهم من
الخيرات ما لا يفى به الحساب والمعنى من غير ان يحاسبه على ما أعطاه أو ان اعطاءه سبحانه
لا نهاية له قال الكرخى وضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة على ان
مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكية وذلك تنبيه على كمال قدرته
وكمال جوده وسعة احسانه ولما ذكر سبحانه حال المؤمنين وما يؤول اليه أمرهم ذكر مثلا
للكافرين

على دينى هذا الا خيرا وان أصابته فتنة والفتنة البلاء أى وان أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا الا شرا وذلك الفتنة وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف فى تفسير هذه الآية وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو المنافق ان صلحت له دنياه أقام على العبادة وان فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة الا لما صلح من دنياه فان اصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع الى الكفر وقال مجاهد فى قوله انقلب على وجهه أى ارتد كافرا وقوله خسر الدنيا والآخرة أى فلا هو حصل من الدنيا على شئ واما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها فى غاية الشقاء والاهانة ولهذا قال تعالى ذلك هو الخسران المبين أى هذه هى الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة وقوله يدعو من دون الله ما لا يضره (٣٢٣) وما لا ينفعه أى من الاصنام والانداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهى لا تنفعه ولا تضره ذلك هو الضلال البعيد وقوله يدعو لمن ضره أقرب من نفعه أى ضرره فى الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها وأما فى الآخرة فضرره محقق متيقن وقوله لبئس المولى ولبئس العشير قال مجاهد يعنى الوثن يعنى بئس هذا الذى دعاه من دون الله مولى يعنى وليا وناصرا وبئس العشير وهو المخالط والمعاشر واختار ابن جرير ان المراد لبئس ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه وقول مجاهد ان المراد به الوثن أولى وأقرب الى سياق الكلام والله أعلم (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد) لما ذكر أهل الضلالة الاشقياء عطف بذكر الابرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا ايمانهم بافعالهم فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات وتركوا المنكرات فاورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات فى روضات الجنات ولما ذكر تعالى انه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال ان الله يفعل ما يريد (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ وكذلك أنزلناه آيات بينات وان الله يهدى من يريد) قال ابن عباس من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب أى بحبل الى السماء أى سماء بيته ثم ليقطع يقول ثم ليختنق به وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم وقال عبد الرحمن ابن زيد بن اسلم فليمدد بسبب الى السماء أى ليتوصل الى بلوغ السماء فان النصر انما يأتى محمدا من السماء ثم ليقطع ذلك عنه ان قدر على ذلك وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى وأبلغ فى التهكم فان المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدا

للكافرين فقال (والذين كفروا أعمالهم) التى هى من أعمال الخير كالصدقة والعتق والوقف والصلاة وفك العانى وعمارة البيت وسقاية الحاج (كسراب) هو ما يرى فى المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حر النهار على صورة الماء فى ظن من يراه وسمى سرابا لانه يسرب أى يجرى كالماء يقال سرب الفحل أى مضى وسار فى الارض ويسمى الآل وقيل الآل هو الذى يكون ضحى كالماء الا أنه يرتفع عن الارض حتى يصير كأنه بين السماء والارض (بقيعة) أى فيها فالباء بمعنى فى وهو جمع قاع وهو الموضع المنخفض الذى يستقر فيه الماء مثل جيرة وجار قاله الهروى وقال أبو عبيدة قيعة وقاع واحد حكاه النحاس قال الجوهرى القاع المستوى من الارض والجمع اقوع وأقواع وقيعان صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها والقيعة مثل القاع قال وبعضهم يقول هو جمع والقاع ما انبسط من الارض واتسع ولم يكن فيه نبت وفيه يكون السراب وقرئ بقيعاه بهاء مدورة كما يقال رجل عزهاه وقيعات بتاء مبسوطة وقيل الالف متولدة من اشباع العين على الاول وجمع قيعة على الثانى (يحسبه الظمآن ماء) الظمآن العطشان وقرئ الظمان بغير همز والمشهور عنهم الهمز وتخصيص الظمآن بالحسبان مع كون الريان يراه كذلك لتحقيق التشبيه المبنى على الطمع ولانه أحوج اليه من غيره فالتشبيه به أتم (حتى اذا جاءه) أى اذا جاء العطشان ذلك الذى حسبه ماء أو جاء موضعه (لم يجده شيأ) مما قدره وحسبه وظنه ولا من غيره والمعنى ان الكفار يعولون على أعمالهم التى يظنونها من الخير ويطمعون فى ثوابها فاذا قدموا على الله سبحانه لم يجدوا منها شيأ لان الكفر أحبطها ومحا أثرها عن ابن عباس قال هو مثل ضربه الله كرجل عطش فاشتد عطشه فرأى سرابا فحسبه ماء فطلبه فظن انه قدر عليه حتى أتى فلما أتاه لم يجده شيأ وقبض عند ذلك يقول الكافر كذلك اذا أتاه الموت لم يجد عمله يغنى عنه شيأ ولا ينفعه الا كما ينفع السراب العطشان (ووجد الله عنده) بالمرصاد وقيل وجد وعد الله بالجزاء على عمله وقيل وجد

وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه ان كان ذلك غائظه فان الله ناصره لامحالة قال الله تعالى انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة
الدنيا ويوم يقوم الاشهاد الآية ولهذا قال فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ قال السدى يعنى من شأن محمد صلى الله عليه وسلم وقال
عطاء الخراسانى فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ وقوله وكذلك أنزلناه أى القرآن آيات بينات أى واضحات
فى لفظها ومعناها حجة من الله على الناس وان الله يهدى من يريد أى يضل من يشاء ويهدى من يشاء وله الحكمة التامة والحجة
القاطعة فى ذلك لايسئل عما يفعل وهم يسئلون أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته لامعقب لحكمه وهو سريع
الحساب (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل
شئ شهيد) يخبر تعالى عن أهل هذه الاديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين وقد قدمنا فى سورة
البقرة التعريف بهم واختلاف
الناس فيهم والنصارى والمجوس
والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره
فانه تعالى يفصل بينهم يوم القيامة
ويحكم بينهم بالعدل فيدخل من آمن
به الجنة ومن كفر به النار فانه تعالى
شهيد على افعالهم حفيظ لاقوالهم
عليم بسرائرهم وماتكن ضمائرهم
(ألم تر ان الله يسجد له من فى السموات
ومن فى الارض والشمس والقمر
والنجوم والجبال والشجر والدواب
وكثير من الناس وكثير حق عليه
العذاب ومن يهن الله فماله من
مكرم ان الله يفعل مايشاء) يخبر
تعالى أنه المستحق للعبادة وحده
لاشريك له فانه يسجد لعظمته كل
شئ طوعا وكرها وسجود كل شئ مما
يختص به كما قال تعالى أولم يروا الى
ما خلق الله من شئ يتفيؤ ظلاله
عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم
داخرون وقال ههنا ألم تر أن الله
يسجد له من فى السموات ومن فى
أى
الارض أى من الملائكة فى أقطار السموات والحيوانات فى جميع الجهات من الانس والجن
والدواب والطير وان من شئ الا يسبح بحمده وقوله والشمس والقمر والنجوم انما ذكر هذه على التنصيص لانها قد عبدت من
دون الله فبين انها تسجد لخالقها وانها مربوبة مسخرة لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن الآية وفى الصحيحين
عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرى أين تذهب هذه الشمس قلت الله ورسوله أعلم قال فانها
تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت وفى المسند وسنن أبى داود والنسائى وابن ماجه
فى حديث الكسوف أن الشمس والقمر خلقان من خلق الله وانهما لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل اذا
تجلى لشئ من خلقه خشع له وقال أبو العالية مافى السماء نجم ولاشمس ولاقمر الا يقع لله ساجدا حين يغيب ثم لاينصرف حتى

أمر الله عند حشره وقيل حكمه وقضاءه عند المجئ وقيل قدم على الله وقيل عند
العمل والمعنى متقارب (فوفاه حسابه) أى أعطاه وافيا كاملا حساب عمله المذكور وجزاءه
فان اعتقاده لنفعه بغير ايمان وعمله بموجبه كفر على كفر موجب للعقاب قطعا وافراد
الضميرين الراجعين الى الذين كفروا اما لارادة الجنس كالظمآن الواقع فى التمثيل واما
للحمل على كل واحد منهم وكذا افراد ما يرجع الى أعمالهم (والله سريع الحساب) لعباده
من آمن منهم ومن كفر عن السدى عن أبيه عن أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال
ان الكفار يبعثون يوم القيامة وردا عطاشا فيقولون أين الماء فيمثل لهم السراب
فيحسبونه ماء فينطلقون اليه فيجدون الله عنده فيوفيهم حسابهم والله سريع الحساب
أخرجه ابن أبى حاتم وعبد بن حميد وابن المنذر وفى اسناده السدى عن أبيه وفيه مقال
معروف (أو كظلمات) معطوف على كسراب ضرب الله سبحانه مثلا آخر لاعمال الكفار
اى كما انها تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات فهى أيضا تشبه الظلمات قال الزجاج
أعلم الله سبحانه ان أعمال الكفار ان مثلت بما يوجد فمثلها كمثل السراب وان مثلت بما
يرى فهى كهذه الظلمات التى وصفت وقال أيضا ان شئت مثلت بالسراب وان شئت
مثلت بهذه الظلمات فأو للاباحة والتخيير حسبما تقدم من القول فى أو كصيب قال
الجرجانى الآية الاولى فى ذكر أعمال الكفار والثانية فى ذكر كفرهم ونسق الكفر على
أعمالهم لانه ايضا من اعمالهم قال القشيرى فعند الزجاج التمثيل وقع لاعمال الكفار
وعند الجرجانى لكفر الكفار وقيل أو للتقسيم باعتبار وقتين فانها كالسراب فى الدنيا
وكالظلمات فى الآخرة وقيل أو للتنويع يعنى ان اعمالهم ان كانت حسنة فهى كسراب
وان كانت سيئة فهى كظلمات (فى بحر لجى) اللجة معظم الماء والجمع لجج وهو الذى لايدرك
عمقه ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى فقال (يغشاه) اى يعلو هذا البحر (موج)
فيستره ويغطيه بالكلية والموج ما ارتفع من الماء ثم وصف هذا الموج بقوله (من فوقه)

يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع الى مطلعه وأما الجبال والشجر فسجودهما بفىء ظلالهما عن اليمين والشمائل وعن ابن عباس قال جاء رجل فقال يا رسول الله انى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة فسجدت فسجدت الشجرة لسجودى فسمعتها وهى تقول اللهم اكتب لى بها عندك أجرا وضع عنى بها وزرا واجعلها لى عندك ذخرا وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سجدة ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة رواه الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه وقوله والدواب أى الحيوانات كلها وقد جاء فى الحديث عند الامام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر فرب مركوبة خير أو أكثر ذكرا لله تعالى من راكبها وقوله وكثير من الناس أى يسجد لله طوعا مختارا متعبدا بذلك وكثير حق عليه العذاب أى ممن امتنع وأبى واستكبر ومن يهن الله فما له من مكرم ان الله يفعل ما يشاء وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن شيبان الرملى حدثنا القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على قال قيل لعلى ان ههنا رجلا يتكلم فى المشيئة فقال له على يا عبد الله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت قال بل كما شاء قال فيمرضك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيشفيك اذا شاء أو اذا شئت قال بل اذا شاء قال فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه عيناك بالسيف وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكى يقول يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار رواه مسلم وقال الامام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم وأبو عبد الرحمن المقرى قالا حدثنا ابن لهيعة قال حدثنا مشرح بن هاعان أبو مصعب المعافرى قال سمعت عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين قال نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما ورواه أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن لهيعة به وقال الترمذى ليس بقوى وفى هذا نظر فان ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع وأكثر ما نقموا عليه تدليسه وقد قال أبو داود فى المراسيل حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح أنبأنا ابن وهب أخبرنى معاوية بن صالح عن عامر بن جشب عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ثم قال أبو داود وقد أسند هذا يعنى من غير هذا الوجه ولا يصح وقال الحافظ أبو بكر الاسماعيلى حدثنى ابن أبى داود حدثنا يزيد بن عبد الله حدثنا الوليد حدثنا أبو عمرو حدثنا حفص بن غياث حدثنى نافع قال حدثنى أبو الجهم أن عمر سجد سجدتين فى الحج وهو بالجابية وقال ان هذه

أى من فوق هذا الموج (موج) ثان متراكم فيه اشارة الى كثرة الامواج وتراكم بعضها فوق بعض ثم وصف الموج الثانى فقال (من فوقه سحاب) فيجتمع حينئذ خوف البحر وامواجه والسحاب المرتفعة فوقه وقيل ان المعنى يغشاه موج من بعده موج فيكون الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض والبحر اخوف ما يكون اذا توالت أمواجه فاذا انضم الى ذلك وجود السحاب من فوقه زاد الخوف شدة لانها تستر النجوم التى يهتدى بها من فى البحر ثم اذا امطرت تلك السحاب وهبت الريح المعتادة فى الغالب عند نزول المطر تكاثفت الهموم وترادفت الغموم وبلغ الامر الى الغاية التى ليس وراءها غاية ولهذا قال سبحانه (ظلمات بعضها فوق بعض) اى هى ظلمات او هذه ظلمات متكاثفة مترادفة ففى هذه الجملة بيان لشدة الامر وتعاظمه وبلوغه النهاية القصوى ووجه الشبه ان الله تعالى ذكر ثلاثة انواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل وقال أبى بن كعب الكافر يتقلب فى خمس من الظلمات كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره الى الظلمات يوم القيامة فى النار قرئ سحاب ظلمات بالاضافة ووجهها ان السحاب ترتفع وقت هذه الظلمات فأضيف اليها لهذه الملابسة وقرئ بالقطع والتنوين ومن غرائب التفاسير انه سبحانه اراد بالظلمات اعمال الكافر وبالبحر اللجى قلبه وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة وبالسحاب الرين والختم والطبع على قلبه وهذا تفسير هو عن لغة العرب بمكان بعيد وعن ابن عباس قال يعنى بالظلمات الاعمال وبالبحر اللجى قلب الانسان يغشاه موج يعنى بذلك الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر ثم بالغ سبحانه فى هذه الظلمات المذكورة بقوله (اذا أخرج) أى الناظر أو الحاضر فى هذه الظلمات أو من ابتلى بها (يده) مع انها أقرب شئ اليه (لم يكد يراها) أى لم يقرب من رؤيتها قال الزجاج وأبو عبيدة المعنى لم يرها ولم يكد وقال الفراء ان كاد زائدة والمعنى اذا

فصلت بسجدتين وروى أبو داود وابن ماجه من حديث الحرث بن سعيد الدمشقي عن عبد الله بن منين عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان فهذه شواهد يشد بعضها بعضا (هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) ثبت في الصحيحين من حديث أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي ذر أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية هذان خصمان اختصموا في ربهم نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر لفظ البخاري عند تفسيرها ثم قال البخاري حدثنا حجاج بن المنهال حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبي حدثنا أبو مجلز عن قيس بن (٣٢٦) عباد عن علي بن أبي طالب أنه قال أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة قال قيس وفيهم نزلت هذان خصمان اختصموا في ربهم قال هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة انفرد به البخاري وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله هذان خصمان اختصموا في ربهم قال اختصم المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم وقال المسلمون كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء فنحن أولى بالله منكم فأفلج الله الإسلام على من ناواه وأنزل هذان خصمان اختصموا في ربهم وكذا روى العوفي عن ابن عباس وقال شعبة عن قتادة في قوله هذان خصمان اختصموا في ربهم قال مصدق ومكذب وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية هم المؤمنون والكافرون وقال عكرمة هذان خصمان اختصموا في ربهم قال هي الجنة والنار قالت النار اجعلني للعقوبة وقالت الجنة اجعلني للرحمة وقول مجاهد وعطاء أن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل وهذا اختيار ابن جرير وهو حسن ولهذا قال فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار أي فصلت لهم مقطعات من النار قال سعيد بن جبير من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود أي إذا صب على رؤسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة وقال سعيد بن جبير هو النحاس المذاب أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم وكذلك تذوب جلودهم وقال ابن عباس وسعيد تساقط وقال ابن جرير حدثني محمد بن المثنى حدثني إبراهيم

أخرج يده لم يرها كما تقول ما كدت أعرفه وقال المبرد يعني لم يرها إلا من بعد الجهد لشدة الظلمة قال النحاس أصح الأقوال في هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها فإذن لم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) مقررة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة قال الزجاج ذلك في الدنيا والمعنى من لم يهده الله لم يهتد وقيل إن المعنى من لم يجعل له نورا يمشي به يوم القيامة فما له من نور يهتدي به إلى الجنة وقيل من لم يجعل له دينا وإيمانا فلا دين له وقيل المعنى من لم يقدر له الهداية ولم يوفقه لأسبابها فما له من نور خلاف الموفق الذي له نور على نور والآية عامة في حق جميع الكفار وقيل خاصة فيمن نزلت فيه وهو عتبة بن ربيعة كان يلتمس الدين في الجاهلية ويلبس المسوح فلما جاء الإسلام كفر وعاند والأول أولى (ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض) قد تقدم تفسير مثل هذه الآية في تفسير سورة سبحان والخطاب لكل من له أهلية النظر أو للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد علمه من جهة الاستدلال ومعنى ألم تر ألم تعلم والهمزة للتقرير أي قد علمت علما يقينيا شبيها بالمشاهدة والوثاقة بالوحي وظاهره أنه استعارة ومقتضى كلام النحويين أن رأى العلمية حقيقة قاله الشهاب والتسبيح التنزيه في ذاته وأفعاله وصفاته عن كل ما لا يليق به ومعنى من في السموات والأرض من هو مستقر فيهما من العقلاء وغيرهم وتسبيح غير العقلاء ما يسمع من أصواتها ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها وقيل إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء والتنزيه من غيرهم وقد قيل إن هذه الآية تشمل الحيوانات والجمادات وإن آثار الصنعة البديعة الإلهية في الجمادات ناطقة ومخبرة باتصافه سبحانه بصفات الجلال والكمال وتنزهه عن سمات النقص والزوال وفي ذلك تقريع للكفار وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادته عز وجل وبالجملة فإنه ينبغي حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز

(والطير

أبو اسحق الطالقاني حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن ابن حجيرة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الحميم ليصب على رؤسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص الى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان ورواه الترمذي من حديث ابن المبارك وقال حسن صحيح وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي نعيم عن ابن المبارك به ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال سمعت عبد الله بن السري قال يأتيه الملك يحمل الاناء بكلبتين من حرارته فاذا أدناه من وجهه تكرهه قال فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه ثم يفرغ الاناء من دماغه فيصل الى جوفه من دماغه فذلك قوله يصهر به ما في بطونهم والجلود وقوله ولهم مقامع من حديد قال الامام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله (٣٢٧) صلى الله عليه وسلم قال لو ان مقمعا من حديد وضع في الارض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الارض وقال الامام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان ولو ان دلوا من غساق يهراق في الدنيا لانتن أهل الدنيا وقال ابن عباس في قوله ولهم مقامع من حديد قال يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور وقوله كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها قال الاعمش عن أبي ظبيان عن سلمان قال النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها ثم قرأ كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وقال زيد بن أسلم في هذه الآية كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها قال بلغني ان أهل النار في النار لا يتنفسون وقال الفضيل بن عياض والله ما طمعوا في الخروج ان الارجل لمقيدة وان الايدي لموثقة ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها وقوله وذوقوا عذاب الحريق كقوله وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ومعنى الكلام انهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا

(ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد) لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عياذا بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والاغلال وما أعد لهم من الثياب من النار ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه فقال ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار أي تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها يصرفونها حيث شاؤا وأين أرادوا يحلون فيها من الحلية من أساور من ذهب ولؤلؤا أي في أيديهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم

(والطير صافات) أي باسطات اجنحتها في الهواء وخص الطير بالذكر مع دخولها تحت من في السموات والارض لعدم استقرار استقرارها في الارض وكثرة لبثها في الهواء وهو ليس من السماء ولا من الارض ولما فيها من الصنعة البديعة التي يقدر بها تارة على الطيران وتارة على المشي بخلاف غيرها من الحيوانات وذكر حالة من حالات الطير وهي كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لاجنحتها لان هذه الحالة هي اغرب أحوالها فان استقرارها في الهواء مسبحة من دون تحريك لاجنحتها ولا استقرار على الارض من أعظم صنع الله الذي اتقن كل شيء ثم زاد في البيان فقال (كل قد علم صلاته وتسبيحه) أي كل واحد من هذه المسبحات لله قد علم صلاة المصلي وتسبيح المسبح وقيل ان المعنى ان كل مصل ومسبح قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه قال السمين وهذا أولى لتوافق الضمائر وقيل والصلاة هنا بمعنى التسبيح وكرر للتأكيد والصلاة قد تسمى تسبيحا وقيل المراد بها هنا الدعاء أي علم دعاءه وفائدة الاخبار بان كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها الله ذلك والهمها اليه لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه وعظم شأنه من كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له وقال السدي الصلاة للانسان والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه وقيل ان ضرب أجنحة الطير صلاته وصوته تسبيحه أو المعنى كل واحد من هذه المسبحة قد علم الله صلاته له وتسبيحه اياه والاول أرجح لاتفاق القراء على رفع كل ولو كان الضمير لله لكان نصب كل أولى وقيل المعنى علم كل صلاة الله وتسبيحه أي اللذين أمر بهما وبان يفعلا كاضافة الخلق الى الخالق والاول أولى وقرئ علم على البناء للمفعول (والله عليم بما يفعلون) مقررة لما قبلها أي لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم ولا يعزب عن علمه شيء ثم بين سبحانه أن المبدأ منه والمعاد اليه فقال (ولله) لا لغيره (ملك السموات والارض) أي خزائن المطر والرزق والنبات لانه خالقهما ولا يملكهما أحد سواه ومن ملك شيأ فبتمليكه

في الحديث المتفق عليه تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء وقال كعب الاحبار ان في الجنة ملكا لو شئت ان اسميه لسميته يصوغ لاهل الجنة الحلي منذ خلقه الله الى يوم القيامة لو ابرز قلب منها أى سوار منها لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر وقوله ولباسهم فيها حرير في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه كما قال عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا وفي الصحيح لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فانه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة قال عبد الله بن الزبير ومن لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى ولباسهم فيها حرير وقوله وهدوا الى الطيب من القول كقوله تعالى وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام وقوله والملائكة يدخلون عليهم من كل

باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقوله لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما فهدوا الى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب وقوله ويلقون فيها تحية وسلاما لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به يقال لهم ذوقوا عذاب الحريق وقوله وهدوا الى صراط الحميد أى الى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن اليهم وانعم به وأسداه اليهم كما جاء في الحديث الصحيح انهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وقد قال بعض المفسرين في قوله وهدوا الى الطيب من القول أى القرآن وقيل لا اله الا الله وقيل الاذكار المشروعة وهدوا الى صراط الحميد أى الطريق المستقيم في الدنيا وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه والله أعلم (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) يقول تعالى منكرا على الكفار في صدهم المؤمنين عن اتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم انهم أولياؤه وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون الآية وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية كما قال في سورة البقرة يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله وقال ههنا ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام أى ومن صفتهم انهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام اى ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الامر وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب اى ومن صفتهم انهم تطمئن قلوبهم بذكر الله وقوله الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد أى يمنعون الناس عن الوصول الى المسجد الحرام وقد جعله الله شرعا سواء

تعالى اياه (والى الله) لا الى غيره (المصير) أى الرجوع بعد الموت وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في غير موضع ثم ذكر سبحانه دليلا آخر من الآثار العلوية فقال (ألم تر أن الله يزجي سحابا) الازجاء السوق قليلا قليلا والمعنى أنه يسوق السحاب سوقا رفيقا الى حيث يشاء يقال زجى الشئ تزجية دفعه برفق وتزجى بكذا اكتفى به وازجى الابل ساقها والمزجى الشئ القليل وبضاعة مزجاة قليلة والريح تزجي السحاب والبقرة تزجي ولدها أى تسوقه (ثم يؤلف بينه) أى بين اجزائه فيضم بعضه الى بعض ويجمعه بعد تفرقه ليقوى ويتصل ويكثف والاصل في التأليف الهمز وقرئ يولف بالواو تخفيفا والسحاب واحد في اللفظ ولكن معناه جمع ولهذا دخلت بين عليه لان أجزاءه في حكم المفردات له قال الفراء ان الضمير في بينه راجع الى جملة السحاب كما تقول الشجر قد جلست بينه لانه جمع وافرد الضمير باعتبار اللفظ (ثم يجعله ركاما) اى متراكما يركب بعضه بعضا والركم جمع الشئ يقال ركم الشئ يركمه ركما اى جمعه والقى بعضه على بعض وبابه نصر وارتكم الشئ وتراكم اذا اجتمع والركمة الطين المجموع والركام الرمل المتراكب والسحاب ونحوه (فترى الودق) هو المطر عند جمهور المفسرين يقال ودقت السحاب فهي وادقة وودق المطر يدق اى قطر يقطر وقيل ان الودق المطر ضعيفا كان او شديدا والرؤية هنا بصرية (يخرج من خلاله) أى من فتوقه وفروجه التي هي مخارج القطر منه قال كعب ان السحاب غربال المطر لولا السحاب حين ينزل المطر من السماء لافسد ما يقع عليه من الارض وقرئ من خلله على الافراد وقد وقع الخلاف في خلال هل هو مفرد كحجاب أو جمع كجبال (وينزل من السماء) أى من عال لان السماء قد يطلق على جهة العلو (من جبال) أى من قطع عظام تشبه الجبال (فيها من برد) من للتبعيض وهو مفعول ينزل قيل التقدير من برد بردا وقيل ينزل من السماء قدر جبال أو مثل جبال من برد الى الارض قال الاخفش ان من زائدة في الموضعين أى ينزل من السماء بردا يكون كالجبال

لافرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه سواء العاكف فيه والباد ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله سواء العاكف فيه والباد قال ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام وقال مجاهد سواء العاكف فيه والباد أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة سواء فيه أهله وغير أهله وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي واسحق بن راهويه بمسجد الخيف واحمد بن حنبل حاضر أيضا فذهب الشافعي رحمه الله الى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر واحتج بحديث الزهري عن علي ابن الحسين عن عمرو بن عثمان عن اسامة بن زيد قال قلت يا رسول الله اتنزل غدا في دارك بمكة فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع ثم قال لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وبما ثبت ان عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم وبه قال طاوس وعمرو بن دينار وذهب اسحق ابن راهويه الى انها لا تورث ولا تؤجر وهو مذهب طائفة من السلف ونص عليه مجاهد وعطاء واحتج اسحق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن حسين عن عثمان بن أبي سليمان عن علقمة بن نضلة قال توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة الا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن وقال عبد الرزاق عن مجاهد عن أبيه عن عبد الله بن عمرو انه قال لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها وقال أيضا عن ابن جريج كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم وأخبرني ان عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لان ينزل الحاج في عرصاتها

فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو فأرسل اليه عمر بن الخطاب في ذلك فقال انظرني يا أمير المؤمنين اني كنت امرأ تاجرا فأردت ان أتخذ بابين يحبسان لي ظهري قال فلك ذلك اذا وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد ان عمر بن الخطاب قال يا أهل مكة لا تتخذوا الدور لكم أبوابا لينزل البادي حيث يشاء قال وأخبرنا معمر عمن سمع عطاء يقول سواء العاكف فيه والباد قال ينزلون حيث شاؤا وروى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح عن عبد الله بن عمرو موقوفا من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا وتوسط الامام أحمد فقال تملك وتورث ولا تؤجر جمعا بين الادلة والله أعلم وقوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم قال بعض المفسرين من أهل العربية الباء ههنا زائدة كقوله تنبت بالدهن أي تنبت الدهن وكذا قوله ومن يرد فيه بالحاد تقديره الحادا وكما قال الاعشى

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا * بين المراجل والصريح الاجرد

والحاصل ان من في من السماء لابتداء الغاية باتفاق المفسرين بلا خلاف وفي من جبال ثلاثة أوجه الاول انها لابتداء الغاية والثاني انها للتبعيض كأنه قال وينزل بعض جبال الثالث انها زائدة أي ينزل من السماء جبالا واما من في من برد ففيها أربعة أوجه الثلاثة المتقدمة والرابع انها لبيان الجنس قاله الحوفي والزمخشري أي وينزل من السماء بعض جبال التي هي البرد فالمنزل برد لان بعض البرد برد قال الزجاج معنى الآية وينزل من السماء من جبال برد فيها وذكر أبو البقاء ان التقدير شيأ من جبال قيل ان في السماء جبالا من برد كما في الارض جبال من حجر وقيل المراد بذكر الجبال الكثرة كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب وفضة (فيصيب به) أي بما ينزل من البرد كما في البيضاوي والخازن (من يشاء) ان يصيبه من عباده (ويصرفه عمن يشاء) منهم أو يصيب به مال من يشاء ويصرفه عن مال من يشاء وقد تقدم الكلام على مثل هذا في البقرة (يكاد سنا برقه) العامة على قصر سنا وهو الضوء وهو من ذوات الواو يقال سنا يسنو سنا أي اضاء يضيء وبالمد الرفعة كذا قال المبرد وغيره وقرئ سناء برقه بالمد على المبالغة في شدة الضوء والصفاء فأطلق عليه اسم الرفعة والشرف وقرئ بضم الباء من برقه وفتح الراء وهي على هذا جمع برقة وقال النحاس البرقة المقدار من البرق والبرقة الواحدة والمعنى يكاد ضوء البرق الذي في السحاب (يذهب بالابصار) من شدة بريقه وزيادة لمعانه وهو كقوله يكاد البرق يخطف أبصارهم وقرئ يذهب من الاذهاب ويذهب من الذهاب والابصار جمع بصر أي الناظرة والباء للالصاق وقيل للتعدية وقيل هي بمعنى من والمفعول محذوف تقديره يذهب النور من الابصار فسبحان من يخرج الماء والنار والنور والظلمة من شيء واحد وقيل زائدة (يقلب الله الليل والنهار) أي يعاقب بينهما فيأتي بالليل ويذهب بالنهار ويأتي بالنهار ويذهب بالليل وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الامر أقلب الليل والنهار

وقال الآخر   بواديمان ينبت الشث صدره * وأسفله بالمرخ والشبهان

والاجود انه ضمن الفعل ههنا معنى يهم ولهذا عداه بالباء فقال ومن يرد فيه بالحاد أى يهم فيه بأمر فظيع من المعاصى الكبار وقوله بظلم أى عامدا قاصدا انه ظلم ليس بمتأول كما قال ابن جريج عن ابن عباس هو التعمد وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس بظلم بشرك وقال مجاهد ان يعبد فيه غير الله وكذا قال قتادة وغير واحد وقال العوفى عن ابن عباس بظلم هو ان تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من اساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك فاذا فعل ذلك فقد وجب العذاب الاليم وقال مجاهد بظلم يعمل فيه عملا سيأ وهذا من خصوصية الحرم انه يعاقب البادى فيه الشر اذا كان عازما عليه وان لم يوقعه كما قال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يزيد بن هرون (٣٣٠) أنبأنا شعبة عن السدى انه سمع من يحدث عن عبد الله يعنى ابن مسعود فى قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم قال لو ان رجلا أراد فيه الحادا بظلم وهو بعدن أبين لاذاقه الله من العذاب الاليم قال شعبة هو رفعه لنا وانا لا أرفعه لكم قال يزيد هو قد رفعه ورواه أحمد عن يزيد بن هرون به قلت هذا الاسناد صحيح على شرط البخارى ووقفه أشبه من رفعه ولهذا صمم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود وكذلك رواه أسباط وسفيان الثورى عن السدى عن مرة عن ابن مسعود موقوفا والله أعلم وقال الثورى عن السدى عن مرة عن عبد الله قال ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه ولو ان رجلا بعدن أبين هم ان يقتل رجلا بهذا البيت لاذاقه الله من العذاب الاليم وكذا قال الضحاك بن مزاحم وقال سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد الحاد فيه لا والله وبلى والله وروى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو مثله وقال سعيد بن جبير شتم الخادم ظلم فما فوقه وقال سفيان الثورى عن عبد الله بن عطاء عن ميمون بن مهران عن ابن عباس فى قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم قال تجارة الامير فيه وعن ابن عمر بيع الطعام بمكة الحاد وقال حبيب بن أبى ثابت ومن يرد فيه بالحاد بظلم قال المحتكر بمكة وكذا قال غير واحد وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن اسحق الجوهرى أنبأنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى عن عمه عمارة بن ثوبان حدثنى موسى بن باذان عن يعلى بن أمية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال احتكار الطعام بمكة الحاد وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا عطاء بن دينار حدثنى سعيد بن جبير قال قال ابن عباس فى قول الله ومن يرد فيه بالحاد بظلم قال نزلت فى عبد الله بن أنيس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الانصار فافتخروا فى الانساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل

أخرجه البخارى ومسلم وقيل يزيد فى احدهما وينقص الآخر وقيل يقلبهما باختلاف ما يقدر فيهما من خير وشر ونفع وضر وقيل بالحر والبرد وقيل المراد بذلك تغيير النهار بظلمة السحاب مرة وبضوء الشمس أخرى وتغيير الليل بظلمة السحاب تارة وبضوء القمر أخرى (ان فى ذلك) اشارة الى ما تقدم من ازجاء السحاب وانزال الودق والبرد وتقليب الجديدين (لعبرة) أى لدلالة واضحة يكون بها الاعتبار (لأولى الابصار) أى لكل من له بصر يبصر به فهى براهين لائحة على وجوده ودلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبر ثم ذكر سبحانه دليلا ثالثا من عجائب خلق الحيوان وبديع صنعته فقال (والله خلق كل دابة) وقرئ خالق والمعنيان صحيحان والدابة كل ما دب على الارض من الحيوان يقال دب يدب فهو داب والهاء للمبالغة ومعنى (من ماء) من نطفة وهى المنى كذا قال الجمهور ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم وقال جماعة ان المراد الماء المعروف لان آدم خلق من الماء والطين قيل وخلق كل دابة من نطفة انما هو بحسب الاغلب فى خلق حيوانات الارض المشاهدة والا فالملائكة خلقوا من نور وهم أكثر المخلوقات عددا والجان خلقوا من نار وهم بقدر تسعة أعشار الانس كما قيل وآدم خلق من الطين وعيسى من الريح التى نفخها جبريل فى جيب مريم وخلق الدود من نحو الفاكهة والعفونات ثم فصل سبحانه أحوال كل دابة فقال (فمنهم من يمشى على بطنه) وهى الحيات والهوام والحوت والدود ونحو ذلك وسمى الزحف على البطن مشيا استعارة كما استعير المشفر للشفة وبالعكس كما يقال فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر وفلان ما يمشى له أمر أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين (ومنهم من يمشى على رجلين) وهم الانسان والطير والنعام (ومنهم من يمشى على أربع) كالبهائم وسائر الحيوانات وقدم ما هو اعرف فى القدرة وهو الماشى بغير آلة المشى من أرجل أو غيرها ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على اربع وقال من ولم يقل ما تغليبا لمن يعقل على ما لا يعقل لان جعل النفيس اصلا والخسيس

تبعا

الانصاري ثم ارتد عن الاسلام ثم هرب الى مكة فنزلت فيه ومن يرد فيه بالحاد بظلم يعني من لجأ الى الحرم بالحاد يعني بميل عن الاسلام وهذه الآثار وان دلت على ان هذه الاشياء من الالحاد ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول أي دمرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء ولذلك ثبت في الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يغزو هذا البيت جيش حتى اذا كانوا ببيداء من الارض خسف بأولهم وآخرهم الحديث وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن كناسة حدثنا اسحق بن سعيد عن أبيه قال أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير فقال يا ابن الزبير اياك والالحاد في حرم الله فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انه سيلحد فيه رجل من قريش لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت فانظر لا تكن هو وقال أيضا في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص حدثنا هاشم حدثنا اسحق بن سعيد حدثنا سعيد بن عمرو قال أتى عبد الله بن عمر عبد الله ابن الزبير وهو جالس في الحجر فقال يا ابن الزبير اياك والالحاد في الحرم فاني أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحلها ويحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها قال فانظر لا تكن هو لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيأ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله واشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له فذكر تعالى انه بوأ ابراهيم مكان البيت أي ارشده اليه وسلمه له وأذن له في بنائه واستدل به كثير ممن قال ان ابراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وانه لم يبن قبله كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة وقد قال الله تعالى ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا الآيتين وقال تعالى وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن اعادته ههنا وقال تعالى ههنا أن لا تشرك بي شيأ أي ابنه على اسمي وحدي وطهر بيتي قال قتادة ومجاهد من الشرك للطائفين والقائمين والركع السجود أي اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له فالطائف به معروف وهو أخص العبادات عند البيت فانه لا يفعل ببقعة في الارض سواها والقائمين أي في الصلاة ولهذا قال والركع السجود فقرن الطواف بالصلاة لانهما

تبعا لأولى قال ابن عباس كل شيء يمشي على أربع الا الانسان واقول هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشي على رجلين وهكذا غيرها كالنعامة فانها تمشي على رجلين وليست من الطير فهذه الكلية المروية عنه رضي الله تعالى عنه لا تصح ولم يتعرض سبحانه لما يمشي على اكثر من اربع لقلته وقيل لان المشي على اربع فقط وان كانت القوائم كثيرة وقيل لعدم الاعتداد بما يمشي على اكثر من اربع ولا وجه يكون لهذا فان المراد التنبيه على بديع الصنع وكمال القدرة فكيف يقال لعدم الاعتداد بما يمشي على اكثر من اربع وقيل ليس في القرآن ما يدل على عدم المشي على اكثر من اربع لانه لم ينف ذلك ولا جاء بما يقتضي الحصر وفي مصحف أبي ومنهم من يمشي على اكثر فعم بهذه الزيادة جميع ما يمشي على اكثر من اربع كالسرطان والعناكب والحيوان المعروف بام اربع واربعين وكثير من خشاش الارض كالعقارب وقيل انما لم يتعرض لهذا القسم لدخوله في قوله (يخلق الله ما يشاء) أي مما ذكره هنا ومما لم يذكره كالجمادات مركبها وبسيطها ناميها وغير ناميها على اختلاف الصور والاعضاء والهيآت والحركات والطبائع والقوى والافعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته (ان الله على كل شيء قدير) لا يعجزه شيء ولا يمنعه مانع بل الكل من مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه (لقد أنزلنا آيات مبينات) بكسر الياء وفتحها سبعيتان وكذلك في كل ما جاء من هذا الجمع في القرآن والمراد بها القرآن فانه قد اشتمل على بيان كل شيء ما فرطنا في الكتاب من شيء وفيه التفات قد تقدم مثل هذا في غير موضع (والله يهدي من يشاء) بتوفيقه للنظر الصحيح وارشاده الى التأمل الصادق (الى صراط مستقيم) أي طريق مستوى لا عوج فيه فيتوصل بذلك الى الخير التام وهو نعيم الجنة ثم شرع سبحانه في بيان احوال من لم تحصل له الهداية الى الصراط المستقيم فقال (ويقولون آمنا بالله وبالرسول واطعنا) وهؤلاء هم المنافقون الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ويقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم فانهم كما حكى الله عنهم ههنا ينسبون الى

لايشرعان الا للمختصين بالبيت فالطواف عنده والصلاة اليه فى غالب الاحوال الا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب وفى النافلة فى السفر والله أعلم وقوله وأذن فى الناس بالحج أى نادى فى الناس داعيا لهم الى الحج الى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه فذكر انه قال يارب كيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم فقال نادو علينا البلاغ فقام على مقامه وقيل على الحجر وقيل على الصفا وقيل على أبى قبيس وقال ياأيها الناس ان ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه فيقال ان الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الارض وأسمع من فى الارحام والاصلاب وأجابه كل شئ سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله أنه يحج الى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك هذا مضمون ماروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم اوردها ابن جرير وابن أبى حاتم مطولة وقوله يأتوك رجالا وعلى كل ضامر الآية قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء

الى أن الحج ماشيا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبا لانه قدمهم فى الذكر فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم وقال وكيع عن أبى العميس عن أبى حلحلة عن محمد بن كعب عن ابن عباس قال ماأساء على شئ الا انى وددت انى كنت حججت ماشيا لان الله يقول يأتوك رجالا والذى عليه الاكثرون ان الحج راكبا أفضل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه حج راكبا مع كمال قوته عليه السلام وقوله يأتين من كل فج يعنى طريق كما قال وجعلنا فيها فجاجا سبلا وقوله عميق اى بعيد قاله مجاهد وعطاء والسدى وقتادة ومقاتل بن حيان والثورى وغير واحد وهذه الآية كقوله تعالى اخبارا عن ابراهيم حيث قال فى دعائه فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم فليس أحد من أهل الاسلام الا وهو يحن الى رؤية الكعبة والطواف فالناس يقصدونها من سائر الجهات والاقطار (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) قال ابن عباس ليشهدوا منافع لهم قال منافع الدنيا والآخرة اما منافع الآخرة فرضوان الله وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات وكذا قال مجاهد وغير واحد انها منافع الدنيا والآخرة كقوله ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم وقوله ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام قال شعبة وهشيم عن أبى بشر عن سعيد عن ابن عباس الايام المعلومات أيام العشر وعلقه البخارى عنه بصيغة الجزم ويروى مثله عن أبى موسى الاشعرى ومجاهد وقتادة وعطاء وسعيد بن جبير والحسن والضحاك وعطاء الخراسانى وابراهيم النخعى وهو مذهب الشافعى والمشهور عن أحمد بن حنبل

الزجاج

أنفسهم الايمان بالله وبالرسول والطاعة لله ولرسوله نسبة بمجرد اللسان لا عن اعتقاد صحيح وعن قتادة قال اناس من المنافقين اظهروا الايمان والطاعة وهم فى ذلك يصدون عن سبيل الله وطاعته وجهاده مع رسوله (ثم يتولى) أى يعرض (فريق منهم) أى من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة (من بعد ذلك) أى من بعد ماصدر عنهم مما نسبوه الى انفسهم من دعوى الايمان والطاعة ثم حكم عليهم سبحانه وتعالى بعدم الايمان فقال (وما اولئك) القائلون بهذه المقالة (بالمؤمنين) على الحقيقة الموافق قلوبهم لالسنتهم فيشمل الحكم بنفى الايمان جميع القائلين ويندرج تحتهم من تولى اندراجا أوليا وقيل ان الاشارة بقوله اولئك راجع الى من تولى والاول أولى والكلام مشتمل على حكمين الحكم الاول على بعضهم بالتولى والحكم الثانى على جميعهم بعدم الايمان وقيل اراد بمن تولى من تولى عن قبول حكمه صلى الله عليه وآله وسلم وقيل اراد بذلك رؤساء المنافقين وقيل اراد بتولى هذا الفريق رجوعهم الى الباقين ولا ينافى ماتحتمله هذه الآية باعتبار لفظها ورودها على سبب خاص ثم وصف هؤلاء المنافقين بان فريقا منهم يعرضون عن اجابة الدعوة الى الله والى رسوله فى خصومتهم فقال (واذا دعوا الى الله ورسوله) المبلغ عنه (ليحكم بينهم) أى الرسول فالضمير راجع اليه لانه المباشر للحكم وان كان الحكم فى الحقيقة لله سبحانه ومثل ذلك قوله تعالى والله ورسوله احق ان يرضوه (اذا فريق منهم معرضون) اذا هى الفجائية أى فاجأ فريق منهم الاعراض عن المحاكمة الى الله والرسول أو عن الاجابة والمجئ اليه وهذا هو شأن مقلدة المذاهب بعينه اليوم يعرضون عن اجابة الداعى الى الله ورسوله وعن التحاكم اليهما أى الى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ثم ذكر سبحانه ان اعراضهم انما هو اذا كان الحق عليهم واما اذا كان لهم فانهم يذعنون لعلمهم بان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يحكم الا بالحق فقال (وان يكن لهم الحق) أى اذا كان الحكم لهم على غيرهم (يأتوا اليه مذعنين) مطيعين منقادين لحكمه طلبا لحقهم لا رضاء بحكم رسولهم قال

وقال البخاري حدثنا محمد بن عرعرة حدثنا شعبة عن سليمان عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما العمل في أيام أفضل منها في هذه قالوا ولا الجهاد في سبيل الله قال ولا الجهاد في سبيل الله الا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء ورواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بنحوه وقال الترمذي حديث حسن غريب صحيح وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر قلت وقد تقصيت هذه الطرق وأفردت لها جزأ على حدة فمن ذلك ما قال الامام أحمد حدثنا عثمان أنبأنا أبو عوانة عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب اليه العمل فيهن من هذه الايام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد وروي من وجه آخر عن مجاهد عن ابن عمر بنحوه وقد روى أحمد عن جابر مرفوعا ان هذا

هو العشر الذي أقسم الله به في قوله والفجر وليال عشر وقال بعض السلف انه المراد بقوله وأتممناها بعشر وفي سنن أبي داود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم هذا العشر وقال البخاري وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان الى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم عرفة فقال أحتسب على الله ان يكفر السنة الماضية والآتية وتشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الاكبر وقد ورد في حديث انه أفضل الايام عند الله وبالجملة فهذا العشر قد قيل انه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث وفضله كثير على عشر رمضان الاخير لان هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره ويمتاز هذا باختصاصه باداء فرض الحج فيه وقيل ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وتوسط آخرون فقالوا أيام هذا أفضل وليالي ذلك أفضل وبهذا يجتمع شمل الادلة والله أعلم قول ثان في الايام المعلومات قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس الايام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده ويروى هذا عن ابن عمر وابراهيم النخعي واليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه قول ثالث قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن المديني حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا ابن عجلان حدثني نافع ان ابن عمر كان يقول الايام المعلومات يوم النحر ويومان بعده والايام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر هذا اسناد صحيح اليه وقاله السدي وهو مذهب الامام مالك بن أنس ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى على ما رزقهم من بهيمة الانعام يعني به ذكر الله عند ذبحها قول رابع

الزجاج الاذعان الاسراع مع الطاعة يقال اذعن لي بحقي أي طاوعني لما كنت التمس منه وصار يسرع اليه وبه قال مجاهد وقال الاخفش وابن الاعرابي مذعنين مقرين وقال النقاش خاضعين والمعنى انهم لمعرفتهم انه ليس معك الا الحق المر والعدل البحت يمتنعون عن المحاكمة اليك اذا ركبهم الحق لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم وان ثبت لهم الحق على خصم اسرعوا اليك ولم يرضوا الا بحكومتك لتأخذ لهم ما وجب لهم في ذمة الخصم وما أصدق هذه الآية على المقلدين في صنيعهم مع أهل القرآن وأصحاب الحديث ثم قسم الامر في اعراضهم عن حكومته اذا كان الحق عليهم فقال (أفي قلوبهم مرض) هذه الهمزة للتوبيخ والتقريع لهم والمرض النفاق أي أكان هذا الاعراض منهم بسبب النفاق الكائن في قلوبهم وقيل مرض أي كفر وميل الى الظلم (أم ارتابوا) وشكوا في أمر نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعدله في الحكم أو رأوا منه تهمة فزال ثقتهم ويقينهم به (أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله) في الحكومة والحيف الميل في الحكم يقال حاف في قضيته أي جار فيما حكم به ثم اضرب عن هذه الامور التي صدرها بالاستفهام الانكاري فقال (بل أولئك هم الظالمون) أي ليس ذلك لشيء مما ذكر بل لعنادهم وظلمهم فانه لو كان الاعراض لشيء مما ذكر لما أتوا اليه مذعنين اذا كان الحق لهم وقيل اضراب عن القسمين الاخيرين لتحقق القسم الاول ووجه التقسيم ان امتناعهم اما لخلل فيهم أو في الحاكم والثاني اما ان يكون محققا عندهم أو متوقعا وكلاهما باطل لان منصب نبوته وفرط أمانته صلى الله عليه وآله وسلم يمنعه فتعين الاول وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم الى الحيف وضمير الفصل لنفي ذلك عن غيرهم سيما المدعو الى حكمه قاله البيضاوي وفي هذه الآية دليل على وجوب الاجابة الى القاضي العالم بحكم الله العادل في حكمه لان العلماء ورثة الانبياء والحكم من قضاة الاسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب والسنة العادلين في القضاء هو حكم بحكم الله ورسوله فالداعي الى

انها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده وهو مذهب ابي حنيفة وقال ابن وهب حدثني ابن زيد بن اسلم عن ابيه انه قال المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق وقوله على ما رزقهم من بهيمة الانعام يعني الابل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الانعام ثمانية أزواج الآية وقوله فكلوا منها واطعموا البائس الفقير استدل بهذه الآية من ذهب الى وجوب الاكل من الاضاحي وهو قول غريب والذي عليه الاكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب كما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها قال عبد الله بن وهب قال لي مالك أحب ان تأكل من ضحيته لان الله يقول فكلوا منها قال ابن وهب وسألت الليث فقال لي مثل ذلك وقال سفيان الثوري عن منصور عن ابراهيم فكلوا منها قال كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل وروي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك قال هشيم عن حصين عن مجاهد في قوله فكلوا منها قال هي كقوله فاذا حللتم فاصطادوا فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره واستدل من نصر القول بان الاضاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية فكلوا منها واطعموا البائس الفقير فجزأها نصفين نصف للمضحي ونصف للفقراء والقول الآخر انها تجزأ ثلاثة أجزاء ثلث له وثلث يهديه وثلث يتصدق به لقوله تعالى في الآية الاخرى فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر وسيأتي الكلام عليها عندها ان شاء الله وبه الثقة وقوله البائس الفقير قال عكرمة هو المضطر الذي عليه البؤس المتعفف وقال مجاهد هو الذي لا يبسط يده وقال قتادة هو الزمن وقال مقاتل بن حيان هو الضرير وقوله ثم ليقضوا تفثهم قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو وضع الاحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الاظفار ونحو ذلك وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه وكذا قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقال عكرمة عن ابن عباس ثم ليقضوا تفثهم قال التفث المناسك وقوله وليوفوا نذورهم قال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس يعني نحر ما نذر من أمر البدن وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد وليوفوا نذورهم نذر الحج والهدي وما نذر الانسان من شئ يكون في الحج وقال ابراهيم بن ميسرة عن مجاهد وليوفوا نذورهم قال الذبائح وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد وليوفوا نذورهم كل نذر الى أجل وقال عكرمة وليوفوا نذورهم قال حجهم وكذا روى الامام ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان في قوله وليوفوا نذورهم قال نذور الحج فكل

التحاكم اليهم قد دعا الى الله والى رسوله اي الى حكمهما قال ابن خويزمنداد واجب على كل من دعي الى مجلس الحاكم ان يجيب ما لم يعلم ان الحاكم فاسق قال القرطبي في هذه الآية دليل على وجوب اجابة الداعي الى الحاكم لان الله سبحانه ذم من دعي الى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه فأعرض بأقبح ذم فقال أفي قلوبهم مرض الآية انتهى فان كان القاضي مقصرا لا يعلم بأحكام الكتاب والسنة ولا يعقل حجج الله ومعاني كلامه وكلام رسوله بل كان جاهلا جهلا بسيطا وهو من لا علم له بشئ من ذلك أو جهلا مركبا وهو من لا علم عنده بما ذكرنا ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين واطلع على شئ من علم الرأي فهذا في الحقيقة جاهل وان اعتقد انه يعلم بشئ من العلم فاعتقاده باطل فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الاجابة اليه لانه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين اليه بل هو من قضاة الطاغوت وحكام الباطل فان ما عرفه من علم الرأي انما رخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب اليه عند عدم الدليل من الكتاب والسنة ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتي بعده واذا تقرر لديك هذا وفهمته حق فهمه علمت ان التقليد والانتساب الى عالم من العلماء دون غيره والتعبد بجميع ما جاء به من رواية ورأي واهمال ما عداه من أعظم ما حدث في هذه الملة الاسلامية من البدع المضلة والفواقر الموحشة فانا لله وانا اليه راجعون وقد أوضحت هذا في كتابي الجنة وأوضحه الشوكاني في القول المفيد وأدب الطلب وغيره في غيرهما فمن أراد ان يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت الاقطار الاسلامية فليرجع اليها وعن الحسن في الآية قال ان الرجل كان يكون بينه وبين الرجل خصومة أو منازعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاذا دعي الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو محق أذعن وعلم ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيقضي له بالحق واذا أراد ان يظلم فدعي الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعرض وقال انطلق الى فلان فأنزل الله سبحانه واذا دعوا الى الله ورسوله الى قوله هم الظالمون فقال رسول الله صلى الله عليه

وآله

من دخل الحج فعليه من العمل فيه الطواف بالبيت و بين الصفا والمروة وعرفة ومزدلفة ورمى الجمار على ما امروا به وروى عن مالك نحو هذا وقوله وليطوفوا بالبيت العتيق قال مجاهد يعنى الطواف الواجب يوم النحر وقال ابن أبى حاتم حدثنا ابى حدثنا موسى ابن اسمعيل حدثنا حماد عن أبى حمزة قال قال لى ابن عباس أتقرأ سورة الحج يقول الله تعالى وليطوفوا بالبيت العتيق فان آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق قلت وهكذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لما رجع الى منى يوم النحر بدأ برمى الجمرة فرماها بسبع حصيات ثم نحر هديه وحلق رأسه ثم أفاض فطاف بالبيت وفى الصحيحين عن ابن عباس أنه قال أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف الا أنه خفف عن المرأة الحائض وقوله بالبيت العتيق فيه مستدل لمن ذهب الى انه يجب الطواف من وراء الحجر لانه من أصل البيت الذى بناه ابراهيم وان كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة ولهذا طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين لانهما لم يتمما على قواعد ابراهيم العتيقة ولهذا قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر العدنى حدثنا سفيان عن هشام بن حجر عن رجل عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية وليطوفوا بالبيت العتيق طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه وقال قتادة عن الحسن البصرى فى قوله وليطوفوا بالبيت العتيق قال لانه أول بيت وضع للناس وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم وعن عكرمة انه قال انما سمى البيت العتيق لانه أعتق يوم الغرق زمان نوح وقال خصيف انما سمى البيت العتيق لانه لم يظهر عليه جبار قط وقال ابن أبى نجيح وليث عن مجاهد أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه وكذا قال قتادة وقال حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن بن مسلم عن مجاهد لانه لم يرده أحد بسوء الا هلك وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن الزبير قال انما سمى البيت العتيق لان الله أعتقه من الجبابرة وقال الترمذى حدثنا محمد بن اسمعيل وغير واحد حدثنا عبد الله بن صالح أخبرنى الليث عن عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن محمد بن عروة عن عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما سمى البيت العتيق لانه لم يظهر عليه جبار وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن سهل البخارى عن عبد الله بن صالح به وقال ان كان صحيحا وقال الترمذى هذا حديث حسن غريب ثم رواه من وجه آخر عن الزهرى مرسلا (ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) يقول تعالى هذا الذى أمرنا به من الطاعات فى أداء المناسك

وآله وسلم من كان بينه و بين أخيه شئ فدعاه الى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم لاحق له أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم قال ابن كثير بعد أن ساق هذا المتن ما لفظه وهذا حديث غريب وهو مرسل وقال ابن العربى هذا حديث باطل فأما قوله فهو ظالم فكلام صحيح وأما قوله فلا حق له فلا يصح ويحتمل ان يريد انه على غير الحق انتهى وأقول وأما كون الحديث مرسلا فظاهر وأما دعوى كونه باطلا فمحتاجة الى برهان فقد أخرجه ثلاثة من أئمة الحديث كما ذكرنا و يبعد كل البعد أن يتفقوا على ما هو باطل وليس فى اسناده عند ابن أبى حاتم كذاب ولا وضاع ويشهد له ما أخرجه الطبرانى عن الحسن عن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من دعى الى سلطان فلم يجب فهو ظالم لاحق له انتهى ولا يخفاك ان قضاة العدل وحكام الشرع الذين هم على الصفة التى قدمنا لك قريبا هم سلاطين الدين المترجمون عن الكتاب والسنة المبينون للناس ما نزل اليهم ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق أتبعه بما يجب على المؤمنين ان يفعلوه اذا دعوا الى حكم الله ورسوله فقال (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله) أى الى كتاب الله العزيز وسنة رسوله المطهرة (ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) أى هذا القول لا قولا آخر وهذا وان كان على طريقة الخبر فليس المراد به ذلك بل المراد به تعليم الادب الشرعى عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر والمعنى انه ينبغى للمؤمنين ان يكونوا هكذا اذا سمعوا الدعاء المذكور قابلوه بالطاعة والاذعان والاجابة قال مقاتل وغيره يقولون سمعنا قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأطعنا أمره وان كان ذلك فيما يكرهونه ويضرهم وقد قدمنا الكلام على الدعوة الى الله ورسوله ليحكم بين المتخاصمين وذكرنا من تجب الاجابة اليه من القضاة ومن لا تجب وهذه الآية على ايجازها حاوية لكل ما ينبغى للمؤمنين ان يفعلوه ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله (وأولئك) المؤمنون الذين قالوا هذا القول (هم المفلحون) أى الناجون الفائزون بخيرى الدنيا والآخرة ثم أردف

ومالهاعليهامن الثواب الجزيل ومن يعظم حرمات الله أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما في نفسه فهو خيرله عندربه أي فله على ذلك خير كبير وثواب جزيل فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات قال ابن جريج قال مجاهد في قوله ذلك ومن يعظم حرمات الله قال الحرمة مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها وكذا قال ابن زيد وقوله واحلت لكم الانعام الا مايتلى عليكم أي احللنا لكم جميع الانعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام وقوله الا مايتلى عليكم أي من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة الآية قال ذلك ابن جرير وحكاه عن قتادة وقوله فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور من ههنا لبيان الجنس أي اجتنبوا الرجس الذي هو الاوثان وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالاتعلمون ومنه شهادة الزور وفي الصحيحين عن أبي بكرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يارسول الله قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت وقال الامام أحمد حدثنا مروان بن معاوية الفزاري أنبأنا سفيان بن زياد عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فقال يا أيها الناس عدلت شهادة الزور اشراكا بالله ثلاثا ثم قرأ فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع عن مروان بن معاوية به ثم قال غريب انما نعرفه من حديث سفيان بن زياد وقد اختلف عنه في روايته هذا الحديث ولا نعرف لايمن بن خريم سماعا من النبي صلى الله عليه وسلم وقال الامام أحمد أيضا حدثنا محمد بن عبيد حدثنا سفيان العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان الاسدي عن خريم بن فاتك الاسدي قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فلما انصرف قام قائما فقال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله عز وجل ثم تلا هذه الآية فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به وقال سفيان الثوري عن عاصم بن أبي النجود عن وائل بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال تعدل شهادة الزور بالاشراك بالله ثم قرأ هذه الآية وقوله حنفاء لله أي مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصدا الى الحق ولهذا قال غير مشركين به ثم ضرب للمشرك مثلا في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء أي سقط منها فتخطفه الطير أي تقطعه الطيور في الهواء أو تهوي به الريح في مكان

الثناء عليهم بثناء آخر فقال (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه) هذه الجملة مقررة لما قبلها من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم الى الدخول في عدادهم والمتابعة لهم في طاعة الله ورسوله في كتابه وسنته والخشية من الله عز وجل فيما مضى والتقوى له فيما يستقبل وفي يتقه قراآت من الجزم والكسر (فأولئك) أي الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والتقوى (هم الفائزون) بالنعيم الدنيوي والاخروي لا من عداهم وعن بعض الملوك انه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية وهي جامعة لاسباب الفوز والفلاح الكاملة الشاملة وبالله التوفيق وهو المستعان ثم حكى سبحانه عن المنافقين انهم لما كرهوا حكمه أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج الى الغزو لخرجوا فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) المعنى مجهدون أيمانهم جهدا ومعناه طاقة ماقدروا أن يحلفوا مأخوذ من قولهم جهد نفسه اذا بلغ طاقتها وأقصى وسعها وقيل التقدير مجتهدين في أيمانهم كقولهم افعل ذلك جهدك وطاقتك وقد خلط الزمخشري الوجهين فجعلهما واحدا وقيل جهد اليمين ان يحلف بالله ولا يزيد على ذلك شيأ (لئن أمرتهم) بالخروج الى الجهاد (ليخرجن) وليغزون ولما كانت مقالتهم هذه كاذبة وأيمانهم فاجرة رد الله عليهم زاجرا فقال (قل لا تقسموا) أي لا تحلفوا على ماتزعمونه من الطاعة والخروج الى الجهاد ان أمرتم به وههنا تم الكلام ثم ابتدأ فقال (طاعة معروفة) أي طاعتهم طاعة معروفة بأنها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد وقيل طاعة معروفة أولى بكم من أيمانكم وقيل لتكن منكم طاعة أو لتوجد وفي هذا ضعف لان الفعل لا يحذف الا اذا تقدم مايشعر به وقيل أمركم طاعة بل قال الواسطي انه الاولى لان الخبر محط الفائدة وعليه فالمعنى أمركم الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب وقرئ طاعة بالنصب أي أطيعوا طاعة (ان الله خبير بما تعملون) من الطاعة بالقول وما

تضمرونه

سحيق أي بعيد مهلك لمن هوى فيه ولهذا جاء في حديث البراء أن الكافر اذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه الى السماء فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحا من هناك ثم قرأ هذه الآية وقد تقدم الحديث في سورة ابراهيم بحروفه وألفاظه وطرقه وقد ضرب تعالى للمشرك مثلا آخر في سورة الانعام وهو قوله قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى الآية (ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق) يقول تعالى هذا ومن يعظم شعائر الله أي أوامره فانها من تقوى القلوب ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن كما قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس تعظيمها استسمانها واستحسانها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا (٣٣٧) حفص بن غياث عن ابن أبي ليلى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ذلك ومن يعظم شعائر الله قال الاستسمان والاستحسان والاستعظام وقال أبو امامة عن سهل كنا نسمن الاضحية بالمدينة وكان المسلمون يسمنون رواه البخاري وعن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دم عفراء أحب الى الله من دم سوداوين رواه أحمد وابن ماجه قالوا والعفراء هي البيضاء بياضا ليس بناصع فالبيضاء أفضل من غيرها وغيرها يجزئ أيضا لما ثبت في صحيح البخاري عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين وعن أبي سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبش أقرن فحيل يأكل في سواد وينظر في سواد ويمشي في سواد رواه أهل السنن وصححه الترمذي أي فيه بلق سواد في هذه الاماكن وفي سنن ابن ماجه عن أبي رافع ان

رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أقرنين أملحين موجوءين قيل هما الخصيان وقيل اللذان رض خصاهما ولم يقطعهما والله أعلم وعن علي رضي الله عنه قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نستشرف العين والاذن وان لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي وفهم عنه قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نضحي بأعضب القرن والاذن قال سعيد بن المسيب العضب النصف فأكثر وقال بعض أهل اللغة ان كسر قرنها الاعلى فهي قصماء فأما العضب فهو كسر الاسفل وعضب الاذن قطع بعضها وعند الشافعي ان الاضحية بذلك مجزئة لكن تكره وقال أحمد لا تجزئ الاضحية بأعضب القرن والاذن لهذا الحديث وقال مالك ان كان الدم يسيل من القرن

تضمرونه من المخالفة بالفعل وهذا تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان يأمرهم بطاعة الله ورسوله فقال (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) طاعة ظاهرة وباطنة بخلوص اعتقاد وصحة نية وهذا التكرير منه سبحانه لتأكيد وجوب الطاعة عليهم فان قوله قل لا تقسموا طاعة معروفة في حكم الامر بالطاعة وقيل انهما مختلفان فالاول نهي بطريق الرد والتوبيخ والثاني أمر بطريق التكليف لهم والايجاب عليهم (فان تولوا) خطاب للمأمورين وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى الخطاب لهم لتأكيد الامر عليهم والمبالغة في العناية بهدايتهم الى الطاعة والانقياد وجواب الشرط قوله (فانما عليه) أي على النبي (ما حمل) مما أمر به من التبليغ وقد فعل (وعليكم ما حملتم) أي ما أمرتم به من الطاعة والاجابة وهو وعيد لهم كأنه قال لهم فان توليتم فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل وفيه المشاكلة (وان تطيعوه) فيما أمركم به ونهاكم عنه (تهتدوا) الى الحق وترشدوا الى الخير وتفوزوا بالاجر قد أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه قال قدم زيد بن أسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال أرأيت ان كان علينا أمراء يأخذون منا الحق ولا يعطونا قال فانما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم وعن جابر انه سئل ان كان على امام فاجر فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا قال قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم وعلى الامام ما حمل وعليكم ما حملتم (و) جملة (ما على الرسول الا البلاغ المبين) مقررة لما قبلها واللام اما للعهد فيراد بالرسول نبينا صلى الله عليه وآله وسلم واما للجنس فيراد كل رسول والبلاغ المبين التبليغ الواضح أو الموضح والمعنى ان الرسول قد أدى البلاغ فأدوا أيضا أنتم ما عليكم من طاعته (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولمن معه ومن للبيان وقيل للتبعيض

لم يجزئ والاجزأ والله أعلم وأما المقابلة فهى التى قطع مقدم أذنها والمدابرة من مؤخر اذنها والشرقاء هى التى قطعت اذنها طولا قاله الشافعى والاصمعى واما الخرقاء فهى التى خرقت السمة اذنها خرقا مدورا والله أعلم وعن البراء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع لاتجوز فى الاضاحى العوراء البين عورها والمريضة البين مرضها والعرجاء البين ضلعها والكسيرة التى لاتنقى رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى لان الشاء يسبقونها الى المرعى فلهذا لاتجزئ التضحية بها عند الشافعى وغيره من الائمة كما هو ظاهر الحديث واختلف قول الشافعى فى المريضة مرضا يسيرا على قولين وروى أبو داود عن عتبة بن عبد السلمى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المصفرة والمستأصلة والبخقاء والمشيعة (٣٢٨) والكسيرة فالمصفرة قيل الهزيلة وقيل المستأصلة الاذن والمستأصلة مكسورة القرن و البخقاء هى العوراء والمشيعة هى التى لاتزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها والكسيرة العرجاء فهذه العيوب كلها مانعة من الاجزاء فاما ان طرأ العيب بعد تعين الاضحية فانه لايضر عند الشافعى خلافا لابى حنيفة وقد روى الامام أحمد عن أبى سعيد قال اشتريت كبشا أضحى به فعدا الذئب فأخذ الالية فسألت النبى صلى الله عليه وسلم فقال ضح به ولهذا فى الحديث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نستشرف العين والاذن أى ان تكون الهدية أو الاضحية سمينة حسنة ثمينة كما رواه الامام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال أهدى عمر نجيبا فاعطى بها ثلثمائة دينار فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى أهديت نجيبا فاعطيت بها ثلثمائة دينار أفأبيعها وأشترى بثمنها بدنا قال لا انحرها اياها وقال الضحاك عن ابن عباس البدن ثعلب
من شعائر الله وقال محمد بن أبى موسى الوقوف ومزدلفة والجمار والرمى والحلق والبدن من شعائر الله وقال ابن عمر أعظم الشعائر البيت وقوله لكم فيها منافع اى لكم فى البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها الى أجل مسمى قال مقسم عن ابن عباس فى قوله لكم فيها منافع الى أجل مسمى قال مالم تسم بدنا وقال مجاهد فى قوله لكم فيها منافع الى أجل مسمى قال الركوب واللبن والولد فاذا سميت بدنة أو هديا ذهب ذلك كله وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراسانى وغيرهم وقال آخرون بل له ان ينتفع بها وان كانت هديا اذا احتاج الى ذلك كما ثبت فى الصحيحين عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم راى رجلا يسوق بدنة قال اركبها قال انها بدنة قال اركبها ويحك فى الثانية أو الثالثة وفى رواية لمسلم عن جابر عن رسول الله

والجملة مقررة لما قبلها من ان طاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبب لهدايتهم وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الاعمال الصالحات بالاستخلاف لهم كما قال سبحانه (ليستخلفنهم فى الارض) بدلا عن الكفار وهو وعد يعم جميع الامة وقيل هو خاص بالصحابة ولا وجه لذلك فان الايمان وعمل الصالحات لايختص بهم بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الامة ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله واللام فى ليستخلفنهم جواب لقسم محذوف أو جواب للوعد وتنزيله منزلة القسم لانه ناجز لامحالة والمعنى ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك فى مملوكاتهم وقد أبعد من قال انها مختصة بالخلفاء الاربعة أو بالمهاجرين أو ان المراد بالارض أرض مكة وقد عرفت ان الاعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب قال ابن العربى انها بلاد العرب والعجم وهو الصحيح لان أرض مكة محرمة على المهاجرين ففى الحديث لكن البائس سعد ابن خولة يرثى له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان توفى بمكة وقال فى الصحيح أيضا يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا وظاهر قوله (كما استخلف الذين من قبلهم) كل من استخلفه الله فى أرضه فلا يخص ذلك بنى اسرائيل ولا أمة من الامم دون غيرها قرئ على البناء للفاعل والمفعول (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب والمراد بالتمكين هنا التثبيت والتقرير أى يجعله الله ثابتا مقررا و يوسع لهم فى البلاد ويظهر دينهم على جميع الاديان والمراد بالدين هنا الاسلام كما فى قوله ورضيت لكم الاسلام دينا ذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أولا وهو جعلهم ملوكا وذكر التمكين ثانيا فأفاد ذلك ان هذا الملك ليس على وجه العروض والطرو بل على وجه الاستقرار والثبوت بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) معطوفة على التى قبلها قرئ من أبدل ومن بدل وهما لغتان وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى فقراءة التشديد أرجح من التخفيف وزعم

صلى الله عليه وسلم انه قال اركبها بالمعروف اذا ألجئت اليها وقال شعبة عن زهير بن أبي ثابت الاعمى عن المغيرة بن حذف عن علي انه رأى رجلا يسوق بدنة ومعها ولدها فقال لا تشرب من لبنها الا ما فضل عن ولدها فاذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها وقوله ثم محلها الى البيت العتيق أي محل الهدي وانتهاؤه الى البيت العتيق وهو الكعبة كما قال تعالى هديا بالغ الكعبة وقال والهدي معكوفا ان يبلغ محله وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قريبا ولله الحمد وقال ابن جريج عن عطاء قال كان ابن عباس يقول كل من طاف بالبيت فقد حل قال الله تعالى ثم محلها الى البيت العتيق (ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) يخبر تعالى انه لم يزل ذبح المناسك واراقة الدماء على اسم (٣٣٩) الله مشروعا في جميع الملل وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ولكل أمة جعلنا منسكا قال عيدا وقال عكرمة ذبحا وقال زيد بن أسلم في قوله لكل امة جعلنا منسكا انها مكة لم يجعل الله لامة قط منسكا غيرها وقوله ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما وقال الامام أحمد بن حنبل حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا سلام ابن مسكين عن عائذ الله المجاشعي عن أبي داود وهو نفيع بن الحرث عن زيد بن أرقم قال قلت أو قالوا يارسول الله ما هذه الاضاحي قال سنة أبيكم ابراهيم قالوا ما لنا منها قال بكل شعرة حسنة قال فالصوف قال بكل شعرة من الصوف حسنة وأخرجه الامام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه من حديث سلام بن مسكين به وقوله فالهكم اله واحد فله أسلموا أي معبودكم واحد وان تنوعت شرائع الانبياء ونسخ بعضها بعضا فالجميع يدعون الى عبادة الله وحده لا شريك له وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون ولهذا قال فله أسلموا أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته وبشر المخبتين قال مجاهد المطمئنين وقال الضحاك وقتادة المتواضعين وقال السدي الوجلين وقال عمرو بن أوس المخبتين الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا وقال الثوري وبشر المخبتين قال المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم أي خافت منه قلوبهم والصابرين على ما أصابهم أي من المصائب قال الحسن البصري والله لتصبرن أو لتهلكن والمقيمي الصلاة قرأ الجمهور بالاضافة السبعة وبقية العشرة أيضا وقرأ ابن السميقع والمقيمين الصلاة بالنصب وعن الحسن البصري والمقيمي الصلاة وانما حذفت

ثعلب ان بينهما فرقا وانه يقال بدلته أي غيرته وأبدلته أزلته وجعلت غيره مكانه قال النحاس وهذا القول صحيح والمعنى انه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الاعداء أمنا ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون الا الله سبحانه ولا يرجون غيره وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين لا يخرجون الا في السلاح ولا يمسون ولا يصبحون الا على ترقب لنزول المضرة بهم من الكفار ثم صاروا في غاية الامن والدعة وأذل الله لهم شياطين المشركين وفتح عليهم البلاد ومهد لهم في الارض ومكنهم منها فلله الحمد وعن البراء قال فينا نزلت ونحن في خوف شديد وعن أبي العالية قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون الى الله وحده والى عبادته وحده لا شريك له سرا وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة الى المدينة فقدموا المدينة فأمرهم الله بالقتال وكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح فغبروا بذلك ما شاء الله ثم ان رجلا من أصحابه قال يارسول الله ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تغبروا الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محتبيا ليست فيهم حديدة فأنزل الله وعد الله الذين آمنوا الى آخر الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح ثم ان الله قبض نبيه فكانوا كذلك آمنين في زمان أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم حتى وقعوا فيما وقعوا وكفروا النعمة فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفع عنهم واتخذوا الحجر والشرط وغيروا فغير ما بهم وعن أبي بن كعب قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وآوتهم الانصار رمتهم العرب عن قوس واحد فكانوا لا يبيتون الا في السلاح ولا يصبحون الا فيه فقالوا أترون انا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف الا الله فنزلت هذه الآية وأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الاكاسرة وملكوا

النون شيئا تخفيفا ولو حذفت الاضافة لوجب خفض الصلاة ولكن على سبيل (٣) التقريب فنصبت أى المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ومما رزقناهم ينفقون أى وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ويحسنون الى الخلق مع محافظتهم على حدود الله وهذه بخلاف صفات المنافقين فانهم بالعكس من هذا كله كما تقدم تفسيره فى سورة براءة (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره وهو أنه جعلها تهدى الى بيته الحرام بل هى أفضل ما يهدى اليه كما قال تعالى لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام الآية قال ابن جريج قال عطاء فى قوله والبدن جعلناها لكم من شعائر الله قال البقرة والبعير وكذا روى عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصرى وقال مجاهد انما البدن من الابل قلت أما اطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه واختلفوا فى صحة اطلاق البدنة على البقرة على قولين أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح الحديث ثم جمهور العلماء على أنه تجزى البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشترك فى الاضاحى البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة وقال اسحق بن راهويه وغيره بل تجزى البقرة والبعير عن عشرة وقد ورد به حديث فى مسند الامام أحمد وسنن النسائى وغيرهما فالله أعلم وقوله لكم فيها خير أى ثواب فى الدار الآخرة وعن سليمان بن يزيد الكعبى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما عمل ابن آدم يوم النحر عملا أحب الى الله من اهراق دم وانها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها وان الدم ليقع من الله بمكان قبل ان يقع من الارض فطيبوا بها نفسا رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه وقال سفيان الثورى كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن فقيل له تستدين وتسوق البدن فقال انى سمعت الله يقول لكم فيها خير وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنفقت الورق فى شئ أفضل من نحيرة فى يوم عيد رواه الدارقطنى فى سننه وقال مجاهد لكم فيها خير قال أجر ومنافع وقال ابراهيم النخعى يركبها ويحلبها اذا احتاج اليها وقوله فاذكروا اسم الله عليها صواف وعن المطلب بن عبد الله عن جابر بن عبد الله قال صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيد الاضحى فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال بسم الله والله أكبر اللهم هذا عنى وعمن لم يضح

خزائنهم واستولوا على الدنيا وفى الآية أوضح دليل على صحة خلافة أبى بكر الصديق والخلفاء الراشدين بعده لان المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم وفى أيامهم كانت الفتوحات العظيمة وفتحت كنوز كسرى وغيره من الملوك وحصل الامن والتمكين وظهور الدين وعن سفينة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا ثم قال أمسك خلافة أبى بكر سنتين وخلافة عمر عشر سنين وخلافة عثمان اثنى عشرة سنة وعلى ستا قال على قلت لحماد القائل لسعيد أمسك سفينة قال نعم أخرجه أبو داود والترمذى قلت وفيه اجمال تفصيله ان خلافة أبى بكر كانت سنتين وثلاثة أشهر وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر وخلافة عثمان اثنى عشرة سنة وخلافة على أربع سنين وتسعة أشهر وعلى هذا تكون مدة خلافة الائمة الاربعة تسعة وعشرين سنة وستة أشهر وكملت الثلاثين سنة بخلافة الحسن وكانت ستة أشهر ثم نزل عنها والله أعلم وجملة (يعبدوننى) حالية أو مستأنفة مسوقة للثناء عليهم وفيه أوجه سبعة ذكرها السمين (لا يشركون بى شيأ) أى يعبدوننى غير مشركين بى فى العبادة شيأ من الاشياء وقيل معناه لا يراؤن بعبادتى أحدا وقيل معناه لا يخافون أحدا غيرى قاله ابن عباس وقيل معناه لا يحبون غيرى (ومن كفر) هذه النعم (بعد ذلك) الوعد الصحيح أى من استمر على الكفر أو من كفر بعد الايمان (فأولئك هم الفاسقون) أى الكاملون فى الفسق وهو الخروج عن الطاعة والطغيان فى الكفر وعن مجاهد قال الفاسقون العاصون وعن أبى العالية قال الكفر بهذه النعمة ليس الكفر بالله ولذلك قال الفاسقون ولم يقل الكافرون قال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان فلما قتلوه غير الله ما بهم من الامن وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا اخوانا والقصة معروفة (وأقيموا الصلاة) أى فآمنوا واعملوا الصالحات وأقيموا الصلاة (وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول) قد تقدم الكلام على

اقامة

(٣) قوله التقريب هى فى بعض النسخ وفى بعض آخر محلها بياض وعلى كل حرر اه

من أمتي رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال محمد بن إسحق عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن عباس عن جابر قال ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين في يوم عيد فقال حين وجههما وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين اللهم منك ولك عن محمد وأمته ثم سمى الله وكبر وذبح وعن علي بن الحسين عن أبي رافع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين فاذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية ثم يقول اللهم هذا عن أمتي جميعها من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ثم يقول هذا عن محمد وآل محمد فيطعمهما جميعا للمساكين ويأكل هو وأهله منهما رواه أحمد وابن ماجه وقال الاعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس في قوله فاذكروا اسم الله عليها صواف قال قياما على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول بسم الله والله أكبر لا اله الا الله اللهم منك ولك وكذلك روى عن مجاهد وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس نحو هذا وقال ليث عن مجاهد اذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث وروى ابن أبي نجيح عنه نحوه وقال الضحاك يعقل رجلا واحدة فتكون على ثلاث وفي الصحيحين عن ابن عمر انه أتى على رجل قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال ابعثها قياما مقيدة سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها رواه أبو داود وقال ابن لهيعة حدثني عطاء بن دينار ان سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك قف من شقها الايمن وانحر من شقها الايسر وفي صحيح مسلم عن جابر في صفة حجة الوداع قال فيه فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثا وستين بدنة جعل يطعنها بحربة في يده وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال في حرف ابن مسعود صوافن أي معقلة قياما وقال سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد من قرأها صوافن قال معقولة ومن قرأها صواف قال تصف بين يديها وقال طاوس والحسن وغيرهما فاذكروا اسم الله عليها صوافي يعني خالصة لله عز وجل وكذا رواه مالك عن الزهري وقال عبد الرحمن بن زيد صوافي ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لاصنامهم وقوله فاذا وجبت جنوبها قال ابن أبي نجيح عن مجاهد يعني سقطت الى الارض وهو رواية عن ابن عباس وكذا قال مقاتل بن حيان وقال العوفي عن ابن عباس فاذا وجبت جنوبها يعني نحرت وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فاذا وجبت جنوبها يعني ماتت وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد فانه لا يجوز الاكل من البدنة اذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها وقد جاء في حديث مرفوع

اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وكرر الامر بطاعة الرسول للتأكيد وخصه بالطاعة لان طاعته طاعة الله ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم كما يشعر به الحذف على ما تقرر في علم المعاني من ان مثل هذا الحذف مشعر بالتعميم (لعلكم ترحمون) أي افعلوا ما ذكر راجين ان يرحمكم الله سبحانه (لا تحسبن) بالفوقية أي لا تحسبن يا محمد وقرئ بالتحتية (الذين كفروا معجزين) فائتين وقال قتادة سابقين (في الارض) وقد تقدم تفسيره وتفسير ما بعده (ومأواهم النار) عطف خبر على انشاء أو على مقدر أي بل هم مقهورون مدركون ومأواهم (ولبئس المصير) أي المرجع النار ولما فرغ سبحانه من ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد رجع الى ما كان فيه من الاستئذان فذكره ههنا على وجه أخص فقال (يا أيها الذين آمنوا) الخطاب للمؤمنين ويدخل المؤمنات فيه تغليبا كما في غيره من الخطابات قال العلماء هذه الآية خاصة ببعض الاوقات واختلفوا في المراد بقوله (ليستأذنكم) على أقوال الاول انها منسوخة قاله سعيد بن المسيب وقال سعيد بن جبير ان الامر فيها للندب لا للوجوب وقيل كان ذلك واجبا حيث كانوا لا أبواب لهم ولو عاد الحال لعاد الوجوب حكاه المهدوي عن ابن عباس وقيل ان الامر ههنا للوجوب وان الآية محكمة غير منسوخة وان حكمها ثابت على الرجال والنساء قال القرطبي وهو قول أكثر العلماء وقال السلمي انها خاصة بالنساء وقال ابن عمر هي خاصة بالرجال دون النساء والمراد بقوله (الذين ملكت أيمانكم) العبيد والاماء وعن مقاتل بن حيان قال بلغنا ان رجلا من الانصار وامرأته اسماء بنت مرشدة صنعا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم طعاما فقالت أسماء يا رسول الله ما أقبح هذا انه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد غلامهما بغير اذن فأنزل الله في ذلك هذه الآية يعني بها العبيد والاماء وعن السدي قال كان أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعجبهم أن

لا تعجلوا النفوس ان تزهق وقد رواه الثوري في جامعه عن أيوب عن يحيى بن أبي كثير عن فرافصة الحنفي عن عمر بن الخطاب انه قال ذلك ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم ان الله كتب الاحسان على كل شيء اذا قتلتم فاحسنوا القتلة واذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته وعن أبي واقد الليثي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه وقوله فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر قال بعض السلف قوله فكلوا منها أمر اباحة وقال مالك يستحب ذلك وقال غيره يجب وهو وجه لبعض الشافعية واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر فقال العوفي عن ابن عباس القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك ان تعطيه من اللحم ولا يسأل وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي (٣٤٢) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس القانع المتعفف والمعتر السائل وهذا قول قتادة وابراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه وقال ابن عباس وعكرمة وزيد بن أسلم والكلبي والحسن البصري ومقاتل بن حيان ومالك ابن أنس القانع هو الذي يقنع اليك ويسألك والمعتر الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك وهذا لفظ الحسن وقال سعيد بن جبير القانع هو السائل قال أما سمعت قول الشماخ

لمال المرء يصلحه فيغني
مفاقره أعف من القنوع

قال يغني من السؤال وبه قال زيد وقال زيد بن أسلم القانع المسكين الذي يطوف والمعتر الصديق والضعيف الذي يزور وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد أيضا وعن مجاهد أيضا القانع جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك والمعتر الذي يعتريك من الناس وعنه ان القانع هو الطامع والمعتر هو الذي يعتر بالبدن من غني أو فقير وعن عكرمة نحوه وعنه القانع أهل مكة واختار ابن جرير ان القانع هو السائل لانه من أقنع بيده اذا رفعها للسؤال والمعتر من الاعتراء وهو الذي يتعرض لاكل اللحم وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء الى ان الاضحية تجزأ ثلاثة أجزاء فثلث لصاحبها يأكله وثلث يهديه لاصحابه وثلث يتصدق به على الفقراء لانه تعالى قال فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر وفي الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس اني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الاضاحي فوق ثلاث فكلوا وادخروا ما بدا لكم وفي رواية فكلوا وادخروا وتصدقوا وفي رواية فكلوا وأطعموا وتصدقوا والقول الثاني ان المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله في الآية المتقدمة فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ولقوله في الحديث فكلوا وادخروا وتصدقوا فان أكل الكل فقيل لا يضمن شيأ وبه قال ابن سريج من الشافعية وقال بعضهم يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها وقيل يضمن نصفها وقيل ثلثها وقيل أدنى جزء منها وهو المشهور من مذهب الشافعي وأما الجلود

يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا الى الصلاة فأمرهم الله ان يأمروا المملوكين والغلمان ان لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات الا باذن فلا يرد كيف أمرهم الله بالاستئذان مع انهم غير مكلفين ولو كان المقصود أمرهم بالذات لما كان لتخصيص النداء والخطاب بالمؤمنين وجه (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) أي الصبيان والمراد الاحرار وقرئ الحلم بسكون اللام وبضمها قال الاخفش الحلم من حلم الرجل بفتح اللام ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم بكسرها واتفقوا على ان الاحتلام بلوغ واختلفوا فيما اذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة لا يكون بالغا حتى يبلغ ثماني عشرة سنة ويستكملها والجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد وأحمد في الغلام والجارية بخمس عشرة سنة يصير مكلفا وتجري عليه الاحكام وان لم يحتلم (ثلاث مرات) أي ثلاثة أوقات في اليوم والليلة وعبر عن الاوقات بالمرات لان أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الاوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا لنفس الاوقات وانتصاب ثلاث مرات على المصدرية أي ثلاث استئذانات ورجح هذا أبو حيان وقال لانك اذا قلت ضربتك ثلاث مرات لا يفهم منه الا ثلاث ضربات أو منصوب على الظرفية أي ثلاث أوقات ثم فسر تلك الاوقات بقوله (من قبل صلاة الفجر) وذلك لانه وقت القيام عن المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة وربما يبيت عريانا أو على حالة لا يحب ان يراه غيره فيها (وحين تضعون ثيابكم) التي تلبسونها في النهار (من) شدة حر (الظهيرة) وذلك عند انتصاف النهار فانهم قد يتجردون عن الثياب لاجل القيلولة ومن للبيان أو بمعنى في أو بمعنى اللام ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث فقال (ومن بعد صلاة العشاء) وذلك لانه وقت التجرد عن ثياب اليقظة والخلوة بالاهل والالتحاف بثياب النوم ثم أجمل سبحانه هذه الاوقات بعد التفصيل بقوله (ثلاث عورات لكم) أي أوقات ثلاث عورات وقيل جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مبالغة وقيل هو ثلاث وقال

ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان في حديث الاضاحي فكلوا وتصدقوا واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها ومن العلماء من رخص في بيعها ومنهم من قال يقاسم الفقراء فيها والله أعلم (مسئلة) عن البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول ما نبدأ به في يومنا هذا ان نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل الصلاة فانما هو لحم قدمه لاهله ليس من النسك في شيء أخرجاه فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء ان أول وقت ذبح الاضاحي اذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين زاد أحمد وان يذبح الامام بعد ذلك لما جاء في صحيح مسلم وان لا تذبحوا حتى يذبح الامام وقال أبو حنيفة أما أهل السواد من القرى ونحوها فلهم ان يذبحوا بعد طلوع الفجر اذ لا صلاة عيد تشرع عندهم وأما أهل الامصار فلا يذبحوا حتى يصلي الامام والله أعلم ثم قيل لا يشرع الذبح الا يوم النحر وحده وقيل يوم النحر لاهل الامصار لتيسر الاضاحي عنده وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده وبه قال سعيد بن جبير وقيل يوم النحر ويوم بعده للجميع وقيل ويومان بعده وبه قال الامام أحمد وقيل يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيام التشريق كلها ذبح رواه أحمد وابن حبان وقيل ان وقت الذبح يمتد الى آخر ذي الحجة وبه قال ابراهيم النخعي وأبو سلمة بن عبد الرحمن وهو قول غريب وقوله كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون يقول تعالى من أجل هذا سخرناها لكم أي ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم خاضعة ان شئتم ركبتم وان شئتم حلبتم وان شئتم ذبحتم كما قال تعالى أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون الى قوله أفلا يشكرون وقال في هذه الآية الكريمة كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين) يقول تعالى انما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها فانه الخالق الرازق لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دمائها فانه تعالى هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم اذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها فقال تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن أبي حماد حدثنا ابراهيم بن المختار عن ابن جريج قال كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الابل ودمائها فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أحق ان ننضح فأنزل الله لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم أي يتقبل ذلك ويجزي عليه كما جاء في الصحيح ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم

أبو حاتم النصب ضعيف مردود وقال الفراء الرفع أحب الي قال الكسائي العورات الساعات التي تكون فيها العورة قال الزجاج المعنى ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات وعورات جمع عورة وهي في الاصل الخلل ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهم حفظه ويتعين ستره أي هي ثلاث أوقات يختل فيها الستر وقرئ عورات بفتح الواو وهي لغة هذيل وتميم فانهم يفتحون عين فعلات سواء كان واوا أو ياء والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان عن عبد الله بن سويد قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن العورات الثلاث فقال اذا أنا وضعت ثيابي بعد الظهيرة لم يلج على أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم ولا أحد لم يبلغ الحلم من الاحرار الا باذن واذا وضعت ثيابي بعد صلاة العشاء ومن قبل صلاة الصبح أخرجه ابن مردويه وعن ابن عباس قال انه لم يؤمن بها أكثر الناس يعني آية الاذن واني لآمر جاريتي هذه لجارية قصيرة قائمة على رأسه ان تستأذن علي وعنه قال ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهن هذه الآية والآية التي في سورة النساء واذا حضر القسمة الآية والآية التي في الحجرات ان أكرمكم عند الله أتقاكم وعنه قال اذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبي ولا خادم الا باذنه حتى يصلي الغداة واذا خلا بأهله عند الظهر فمثل ذلك ورخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير اذن وهو قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن فأما من بلغ الحلم فانه لا يدخل على الرجل وأهله الا باذن على كل حال وهو قوله واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم وعنه ان رجلا سأله عن الاستئذان في الثلاث العورات التي أمر الله بها في القرآن فقال ان الله ستير يحب الستر وكان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجاب في بيوتهم فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيم في حجره وهو على أهله فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله ثم جاء الله بعد بالستور فبسط عليهم في الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال فرأى الناس ان ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي

ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وجاء في الحديث ان الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل ان تقع في يد السائل وان الدم ليقع من الله بمكان قبل ان يقع الى الارض كما تقدم في الحديث رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه عن عائشة مرفوعا فمعناه انه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا والله أعلم وقال وكيع عن يحيى بن مسلم بن الضحاك سألت عامرا الشعبي عن جلود الاضاحي فقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ان شئت فبع وان شئت فامسك وان شئت فتصدق وقوله كذلك سخرها لكم أي من أجل ذلك سخر لكم البدن لتكبروا الله على ما هداكم أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه وقوله وبشر المحسنين أي وبشر يا محمد المحسنين أي في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم (٣٤٤) المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل (مسئلة) وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري الى القول بوجوب الاضحية على من ملك نصابا وزاد أبو حنيفة اشتراط الاقامة أيضا واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه باسناد رجاله كلهم ثقات عن أبي هريرة مرفوعا من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا على أن فيه غرابة واستنكره أحمد بن حنبل وقال ابن عمر أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يضحي رواه الترمذي وقال الشافعي وأحمد لا تجب الاضحية بل هي مستحبة لما جاء في الحديث ليس في المال حق سوى الزكاة وقد تقدم انه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم وقال أبو سريحة كنت جارا لابي بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية ان يقتدي الناس بهما وقال بعض الناس الاضحية سنة كفاية اذا قام به واحد من أهل دار أو محلة أو بيت سقطت عن الباقين لان المقصود اظهار الشعار وقد روى الامام أحمد وأهل السنن وحسنه الترمذي عن مخنف بن سليم انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعرفات على كل أهل بيت في كل عام أضحاة وعتيرة هل تدرون ما العتيرة هي التي تدعونها الرجبية وقد تكلم في اسناده وقال أبو أيوب كان الرجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى رواه الترمذي وصححه وابن ماجه وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله رواه البخاري وأما مقدار سن الاضحية فقد روى مسلم عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تذبحوا الا مسنة الا ان تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن ومن ههنا ذهب الزهري الى ان الجذع لا يجزي وقابله الاوزاعي فذهب الى أن الجذع يجزي من كل جنس وهما غريبان والذي عليه

أمروا به وعن ابن عمر في الآية قال هي على الذكور دون الاناث ولا وجه لهذا التخصيص فالاطلاع على العورات في هذه الاوقات كما يكرهه الانسان من الذكور يكرهه من الاناث وعن السلمي قال هي في النساء خاصة والرجال يستأذنون على كل حال بالليل والنهار وعن ابن مسعود قال عليكم اذن على أمهاتكم وعنه قال يستأذن الرجل على أبيه وأمه وأخيه وأخته أخرجه البخاري في الادب وعن جابر نحوه وسئل الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي قال لا والله قال السائل ان الناس لا يعملون بها قال والله المستعان وقال سعيد بن جبير ان ناسا يقولون ان هذه الآية نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس وقال سعيد بن المسيب انها منسوخة والاول أولى (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أي ليس على المماليك ولا على الصبيان اثم في الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الامر والاطلاع على العورات بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث وهي الاوقات المتخللة بين كل اثنين منها والجملة مستأنفة مقررة للامر بالاستئذان في تلك الاحوال خاصة وقال أبو البقاء بعدهن أي بعد استئذانهم فيهن ورد بأنه لا حاجة الى هذا التقدير الذي ذكره بل المعنى ليس عليكم جناح ولا عليهم أي العبيد والاماء والصبيان في عدم الاستئذان بعد هذه الاوقات المذكورة (طوافون) أي هم طوافون (عليكم) والجملة مستأنفة مبينة للعذر المرخص في ترك الاستئذان والمعنى يطوفون عليكم ومنه الحديث في الهرة انما هي من الطوافين عليكم أو الطوافات أي هم خدمكم فلا بأس ان يدخلوا عليكم في غير هذه الاوقات بغير اذن (بعضكم) يطوف أو طائف (على بعض) والجملة بدل مما قبلها أو مؤكدة لها والمعنى ان كلا منكم يطوف على صاحبه العبيد على الموالي والموالي على العبيد وانما أباح سبحانه الدخول في غير تلك الاوقات الثلاثة بغير استئذان لانها كانت العادة انهم لا يكشفون عوراتهم في غيرها (كذلك)

اى

أي مثل ذلك التبيين (يبين الله لكم الآيات) الدالة على ما شرعه لكم من الاحكام (والله عليم) أي كثير العلم بالمعلومات (حكيم) كثير الحكمة في أفعاله (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) بين سبحانه ههنا حكم الاطفال الاحرار اذا بلغوا الحلم بعد ما بين فيما مر حكم الاطفال الذين لم يبلغوا الحلم في انه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان فيما عدا الاوقات الثلاثة فقال (فليستأذنوا) اذا دخلوا عليكم في جميع الاوقات (كما استأذن الذين من قبلهم) الموصول عبارة عن الذين قيل لهم لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية والمعنى استئذانا كما استأذن الاحرار الكبار الذين أمروا بالاستئذان من غير استثناء قال عطاء واجب على الناس ان يستأذنوا اذا احتلموا احرارا كانوا أو عبيدا وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته قال نعم ان لم تفعل رأيت منها ما تكره وقال الزهري وسعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم) بأمور خلقه فيما بين من الاحكام (حكيم) بما دبر وشرع من مصالح الانام (والقواعد من النساء) المراد بهن العجائز اللاتي قعدن عن الحيض أو عن الاستمتاع أو عن الولد من الكبر فلا يلدن ولا يحضن وواحدتها قاعد بلا هاء ليدل حذفها على انه قعود الكبر كما قالوا امرأة حامل ليدل حذف الهاء على انه حمل حبل ويقال قاعدة في بيتها وحاملة على ظهرها قال الزجاج هن اللاتي قعدن عن التزويج وهو معنى قوله (اللاتي لا يرجون نكاحا) أي لا يطمعن فيه لكبرهن وقال ابو عبيدة اللاتي قعدن عن الولد وليس هذا بمستقيم لان المرأة تقعد عن الولد وفيها مستمتع وقيل هن العجائز اللواتي اذا رآهن الرجال استقذروهن فاما من كانت فيها بقية جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في حكم هذه الآية ثم ذكر سبحانه حكم القواعد فقال (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) التي تكون على ظاهر البدن كالجلباب والرداء الذي فوق الثياب والقناع الذي فوق الخمار ونحوها لا الثياب التي على العورة الخاصة والخمار وانما جاز لهن ذلك لانصراف الانفس عنهن اذ لا رغبة للرجال فيهن فأباح الله سبحانه لهن ما لم يبحه لغيرهن وعن ابن عباس في الآية قال هي المرأة لا جناح عليها ان تجلس في بيتها بدرع وخمار وتضع عنها الجلباب ما لم تتبرج بما يكرهه الله وعنه انه كان يقرأ أن يضعن من

الجمهور انما يجزئ الثني من الابل والبقر والمعز أو الجذع من الضأن فأما الثني من الابل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة ومن البقر ماله سنتان ودخل في الثالثة وقيل ماله ثلاث ودخل في الرابعة ومن المعز ماله سنتان وأما الجذع من الضأن فقيل ماله سنة وقيل عشرة أشهر وقيل ثمانية وقيل ستة أشهر وهو أقل ما قيل في سنه وما دونه فهو حمل والفرق بينهما ان الحمل شعر ظهره قائم والجذع شعر ظهره نائم قد انفرق صدغين والله أعلم (ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور) يخبر تعالى انه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا اليه شر الاشرار وكيد الفجار ويحفظهم (٣٤٥) ويكلؤهم وينصرهم كما قال تعالى أليس الله بكاف عبده وقال ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا وقوله ان الله لا يحب كل خوان كفور أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا وهو الخيانة في العهود والمواثيق لا يفي بما قال والكفر الجحد للنعم فلا يعترف بها (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) قال العوفي عن ابن عباس نزلت في محمد وأصحابه حين اخرجوا من المدينة وقال غير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم هذه أول آية نزلت في الجهاد واستدل بهذه الآية بعضهم على ان السورة مدنية وقاله مجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد وقال ابن جرير حدثني يحيى بن داود الواسطي حدثنا اسحق بن

يوسف عن سفيان عن الاعمش عن مسلم هو البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر أخرجوا نبيهم انا لله وانا اليه راجعون ليهلكن قال ابن عباس فأنزل الله عز وجل أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير قال ابو بكر رضي الله تعالى عنه فعرفت انه سيكون قتال ورواه الامام أحمد عن اسحق بن يوسف الازرق به وزاد قال ابن عباس وهي أول آية نزلت في القتال ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من سننهما وابن أبي حاتم من حديث اسحق بن يوسف زاد الترمذي ووكيع كلاهما عن سفيان الثوري به وقال الترمذي حديث حسن وقد رواه غير واحد عن الثوري وليس فيه ابن عباس وقوله وان الله على نصرهم لقدير أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين

من غير قتال ولكن هو يريد من عباده ان يبلوا جهدهم في طاعته كما قال فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم وقال تعالى قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم وقال أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين (٣٤٦) جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون وقال أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين وقال ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم والآيات في هذا كثيرة ولهذا قال وان الله على نصرهم لقدير ولهذا قال ابن عباس في قوله وان الله على نصرهم لقدير وقد فعل وانما شرع تعالى الجهاد في الوقت الاليق به لانهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددا فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نيفا وثمانين قالوا يا رسول الله الا نميل على أهل الوادي يعنون أهل منى ليالي منى فنقتلهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لم أومر بهذا فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم وهموا بقتله وشردوا أصحابه شذر مذر فذهب منهم طائفة الى الحبشة وآخرون الى المدينة فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعوا عليه وقاموا بنصره وصارت لهم دار اسلام ومعقلا يلجؤن اليه شرع الله جهاد الاعداء فكانت هذه الآية أول يتحرجون ما نزل في ذلك فقال تعالى أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق قال العوفي عن ابن عباس أخرجوا من مكة الى المدينة بغير حق يعني محمدا وأصحابه الا ان يقولوا ربنا الله أي ما كان لهم الى قومهم اساءة ولا كان لهم ذنب الا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له وهذا استثناء منقطع بالنسبة الى ما في نفس الامر وأما عند المشركين فانه أكبر الذنوب كما قال تعالى يخرجون الرسول واياكم ان تؤمنوا بالله ربكم وقال تعالى في قصة أصحاب الاخدود وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون لاهم لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا

ثيابهن ويقول هو الجلباب وعن ابن عمر قال تضع الجلباب وعن ابن مسعود مثله وزاد الرداء ثم استثنى حالة من حالاتهن فقال (غير متبرجات بزينة) اي غير مظهرات للزينة التي امرن باخفائها في قوله ولا يبدين زينتهن لينظر اليهن الرجال او زينة خفية كقلادة وسوار وخلخال والتبرج التكشف والظهور للعيون والتكلف في اظهار ما يخفى واظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال ومنه بروج مشيدة وبروج السماء ومنه قولهم سفينة بارجة اى لا غطاء عليها (وأن يستعففن) اى وان يتركن وضع الثياب ويطلبن العفة عنه وقرئ بغير السين (خير لهن والله سميع عليم) اى كثير السماع والعلم بليغهما (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) اختلف اهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة او منسوخة قال بالاول جماعة من العلماء وبالثاني جماعة قيل ان المسلمين كانوا اذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون اليهم مفاتيح ابوابهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم ان تأكلوا مما في بيوتنا وكانوا يتحرجون من ذلك وقالوا لا ندخلها وهم غيب فنزلت هذه الآية رخصة لهم فمعنى الآية نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيوت أقاربهم أو بيوت من يدفع اليهم المفتاح اذا خرج للغزو وقال النحاس وهذا القول من أجل ما روي في الآية لما فيه عن الصحابة والتابعين من التوقيف وقيل ان هؤلاء المذكورين كانوا يتحرجون من مؤاكلة الاصحاء حذارا من استقذارهم اياهم وخوفا من تأذيهم بافعالهم فنزلت وقيل ان الله رفع الحرج عن الاعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر وعن الاعرج فيما يشترط في التكليف به القدرة الكاملة على المشي على وجه يتعذر الاتيان به مع العرج وعن المريض فيما يؤثر المرض في اسقاطه وقيل المراد بهذا الحرج المدفوع عن هؤلاء هو الحرج في الغزو أي لا حرج على هؤلاء في تأخرهم عن الغزو وقيل كان الرجل اذا أدخل أحدا من هؤلاء الزمنى الى بيته فلم يجد فيه شيأ يطعمهم اياه ذهب بهم الى بيوت قرابته فيتحرج الزمنى من ذلك فنزلت وعن سعيد بن جبير قال لما نزلت يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قالت الانصار ما بالمدينة مال أعز من الطعام كانوا يتحرجون أن يأكلوا مع الاعمى يقولون انه لا يبصر موضع الطعام وكانوا يتحرجون الاكل مع الاعرج يقولون ان الصحيح يسبقه الى المكان ولا يستطيع ان يزاحم ويتحرجون الاكل مع المريض يقولون لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح وكانوا

فانزلن سكينة علينا * وثبت الاقدام ان لاقينا ان الالى قد بغوا علينا * اذا ارادوا فتنة أبينا

فيوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم و يقول معهم آخر كل قافية فاذا قالوا اذا أرادوا فتنة أبينا يقول أبينا يمد بها صوته ثم قال تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض أى لولا انه يدفع بقوم عن قوم و يكف شرور اناس عن غيرهم بما يخلقه و يقدره من الاسباب لفسدت الارض ولاهلك القوى الضعيف لهدمت صوامع وهى المعابد الصغار للرهبان قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم وقال قتادة هى معابد الصابئين (٣٤٧) وفى رواية عنه صوامع المجوس وقال مقاتل ابن حيان هى البيوت التى على الطرق و بيع وهى أوسع منها وأكثر عابدين فيها وهى للنصارى أيضا قاله ابو العالية وقتادة والضحاك وابن صخر ومقاتل ابن حيان وخصيف وغيرهم وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره انها كنائس اليهود وحكى السدى عمن حدثه عن ابن عباس انها كنائس اليهود و مجاهد انما قال هى الكنائس والله أعلم وقوله وصلوات قال العوفى عن ابن عباس الصلوات الكنائس وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة انها كنائس اليهود وهم يسمونها صلوات وحكى السدى عمن حدثه عن ابن عباس انها كنائس النصارى وقال أبو العالية وغيره الصلوات معابد الصابئين وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد الصلوات مساجد لاهل الكتاب ولاهل الاسلام بالطرق واما المساجد فهى للمسلمين وقوله يذكر فيها اسم الله كثيرا فقد قيل الضمير فى قوله يذكر فيها عائد الى المساجد لانه اقرب المذكورات وقال الضحاك الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا وقال ابن جرير الصواب لهدمت صوامع الرهبان و بيع النصارى وصلوات اليهود وهى كنائسهم ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا لان هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب وقال بعض العلماء هذا ترق من الاقل الى الاكثر الى ان انتهى الى المساجد وهى اكثر عمارا واكثر عبادا وهم ذوو القصد الصحيح وقوله ولينصرن الله من ينصره كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم و يثبت اقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم وأضل اعمالهم وقوله ان الله لقوى عزيز وصف نفسه بالقوة والعزة فبقوته خلق كل شئ فقدره تقديرا و بعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب بل كل شئ ذليل لديه فقير اليه ومن كان القوى العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور قال الله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم

يتحرجون أن يأكلوا فى بيوت أقاربهم فنزلت ليس على الاعمى يعنى فى الاكل مع الاعمى وعن مقسم نحوه وعن مجاهد قال كان الرجل يذهب بالاعمى أو الاعرج أو المريض الى بيت أمه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت خاله أو بيت خالته فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون انما يذهبون بنا الى بيوت غيرهم فنزلت هذه الآية رخصة لهم وعن عائشة قالت كان المسلمون يرغبون فى النفير مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فيدفعون مفاتيحهم الى زمناهم و يقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم اليه فكانوا يقولون انه لا يحل لنا أن نأكل انهم أذنوا لنا من غير طيب نفس وانما نحن زمنى فأنزل الله ولا على أنفسكم أن تأكلوا الى قوله أو ما ملكتم مفاتحه كما سيأتى وعن ابن عباس قال لما نزلت يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قال المسلمون ان الله قد نهانا ان نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل الاموال فلا يحل لاحد منا أن يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك فأنزل الله ليس على الاعمى حرج الى قوله أو ما ملكتم مفاتحه وهو الرجل يوكل الرجل بضيعته والذى رخص الله ان يأكل من ذلك الطعام والتمر وشرب اللبن وكانوا أيضا يتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم فقال ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو اشتاتا وعن الضحاك قال كان أهل المدينة قبل ان يبعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا يخالطهم فى طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام فنزلت رخصة فى مؤاكلتهم وعن الزهرى انه سئل عن قوله ليس على الاعمى حرج ما بال الاعمى والاعرج والمريض ذكروا هنا فقال أخبرنى عبيد الله بن عبد الله ان المسلمين كانوا اذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون اليهم مفاتيح أبوابهم يقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا وكانوا يتحرجون من ذلك يقولون لا ندخلها وهم غيب فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم (ولا على أنفسكم) أى عليكم وعلى من يماثلكم من المؤمنين وهذا ابتداء كلام مستأنف أى ولا عليكم أيها الناس والحاصل ان رفع الحرج عن الاعمى والاعرج والمريض ان كان باعتبار مؤاكلة الاصحاء أو دخول بيوتهم فيكون ولا على أنفسكم متصلا بما قبله وان كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التى يشترط فيها وجود البصر وعدم العرج وعدم المرض فقوله ولا على أنفسكم ابتداء كلام غير متصل بما قبله

الغالبون وقال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز (الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد قال قال عثمان بن عفان فينا نزلت الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فاخرجنا من ديارنا بغير حق الا ان قلنا ربنا الله ثم مكنا في الارض فاقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وامرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ولله عاقبة (٣٤٨) الامور فهي لي ولاصحابي وقال أبو العالية هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال الصباح بن سوارة الكندي سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول الذين ان مكناهم في الارض الآية ثم قال ألا انها ليست على الوالي وحده ولكنها على الوالي والمولى عليه ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم وبما للوالي عليكم منه ان لكم على الوالي من ذلكم ان يأخذكم بحقوق الله عليكم وان يأخذ لبعضكم من بعض وان يهديكم للتي هي اقوم ما استطاع وان عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة بها ولا المخالف سرها علانيتها وقال عطية العوفي هذه الآية كقوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض وقوله ولله عاقبة الامور كقوله تعالى والعاقبة للمتقين وقال زيد بن أسلم ولله عاقبة الامور وعند الله ثواب ما صنعوا (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب مدين وكذب موسى فامليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكاين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد افلم يسيروا قال في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) يقول تعالى مسليا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في تكذيب من خالفه من قومه وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح الى ان قال وكذب موسى أي مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات فامليت للكافرين أي أنظرتهم وأخرتهم ثم اخذتهم فكيف كان نكيري أي فكيف كان انكاري عليهم ومعاقبتي اياهم وذكر بعض السلف انه كان بين قول فرعون لقومه انا ربكم الاعلى

(أن تأكلوا) أنتم ومن معكم (من بيوتكم) أي البيوت التي فيها متاعكم وأهلكم فيدخل بيوت الاولاد كذا قال المفسرون لانها داخلة في بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الاولاد وذكر بيوت الآباء وبيوت الامهات ومن بعدهم قال النحاس وعارض بعضهم هذا فقال هذا تحكم على كتاب الله سبحانه بل الاولى في الظاهر أن يكون الابن مخالفا لهؤلاء ويجاب عن هذه المعارضة بان رتبة الاولاد بالنسبة الى الآباء لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة الى الاولاد بل للآباء خصوصية في أموال الاولاد لحديث أنت ومالك لابيك وحديث ولد الرجل من كسبه وقد ذكر سبحانه بيوت الاخوة والأخوات بل بيوت الاعمام والعمات بل بيوت الاخوال والخالات فكيف ينفي سبحانه الحرج عن الاكل من بيوت هؤلاء ولا ينفيه عن بيوت الاولاد والمعنى من بيوت ازواجكم لان بيت المرأة كبيت الزوج ولان الزوجين صارا كنفس واحدة وقيل أراد من أموال عيالكم والعموم أولى فيشمل الكل (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم) وقد قيد بعض العلماء جواز الاكل من بيوت هؤلاء بالاذن منهم لان الاذن ثابت دلالة وقال آخرون لا يشترط الاذن قيل وهذا اذا كان الطعام مبذولا فان كان محرزا دونهم لم يجز لهم أكله قال الخطيب وهؤلاء يكفي فيهم أدنى قرينة بل ينبغي أن يشترط فيهم ان لا يعلم عدم الرضا بخلاف غيرهم من الاجانب فلابد فيهم من صريح الاذن أو قرينة قوية هذا ما ظهر لي ولم أر من تعرض لذلك ثم قال سبحانه (أو ما ملكتم مفاتحه) أي البيوت التي تملكون التصرف فيها باذن أربابها وذلك كالوكلاء والخزان فانهم يملكون التصرف في بيوت من اذن لهم بدخول بيته واعطاهم مفاتحه وقيل المراد بها بيوت المماليك قرئ ملكتم بفتح الميم وتخفيف اللام وبضم الميم وكسر اللام مع تشديدها وقرئ مفاتيحه ومفتاحه على الافراد والمفاتح جمع مفتح والمفاتيح جمع مفتاح (او صديقكم) أي لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوت صديقكم وان لم يكن بينكم وبينه قرابة فان الصديق في الغالب يسمح لصديقه بذلك وتطيب به نفسه والصديق يطلق على الواحد والجمع ومثله العدو والخليط والقطين والعشير قال قتادة اذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته ثم أكلت من طعامه بغير اذنه لم يكن بذلك بأس وعن ابن زيد

وبين اهلاك الله له اربعون سنة وفي الصحيحين عن ابي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد ثم قال تعالى فكاين من قرية اهلكناها أي كم من قرية اهلكتها وهي ظالمة أي مكذبة لرسلها فهي خاوية على عروشها قال الضحاك سقوفها أي قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها وبئر معطلة أي لا يستقى منها ولا يردها احد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها وقصر مشيد قال عكرمة يعني المبيض بالجص وروى عن علي بن ابي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك (٣٤٩) نحو ذلك وقال آخرون هو المنيف المرتفع وقال آخرون المشيد المنيع الحصين وكل هذه الاقوال متقاربة ولا منافاة بينها فانه لم يحم أهلها شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا احكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وقوله أفلم يسيروا في الارض أي بابدانهم وتفكرهم أيضا وذلك كاف كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار قال أوحى الله تعالى الى موسى بن عمران عليه السلام ان ياموسى اتخذ نعلين من حديد وعصا ثم سح في الارض ثم اطلب الآثار والعبر حتى تخرق النعلان وتنكسر العصا وقال ابن ابي الدنيا قال بعض الحكماء احي قلبك بالمواعظ ونوره بالتفكر وموته بالزهد وقوه باليقين وذلله بالموت وقدره بالفناء وبصره فجائع الدنيا وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الايام وأعرض عليه أخبار الماضين وذكره ما اصاب من كان قبله وسيره في ديارهم وآثارهم وانظر ما فعلوا واين حلوا وعم انقلبوا أي فانظروا ما حل بالامم المكذبة من النقم والنكال فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها أي فيعتبرون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور أي ليس العمى عمى البصر وانما العمى عمى البصيرة وان كانت القوة الباصرة سليمة فانها لا تنفذ الى العبر ولا تدري ما الخبر وما احسن ما قاله بعض الشعراء في هذا المعنى وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن جبارة الاندلسي الشنتريني وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة

يامن يصيخ الى داعي الشقاء وقد * نادى به الناعيان الشيب والكبر

قال هذا شيء قد انقطع انما كان هذا في أوله ولم يكن لهم أبواب وكانت الستور مرخاة فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد فربما وجد الطعام وهو جائع فسوغه الله أن يأكله وقال ذهب ذلك اليوم البيوت فيها أهلها فاذا خرجوا أغلقوا قال النسفي فاما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل الا باذن انتهى قال المحلي المعنى يجوز الاكل من بيوت من ذكروا وان لم يحضروا أي الاصناف الاحد عشر اذا علم رضاهم به بصريح اللفظ او بالقرينة وان كانت ضعيفة وخصوا هؤلاء بالذكر لان العادة جارية بالتبسط بينهم وقيل ان هذا كان جائزا في صدر الاسلام ثم نسخ والاول أولى ثم قال سبحانه (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا او اشتاتا) أي مجتمعين او متفرقين جمع شت وهو المصدر بمعنى التفرق يقال شت القوم أي تفرقوا وهذا كلام مستأنف مشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله وقد كان بعض العرب يتحرج أن يأكل وحده حتى يجد له اكيلا يؤاكله فيأكل معه وبعض العرب كان لا يأكل الا مع ضيف قال قتادة كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم ان عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية حتى ان كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله هذه الآية وعن عكرمة وأبي صالح قالا كانت الانصار اذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم فنزلت رخصة لهم وعن ابن عباس قال خرج الحرث غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلف على أهله خالد بن يزيد فحرج أن يأكل من طعامه وكان مجهودا فنزلت وقد ترجم البخاري في صحيحه باب قوله تعالى هذا ومقصوده فيما قال أهل العلم في هذا الباب اباحة الاكل جميعا وان اختلفت أحوالهم في الاكل فقد سوغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك فصارت سنة في الجماعات التي تدعى الى الطعام في النهد والولائم والاملاق في السفر وما ملكت مفاتحه بامانة أو قرابة او صداقة فلك أن تأكل مع القريب أو الصديق ووحدك والنهد ما يجمعه الرفقاء من مال او طعام على قدر نفقتهم ينفقونه بينهم قال ابن دريد يقال من ذلك تناهد القوم الشيء بينهم قال الهروي وفي حديث الحسن أخرجوا نهدكم فانه أعظم للبركة وأحسن لاخلاقكم والنهد ما تخرجه الرفقة عند المناهدة وهو استقسام النفقة بالسوية في السفر وغيره (فاذا دخلتم بيوتا) هذا شروع في بيان أدب آخر أدب به عباده أي اذا دخلتم بيوتا غير البيوت التي تقدم ذكرها (فسلموا على أنفسكم) أي على

ان كنت لاتسمع الذكرى ففيم ترى * فى رأسك الواعيان السمع والبصر
ليس الاصم ولا الاعمى سوى رجل * لم يهده الهاديان العين والاثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الاعلى ولا النيران الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وان كرها * فراقها الثاويان البدو والحضر

أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم وقيل المراد البيوت المذكورة سابقا وعلى القول الاول فقال الحسن والنخعى هى المساجد والمراد سلموا على من فيها من صنفكم فان لم يكن فى المساجد أحد فقيل يقول السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل يقول السلام عليكم مريدا الملائكة وقال بالقول الثانى اعنى انها البيوت المذكورة سابقا جماعة من الصحابة والتابعين وقيل المراد بالبيوت هنا كل البيوت المسكونة وغيرها فيسلم على أهل المسكونة وأما غير المسكونة فيسلم على نفسه بان يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين قال ابن العربى القول بالعموم فى البيوت هو الصحيح ولا دليل على التخصيص وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه فاذا دخل بيتا لغيره استأذن (تحية) اى فحيوا تحية ثابتة صادرة مشروعة (من عند الله) أى من جهته ومن لدنه يعنى ان الله حياكم بها وقال الفراء ان الله أمركم أن تفعلوها طاعة له ثم وصف هذه التحية فقال (مباركة) أى كثيرة البركة والخير دائمتهما يثاب عليها (طيبة) أى تطيب بها نفس المستمع وقيل حسنة جميلة وقال الزجاج أعلم الله سبحانه ان السلام مبارك طيب لما فيه من الاجر والثواب قال ابن عباس فى الآية هو السلام لانه اسم الله وهو تحية أهل الجنة وعن جابر بن عبد الله قال اذا دخلت على اهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة أخرجه البخارى وغيره وعن ابن عباس قال هو المسجد اذا دخلته فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وعن ابن عمر قال اذا دخلت البيت غير المسكون او المسجد فقل السلام الخ (كذلك يبين الله لكم الآيات) أى يفصل لكم معالم دينكم تأكيد لما سبق وقد قدمنا ان الاشارة بذلك الى مصدر الفعل (لعلكم تعقلون) تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه وفهم معانيها (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدمها من الاحكام وانما من صيغ الحصر والمعنى لا يتم ايمان ولا يكمل حتى يؤمن بالله ورسوله (واذا كانوا معه) أى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو صلة ثانية ومحط الكمال (على أمر جامع) أى طاعة يجتمعون عليها نحو الجمعة والجماعة والنحر والفطر والجهاد أو تشاور فى أمر واشباه ذلك وسمى الامر جامعا مبالغة وفيه اسناد مجازى لان الامر لما كان سببا فى جمعهم نسب الجمع اليه مجازا

(ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون وكاين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير) يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ويستعجلونك بالعذاب أى هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر كما قال تعالى واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وقوله ولن يخلف الله وعده أى الذى قد وعد من اقامة الساعة والانتقام من أعدائه والاكرام لاوليائه قال الاصمعى كنت عند أبى عمرو بن العلاء فجاءه عمرو بن عبيد فقال يا أبا عمرو هل يخلف الله الميعاد فقال لا فذكر آية وعيد فقال له أمن العجم أنت ان العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤما وعن الايعاد كرما أما سمعت قول الشاعر

ليرهب ابن العم والجار سطوتى
ولا أنثنى عن سطوة المتهدد
فانى وان أوعدته أو وعدته
لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

وقوله وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون أى هو تعالى لا يعجل فان مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة الى حكمه لعلمه بانه على الانتقام قادر وأنه لا يفوته شئ وان أجل وأنظر وأملى ولهذا قال بعد هذا وكاين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم خمسمائة عام ورواه الترمذى والنسائى من حديث الثورى عن محمد بن عمرو به وقال الترمذى حسن صحيح وقد رواه ابن جرير عن أبى هريرة موقوفا فقال حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية حدثنى سعيد

الجريرى عن أبى نضرة عن سمير بن نهار قال قال أبو هريرة يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بمقدار نصف يوم قلت وما مقدار نصف يوم قال أوما تقرأ القرآن قلت بلى قال وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون وقال أبو داود فى آخر كتاب الملاحم من سننه حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال انى لارجو ان لا تعجز أمتى عند ربها ان يؤخرهم نصف يوم قيل لسعد وما نصف يوم قال خمسمائة سنة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون قال من الايام التى خلق الله فيها السموات والارض ورواه ابن جرير عن ابن يسار عن ابن مهدى وبه قال مجاهد وعكرمة ونص عليه أحمد بن حنبل فى كتاب الرد على الجهمية وقال مجاهد هذه الآية كقوله يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عارم ابن محمد بن الفضل حدثنا حماد بن زيد عن يحيى بن عتيق عن محمد بن سيرين عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال ان الله تعالى خلق السموات والارض فى ستة أيام وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون وجعل أجل الدنيا ستة أيام وجعل الساعة فى اليوم السابع وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون فقد مضت الستة الايام وانتم فى اليوم السابع فمثل ذلك كمثل الحامل اذا دخلت شهرها ففى أية ولدت كان تماما (قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به قل يا أيها الناس انما انا لكم نذير مبين اى انما ارسلنى الله اليكم نذيرا لكم بين يدى عذاب شديد وليس الىّ من حسابكم من شىء امركم الى الله ان شاء عجل لكم العذاب وان شاء أخره عنكم وان شاء تاب على من يتوب اليه وان شاء اضل من كتب عليه الشقاوة وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب وانما انا لكم نذير مبين فالذين آمنوا وعملوا الصالحات اى آمنت قلوبهم وصدقوا ايمانهم باعمالهم لهم مغفرة ورزق كريم اى مغفرة لما سلف

مجازا وقرئ على أمر جميع والحاصل ان الامر الجامع والجميع هو الذى يعم نفعه أو ضرره وهو الامر الجليل الذى يحتاج الى اجتماع أهل الرأى والتجارب (لم يذهبوا) أى يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له لعروض عذر لهم (حتى يستأذنوه) واعتبار هذا فى كمال ايمانهم لانه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فان ديدنه وعادته التسلل والفرار ولتعظيم الجرم فى الذهاب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغير اذنه قال المفسرون كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو لعذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبى صلى الله عليه وآله وسلم حيث يراه فيعرف انه انما قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء منهم قال مجاهد واذن الامام يوم الجمعة ان يشير بيده قال الزجاج أعلم الله أن المؤمنين اذا كانوا مع نبيهم فيما يحتاج فيه الى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنوه وكذلك ينبغى أن يكونوا مع الامام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه فى جمع من جموعهم الا باذنه وللامام أن يأذن وله أن لا يأذن على ما يرى لقوله فاذن لمن شئت منهم قال العلماء كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الامام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه الا باذن ثم قال سبحانه مؤكدا على اسلوب ابلغ ومعظما لهذا الامر (ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فبين سبحانه ان المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم اولا بان المؤمنين الكاملين الايمان هم الجامعون بين الايمان بهما وبين الاستئذان وان الذاهب بغير اذن ليس كذلك (فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) أى لاجل بعض الامور التى يهمهم كما وقع لسيدنا عمر حين خرج مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى غزوة تبوك حيث استأذن الرسول فى الرجوع الى أهله فاذن له النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقال له ارجع فلست بمنافق (فاذن لمن شئت منهم) فانه يأذن ان شاء منهم ويمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التى يراها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيه رفع شأنه صلى الله عليه وآله وسلم واستدل به على ان بعض الاحكام مفوض الى رأيه ومن منع ذلك قيد المشيئة بان تكون تابعة لعلمه بصدقه أى فاذن لمن علمت ان له عذرا ثم أرشده الله سبحانه الى الاستغفار لهم فقال (واستغفر لهم الله) بعد الاذن فيه اشارة الى ان الاستئذان وان كان لعذر مسوغ فلا يخلو عن شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة لان اغتنام مجالسه أولى من الاستئذان (ان الله غفور رحيم) أى

من سيآتهم ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم قال محمد بن كعب القرظي اذا سمعت الله تعالى يقول ورزق كريم فهو الجنة
وقوله والذين سعوا في آياتنا معاجزين قال مجاهد يثبطون الناس عن متابعة النبي صلى الله عليه وسلم وكذا قال عبد الله بن الزبير
مثبطين وقال ابن عباس معاجزين مراغمين أولئك أصحاب الجحيم وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها اجارنا
الله منها قال الله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون (وما أرسلنا من قبلك من
رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم
ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين
في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم
وان الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم
الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك
فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان
الله لهادي الذين آمنوا الى صراط
مستقيم) قد ذكر كثير من المفسرين
ههنا قصة الغرانيق وما كان من
رجوع كثير من المهاجرة الى أرض
الحبشة ظنا منهم ان مشركي قريش
قد أسلموا ولكنها من طرق كلها
مرسلة ولم أرها مسندة من وجه
صحيح والله أعلم قال ابن أبي حاتم
حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو
داود حدثنا شعبة عن أبي بشر عن
سعيد بن جبير قال قرأ رسول الله
صلى الله عليه وسلم بمكة النجم فلما
بلغ هذا الموضع أفرأيتم اللات
والعزى ومناة الثالثة الاخرى قال
فألقى الشيطان على لسانه تلك
الغرانيق العلى وان شفاعتهن ترتجى
قالوا ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم
فسجد وسجدوا فأنزل الله عز وجل
هذه الآية وما أرسلنا من قبلك
من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى
الشيطان في أمنيته فينسخ الله
ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ورواه ابن جرير عن بندار عن غندر عن شعبة به
بنحوه وهو مرسل وقد رواه البزار في مسنده عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد عن شعبة عن ابي بشر عن سعيد بن جبير عن
ابن عباس فيما أحسب الشك في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بمكة سورة النجم حتى انتهى الى أفرأيتم اللات والعزى
وذكر بقيته ثم قال البزار لا نعلمه يروى متصلا الا بهذا الاسناد تفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور وانما يروى هذا
من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ثم رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية وعن السدي مرسلا وكذا رواه ابن جرير

كثير المغفرة لفرطات العباد والرحمة بالتيسير عليهم بالغ فيهما الى الغاية التي ليس وراءها
غاية (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) مستأنفة مقررة لما قبلها أي
لا تجعلوا دعوته اياكم كالدعاء من بعضكم لبعض في التساهل في بعض الاحوال عن
الاجابة بل أجيبوه فورا وان كنتم في الصلاة أو الرجوع بغير استئذان أو رفع الصوت وقال
سعيد بن جبير ومجاهد المعنى قولوا يا رسول الله برفق ولين ولا تقولوا يا محمد بتجهم وعلى هذا
جماعة كثيرة وقال قتادة أمرهم ان يشرفوه ويفخموه وقيل المعنى لا تتعرضوا لدعاء
الرسول عليكم باسخاطه فان دعوته موجبة وقيل المعنى يجب عليكم المبادرة لامره
واختاره أبو العباس ويؤيده قوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره وقيل معناه لا تجعلوا
دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم وكبيركم وفقيركم وغنيكم يسأله حاجة فربما تجاب
دعوته وربما لا تجاب فان دعوات الرسول مسموعة مستجابة وعن سعيد بن جبير في الآية
قال يعني كدعاء أحدكم اذا دعا أخاه باسمه ولكن وقروه وقولوا له يا رسول الله يا نبي الله قال
لا تصيحوا به من بعيد يا أبا القاسم ولكن كما قال الله في الحجرات ان الذين يغضون أصواتهم
عند رسول الله والاول أولى (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) أي يخرجون
ويتسللون من المسجد في الخطبة واحدا بعد واحد من غير استئذان خفية مستترين بشيء
وقد للتحقيق والتسلل الخروج من البين في خفية يقال تسلل فلان من بين أصحابه اذا
خرج من بينهم واللواذ من الملاوذة وهو ان تستتر بشيء مخافة من يراك وأصله أن يلوذ هذا
بذاك وذاك بهذا واللوذ ما يطيف بالجبل وقيل اللواذ الروغان من شيء الى شيء في خفية أي
متلاوذين يلوذ بعضهم ببعض وينضم اليه وقيل يلوذون لواذا وقرئ لواذا بفتح اللام وفي
الآية بيان ما كان يقع من المنافقين فانهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين
ينضم بعضهم الى بعض استتارا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد كان يوم الجمعة
أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة والخطبة فكانوا يفرون عن الحضور
ويتسللون في خفية ويستتر بعضهم ببعض وينضم اليه وقيل اللواذ الفرار من الجهاد وبه
قال الحسن عن مقاتل قال كان لا يخرج أحد لرعاف أو احداث حتى يستأذن رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم يشير اليه باصبعه التي تلي الابهام فيأذن له النبي صلى الله عليه
وآله وسلم يشير اليه بيده وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد

فكان

فكان اذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق الى جنبه يستتر به حتى يخرج فانزل الله هذه الآية أخرجه أبو داود في مراسيله (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي يخالفون أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بترك العمل بمقتضاه ويذهبون سمتا خلاف سمته وعدى فعل المخالفة بعن مع كونه متعديا بنفسه لتضمينه معنى الاعراض أو الصد وقيل الضمير لله سبحانه لانه الآمر بالحقيقة قال أبو عبيدة والاخفش عن زائدة هنا وقال الخليل وسيبويه ليست بزائدة بل هي بمعنى بعد كقوله ففسق عن أمر ربه أي بعد أمر ربه والاولى ما ذكرناه من التضمين (ان تصيبهم فتنة) أي فليحذر المخالفون عن أمر الله أو أمر رسوله أو أمرهما جميعا اصابة فتنة لهم والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن وقيل هي القتل وقيل الزلازل وقيل تسلط سلطان جائر وقيل الطبع على قلوبهم وقيل اسباغ النعم استدراجا أو محنة في الدنيا (أو يصيبهم عذاب أليم) أي في الآخرة كما ان الفتنة التي حذرهم من اصابتها لهم هي في الدنيا وكلمة أو لمنع الخلو قال القرطبي احتج الفقهاء على ان الامر للوجوب بهذه الآية ووجه ذلك ان الله سبحانه حذرهم من مخالفة أمره وتوعد بالعقاب عليها بقوله ان تصيبهم فتنة الآية فيجب امتثال أمره ويحرم مخالفته والآية تشمل كل من خالف أمر الله وأمر رسوله ويدخل فيها الجامدون على ضلالة التقليد من بعد ما تبين لهم الهدى وظهر الصواب من الخطا (ألا ان لله) تنبيه على أن لا يخالفوا أمر من له (ما في السموات والارض) من المخلوقات باسرها فهي ملكه وخلقه وعبيده (قد يعلم ما أنتم عليه) أيها العباد من الاحوال التي أنتم عليها فيجازيكم بحسب ذلك ويعلم ههنا بمعنى علم وادخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين الحق ويرجع توكيد العلم الى توكيد الوعيد (ويوم) أي ويعلم يوم (يرجعون اليه) فيجازيهم فيه بما عملوا وفيه التفات عن الخطاب وتعليق علمه سبحانه بيوم الرجوع لا بنفس رجوعهم لزيادة تحقق علمه لان العلم بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه (فينبئهم بما عملوا) من الاعمال التي من جملتها المخالفة للامر والظاهر من السياق ان هذا الوعيد للمنافقين (والله بكل شيء عليم) لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وغيرها عن عقبة بن عامر قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة سورة النور وهو جاعل اصبعيه تحت عينيه يقول بكل شيء بصير أخرجه الطبراني وغيره قال السيوطي بسند حسن

(سورة الفرقان سبع وسبعون آية)

وهي مكية كلها في قول الجمهور نزلت قبل الهجرة وبه قال ابن الزبير قال القرطبي وقال ابن عباس وقتادة الا ثلاث آيات منها فانها نزلت بالمدينة وهي والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآيات وأخرج البخاري ومسلم ومالك والشافعي وابن حبان والبيهقي في سننه عن عمر ابن الخطاب قال سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى

عن محمد بن كعب القرظي ومحمد ابن قيس مرسلا أيضا وقال قتادة كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام اذ نعس فالقى الشيطان على لسانه وان شفاعتها لترتجى وانها لمع الغرانيق العلى فحفظها المشركون واجترأ الشيطان ان النبي صلى الله عليه وسلم قد قرأها فذلت بها ألسنتهم فانزل الله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الآية فدحر الله الشيطان ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا موسى ابن أبي موسى الكوفي حدثنا محمد بن اسحق الشيبي حدثنا محمد ابن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالهم فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله سورة النجم قال أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألكم الذكر وله الانثى ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال وانهن لهن الغرانيق العلى وان شفاعتهن لهي التي ترتجى وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها

الله عليه وآله وسلم فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت من
أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ قال أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
فقلت كذبت فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت فانطلقت
به أقوده الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت انى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان
على حروف لم تقرئنيها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسله اقرأ يا هشام فقرأ عليه
القراءة التى سمعته يقرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذلك أنزلت ثم قال اقرأ
يا عمر فقرأت القراءة التى أقرأنى فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذلك أنزلت ان
هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه

*(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تبارك الذى نزل الفرقان) تكلم سبحانه فى هذه السورة على التوحيد لانه أقدم وأهم ثم فى
النبوة لانها الواسطة ثم فى المعاد لانه الخاتمة وأصل تبارك مأخوذ من البركة وهى النماء
والزيادة حسية كانت أو عقلية قال الزجاج تبارك تفاعل من البركة وبه قال ابن عباس
قال ومعنى البركة الكثرة من كل ذى خير وقال الفراء ان تبارك وتقدس فى العربية واحد
ومعناهما العظمة وقيل المعنى تبارك عطاؤه أى زاد وكثر وقيل دام وثبت قال النحاس
وهذا أولاها فى اللغة والاشتقاق من برك الشئ اذا ثبت ومنه برك الجمل أى دام وثبت
واعترض ما قاله الفراء بان التقديس انما هو من الطهارة وليس من ذا فى شئ قال العلماء هذه
اللفظة لا تستعمل الا لله سبحانه ولا تستعمل الا بلفظ الماضى والمعنى تعالى الله عما سواه
فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شأنه تعالى
وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية
والفرقان القرآن وسمى فرقانا لانه يفرق بين الحق والباطل باحكامه أو بين المحق والمبطل
قال قتادة هو القرآن فيه حلاله وحرامه وشرائعه ودينه وقيل لانه نزل متفرقا فى أوقات
كثيرة ولهذا قال نزل بالتشديد لتكثير التفريق (على عبده) محمد صلى الله عليه وآله وسلم
ثم علل التنزيل بقوله (ليكون للعالمين نذيرا) فان النذارة هى الغرض المقصود من
الانزال والمراد بالعالمين هنا الانس والجن لان النبى صلى الله عليه وآله وسلم مرسل اليهما
قال المحلى دون الملائكة ولم يكن غيره من الانبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام مرسلا
الى الثقلين والنذير المنذر أى ليكون محمد صلى الله عليه وآله وسلم منذرا أى وبشيرا أو
ليكون انزال القرآن منذرا أو ليكون انزاله انذارا أو ليكون محمد صلى الله عليه وآله وسلم
انذارا وجعل الضمير للنبى صلى الله عليه وآله وسلم أولى لان صدور الانذار منه حقيقة ومن
القرآن مجاز والحمل على الحقيقة أولى أو لكونه أقرب مذكور قال قتادة بعث الله محمدا
صلى الله عليه وآله وسلم نذيرا من الله لينذر الناس بأس الله ووقائعه بمن خلا قبلكم وقيل
ان رجوع الضمير الى الفرقان أولى لقوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويصح
رجوعه للمنزل وهو الله وقوله للعالمين متعلق بنذيرا قدم عليه لرعاية الفاصلة ثم انه سبحانه
وصف ذاته الكريمة بصفات أربع الاولى (الذى له ملك السموات والارض) دون غيره

وقالوا ان محمدا قد رجع الى دينه
الاول ودين قومه فلما بلغ رسول
الله صلى الله عليه وسلم آخر النجم
سجد وسجد كل من حضره من مسلم
أو مشرك غير ان الوليد بن المغيرة كان
رجلا كبيرا فرفع ملء كفه ترابا
فسجد عليه فعجب الفريقان
كلاهما من جماعتهم فى السجود
لسجود رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأما المسلمون فعجبوا لسجود
المشركين معهم على غير ايمان ولا
يقين ولم يكن المسلمون سمعوا
الذى ألقى الشيطان فى مسامع
المشركين فاطمأنت أنفسهم لما
ألقى الشيطان فى أمنية رسول الله
صلى الله عليه وسلم وحدثهم به
الشيطان ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قد قرأها فى السورة فسجدوا
لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة
فى الناس وأظهرها الشيطان حتى
بلغت أرض الحبشة ومن بها من
المسلمين عثمان بن مظعون وأصحابه
وتحدثوا ان أهل مكة قد أسلموا
كلهم وصلوا مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم وبلغهم سجود الوليد بن
المغيرة على التراب على كفه وحدثوا
ان المسلمين قد آمنوا بمكة فاقبلوا
سراعا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان
وأحكم الله آياته وحفظه من
الفرية وقال الله وما أرسلنا من
قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى
ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله
ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته
والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى
الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم

لا استقلالا ولا تبعا فهو المتصرف فيهما وفيه تنبيه على افتقار الكل اليه في الوجود وتوابعه من البقاء وغيره (و) الصفة الثانية (لم يتخذ ولدا) فيه رد على اليهود والنصارى (و) الثالثة (لم يكن له شريك في الملك) فيه رد على طوائف المشركين من الثنوية والوثنية وعباد الاصنام وأهل الشرك الخفي فاثبت له الملك بجميع وجوهه ثم نفى ما يقوم مقامه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال (وخلق كل شئ) من الموجودات مما تطلق عليه صفة المخلوق وهي الصفة الرابعة (فقدره تقديرا) أي قدر كل شئ مما خلق بحكمته على ما أراده وهيأه لما يصلح له وسواه تسوية لا اعوجاج فيه ولا زيادة على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ولا نقصا عن ذلك في بابي الدنيا والدين وقيل أحدثه احداثا مراعى فيه التقدير حسب ارادته كخلقه الانسان من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة فقدره وهيأه لما أراد منه من الخصائص والافعال أو فقدره للبقاء الى أجل مسمى قال قتادة بين الله لكل شئ من خلقه صلاحه وجعل ذلك بقدر معلوم قال الواحدي قال المفسرون قدر له تقديرا من الاجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق وقيل أريد بالخلق هنا مجرد الاحداث والايجاد مجازا من غير ملاحظة معنى التقدير وان لم يخل عنه في نفس الامر فيكون المعنى أوجد كل شئ فقدره لئلا يلزم التكرار وهذا أوضح دليل على المعتزلة في خلق افعال العباد ثم صرح سبحانه في تزييف مذاهب عبدة الاوثان فقال (واتخذوا من دونه) الضمير للكفار أو المنذرين أو للمشركين وان لم يتقدم لهم ذكر لدلالة العالمين ونفي الشريك والنذير عليهم أي اتخذ المشركون لانفسهم متجاوزين الله (آلهة) قال قتادة هي الاوثان التي تعبد من دون الله (لا يخلقون شيأ) أي لا يقدرون على خلق شئ من الاشياء وغلب العقلاء على غيرهم لان في معبودات الكفار الملائكة وعزيرا والمسيح (وهم يخلقون) أي يخلقهم الله سبحانه قال قتادة أي هو الله الخالق الرازق وهذه الاوثان تخلق ولا تخلق شيأ ولا تضر ولا تنفع وقيل عبر عن الآلهة بضمير العقلاء جريا على اعتقاد الكفار انها تضر وتنفع وقيل المعنى عبدتهم يصورونهم وينحتونهم ثم لما وصف سبحانه نفسه الكريمة بالقدرة الباهرة وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ فقال (ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا) أي لا يقدرون على ان يجلبوا لانفسهم نفعا ولا يدفعوا عنها ضررا وقدم ذكر الضر لان دفعه أهم من جلب النفع واذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلق بانفسهم فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم وهذا يدل على غاية عجزهم ونهاية ضعفهم ثم زاد في بيان عجزهم فنص على هذه الامور فقال (ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) أي لا يقدرون على اماتة الاحياء ولا احياء الموتى ولا بعثهم من القبور لان النشور هو الاحياء بعد الموت يقال أنشر الله الموتى فنشروا وقدم الموت لمناسبته للضر المتقدم ولما فرغ سبحانه من بيان التوحيد وتزييف مذاهب المشركين شرع في ذكر شبه منكري النبوة فالشبهة الاولى ما حكاه عنهم بقوله (وقال الذين كفروا) أي مشركو العرب (ان هذا) أي ما هذا القرآن (الا افك) أي كذب (افتراه) أي اختلقه محمد صلى الله عليه وآله وسلم (وأعانه عليه) أي على الاختلاق (قوم آخرون) يعنون من اليهود قيل وهم أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي

مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم المسلمين واشتدوا عليهم وهذا أيضا مرسل وفي تفسير ابن جرير عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام نحوه وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة فلم يجزبه موسى ابن عقبة ساقه من مغازيه بنحوه قال وقد روينا عن أبي اسحق هذه القصة (قلت) وقد ذكرها محمد بن اسحق في السيرة بنحو من هذا وكلها مرسلات ومنقطعات والله أعلم وقد ساقها البغوي في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما بنحو من ذلك ثم سأل ههنا سؤالا كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلاة الله وسلامه عليه ثم حكى أجوبة عن الناس من ألطفها ان الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس كذلك في نفس الامر بل انما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن صلى الله عليه وسلم والله أعلم وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته وقد تعرض القاضي عياض رحمه الله في كتاب الشفاء لهذا وأجاب بما حاصله انها كذلك لثبوتها وقوله الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة

وعداس مولى حويطب بن عبد العزى وجبر مولى ابن عامر وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود وقد مر الكلام على مثل هذا في سورة النحل ثم رد الله سبحانه عليهم فقال (فقد جاؤا ظلما وزورا) أي فقد قالوا ظلما هائلا عظيما وكذبا ظاهرا والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها لكن لا على انهما أمران متغايران حقيقة بل على ان الثاني هو عين الاول حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري وقد تحقق ماجاؤا به من الظلم والزور وانتصاب ظلما بجاؤا فان جاء قد تستعمل استعمال أتى وتعدى تعديته وقال الزجاج الاصل جاؤا بظلم وقيل على الحال وانما كان ذلك منهم ظلما لانهم نسبوا القبيح الى من هو مبرأ منه فقد وضعوا الشئ في غير موضعه وهذا هو الظلم وقيل هو جعل الكلام المعجز افكا مختلقا متلقفا من اليهود وأما كون ذلك منهم زورا فظاهر لانهم قد كذبوا في هذه المقالة ثم ذكر الشبهة الثانية فقال (وقالوا أساطير الاولين) أي أحاديثهم وماسطروه من الاخبار مثل خبر رستم واسفنديار قال الزجاج واحد الاساطير أسطورة مثل أحاديث وأحدوثة وقال غيره جمع أسطار مثل أقاويل وأقوال (اكتتبها) أي استكتبها أو كتبها لنفسه والمعنى جمعها من الكتب وهو الجمع لا من الكتابة بالقلم والاول أولى ومحل اكتتبها النصب على الحال أو الرفع على انه خبر ثان وقرئ اكتتبها مبنيا للمفعول والمعنى اكتتبها له كاتب لانه كان أميا لا يكتب ولا يقرأ (فهي تملى عليه) أي تلقى عليه تلك الاساطير بعدما اكتتبها ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أميا لا يقدر على ان يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه أو المعنى أرادوا كتابتها فهي تملى عليه لانه يقال أمليت عليه فهو يكتب (بكرة وأصيلا) أي غدوة وعشيا كأنهم قالوا ان هؤلاء يعلمون محمدا صلى الله عليه وآله وسلم طرفي النهار وقيل معنى بكرة وأصيلا دائما في جميع الاوقات فأجاب الله سبحانه عن هذه الشبهة بقوله (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض) أي ليس ذلك مما يفترى ويفتعل باعانة قوم وكتابة آخرين من الاحاديث الملفقة وأخبار الاولين بل هو أمر سماوي أنزله الذي يعلم كل شئ لا يغيب عنه شئ من الاشياء فلهذا عجزتم عن معارضته ولم تأتوا بسورة مثله وخص السر للاشارة الى انطواء ما أنزله سبحانه على اسرار بديعة لا يبلغ اليها عقول البشر والسر الغيب أي يعلم الغيب الكائن فيهما (انه كان غفورا رحيما) تعليل لتأخير العقوبة أي انكم وان كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والظلم له فانه لا يعجل عليكم بذلك لانه كثير المغفرة والرحمة ثم لما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن ذكر ما طعنوا به على الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال (وقالوا مال هذا الرسول) في الاشارة هنا تصغير لشأن المشار اليه وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسموه رسولا استهزاء وسخرية وحاصل ما ذكر هنا ستة قبائح والاخيرة هي قوله الا رجلا مسحورا وقد رد الله عليهم هذه الستة اجمالا في البعض وتفصيلا في البعض والمعنى أي شئ وأي سبب حصل لهذا الذي يدعي الرسالة حال كونه (يأكل الطعام) كما نأكله (ويمشي في الاسواق) ويتردد فيها لطلب المعاش كما نتردد زعموا انه كان يجب أن يكون الرسول ملكا مستغنيا

الله وسلامه عليه أي لا يهيدنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والانبياء قال البخاري قال ابن عباس في أمنيته اذا حدث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته يقول اذا حدث ألقى الشيطان في حديثه وقال مجاهد اذا تمنى يعني اذا قال ويقال أمنيته قراءته الاماني يقرؤن ولا يكتبون قال البغوي وأكثر المفسرين قالوا معنى قوله تمنى أي تلا وقرأ كتاب الله ألقى الشيطان في أمنيته اى في تلاوته قال الشاعر في عثمان حين قتل

تمنى كتاب الله أول ليله
وآخرها لاقى حمام المقادر

وقال الضحاك اذا تمنى اذا تلا قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام وقوله فينسخ الله ما يلقي الشيطان حقيقة النسخ لغة الازالة والرفع قال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان وقال الضحاك نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وقوله والله عليم أي بما يكون من الامور والحوادث لا تخفى عليه خافية حكيم أي في تقديره وخلقه وأمره له الحكمة التامة والحجة البالغة ولهذا قال ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض أي شك وشرك وكفر

عن الطعام والكسب والاستفهام للانكار وهو يرجع الى السبب مع تحقق المسبب وهو الاكل والمشي ولكنه استبعد تحقق ذلك لانتفاء سببه عندهم تهكما واستهزاء والمعنى انه ان صح مايدعيه من النبوة فما باله يخالف حاله حالنا (لولا) للتحضيض هذا ما استظهره ابن هشام بعد نقله عن الهروي انها للاستفهام أي هلا (أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا) طلبوا أن يكون النبي مصحوبا بملك يعضده ويساعده تنزلوا عن اقتراح كون الرسول ملكا مستغنيا عن الاكل والكسب الى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ويشهد له بالرسالة (أو يلقى اليه كنز) تنزلوا من مرتبة نزول الملك معه الى اقتراح أن يكون معه كنز يلقى اليه من السماء ليستغني به عن طلب الرزق (أو تكون له جنة يأكل منها) قرأ الجمهور بالفوقية وقرئ بالتحتية لان تأنيث الجنة غير حقيقي وقرئ نأكل بالنون أي بستان نأكل نحن من ثماره وبالتحتية أي يأكل هو وحده منه ليكون له بذلك مزية علينا حيث يكون أكله من جنته قال النحاس والقراءتان حسنتان وان كانت القراءة بالياء أبين لانه قد تقدم ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحده فعود الضمير اليه أبين عن ابن عباس قال ان عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وأبا البختري والاسود بن عبد المطلب وزمعة بن الاسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية ابن خلف والعاص بن وائل ومنبه بن الحجاج اجتمعوا فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك قال فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر منك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا وان كنت تطلب به الشرف فنحن نسودك وان كنت تريد به ملكا ملكناك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مابي مما تقولون ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم قالوا يا محمد فان كنت غير قابل منا شيأ مما عرضنا عليك أو قالوا فاذا لم تفعل هذا فسل لنفسك وسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة يغنيك عما نراك تبتغي فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أنا بفاعل ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت اليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا فأنزل الله في ذلك هذه الآية أخرجه ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر (وقال الظالمون) المراد بهم هنا هم القائلون بالمقالات الاول وانما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) أي مخدوعا مغلوبا على عقله بالسحر وقيل ذا سحر وهي الرئة أي بشرا له رئة لا ملكا فالمراد بالسحر هنا لازمه وهو اختلال العقل وقد تقدم بيان مثل هذا في سبحان (أنظر كيف) استعظام

ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا انه صحيح من عند الله وانما كان من الشيطان قال ابن جريج الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون والقاسية قلوبهم هم المشركون وقال مقاتل بن حيان هم اليهود وان الظالمين لفي شقاق بعيد أي في ضلال ومخالفة أو عناد بعيد أي من الحق والصواب وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذين يفرقون به بين الحق والباطل والمؤمنون بالله ورسوله انما أوحيناه اليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه ان يختلط به غيره بل هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وقوله فيؤمنوا به أي يصدقوا وينقادوا له وتخبت له قلوبهم أي تخضع وتذل له قلوبهم وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم أي في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فيرشدهم الى الحق واتباعه ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل الى درجات الجنات ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات (ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين)

للاباطيل التي اجترؤا على التفوه بها وتعجب منها أي انظر كيف (ضربوا لك الامثال) وقالوا في حقك تلك الاقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية مجرى الامثال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال الشاذة البعيدة من الوقوع ليتوصلوا بها الى تكذيبك والامثال هي الاقوال النادرة والاقتراحات الغريبة وهي ماذكروه ههنا من المفترى والملقى عليه والمسحور (فضلوا) عن الصواب فلا يجدون طريقا اليه ولا وصلوا الى شيء منه بل جاؤا بهذه المقالات الزائفة التي لا تصدر عن أدنى العقلاء وأقلهم تمييزا ولهذا قال (فلا يستطيعون سبيلا) يعني لا يجدون الى القدح في نبوة هذا النبي طريقا من الطرق (تبارك) أي تكاثر خير (الذي ان شاء جعل لك) في الدنيا معجلا (خيرا من ذلك) الذي اقترحوه من الكنز والبستان ثم فسر الخير فقال (جنات تجري من تحتها الانهار) أي في الدنيا لانه تعالى شاء أن يعطيه اياها في الآخرة (ويجعل لك قصورا) قد تقرر في علم الاعراب ان الشرط اذا كان ماضيا جاز في جوابه الجزم والرفع فجعل ههنا في محل جزم ورفع فيجوز فيما عطف عليه ان يجزم كما قرأ الجمهور وان يرفع كما قرأ ابن كثير والقصر البيت من الحجارة لان الساكن به مقصور عن ان يوصل اليه وقيل هو بيت الطين وبيوت الصوف والشعر عن خيثمة قال قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ان شئت أعطيناك من خزائن الارض ومفاتيحها مالم يعط نبي قبلك ولا نعطيها أحدا بعدك ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيأ وان شئت جمعتها لك في الآخرة فقال اجمعوها لي في الآخرة فأنزل الله سبحانه هذه الآية أخرجه الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وغيرهم ثم أضرب الله سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء فقال (بل كذبوا بالساعة) أي بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة فلهذا لا ينتفعون بالدلائل ولا يتأملون فيها ثم ذكر سبحانه ما أعد لمن كذب بالساعة فقال (وأعتدنا) أي والحال انا أعتدنا وهيأنا وخلقنا (لمن كذب بالساعة سعيرا) قال أبو مسلم أي جعلناه عتيدا ومعدا لهم انتهى والسعير هي النار المتسعرة المشتعلة والنار موجودة اليوم لهذه الآية كما أن الجنة كذلك لقوله تعالى أعدت للمتقين ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع واعداد السعير لهم وان لم يكن لخصوص تكذيبهم بالساعة بل لأي تكذيب بشيء من الشريعة لكن الساعة لما كانت هي العلة القريبة لدخولهم السعير اقتصر على ترتيب الاعداد على التكذيب بها (اذا رأتهم) قيل معناها اذا ظهرت لهم فكانت بمرأى الناظر في البعد وقيل المعنى اذا رأتهم خزنتها وقيل ان الرؤية هنا حقيقية وكذلك التغيظ والزفير ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الادراك وهو الارجح ومعنى (من مكان بعيد) انها رأتهم وهي بعيدة عنهم قيل بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام وقيل عام وعن ابن عباس قال من مسيرة مائة عام وذلك اذا أتي بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل بر وفاجر فتزفر زفرة لا تبقى قطرة من دمع الا بدت ثم تزفر الثانية فتقطع القلوب من أماكنها وتبلغ القلوب الحناجر وعن رجل من الصحابة قال قال النبي صلى الله

عليه

يقول تعالى مخبرا عن الكفار انهم لا يزالون في مرية أي في شك وريب من هذا القرآن قاله ابن جريج واختاره ابن جرير وقال سعيد بن جبير وابن زيد منه أي مما ألقى الشيطان حتى تأتيهم الساعة بغتة قال مجاهد فجأة وقال قتادة بغتة بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوما قط الا عند سكونهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله انه لا يغتر بالله الا القوم الفاسقون وقوله أو يأتيهم عذاب يوم عقيم قال مجاهد قال أبي بن كعب هو يوم بدر وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير وقال عكرمة ومجاهد في رواية عنهما هو يوم القيامة لا ليل له وكذا قال الضحاك والحسن البصري وهذا القول هو الصحيح وان كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد ولهذا قال الملك يومئذ لله يحكم بينهم كقوله مالك يوم الدين وقوله الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا فالذين آمنوا وعملوا الصالحات أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله وعملوا بمقتضى ما علموا وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم في جنات النعيم أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أي كفرت قلوبهم بالحق وجحدت به وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم فأولئك لهم عذاب مهين أي مقابلة

عليه وآله وسلم من يقل علىّ مالم أقل أو ادعى الى غير والديه أو انتمى الى غير مواليه فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قيل يارسول الله وهل لها من عينين قال نعم أما سمعتم الله يقول اذا رأتهم من مكان بعيد أخرجه عبد بن حميد وابن جرير من طريق خالد بن دريك ونحوه عند رزين في كتابه وصححه ابن العربي في قبسه وله لفظ بمعناه وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصران واذنان يسمعان ولسان ينطق يقول انى وكلت بثلاث بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله الها آخر وبالمصورين وفي الباب عن أبي سعيد قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح (سمعوا لها تغيظا) أى غليانا كالغضبان اذا غلى صدره من الغضب يعني ان لها صوتا يدل على التغيظ على الكفار أو لغليانها صوتا يشبه صوت المغتاظ (وزفيرا) هو الصوت أى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ وقال قطرب أراد علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا وقيل المعنى فيها تغيظا وزفيرا للمعذبين كما قال لهم فيها زفير وشهيق وفي واللام متقاربان تقول هذا لله وفي الله (واذا ألقوا منها) أى طرحوا (مكانا ضيقا) وصف المكان بالضيق للدلالة على زيادة الشدة وتناهي البلاء عليهم وعن يحيى بن أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سئل عن هذه الآية قال والذى نفسي بيده انهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط وعن ابن عباس انه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح (مقرنين) أى حال كونهم قد قرنت أيديهم الى أعناقهم بالجوامع مصفدين بالحديد وقيل مكتفين وقيل قرنوا مع الشياطين أى قرن كل واحد منهم الى شيطانه وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة ابراهيم (دعوا هنالك) أى في ذلك المكان الضيق (ثبورا) أى هلاكا كما قال الزجاج وقال ابن عباس ثبورا أى ويلا وقيل ثبرنا ثبورا وقيل مفعول له والمعنى انهم يتمنون هنالك الهلاك وينادونه لما حل بهم من البلاء ويقولون يا ثبوراه أى احضر فهذا أوانك لكنهم لا يهلكون وأجيب عليهم بقوله (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا) والقائل لهم هم الملائكة خزنة جهنم أى اتركوا دعاء ثبورا واحدا (وادعوا ثبورا كثيرا) والثبور مصدر يقع على القليل والكثير فلهذا لم يجمع ومثله ضربته ضربا كثيرا وقعد قعودا طويلا فالكثرة ههنا هي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرته في نفسه فانه شئ واحد والمعنى لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاء واحدا وادعوه أدعية كثيرة فان ما أنتم فيه من العذاب أشد من ذلك لطول مدته وعدم تناهيه وقيل هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول وهو خلاف ظاهر القرآن وقيل ان المعنى انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا بل هو ثبور كثير لان العذاب أنواع كثيرة كل نوع منها ثبور لشدته أو لانه يتجدد لقوله تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب أو لانه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبور والاولى ان المراد بهذا الجواب عليهم الدلالة على خلود عذابهم واقناطهم عن حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجي لهم مما هم فيه أخرج أحمد والبزار والبيهقي وغيرهم قال السيوطي بسند صحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

استكبارهم وابائهم عن الحق كقوله تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين أى صاغرين (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور) يخبر تعالى عمن خرج مهاجرا في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلبا لما عنده وترك الاوطان والاهلين والخلان وفارق بلاده في الله ورسوله ونصرة لدين الله ثم قتلوا أى في الجهاد أو ماتوا أى حتف أنفسهم من غير قتال على فرشهم فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل كما قال تعالى ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وقوله ليرزقنهم الله رزقا حسنا أى ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم وان الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه أى الجنة كما قال تعالى فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم فاخبر انه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم كما قال ههنا ليرزقنهم الله رزقا حسنا ثم قال ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم أى بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك حليم أى يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم اليه وتوكلهم عليه فأما

ان أول مايكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي ياثبوراه ويقولون ياثبورهم حتى يقف على الناس فيقول ياثبوراه ويقولون ياثبورهم فيقال لهم لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا ثم وبخهم الله سبحانه توبيخا بالغا على لسان رسوله فقال (قل أذلك) أى السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة (خير أم جنة الخلد) وفى اضافة الجنة الى الخلد اشعار بدوام نعيمها وعدم انقطاعه والمجىء بلفظ خير هنا مع انه لاخير فى النار أصلا لان العرب قد تقول ذلك ومنه ماحكاه سيبويه عنهم انهم يقولون السعادة أحب اليك أم الشقاوة وقد علم ان السعادة أحب اليه وقيل ليس هذا من باب التفضيل وانما هو كقولك عنده خير قال النحاس وهذا قول حسن (التى وعد) أى وعدها (المتقون) فالراجع الى الموصول محذوف ثم قال سبحانه (كانت) أى تلك الجنة (لهم) أى للمتقين (جزاء) على اعمالهم (ومصيرا) يصيرون اليه وهذا فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ قبل خلقهم بأزمنة متطاولة أو قال ذلك لان ماوعد الله به فهو فى تحققه كأنه قد كان (لهم فيها) أى فى الجنة (مايشاؤن) أى مايشاؤنه من النعم وضروب الملاذ كما فى قوله ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولعله تقصر همم كل طائفة على مايليق برتبتها لان الظاهر ان الناقص لايدرك شيأ مما هو للكامل بالتشهى وفيه تنبيه على ان كل المرادات لاتحصل الا فى الجنة قال الشهاب وانه تعالى لايلقى فى خواطرهم ان ينالوا رتبة من هو أشرف منهم ولا يلتفتوا الى حال غيرهم (خالدين) أى فى نعيم الجنة ومن تمام النعيم ان يكون دائما اذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم وقد تقدم تحقيق معنى الخلود (كان) أى مايشاؤنه وقيل كان الخلود وقيل الوعد المدلول عليه بقوله وعد المتقون (على ربك وعدا مسؤلا) أى الوعد الحقيق بان يسئل ويطلب كما فى قوله ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك وقيل ان الملائكة تسأل لهم الجنة كقوله وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وقيل المراد به الوعد الواجب وان لم يسئل وقال ابن عباس يقول تعالى سلوا الذى وعدتكم تنجزوه (ويوم يحشرهم) أى اذكر وتعليق التذكير باليوم مع ان المقصود ذكر مافيه للمبالغة والتأكيد كما مر مرارا (ومايعبدون من دون الله) غلب غير العقلاء من الاصنام والاوثان ونحوها على العقلاء من الملائكة والجن والمسيح تنبيها على انها جميعا مشتركة فى كونها غير صالحة لكونها آلهة أو لان من يعبد من لايعقل أكثر ممن يعبد من يعقل منها فغلبت اعتبارا بكثرة من يعبدها وقال مجاهد وابن جريج المراد الملائكة والانس والجن والمسيح وعزير بدليل خطابهم وجوابهم فيما بعد وقال الضحاك وعكرمة والكلبى المراد الاصنام خاصة وانها وان كانت لاتسمع ولا تتكلم فان الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة وقيل عام ومايتناول العقلاء وغيرهم لانه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم (فيقول) الله تعالى اثباتا للحجة على العابدين وتقريعا وتبكيتا لهم (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) الاستفهام للتوبيخ والتقريع والمعنى ان كان ضلالهم بسببكم وبدعوتكم لهم الى عبادتكم (أم هم ضلوا السبيل) أى طريق الحق بانفسهم لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق والتدبر فيما يتوصل به الى الصواب (قالوا) أى

من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فانه حى عند ربه يرزق كما قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون والاحاديث فى هذا كثيرة كما تقدم وأما من توفى فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الاحاديث الصحيحة أجر الرزق عليه وعظيم احسان الله اليه قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا المسيب بن واضح حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن ابن الحرث يعنى عبد الكريم عن ابن عقبة يعنى أباعبيدة بن عقبة قال قال شرحبيل بن السمط طال رباطنا واقامتنا على حصن بأرض الروم فمر بى سلمان يعنى الفارسى رضى الله عنه فقال انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من مات مرابطا أجرى الله عليه مثل ذلك الاجر وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين واقرؤا ان شئتم والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا زيد بن بشر أخبرنى همام انه سمع أباقبيل وربيعة بن سيف المغافرى يقولان كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر بجنازتين احداهما

المعبودون مستأنفة جواب سؤال مقدر ومعنى (سبحانك) التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة أو أنبياء معصومين أو جمادات لا تعقل أي تنزيها لك (ما كان ينبغي) وقرئ ينبغي مبنيا للمفعول قال ابن خالويه زعم سيبويه انها لغة أي ما صح ولا استقام (لنا أن نتخذ من دونك) أي متجاوزين اياك (من أولياء) فنعبدهم فكيف ندعو عبادك الى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبد غيرك والولي يطلق على التابع كما يطلق على المتبوع هذا معنى الآية على قراءة الجمهور نتخذ مبنيا للفاعل وقرئ مبنيا للمفعول والمعنى ان يتخذنا المشركون أولياء من دونك وقال أبو عبيدة لا تجوز هذه القراءة وبه قال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر لانه سبحانه ذكر من مرتين ولو كانت صحيحة لقال ان نتخذ من دونك أولياء أي لحذفت من الثانية وقيل انها زائدة ثم حكى عنهم سبحانه بأنهم بعد هذا الجواب ذكروا سبب ترك المشركين للايمان فقال (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر) وفي هذا ما يدل على انهم هم الذين ضلوا السبيل ولم يضلهم غيرهم والمعنى ما أضللناهم ولكنك يارب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ووسعت عليهم الرزق وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا موعظتك والتدبر لكتابك والنظر في عجائب صنعك وغرائب مخلوقاتك وجعلوا ذلك ذريعة الى ضلالهم عكس القضية وقيل المراد بنسيان الذكر ههنا هو ترك الشكر (وكانوا) هؤلاء الذين أشركوا بك وعبدوا غيرك في قضائك الازلي (قوما بورا) أي هلكى قاله ابن عباس مأخوذ من البوار وهو الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور يستوي فيه الواحد والجماعة لانه مصدر يطلق على القليل والكثير أو جمع بائر وقيل البوار الفساد يقال بارت بضاعته أي فسدت وأمر بائر أي فاسد وهي لغة الازد وقيل المعنى الاخير فيهم مأخوذ من بوار الارض وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير وقيل ان البوار الكساد ومنه بارت السلعة اذا كسدت وهذا كله يرجع الى معنى الهلاك والفساد ثم يقال للكفار بطريق الخطاب عدولا عن الغيبة (فقد كذبوكم) وفي الكلام حذف والتقدير فقال الله عند تبري المعبودين مخاطبا للمشركين العابدين لغير الله فقد كذبكم المعبودون وقرئ مخففا أي كذبوكم في قولهم (بما تقولون) أي في قولكم انهم آلهة وهذه المفاجأة بالاحتجاج والالزام حسنة رائعة وخاصة اذا انضم اليها الالتفات وحذف القول ونظيرها يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل الى قوله فقد جاءكم بشير ونذير وقول القائل

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وقال ابن زيد المعنى فقد كذبوكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى هذا فمعنى بما تقولون بما تقولونه من الحق وقرئ فقد كذبوكم مخففا وبما يقولون بالتحتية أي كذبوكم في قولهم (فما تستطيعون) أيها الكفار (صرفا) أي دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه وقيل حيلة (ولا نصرا) أي نصركم وقرئ بالتحتية فالمعنى فما يستطيع آلهتكم ان يصرفوا عنكم العذاب أو ينصروكم وقيل المعنى فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون صرفا للعذاب الذي عذبهم الله به ولا نصرا من الله وقال ابو عبيد المعنى فما يستطيعون لكم صرفا عن الحق الذي هداكم الله اليه ولا نصرا

قتيل والآخر متوفى فمال الناس على القتيل فقال فضالة مالي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا فقالوا هذا القتيل في سبيل الله فقال والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا حتى بلغ آخر الآية وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان أنبأنا ابن المبارك أنبأنا ابن لهيعة حدثنا سلامان ابن عامر الشيباني ان عبد الرحمن ابن جحدم الخولاني حدثه أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنازتين أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفي فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى فقيل له تركت الشهيد فلم تجلس عنده فقال ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت ان الله يقول والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا الآيتين فما تبتغي أيها العبد اذا أدخلت مدخلا ترضاه ورزقت رزقا حسنا والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت ورواه ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى عن وهب أخبرني عبد الرحمن بن شريح وسلامان بن عامر قال كان فضالة برودس أميرا على الارباع فخرج بجنازتي رجلين أحدهما قتيل والآخر متوفى فذكر نحو ما تقدم وقوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به الآية ذكر مقاتل ابن حيان وابن جرير انها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعا من المشركين في شهر محرم فناشدهم

لانفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم اياكم (ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) هذا وعيد لكل ظالم ويدخل تحته الذين فيهم السياق دخولا أوليا والعذاب الكبير عذاب النار وفسر بالخلود فيها وهو يلحق بالمشرك دون الفاسق الا على قول المعتزلة والخوارج وقرئ يذقه بالتحتية وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة وعن الحسن قال الظلم هو الشرك وقال ابن جريج يظلم يشرك ثم رجع سبحانه الى خطاب رسوله موضحا لبطلان ما تقدم من قولهم يأكل الطعام ويمشي في الاسواق فقال (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق) قال الزجاج الجملة الواقعة بعد الا صفة لموصوف محذوف والمعنى ما أرسلنا قبلك أحدا منهم الا آكلين وماشين فأنت مثلهم في ذلك وقد قيل لهم مثل ما قيل لك وقال الفراء لا محل لها من الاعراب انما هي صلة لموصول محذوف والتقدير الا من انهم كما في قوله الا واردها أي الا من يردها وبه قال الكسائي وقال الزجاج هذا خطأ لان من الموصولة لا يجوز حذفها وقال ابن الانباري التقدير الا وانهم وقرئ انهم بكسر ان لوجود اللام في خبرها وهو مجمع عليه عند النحاة وقال المبرد يجوز فيه الفتح قال النحاس وأحسبه وهما وقرئ يمشون مخففا ومثقلا قال قتادة يقول ان الرسل قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانوا بهذه المنزلة يأكلون ويمشون (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) هذا الخطاب عام للناس وفيه تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم أيضا فانه أشرف الاشراف وقد ابتلي بأخس الاخساء وقد جعل سبحانه بعض عبيده فتنة لبعض فالصحيح فتنة للمريض والغني فتنة للفقير وقيل المراد بالبعض الاول كفار الامم وبالبعض الثاني الرسل ومعنى الفتنة الابتلاء والمحنة والاول أولى فان البعض من الناس ممتحن بالبعض مبتلى به فالمريض يقول لم لم أجعل كالصحيح وكذا صاحب كل آفة والصحيح مبتلى بالمريض فلا يضجر منه ولا يحتقره والغني مبتلى بالفقير يواسيه والفقير مبتلى بالغني يحسده ونحو هذا مثله وقيل المراد بالآية انه كان اذا أراد الشريف أن يسلم ورأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقال لا أسلم بعده فيكون له علي السابقة والفضل فيقيم على كفره فذلك افتتان بعضهم ببعض واختار هذا الفراء والزجاج ولا وجه لقصر الآية على هذا فان هؤلاء ان كانوا سبب النزول فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقال الحسن في الآية يقول الفقير لو شاء الله لجعلني غنيا مثل فلان ويقول السقيم لو شاء الله لجعلني صحيحا مثل فلان ويقول الاعمى لو شاء الله لجعلني بصيرا مثل فلان وعن أبي الدرداء أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان بعضكم لبعض فتنة وهو قوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أسنده الثعلبي ثم قال سبحانه بعد الاخبار بجعل البعض فتنة للبعض (أتصبرون) هذا الاستفهام للتقرير والتقدير أتصبرون على ما ترون من هذه الحالة الشديدة والابتلاء العظيم فتؤجروا أم لا تصبرون فيزداد غمكم وعليه جرى الاكثرون وقيل معنى أتصبرون اصبروا مثل قوله فهل أنتم

منتهون

المسلمون لثلاثة قاتلوهم في الشهر الحرام فأبى المشركون الا قتالهم وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم ان الله لعفو غفور (ذلك بان الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وان الله سميع بصير ذلك بان الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير) يقول تعالى منبها على انه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء كما قال قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ومعنى ايلاجه الليل في النهار والنهار في الليل ادخاله من هذا في هذا ومن هذا في هذا فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف وقوله وأن الله سميع بصير أي سميع باقوال عباده بصير بهم لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم ولما تبين انه المتصرف في الوجود الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال ذلك بان الله هو الحق أي الاله الحق الذي لا تنبغي العبادة الا له لانه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكل شئ فقير اليه ذليل لديه وان ما يدعون من دونه هو الباطل أي من الاصنام والانداد والاوثان وكل ما عبد من دونه تعالى

منتهون أى انتهوا وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ثم وعد الله الصابرين بقوله (وكان ربك بصيرا) أى بكل من يصبر ومن لا يصبر فيجازى كلا منهم بما يستحقه (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) هذه المقالة من جملة شبههم التى قدحوا بها فى النبوة أى وقال المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله وقيل المعنى لا يخافون لقاء ربهم بالشر وهى لغة تهامية وأصل اللقاء الوصول الى الشئ ومنه الرؤية فانها وصول الى المرئى والمراد به الوصول الى جزائه ويمكن أن يراد به الرؤية على الاول قال الفراء وضع الرجاء موضع الخوف وقيل لا يأملون لقاءنا بالخير لكفرهم بالبعث والحمل على المعنى الحقيقى أولى فالمعنى لا يأملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب (لولا) هلا (أنزل علينا الملائكة) فيخبرونا أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم صادق أو هلا أنزلوا علينا رسلا يرسلهم الله (أو نرى ربنا) عيانا فيخبرنا بأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم رسول ثم أجاب الله سبحانه عن شبهتهم هذه فقال (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) أى أضمروا الاستكبار عن الحق والعناد فى قلوبهم كما فى قوله تعالى ان فى صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه والعتو مجاوزة الحد فى الطغيان والبلوغ الى اقصى غاياته قال ابن عباس عتوا أى شدة الكفر ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة فى غاية الكبر والعظم فانهم لم يكتفوا بارسال البشر حتى طلبوا ارسال الملائكة اليهم بل جاوزوا ذلك الى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه ورؤيته فى الدنيا من دون ان يكون بينهم وبينه ترجمان ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغا هى أحقر وأقل وأرذل من أن تكون من أهله أو تعد من المستعدين له وهكذا من جهل قدر نفسه ولم يقف عند حده ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه مالا يرى (يوم) أى اذكر يوم (يرون الملائكة) أى ملائكة العذاب رؤيتهم ليست على الوجه الذى طلبوه والصورة التى اقترحوها بل على وجه آخر وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت أو عند الحشر قال مجاهد يوم القيامة وعن عطية العوفى نحوه (لا بشرى يومئذ للمجرمين) أى يمنعون البشرى يوم يرون او لا توجد لهم بشرى فيه فأعلم سبحانه بان الوقت الذى يرون فيه الملائكة وهو وقت الموت او يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة قال الزجاج المجرمون فى هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله وهو ظاهر فى موضع مضمر أو عام يتناولهم بعمومه وهم الذين اجترموا الذنوب والمراد الكفار لان مطلق الاسماء يتناول اكمل المسميات (ويقولون) عند مشاهدتهم للملائكة (حجرا) حراما (محجورا) هذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة يقال للرجل أتفعل كذا فيقول حجرا محجورا أى حراما عليك التعرض لى والمعنى يطلبون من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقهم أى نسأله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وقيل ان هذا من قول الملائكة أى يقولون للكفار حراما محرما أن يدخل أحد منكم الجنة وأن تكون

فهو باطل لانه لا يملك ضرا ولا نفعا وقوله ان الله هو العلى الكبير كما قال وهو العلى العظيم وقال وهو الكبير المتعال فكل شئ تحت قهره وسلطانه وعظمته لا اله الا هو ولا رب سواه لأنه العظيم الذى لا أعظم منه العلى الذى لا أعلى منه الكبير الذى لا أكبر منه تعالى وتقدس وتنزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير له ما فى السموات وما فى الارض وان الله لهو الغنى الحميد ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الارض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور) وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه وانه يرسل الرياح فتثير سحابا فيمطر على الارض الجرز التى لا نبات فيها وهى هامدة يابسة سوداء قحلة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وقوله فتصبح الارض مخضرة الفاء ههنا للتعقيب وتعقيب كل شئ بحسبه كما قال تعالى فخلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الآية وقد ثبت فى الصحيحين أن بين كل شيئين أربعين يوما ومع هذا هو معقب بالفاء وهكذا ههنا قال فتصبح الارض مخضرة أى خضراء بعد يباسها وطولها وقد ذكر عن بعض أرض الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء فالله أعلم وقوله ان الله لطيف خبير أى عليم بما فى أرجاء الارض

البشرى في اليوم الا للمؤمنين وقال أبو سعيد الخدري حراما محرما أن نبشر كم بما نبشر به المتقين وعن الحسن وقتادة قالا هي كلمة كانت العرب تقولها عند الشدائد وقال مجاهد أي عوذا معاذا الملائكة تقوله والحجر مصدر بمعنى الاستعاذة والكسر والفتح لغتان وقرئ بهما وقرئ بالضم وهو لغة فيه وهو من حجره اذا منعه وقد ذكر سيبويه في باب المصادر المنصوبة بأفعال متروك اظهارها هذه الكلمة وجعلها من جملتها وبه قال السمين والبيضاوي والحجر العقل لانه يمنع صاحبه ومحجورا صفة مؤكدة للمعنى كقولهم ذيل ذائل وموت مائت (وقدمنا الى ما عملوا من عمل) هذا وعيد آخر وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالا لها صورة الخير من صلة الرحم واغاثة الملهوف واطعام الطعام وامثالها ولم يمنع من الاثابة عليها الا الكفر الذي هم عليه فمثلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم الى ما معهم من المتاع فأفسده ولم يترك منه شيأ والا فلا قدوم ههنا أو هو من الصفات كالمجيء والنزول فيجب الايمان به من غير تأويل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل كما هو مذهب السلف الصلحاء وهو الحق قال الواحدي معنى قدمنا عمدنا وقصدنا يقال قدم فلان الى أمر كذا اذا قصده أو عمده وقيل هو قدوم الملائكة أخبر به عن نفسه تعالى والقصد في حق الله يرجع لمعنى الارادة (فجعلناه هباء منثورا) أي باطلا لا ثواب له لانهم لم يعملوا لله عز وجل ومنه الحديث الصحيح كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد والهباء واحده هباءة والجمع اهباء قال النضر بن شميل الهباء التراب الذي تطيره الريح كأنه دخان وقال الزجاج هو ما يدخل من الكوة مع ضوء الشمس شبه الغبار وكذا قال الخليل والازهري وقال ابن عرفة الهباء والهبوة التراب الدقيق وقيل هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير من الغبار وعن علي قال الهباء شعاع الشمس الذي يخرج من الكوة وعنه الهباء وهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء وعن ابن عباس قال الهباء الذي يطير من النار اذا اضطرمت يطير منها الشرر فاذا وقع لم يكن شيأ وعنه قال هو ما تسفي الريح وتبثه من التراب وحطام الشجر وعنه هو الماء المهراق والمعنى الاول هو الذي ثبت في لغة العرب ونقله العارفون بها والمنثور المفرق والمعنى ان الله سبحانه احبط اعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد وبالجملة هو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع اذ لا ثواب فيه لعدم شرطه ويجازون عليه في الدنيا ثم ميز سبحانه حال الابرار من حال الفجار فقال (أصحاب الجنة يومئذ) أي يوم القيامة (خير مستقرا) اي أفضل منزلا في الجنة من الكافرين في الدنيا (وأحسن مقيلا) أي موضع قائلة فيها أو هم خير منهم في الآخرة لو فرض أن يكون لهم ذلك أو أفعل لمجرد الوصف من غير مفاضلة عن ابن عباس قال في الغرف من الجنة قال النحاس والكوفيون يجيزون العسل أحلى من الخل قال ابن مسعود لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقال الازهري القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار اذا اشتد الحر وان لم يكن مع ذلك نوم لان الله تعالى قال وأحسن مقيلا والجنة

لا

وأقطارها وأجزائها من الحب وان صغر لا يخفى عليه خافية فيوصل الى كل منه قسطه من الماء فينبته به كما قال لقمان يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير وقال الا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض وقال تعالى وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين وقال وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين ولهذا قال أمية بن أبي الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته

وقولا له من ينبت الحب في الثرى
فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤسه
ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله له ما في السموات وما في الارض أي ملكه جميع الاشياء وهو غني عما سواه وكل شيء فقير اليه عبد لديه وقوله ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض أي من حيوان وجماد وزروع وثمار كما قال وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه أي من احسانه وفضله وامتنانه والفلك تجري في البحر بأمره أي بتسخيره وتسييره أي في البحر العجاج وتلاطم الامواج تجري الفلك باهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة فيحملون فيها ما شاؤا من تجائر وبضائع ومنافع من بلد الى بلد وقطر الى قطر ويأتون بما عند أولئك

لانوم فيها وقال ابن عباس الحساب في ذلك اليوم في أوله وروى ان يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر الى الغروب والآية أشارت الى أن كلا من أهل الجنة واهل النار قد قالوا أى استقروا في وقت القيلولة وان كان استقرار المؤمنين في راحة واستقرار الكافرين في عذاب فيكون الحساب لجميع الخلق قد انقضى في هذا الوقت (ويوم تشقق السماء بالغمام) وصف سبحانه ههنا بعض حوادث يوم القيامة والتشقق التفتح قرئ بتخفيف الشين وأصله تتشقق وقرئ مشددا على الادغام والمعنى انها تتشقق عن الغمام لان الباء وعن تتعاقبان كما تقول رميت بالقوس وعن القوس قال أبو على الفارسي تشقق السماء وعليها غمام كما تقول ركب الامير بسلاحه أى وعليه سلاحه وخرج بثيابه أى وعليه ثيابه وروى أن السماء تتشقق عن سحاب رقيق أبيض مثل الضبابة ولم يكن الا لبنى اسرائيل في تيههم وقيل ان السماء تتشقق بالغمام الذى بينها وبين الناس والمعنى انه يتشقق السحاب بتشقق السماء وقيل انها تتشقق لنزول الملائكة كما قال سبحانه (ونزل الملائكة تنزيلا) وقيل الباء للسببية يعنى بسبب طلوع الغمام منها كأنه الذى يتشقق به السماء وقيل أى متلبسة بالغمام وقرئ تنزل مخففا من الانزال مضارع أنزل وقرئ نزل مشددا ماضيا مبنيا للمفعول وقرئ مبنيا للفاعل وفاعله الله سبحانه والملائكة منصوبة على المفعولية وقرئ أنزل وقرئ تنزلت الملائكة وتأكيد هذا الفعل بقوله تنزيلا يدل على أن هذا التنزيل على نوع غريب ونمط عجيب قال أهل العلم هذا تنزيل رضا ورحمة لا تنزيل سخط وعذاب وعن ابن عباس قال في الآية يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والانس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الارض من الجن والانس وجميع الخلق فيحيطون بالانس والجن وجميع الخلق فيقول أهل الارض أفيكم ربنا فيقولون لا ثم تنشق السماء الثانية وذكر مثل ذلك ثم كذلك في كل سماء الى السماء السابعة وفي كل سماء أكثر من السماء التى قبلها ثم ينزل ربنا في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع والانس والجن وجميع الخلق لهم قرون ككعوب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى ما بين اخمص قدم أحدهم الى كعبه مسيرة خمسمائة عام ومن ركبته الى فخذه مسيرة خمسمائة عام ومن فخذه الى ترقوته مسيرة خمسمائة عام وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام أخرجه الحاكم وابن أبي الدنيا وابن جرير وغيرهم (الملك يومئذ الحق للرحمن) أى الملك الثابت الذى لا يزول ولا يشركه فيه أحد للرحمن يومئذ لان الملك الذى يزول وينقطع ليس بملك في الحقيقة ولان السلطان الظاهر والاستيلاء الكلى العام الثابت صورة ومعنى ظاهرا وباطنا بحيث لا زوال له أصلا لا يكون الا لله تعالى فالملك مبتدأ والحق صفته وللرحمن خبره ويومئذ متعلق بالملك وفائدة التقييد بالظرف ان ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصة في هذا اليوم وأما فيما عداه من أيام الدنيا فلغيره أيضا ملك في الصورة وان لم يكن حقيقيا وقيل ان خبر المبتدا هو الظرف والحق نعت للملك والمعنى الملك الثابت للرحمن خاصة في

الى هؤلاء كما ذهبوا ابعاعبده هؤلاء الى أولئك مما يحتاجون اليه و يطلبونه ويريدونه ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه أى لو شاء لاذن للسماء فسقطت على الارض فهلك من فيها ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ولهذا قال ان الله بالناس لرؤف رحيم أى مع ظلمهم كما قال في الآية الاخرى وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب وقوله وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور كقوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون وقوله قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه وقوله قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ومعنى الكلام كيف تجعلون لله أندادا وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف وهو الذى أحياكم أى خلقكم بعد أن لم تكونوا شيأ يذكر فأوجدكم ثم يميتكم ثم يحييكم أى يوم القيامة ان الانسان لكفور أى جحود (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الامر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) يخبر تعالى انه جعل لكل قوم منسكا قال ابن جرير يعنى لكل أمة نبى منسكا قال وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذى يعتاده

هذا اليوم وقيل الملك مبتدأ والحق خبره وللرحمن متعلق بالحق (وكان يوما على الكافرين عسيرا) أي وكان هذا اليوم مع كون الملك فيه لله وحده شديدا على الكفار لما يصابون به فيه وينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب وأما على المؤمنين فهو يسير غير عسير لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة وجاء في الحديث انه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا (و) اذكر (يوم يعض الظالم على يديه) الظاهر ان العض هنا حقيقة ولا مانع من ذلك ولا موجب لتأويله قال عطاء يأكل الظالم يديه حتى يأكل مرفقيه ثم ينبتان ثم يأكلهما وهكذا كلما نبتت يداه أكلهما تحسرا على ما فعل ذكره الخازن وقيل هو كناية عن الغيظ والحسرة والاول أولى والمراد بالظالم كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل ذلك المنزل ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وعن ابن عباس قال في الآية هو أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط وهما الخليلان في جهنم (يقول يا) قوم (ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) أي طريقا وهو طريق الحق ومشيت فيه حتى أخلص من هذه الامور المضلة والمراد اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به يعني ليتني اتبعت محمدا صلى الله عليه وآله وسلم واتخذت في الدنيا معه طريقا الى الهداية (يا ويلتى) وقرئ يا ويلي بالياء الصريحة وقرئ بالامالة وتركها أحسن (ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) دعا على نفسه بالويل والثبور على مخالة الكافر الذي أضله في الدنيا وفلان كناية عن الاعلام قال النيسابوري زعم بعض أئمة اللغة انه لم يثبت استعمال فلان في الفصيح الا حكاية لا يقال جاءني فلان ولكن يقال قال زيد جاءني فلان لانه اسم اللفظ الذي هو علم الاسم وكذلك جاء في كلام الله وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل وفلانة عن علم اناثهم وهو منصرف وقيل كناية عن نكرة من يعقل من الذكور وفلانة عمن يعقل من الاناث وأما الفلان والفلانة بالالف واللام فكناية عن غير العقلاء وفل يختص بالنداء الا في ضرورة الشعر وليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء وزعم أبو حيان ان ابن عصفور وابن مالك وهما في جعل فلان كناية علم من يعقل وفي لامه وجهان أحدهما انها واو والثاني انها ياء وحكم الآية عام في كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله عز وجل وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل أخرجه أبو داود والترمذي ولهما عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تصاحب الا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقي وروى الشيخان عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما ان يحذيك واما ان تبتاع منه واما ان تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير اما يحرق ثيابك واما أن تجد منه ريحا خبيثة (لقد) أي والله لقد (أضلني) هذا الذي اتخذته خليلا تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله وتصديره باللام القسمية للمبالغة في بيان خطئه واظهار ندمه وحسرته (عن الذكر) أي القرآن أو كتاب الله أو ذكره أو الموعظة أو كلمة الشهادة أو مجموع ذلك

الانسان ويتردد اليه اما لخير أو شر قال ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لتردد الناس اليها وعكوفهم عليها فان كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكا فيكون المراد بقوله فلا ينازعنك في الامر أي هؤلاء المشركون وان كان المراد لكل أمة جعلنا منسكا جعلا قدريا كما قال ولكل وجهة هو موليها ولهذا قال ههنا هم ناسكوه أي فاعلوه فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق أي هؤلاء انما يفعلون هذا عن قدر الله وارادته فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ولهذا قال وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم أي طريق واضح مستقيم موصل الى المقصود وهذه كقوله ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك وادع الى ربك وقوله وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون كقوله وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون وقوله الله أعلم بما تعملون تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم ولهذا قال الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون وهذه كقوله تعالى فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب الآية (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والارض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير) يخبر تعالى عن كمال

(بعد اذ جاءني) وتمكنت منه وقدرت عليه بأن ردني عن الايمان به (وكان الشيطان للانسان خذولا) بأن يتركه ويتبرأ منه عند البلاء والخذل ترك الاغاثة ومنه خذلان ابليس للمشركين حيث يوالونه ثم يتركهم عند استغاثتهم به وهذه الجملة مقررة لمضمون ماقبلها ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى أو من تمام كلام الظالم وانه سمى خليله شيطانا بعد ان جعله مضلا أو أراد بالشيطان ابليس لكونه الذي حمله على مخالة المضلين (وقال الرسول) أي يقول في يوم القيامة بثا وشكاية لله مما صنع قومه أو هو حكاية لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا (يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن) الذي جئت به اليهم وأمرتني بابلاغه وأرسلتني به (مهجورا) أي متروكا لم يؤمنوا به ولا قبلوه بوجه من الوجوه أولم يعملوا به وقيل من هجر اذا هذى والمعنى انهم اتخذوه هجرا وهذيانا وقيل المعنى مهجورا فيه وهجرهم فيه قولهم انه سحر وشعر وأساطير الاولين (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى ان الله جعل لكل نبي من الانبياء الداعين الى الله عدوا يعاديه من مجرمي قومه فلا تجزع يا محمد فان هذا دأب الانبياء قبلك واصبر كما صبروا قال ابن عباس في الآية كان عدو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبو جهل وعدو موسى قارون وكان قارون ابن عم موسى (وكفى بربك) الباء زائدة (هاديا) يهدي عباده الى مصالح الدين والدنيا (ونصيرا) ينصرهم على الاعداء (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم أي هلا أنزل الله عليه الكتاب دفعة واحدة غير منجم كما أنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود عليهم السلام واختلف في قائل هذه المقالة فقيل كفار قريش وقيل اليهود قالوا هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة وهذا زعم باطل ودعوى داحضة فان هذه الكتب نزلت مفرقة كما نزل القرآن ولكنهم معاندون أو جاهلون لايدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه واعتراض منهم لا طائل تحته لان الاعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقا مع أن للتفريق فوائد منها أن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوص على المعنى ولانه اذا نزل منجما وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك في قوة قلبه ومنها انضمام القرائن الحالية الى الدلالات اللفظية فانه يعين على البلاغة ثم رد الله سبحانه عليهم فقال (كذلك) اشارة الى ما يفهم من كلامهم أي مثل ذلك التنزيل المفرق الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه (لنثبت) لنقوي (به) أي بهذا التنزيل على هذه الصفة (فؤادك) فان انزاله مفرقا منجما على حسب الحوادث أقرب الى حفظك له وفهمك لمعانيه وذلك من أعظم أسباب التثبيت وقرأ ليثبت بالتحتية أي الله سبحانه وقيل قوله كذلك هو من تمام كلام المشركين والمعنى كذلك أي كالتوراة والانجيل والزبور فيوقف على قوله كذلك ثم يبتدأ بقوله لنثبت به فؤادك على معنى أنزلناه عليك متفرقا لهذا الغرض قال ابن الانباري وهذا أجود وأحسن قال النحاس وكان ذلك أي انزال القرآن منجما من اعلام النبوة لانهم لا يسألونه عن شئ الا أجيبوا عنه

علمه بخلقه وانه محيط بما في السموات وما في الارض فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وانه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أول ماخلق الله القلم قال له اكتب قال وما أكتب قال اكتب ماهو كائن فجرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا ابن بكير حدثني ابن لهيعة حدثني عطاء بن دينار حدثني سعيد بن جبير قال قال ابن عباس خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى اكتب فقال القلم وما أكتب قال علمي في خلقي الى يوم تقوم الساعة فجرى القلم بما هو كائن في علم الله الى يوم القيامة فذلك قوله للنبي صلى الله عليه وسلم ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والارض وهذا من تمام علمه تعالى انه علم الاشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضا فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه فيعلم قبل الخلق ان هذا يطيع باختياره وهذا يعصي باختياره وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شئ

وهذا لا يكون الا من نبي فكان ذلك تثبيتا الفؤاده وأفئدتهم قال ابن عباس اى لنشدد به فؤادك ونربط على قلبك والمعنى أنزلناه مفرقا لتعيه وتحفظه فان الكتب المتقدمة نزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤن وأنزل القرآن على نبي أمي لا يكتب ولا يقرا ولان من القرآن الناسخ والمنسوخ ومنه ما هو جواب سؤال عن أمور تحدث فى الاوقات المختلفة ففرقناه ليكون أدعى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأيسر على العامل به (ورتلناه ترتيلا) بديعا لا يقادر قدره ومعنى الترتيل أن تكون آية بعد آية قاله النخعي والحسن وقتادة وقيل ان المعنى بيناه تبيينا وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال ابن عباس رسلناه ترسيلا يقول شيأ بعد شئ وقال مجاهد بعضه فى اثر بعض قال ابن الاعرابى ما أعلم الترتيل الا التحقيق والتبيين وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل شيأ بعد شئ فى عشرين أو ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل لتيسر فهمه وحفظه ثم ذكر سبحانه انهم محجوجون فى كل أوان مدفوع قولهم بكل وجه وعلى كل حالة فقال (ولا يأتونك) أى لا يأتيك يا محمد المشركون (بمثل) من أمثالهم التى من جملتها اقتراحاتهم المتعنتة فى ابطال أمرك (الا جئناك) فى مقابلة مثلهم (بالحق) أى بالجواب الحق الثابت الذى يبطل ما جاؤا به من المثل ويدمغه ويدفعه فالمراد بالمثل هنا السؤال والاقتراح وبالحق جوابه الذى يقطع ذريعته ويبطل شبهته ويحسم مادته والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال والجملة فى محل الحال أى لا يأتونك بمثل فى حال من الاحوال الا فى حال ايتائنا اياك ذلك (وأحسن تفسيرا) أى جئناك بأحسن تفسير بيانا وتفصيلا وعبارة وأحسن معنى ومؤدى من مثلهم أى من سؤالهم وانما حذف من مثلهم لأن فى الكلام دليلا عليه ثم أوعد هؤلاء الجهلة وذمهم فقال (الذين يحشرون) كائنين (على وجوههم) ومعنى الحشر على الوجوه انهم يسحبون عليها او يطؤن الارض على رؤسهم مع ارتفاع اقدامهم بقدرة الله ويساقون ويجرون عليها (الى جهنم أولئك شر مكانا) أى منزلا ومصيرا ومسكنا وهو جهنم (وأضل سبيلا) واخطأ طريقا من غيرهم وهو كفرهم وذلك لانهم قد صاروا فى النار وهو من الاسناد المجازى وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية فى سورة سبحان وقد قيل ان هذا متصل بقوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (ولقد) أى والله لقد (آتينا موسى الكتاب) أى التوراة كما آتيناك القرآن ذكر سبحانه طرفا من قصص الاولين تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم بان تكذيب قوم أنبياء الله لهم عادة للمشركين بالله وليس ذلك بخاص بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا) أى عونا وعضدا فى الدعوة واعلاء الكلمة قاله قتادة وقال الزجاج الوزير فى اللغة الذى يرجع اليه ويعمل برأيه والوزر ما يعتصم به ومنه كلا لا وزر وقد تقدم تفسير الوزير فى طه والوزارة لا تنافى النبوة فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بان يوازر بعضهم بعضا وقد كان هرون فى أول الامر وزيرا لموسى عليهما السلام أولا شتراكهما فى النبوة لان المتشاركين فى الامر متوازران عليه (فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا) وهم فرعون وقومه يعني القبط (بآياتنا) هى التسع

المذكورة

علما وهو سهل عليه يسير لديه ولهذا قال تعالى ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا يعني حجة وبرهانا كقوله ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون ولهذا قال ههنا ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم أى ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه وانما هو أمر تلقوه عن آبائهم واسلافهم بلا دليل ولا حجة وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ولهذا توعدهم تعالى بقوله وما للظالمين من نصير أى من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال ثم قال واذا تتلى عليهم آياتنا بينات أى واذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله وانه لا اله الا هو وان رسله الكرام حق وصدق يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا أى يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ويبسطون اليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء وقل أى يا محمد لهؤلاء أفأنبئكم

المذكورة التى تقدم ذكرها وان لم يكونوا قد كذبوا بها عند أمر الله لموسى وهرون بالذهاب فيحمل الماضى على معنى الاستقبال أى سيكذبون بها وقيل انما وصفوا بالتكذيب عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيانا لعلة استحقاقهم للعذاب وقيل يجوز ان يراد الى القوم الذين آل حالهم الى ان كذبوا وقيل ان المراد بوصفهم بالتكذيب عند الارسال انهم كانوا مكذبين للآيات الالهية وليس المراد آيات الرسالة قال القشيرى وقوله تعالى فى موضع آخر اذهب الى فرعون انه طغى لا ينافى هذا لانهما اذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور ويمكن ان يقال ان تخصيص موسى بالخطاب فى بعض المواطن لكونه الاصل فى الرسالة والجمع بينهما فى الخطاب لكونهما مرسلين جميعا (فدمرناهم تدميرا) فى الكلام حذف أى فذهبا اليهم فكذبوهما فاهلكناهم اثر ذلك التكذيب اهلاكا عظيما فاقتصر على حاشيتى القصة اكتفاء بما هو المقصود منها وهو الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم وقيل ان المراد بالتدمير هنا الحكم به لانه لم يحصل عقب بعث موسى وهرون اليهم بل بعده بمدة (و) اذكر (قوم نوح لما كذبوا الرسل) أى كذبوا نوحا وانما جمع لطول لبثه فيهم فكأنه رسل فى المعنى أو كذبوه وكذبوا من قبله من رسل الله لاشتراكهم فى المجىء بالتوحيد قال الزجاج من كذب نبيا فقد كذب جميع الانبياء (أغرقناهم) بالطوفان كما تقدم فى هود (وجعلناهم) أى جعلنا اغراقهم أو قصتهم (للناس) كلهم بعدهم (آية) أى عبرة يتعظ بها كل مشاهد لها وسامع لخبرها (واعتدنا) فى الآخرة (للظالمين) الكافرين أى قوم نوح خاصة فيكون وضعا للظاهر موضع الضمير تسجيلا عليهم بوصف الظلم ويجوز أن يكون المراد كل من سلك مسلكهم فى التكذيب (عذابا أليما) هو عذاب الآخرة سوى ما حل بهم من عاجل العذاب فى الدنيا (و) اذكر (عادا) قوم هود (وثمود) قوم صالح وقصتهما قد ذكرت فيما سبق وثمود بالصرف على معنى الحى وتركه على تأويله بالقبيلة قراءتان سبعيتان (وأصحاب الرس) هو فى كلام العرب البئر التى تكون غير مطوية أى لم تبن بالحجارة والجمع رساس كذا قال أبو عبيدة وقيدها أهل اللغة كصاحب القاموس بانها التى طويت أى بنيت بالحجارة فيؤخذ من مجموع النقلين ان الرس يطلق على البئر مطلقا أى سواء طويت أم لا وفى القاموس الرس ابتداء الشىء ومنه رس الحمى ورسيسها والبئر المطوية بالحجارة انتهى قال السدى هى بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيب النجار فنسبوا اليها وهو صاحب يس الذى قال ياقوم اتبعوا المرسلين وكذا قال مقاتل وعكرمة وغيرهما وقيل هم قوم باذربيجان قتلوا أنبياءهم فجفت أشجارهم وزروعهم فماتوا جوعا وعطشا وقيل كانوا يعبدون الشجر وقيل كانوا يعبدون الاصنام فارسل الله اليهم شعيبا عليه السلام فكذبوه وآذوه وقيل بئر بفلج اليمامة قرية عظيمة بناحية اليمن وموضع باليمن من مساكن عاد وهم قوم أرسل الله اليهم نبيا فأكلوه وقيل هم أصحاب الاخدود وقيل ان الرس هى البئر المعطلة التى تقدم ذكرها وأصحابها أهلها وقال فى الصحاح الرس اسم بئر كانت لبقية ثمود وقيل الرس ماء ونخل لبنى أسد وقيل هو الثلج

بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا أى النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا عذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم ان نلتم بزعمكم وارادتكم وقوله وبئس المصير أى وبئس النار مقيلا ومنزلا ومرجعا وموئلا ومقاما انها ساءت مستقرا ومقاما (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز) يقول تعالى منبها على حقارة الاصنام وسخافة عقول عابديها يا أيها الناس ضرب مثل أى لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به فاستمعوا له أى

المترا كم فى الجبال أو الرس اسم واد قريب من البصرة قاله ابن كثير والرس أيضا الاصلاح بين الناس والافساد بينهم فهو من الاضداد وقيل الرس نهر بالشرق وقيل هم قوم كذبوا انبيهم ورسوه أى دسوه فى بئر فبينما هم حول الرس وهى البئر الغير المطوية فانهارت فخسف بهم وبمنازلهم وديارهم وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان وهم الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف بالعنقاء قال ابن عباس الرس قرية من ثمود وعنه بئر باذر بيجان وعنه انه سأل كعبا عن أصحاب الرس قال صاحب يس وورد عن محمد بن كعب القرظى فى صاحب الرس خبر طويل مرفوع فيه نكارة وغرابة ولعل فيه ادراجا كما قال ابن كثير فى تفسيره والحديث أيضا مرسل (وقرونا بين ذلك كثيرا) القرون جمع قرن أى أهل قرون يعنى واذكر أقواما والقرن مائة سنة قاله قتادة وقيل مائة وعشرون سنة قاله زرارة بن أوفى وقيل أربعون سنة وقيل سبعون سنة قاله قتادة أيضا وقد روى مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال القرن مائة سنة وقال القرن خمسون سنة وقال القرن أربعون سنة وما أظنه يصح شئ من ذلك وقد سمى الجماعة من الناس قرنا كما فى الحديث الصحيح خير القرون قرنى وأخرج الحاكم فى الكنى عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا انتهى الى معد بن عدنان أمسك ثم يقول كذب النسابون قال الله وقرونا بين ذلك كثيرا والاشارة بقوله بين ذلك الى ما تقدم ذكره من الامم أى بين عاد وأصحاب الرس وهم جماعات فلذلك حسن دخول بين عليه وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت أى ذلك المحسوب أو المعدود (وكلا) أى كل الامم (ضربنا له الامثال) أى القصص العجيبة من قصص الاولين التى تشبه الامثال فى الغرابة وبينا لهم الحجة فلم نهلكهم الا بعد الانذار ولم نضرب لهم الامثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة (وكلا تبرنا تتبيرا) التتبير الاهلاك بالعذاب قال الزجاج كل شئ كسرته وفتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة وقال المؤرج والاخفش معناه دمرناه تدميرا أبدلت التاء والباء من الدال والميم (ولقد أتوا على القرية) مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لآثار هلاك بعض الامم وضمن أتى معنى مر لانه يستعمل متعديا بنفسه أو بالى والمعنى ولقد أتى مشركو مكة فى أسفارهم الى الشام على قرية قوم لوط وهى سذوم وهى أعظم قرى قومه وكانت خمسا أهلك الله أربعا مع أهلها وبقيت واحدة وهى أصغرها وكان أهلها لا يعملون الخبائث (التى أمطرت مطر السوء) وهو الحجارة قاله ابن عباس والامطار معناه الرمى أى هلكت بالحجارة التى أمطروا بها ورميت رمى الحجارة والمعنى أعطيتها وأوليتها مطر السوء اى امطارا مثل مطر السوء وقد تقدم تفسير السوء فى براءة (أفلم يكونوا يرونها) الاستفهام للتقريع والتوبيخ أى يرون القرية المذكورة عند سفرهم الى الشام للتجارة فانهم يمرون بها مرارا أى يرون آثارها وآثار ما حل باهلها وقيل للتقرير أى حمل المخاطب على الاقرار بما يعرفه وهو ما بعد النفى أى ليقروا بانهم رأوها حتى يعتبروا بها والفاء العطف على مقدر أى لم يكونوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها أو كانوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها فى مرات

انصتوا وتفهموا ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له أى لو اجتمع جميع ما تعبدون من الاصنام والانداد على ان يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك كما قال الامام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة عن أبى هريرة مرفوعا قال ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا مثل خلقى ذرة أو ذبابة أو حبة وأخرجه صاحبا الصحيح من طريق عمارة عن أبى زرعة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة ثم قال تعالى أيضا وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه أى هم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل أبلغ من ذلك عاجزون

مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب فالمنكر في الاول ترك النظر وعدم الرؤية معا والمنكر في الثاني عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها (بل كانوا لا يرجون) أي لا يأملون (نشورا) أي بعثا أضرب سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لتلك الآثار الى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجائهم للجزاء أو معنى يرجون يخافون على اللغة التهامية (واذا رأوك ان) أي ما (يتخذونك الاهزوا) أي مهزوا بك قصر معاملتهم له على اتخاذهم اياه هزوا وقيل نزلت في أبي جهل كان اذا مر مع أصحابه قال مستهزيا (أهذا الذي بعث) أي بعثه (الله رسولا) أي مرسلا في دعواه وفي اسم الاشارة دلالة على استحقارهم له وتهكمهم به (ان كاد) أي قالوا انه كاد هذا الرسول (ليضلنا) ليصرفنا (عن آلهتنا) فنترك عبادتها بفرط اجتهاده والدعاء الى التوحيد وكثرة ما يورده مما يسبق الى الذهن انه حجج ومعجزات (لولا أن صبرنا عليها) أي حبسنا أنفسنا على عبادتها ثم انه سبحانه أجاب عليهم بقوله (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) عيانا أي عذاب يوم القيامة الذي يستحقونه ويستوجبونه بسبب كفرهم (من اضل سبيلا) أي أبعد طريقا عن الحق والهدى أهم أم المؤمنون ثم بين لهم سبحانه انه لا تمسك لهم فيما ذهبوا اليه سوى التقليد واتباع الهوى فقال معجبا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم (ارأيت من اتخذ الهه هواه) قدم المفعول الثاني للعناية به كما تقول علمت منطلقا زيدا قاله الزمخشري أي اطاع هواه طاعة كطاعة الاله أي انظر اليه يا محمد وتعجب منه والوجه الآخر انه لا تقديم ولا تأخير لاستوائهما في التعريف قاله السمين فادعاء القلب ليس بجيد لانه من ضرورات الشعر وقال أبو السعود بالوجه الاول ثم قال ومن توهم انهما على الترتيب بناء على تساويهما في التعريف فقد غاب عنه أن المفعول الثاني في هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة أي أرأيت من جعل هواه الها لنفسه من غير أن يلاحظه وبنى عليه أمر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة والبرهان النير بالكلية عن ابن عباس قال كان الرجل يعبد الحجر الابيض زمانا من الدهر في الجاهلية فاذا وجد حجرا أحسن منه رمى به وعبد الآخر فانزل الله الآية وعنه قال ذلك الكافر لا يهوى شيأ الا اتبعه وعن الحسن مثله (أفانت تكون عليه وكيلا) أي حفيظا وكفيلا حتى ترده الى الايمان وتخرجه من الكفر وتحفظه من اتباع الهوى وعبادة ما يهواه من دون الله والاستفهام للانكار والاستبعاد فالمعنى لست تقدر على ذلك ولا تطيقه فليست الهداية والضلالة موكولتين الى مشيئتك وانما عليك البلاغ وقد قيل ان هذه الآية منسوخة بآية القتال قاله الكلبي ثم انتقل سبحانه من الانكار الاول الى انكار آخر فقال (أم تحسب أن اكثرهم يسمعون) ما تتلو عليهم من آيات القرآن ومن المواعظ سماع تفهم واعتبار (أو يعقلون) معاني ذلك ويفهمونه حتى تعتني بشأنهم وتطمع في ايمانهم وليسوا كذلك بل هم بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل وتخصيص الاكثر بالذكر لانه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق وكابر استكبارا وخوفا على الرياسة ثم بين سبحانه حالهم وقطع مادة الطمع فيهم فقال (ان هم) أي ماهم

عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيأ من الذي عليها من الطيب ثم ارادت ان تستنقذه منه لما قدرت على ذلك هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال ضعف الطالب والمطلوب قال ابن عباس الطالب الصنم والمطلوب الذباب واختاره ابن جرير وهو ظاهر السياق وقال السدي وغيره الطالب العابد والمطلوب الصنم ثم قال ما قدروا الله حق قدره اي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ان الله لقوي عزيز أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شئ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ان بطش ربك لشديد انه هو يبدئ ويعيد ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين وقوله

في الانتفاع بما يسمعونه (الا كالانعام) التي هي مسلوبة العقل والفهم فلا تطمع فيهم فان
فائدة السمع والعقل مفقودة وان كانوا يسمعون ما يقال لهم ويعقلون ما يتلى عليهم
ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم بانهم كالانعام
الى ماهو فوق ذلك فقال (بل هم أضل) من الانعام (سبيلا) أي طريقا قال مقاتل
البهائم تعرف ربها وتهتدي الى مراعيها ومشاربها وتنقاد لأربابها وهؤلاء لا ينقادون
ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم والمعنى انها تنقاد لمن يتعهدها وتميز من يحسن
اليها ممن يسيء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لربهم
ولا يعرفون احسانه من اساءة الشيطان ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع
ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ولان جهالتها لا تضر باحد وجهالة هؤلاء تؤدي
الى تهييج الفتن وصد الناس عن الحق ولانها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها
ولا ذم عليها وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم وقيل انما كانوا
أضل من الانعام لانه لا حساب عليها ولا عقاب لها وقيل انما كانوا أضل لان البهائم اذا لم
تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك بخلاف هؤلاء فانهم اعتقدوا البطلان
عنادا ومكابرة وتعصبا وغمطا للحق وقيل ان الانعام تسجد وتسبح والكفار لا يفعلون ذلك
وقيل الملائكة روح وعقل والبهائم نفس وهوى والآدمي مجمع الكل ابتلاء فان غلبته
النفس والهوى فضلته الانعام وان غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام ولما
فرغ الله سبحانه من ذكر جهالة الجاهلين وضلالتهم اتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد
مع ما فيها من عظيم الانعام وحاصل ما ذكر منها خمسة فاولها الاستدلال باحوال الظل
فقال (ألم تر الى ربك كيف) أي على أي حالة وعلى أي وجه (مد الظل) هذه الرؤية اما
بصرية والمراد بها ألم تبصر الى صنع ربك او ألم تبصر الى الظل كيف مده ربك واما قلبية
بمعنى العلم فان الظل متغير وكل متغير حادث ولكل حادث موجد قال الزجاج ألم تر ألم تعلم
وهذا من رؤية القلب قال وهذا الكلام على القلب والتقدير ألم تر الى الظل كيف مده
ربك يعني الظل من وقت الاسفار الى وقت طلوع الشمس هو ظل لا شمس معه وبه قال
الحسن وقتادة وقيل هو من غيبوبة الشمس الى طلوعها قال القرطبي والاول أصح
والدليل على ذلك انه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة فان فيها يجد المريض راحة
والمسافر وكل ذي علة وفيها ترد نفوس الاموات والارواح منهم الى الاجساد وتطيب
نفوس الاحياء فيها وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب وقال أبو العالية نهار الجنة هكذا
وأشار الى ساعة المصلين صلاة الفجر قال أبو عبيدة الظل بالغداة والفيء بالعشي لانه يرجع
بعد زوال الشمس سمي فيأ لانه فاء من المشرق الى جانب المغرب وقال ابن السكيت الظل
ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس وعن رؤبة قال كل ما كانت عليه الشمس فزالت
عنه فهو فيء وظل وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل انتهى وحقيقة الظل انه أمر متوسط
بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة وهذا التوسط هو أعدل من الطرفين وأطيب
الاحوال لان الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس والضوء الكامل لقوته يبهر

عزيز أي قد عز كل شيء فقهره
وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته
وسلطانه وهو الواحد القهار (الله
يصطفي من الملائكة رسلا ومن
الناس ان الله سميع بصير يعلم ما بين
أيديهم وما خلفهم والى الله ترجع
الامور) يخبر تعالى انه يختار من
الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه
وقدره ومن الناس لابلاغ رسالاته ان
الله سميع بصير أي سميع لاقوال
عباده بصير بهم عليم بمن يستحق
ذلك منهم كما قال الله أعلم حيث
يجعل رسالته وقوله يعلم ما بين أيديهم
وما خلفهم والى الله ترجع الامور
أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به
فلا يخفى عليه شيء من أمورهم كما
قال عالم الغيب فلا يظهر على غيبه
أحدا الى قوله وأحصى كل شيء
عددا فهو سبحانه رقيب عليهم
شهيد على ما يقال لهم حافظ لهم

الحسن البصرى ويؤذى بالتسخين ولذلك وصفت به الجنة فى قوله وظل ممدود قال ابو السعود واما ماقيل من ان المراد بالظل مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس فغير سديد اذ لاريب فى ان المراد تنبيه الناس على عظم قدرة الله عزوجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلابد ان يراد بالظل مايتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفة لما فى جوانبه من مواقع ضح الشمس وماذكر وان كان فى الحقيقة ظلا للافق الشرقى لكنهم لايعدونه ظلا ولايصفونه باوصافه المعهودة انتهى وعن ابن عباس قال كيف مد الظل أى بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس وعنه قال ألم ترأنك اذا صليت الفجر كان مابين مطلع الشمس الى مغربها ظلا ثم بعث الله عليه الشمس دليلا فقبض الظل وعنه قال مابين طلوع الفجر الى طلوع الشمس وبه قال الجمهور واعترض عليه بانه لايسمى ظلا لانه من بقايا الليل واقع فى غير النهار ومعنى الآية كيف انشأ ظلا لاى مظل كان من جبل أو بناء أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا وأنه تعالى مده بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار الى غروبها فان ذلك مع خلوه عن التصريح بكون نفسه بانشائه تعالى واحداثه يأباه سياق النظم الكريم (ولوشاء) سكونه (لجعله ساكنا) ثابتا دائما لايزول ومستقرا لاتنسخه الشمس ولايذهب عن وجه الارض وقيل المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع فلايزول أو جعلها مسلوبة الضوء والاول أولى والتعبير بالسكون عن الاقامة والاستقرار شائع ومنه قولهم سكن فلان بلد كذا اذا اقام به واستقر فيه (ثم جعلنا الشمس عليه) أى على الظل بنسخها اياه عند مجيئها (دليلا) أى حجة وبرهانا وعلامة يستدل باحوالها على احواله وذلك لان الظل يتبعها كما يتبع الدليل فى الطريق من جهة انه يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص والمعنى انه لولم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة فالاشياء تعرف باضدادها ولم يؤنث الدليل وهو صفة للشمس لانه فى معنى الاسم كما يقال الشمس برهان والشمس حق (ثم قبضناه) أى ذلك الظل الممدود ومحوناه عند ايقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهت تلك الاظلال الى العدم والاضمحلال ومعنى (الينا) أن مرجعه اليه سبحانه كما أن حدوثه منه وجاء بثم استعارة تبعية لتفاضل مابين الامور الثلاثة مد الظل وجعل الشمس عليه دليلا وقبضه يسيرا فكان الثانى أعظم من الاول والثالث أعظم من الثانى شبه تباعد مابينها فى الفضل بتباعد مابين الحوادث فى الوقت اولتفاضل مبادى اوقات ظهورها وقيل المراد فى الآية قبضه عند قيام الساعة بقبض اسبابه وهى الاجرام النيرة والاول اولى وقيل المعنى ان الظل يبقى فى هذا الجو من طلوع الفجر الى طلوع الشمس فاذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضا جزأ جزأ وخلفه فى هذا الجو شعاع الشمس فاشرقت على الارض وعلى الاشياء الى وقت غروبها فاذا غربت فليس هناك ظل انما ذلك بقية نور النهار وقال قوم قبضه بغروب الشمس لانها اذا لم تغرب فالظل فيه بقية وانما يتم زواله لمجئ الليل ودخول الظلمة عليه وقيل ان هذا القبض وقع بالشمس لانها اذا طلعت اخذ الظل فى الذهاب شيأ فشيأ قاله مالك وابراهيم التيمى وقيل المعنى ثم قبضنا ضياء الشمس بالفئ (قبضا يسيرا) أى قليلا

ناصر لجنابهم يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس الآية (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) اختلف الائمة رحمهم الله فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج هل هى مشروع السجود فيها ام لا على قولين وقد قدمنا عند الاولى حديث عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم فضلت سورة الحج

قلبا لا على تدريج بقدر ارتفاع الشمس لتنتظم بذلك مصالح الكون ويحصل به ما لا يحصى من منافع الخلق وقيل يسيرا أي سريعا قاله الضحاك وقيل المعنى يسيرا علينا ليس بعسير وقال قتادة أي خفيفا كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزء من الظلمة وليس يزول دفعة واحدة وهو قول مجاهد (وهو الذي جعل لكم الليل لباسا) شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر قال ابن جرير وصف الليل باللباس تشبيها من حيث انه يستر الاشياء ويغشاها (و) جعل (النوم سباتا) أي راحة لكم لانكم تنقطعون عن الاشتغال وأصل السبات التمدد يقال سبتت المرأة شعرها أي نقضته وأرسلته ورجل مسبوت أي ممدود الخلقة وقيل للنوم سبات لانه بالتمدد يكون وفي التمدد معنى الراحة وقيل السبت القطع فالنوم انقطاع عن الاشتغال ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال قال الزجاج السبات النوم الخفيف وهو أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه أو ابتداؤه في الرأس حتى يبلغ القلب أي جعلنا نومكم راحة لكم وقال الخليل السبات نوم ثقيل أي جعلنا نومكم ثقيلا ليكمل الاجمام والراحة وقيل السبات الموت والمسبوت الميت لانه مقطوع الحياة وهو كقوله تعالى وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعضده ذكر النشور في مقابلته ذكره الزمخشري والنسفي (وجعل النهار نشورا) أي ذا نشور وانتشار ينتشر فيه الناس للمعاش أي جعله زمان بعث من ذلك السبات شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها اظهار لنعمته على خلقه لان في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر قال لقمان لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر (وهو الذي أرسل الرياح بشرا) جمع بشور وقرئ نشرا بالنون (بين يدي رحمته) أي متفرقة قدام المطر لانه ريح ثم سحاب ثم مطر وهذه استعارة مليحة والمراد بالرياح الجنس وهي الصبا والجنوب والشمال بخلاف الدبور فانها ريح العذاب التي أهلكت بها عاد والشمال تأتي من ناحية الشام والجنوب تقابلها وهي اليمانية والصبا تأتي من مطلع الشمس وهي القبول أيضا والدبور تأتي من ناحية المغرب والريح مؤنثة على الاكثر فيقال هي الريح وقد تذكر على معنى الهواء فيقال هو الريح وهب الريح نقله أبو زيد وقال ابن الانباري انها مؤنثة لا علامة فيها وكذلك سائر أسمائها الا الاعصار فانه مذكر وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في الاعراف (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) وصف الماء به اشعارا بالنعمة وتتميما للمنة بما بعده فان الماء الطهور أهنى وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته وفيه تنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم أولى بذلك قال الازهري الطهور في اللغة الطاهر المطهر قال وفعول في كلام العرب لمعان منها فعول لما يفعل به مثل الطهور لما يتطهر به والوضوء لما يتوضأ به قال ابن الانباري الطهور بفتح الطاء الاسم وكذلك الوضوء والوقود وبالضم المصدر هذا هو المعروف في اللغة وقد ذهب الجمهور الى ان الطهور هو الطاهر المطهر ويؤيد ذلك كونه بناء مبالغة ويدل له ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال في البحر هو

بسجدتين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما وقوله وجاهدوا في الله حق جهاده أي بأموالكم وأنفسكم كما قال تعالى اتقوا الله حق تقاته وقوله هو اجتباكم أي يا هذه الامة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الامم وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكمل رسول وأكمل شرع وما جعل عليكم في الدين من حرج أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم الا جعل الله لكم فرجا ومخرجا فالصلاة التي هي أكبر اركان الاسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعا وفي السفر تقصر الى اثنتين وفي الخوف يصليها بعض الائمة ركعة كما ورد به الحديث وتصلى رجالا وركبانا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها وكذا في النافلة في السفر الى القبلة وغيرها والقيام فيها يسقط لعذر

الطهور ماؤه الحل ميتته اخرجه ابوداود والترمذي والنسائي وروي عن أبي حنيفة انه قال الطهور هو الطاهر واستدل لذلك بقوله تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا يعني طاهرا وعلى كل حال فقد ورد الشرع بان الماء طاهر في نفسه مطهر لغيره قال الله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلق الماء طهورا واخرج اهل السنن واحمد وغيرهم من حديث ابي سعيد قال قيل يارسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر تلقى فيه الحيض ولحوم الكلاب والنتن فقال ان الماء طهور لا ينجسه شيء وفي اسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفاه الحافظ ابن حجر في التلخيص وتبعه الشوكاني في شرحه على المنتقى ثم ذكر سبحانه علة الانزال فقال (لنحيي به) أي بالماء المنزل من السماء (بلدة ميتا) وصف البلدة بالميت وهي صفة للمذكر لانها بمعنى البلد، قال الزجاج أراد بالبلد المكان أو يستوي فيه المذكر والمؤنث والمراد بالاحياء هنا اخراج النبات من المكان الذي لا نبات فيه (ونسقيه) بضم النون وقرئ بفتحها والضمير المنصوب راجع الى الماء (مما خلقنا أنعاما) أي بهائم أي ابلا وبقرا وغنما وقدم تقدم الكلام عليها وخصها بالذكر لانها ذخيرتنا ومدار معاش أكثر أهل المدر ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها احياء الارض فانها سبب لحياتها وتعيشها فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم (وأناسي كثيرا) جمع انسان على ما ذهب اليه سيبويه وهو الراجح وقال المبرد والفراء والزجاج انه جمع انسي أي بياء النسب وفيه ان ما هي فيه لا يجمع على فعالي وللفراء قول آخر انه جمع انسان والاصل على الاول اناسين مثل سرحان وسراحين وبستان وبساتين فجعلوا الياء عوضا من النون (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) اي كررنا احوال الاظلال وذكر انشاء السحاب وانزال المطر في القرآن وفي سائر الكتب السماوية ليتفكروا ويعتبروا وقرئ صرفناه مثقلا ومخففا وكذا ليذكروا مخففة من الذكر ومثقلة من التذكر وقيل ضمير صرفناه يرجع الى اقرب المذكورات وهو المطر أي صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والاوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطش وطل وجود ورذاذ وديمة فنزيد منه في بعض البلدان وننقص في بعض آخر منها وقيل الضمير راجع الى القرآن وقد جرى ذكره في أول السورة حيث قال تبارك الذي نزل الفرقان على عبده وقوله لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وقوله اتخذوا هذا القرآن مهجورا والمعنى ولقد كررنا هذا القرآن بانزال آياته بين الناس ليذكروا به ويعتبروا بما فيه وقيل هو راجع الى الريح وعلى رجوع الضمير الى المطر فقد اختلف في معناه فقيل ما ذكرناه وقيل تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات والطهارات عن ابن عباس قال ما من عام بأقل مطرا من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء ثم قرأ هذه الآية (فأبى أكثر الناس الا كفورا) اي كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها قال عكرمة ان المراد هو قولهم في الانواء مطرنا بنوء كذا قال النحاس ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافا ان الكفر هنا قولهم مطرنا بنوء كذا والنوء كما في المختار سقوط نجم من المنازل في المغرب وطلوع رقيبه من المشرق في ساعته في كل ثلاثة عشر يوما

المرض فيصليها المريض جالسا فان لم يستطع فعلى جنبه الى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات ولهذا قال عليه السلام بعثت بالحنيفية السمحة وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين الى اليمن بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا والاحاديث في هذا كثيرة ولهذا قال ابن عباس في قوله وما جعل عليكم في الدين من حرج يعني من ضيق وقوله ملة أبيكم ابراهيم قال ابن جرير نصب على تقدير ما جعل عليكم في الدين من حرج أي من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم ابراهيم قال ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم ابراهيم قلت وهذا المعنى في هذه الآية كقوله قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا الآية

ما خلا الجبهة فان لها أربعة عشر يوما وكانت العرب تضيف الامطار والرياح والحر والبرد
الى الساقط منهما وقيل الى الطالع لانه فى سلطانه والجمع أنواء (ولو شئنا لبعثنا) أى فى
زمانك (فى كل قرية نذيرا) أى رسولا ينذرهم ليكون الرسل المبعوثون معارنين لك فتخفف
عليك اعباء النبوة كما قسمنا المطر بينهم ولكنا لم نفعل ذلك بل جعلنا نذيرا واحدا وهو أنت
يا محمد وقصرنا الامر عليك اجلالا لك وتعظيما لشأنك وتفضيلا لك على سائر الرسل
ولعظم اجرك فقابل ذلك بشكر النعمة وبالثبات والاجتهاد فى الدعوة واظهار الحق (فلا
تطع الكافرين) فيما يدعونك اليه من اتباع آلهتهم بل اجتهد فى الدعوة واثبت فيها ولا
تضجر (وجاهدهم به) اى بالقرآن واتل عليهم ما فيه من القوارع والنوادر والزواجر
والاوامر والنواهى وقيل الضمير يرجع الى الله أو الاسلام او الى السيف والاول أولى
وهذه السورة مكية والامر بالقتال انما كان بعد الهجرة وقيل راجع الى ترك الطاعة
المفهوم من قوله فلا تطع الكافرين وقيل الضمير يرجع الى ما دل عليه ولو شئنا لبعثنا فى كل
قرية نذيرا من كونه نذير كافة القرى لانه سبحانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لم يكن على كل
نذير الا مجاهدة القرية التى أرسل اليها وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى وهو محمد
صلى الله عليه وآله وسلم فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات فكبر جهاده وعظم فكأنه
قال له وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا جامعا لكل مجاهدة ولا يخفى ما فى
هذين الوجهين من البعد (جهادا كبيرا) أى شديدا عظيما موقعه عند الله لما
يحتمل فيه من المشاق لان مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الاعداء بالسيوف
وأريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم ثم ذكر سبحانه دليلا رابعا على التوحيد
فقال (وهو الذى مرج البحرين) أى أرسلهما متجاورين أو خلاهما متلاصقين بحيث
لا يتمازجان من مرج اى خلى وخلط وأرسل يقال مرجت الدابة وأمرجتها اذا أرسلتها
فى المرعى وخليتها تذهب حيث تشاء قال مجاهد أرسلهما وأفاض أحدهما الى الآخر
وقال ابن عرفة خلطهما فهما يلتقيان يقال مرجته اذا خلطته ومرج الدين والامر
اختلط واضطرب ومنه قوله تعالى فى أمر مريج وقال الازهرى مرج البحرين خلى
بينهما لا يلتبس أحدهما بالآخر يقال مرجت الدابة اذا خليتها ترعى وقال ثعلب
المرج الاجراء فالمعنى أجراهما وقال الاخفش وتقول قوم أمرج مثل مرج فعل
وأفعل بمعنى (هذا عذب فرات) هو البليغ العذوبة المائلة الى الحلاوة والجملة مستأنفة
كأنه قيل كيف مرجهما فقيل هذا عذب الخ أو حال بتقدير مقولا فيهما قيل سمى الماء
الحلو فراتا لانه يفرت العطش أى يقطعه ويشقه ويكسره ولا يجمع الا نادرا على فرتان
كغربان (وهذا ملح أجاج) أى بليغ الملوحة وقيل البليغ فى الحرارة وقيل البليغ
فى المرارة وقرئ ملح بفتح الميم وكسر اللام قال ابن عباس خلع أحدهما على الآخر
فليس يفسد العذب المالح وليس يفسد المالح العذب وهذا من أحسن المقابلة حيث قال
عذب فرات وملح اجاج (وجعل بينهما برزخا) هو الحاجز والحائل الذى جعله الله
بينهما من قدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ولا يحس (وحجرا محجورا) أى سترا

وقوله هو سماكم المسلمين من قبل
وفى هذا قال الامام عبد الله بن
المبارك عن ابن جريج عن عطاء عن
ابن عباس فى قوله هو سماكم المسلمين
من قبل قال الله عز وجل وكذا
قال مجاهد وعطاء والضحاك
والسدى ومقاتل بن حيان وقتادة
وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم
هو سماكم المسلمين من قبل يعنى
ابراهيم وذلك لقوله ربنا واجعلنا
مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة
لك قال ابن جرير وهذا لا وجه له
لانه من المعلوم ان ابراهيم لم يسم
هذه الامة فى القرآن مسلمين وقد
قال الله تعالى هو سماكم المسلمين
من قبل وفى هذا قال مجاهد الله
سماكم المسلمين من قبل فى الكتب
المتقدمة وفى الذكر وفى هذا يعنى
القرآن وكذا قال غيره قلت وهذا هو
الصواب لانه تعالى قال هو اجتباكم

مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر فلا يبغي أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب فالبرزخ الحاجز والحجر المانع وقيل معناه هو ما تقدم من أنها كلمة يقولها المتعوذ كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له هذا القول وهو استعارة تمثيلية وقيل حدا محدودا وقيل المراد من البحر العذب الانهار العظام كالنيل والفرات وجيحون ومن البحر الاجاج البحار المشهورة والبرزخ بينهما الحائل من الارض وقيل معناه حراما محرما ان يعذب هذا المالح بالعذب او يملح هذا العذب بالمالح ومثل هذه الآية قوله سبحانه في سورة الرحمن مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان وعن ابن عباس قال حجر أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه ثم ذكر سبحانه حالة من أحوال خلق الانسان من الماء فقال (وهو الذي خلق من الماء بشرا) أي خلق من ماء النطفة انسانا وقيل المراد بالماء الماء المطلق الذي يراد في قوله وجعلنا من الماء كل شئ حي وقيل هو الماء الذي خمرت به طينة آدم عليه السلام وجعله جزأ من مادة البشر ليجتمع ويتسلسل ويستعد لقبول الاشكال والهيآت بسهولة قاله أبو السعود (فجعله نسبا وصهرا) أي جعله ذا نسب وصهر وقيل المراد بالنسب هو الذي لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه قاله الفراء والزجاج واشتقاق الصهر من صهرت الشئ اذا خلطته وسميت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها وقيل الصهر قرابة النكاح فقرابة الزوجة هم الأختان وقرابة الزوج هم الاحماء والاصهار تعمهما قاله الاصمعي وفي القاموس الصهر بالكسر القرابة والختن وجمعه أصهار وفي المصباح قال الخليل الصهر أهل بيت المرأة قال ومن العرب من يجعل الاحماء والاختان جميعا أصهارا وقال الازهري الصهر يشتمل على قرابات النساء ذوي المحارم وذوات المحارم كالابوين والاخوة واولادهم والاعمام والاخوال والخالات فهؤلاء أصهار زوج المرأة ومن كان من قبل الزوج من ذوي قرابته المحارم فهم أصهار المرأة أيضا وقال ابن السكيت كل من كان من قبل الزوج من أبيه أو أخيه أو عمه فهم الاحماء ومن كان من قبل المرأة فهم الاختان ويجمع الصنفين الاصهار وصاهرت لهم واليهم وفيهم صرت لهم صهرا انتهى وفي القرطبي النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين قال الواحدي قال المفسرون النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله حرمت عليكم أمهاتكم الى قوله وأمهات نسائكم ومن هنا الى قوله وان تجمعوا بين الاختين تحريم بالصهر وهو الخلطة التي تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد حرم الله سبعة أصناف من النسب وسبعة من جهة الصهر أي السبب قد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها والسابعة قوله ولا تنكحوا ما نكح اباؤكم من النساء وقد جعل ابن عطية والزجاج وغيرهما الرضاع من جملة النسب ويؤيده قوله صلى الله عليه وآله وسلم يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب أراد سبحانه تقسيم البشر قسمين ذوي النسب أي ذكورا ينسب اليهم فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أي اناثا يصاهر بهن كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وسئل عمر بن الخطاب عن نسب وصهر فقال ما أراكم الا وقد عرفتم النسب وأما الصهر فالاختان والصحابة

وما جعل عليكم في الدين من حرج ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بانه ملة ابيهم ابراهيم الخليل ثم ذكر تعالى

(وكان ربك قديرا) أى بليغ القدرة عظيمها ومن جملة قدرته الباهرة خلق الانسان من النطفة الواحدة وتقسيمه الى القسمين المذكورين ولما ذكر سبحانه دلائل التوحيد عاد الى ذكر قبائح الكفار وفضائح سيرتهم فقال (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم) ان عبدوه (ولا يضرهم) ان تركوه (وكان الكافر على ربه ظهيرا) هو المظاهر أى المعاون على ربه بالشرك والعداوة والمظاهرة على الرب هى المظاهرة على رسوله أو على دينه قال الزجاج لانه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله لان عبادتهم للاصنام معاونة للشيطان وقال أبو عبيدة المعنى وكان الكافر على ربه هينا مهينا ذليلا من قول العرب ظهرت به أى جعلته خلف ظهرى لم ألتفت اليه ومنه قوله تعالى واتخذتموه وراءكم ظهريا وقيل ان المعنى وكان الكافر على ربه الذى يعبده وهو الصنم قويا غالبا يعمل به ما يشاء لان الجماد لا قدرة له على دفع ونفع ويجوز أن يكون الظهير جمعا كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير أو المعنى ان بعض الكفرة مظاهر لبعض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو دين الله والمراد بالكافر هنا الجنس ولا ينافيه كون سبب النزول هو كافرا معينا كما قيل انه أبو جهل وقال ابن عباس يعنى أبا الحكم الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا جهل بن هشام فالاصح انه عام فى كل كافر (وما أرسلناك) فى حال من الاحوال (الا) حال كونك (مبشرا) للمؤمنين بالجنة (ونذيرا) للكافرين بالنار فلا تحزن على عدم ايمانهم واقتصر على صيغة المبالغة فى الانذار لتخصيصه بالكافرين اذ الكلام فيهم والانذار الكامل لهم ولو قيل ان المبالغة باعتبار الكم لشموله للعصاة جاز (قل) يا محمد (ما أسألكم عليه) أى على القرآن أو على تبليغ الرسالة المدلول عليها بالارسال أو على ما أدعوكم اليه (من أجر) أى عرض من عرض الدنيا قاله ابن عباس والاستثناء فى قوله (الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا) منقطع أى لكن من شاء فليفعل وقيل هو متصل والمعنى الا من شاء ان يتقرب اليه سبحانه بالطاعة وصور ذلك بصورة الاجر من حيث انه مقصود الحصول ولما بين سبحانه ان الكفار متظاهرون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمره ان لا يطلب منهم أجرا البتة أمره ان يتوكل عليه فى دفع المضار وجلب المنافع فقال (وتوكل) فى استكفاء شرورهم والاستغناء عن أجورهم (على الحى الذى لا يموت) فانه الحقيق بان يتوكل عليه وخص صفة الحياة اشارة الى ان الحى الدائم هو الذى يوثق به فى المصالح والمنافع ودفع المضار ولا حياة على الدوام الا لله سبحانه دون الاحياء المنقطعة حياتهم فانهم اذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم وقرأها بعض الصالحين فقال لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق والتوكل اعتماد العبد على الله فى كل الامور والأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها (وسبح) أى نزهه عن صفات النقصان مقترنا (بحمده) وقيل معنى سبح صل والصلاة تسمى تسبيحا (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) أى حسبك وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك كفى بالله ربا والخبير المطلع على الامور بحيث لا يخفى عليه منها شئ فلا لوم عليك ان آمنوا أو كفروا وقيل معناه انه لا يحتاج

منة تعالى على هذه الامة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان فى كتب الانبياء يتلى على الاحبار والرهبان

معه الى غيره لانه خبير عالم قدير على مكافأتهم وفيه وعيد شديد كأنه قال اذا قدمتم على مخالفة أمره كفا كم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة ثم زاد فى المبالغة فقال (الذى خلق السموات والارض) لعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقا بان يتوكل عليه من حيث انه الخالق للكل والمتصرف فيه (وما بينهما) ولم يقل بينهن لانه أراد النوعين والمعنى خلقهما (فى ستة أيام) خلق الارض فى يومين الاحد والاثنين وما بينهما فى يومين الثلاثاء والاربعاء والسموات فى يومين الخميس والجمعة وفرغ من آخر ساعة من يوم الجمعة وقيل فى مقدار هذه المدة لانه لم يكن حينئذ ليل ولا نهار وانما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت والتأنى فى الامر والتؤدة والتدرج فان قيل يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات والارض كما يفيده قوله (ثم استوى على العرش) فيقال ان كلمة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على علوه على السموات والارض والعرش فى اللغة سرير الملك والمراد هنا الجسم العظيم المحيط بالعالم الكائن فوق السموات السبع والاستواء صفة لله سبحانه معناها مباينته عن الخلق وكونه على الذات وفوق العالم وقد تقدم الكلام عليها فى سورة الاعراف واخواتها قال الشوكانى رحمه الله تعالى اعلم ان الكلام فى الآيات والاحاديث الواردة فى الصفات قد طالت ذيوله وتشعبت أطرافه وتباينت فيه المذاهب وتفاوتت فيه الطرائق وتخالفت النحل وسبب هذا عدم وقوف المنتسبين الى العلم حيث أوقفهم الله ودخولهم فى أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها ومحاولتهم لعلم شئ استأثر الله بعلمه حتى تفرقوا فرقا وتشعبوا شعبا وصاروا أحزابا وكانوا فى البداية ومحاولة الوصول الى ما يتصورونه من العامة مختلفى المقاصد متباينى المطالب فطائفة وهى أخف هذه الطوائف المتكلفة علم ما لم يكلفها الله سبحانه بعلمه اثما وأقلها عقوبة وجرما وهى التى أرادت الوصول الى الحق والوقوف على الصواب لكن سلكت فى طلبه طريقة متوعرة وصعدت فى الكشف عنه الى عقبة كؤود لا يرجع من سلكها سالما فضلا عن أن يظفر فيها بمطلوب صحيح ومع هذا أصلوا أصولا ظنوها حقا فدفعوا بها آيات قرآنية وأحاديث صحيحة نبوية واعتلوا فى ذلك الدفع بشبهة واهية وخيالات مختلفة وهؤلاء هم طائفتان الطائفة الاولى هى الطائفة التى غلت فى التنزيه فوصلت الى حد يقشعر عنده الجلد ويضطرب له القلب من تعطيل الصفات الثابتة بالكتاب والسنة ثبوتا أوضح من شمس النهار وأظهر من فلق الصباح وظنوا هذا من صنيعهم موافقا للحق مطابقا لما يريده الله سبحانه فضلوا الطريق المستقيمة وأضلوا من رام سلوكها والطائفة الاخرى هى الطائفة التى غلت فى اثبات القدرة غلوا بلغ الى حد أنه لا تأثير لغيرها ولا اعتبار بما سواها وأفضى ذلك الى الجبر المحض والقسر الخالص فلم يبق لبعثة الرسل وانزال الكتب كثير فائدة ولا يعود ذلك على عباده بعائدة وجاؤا بتأويلات للآيات البينات ومحاولات لحجج الله الواضحات فكانوا كالطائفة الاولى فى الضلال والاضلال مع ان كلا المقصدين صحيح ووجه كل منهما صبيح لولا ما شانه من الغلو القبيح وطائفة توسطت ورامت الجمع بين الضب والنون وظنت انها قد وقفت بمكان بين الافراط والتفريط ثم

فقال هو سماكم المسلمين من قبل أى من قبل هذا القرآن وفى هذا روى النسائى عند تفسير هذه الآية أنبأنا هشام بن عمار حدثنا

أخذت كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث تجادل وتناضل وتحقق وتدقق في زعمها وتجول على الاخرى وتصول بما ظفرت به مما يوافق ماذهبت اليه وكل حزب بما لديهم فرحون وعند الله تلتقي الخصوم ومع هذا فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم فكان غاية ماظفروا به من هذه الأعلمية بطريق الخلف ان تمنى محققوهم وأذكياؤهم في آخر أمرهم دين العجائز وقالوا هنيئا للعامة فتدبر هذه الأعلمية التي كان حاصلها أن يهنأ من ظفر لاهل الجهل البسيط ويتمنى أنه في عدادهم وممن تدين بدينهم ويمشي على طريقتهم فان هذا ينادي بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة على أن هذه الاعلمية التي طلبوها الجهل خير منها بكثير فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه ان الجهل خير منه ويتمنى عند البلوغ الى غايته والوصول الى نهايته ان يكون جاهلا به عاطلا عنه ففي هذا عبرة للمعتبرين وآية بينة للناظرين فهلا عملوا على جهل هذه المعارف التي دخلوا فيها بادئ بدء وسلموا من تبعاتها وأراحوا أنفسهم من تعبها وقالوا كما قال القائل

أرى الامر يفضي الى آخر * فصير آخره أولا

وربحوا الخلوص من هذا التمني والسلامة من هذه التهنئة للعامة فان العاقل لايتمنى رتبة مثل رتبته أو دونها ولا يهنئ لمن هو مثله أو دونه بل لايكون ذلك الالمن رتبته أرفع من رتبته ومكانه أعلى من مكانه فيالله العجب من علم يكون الجهل البسيط أعلى رتبة منه وأفضل مقدارا بالنسبة اليه وهل سمع السامعون بمثل هذه الغريبة أونقل الناقلون مايماثلها أو يشابهها واذا كان هذا حال هذه الطائفة التي قد عرفناك انها أخف الطوائف تكلفا وأقلها تبعة فما ظنك بما عداها من الطوائف التي قد ظهر فساد مقاصدها وتبين بطلان مواردها ومصادرها كالطوائف التي أرادت بالمظاهر التي تظاهرت به كياد الاسلام وأهله والسعي في التشكيك فيه بايراد الشبه وتقرير الامور المفضية الى القدح في الدين وتنفير أهله عنه وعند هذا تعلم ان خير الامور السالفات على الهدى وشر الامور المحدثات البدائع وان الحق الذي لاشك فيه ولا شبهة هو ما كان عليه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وقد كانوا رحمهم الله تعالى وأرشدنا الى الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم يمرون آيات الصفات على ظاهرها ولا يتكلفون علم مالايعلمون ولا يحرفون ولا يأولون وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم والمتقرر من مذاهبهم لايشك فيه شاك ولا ينكره منكر ولا يجادل فيه مجادل وان نزغ من بينهم نازغ أو نجم في عصرهم ناجم أوضحوا للناس أمره وبينوا لهم أنه على ضلالة وصرحوا بذلك في المجامع والمحافل وحذروا الناس من بدعته كما كان منهم لما ظهر معبد الجهني وأصحابه وقالوا ان الامر أنف فتبرؤا منه وبينوا ضلالته وبطلان مقالته للناس فحذروه الا من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة وهكذا كان من بعدهم يوضح للناس بطلان أقوال أهل الضلال ويحذرهم منها كما فعله التابعون رحمهم الله بالجعد بن درهم ومن قال بقوله وانتحل نحلته الباطلة ثم مازالوا هكذا لايستطيع المبتدع في الصفات ان يتظاهر ببدعته بل يتكتمون بها كما يتكتم الزنادقة بكفرهم وهكذا

محمد بن شعيب أنبأنا معاوية ابن سلام أن أخاه زيد بن سلام أخبره عن ابي سلام أنه أخبره قال أخبرني الحرث الاشعري عن رسول

سائر المبتدعين فى الدين على اختلاف البدع وتفاوت المقالات الباطلة ولكنا نقتصر ههنا على الكلام فى هذه المسئلة التى ورد السؤال عنها وهى مسئلة الصفات وما كان من المتكلمين فيها بغير الحق المتكلفين علم ما لم يأذن الله بان يعلموه وبيان ان امرار آيات الصفات على ظاهرها هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم وان كل من أراد من نزاع المتكلفين وشذاذ المحرفين والمتأولين أن يظهر ما يخالف المرور على ذلك الظاهر قاموا عليه وحذروا الناس منه وبينوا لهم أنه على خلاف ما عليه أهل الاسلام فصار المبتدعون فى الصفات القائلون بأقوال تخالف ما عليه السواد الاعظم من الصحابة والتابعين وتابعيهم فى خبايا وزوايا لا يتصل بهم الا مغرور ولا ينخدع بزخارف اقوالهم الا مخدوع وهم مع ذلك على تخوف من أهل الاسلام وترقب لنزول مكروه بهم من حماة الدين من العلماء الهادين والرؤساء والسلاطين حتى نجم ناجم المحنة وبرق بارق الشر من جهة الدولة ومن لهم فى الامر والنهى والاصدار والايراد أعظم صولة وذلك فى الدولة المأمونية بسبب قاضيها أحمد بن أبى دؤاد فعند ذلك اطلع المنكمسون فى تلك الزوايا رؤسهم وانطلق ما كان قد خرس من ألسنتهم وأعلنوا مذاهبهم الزائغة وبدعهم المضلة ودعوا الناس اليها وجادلوا عنها وناضلوا المخالفين لها حتى اختلط المعروف بالمنكر واشتبه على العامة الحق بالباطل والسنة بالبدعة ولما كان الله سبحانه قد تكفل باظهار دينه على الدين كله وحفظه عن التحريف والتغيير والتبديل أوجد من علماء الكتاب والسنة فى كل عصر من العصور من يبين للناس دينهم وينكر على أهل البدع بدعهم فكان لهم ولله الحمد المقامات المحمودة والمواقف المشهورة فى نصر الدين وهتك المبتدعين وبهذا الكلام القليل الذى ذكرناه تعرف أن مذهب السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم هو امرار أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف لشئ منها ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل يفضى اليه كثير من التأويل وكانوا اذا سأل سائل عن شئ من الصفات تلوا عليه الدليل وأمسكوا عن القال والقيل وقالوا قال الله هكذا ولا ندرى بما سوى ذلك ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ولا أذن الله لنا بمجاوزته فان أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول اليه الا بالوقوع فى بدعة من البدع التى هى غير ما هم عليه وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحفظه التابعون عن الصحابة وحفظه من بعد التابعين عن التابعين وكان فى هذه القرون الفاضلة الكلمة فى الصفات متحدة والطريقة لهم جميعا متفقة وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به وكلفهم القيام بفرائضه من الايمان بالله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والصيام والحج والجهاد وانفاق الاموال فى أنواع البر وطلب العلم النافع وارشاد الناس الى الخير على اختلاف أنواعه والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار والقيام بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر والأخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ اليه القدرة ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعلمه ولا تعبدهم بالوقوف على حقيقته فكان الدين اذ ذاك صافيا عن كدر البدع خالصا عن شوب قذر

الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا بدعوى الجاهلية فانه من جثى جهنم قال رجل يا رسول الله وان صام وصلى قال نعم وان صام وصلى

التمذهب فعلى هذا النمط كان الصحابة والتابعون وتابعوهم وبهدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اهتدوا وبافعاله وأقواله اقتدوا فمن قال انهم تلبسوا بشيء من هذه المذاهب الناشئة في الصفات أو غيرها فقد أعظم عليهم الفرية وليس بمقبول في ذلك فان أقوال الأئمة المطلعين على أحوالهم العارفين بها الآخذين لها عن الثقات الاثبات ترد عليه وعليهم وتدفع في وجهه يعلم ذلك كل من له علم ويعرفه كل عارف فاشدد يديك على هذا واعلم أنه مذهب خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ودع عنك ما حدث من تلك التمذهبات في الصفات وأرح نفسك من تلك العبارات التي جاء بها المتكلمون واصطلحوا عليها وجعلوها أصلا يرد اليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فان وافقاها فقد وافقا الاصول المقررة في زعمهم وان خالفاها فقد خالفا الاصول المقررة في زعمهم ويجعلون الموافق لها من قسم المقبول والمحكم والمخالف لها من قسم المردود والمتشابه ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى أو ألف حديث مما ثبت في الصحيح لم يبالوا به ولا رفعوا اليه رؤسهم ولا عدوه شيأ ومن كان منكرا لهذا فعليه بكتب هذه الطوائف المصنفة في علم الكلام فانه سيقف على الحقيقة ويسلم هذه الجملة ولا يتردد فيها ومن العجب العجيب والنبأ الغريب ان تلك العبارات الصادرة عن جماعة من أهل الكلام التي جعلها من بعدهم أصولا لا مستند لها الا مجرد الدعوى على العقل والفرية على الفطرة وكل فرد من افرادها تنازعت فيه عقولهم وتخالفت فيه ادراكاتهم فهذا يقول حكم العقل في هذا كذا وهذا يقول حكم العقل في هذا كذا ثم يأتي بعدهم من يجعل ذلك الذي يعقله من يقلده ويقتدي به أصلا يرجع اليه ومعيارا لكلام الله وكلام رسوله يقبل منهما ما وافقه ويرد ما خالفه فيالله ويا للمسلمين ويا للعلماء الدين من هذه الفواقر الموحشة التي لم يصب الاسلام وأهله بمثلها وأغرب من هذا وأعجب وأشنع وأفظع انهم بعد أن جعلوا هذه التعقلات التي تعقلوها على اختلافهم فيها وتناقضهم في معقولاتها أصولا ترد اليها أدلة الكتاب والسنة جعلوها أيضا معيارا لصفات الرب سبحانه فما تعقله هذا من صفات الله قال به جزما وما تعقله خصمه منها قطع به فأثبتوا لله تعالى الشيء ونقيضه استدلالا بما حكمت به في صفات الله عقولهم الفاسدة وتناقضت في شأنه ولم يلتفتوا الى ما وصف الله به نفسه او وصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بل ان وجدوا ذلك موافقا لما تعقلوه جعلوه مؤيدا له ومقويا وقالوا قد ورد دليل السمع مطابقا لدليل العقل وان وجدوه مخالفا لما تعقلوه جعلوه واردا على خلاف الاصل ومتشابها وغير معقول المعنى ولا ظاهر الدلالة ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم فافترى على عقله بانه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه وجعل ذلك أصلا يرد اليه أدلة الكتاب والسنة وجعل المتشابه عند أولئك محكما عنده والمخالف لدليل العقل عندهم موافقا له عنده فكان حاصل كلام هؤلاء انهم يعلمون من صفات الله ما لا يعلمه وكفى بهذا وليس بعده شيء وعنده يتعثر القلم حياء من الله عز وجل وربما استبعد هذا مستبعد واستنكره مستنكر وقال ان في كلامي هذا مبالغة وتهويلا وتشنيعا وتطويلا وان الامر أيسر من ان يكون حاصله هذا الحاصل الذي ذكرت

فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي

وغرته مثل هذه الثمرة التى أشرت اليها فأقول خذ جملة البلوى ودع تفصيلها واسمع
ما يصك سمعك ولولا هذا الالحاح منك ما سمعته ولا جرى القلم بمثله هذا أبو على وهو رأس
من رؤسهم وركن من أركانهم واسطوانة من أساطينهم قد حكى عنه الكبار منهم
وآخر من حكى ذلك عنه صاحب شرح القلائد يقول والله لا يعلم الله من نفسه الا ما يعلم
هو فخذ هذا التصريح حيث لم يكتف بذلك التلويح وانظر هذه الجرأة على الله التى
ليس بعدها جرأة فيا لله أبى على الويل أينهق بمثل هذا النهيق ويدخل نفسه فى هذا
المضيق وهل سمع السامعون بيمين أفجر من هذه اليمين الملعونة أو نقل الناقلون كلمة تقارب
معنى هذه الكلمة المفتونة أو بلغ مفتخر الى ما بلغ اليه هذا المختال الفخور أو وصل من
يفجر فى ايمانه الى ما يقارب هذا الفجور وكل عاقل يعلم ان أحدنا لو حلف ان ابنه أو أباه
لا يعلم من نفسه الا ما يعلمه هو لكان كاذبا فى يمينه فاجرا فيها لان كل فرد من أفراد الناس
ينطوى على صفات وغرائز لا يحب أن يطلع عليها غيره ويكره أن يقف على شئ منها سواه
ومن ذا الذى يدرى بما يجول فى خاطر غيره ويستكن فى ضميره ومن ادعى علم ذلك وانه
يعلم من غيره من بنى آدم ما يعلمه ذلك الغير من نفسه ولا يعلم ذلك الغير من نفسه الا ما يعلمه
هذا المدعى فهو اما مصاب العقل يهذى بما لا يدرى ويتكلم بما لا يفهم أو كاذب شديد
الكذب عظيم الافتراء فان هذا أمر لا يعلمه غير الله سبحانه فهو الذى يحول بين المرء وقلبه
ويعلم ما توسوس به نفسه وما يسر عباده وما يعلنون وما يظهرون وما يكتمون كما أخبرنا
بذلك فى كتابه العزيز فى غير موضع فقد خاب وخسر من أثبت لنفسه من العلم ما لا يعلمه
الا الله سبحانه من عباده فما ظنك بمن جاوز هذا وتعداه وأقسم بالله ان الله لا يعلم من نفسه
الا ما يعلمه هو ولا يصح لنا ان نحمله على اختلاف العقل فلو كان مجنونا لم يكن رأسا
يقتدى بقوله جماعات من أهل عصره ومن جاء بعده وينقلون كلامه فى الدفاتر ويحكون
عنه فى مقامات الاختلاف ولعل أتباع هذا ومن يقتدى بمذهبه لو قال لهم قائل أو أورد
عليهم مورد قول الله عز وجل ولا يحيطون به علما وقوله ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما
شاء وقال لهم هذا يرد ما قاله صاحبهم ويدل على أن يمينه هذه فاجرة مفتراة لقالوا هذا ونحوه
مما يدل دلالته ويفيد مفاده من المتشابه الوارد على خلاف دليل العقل المدفوع بالاصول
المقررة وبالجملة فاطالة ذيول الكلام فى مثل هذا المقام اضاعة للاوقات واشتغال
بحكاية الخرافات المبكيات لا المضحكات وليس مقصودنا ههنا الا ارشاد السائل الى أن
المذهب الحق فى الصفات هو امرارها على ظاهرها من دون تأويل ولا تحريف ولا تكلف
ولا تعسف ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل وان ذلك هو مذهب السلف الصالح الصحابة
والتابعين وتابعيهم فان قلت وماذا تريد بالتعطيل فى مثل هذه العبارات التى تكرر رها فان
أهل المذاهب الاسلامية يتنزهون عن ذلك ويتحاشون عنه ولا يصدق معناه ويوجد
مدلوله الا فى طائفة من طوائف الكفار وهم المنكرون للصانع قلت يا هذا ان كنت ممن
له المام بعلم الكلام الذى اصطلح عليه طوائف من أهل الاسلام فانه لا محالة قد رأيت
ما يقوله كثير منهم ويذكرونه فى مؤلفاتهم ويحكونه عن أكابرهم ان الله سبحانه وتعالى

خلقكم والذين من قبلكم لعلكم
تتقون من سورة البقرة ولهذا قال
ليكون الرسول شهيدا عليكم
وتكونوا شهداء على الناس أى

وتقدس لاهو جسم ولاجوهر ولاعرض ولاداخل العالم ولاخارجه فأنشدك الله أى عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة فى النفى وأى مبالغة فى الدلالة على هذا النفى تقوم مقام هذه المبالغة فكان هؤلاء فى فرارهم من شبهة التشبيه الى هذا التعطيل كما قال القائل

مكنت كالساعى الى مثعب * موائلا من سبل الراعد

أو كالمستجير من الرمضاء بالنار والهارب من لسعة الزنبور الى لدغة الحية ومن قرصة النملة الى قضمة الاسد وقد كان يغنى هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتكلفين كلمتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه وأنزلهما على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهما ولا يحيطون به علما وليس كمثله شئ فان هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب وتضمنتا مايغنى أولى الالباب السالكين فى تلك الشعاب والهضاب الصاعدين فى متوعرات هاتيك العقاب فالكلمة الاولى منهما دلت دلالة بينة على ان كل ماتكلم به البشر فى ذات الله وصفاته على وجه التدقيق ودعاوى التحقيق فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل مخلوط بمخلوط هى منافية للعلم مباينة له فان الله سبحانه قد أخبرنا انهم لايحيطون به علما فمن زعم ان ذاته كذا أو صفته كذا فلاشك ان صحة ذلك متوقفة على الاحاطة وقد نفيت عن كل فرد لان هذه القضية هى فى قوة لايحيط به فرد من الافراد علما فكل قول من أقوال المتكلفين صادر عن جهل اما من كل وجه أو من بعض الوجوه وما صدر عن جهل فهو مضاف الى جهل ولاسيما اذا كان فى ذات الله وصفاته فان ذلك من المخاطرة بالدين مالم يكن فى غيره من المسائل وهذا يعلمه كل ذى علم ويعرفه كل عارف ولم يحظ بفائدة هذه الآية ويقف عندها ويقتطف من ثمراتها الا الممرون للصفات على ظاهرها المريحون أنفسهم عن التكلفات والتعسفات والتأويلات والتحريفات وهم السلف الصالح كما عرفت فهم الذين اعترفوا بعدم الاحاطة وأوقفوا أنفسهم حيث أوقفها الله وقالوا الله أعلم بكيفية ذاته وماهية صفاته بل العلم كله له وقالوا كما قال من قال ممن اشتغل بطلب هذا المحال فلم يظفر بغير القيل والقال

العلم للرحمن جل جلاله * وسواه فى جهلاته يتغمغم

ماللتراب وللعلوم وانما * يسعى ليعلم انه لايعلم

بل اعترف كثير من هؤلاء المتكلفين بانه لم يستفد من تكلفه وعدم قنوعه بما قنع به السلف الصالح الا مجرد الحيرة التى وجد عليها غيره من المتكلفين فقال

وقد طفت فى تلك المعاهد كلها * وسرحت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر الا واضعا كف حائر * على ذقن أو قارعا سن نادم

وها أنا أخبرك عن نفسى وأوضح لك ماوقعت فيه فى أمسى فانى فى أيام الطلب وعنفوان الشباب شغلت بهذا العلم الذى سموه تارة علم الكلام وتارة علم التوحيد وتارة علم أصول الدين وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم ورمت الرجوع بفائدة والعود بعائدة فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة وكان ذلك من الاسباب التى حببت الى مذهب السلف على انى كنت من قبل ذلك عليه ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة وبه

شغفا

انا جعلنا كم هكذا أمة وسطا عدلا خيارا مشهودا بعدالتكم عند جميع الامم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس لان جميع الامم

شغفا وقلت عند النظر فى تلك المذاهب

وغاية ما حصلته من مباحثى * ومن نظرى من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حيرة * فما علم من لم يلق غير التحير
على أننى قد خضت منه غماره * وما قنعت نفسى بدون التبحر

وأما الكلمة الثانية وهى ليس كمثله شئ فبها يستفاد نفى المماثلة فى كل شئ فيدفع بهذه الآية فى وجه المجسمة ويعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع والبصير وعند ذكر السمع والبصر واليد والاستواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه القرآن والسنة فيتقرر بذلك الاثبات لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات فيندفع به جانبى الافراط والتفريط وهما المبالغة فى الاثبات المفضى الى التجسيم والمبالغة فى النفى المفضية الى التعطيل فيخرج من بين الجانبين وغلو الطرفين حقية مذهب السلف الصالح وهو قولهم باثبات ما أثبت لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه الا هو فانه القائل ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ومن جملة الصفات التى أمرها السلف على ظاهرها وأجروها على ما جاء به القرآن والسنة من دون تكلف ولا تأويل صفة الاستواء التى ذكرها السائل فانهم يقولون نحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها الا هو وفى كيفية لا يدرى بها سواه ولا نكلف أنفسنا غير هذا فليس كمثله شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا يحيط عباده به علما وهكذا يقولون فى مسئلة الجهة التى ذكرها السائل وأشار الى بعض ما فيه دليل عليها والادلة فى ذلك طويلة كثيرة فى الكتاب والسنة وقد جمع أهل العلم منها لا سيما أهل الحديث مباحث طولوها بذكر آيات قرآنية وأحاديث صحيحة وقد وقفت من ذلك على مؤلف بسيط فى مجلد جمعه مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبى استوفى فيه كل ما فيه دلالة على الجهة من كتاب أو سنة أو قول صاحب والمسئلة أوضح من أن تلتبس على عارف وأبين من أن يحتاج فيها الى التطويل ولكنها لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل الكائنة بين بعض الطوائف الاسلامية كثر الكلام فيها وفى مسئلة الاستواء وطال خصوصا بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب فلهم فى ذلك تلك الفتن الكبرى والملاحم العظمى وما زالوا هكذا فى عصر بعد عصر والحق هو ما عرفناك من مذهب السلف الصالح فالاستواء على العرش والكون فى تلك الجهة قد صرح به القرآن الكريم فى مواطن يكثر حصرها ويطول نشرها وكذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى غير حديث بل هذا مما يجده كل فرد من افراد المسلمين فى نفسه ويحسه فى فطرته وتجذبه اليه طبيعته كما تراه فى كل من استغاث بالله سبحانه والتجأ اليه ووجه أدعيته الى جنابه الرفيع وعزه المنيع فانه يشير عند ذلك بكفه أو يرمى الى السماء بطرفه ويستوى فى ذلك عند عروض أسباب الدعاء وحدوث بواعث الاستغاثة ووجود مقتضيات الانزعاج وظهور دواعى الالتجاء عالم الناس وجاهلهم والماشى على طريقة السلف والمقتدى باهل التأويل القائلين بان الاستواء هو الاستيلاء كما قاله جمهور المتأولين أو الاقبال كما قاله أحمد بن يحيى ثعلب والزجاج والفراء وغيرهم أو كناية عن الملك والسلطان كما قاله آخرون فالسلامة والنجاة فى امرار ذلك على الظاهر والاذعان بالاستواء والكون على ما نطق به الكتاب والسنة من

معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة فى أن

دون تكييف ولا تكلف ولا قيل ولا قال ولا فضول فى شئ من المقال فمن جاوز هذا المقدار بافراط أو تفريط فهو غير مقتد بالسلف ولا واقف فى طريق النجاة ولا معتصم عن الخطأ ولا سالك فى طريق السلامة والاستقامة وكما نقول هكذا فى الاستواء والكون فى تلك الجهة فكذا نقول فى مثل قوله سبحانه وهو معكم أينما كنتم وقوله ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم وفى نحو ان الله مع الصابرين ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون الى ما يشابه ذلك ويماثله ويقاربه ويضارعه فنقول فى مثل هذه الآيات هكذا جاء القرآن ان الله سبحانه مع هؤلاء ولا نتكلف بتأويل ذلك كما يتكلف غيرنا بان المراد بهذا الكون وهذه المعية هو كون العلم ومعيته فان هذه شعبة من شعب التأويل تخالف مذاهب السلف وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم

وإذا انتهيت الى السلا * مة فى مداك فلا تجاوز

وهذا الحق ليس به خفاء * فدعنى من بنيات الطريق

وقد هلك المتنطعون ولا يهلك على الله الا هالك وعلى نفسها براقش تجنى وفى هذه الجملة وان كانت قليلة ما يغنى من يشح بدينه ويحرص عليه عن تطويل المقال وتكثير ذيوله وتوسيع دائرة فروعه وأصوله والمهدى من هداه الله والله أعلم انتهى (الرحمن) خبر مبتدأ محذوف أى هو الرحمن أو بدل من الضمير فى استوى وقرئ بالجر على انه نعت للحى أو للموصول وقيل أو مبتدأ وخبره (فاسأل به خبيرا) على رأى الاخفش والضمير المجرور يعود الى ما ذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش والمعنى فاسأل بتفاصيل ما ذكر اجمالا من هذه الامور عليما وقال الزجاج والاخفش الباء بمعنى عن أى فاسأل عنه كقوله سأل سائل بعذاب واقع والمراد بالخبير الله سبحانه لانه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات الا هو وقيل جبريل عليه السلام والاول أولى وما قيل ان التقدير ان شككت فيه فاسأل به خبيرا على ان الخطاب له صلى الله عليه وآله وسلم والمراد غيره فهو بمعزل من السداد وقيل فاسأل به من وجده فى الكتب المتقدمة ليصدقك فيه وقيل الضمير للرحمن أى ان أنكروا اطلاقه عليه سبحانه فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه فى كتبهم وانتصاب خبيرا على المفعولية أو على الحال المؤكدة واستضعف الحالية أبو البقاء وقال ابن جرير المعنى فاسأله حال كونه خبيرا وعلى هذا الباء فى به زائدة وقيل قوله به يجرى مجرى القسم كقوله واتقوا الله الذى تساءلون به والوجه الاول أقرب هذه الوجوه ثم أخبر سبحانه عنهم بانهم جهلوا معنى الرحمن فقال (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) قال المفسرون انهم قالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة قال الزجاج الرحمن اسم من أسماء الله فلما سمعوه أنكروا فقالوا وما الرحمن (أنسجد) الاستفهام للانكار أى لا نسجد (لما تأمرنا) أى للرحمن الذى تأمرنا بالسجود له ومن قرأ بالتحتية فالمعنى أنسجد لما يأمرنا محمد بالسجود له قيل هذه السجدة من عزائم السجود فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند سماعها وقراءتها (وزادهم) الامر بالسجود (نفورا) عن الدين وبعدا عنه وقيل زادهم ذكر الرحمن تباعدا من الايمان كذا قال مقاتل والاول أولى ثم ذكر سبحانه ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن فقال

الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول شهد على هذه الامة أنه بلغها ذلك وقد تقدم الكلام على هذا

(تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) المراد بها بروج النجوم السبعة السيارة أى منازلهم ومحالها الاثنا عشر التى تسير فيها وقال الحسن وقتادة ومجاهد هى النجوم الكبار سميت بروجا لظهورها والاول أولى وأصل البروج القصور العالية لانها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها واشتقاق البروج من التبرج وهو الظهور وقال الزجاج ان البرج كل مرتفع فلا حاجة الى التشبيه أو النقل قال ابن عباس فى الآية هى هذه الاثنا عشر برجا أولها الحمل ويسمى بالكبش ثم الثور ثم الجوزاء ثم السرطان ثم الاسد ويسمى بالليث ثم السنبلة ثم الميزان ثم العقرب ثم القوس ثم الجدى ثم الدلو ويسمى بالدالى ثم الحوت وقد نظمها بعضهم فى قوله

حمل الثور جوزة السرطان * ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدى * نزح الدلو بركة الحيتان

وهى منازل الكواكب السيارة السبعة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الأسد والمشترى وله القوس والحوت وزحل وله الجدى والدلو قاله المحلى وقد نظم بعضهم هذه السبعة بقوله

زحل شرى مريخه من شمسه * فتزاهرت لعطارد الاقمار

فزحل نجم فى السماء السابعة والمشترى نجم فى السماء السادسة والمريخ نجم فى السماء الخامسة والشمس فى الرابعة والزهرة فى الثالثة وعطارد فى الثانية والقمر فى الاولى والحاصل ان خمسة من الكواكب السبعة أخذت عشرة بروج كل واحد أخذ اثنين وان اثنين من السبعة وهما الشمس والقمر كل واحد منهما أخذوا حدا من البروج المذكورة (وجعل فيها سراجا) أى شمسا ومثله قوله وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا بالجمع أى النجوم العظام الوقادة ورجح الاولى أبو عبيد وقال الزجاج فى تأويل الثانية أراد الشمس والكواكب (وقمرا منيرا) أى ينير الارض اذا طلع وقرئ قمرا بضم القاف واسكان الميم وهى قراءة ضعيفة شاذة وخص القمر بالذكر لنوع فضيلة عند العرب لانها تبنى السنة على الشهور القمرية (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) قال أبو عبيد الخلفة كل شئ بعد شئ الليل خلفة للنهار والنهار خلفة لليل لان أحدهما يخلف الآخر ويأتى بعده ومنه خلفة النبات وهو ورق يخرج بعد الورق الاول فى الصيف قال الفراء يقول يذهب هذا ويجئ هذا وقال مجاهد وابن عباس خلفة من الخلاف هذا أبيض وهذا أسود والاول أقوى وقيل يتعاقبان فى الضياء والظلام والزيادة والنقصان وقيل هو من باب حذف المضاف أى جعل الليل والنهار ذوى خلفة أى اختلاف قال ابن عباس وعمر والحسن يقول من فاته شئ من الخير بالليل أن يعمله أدركه بالنهار ومن فاته بالنهار أدركه بالليل وعن الحسن ان عمر أطال صلاة الضحى فقيل له صنعت اليوم شيأ لم تكن تصنعه فقال انه بقى على من وردى شئ فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه وتلا هذه الآية (لمن أراد أن يذكر) مشددا من التذكر لله وقرئ مخففا من الذكر له والمعنى أن المتذكر

عند قوله وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا

المعتبر اذا نظر في اختلاف الليل والنهار علم انه لا بد في انتقالهما من حال الى حال من ناقل وقيل المعنى يتذكر فيعلم ان الله لم يجعلهما كذلك عبثا فيعتبر في مصنوعات الله ويشكره سبحانه على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم قال الفراء يذكر ويتذكر يأتيان بمعنى واحد قال الله تعالى واذكروا ما فيه وفي حرف عبد الله ويذكروا ما فيه (أو أراد شكورا) أي أراد أن يشكر الله على ما أودعه في الليل والنهار من النعم العظيمة والالطاف الكثيرة وأو للتقسيم والتنويع وهي مانعة خلو تجوز الجمع (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) هذا كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف صالحي عباد الله سبحانه وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال المنافقين قيل هذه الاضافة للتخصيص والتشريف والتفضيل والا فالخلق كلهم عباد الله وهونا مصدر وهو السكينة والتواضع والوقار وقد ذهب جماعة من المفسرين الى ان هونا متعلق بيمشون أي مشيا هونا قال ابن عطية ويشبه أن يتأول هذا على ان يكون أخلاق ذلك الماشي هونا مناسبة لمشيه وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل لانه رب ماش هونا رويدا وهو ذئب أطلس وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صبب قال ابن عباس في الآية هم المؤمنون الذين يمشون على الأرض هونا أي بالطاعة والعفاف والتواضع وقال أيضا هونا أي علما وحلما والمعنى يمشون بالسكينة والوقار متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين بل علماء حكماء أصحاب وقار وعفة ولهذا كره بعض العلماء الركوب في الأسواق ولقوله ويمشي في الأسواق (واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ذكر سبحانه انهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه فلا يجهلون مع من يجهل ولا يسافهون أهل السفه قال النحاس ليس هذا السلام من التسليم انما هو من التسلم تقول العرب سلاما أي تسلما منك أي براءة منك يعني قالوا سلاما وهذا على قول سيبويه أو مفعول به أي قالوا هذا اللفظ ورجحه ابن عطية وقال مجاهد معنى سلاما سدادا أي يقولون للجاهل كلاما يدفعه به برفق ولين قال سيبويه لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على معنى قوله تسلما منكم ومتاركة لا خير ولا شر بيننا وبينكم قال المبرد كان ينبغي ان يقال لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ثم أمروا بحربهم وقال محمد بن يزيد المبرد أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة قال النحاس ولا نعلم لسيبويه كلاما في معنى الناسخ والمنسوخ الا في هذه الآية لانه قال في آخر كلامه فنسختها آية السيف وأقول هكذا يكون كلام الرجل اذا تكلم في غير علمه ومشى في غير طريقته ولم يؤمر المسلمون بالسلام على المشركين ولا نهوا عنه بل أمروا بالصفح والهجر الجميل فلا حاجة الى دعوى النسخ وفي الخطيب عن أبي العالية نسختها آية القتال ولا حاجة الى ادعاء النسخ بها ولا بغيرها لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في الأدب والمروءة والشريعة وأسلم للعرض والورع وقال ابن العربي لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك بل أمروا بالصفح والهجر الجميل وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم ولا يداهنهم قال النضر بن شميل حدثني

وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن اعادته وقوله فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة أي قابلوا هذه النعمة

الخليل قال أتيت أبا ربيعة الاعرابي وكان من أعلم من رأيت فاذا هو على سطح فسلمنا فرد علينا السلام وقال لنا استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال فقال لنا اعرابي الى جنبه أمركم أن ترتفعوا قال الخليل هو من قول الله ثم استوى الى السماء فصعدنا اليه فقال هل لكم في خبز فطير ولبن هجير فقلنا الساعة فارقناه فقال سلاما فلم ندر ما قال فقال الاعرابي انه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شر قال الخليل هو من قول الله عز وجل واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما قال الحسن هذا وصف نهارهم ثم وصف ليلهم بقوله (والذين يبيتون لربهم سجدا) على وجوههم (وقياما) على أقدامهم بيان لحالهم في معاملة الخالق بعد بيان حالهم في معاملة الخلق وتخصيص البيتوتة لان العبادة بالليل أحمض وأبعد عن الرياء وتأخير القيام للفاصلة والبيتوتة هي أن يدركك الليل نمت أم لم تنم قال الزجاج من أدركه الليل فقد بات نام أو لم ينم كما يقال بات فلان قلقا قال النسفي والظاهر أنه وصفهم باحياء الليل أو أكثره (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما) أي لزوما كليا في حق الكفار ولزوما بعده اطلاق الى الجنة في حق عصاة المؤمنين أي هم مع طاعتهم وحسن معاملتهم لخالقهم وخلقه لا يأمنون مكر الله بل هم مشفقون وجلون خائفون من عذابه والغرام الشر اللازم الدائم قاله ابن زيد كما ورد مرفوعا اليه صلى الله عليه وآله وسلم ومنه سمي الغريم لملازمته ويقال فلان مغرم بكذا أي ملازم له مولع به هذا معناه في كلام العرب كما ذكره ابن الاعرابي وابن عرفة وغيرهما وقال الزجاج الغرام أشد العذاب وقال أبو عبيدة هو الهلاك الدائم (انها ساءت) تعليل لما قبلها أي بئست جهنم أو أحزنت أصحابها وداخليها (مستقرا ومقاما) المراد بهما جهنم فلذلك جاز تأنيث فعله قيل هما مترادفان وانما عطف احدهما على الآخر لاختلاف لفظهما وقيل بل هما مختلفان معنى فالمستقر للعصاة فانهم يخرجون والمقام للكفار فانهم يخلدون والمخصوص بالذم محذوف أي هي ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم ثم وصفهم سبحانه بالتوسط في الانفاق فقال (والذين اذا أنفقوا) على عيالهم (لم يسرفوا ولم يقتروا) بفتح التحتية وضم الفوقية من قتر يقتر كقعد يقعد وقرئ بفتح التحتية وكسر التاء وهي لغة معروفة حسنة وقرئ بضم التحتية وكسر الفوقية قال أبو عبيدة يقال قتر الرجل على عياله يقتر ويقتر قترا وأقتر يقتر اقتارا ومعنى الجميع التضييق في الانفاق قال النحاس من أحسن ما قيل في معنى الآية ان من أنفق في غير طاعة الله فهو الاسراف ومن أمسك عن طاعة الله فهو الاقتار ومن أنفق في طاعة الله فهو القوام وقال ابراهيم النخعي هو الذي لا يجيع ولا يعري ولا ينفق نفقة تقول الناس قد أسرف وقال يزيد بن حبيب أولئك أصحاب محمد كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة الله ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويقيهم الحر والبرد وقال أبو عبيدة لم يزيدوا على المعروف ولم يبخلوا كقوله ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط قال ابن عباس هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله قال عمر بن الخطاب كفى سرفا

العظمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم ومن أهم

أن لا يشتري شيأ الا اشتراه وأكله وقيل الاسراف مجاوزة الحد في الانفاق حتى يدخل في حد التبذير والاقتار التقصير عما لا بد منه (وكان بين ذلك قواما) بفتح القاف وقرئ بكسرها فقيل هما بمعنى وقيل القوام بالكسر ما يدوم عليه الشيء ويستقر وبالفتح العدل والاستقامة قاله ثعلب وقيل بالفتح العدل بين الشيئين وبالكسر ما يقام به الشيء لا يفضل عنه ولا ينقص وقيل بالكسر السداد والمبلغ واسم كان مقدر فيها وخبرها قواما قاله الفراء أي كان انفاقهم قصدا وسطا بين الاسراف والاقتار وحسنة بين السيئتين وروى عن الفراء قول آخر وهو أن اسم كان بين ذلك وتبنى بين على الفتح لانها من الظروف المفتوحة وقال النحاس ما أدري ما وجه هذا الان بينا اذا كانت في موضع رفع رفعت (والذين لا يدعون مع الله الها آخر) لما فرغ من ذكر اتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي والمعنى لا يدعون معه ربا من الارباب ولا يشركون به شيأ بل يوحدونه ويخلصون له العبادة والدعوة وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي الذنب أكبر قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال ان تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني بحليلة جارك فانزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الآية وأخرج الشيخان وغيرهما أيضا عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك قد قتلوا فاكثروا وزنوا فاكثروا ثم أتوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا ان الذي تقول وتدعوا اليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة فنزلت والذي لا يدعون الآية ونزلت قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم الآية (ولا يقتلون النفس التي حرم الله) قتلها بسبب من الاسباب (الا بالحق) أي بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها أي بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد ايمان أو زنا بعد احصان أو قتل نفس بغير نفس (ولا يزنون) أي لا يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح ولا ملك يمين (ومن يفعل ذلك) أي شيأ مما ذكر (يلق أثاما) هو في كلام العرب العقاب قال الفراء آثمه الله يؤثمه اثاما وآثاما أي جازاه جزاء الاثم فهو مأثوم أي مجزى جزاء الاثم وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد ان أثاما واد في جهنم جعله الله عقابا للكفرة وقال السدي جبل فيها وقرئ يلق بضم الياء وتشديد القاف قال أبو مسلم الآثام والاثم واحد والمراد هنا جزاء الآثام فاطلق اسم الشيء على جزائه وقرأ الحسن اياما جمع يوم يعني شدائد والعرب تعبر عن ذلك بالايام وما أظن هذه القراءة تصح عنه (يضاعف) وقرئ يضعف بالتشديد وكل من القراءتين يجيء مع جزم الفعل ورفعه فالقراآت أربع وكلها سبعية وقرئ نضعف بضم النون وكسر العين المشددة والجزم (له العذاب يوم القيامة) سبب المضاعفة ان المشرك اذا ارتكب المعاصي مع الشرك يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته (ويخلد) وقرئ بالفوقية خطابا للكافر وقرئ يخلد بضم الياء وفتح اللام قال أبو علي الفارسي وهي غلط من جهة الرواية وضمير (فيه) راجع الى العذاب المضاعف وقرئ فيهي بالاشباع مبالغة في الوعيد والعرب تمد للمبالغة مع أن الاصل في هاء الكناية الاشباع (مهانا) ذليلا حقيرا جامعا للعذاب الجسماني والروحاني قال ابن عباس قرأناها على عهد رسول الله صلى الله

ذلك اقام الصلاة وايتاء الزكاة وهو الاحسان الى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من اخراج جزء

عليه وآله وسلم سنتين ثم نزلت (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرح بشئ قط فرحه بها وفرحه بانا فتحنا لك فتحا مبينا قيل والاستثناء متصل من الضمير المستتر في يلق أي الا من تاب فلا يلق أثاما بل يزاد له في الاكرام بتبديل سيآته حسنات وقيل منقطع قال أبو حيان لايظهر الاتصال لان المستثنى منه محكوم عليه بانه يضاعف له العذاب فيصير التقدير الا من تاب وآمن وعمل صالحا فلا يضاعف له العذاب ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب الغير المضعف قال والأولى عندي أن يكون منقطعا أي لكن من تاب قال القرطبي لاخلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر والزاني واختلفوا في القاتل من المسلمين وقد تقدم بيانه في المائدة والاشارة بقوله (فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات) الى المذكورين سابقا ومعنى تبديلها حسنات أنه يمحوعنهم سوابق المعاصي بالتوبة ويثبت لهم مكانها لواحق الطاعات قال النحاس من أحسن ماقيل في ذلك أنه يكتب موضع كافر مؤمن وموضع عاص مطيع قال الحسن قوم يقولون هذا التبديل في الآخرة وليس كذلك انما التبديل في الدنيا يبدل الله لهم ايمانا مكان الشرك واخلاصا مكان الشك واحصانا مكان الفجور وقتل المشرك مكان المؤمن قال الزجاج ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ولكن يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة وقيل ان السيئات تبدل الحسنات وبه قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم وقيل تبدل ملكة المعصية ودواعيها في النفس بملكة الطاعة بان يزيل الاولى ويأتي بالثانية مكانها وقيل التبديل عبارة عن الغفران أي يغفر الله لهم تلك السيئات لا انه يبدلها حسنات قلت ولا يبعد في كرم الله تعالى اذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن وقال ابن عباس أبدلهم الله بالكفر الاسلام وبالمعصية الطاعة وبالانكار المعرفة وبالجهالة العلم وعنه قال هم المؤمنون كانوا من قبل ايمانهم على السيآت فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم الى الحسنات فابدلهم مكان السيئات الحسنات واخرج أحمد وهناد والترمذي وابن جرير والبيهقي عن ابي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه فيعرض عليه صغارها وينحى عنه كبارها فيقال عملت كذا وكذا وهو يقر ليس ينكر وهو مشفق من الكبائر أن تجئ فيقال اعطوه بكل سيئة عملها حسنة والاحاديث في تكفير السيآت وتبديلها بالحسنات كثيرة (وكان الله غفورا رحيما) مقررة لما قبلها من التبديل وتكفير السيآت بالحسنات أي لم يزل متصفا بذلك (ومن تاب) عن المعاصي بتركها والندم عليها (وعمل صالحا) يتلافى به مافرط (فانه يتوب) يرجع (الى الله متابا) رجوعا صحيحا مرضيا قويا عند الله ماحيا للعقاب محصلا للثواب أو متابا الى الله الذي يحب التائبين ويحسن اليهم أو فانه يرجع الى الله والى ثوابه مرجعا حسنا وهذا تعميم بعد تخصيص قال القفال يحتمل أن تكون الآية الاولى فيمن تاب من المشركين ولهذا قال الا من تاب وآمن ثم عطف عليه ومن تاب من المسلمين

نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة التوبة

وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا وقيل أي من تاب بلسانه ولم يحقق التوبة بفعله فليست تلك التوبة نافعة بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب الى الله متابا أي تاب حق التوبة وهي النصوح ولذلك أكد بالمصدر ومعنى الآية من أراد التوبة وعزم عليها فليتب الى الله فالخبر في معنى الامر كذا قيل لئلا يتحد الشرط والجزاء فانه لا يقال من تاب فانه يتوب وقيل المعنى من تاب من الشرك وأدى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزن فانه يعود الى الله بعد الموت حسنا يفضل على غيره ممن قتل وزنا فالتوبة الاولى رجوع عن الشرك والثانية رجوع الى الله للجزاء والمكافأة والاول أولى ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات فقال (والذين لا يشهدون الزور) أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة أو لا يحضرون الزور وهو الكذب والباطل ولا يشاهدونه والى الثاني ذهب جمهور المفسرين قال الزجاج الزور في اللغة الكذب ولا كذب فوق الشرك بالله قال الواحدي أكثر المفسرين على ان الزور ههنا بمعنى الشرك والحاصل ان يشهدون ان كان من الشهادة ففي الكلام مضاف محذوف أي لا يشهدون شهادة الزور وان كان من الشهود والحضور كما ذهب اليه الجمهور فقد اختلفوا في معناه فقال قتادة لا يساعدون اهل الباطل على باطلهم وقال محمد بن الحنفية لا يحضرون اللهو والغناء وقال ابن جريج الكذب وعن مجاهد أيضا وقيل ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يقربونها تنزها عن مخالطة الشر وأهله وقيل أعياد المشركين وقيل النوح والاولى عدم التخصيص بنوع دون نوع من أنواع الزور بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائنا ما كان وعن ابن عباس قال ان الزور كان صنما بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام (واذا مروا باللغو) على سبيل الاتفاق من غير قصد (مروا كراما) أي معرضين عنه غير ملتفتين اليه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به قال ابن عباس كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا مروا به يعني الصنم المذكور مروا كراما لا ينظرون اليه كقوله واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقال الباقر اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وقيل الشتم والأذى واللغو كل ساقط من قول أو فعل قال الحسن اللغو المعاصي كلها وقيل المراد مروا بذوي اللغو يقال فلان يكرم عما يشينه أي يتنزه ويكرم نفسه عن الدخول في اللغو والاختلاط باهله (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم) أي بالقرآن أو بما فيه من موعظة وعبرة (لم يخروا) أي لم يسقطوا ولم يقعوا (عليها) حال كونهم (صما وعميانا) ولكنهم أكبوا عليها سامعين مبصرين بآذان واعية وعيون راعية وانتفعوا بها قال ابن قتيبة المعنى لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يبصروها قال ابن جرير ليس ثم خرور بل كما يقال قعد يبكي وان كان غير قاعد قال ابن عطية كأن المستمع للذكر قائم فاذا أعرض عنه كان ذلك خرورا وهو السقوط على غير نظام قيل المعنى اذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخروا سجدا او بكيا ولم يخروا عليها صما وعميانا قال الفراء اي لم يقعدوا على حالهم

وقوله واعتصموا بالله أي اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به هو مولاكم أي حافظكم

الاول كأن لم يسمعوا قال في الكشاف ليس بنفي للغرور وانما هو اثبات له ونفي للصمم والعمى وأراد أن النفي متوجه الى القيد لا الى المقيد (والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا) من ابتدائية أو بيانية قاله الزمخشري (وذرياتنا) قرئ بالجمع وبالافراد وهما سبعيتان والذرية تقع على الجمع كما في قوله ذرية ضعافا وتقع على الفرد كما في قوله ذرية طيبة (قرة اعين) يقال قرت عينه قرة قال الزجاج يقال أقر الله عينك أي صادف فؤادك ما تحبه وقال المفضل في قرة العين ثلاثة أقوال أحدها برد دمعها لانه دليل السرور والضحك كما ان حره دليل الحزن والغم والثاني نومها لانه يكون مع فراغ الخاطر وذهاب الحزن والثالث حصول الرضا قال ابن عباس يعنون من يعمل بالطاعة فتقر به أعيننا في الدنيا والآخرة فانه ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل فيطمع ان يحلوا معه في الجنة فيتم سروره وتقر عينه بذلك (واجعلنا للمتقين اماما) أي قدوة يقتدى بنا في الخير واقامة مراسم الدين بافاضة العلم والتوفيق للعمل الصالح وانما قال اماما ولم يقل أئمة لانه أريد به الجنس كقوله ثم يخرجكم طفلا قال الفراء قال اماما ولم يقل أئمة كما قال للاثنين انا رسول رب العالمين يعني أنه من الواحد الذي أريد به الجمع وقال الاخفش الامام جمع آم من أم يؤم جمع على فعال نحو صاحب وصحاب وقائم وقيام وقيل ان اماما مصدر يقال أم فلان فلانا اماما مثل الصيام والقيام وقيل ارادوا اجعل كل واحد منا اماما وقيل ارادوا اجعلنا اماما واحدا لاتحاد كلمتنا واتفاق طريقتنا وقيل انه من الكلام المقلوب وان المعنى واجعل المتقين لنا اماما وبه قال مجاهد وقيل ان هذا الدعاء صادر عنهم بطريق الانفراد وان عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلني للمتقين اماما ولكنها حكيت عبارات القوم بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الايجاز كقوله يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وفي هذا ابقاء اماما على حاله قال القفال وعندي ان الامام اذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل اجعلنا حجة للمتقين ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان قال الحفناوي ولفظ امام يستوي فيه الجمع وغيره فالمطابقة حاصلة قال النيسابوري قيل في الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تطلب ويرغب فيها والاقرب انهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار اليهم و يقتدى بهم وقال ابن عباس في الآية أئمة هدى يهتدى بنا ولا تجعلنا أئمة ضلالة لانه قال لاهل السعادة وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ولاهل الشقاوة و جعلناهم أئمة يدعون الى النار (أولئك) اشارة الى المتصفين بتلك الصفات المفصلة في حيز الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم بها وفيه دليل على انهم متميزون بذلك أكمل تميز ومنتظمون في سلك الامور المشاهدة وهو مبتدأ وخبره ما بعده والجملة مستأنفة وقيل غير ذلك (يجزون الغرفة) أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما ان الغرفة أعلى مساكن الدنيا وهي في الاصل كل بناء مرتفع والجمع غرف وقال الضحاك الغرفة الجنة أي يجزون الجنة ووحد الغرفة لدلالتها على الجنس دليله قوله وهم في الغرفات آمنون وعن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الغرفة من ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء ودرة بيضاء

وناصركم ومظفركم على اعدائكم فنعم الولي ونعم النصير يعني نعم الولي ونعم الناصر من الاعداء قال وهيب بن الورد يقول الله تعالى

ليس فيها فصم ولا وصم أخرجه الحكيم الترمذي (بما صبروا) أي بسبب صبرهم على مشاق التكليفات والطاعات ورفض الاهواء والشهوات وتحمل المجاهدات (ويلقون فيها تحية وسلاما) بضم الياء مشددا واختاره أبو عبيد أي يعطون اقوله ولقاهم نضرة وسرورا وقرئ يلقون بفتح الياء مخففا واختاره الفراء ومعناه يجدون ويصادفون قال لان العرب تقول فلان يلقى بالسلام والتحية والخير وقلما يقولون يلقى والمعنى انه يحيي بعضهم بعضا ويرسل اليهم الرب سبحانه بالسلام وقيل التحية البقاء الدائم والملك العظيم وقيل هي بمعنى السلام وقيل ان الملائكة تحييهم وتسلم عليهم والظاهر أن هذه التحية والسلام هي من الله سبحانه لهم ومن ذلك قوله سبحانه تحيتهم يوم يلقونه سلام وقيل معنى التحية الدعاء لهم بطول الحياة والتعمير ومعنى السلام الدعاء لهم بالسلامة من الآفات وقيل المراد بالتحية اكرام الله تعالى لهم بالهدايا والتحف وبالسلام سلامه عليهم بالقول (خالدين) أي مقيمين (فيها) من غير موت ولا خروج (حسنت) الغرفة (مستقرا) اى موضع قرار يستقرون فيه (ومقاما) يقيمون فيه وهذا في مقابل ما تقدم من قوله ساءت مستقرا ومقاما (قل ما يعبؤ بكم ربي) بين سبحانه انه غني عن طاعة الكل وانما كلفهم لينتفعوا بالتكليف يقال ما عبأت بفلان أي ما باليت به ولا له عندي قدر وأصل يعبأ من العبء وهو الثقل قال الخليل ما أعبأ بفلان أي ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره ويدعي أن وجوده وعدمه سواء وكذا قال أبو عبيدة قال الزجاج ما يعبأ بكم ربي يريد أي وزن يكون لكم عنده أو ما يصنع بكم أو يعذابكم والعبء الثقل وما استفهامية أو نافية وصرح الفراء بأنها استفهامية قال ابن الشجري وحقيقة القول عندي أن موضع ما نصب والتقدير أي عبء يعبأ بكم أي أي مبالاة يبالي بكم وأي اعتداد يعتد بكم (لولا دعاؤكم) أي لولا دعاؤه اياكم لتعبدوه وعلى هذا فالمصدر الذي هو الدعاء مضاف الى مفعوله وهو اختيار الفراء وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف تقديره لولا دعاؤكم لم يعبأ بكم ويؤيد هذا قوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون والخطاب لجميع الناس وعن ابن عباس في الآية قال يقول لولا ايمانكم فاخبر الله سبحانه انه لا حاجة له بهم اذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كانت له بهم حاجة لحبب اليهم الايمان كما حببه الى المؤمنين وقيل ان المصدر مضاف الى الفاعل أي لولا استغاثتكم اليه في الشدائد وقيل المعنى ما يعبأ بكم أي بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الآلهة معه وممن قال ان الدعاء مضاف الى الفاعل القتيبي والفارسي قالا والاصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه وجواب لولا محذوف أي لولا دعاؤكم لم يعذبكم قال أبو السعود أمر رسوله بان يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون انما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلا يعني انما كثرت بأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم لاجل عبادتهم وحدها لا لمعنى آخر ولولا عبادتهم لم يكترث بهم البتة ولم يعتد بهم ولم يكونوا عنده شيأ يبالي به قاله الزمخشري ثم خص الكفار منهم فقال (فقد كذبتم) وقرأ ابن الزبير فقد كذب الكافرون وبه قرأ ابن عباس وابن مسعود كما حكاه ابن جني وفي هذه القراءة دليل بين على أن الخطاب لجميع الناس ويكون معنى فقد

ابن آدم اذكرني اذا غضبت أذكرك اذا غضبت فلا أمحقك فيمن أمحق [illegible] اصبر وارض بنصرتي فان نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك رواه ابن أبي حاتم والله أعلم

كذبتم على الاول(١) فقد كذبتم مادعيتم اليه وعلى الوجه الثانى فقد كذبتم بالتوحيد ثم قال سبحانه (فسوف يكون لزاما) أى يكون جزاء التكذيب لازما لكم وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا ما لزم المشركين يوم بدر روبه قال ابن مسعود وقالت طائفة هو عذاب الآخرة قال أبو عبيد لزاما فيصلا بينكم وبين المؤمنين وقال الزجاج يكون تكذيبكم لزاما يلزمكم فلا تعطون التوبة وجمهور القراء على كسرة اللام من لزاما قال ابن جرير لزاما عذابا دائما وهلاكا مفنيا يلحق بعضكم ببعض اوقرأ أبو السماك لزاما بفتح اللام قال أبو جعفر يكون مصدر لزم والكسر أولى قال ابن عباس لزاما موتا وقتلا وبالاوفى الصحيحين عنه قال خمس قد مضين أى خمس علامات دالات على قيام الساعة الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام

()

(آخر تفسير سورة الحج ولله الحمد والمنة)

(١) المراد بالوجه الاول ان يكون الخطاب عاما والمراد بالثانى أن يكون الخطاب للكفار اه منه

ولما اطلع على هذا التفسير الجليل وحظى من غنيمة انسه بالحظ الجزيل الامام العلامة والواحد التكلامة راس المفسرين ونبراس المحدثين ورئيس الموحدين المتبعين مولانا الشيخ محمد بن عبد الله بن حميد مفتى السادة الحنابلة فى الحرم الشريف المكى أعلى الله تعالى مقامه وأنجح فى الدارين مرامه انبعثت خواطره لمدحه فكتب مقرظا له ما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أحمد من أطلع من شاء من خواص أحبابه على لطائف كلامه وأسرار كتابه ورفع عنهم الحجاب فادهشهم لذيذ الخطاب فهم فى رياضه يرتعون ولبديع معانيه يسمعون وله يعون وأصلى وأسلم على الرحمة المرسلة والبركة الشاملة المنزلة من جعل الله السعادة الدنيوية والاخروية فى اتباعه والحق لا يخرج عنه وعن اصحابه وأتباعه وعلى آله واصحابه وانصاره وأحزابه (وبعد) فان أرفع العلوم قدرا وأعلاها جلالة وفخرا وأعظمها نورا فى الدجنة وأكرمها هاديا الى الجنة وأعمها احصانا من الفتنة وابركها شافيا من المحنة فهم كتاب الله العظيم على ما فهمه رسوله النبى الكريم وأصحابه ذوو القدر الفخيم عليه وعليهم افضل الصلاة وأكمل التسليم وكان ممن وفق لذلك منذ كان صبيا بجد فيه واجتهد الى أن ارتقى مكانا عليا الامام الكامل والهمام العالم العامل زينة العلماء والملوك وملاذ الغنى والفقير الصعلوك ناصر السنة السنية وقامع البدعة الدنية سلالة السلسلة النبوية وطراز العصابة المصطفوية وفرع الدوحة العلوية (نواب والاجاه أمير الملك سيد محمد صديق حسن خان بهادر) فمنحه الله سبحانه من الذهن السليم والفهم المستقيم والذكاء الذى يضئ فى الليل البهيم والضبط والتحرير والبحث

والتقرير والتحقيق والتدقيق والتسديد والتوفيق ومسامرة العلوم فليس غيرها له برفيق في شدة الاتباع للسنة النبوية ومزيد المثابرة على الآثار المصطفوية مع الحفظ الباهر والخلق الطاهر والأدب الزاهر وكمال الباطن والظاهر والارتواء من نمير جميع العلوم والتضلع من المنطوق والمفهوم والاحتواء على زبد المعقول والمنقول والأخذ بأزمة الفروع والاصول مالم نره مجموعا في شخص في زماننا بل منذ أزمان فسبحان من أوجده مفردا في هذا الأوان

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

* لكل زمان واحد يقتدى به * وهذا زمان أنت لاشك واحده

هذا مع ما جمع الله له من الديانة والامانة والعفة والنزاهة والصيانة والاعراض عن زخارف الدنيا مع اقبالها عليه واحتقاره اياها مع ترامها على قدميه والاشتغال بنشر العلوم مع الملك واهتمامه بنفع الأمة المحمدية في البر والفلك

فلا هو في شغل الرعايا مقصر * ولا هو للاخرى بلا العلم يقنع

فابدع في هذا التفسير الجليل الذي لم يوجد ولا اظن يوجد له مثيل وسمه بفتح البيان في مقاصد القرآن وانتهى فيه لباب التأويل وكشف فيه عن اسرار التنزيل واعتمد الآثار الواردة وترك ضعاف الاقاويل فلقد أوجده الله سبحانه خادما للكتاب في هذا الجيل ولسنة نبيه المخصوص بالتبجيل فهو أحق بان يسمى مجددا الألف الثاني لما حواه من حفظ الآثار النبوية بالالفاظ والمعاني وما منحه الله من فهم الكتاب العزيز والسبع المثاني فهذا التفسير أعدل شاهد صادق ومن لم يسلم فهو مكابر مشاقق فان هذا المؤلف من نعم الله سبحانه على هذه الامة المحمدية في هذا الزمن الذي اندرست فيه السنة النبوية ودثرت فيه الآثار المصطفوية فلا ترى فيه الارسوما على الجهل والابتداع مبناها وتلبيسات بالباطل والزيغ لفظها ومعناها وخرسا عن انكار المنكر والامر بالمعروف وعوائد بخلاف الشريعة فعلها اليهم مألوف فالله يديم عز هذا الهمام ويعلي مجده وينشر في الخافقين ارشاده ونفعه وهدايته وسعده ويدير على ألسنة العالم عربا وعجما شكره وحمده والحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وآله وصحبه ومن تبع عهده

كتبه ببنانه وأنشاه بجنانه الفقير الحقير القاصر المتعدي محمد بن

عبد الله ابن حميد خادم الافتاء الحنبلي في الحرم الشريف

عجلا عجلا وجلا مرتجلا خامس عشر ذي

الحجة الحرام ختام العام الحادي

والتسعين بعد المائتين

والالف أحسن

الله ختامها

آمين